

تحفة غير مسبوقه من التشويق
النفسي الرومانسي

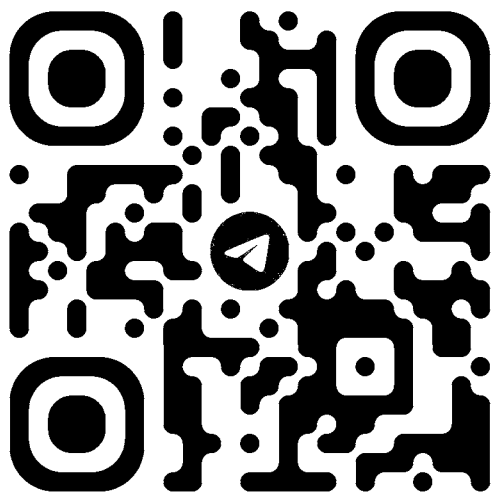
باعت
أكثر من
٣ ملايين
نسخة

الكاتبة الأكثر مبيعًا
دافني دو موريه

سا
مكتبة
بيديكا

رواية
ترجمة: إيناس التركي





سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

ريديكا



الكرمة

alkarmabooks.com

facebook.com/alkarmabooks

X.com/alkarmabooks

instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٥

© دار الكرمة ٢٠٢٥

العنوان الأصلي: Rebecca

Copyright © 1938 by The Estate of Daphne du Maurier

حقوق الخاتمة © سالي بومان ٢٠٠٣

الحقوق الفكرية للمؤلفة محفوظة

حقوق الترجمة © إيناس التركي

مكتبة

t.me/soramnqraa

دو موريه، دافني.

ريبكا: رواية / دافني دو موريه؛ ترجمتها عن الإنجليزية إيناس التركي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٥.

٥٧٦ ص؛ ٢٢ سم.

تدمك: 9789779603179

١- القصص الإنجليزية.

أ- التركي، إيناس (مترجمة).

ب- العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٩٩٧٤ / ٢٠٢٤

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣١

تصميم الغلاف: أحمد فرج

دافني دو مورييه

ريديكا
رواية

مكتبة

t.me/soramnqraa

ترجمتها عن الإنجليزية

إيناس التركي



الكرامة

مكتبة

t.me/soramnqraa

١

حلمتُ الليلة الماضية أنني ذهبت إلى ماندري مرة أخرى. بدا لي أنني وقفتُ بجانب البوابة الحديدية المؤدية إلى الممر، ولم أستطع الدخول فترة من الوقت، لأن الطريق كان مغلقاً أمامي، إذ كان هناك قفل وسلسلة على البوابة. ناديت الحارس في الحلم، ولم يأتني جواب. نظرت من كُتب عبر أعمدة البوابة الصدئة، فرأيت أن كوخ الحارس غير مأهول.

لم يتصاعد أي دخان من المدخنة، وبقيت النوافذ الصغيرة ذات القضبان المتقاطعة فاعرة فاها على نحو بائس. بعد ذلك، كما هي حال جميع الحالمين، امتلكتُ فجأة قوى خارقة للطبيعة، ومررت كالشبح من خلال الحاجز الكائن أمامي. تعرَّج الممر أمامي، وهو ينحني ويدور كما كان دائماً، لكن عندما تقدمت في الطريق، أدركت أن هناك تغييراً طرأ عليه: بدا ضيقاً ومهملاً، ولم يكن هو الممر الذي عرفناه. شعرتُ بالحيرة في بادئ الأمر، ولم أفهم، ولم أدرك ما حدث إلا عندما حنيت رأسي لتفادي فرع شجرة يتأرجح على مستوى منخفض. استعادت الطبيعة سيطرتها مرة أخرى، وشيئاً فشيئاً، بطرقها الخفية الخبيثة، توغلت إلى الممر بأصابع طويلة متشبثة. في النهاية، انتصرت الغابة، التي كانت دائماً تشكّل تهديداً حتى في الماضي. تراحمت حتى حدود الممر، وهي مظلمة وخارجة عن السيطرة. تقاربت أشجار الزان البيضاء عارية الأطراف بعضها من بعض، وتداخلت أغصانها في عناق غريب، فشكّلت فوق رأسي قنطرة تشبه ممر الكنيسة. كما كانت هناك أشجار أخرى أيضاً، لم أتعرف عليها: أشجار

بلوط قصيرة وسميكة، وأشجار دردار مُعذبة، انتشرت مع أشجار الزان جنبًا إلى جنب، دفعت نفسها من باطن الأرض الهادئ، بالإضافة إلى شجيرات ونباتات متوحشة، لم أذكر أيًا منها.

صار الممر الآن مثل الشريط، أضيق كثيرًا مما كان عليه في السابق، وقد اختفى الحصى الذي كان يغطيه واختنق بالحشائش والطحالب. ألفت الأشجار أفرعها على مستوى منخفض، مما شكّل عائقًا أمام السير، وبدت جذورها المليئة بالعقد كأصابع هياكل عظمية. وسط هذه الغابة التي توحّشت، تناثرت هنا وهناك شجيرات تعرّفت عليها بوصفها معالم وقت وجودنا، تتسم بالرقى والجمال: شجيرات القرطاسية التي اشتهرت برؤوسها الزرقاء. لم تمتد يد لتعوق تقدّمها، فاستوطنت المكان الآن، وطال ارتفاعها إلى حدٍّ وحشي من دون أي زهور، وباتت سوداء وقبيحة مثل الطفيليات التي بلا اسم النامية بجانبها.

استمر امتداد ذلك الخيط المسكين الذي كان ممرنا الخاص ذات يوم، منعطفًا شرقًا تارة وغربًا تارة أخرى. ظننته اختفى في بعض الأحيان، لكنه كان يعاود الظهور، ربما تحت شجرة سقطت، أو يعاني على الجانب الآخر خندقًا موحلاً أحدثته أمطار الشتاء. لم أعتقد أن الطريق طويل إلى هذا الحد. من المؤكد أن الأميال تضاعفت، كما فعلت الأشجار، وأن هذا الطريق لا يؤدي إلا إلى متاهة، أو برية خانقة، ولا يؤدي إلى المنزل على الإطلاق. وصلت إليه فجأة، وقد حجب مرآه النمو غير الطبيعي لشجيرة انتشرت على نحو واسع في كل الاتجاهات، ووقفتُ وقلبي يخفق في صدري، ووخز الدموع الغريب في عيني.

ها هو ذا ماندرلي، منزلنا، كتوم وصامت كما كان دائمًا. التمعت الأحجار الرمادية تحت ضوء القمر في حلمي، وانعكست المروج الخضراء والشفرة على النوافذ المقسّمة. لم يتمكن الزمن من تدمير التناسق المثالي لتلك الجدران، ولا الموقع نفسه، الشبيه بجوهرة في راحة اليد.

انحدرت الشرفة نحو المروج، وامتدت المروج إلى البحر، وعندما استدرتُ استطعت رؤية تلك الصفحة الفضية الهادئة تحت القمر، مثل بحيرة لم تزعجها

الريح أو العواصف. لن تأتي أي أمواج لتكدر مياه الحلم هذه، ولن تأتي أي كتل سحب تحركها الريح من جهة الغرب، لتحجب صفاء هذه السماء الشاحبة. التفتُ إلى المنزل مرة أخرى، وعلى الرغم من أنه وقف صامداً لم يُمس، كأننا لم نرحل إلا بالأمس، فقد رأيت أن الحديقة أطاعت قانون الغاب، مثلما فعلت الغابة. طالت شجيرات الرودودندرون حتى بلغ ارتفاعها خمسين قدماً، والتوت وتشابكت مع السراخس، وقد دخلت في تزاوج غريب مع مجموعة من الشجيرات المجهولة الفاسدة الرديئة، التي تشبَّت بجذورها كأنها تدرك أصلها الزائف. تزوجت شجيرة ليالك مع شجرة زان نحاسية، وكي تزيد ارتباطهما بدرجة أوثق، ألقت شجرة اللبلاب الحقود، التي لطالما كانت عدواً للجمال، ألقت بمحاليقها حولهما وحوَّلتها إلى سجينتين. احتل اللبلاب مركز الصدارة في هذه الحديقة المفقودة، وتسَلَّتْ خيوطه الطويلة عبر المروج، وسرعان ما ستعدى على المنزل نفسه. كان هناك نبات آخر أيضاً، هجين ما من الغابة، انتشرت بذوره منذ فترة طويلة تحت الأشجار وراحت طي النسيان، وها هو ذا الآن يسير في انسجام مع اللبلاب، يدفع بشكله القبيح مثل عشبة راوند عملاقة نحو العشب الناعم حيث كانت تتمايل زهور النرجس.

انتشر نبات القراص في كل مكان، كأنه طليعة الجيش. خنق الشرفة، وانتشر في الممرات، واتكأ على نوافذ المنزل بهيئته الناحلة القبيحة. بدا كحرس غير مبالٍ، إذ اخترقت صفوفه في كثير من الأماكن النبتة الشبيهة بالراوند، ومالت برؤوس ذابلة وسيقان واهنة، مفسحة الطريق للأرانب. تركتُ الممر وتوجهت إلى الشرفة، حيث لم يمثل القراص عائقاً أمامي بوصفي حالمة. مشيت مسحورة، ولم يعقني شيء.

يمكن لضوء القمر أن يمارس حياءً غريبة على الخيال، حتى على خيال الحالم. بينما كنت أقف هناك، صامته وساكنة، كدت أقسم إن المنزل لم يكن مجرد هيكل خاوٍ، لكنه كان حياً ويتنفس، مثلما كان عامراً بالحياة من قبل.

انبعث الضوء من النوافذ، وطارت الستائر برقة في نسيم الليل، وهناك في

المكتبة، سيكون الباب مواربًا كما تركناه، ومنديلي على الطاولة بجانب الوعاء الذي يحوي ورد الخريف.

ستشهد الغرفة على وجودنا: كومة صغيرة من كتب المكتبة التي وُضعت عليها علامة للإشارة إلى أنها جاهزة لإعادتها، ونسخة مهملة من صحيفة «التايمز»، ومنافض سجائر بها أعقاب سجائر، ووسائد عليها آثار رؤوسنا ملقاة على المقاعد، والجمر المتفحم من نيراننا، لا يزال يحترق حتى الصباح. وجاسبر، العزيز جاسبر، بعينه الحنونين وفكه الكبير المترهل، سيكون ممددًا، وذيله يضرب الأرض عندما يسمع حُطى سيده.

تسللت سحابة غير ظاهرة من قبل على القمر، وحلّقت لحظة مثل كفّ داكنة أمام وجهه. زال معها الوهم، وانطفأت الأنوار في النوافذ. تأملت هيكلًا مهجورًا، بلا روح أخيرًا، غير مسكون، ولا همس من الماضي يتردد بين جنبات جدرانها المحدقة.

كان المنزل قبرًا، وخوفنا ومعاناتنا مدفونان تحت الانقراض، ولن تكون هناك قيامة. عندما أفكر في ماندرلي خلال ساعات صحوي، لن أشعر بالمرارة. عليّ أن أفكر فيه كما كان من الممكن أن يصير، لو أنني تمكنت من الحياة هناك من دون خوف. عليّ أن أتذكر حديقة الورد في الصيف، والطيور التي كانت تغني عند الفجر، والشاي تحت شجرة الكستناء، وغمغمة البحر تأتي إلينا من المروج بالأسفل. سأفكر في الليلك المتمايل، وفي الوادي السعيد. كانت هذه الأشياء دائمة، ولا يمكن أن تزول. كانت ذكريات غير مؤذية. عقدتُ العزم على كل هذا في حلمي، بينما تمددت الغيوم على وجه القمر، لأنني مثل معظم النائمين كنت أعرف أنني أحلم. في الواقع، كنت مستلقية على بُعد مئات الأميال في أرض غريبة، وسأستيقظ قبل مرور ثوانٍ عديدة، في غرفة النوم الصغيرة العارية بالفندق، التي تبعث على الشعور بالارتياح بسبب افتقارها إلى أي طابع مميز. سأنتهد لحظة وأتمطى، ثم ألتفت وأفتح عيني، وتغمرنني الحيرة من تلك الشمس المتلاثلة، وتلك السماء الصافية الرائقة، التي

تختلف تمامًا عن ضوء القمر الناعم في حلمي. سيمتد اليوم أمام كلينا، طويلاً بلا شك، وخالياً من الأحداث، لكن يحفُّه هدوء معين وسكون عزيز لم نعرفه من قبل. لن نتحدث عن ماندري، ولن أقص حلمي. حيث إن ماندري لم يعد ملكنا. لم يعد لماندري وجود.

لا يمكننا العودة مرة أخرى، هذا مؤكد. لا يزال الماضي قريباً منا بدرجة كبيرة. كما أن الأشياء التي حاولنا أن ننساها ونضعها خلفنا، ستتحرك مرة أخرى، وذلك الشعور بالخوف والاضطراب الخفي، والصراع المطول مع الذعر الأعمى غير المنطقي - الذي سكن الآن، حمداً للرب - قد يعود بطريقة غير متوقعة ليصير رفيقاً حياً كما كان من قبل.

إنه صبور على نحو رائع ولا يتدمر أبداً، ولا حتى عندما يتذكر... وهو ما يحدث، على ما أعتقد، في كثير من الأحيان، بدرجة أكبر مما يريدني أن أعرف. أستطيع معرفة ذلك من خلال الطريقة التي يبدو عليه بها الضياع والحيرة فجأة، ويختفي أي تعبير على وجهه العزيز، كما لو مسحته يد خفية، ويتشكل مكانه قناع منحوت رسمي وبارد، جميل المنظر، لكنه هامد. يلجأ إلى تدخين سيجارة تلو سيجارة، ولا يكلف نفسه عناء إطفائها، وتبقى الأعقاب المتوهجة على الأرض مثل البتلات. يشرع في الحديث بسرعة وحماس عن أي شيء على الإطلاق، ويتشبث بأي موضوع باعتباره الدواء الشافي للألم. أعتقد أن هناك نظرية مفادها أن الرجال والنساء يصيرون أفضل وأقوى بعد المعاناة، وأنه لإحراز التقدم في هذا العالم أو في أي عالم آخر، يجب أن نتحمل محنة النار. وقد فعلنا هذا بكل المقاييس، على الرغم مما يبدو من سخرية المفارقة. كلانا عرف الخوف، والوحدة، والكرب العظيم. أعتقد أن لحظة الاختبار تأتي سواء عاجلاً أم آجلاً في حياة الجميع. لكل منا شيطانه

الخاص الذي يركبه ويعذبه، وعلينا خوض المعركة في النهاية. وقد انتصرنا في معركتنا، أو هكذا نظن.

لم يَعدُ الشيطان يركبنا. لقد خرجنا من أزمتنا، لكن ليس من دون أن يمسننا أذى بالطبع. كان محققاً منذ البداية في هواجسه التي تنذر بوقوع كارثة، ومثل ممثلة تتشدد في مسرحية فاترة، يمكنني القول إننا دفعنا ثمن حريتنا.

لكنني عانيتُ الميلودراما بما يكفي في هذه الحياة، وسأتخلى عن حواسي الخمس عن طيب خاطر، إذا كان ذلك سيضمن لنا سلامنا وأمننا الحاليين. إن السعادة ليست شيئاً مادياً يمتلكه المرء ويقدره، بل هي طبيعة تفكير، وحالة ذهنية. نمرُّ بالتأكيد بلحظات من الاكتئاب، لكن هناك لحظات أخرى أيضاً، عندما يمتد الوقت غير المقيس بالساعة إلى الأبدية، وألمح ابتسامته، وأنا أعلم أننا معاً، نسير في انسجام تام، ولا يوجد تصادم في الفكر أو الرأي يشكل حاجزاً بيننا.

لم نَعدُ لدينا أسرار نخفيها عن بعضنا الآن، وكل شيء صار مشتركاً. من المسلّم به أن فندقنا الصغير ممل، والطعام ليس بالجيد ولا بالرديء، وأن اليوم تلو اليوم يسير على المنوال نفسه، لكننا لم نكن لنرضى بشيء خلاف ذلك. إذ إننا سنلتقي كثيراً من الأشخاص الذين يعرفهم في أيّ من الفنادق الكبرى. كلانا يقدرُ البساطة، ويشعر بالملل أحياناً، حسناً، لكن الملل ترياق لطيف للخوف. نعيش بدرجة كبيرة وفقاً لروتين محدد، أما عني أنا، فقد نَمِيت مهارة القراءة بصوت مرتفع. المرة الوحيدة التي رأيته يُظهر فيها نفاد الصبر هي حينما يتأخر رجل البريد، فهذا يعني أنه يجب علينا الانتظار يوماً آخر قبل وصول بريتنا الإنجليزي. جرّبنا البرقيات، لكن ضجيجها مزعج للغاية، ونفضّل ادخار حماسنا: إن نتيجة مباراة كريكيّت لُعبت منذ أيام عدة تعني الكثير بالنسبة إلينا.

أوه، لقد أنقذتنا مباريات الكريكيّت من الملل، وكذلك مباريات الملاكمة، وحتى نتائج البلياردو. ونهائيات المباريات الرياضية لتلاميذ المدارس، وسباقات الكلاب، والمسابقات الصغيرة الغريبة في المقاطعات النائية، كلها تشكّل المادة الخام التي تغذي طاحونة جوعنا. أحياناً تقع في طريقي نسخ قديمة من مجلة

«فيلد»، فانتقل من هذه الجزيرة المملة إلى واقع الربيع الإنجليزي. أقرأ عن جداول المياه التي لها مجارٍ من الحجر الكلسي، وعن ذباب مايو، وعن الحماض الذي ينمو في المروج الخضراء، وعن الغربان التي تدور فوق الغابة كما كانت تفعل في ماندري. تأتيني رائحة الأرض الرطبة من تلك الصفحات البالية المهترئة، والرائحة النافذة الحامضة لُحْث المستنقعات، وملمس الطحالب الرطبة التي تناثرت عليها بقع بيضاء في بعض المناطق بفعل فضلات مالك الحزين.

كان هناك مقال ذات مرة عن حمام الغابات، وعندما قرأته بصوت عالٍ بدا لي أنني صرت في الغابة العميقة في ماندري مرة أخرى، والحمام يرفرف فوق رأسي. سمعت نداءه الناعم المطمئن، المنعش والمثير للارتياح بدرجة كبيرة في ظهيرة صيف حار، ولا شيء يزعج سلامه حتى يأتي جاسبر قافزاً بين الشجيرات كي يعثر عليّ، وأنفه الرطب يفتش في الأرض. مثل سيدات مسنّات ضُبطن في أثناء الاستحمام، كان الحمام يرفرف طائرًا من مخبئه، في حالة تهيج سخيف بسبب الفزع، مصدرًا ضجيجًا هائلًا بأجنحته، ثم يطير مبتعدًا عنا فوق قمم الأشجار، بعيدًا عن السمع والأنظار. عقب رحيله، يحل صمت جديد على المكان، فيلفني شعور بعدم الارتياح لسبب غير معلوم، وأدرك أن الشمس لم تعد ترسم أشكالاً على أوراق الشجر التي تصدر حفيفًا، وأن الأغصان ازدادت قتامة والظلال تطاولت، وأدرك أنه سيكون هناك توت طازج في وجبة ما بعد الظهيرة في المنزل. أنهض عن مضجعي وسط السراخس، ثم أهز من تنورتي الغبار المتطاير المتخلف عن أوراق العام الماضي، وأطلق صفيراً لجاسبر كي ينطلق إلى المنزل، وأشعر بالاحتقار لنفسي في أثناء سيرتي بسبب خطواتي المهرولة والنظرة الخاطفة الوحيدة التي ألقيتها خلفي.

كم هو غريب أن يتمكن مقال عن حمام الغابات من استدعاء الماضي إلى هذا الحد، ويدفعني إلى التلعثم وأنا أقرأ بصوت مرتفع. كان مظهر وجهه الشاحب هو ما جعلني أتوقف فجأة، وأقلب الصفحات حتى وجدت فقرة عن لعبة الكريكييت، عملية للغاية ومملة: فريق ميدلسكس يلعب في ملعب أوفال على أرض صلبة،

ويراكم نقاطًا مملّة بلا نهاية. كم باركت أولئك الرجال بهيئاتهم القوية المكتسبة بقماش الفلانيل، إذ استقرت ملامحه مجددًا في غضون بضغ دقات، وعادت الدماء إلى وجهه، وأخذ يسخر من فريق مقاطعة سري للعبة البولنج بسخط صحي. نجونا من العودة إلى الماضي، وتعلمت الدرس. يمكنني قراءة الأخبار الإنجليزية، نعم، والرياضة الإنجليزية، والسياسة، وأخبار المجتمع، لكن مستقبلًا سأحتفظ لنفسني فقط بالأشياء المؤلمة. يمكن أن يصبح هذا مصدر متعتي السرية: اللون والرائحة والصوت، والمطر وخريف الماء، وحتى ضباب الخريف، ورائحة الموج عند المد، كل هذه ذكريات ماندلري ولن أُحرم منها. بعض الناس لديهم عادة سيئة تدفعهم إلى قراءة جداول مواعيد القطارات، والتخطيط لرحلات لا حصر لها عبر البلاد، للاستمتاع بانتقالات مستحيلة بين القطارات. أما هوأتي فهي أقل إثارة للملل، وإن كانت على القدر نفسه من الغرابة. أنا منجم للمعلومات عن الريف الإنجليزي. أعرف اسم كل مالك لكل مستنقع بريطاني، أجل، ومستأجره أيضًا. وأعرف كم دجاجة برية يتم صيدها، وكم طائر حجل، وكم غزالًا. كما أعرف أين يتكاثر سمك التراوت، وأين يتوالب السلمون. أحضر كل الاجتماعات، وأتابع كل السباقات، وحتى أسماء أولئك الذين يصطحبون جراء كلاب الصيد للتمشية مألوفة بالنسبة إليّ. حالة المحاصيل، وأسعار الماشية السمينية، والأمراض الغامضة للخنازير، أستمتع بها جميعًا. ربما كانت تسلية سيئة، وليست فكرية بدرجة كبيرة، لكنني أتنفس هواء إنجلترا في أثناء قراءتي، ويمكنني مواجهة هذه السماء المشرقة بشجاعة أكبر.

تصير الكروم الهزيلة والأحجار المتهدمة أشياء لا قيمة لها، لأنني أستطيع إطلاق العنان لخيالي إذا أردت، وقطف زهور القمعية والكامبيون من وسط سياج ملطخ بالمطر. هذه نزوات خيال بائس، رقيق وحنون، وهي عدو المرارة والندم، وتلطّف هذا المنفى الذي فرضناه على أنفسنا.

بسببها يمكنني الاستمتاع بفترة ما بعد الظهر، والعودة مبتسمة ومتعشة، لمواجهة طقوسنا الصغيرة لوجبة ما بعد الظهر. لا يتغير ما نطلبه أبدًا: شريحتان

من الخبز والزبدة لكلّ منا، وشاي صيني. لا بد أننا نبذو زوجين محافظين، نتشبث بالتقاليد لأننا اعتدنا هذا في إنجلترا. هنا، في هذه الشرفة النظيفة البيضاء المحايدة التي نعمت بقرون بأكملها من الشمس، أفكر في الساعة الرابعة والنصف في ماندري، وقد سحبنا الطاولة أمام المدفأة في المكتبة. يفتح الباب في موعده تمامًا بالدقيقة، ولا يتغير الأداء نفسه على الإطلاق في أثناء ترتيب الشاي والصينية الفضية وإبريق الشاي ومفرش الطاولة ذي البياض الثلجي. في تلك الأثناء، يتظاهر جاسبر بعدم الاكتراث لوصول الكعك، وأذناه متدلّيتان مثل فصيلته من كلاب السبانيل. كانت تلك الوليمة تُمدّ أماننا دائماً، ومع ذلك كنا نأكل أقل القليل. تلك الفطائر التي يقطر منها الدهن، يمكنني رؤيتها الآن، ومثلثات صغيرة مقرمشة من الخبز المحمص، وكعكات صغيرة ساخنة من الدقيق، وشطائر مجهولة ذات نكهة غامضة ولذيذة للغاية، وكعك الزنجبيل المميز جداً، وكعكة ملاك تذوب في الفم، وكعك آخر أكثر دسماً مليء بالزبيب وقشر البرتقال المسكر. كان هناك ما يكفي من الطعام ليشبع عائلة تتضور جوعاً لمدة أسبوع. لم أعرف قطّ مصير كل ذلك الطعام، وكان ذلك التبذير يصيبني بالقلق أحياناً.

لكنني لم أجروّ قطّ على سؤال السيدة دانفرز عما تفعله حيال ذلك الأمر. كانت ستنظر إليّ بازدراء، وتبتسم ابتسامتها الباردة المتغطرسة تلك، ويمكنني تخيلها وهي تقول: «لم تكن هناك أي شكوى عندما كانت السيدة دي وينتر على قيد الحياة». السيدة دانفرز. أتساءل ماذا تفعل الآن، هي وفافيل. أعتقد أن التعبير المرتسم على وجهها هو الذي منحني أول شعور بالقلق. فكرتُ بصورة غريزية: «إنها تقارنني برييكا»، وأتى خيالها بيننا حاداً كالسيف...

حسناً، لقد انتهى الأمر الآن، وانقضى. لم أعد مُعذّبة، وصار كلانا حرّاً. حتى كلبني الوفي جاسبر مات، ولم يعد لماندري وجود. بات يرقد كهيكل خاوٍ وسط الغابة العميقة المتشابكة، كما رأيته في حلمي. انتشرت فيه حشائش كثيرة، ومجموعات من الطيور. في بعض الأحيان، قد يتجول متشرّداً هناك، باحثاً عن ملجأ من هطول الأمطار المفاجئ، وإذا كان شجاع القلب، فقد يسير هناك وهو

يأمن العقاب. أما الشخص العجان أو الصياد المتوتر، فليست غابات ماندرلي مكانًا مناسبًا له. ربما يعثر على الكوخ الصغير عند الخليج، ولن يسعد تحت سقفه المتداعي، وخيط رفيع من المطر يرسم مسارًا هناك. وربما بقي هناك جو ما من التوتر... وتلك الزاوية عند الممر أيضًا، حيث تتعدى الأشجار حدود الحصى، ليست مكانًا مناسبًا للتوقف، ليس بعد غروب الشمس. عندما يعلو حفيف أوراق الشجر، فإنه يشبه إلى حد كبير الحركة المختلطة لامرأة ترتدي ملابس السهرة، وعندما ترتجف الأوراق فجأة، وتسقط، وتنتشر بعيدًا على الأرض، تبدو كأنها وقع خطي امرأة متعجلة، والعلامات الظاهرة في الحصى هي أثر حذاء من الساتان له كعب مرتفع.

عندما أذكر هذه الأشياء، أعود بارتياح إلى المنظر الذي تطل عليه شرفتنا. لا توجد ظلال تتسلل على هذا الوهج القاسي، وتلتصع كروم العنب بأسوارها الحجرية تحت الشمس، وتبدو أشجار الجهنمية بيضاء من أثر الغبار. ربما أطلع هذا المنظر بمحبة يومًا ما، لكن حتى إن لم يكن يلهمني بالحب في الوقت الحالي، لكنه يلهمني بالثقة على الأقل. وهذه الثقة هي ميزة أقدرها، على الرغم من أنني اكتسبتها في وقت متأخر، بعد فوات الأوان. أعتقد أن اعتماده عليّ هو ما جعلني أتجرأ أخيرًا. على أي حال، فقدت خجلي وترددي وارتباكي أمام الغرباء. أنا مختلفة تمامًا عن تلك الشخصية التي ذهبت بالسيارة إلى ماندرلي للمرة الأولى، وهي متفائلة ومتحمسة، ويعوقها الارتباك إلى حدٍّ بائس، وتملؤها رغبة شديدة في الإرضاء. كان افتقاري إلى الاتزان بالطبع هو ما ترك انطباعًا سيئًا لدى أشخاص مثل السيدة دانفرز. كيف بدوت، بعد ربيكا؟ أستطيع أن أرى نفسي الآن، وذاكرتي تمتد عبر السنين مثل الجسر، بشعرٍ أملس قصير، ووجه شاب خالٍ من مساحيق التجميل، أرتدي معطفًا مقاسه غير ملائم، وتنورة وسترة من إبداعي، أسير في أعقاب السيدة فان هوبر مثل مهر خجول مضطرب. كانت تسبقني لتناول الغداء، وجسدها القصير غير المتوازن يترنح فوق الكعب العالي، وبلوزتها المزركشة المكشكشة تماشى مع صدرها الضخم ووركها المتمايلتين، وقبعتها الجديدة

التي غرست بها ريشة ضخمة مائلة فوق رأسها، كاشفة عن مساحة عريضة من جبهتها، عارية مثل ركة تلميذ مدرسي. كانت تحمل في إحدى يديها حقيبة ضخمة، من ذلك النوع الذي يحمل جوازات السفر ومفكرات المواعيد ونتائج مباريات البريدج، بينما يدها الأخرى تعبث بمنظار الأوبرا ذاك الذي لا مفر منه، الذي كان بمنزلة عدو لخصوصية الآخرين.

كانت تتوجه إلى طاولتها المعتادة في زاوية المطعم، بالقرب من النافذة، وترفع منظارها إلى عينيها الصغيرتين كعيني خنزير لاستطلاع المشهد عن يمينها ويسارها، ثم تدع المنظار يسقط في النهاية معلقاً بشريطه الأسود، وتقول باشمئزاز: «لا توجد شخصية واحدة معروفة. سأخبر الإدارة بأنه يجب عليهم تخفيض فاتورتي. لماذا يعتقدون أنني آتي إلى هنا؟ للنظر إلى الفتيان العاملين كخدم؟». ثم كانت تستدعي النادل إلى جانبها، وصوتها حاد ومتقطع، يشق الهواء مثل المنشار.

كم يختلف المطعم الصغير الذي نحن فيه اليوم عن غرفة الطعام الشاسعة، المزخرفة والفاخرة، في فندق كوت دازور في مونت كارلو. وكم يختلف رفيقي الحالي، ويداه الثابتتان حسنتا المظهر تقشران ثمرة يوسفى بطريقة هادئة متناسقة، وهو يرفع عينيه بين الحين والحين ليوجه إليّ ابتسامة، مقارنة بالسيدة فان هوبر، وأصابعها السمينية المرصعة بالجواهر تسعى وراء طبق مكوم عاليًا بالرافيوولي، وعيناها تترددان بشك من طبقها إلى طبقي، خوفًا من أن أكون قد انتقيت خيارًا أفضل. لم تكن في حاجة إلى أن تزعج نفسها، لأن النادل، بسرعة البديهة الخارقة التي يتصف بها من على شاكلته، خمّن منذ فترة طويلة أنني في مكانة أدنى، وخاضعة لها، وقد وضع أمامي طبقًا من لحم الخنزير واللسان أعاده أحدهم إلى بوفيه اللحوم الباردة قبل نصف ساعة لأنه مقطع بشكل سيئ. غريب أمر هذا الاستياء من الخدم، ونفاد صبرهم الواضح. أتذكر أنني مكثت ذات مرة مع السيدة فان هوبر في منزل ريفي، ولم ترد الخادمة قط على الجرس الذي كنت أدقه بخجل، ولم تحضر حدائي، وكانت تلقي شاي الصباح خارج باب غرفة نومي،

باردًا تمامًا. كانت هذه هي الحال نفسها في كوت دازور، وإن كانت بدرجة أقل، وأحيانًا كانت اللامبالاة المتعمدة تتحول إلى رفع الكلفة والابتسام والوقاحة، مما جعل شراء الطوابع من موظف الاستقبال محنة أحاول تجنبها. من المؤكد أنني بدوت شابة عديمة الخبرة، وقد شعرت بذلك أيضًا. كنت حساسة بدرجة فائقة، وساذجة للغاية، وبدا أن هناك أشواكًا ووخزًا في كثير من الكلمات، التي كان وقعها في الحقيقة خفيفًا.

أذكر جيدًا ذلك الطبق من لحم الخنزير واللسان. كان جافًا وغير شهبي، وقُطع طرف من جانبه، لكن لم تواتني الشجاعة لرفضه. تناولنا الطعام في صمت، لأن السيدة فان هوبر كانت تحب التركيز على الطعام، وعرفت من الطريقة التي سالت بها الصلصة على ذقتها أن طبق الرافولي أعجبها.

لم يولد فيَّ المشهد شهية كبيرة لطبقي البارد، وعندما أشحت بنظري عنها، رأيت أن الطاولة المجاورة لنا، التي ظلت شاغرة ثلاثة أيام، ستُشغل مرة أخرى. كان رئيس النُدل يقود الوافد الجديد إلى مكانه، بتلك الانحناء المخصصة لرواد المكان الأكثر تميزًا.

وضعت السيدة فان هوبر شوكتها، ومدت يدها إلى منظارها. تخضب وجهي خجلًا بسببها، فبينما أخذت تحديق، لم يلاحظ الوافد الجديد فضولها، وألقى نظرة شاردة على قائمة الطعام. بعد ذلك، طوت السيدة فان هوبر منظارها بحركة سريعة، وانحنت نحوي عبر الطاولة، وعيناها الصغيرتان تتألقان بالإثارة، وصوتها مرتفع بعض الشيء.

قالت:

- إنه ماكس دي ويتتر، الرجل الذي يملك ماندرلي. لقد سمعت عنه بالطبع. يبدو مريضًا، أليس كذلك؟ يقولون إنه لا يستطيع تجاوز أمر وفاة زوجته...

أتساءل كيف كانت ستصير حياتي اليوم، لو لم تكن السيدة فان هوبر متعجرفة. من الغريب التفكير في أن مجرى حياتي تعلّق كالخيوط بتلك السمة التي تتصف بها. كان فضولها مرضاً، يشارف حد الهوس. في البداية شعرت بالصدمة، وانتابني الحرج بدرجة بائسة. أحسست أنني كبش فداء عليه تحمّل آلام سيده، حينما كنت أشاهد الناس يضحكون وراء ظهرها، ويغادرون الغرفة على عجل عند حضورها، أو يختفون وراء أحد الأبواب المخصصة للخدم في الممر بالطابق العلوي. لسنوات عديدة إلى الآن، اعتادت أن تأتي إلى فندق كوت دازور، وإلى جانب لعب البريدج، كانت هوايتها الوحيدة التي اشتهرت بها الآن في مونت كارلو، هي الادعاء بأنها صديقة للزائرين المتميزين، حتى لو لم تكن رأتهم من قبل إلا مرة واحدة في الجانب الآخر من مكتب البريد. بطريقة ما كانت تتمكن من تقديم نفسها، وقبل أن يستشعر ضحاياها الخطر، توجه إليهم الدعوة لزيارتها في جناحها. كان أسلوبها في الهجوم صريحاً ومفاجئاً، إلى درجة أنه نادراً ما كانت تسنح الفرصة للهروب. في فندق كوت دازور، حجزت لنفسها مكاناً على أريكة معينة في الردهة، في منتصف الطريق بين قاعة الاستقبال والممر إلى المطعم، وكانت تتناول قهوتها هناك بعد الغداء والعشاء، ويضطر كل من يذهب أو يجيء إلى المرور أمامها. في بعض الأحيان كانت تستغلني كطعم لجذب فريستها، وعلى الرغم من كراهيتي لتلك المهمة، فإنها كانت ترسلني عبر الردهة حاملة رسالة شفوية، لطلب استعارة كتاب أو ورقة، أو عنوان متجر أو آخر، أو حتى الزعم باكتشاف صديق مشترك على نحو مفاجئ. بدا كما لو أنها في

حاجة إلى أن تقتات على الشخصيات المرموقة، كما يُطعم المريض العاجز الهلام بالملعقة. وعلى الرغم من تفضيلها لمن يحملون الألقاب، فإن أي شخص ظهرت صورته مرة في صفحة المجتمع كان ذلك يفي بالغرض أيضًا. وكذلك الأسماء التي تتناثر في أعمدة الشائعات بالصحف، والكُتّاب، والفنانون، والممثلون، ومن على شاكلتهم، حتى المتوسطون منهم، ما دامت سمعت بأمرهم من خلال وسائل الإعلام المطبوعة.

أستطيع أن أراها كما لو كان ذلك بالأمس، عصر ذلك اليوم الذي لا يُنسى - بصرف النظر عن كم عام مضى - عندما جلست على أريكتها المفضلة في الردهة، تبحث الأسلوب الذي ستتبعه في الهجوم. عرفت من سلوكها الحاد، والطريقة التي نقرت بها منظار الأوبرا على أسنانها، أنها تفكر في الاحتمالات المختلفة. عرفت أيضًا عندما تعجلت وفوتت تناول الحلوى، أنها تريد الانتهاء من تناول الغداء قبل الوافد الجديد، كي تتمكن من الجلوس في المكان الذي سيضطر إلى المرور أمامه. فجأة، التفتت نحوي وقد أشرقت عيناها الصغيرتان.

- اصعدي إلى الطابق العلوي بسرعة، وابحثي عن تلك الرسالة التي أرسلها ابن أخي. أذكرين، تلك التي كتبها في شهر العسل، وأرفق معها صورة فوتوغرافية. اجلبها لي على الفور.

رأيت حينها أن خططها قد تشكلت، ولا بد أن يكون ابن أخيها هو وسيلة التعارف. شعرت بالاستياء مجددًا من الدور الذي اضطرت إلى لعبه في مخططاتها. كما يفعل مساعد الحاوي، جلبت الإكسسوارات المطلوبة، ثم انتظرت دوري في صمت وانتباه. كنت على ثقة بأن هذا الوافد الجديد لن يرحب بالتطفل. من خلال القليل الذي علمته عنه وقت الغداء، عن طريق بعض الشائعات التي جمعتها هي منذ عشرة أشهر من الصحف اليومية، واختزنتها في ذاكرتها لاستغلالها مستقبلاً، أمكنني أن أتخيل، على الرغم من شبابي وقلة خبرتي بالعالم، أنه سيستاء من هذا الاقتحام المفاجئ لوحده. لم يكن من شأننا سبب اختياره المجيء إلى فندق كوت دازور في مونت كارلو، كما كانت مشكلاته تخصه

وحده، وكان أي شخص غير السيدة فان هوبر سيفهم ذلك. كانت اللباقة خصلة غير معروفة بالنسبة إليها، وكذلك التحفظ أيضًا، ولأن النيمة بمنزلة النفس الذي تحيا به، فلا بد أن يقدم لها هذا الغريب كي يخضع للتحليل. وجدت الرسالة في صندوق خطابات على مكتبها، وترددت لحظة قبل النزول مرة أخرى إلى الردهة. بدالي، على نحو غير منطقي، أنني أسمح له ببضع لحظات إضافية من العزلة. تمنيت أن أتحدى بالشجاعة كي أذهب عبر درج الخدم وأسلك طريقًا ملتفًا إلى المطعم، وهناك أحذره من الكمين الذي يُنصب له. لكن التقاليد كانت أقوى مني، ولم أعرف كيف أصيغ عبارتي. لم يكن هناك بُدٌّ من أن أجلس في مكاني المعتاد بجوار السيدة فان هوبر بينما هي، مثل عنكبوت ضخمة راضي عن نفسه، تنسج شبكتها الواسعة المملة حول ذلك الغريب.

تأخرت فترة أطول مما كنت أعتقد، فعندما عدت إلى الردهة رأيت أنه غادر غرفة الطعام بالفعل، وخشيت هي أن تفقده، فلم تنتظر الرسالة، بل جازفت بتقديم نفسها إليه وحدها، وهي خالية الوفاض. كان جالسًا بجانبها على الأريكة الآن، فتوجهت إليهما وناولتها الرسالة من دون النطق بكلمة. نهض واقفًا في الحال، بينما تخضب وجه السيدة فان هوبر فرحًا بنجاحها، فلوحت بيدها في اتجاهي على نحو غامض، وهمهمت باسمي.

قالت بنبرة صوت لا مبالية بدرجة تكفي لتعريفه بمكانتي:

- سيشرّب السيد دي وينتر القهوة معنا. اذهبي واطلبي من النادل فنجانًا آخر. كان ذلك يعني أنني شابة وغير مهمة، ولم تكن هناك حاجة إلى إشراكي في المحادثة. دائمًا ما كانت تتحدث بهذه النبرة عندما ترغب في إثارة الإعجاب، وكان أسلوبها في تقديمي شكلاً من أشكال الحماية الذاتية؛ لأن الناس اعتقدوا ذات مرة أنني ابنتها، مما سبّب حرجًا بالغًا لكتلتينا. أظهرت فظاظتها هذه أنه يمكن تجاهلي بأمان، فكانت النساء يُوجَّهن إليَّ إيماءة قصيرة بمنزلة تحية وتجاهل لي في الوقت نفسه، بينما كان الرجال يدركون بقدر كبير من الارتياح أنه يمكنهم العودة للغوص في مقعد مريح من دون التقصير فيما تحتمه قواعد اللياقة.

لذلك بدا من المفاجيء أن هذا الوافد الجديد ظل واقفاً على قدميه، وهو الذي أرسل إشارة إلى النادل.
قال لها:

- أخشى أنني مضطر إلى معارضتك، لكنكما ستتناولان القهوة معي.
وقبل أن أدرك ما حدث، جلس هو على المقعد الصلب الذي كنت أجلس عليه عادة، وجلست أنا على الأريكة بجانب السيدة فان هوبر.
بدا عليها الانزعاج للحظة - إذ لم يكن هذا ما انتوته - لكنها سرعان ما استعادت السيطرة على ملامحها، ودفعت جسدها الضخم بيني وبين الطاولة، ومالت إلى الأمام نحو كرسيه، وهي تتحدث بحماس بصوت مرتفع، ملوحة بالرسالة في يدها.

قالت:

- أتدري، لقد تعرفت عليك بمجرد دخولك إلى المطعم، وفكرت، «ها هو ذا السيد دي ويتتر، صديق بيلي. يجب عليّ ببساطة أن أريه تلك الصور التي التُقطت لبيلي وعروسه في شهر العسل»، وها هي ذي الصور. هذه دورا، أليست رائعة؟ ذلك الخصر الصغير النحيف، وتلك العينان الكبيرتان الواسعتان. ها هما أولاء يتشمسان في بالم بيتش. بيلي مجنون بها، كما يمكنك أن تتخيل. لم يكن قد التقاها بعد بالطبع، عندما أقام ذلك الحفل في فندق كلاريدج، حيث رأيتك أول مرة، لكنني أعتقد أنك لا تتذكر امرأة عجوزاً مثلي؟

قالت عبارتها الأخيرة تلك بنظرة استفزازية وأسنانها تلتمع، فأجاب:
- على العكس، فأنا أتذكرك جيداً.

وقبل أن تتمكن من محاصرته بسرد تفاصيل لقائهما الأول، ناولها علبة سجائره، فعطّلها إشعال السيجارة لحظة، قال وهو يطفئ عود الثقاب:
- لا أعتقد أنني سأحب بالم بيتش.

وعندما نظرت إليه، فكرت كم ستبدو صورته غير واقعية على خلفية فلوريدا.

كان ينتمي إلى مدينة مسورة من القرن الخامس عشر، ذات شوارع ضيقة مرصوفة بالأحجار، وأبراج رفيعة، يرتدي سكانها أحذية مدببة وسراويل صوفية ضيقة. كان وجهه أسرًا وحساسًا، وبدا كأنه ينتمي إلى القرون الوسطى على نحو غريب لا يمكن تفسيره، وتذكرت صورة رأيته في معرض، نسيت أين، لرجل نبيل مجهول. لو استطاع المرء أن يسلبه التويد الإنجليزي الذي يرتديه، ويكسوه باللون الأسود مع الدانتيل عند حلقه ومعصميه، لكان يحدق إلينا في عالما الحديث، من ماضي بعيد جدًا، ماضي كان الرجال يسرون فيه مرتدين العباءات ليلاً، ويقفون في ظل المداخل العتيقة، ماضي من السلالم الضيقة، والزنازين المعتمة، ماضي من الهمسات في الظلام، ومن نصال السيوف المتلاثلة، واللياقة الصامتة الرائعة.

تمنيت لو أنني تذكرت الفنان الكبير الذي رسم تلك اللوحة. كان مكانها في أحد أركان المعرض، وبدت العينان كما لو أنهما تتبعان المرء من إطارها الداكن.

لكنهما كانا يتبادلان الحديث، وقد فقدت خيط المحادثة. كان يقول:

- لا، ولا حتى قبل عشرين عامًا. هذا النوع من الأشياء لم يسَلَّني قط.

سمعت السيدة فان هوبر تطلق ضحكاتها الصاخبة المغرورة، وقالت:

- لو كان بيلي يمتلك منزلاً مثل ماندرلي، فلن يرغب في اللهو في بالم بيتش.

سمعت أنه يشبه أرض الخيال، ولا توجد كلمة أخرى لوصفه.

توقفت عن الحديث، متوقعة منه أن يبتسم، لكنه استمر في تدخين سيجارته،

ولاحظت ذلك الخط الذي ظهر بين حاجبيه، خافتًا كخيط عنكبوت.

أصرت قائلة:

- لقد رأيت صورًا له بالطبع، ويبدو ساحرًا للغاية. أذكر أن بيلي أخبرني

بأنه يفوق كل تلك الأماكن الكبيرة الأخرى جمالًا. أتساءل كيف تتحمل

الابتعاد عنه.

بات صمته مؤلمًا الآن، وكان ذلك سيبدو واضحًا لأي شخص آخر، لكنها

واصلت الاندفاع كعنزة خرقاء، تدهس وتتعدى على أرض مُصانة، وشعرت

بوجهي يتخضب حمرة، بعد أن جرّتني معها إلى هذا الخزي.

قالت وصوتها يزداد ارتفاعاً أكثر فأكثر:

- بالطبع أنتم الإنجليز كلكم متشابهون فيما يتعلق بمنازلكم، تنتقصون من قدرها كي لا تبدوا فخورين، ألا توجد شرفة لعازفي الموسيقى في ماندرلي، وبعض اللوحات القيّمة للغاية؟

التفتت نحوي لتوضيح الأمر، وأكملت قائلة:

- السيد دي وينتر متواضع جداً إلى درجة أنه لن يعترف بذلك، لكنني أعتقد أن منزله الجميل كان ملكاً لعائلته منذ غزو النورمان. يقال إن شرفة العازفين بمنزلة جوهرة. أعتقد أن أسلافك كثيراً ما استضافوا أفراد الأسرة المالكة في ماندرلي، يا سيد دي وينتر؟

كان هذا أكثر من أي شيء تحمّلته من قبل، حتى منها هي، لكن سوط رده السريع كان غير متوقع. قال:

- ليس منذ إثيلريد، الملقب بـ«غير المستعد». في الواقع، فاز بذلك اللقب في أثناء إقامته مع عائلتي، إذ كان دائماً يتأخر على العشاء.

كانت تستحق ذلك بالطبع، وانتظرتُ أن تتبدل ملامحها، لكن على الرغم من أن الأمر يبدو كأنه لا يُصدق، فإنها لم تفهم معنى كلماته، وتلوّيت أنا بدلاً منها، شاعرة بأنني طفلة تعرضت للضرب.

قالت بحماقة:

- هل هذا صحيح حقاً؟ لم تكن لديّ أدنى فكرة. معرفتي بالتاريخ ضعيفة جداً، ولطالما أربكني ملوك إنجلترا. لكن كم هذا مثير للاهتمام. لا بد أن أكتب إلى ابنتي وأخبرها بهذا، فهي عالمة كبيرة.

ساد الصمت، وشعرت بالدماء تتدفق إلى وجهي. كنت صغيرة في السن جداً، وكانت هذه هي المشكلة. لو كنت أكبر سنّاً، لالتقت نظرتي بنظرته، وبادلته الابتسام، ولصنع سلوكها الذي لا يُصدق هذا رابطاً بيننا. لكن ما حدث هو أنني شعرت بالخزي، وتحملت أحد آلام الشباب المتكررة.

أعتقد أنه أدرك مدى ضيقي، لأنه مال إلى الأمام في كرسيه وتحدث إليّ

بصوت رقيق، يسألني إذا كنت سأحتسي مزيدًا من القهوة. وعندما رفضت وهزرت رأسي، شعرت بأن عينيه ما زالتا مثبتتين عليّ، في حيرة وتأمل. كان يفكر في طبيعة علاقتي بها بالتحديد، ويتساءل عما إذا كان عليه أن يجمعنا معًا في سلة واحدة من الخيبة.

قال:

- ما رأيك في مونت كارلو أم أنك لا تفكرين في الأمر أبدًا؟

عندما أشركني في المحادثة على هذا النحو، كنت في أسوأ حالاتي: تلميذة سابقة عديمة الخبرة، ذات مرفقين أحمرين وشعر خفيف، وقلت شيئًا بديهيًا وغبيًا عن كون المكان مصطنعًا، لكن قبل أن أنتهي من جملة المتعثرة، قاطعتني السيدة فان هوبر.

- إنها مدللة يا سيد دي ويتتر، وهذه مشكلتها. معظم الفتيات على استعداد للتخلي عن أعينهن، مقابل فرصة لرؤية مونت كارلو.

قال مبتسمًا:

- ألن يتعارض ذلك مع الهدف؟

هزت كتفيها، وأطلقت سحابة كبيرة من دخان السجائر في الهواء. أعتقد أنها لم تفهمه للحظة. قالت له:

- أنا مخلص لـمونت كارلو، فالشتاء الإنجليزي يصيبني بالاكئاب، ولا يتحمله مزاجي. ما الذي أتى بك أنت إلى هنا؟ أنت لست ممن يأتون إلى هنا بانتظام.

هل ستلعب القمار أم أنك أحضرت مضارب الجولف الخاصة بك؟

قال:

- لم أحسم أمري. لقد جئت في عجلة نوعًا ما.

لا بد أن كلماته أيقظت ذكرى لديه، لأن ملامحه تعكرت مرة أخرى، وتجهم بعض الشيء. واصلت ثرثرتها من دون أن تتأثر.

- أنت تفتقد الضباب في ماندرلي بالطبع، فهو مختلف تمامًا. لا بد أن غرب البلاد مبهج في الربيع.

مد يده نحو منفضة السجائر، وسحق سيجارته، ولاحظتُ تغيرًا طفيفًا في عينيه، شيئًا لا يمكن تحديده ظل هناك لحظة، وأحسست أنني رأيت شيئًا شخصيًا خاصًا به، لا شأن لي به.

قال باقتضاب:

- أجل، كان ماندرلي يبدو في أفضل حالاته.

حل علينا الصمت لحظة أو اثنتين، صمت جلب في إثره شيئًا من الشعور بالضيق، وعندما اختلست نظرة إليه، تذكرت أكثر من أي وقت مضى لوحة النبيل المجهول الذي يسير في الممرات ليلاً متخفيًا وهو يرتدي عباءة. اخترق صوت السيدة فان هوبر حلمي مثل جرس كهربائي.

- أعتقد أنك تعرف الكثير من الناس هنا، على الرغم من أن عليّ القول إن مونت كارلو مملة جدًا هذا الشتاء. لا يرى المرء سوى القليل للغاية من الوجوه المعروفة. الدوق ميدلسكس موجود هنا في يخته، لكنني لم أصعد على متنه بعد.

لم تكن قد صعدت على متنه قط، على حد علمي. مضت قائلة:

- أنت تعرف نيل ميدلسكس بالتأكيد. يا لها من فاتنة. يقولون دائمًا إن الطفل الثاني ليس من صلبه، لكنني لا أصدق ذلك. سيقول الناس أي شيء عندما تكون المرأة جذابة، أليس كذلك؟ وهي فائقة الجمال. قل لي، هل صحيح أن زيجة كاكستون وهيسلوب غير ناجحة؟

واصلت الثرثرة، في سلسلة متشابكة من الشائعات، من دون أن ترى قط أن هذه الأسماء غريبة بالنسبة إليه ولا تعني له شيئًا، وبينما استمرت في ثرثرتها غير مدركة، ازداد برودة وصمتًا. لم يقاطع حديثها أو ينظر إلى ساعته قط، ولو لحظة، كأنه وضع لنفسه معايير محددة للسلوك، منذ تلك الزلة الأولى التي سخر فيها منها أمامي، وقد تمسك بمعاييره هذه بجدية، بدلًا من إساءة الأدب مرة أخرى. في النهاية، كان الخادم هو مَنْ أطلق سراحه، عندما أتى حاملًا الأنباء أن هناك خياطة في انتظار السيدة فان هوبر في جناحها.

نهض على الفور، ودفع كرسيه إلى الخلف، قائلاً:

- لا تدعاني أعطلكما. تتغير الموضة بسرعة كبيرة هذه الأيام، حتى إنها ربما تكون قد تغيرت في الوقت الذي يستغرقه صعودكما إلى الطابق العلوي. لم تتأثر بعبارة اللاذعة، بل تقبلتها بوصفها دعاية. قالت بينما كنا نتوجه إلى المصعد:

- إنه لمن دواعي سروري أن ألتقي بك هكذا يا سيد دي وينتر. والآن بعد أن واتتني الشجاعة لإذابة الجليد بيننا، أمل أن أراك مجددًا. يجب أن تأتي لتتناول معي مشروبًا في جناحي في وقت ما. ربما يأتي شخص أو اثنان لزيارتي مساء الغد، لماذا لا تنضم إلينا؟ أشحت بعيدًا كي لا أراه وهو يفتش عن عذر.

قال:

- أنا آسف جدًّا، سأذهب إلى سوسيل بسيارتي غدًا على الأرجح، ولست متأكدًا متى سأعود.

تخلت عن الموضوع على مضض، لكننا بقينا مترددين عند باب المصعد. - أمل أن يكونوا قد منحوك غرفة جيدة. المكان نصفه شاغر، لذا إذا لم تكن مرتاحًا، فعليك أن تتقدم بالشكوى. لقد أفرغ لك خادمك الحقائق، على ما أعتقد؟

كانت هذه الدرجة من رفع الكلفة مفرطة، حتى بالنسبة إليها، وألقيت نظرة خاطفة على التعبير المرتسم على وجهه.

قال بهدوء:

- ليس لديّ خادم. ربما تودين القيام بذلك نيابة عني؟ أصابت طعنته هدفها هذه المرة، إذ تخضب وجهها وضحكت بحرج بعض الشيء.

شرعت تقول:

- لا أعتقد أن...

ثم التفتت إليّ فجأة، على نحو لا يُصدق، وقالت:

- ربما يمكنك مساعدة السيد دي ويتتر، إذا احتاج إلى أي شيء. أنت فتاة ماهرة من نواح عديدة.

ساد الصمت لحظة، بينما وقفت مصدومة، أنتظر إجابته. نظر إلينا بسخرية، متهكمًا بعض الشيء، وعلى شفثيه شبح ابتسامة.
قال:

- يا له من اقتراح ساحر، لكنني متمسك بشعار العائلة. «المسافر وحده يصل أسرع». ربما لم تسمعي بهذه المقولة من قبل.
ومن دون انتظار ردها، استدار وتركنا. قالت السيدة فان هوبر ونحن في المصعد في طريقنا إلى الطابق العلوي:

- يا له من أمر غريب. هل تعتقدين أن رحيله المفاجئ هذا كان شكلاً من أشكال المزاح؟ يفعل الرجال أشياء غريبة جداً. أذكر كاتباً مشهوراً ذات مرة كان يندفع للنزول من سلم الخدم كلما رأي قادمة. اعتقد أنه كان يشعر بالميل نحوي، إلا أنه كان يفتقر إلى الثقة بالنفس. لكنني كنت أصغر سنًا حينها.

توقف المصعد بارتجاج، ووصلنا إلى طابقنا، ففتح الخادم الباب. قالت ونحن نسير عبر الممر:

- بالمناسبة يا عزيزتي، لا أتعمد القسوة، لكنك كنت وقحة بعض الشيء عصر اليوم. محاولتك لاحتكار الحديث تسببت لي في حرج بالغ، وأنا على ثقة بأن هذا سبب له هو أيضًا الحرج. إن الرجال يكرهون هذا النوع من السلوك. لم أقل شيئاً، إذ بدا أنه لا يوجد أي جواب ممكن. هزت كتفيها وضحكت قائلة:
- أوه، هيا، لا تستائي. ففي النهاية، أنا مسؤولة عن سلوكك هنا، وبالتأكيد يمكنك قبول النصيحة من امرأة يمكن أن تكون في سن والدتك. حسناً يا بليز، أنا قادمة...

ثم ذهبت إلى غرفة النوم حيث تنتظرها الخياطة وهي تدندن لحناً.

جثوت على مقعد قرب النافذة، وتأملت المشهد عصرًا بالخارج. كانت الشمس لا تزال ساطعة للغاية، وكانت هناك ريح قوية منعشة. بعد نصف ساعة، سنجلس للعب البريدج والنوافذ مغلقة بإحكام، بعد تشغيل التدفئة المركزية إلى أعلى درجة. فكرت في منافض السجائر التي سأضطر إلى تنظيفها، وكيف ستختلط أعقاب السجائر الملطخة بأحمر الشفاه مع بقايا الشوكولاتة بالكريمة. إن الذهن الذي نشأ على لعب «سناب» و«هابي فاميليز» ببطاقات اللعب، لا يستوعب بسهولة لعب البريدج، وعلاوة على ذلك، كان أصدقاؤها يشعرون بالملل من اللعب معي.

شعرت بأن حضوري الشاب كان يقيد حرية حديثهم، تمامًا مثل وجود الخادمة عند تقديم الحلوى، حيث لم يكن في وسعهم الانجراف بسهولة وسط سيل الشائعات والتلميحات. كان أصدقاؤها من الرجال يتكلفون نوعًا من الحماس المصطنع، ويوجهون إليَّ أسئلة مازحة حول التاريخ أو الرسم، نظرًا إلى افتراضهم أنه لم يمضِ وقت طويل على انتهائي من المدرسة، وأن هذا هو موضوع الحديث الوحيد الذي أجيده.

تنهدت، واستدرت بعيدًا عن النافذة. بدت الشمس واعدة للغاية، واكتسى البحر بزبد أبيض بفعل الريح المبهجة. فكرت في تلك المنطقة من موناكو التي مررت بها منذ يوم أو يومين، حيث يميل منزل أعوج نحو ساحة مرصوفة بالأحجار. في نقطة مرتفعة من السقف المتداعي، كانت هناك نافذة ضيقة مثل الشق، يمكن أن يطل منها شخص من العصور الوسطى. مددت يدي نحو المكتب وأخذت ورقة وقلم رصاص، ورسمت وأنا أتخيل وقد سرح ذهني، صورة جانبية لوجه شاحب له أنف معقوف: عين متجهمة، وأنف عالي الجسر، وشفة علوية بادية السخرية. ثم أضفت لحية مدببة ودانتيل عند الحلق، كما فعل الرسّام، منذ زمن بعيد في عصر مختلف.

طرق شخص ما الباب، ودخل صبي المصعد ومعه رسالة في يده. قلت له:
- السيدة في غرفة النوم.

لكنه هز رأسه، وقال إنها لي. فتحتها، فوجدت داخلها ورقة واحدة من ورق الرسائل، بها بضع كلمات مكتوبة بخط غير مألوف.

«سامحيني، كنت فظًّا جدًّا عصر اليوم». كان هذا كل شيء، بلا توقيع وبلا مقدمة. لكن اسمي كان على الظرف، مكتوبًا بشكل صحيح، مما كان أمرًا غير مألوف.

سألني الصبي:

- هل يوجد جواب؟

رفعت عيني عن الكلمات المكتوبة على عجل، وقلت:

- لا، لا يوجد أي جواب.

عقب رحيله، وضعت الرسالة في جيبِي، وعدت مرة أخرى إلى رسمي بالقلم الرصاص، لكن من دون سبب معروف، لم يَعدُ مُرضيًّا بالنسبة إليَّ. بدا الوجه جامدًا، خاليًا من الحياة، وطوق الدانتيل واللحية مثل ديكورات في تمثيلية.

في صباح اليوم التالي لحفل البريدج، استيقظت السيدة فان هوبر وهي تعاني التهاباً في الحلق، وبلغت حرارتها تسعاً وثلاثين درجة، فاتصلتُ بطبيبها، الذي جاء على الفور، وشخَّص إصابته بالإنفلونزا المعتادة. قال لها:

- عليكِ ملازمة الفراش إلى أن أسمح لك بالحركة. لا يعجبني صوت قلبك هذا، ولن تتحسن الحالة إلا إذا بقيت ساكنة وهادئة تماماً.

ثم التفت إليّ، وتابع قائلاً:

- أفضّل لو أن السيدة فان هوبر كانت لديها ممرضة مدربة، فلن تتمكني أنتِ من رفعها. سيستغرق الأمر أسبوعين فقط، أو نحو ذلك.

اعتقدتُ أن هذا سخيّف إلى حدٍّ ما، وأبدت الاحتجاج، لكن لدهشتي، وافقته هي. أعتقد أنها استمتعت بكل ما سيثيره ذلك من قلق، وتعاطف الناس، والزيارات والرسائل من الأصدقاء، ووصول الزهور. كانت قد بدأت تشعر بالملل من مونت كارلو، وسيساعد هذا المرض البسيط على إلهائها.

ستعطيها الممرضة الحقن، وتمنحها تدليكاً خفيفاً، وستتبع نظاماً غذائياً. تركتها وهي في غاية السعادة بعد وصول الممرضة، مستندة إلى الوسائد، وقد أخذت حرارتها في الانخفاض، وحول كتفيها أفضل سترة فراش لديها، وعلى رأسها قبة نوم لها أشرطة. شعرتُ بالخجل نوعاً ما لقلبي الذي غمرته السعادة، واتصلتُ بأصدقائها لتأجيل الحفل الصغير الذي رتبته لذلك المساء، ثم نزلت إلى المطعم لتناول الغداء، قبل نصف ساعة من موعدنا المعتاد. كنت أتوقع أن

أجد الغرفة خالية، فلا يتناول أحد الغداء بصفة عامة قبل الساعة الواحدة. وكانت خالية بالفعل، باستثناء الطاولة المجاورة لنا، وهو ما شكّل أمرًا غير متوقع، لم أكن مستعدة له، إذ ظننتُ أنه توجه إلى سوسيل. لا شك أنه تناول الغداء مبكرًا، لأنه يأمل في أن يتجنبنا في الساعة الواحدة. كنت قد وصلت إلى منتصف الغرفة بالفعل، ولم يعد بمقدوري الرجوع. لم أره منذ أن اختفينا في المصعد في اليوم السابق، لأن حكمته دعت به إلى تجنب تناول العشاء في المطعم، ربما للسبب نفسه الذي دفعه إلى تناول الغداء مبكرًا الآن.

لم أكن مستعدة للتعامل مع ذلك الموقف، وتمنيت لو كنت مختلفة، وأكبر سنًا. توجهت إلى طاولتنا وأنا أنظر أمامي مباشرة، ودفعت على الفور ثمن ارتباكي، حيث قلبت المزهريّة التي تحوي زهور شقائق النعمان المنتصبة بينما كنت أفتح منديلي. أغرقت المياه المفروش، وسالت على حجري. وقف النادل عند الطرف الآخر من الغرفة، ولم يرَ ما حدث، لكن جاري صار بجانبني في ثانية، ويده منديل جاف.

قال بفضاضة:

- لا يمكنك الجلوس أمام مفروش مبلّل، سيفسد ذلك شهيتك. ابتعدي عن الطريق.

بدأ يمسح المفروش، بينما أتى النادل مسرعًا للمساعدة، عندما لمح ذلك الاضطراب.

قلت:

- لا مانع لديّ، ولا يهم الأمر أبدًا. أنا وحدي تمامًا.

لم يقل شيئًا، ثم أتى النادل، وأزال المزهريّة والزهور المتناثرة.

قال فجأة:

- اترك هذا، ورتب مكانًا آخر على طاولتي. سوف تتناول الآنسة الغداء معي.

رفعت عيني نحوه بارتباك، قائلة:

- أوه، لا، لا يمكنني ذلك.

- ولم لا؟

حاولت التفكير في عذر. كنت أعلم أنه لا يريد تناول الغداء معي، لكن هذا هو أسلوبه في المجاملة، وسأفسد عليه وجبته، فعقدت العزم على التحلي بالجرأة، والحديث بصراحة.

ترجيته قائلة:

- من فضلك، لا داعي إلى التهذيب. هذا لطف بالغ منك، لكنني سأكون على ما يرام إذا مسح النادل المفرش فحسب.
أصر قائلاً:

- لكنني لا ألتزم التهذيب، وأود أن تتناولي الغداء معي. وحتى لو لم تقلبي المزهرية على نحو أخرق، كنت سأطلب منك ذلك.
أعتقد أن وجهي أظهر له تشككي، فابتسم وقال:

- أنت لا تصدقيني. لا يهم، تعالي واجلسي. لا داعي إلى أن نتبادل الحديث، ما لم نرغب في ذلك.

جلسنا، وناولني قائمة الطعام، تاركاً لي الاختيار، بينما استمر في تناول المقبلات كأن شيئاً لم يحدث.

ميّزته صفة الانعزال هذه، وكنت أعرف أننا قد نستمر على هذا النحو، من دون حديث طوال الوجبة، ولن يشكّل ذلك أي أهمية. لن يسود شعور بالتوتر، ولن يوجه إليّ أي أسئلة متعلقة بالتاريخ.

قال:

- ماذا حدث لصديقتك؟

أخبرته عن الإنفلونزا، فقال:

- أنا آسف جداً.

ثم توقف برهة، قبل أن يتابع:

- أعتقد أنك تلقيت رسالتي. لقد شعرت بالخجل الشديد من نفسي، إذ كان سلوكي فظيلاً. العذر الوحيد الذي يمكنني تقديمه هو أنني أصبحت فظاً

بسبب العيش وحدي. لهذا فهو لطف بالغ منك أن تتناولني الغداء بصحبتني اليوم.

قلت:

- لم تكن وقحًا، على الأقل، ليس ذلك النوع من الوقاحة الذي ستفهمه هي. إن فضولها هذا... إنها لا تتعمد الإساءة، لكنها تفعل ذلك مع الجميع. أعني، جميع من يتمتعون بالأهمية.

قال:

- يجب أن أشعر بالإطراء، إذن. لكن لماذا تعتقد أن لي أي أهمية؟

ترددت للحظة قبل الرد، ثم قلت:

- أعتقد أن ذلك بسبب ماندري.

لم يرد، وشعرت مرة أخرى بذلك الإحساس بالانزعاج، كأني وُطئت أرضًا محرمة. تساءلت عن السبب في أن منزله هذا، المعروف لكثير من الناس، وحتى لي أنا، من خلال الشائعات، يدفعه تلقائيًا إلى الصمت، ويصنع حاجزًا بينه وبين الآخرين.

تناولنا الطعام بعض الوقت من دون أن نتحدث، وفكرت في بطاقة بريدية مصورة اشتريتها ذات مرة إبان طفولتي من متجر القرية، عندما كنت في إجازة في غرب البلاد. كانت الصورة لمنزل مرسوم على نحو بدائي بالطبع، وله ألوان فاقعة. لكن حتى تلك العيوب لم تدمر تناسق المبنى، بدرجاته الحجرية العريضة أمام الشرفة، والمروج الخضراء الممتدة حتى البحر. دفعت بنسّين مقابل الصورة، وهو ما يعادل نصف مصروفي الأسبوعي، ثم سألت بائعة المتجر ذات الوجه المتغضن عما تمثله، فبدت مندهشة من جهلي.

قالت:

- هذا ماندري.

وأذكر أنني خرجت من المتجر وأنا أشعر بأنني تعرضت للتوبيخ، لكنني لم أعلم شيئًا جديدًا.

ربما كانت ذكرى هذه البطاقة البريدية، التي فُقدت منذ فترة طويلة بين طيات كتاب منسي، هي التي جعلتني أتعاطف مع موقفه الدفاعي، إذ إنه استاء من السيدة فان هوبر وأمثالها بأسئلتهم المزعجة. ربما كان هناك شيء له حرمة في ماندرلي، يميزه عن غيره، ويجعله غير قابل للنقاش. تخيلتها وهي تتجول في الغرف، وربما تدفع ستة بنسات مقابل الدخول، وتمزق الهدوء بضحكتها الحادة المتقطعة. لا بد أن أفكارنا جرت في الاتجاه نفسه، لأنه بدأ يتحدث عنها.

شرع قائلاً:

- صديقتك أكبر منك سنًا بكثير. هل هي قريبتك؟ وهل عرفتها منذ فترة طويلة؟ رأيت أنه لا يزال متحيرًا من أمرنا. قلت له:

- إنها ليست صديقة، في الواقع، بل هي ربة عملي، وتدرّبي لأصير مرافقة لها، وتدفع لي تسعين جنيهاً في السنة. قال:

- لم أكن أعلم أن المرء يمكنه شراء الرفقة. تبدو فكرة بدائية، أشبه بسوق العبيد في الشرق. اعترفت قائلة:

- بحثت عن كلمة «رفيق» في المعجم ذات مرة، فذكر أن «الرفيق هو صديق مقرب من القلب».

- ليس لديك الكثير من القواسم المشتركة معها. ضحك، وبدا مختلفاً تماماً، كأنه أصغر بطريقة ما، وأقل انعزالاً، ثم سألني:

- لماذا تفعلين ذلك؟

قلت:

- إن تسعين جنيهاً تمثل مبلغاً كبيراً من المال بالنسبة إليّ.

- أليست لديك أي أسرة؟

- نعم، لقد ماتوا جميعاً.

- اسمك جميل جدًا، وغير معتاد.
- كان والدي شخصًا جميلًا جدًا، وغير معتاد.
قال:

- أخبريني عنه.

نظرت إليه فوق كأس من عصير الليمون. لم يكن من السهل توضيح أمر والدي، ولم أكن أتحدث عنه على الإطلاق في الغالب. كان ملكيتي السرية، وأحتفظ به لنفسي، كما يحتفظ جاري لنفسه بماندرلي. ولم تكن لديّ رغبة في تقديمه عرضًا على طاولة في مطعم بمونت كارلو.

أحاط ذلك الغداء جو غريب غير واقعي، وعندما أتذكره الآن، يبدو لي مشوبًا بسحر عجيب. كنت لا أزال تلميذة تقريبًا، وقد جلست في اليوم السابق فحسب مع السيدة فان هوبر، متحفظة وصامتة وهادئة، وبعدها بأربع وعشرين ساعة لم يُعد تاريخ عائلتي ملكًا لي، وشاركته مع رجل لا أعرفه. لسبب ما، شعرت بأنني مضطرة إلى الحديث، لأن عينيّ أخذتا تتبعانني في تعاطف، مثل النبيل المجهول. سقط عني خجلي، وانحلت عقدة لساني المتردد، وخرجت كل أسرار طفولتي الصغيرة، بمُتعتها وآلامها. بدا لي كما لو أنه فهم، من خلال وصفي السيئ، شيئًا من شخصية والدي النابضة بالحياة، وشيئًا أيضًا من الحب الذي حملته له والدتي، الذي اتصف بالقوة والحيوية، مع لمسة قداسة، إلى درجة أنه عندما مات في ذلك الشتاء البائس، عقب إصابته بالتهاب رئوي، بقيت بعده خمسة أسابيع قصيرة، ثم فارقت الحياة. أذكر أنني توقفت عن الحديث، وقد انقطعت أنفاسي بعض الشيء، وصرت ذاهلة نوعًا ما. امتلأ المطعم الآن بأشخاص يتبادلون الحديث ويضحكون على خلفية من الموسيقى السيمفونية وأصوات قعقة الأطباق. نظرت إلى الساعة فوق الباب، فرأيت أنها الثانية. جلسنا هناك ساعة ونصف الساعة، واحتكرت الحديث وحدي.

عدت إلى الواقع، وشعرت بحرارتي ترتفع والخجل يعتريني، ووجهي يتخضب، وبدأت أتلثم معتذرة، فرفض الإصغاء إليّ.

قال:

- لقد أخبرتك في بداية الغداء بأن لديك اسمًا جميلًا وغير معتاد. وسأذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، إذا سمحت لي، وأقول إنه يليق بك، كما كان اختياره يليق بوالدك. لقد استمتعت بهذه الساعة معك أكثر مما استمتعت بأي شيء منذ فترة طويلة جدًا. لقد أخرجتني من ذاتي، ومن الكتابة والاستغراق في التفكير، وكلاهما يعذبني منذ عام.

نظرت إليه، وصدقت أنه يقول الحقيقة. بدا مكبلاً بدرجة أقل مما كان عليه من قبل، وأكثر حداثة، وأشد إنسانية، ولم تحاصره الظلال.

قال:

- أتدرين، يوجد رابط مشترك بيننا، فكلانا وحيد في هذا العالم. أوه، لديّ شقيقة، على الرغم من أننا لا نرى بعضنا كثيرًا، وجدة عجوز أزورها بدافع الواجب ثلاث مرات سنويًا، لكن لا تمثل أيّ منهما أي رفقة. يجب أن أهني السيدة فان هوبر، إذ إن خدماتك منخفضة التكلفة، مقابل تسعين جنيهًا سنويًا.

قلت:

- لقد نسيت أنك تمتلك منزلًا، في حين ليس لديّ أي منزل. ندمت على كلماتي هذه بمجرد أن تفوّت بها، إذ عادت إلى عينيه تلك النظرة السرية الغامضة مرة أخرى، وعانيت ثانية ذلك الشعور بالانزعاج الذي لا يطاق، الذي يغمر المرء بعد افتقاره إلى اللباقة. حتى رأسه لإشعال سيجارة، ولم يرد على الفور.

أخيرًا، قال:

- يمكن أن يبعث المنزل الخالي الشعور بالوحدة، مثل فندق ممتلئ عن آخره. المشكلة هي أن المنزل له طابع شخصي بدرجة أكبر. تردد، وظننت لحظة أنه سيتحدث عن ماندرلي أخيرًا، لكن شيئًا ما أوقفه، رهبة من نوع ما طفت على سطح ذهنه وفازت بالسيادة، فأطفأ ثقابه ووميض الثقة بالنفس الذي اعتراه في الوقت نفسه.

عاد إلى طبيعته مرة أخرى، وقد نشأت بيننا ألفة سلسلة، وقال:

- الصديقة المقربة من القلب لديها إجازة، إذن؟ ما الذي تنوين فعله بها؟
فكرت في تلك الساحة المرصوفة بالأحجار في موناكو، والمنزل ذي النافذة الضيقة. يمكنني الوصول إلى هناك في الساعة الثالثة، ومعني دفتر رسمي وقلم رصاص، أخبرته بذلك بخجل نوعاً ما، مثل جميع الأشخاص غير الموهوبين الذين لديهم هواية أثيرة.
قال:

- سأوصلك بالسيارة.

ورفض الاستماع إلى الاحتجاجات.

تذكرت تحذير السيدة فان هوبر في الليلة السابقة بشأن فرض نفسي، وشعرت بالخرج من أنه قد يعتقد أن حديثي عن موناكو كان حيلة كي يقلني بالسيارة. كان ذلك من نوعية الأشياء التي تقدم عليها بنفسها على نحو فاضح، ولم أرده أن يصنفنا معاً. وقد ازدادت أهميتي بالفعل بعد تناولي الغداء معه، إذ اندفع رئيس النُدل الضئيل وتقدم ليسحب مقعدي حينما نهضنا عن الطاولة. انحنى وابتسم، وهو ما يشكل تغييراً كلياً عن موقفه اللامبالي المعتاد، والتقط منديلي الذي سقط على الأرض، وتمنى أن «تكون الأنسة قد استمتعت بغدائها». وحتى الخادم الواقف بجوار الأبواب الدوارة نظر إليّ باحترام. تقبّل رفيقي ذلك بوصفه عادياً بالطبع، حيث لم يكن على دراية بلحم الخنزير المقطع على نحو سيئ بالأمس. وجدت التغيير محبطاً، وجعلني أحتقر نفسي. تذكرت والدي وازدراءه للغطسة والسطحية.

- بَمَ تفكرين؟

كنا نسير بالممر المؤدي إلى الردهة، ورفعت نظري فرأيت عينيه مثبتتين عليّ في فضول.

قال:

- هل ضايقت شيء ما؟

أدى اهتمام رئيس النُذُل إلى توارِد حبل من الأفكار، وبينما كنا نشرب القهوة، أخبرته عن بليز الخياطة. سعدت للغاية عندما اشترت السيدة فان هوبر ثلاثة فساتين، وعندما اصطحبتُها إلى المصعد لاحقاً، تخيلتها وهي تعمل عليها في صالونها الصغير، خلف المتجر الضيق المزدهم، وابنها المصاب بالسل يزوي على أريكتها. رأيتها «تلتزم» الإبر بعينين مرهقتين، والأرض مغطاة بقصاصات الأقمشة.

ابتسم قائلاً:

- حسناً، ألم تكن تصوراتك صحيحة؟

فقلت:

- لا أعرف، لم أكتشف ذلك قطُّ.

ثم أخبرته كيف قرعت الجرس لأطلب المصعد، وبينما أفعل ذلك، فتشت هي في حقيبتها، وناولتني ورقة مالية من فئة مائة فرنك، وهمست بنبرة حميمية مزعجة:

- هاك، أريدك أن تقبلي هذه العمولة البسيطة مقابل إحضار ربة عملك إلى متجري.

وعندما رفضت وقد تخضب وجهي بفعل الحرج، هزت كتفيها على نحو كربه، وقالت:

- كما تشائين، لكن أؤكد لك أن الأمر عادي تماماً. ربما تفضلين الحصول على فستان. تعالي إلى المتجر في وقت ما من دون السيدة، وسأعتني بأمرك من دون أن أطلب منك دفع المقابل.

بطريقة ما، من دون أن أعرف السبب، انتابني ذلك الشعور المرّضي المزعج الذي أحسسته كطفلة وأنا أقلب صفحات كتاب ممنوع. تلاشت صورة الابن المصاب بالسل، وظهرت بدلاً منها صورتِي أنا، لو كنت مختلفة، وقبلت تلك الورقة المالية القذرة بابتسامة متفهمة، وربما تسللت إلى متجر بليز عصر هذا اليوم الذي ليس لديّ فيه أي ارتباطات، وعدت بفستان لم أدفع ثمنه.

توقعت منه أن يضحك، إذ كانت قصة غبية، لا أعرف لماذا أخبرته بها، لكنه نظر إليّ بتمعن وهو يحرك قهوته.

قال بعد لحظة:

- أعتقد أنك ارتكبت خطأ كبيرًا.

سألته باشمئزاز:

- لأنني رفضت المائة فرنك؟

- لا، يا إلهي، أي نوع من البشر تظننني؟ أعتقد أنك ارتكبت خطأ في المجيء

إلى هنا، وفي الانضمام إلى السيدة فان هوبر. لم تُخلقي لمثل ذلك النوع

من العمل. أولاً، أنت صغيرة جدًا، وهشة أكثر مما يجب. بالنسبة إلى بليز

وعمولتها، فإن هذا لا يمثل شيئًا. بل هو الأول من بين العديد من الحوادث

المماثلة من آخرين مثل بليز. ستضطرين إما إلى الاستسلام، حتى تصبحي

أنت نفسك مثل بليز، وإما ستظلين كما أنت وتعانين الانكسار. من اقترح

عليك ممارسة هذا العمل منذ البداية؟

بدا من الطبيعي أن يستجوبني، ولم يكن لديّ مانع. كان الأمر كأننا نعرف

بعضنا بعضًا منذ فترة طويلة، وقد التقينا مرة أخرى بعد انقطاع دام سنوات.

سألني:

- هل فكرت من قبل في المستقبل؟ وإلى ما سيؤدي إليه مثل هذا الشيء؟

لنفترض أن السيدة فان هوبر سئمت من «صديقتها المقربة من القلب»،

ماذا إذن؟

ابتسمت وقلت له إنني لا أهتم كثيرًا، فسوف تكون هناك أخريات مثل السيدة

فان هوبر، وأنا شابة، واثقة، وقوية. لكن حتى في أثناء حديثه، تذكرت تلك

الإعلانات التي نراها كثيرًا في المجلات الراقية، حيث تطلب جمعية لطيفة

العون للشابات اللواتي تدهورت بهن الظروف. فكرت في نوعية الملاجئ التي

تستجيب لتلك الإعلانات وتوفر مأوى مؤقتًا، ثم رأيت نفسي وفي يدي دفتر

الرسم عديم الجدوى، من دون مؤهلات من أي نوع، وأنا أتلثم في ردودي

على وكلاء التوظيف الصارمين. ربما كان ينبغي لي قبول نسبة العشرة في المائة التي عرضتها بليز.
قال:

- كم عمرك؟

وعندما أخبرته، ضحك وقام من كرسيه.

- أعرف هذه السن، إنها تتسم بالعناد على وجه الخصوص، ولن يخيفك ألف غول من المستقبل. من المؤسف أننا لا نستطيع التبادل. اصعدي إلى

الطابق العلوي وارتي قبعتك، وسأطلب منهم إحضار السيارة.

بينما هو يراقبني وأنا أركب المصعد، فكرت في يوم أمس، وثرثرة السيدة فان هوبر، وكياسته الباردة. لقد أسأت الحكم عليه، فلم يكن قاسياً ولا ساخراً، بل صار كأنه صديقي بالفعل منذ سنوات، والأخ الذي لم أحظَ به قط. كنت في حالة مزاجية سعيدة عصر ذلك اليوم، وأذكر ذلك جيداً. في وسعي رؤية السماء المموجة المليئة بالغيوم الناعمة، والبحر الذي يعلوه الزبد الأبيض. ويمكنني مرة أخرى الشعور بالهواء على وجهي، وسماع ضحكاتي، وضحكاته التي تتجاوب معي. لم تكن تلك مونت كارلو التي عرفتھا، أو ربما كانت الحقيقة أنها أعجبتني بدرجة أكبر، وصار بها سحر لم يكن موجوداً في السابق. لا بد أنني نظرت إليها من قبل بعينين ضجرتين. بدا المرفأ يتراقص، بكل القوارب المرتعشة، والبحارة على الرصيف مرحين ومبتسمين، ومبتهجين مثل الريح. مررنا باليخت الذي تحبه السيدة فان هوبر، بسبب مالكة الدوق، وطرقتنا بأصابعنا على النحاس اللامع، ثم نظرنا إلى بعضنا وضحكنا ثانية. أذكر الأمر كما لو كنت لا أزال أرتدي بدليتي المريحة، التي لا يناسبني مقاسها، والمصنوعة من قماش الفلانيل، وكيف كانت الثنورة أخف من السترة، نظرًا إلى تأكلها بفعل الاستهلاك. كما أذكر أيضًا قبعتي البالية، ذات الحافة الواسعة للغاية، وحذائي ذا الكعب المنخفض المربوط بسوار واحد، وقد قبضت على زوجين من القفازات بيدٍ متسخة. لم يسبق أن بدوت أكثر شبابًا من قبل، ولم أشعر بأنني كبيرة في

السن إلى هذا الحد من قبل. لم يكن للسيدة فان هوبر والإنفلونزا التي أصابتها أي وجود بالنسبة إليّ، ونسيت أمر حفلات البريدج والكوكيتيل، ونسيت معها مكانتي المتواضعة. صرت شخصًا مهمًا، وقد كبرت أخيرًا. تلك الفتاة التي يعذبها الخجل، وهي تقف خارج باب الغرفة تبرم منديلًا بين يديها، بينما تصل إليها من الداخل أصوات الثرثرة المشوشة التي تصيب الشخص الدخيل بالاضطراب: تلك الفتاة ذهبت مع الريح عصر ذلك اليوم. كانت مخلوقًا بائسًا، وفكرت فيها بازدراء، إذا خطرت على بالي من الأساس.

اشتدت الريح بدرجة لا تسمح بالرسم، وعصفت الزوابع في أركان ساحتي المرصوفة بالحصى، فعدنا إلى السيارة وتحركنا من دون أن أعرف وجهتنا. امتد الطريق الصاعد فوق التلال، وصعدت معه السيارة، ودرنا في المرتفعات مثل طائر في الهواء. كم تختلف سيارته عن تلك التي استأجرتها السيدة فان هوبر لهذا الموسم، وهي سيارة ديملر حادة الزوايا قديمة الطراز، كانت نقلنا إلى متون في فترات ما بعد الظهيرة الهادئة، بينما أجلس على المقعد الصغير وظهري للسائق، وأضطر إلى أن ألوي عنقي كي أتمكن من رؤية المنظر. فكرت في أن هذه السيارة لها جناحان كعطارد، رسال الآلهة، لأننا واصلنا الصعود بسرعة خطيرة، وقد أسعدني الخطر لأنه كان جديدًا بالنسبة إليّ، ولأنني كنت صغيرة في السن.

أتذكر الضحك بصوت مرتفع، والريح تحمل الضحكات بعيدًا، ثم نظرت إليه وأدركت أنه لم يعد يضحك، وصار صامتًا ومنعزلًا مرة أخرى، مثلما كان بالأمس، متشحًا بذاته الغامضة.

كما أدركت أن السيارة لم يعد في وسعها الصعود، لأننا وصلنا إلى القمة، وامتد بالأسفل الطريق الذي أتينا عبره، وعزًا وغائثًا. أوقف السيارة، ورأيت أن حافة الطريق تشارف منحدرًا رأسيًا متداعيًا تحته هوة تبلغ ألفي قدم تقريبًا. ترجلنا من السيارة، ونظرنا تحتنا، فأعادني ذلك إلى رشدي، وأدركت أنه لم يحل بيننا وبين السقوط إلا مسافة تبلغ نصف طول السيارة. امتد البحر حتى الأفق، مثل خريطة

مجمعة، وداعبت أمواجه خطوط الساحل الحادة، بينما بدت البيوت مثل صدقات
بيضاء في مغارة مستديرة تخترقها هنا وهناك شمس برتقالية عظيمة. خبرنا ضوء
شمس من نوع آخر على تلنا ذاك، وجعله الصمت أقسى وأشد صرامة، كما طرأ
تغير على عصر اليوم، فلم يعد رقيقاً كما كان. سكنت الريح، وحلت البرودة فجأة.
عندما تحدثت، بدا صوتي لامبالياً بدرجة كبيرة، لكنه كان صوتاً ساذجاً ومتوتراً
لشخص يشعر بالقلق. قلت:

- هل تعرف هذا المكان؟ هل أتيت إلى هنا من قبل؟

نظر إليّ من دون إدراك، وخطر لي بشيء من القلق أنه لا بد أن يكون قد
نسي وجودي تمامًا، ربما فترة طويلة من الوقت، وأنه ضائع وسط متاهة أفكاره
المضطربة، إلى درجة أنه لم يعد لي وجود. بدت ملامحه كشخص يسير في أثناء
نومه، وللحظة جامحة خطر لي أنه ربما لا يكون طبيعيًا، وليس عاقلًا تمامًا. كان
هناك أشخاص يعانون حالات تشبه الغيبوبة، وقد سمعت عنهم بكل تأكيد،
ويتبعون قوانين غريبة لا نعرف عنها شيئًا، ويطيعون الأوامر المتشابكة لعقولهم
اللاواعية. ربما كان أحدهم، وها نحن أولاء على بُعد ست أقدام من الموت.
قلت بنبرة لامبالية، وبابتسامة صغيرة عقيمة لا يمكنها خداع طفل:

- لقد تأخر الوقت، هلاً عدنا الآن؟

أخطأت في حكمي عليه، بالطبع، ولم يكن ثمة خطب، فبمجرد أن تحدثت
للمرة الثانية، استفاق من حلمه وشرع يقدم الاعتذار. أعتقد أنني شحبت، ولاحظ
هو ذلك.

قال:

- كان ذلك أمرًا لا يغتفر من جانبي.

ثم أخذ بذراعي ودفعني إلى الوراء في اتجاه السيارة، وركبنا مرة أخرى
وأغلق الباب.

قال:

- لا تخافي، فالدوران إلى الخلف أسهل كثيرًا مما يبدو عليه.

وبينما شعرت بالغثيان والدوار، وتشبثت بالمقعد بكلتا يدي، ناور هو بالسيارة برفق شديد، حتى واجهت الطريق المنحدر مرة أخرى.
فارقني الشعور بالتوتر والسيارة تزحف في طريقها للنزول عبر الطريق الضيق الملتوي، وقلت:

- إذن فقد أتيت إلى هنا من قبل؟

قال:

- أجل.

ثم صمت برهة قبل أن يتابع:

- لكن لم آت منذ سنوات عديدة، وأردت رؤية ما إذا كان المكان قد تغير.
سأله:

- وهل تغير؟

قال:

- لا، لا لم يتغير.

تساءلت ما الذي دفعه إلى هذا التراجع نحو الماضي، وأنا شاهدة غير واعية على حالته المزاجية. أي فجوة من السنوات امتدت بينه وبين ذلك الزمن الآخر، وأي أفكار وأفعال، وأي فرق في المزاج؟ لم أريد أن أعرف، وتمنيت لو أنني لم أحضر.

نزلنا عبر الطريق الملتوي من دون توقف، ومن دون التفوه بكلمة، وامتدت سلسلة ضخمة من السحب فوق شمس الغروب، وبدا الهواء باردًا ونقيًا. فجأة، بدأ يتحدث عن ماندري. لم يقل شيئًا عن حياته هناك، ولم ينطق بكلمة عن نفسه، لكنه أخبرني كيف يبدو غروب الشمس هناك بعد عصر يوم ربيعي، تاركًا وهجًا على الرؤوس البحرية. يبدو البحر كالأردواز، وهو لا يزال باردًا عقب الشتاء الطويل، ومن الشرفة يمكنك سماع خرير المد القادم وهو يصل إلى الخليج الصغير. أينعت زهور النرجس وتراقصت مع نسيم المساء، برؤوسها الشبيهة بكؤوس ذهبية فوق سيقان نحيلة، ومهما قطفت منها، لن تقل أعدادها المحتشدة

كجيش متلاصق، كثفًا بكتف. وعلى الضفة أسفل المروج زُرعت زهور الزعفران الذهبية والوردية والبنفسجية، لكنها لن تكون في أفضل حالاتها في هذا الوقت، وقد أخذت تذوي وتلاشى، مثل زهور الثلج الشاحبة. أما زهرة الربيع المسائية، فكانت مألوفة أكثر، وهي نبات لطيف بسيط يظهر في كل الشقوق كالأعشاب الضارة. وكان الوقت لا يزال مبكرًا جدًا لظهور زهور عشبة الجريس، إذ كانت رؤوسها لا تزال مخفية تحت أوراق العام الماضي، لكن عند ظهورها، كانت تتضائل بجانبها زهور البنفسج الأكثر تواضعًا، وتختنق تحتها السراخس في الغابة، ويشكل لونها تحديًا للسماء.

قال إنه لا يضعها داخل المنزل أبدًا، إذ إنها تصير رطبة وذابلة عند وضعها في مزهريات، ولرؤيتها في أفضل حالاتها، عليك الذهاب للتمشية في الغابة بالنهار، في الساعة الثانية عشرة تقريبًا، عندما تتوسط الشمس السماء. كانت رائحتها كريهة ولاذعة نوعًا ما، كأن هناك عصارة برية تجري في سيقانها، حادة وغضة. اعتاد المخربون قطف زهور عشبة الجريس من الغابة، فحرم ذلك في ماندرلي. وفي بعض الأحيان، وهو يقود سيارته في الريف، كان يرى راكبي الدراجات الذين ربطوا أمامهم على مقود الدراجة باقات ضخمة منها، وقد بدأت الزهور تذبل بالفعل على رؤوسها المحتضرة، والسيقان التالفة تتدلى عارية ورثة.

لكن زهرة الربيع المسائية لم تكن تمنع ذلك بدرجة كبيرة، فعلى الرغم من كونها مخلوقًا بريًا، فإنها كانت تميل نحو التحضر، ويمكنها أن تتأنق وتبتسم في جرة مربى في نافذة أحد الأكواخ من دون استياء، وتعيش أسبوعًا تقريبًا إذا رُويت بالماء. لكن لم تكن أي زهور برية تدخل المنزل في ماندرلي، إذ إنه زرع زهورًا مخصوصة للمنزل فقط، في الحديقة المُسورة. قال إن الورد واحدة من الزهور القليلة التي تبدو عند قطفها أفضل مما تبدو عليه وهي مزروعة: يتسم وعاء من الورد في غرفة المعيشة بعمق في اللون والرائحة لم يكن الورد يتمتع بهما في العراء. وكان هناك نوع من الرثاءة التي تحيط بالورد في كامل تفتُّحه: شيء يوحي بالضحالة والخشونة، مثل النسوة اللاتي لهن

شعور مهوشة. لكن داخل المنزل، كان الورد يبدو غامضًا ورقيقًا، وكان يتمتع به في المنزل بماندرلي لمدة ثمانية أشهر في السنة. سألني ما إذا كنت أحب الليلك، حيث توجد شجرة على حافة المرج، يمكنه شمها من نافذة غرفته. واعتادت شقيقته، التي تتصف بأنها صارمة وعملية، أن تشتكي كثرة الروائح في ماندرلي، إلى درجة تصيبها بالدوار. ربما كانت محقة، لكنه لم يكثر. كان ذلك هو الشكل الوحيد من النشوة الذي يجذب إليه، وأولى ذكرياته هي أغصان ضخمة من الليلك، قائمة في جِرار بيضاء، ملأت المنزل برائحة حزينة حادة.

انتشرت مجموعات من زهور الأزاليا والروودندرون المزروعة على يسار الممر الصغير الممتد من الوادي إلى الخليج، وإذا تجولت عبره في إحدى أمسيات شهر مايو بعد العشاء، سيبدو الأمر كأن الشجيرات قد تعرّقت في الجو. يمكنك الانحناء والتقاط بتلة ساقطة، وسحقها بين أصابعك، فيصير لديك في راحة يدك جوهر ألف رائحة، قوية وعذبة، وكل ذلك من بتلة ملتفة ذابلة. ثم تخرج بعد ذلك من الوادي، منتشيًا ومصابًا بالدوار نوعًا ما، لتصل إلى حصي الشاطئ الأبيض الصلب والمياه الساكنة، وهو تباين غريب، وربما مفاجئ على نحو زائد....

وبينما واصل الحديث، عادت السيارة واحدة من عدة سيارات مرة أخرى، وحل الغسق من دون أن ألاحظ ذلك، وصرنا في وسط الضوء والضوء في شوارع مونت كارلو. أثار الضجيج أعصابي، وبدت الأضواء ساطعة للغاية، فاقعة الصفرة. بدا ذلك إحباطًا سريعًا وغير مرحب به.

سرعان ما وصلنا إلى الفندق، وبحث عن قفازي في جيب السيارة، فعثرت عليهما، وقبضت أصابعي على كتاب أيضًا، كان سمكه الرفيع يشي بأنه ديوان شعر. ألقيت عليه نظرة لقراءة العنوان، بينما كانت السيارة تبطئ أمام باب الفندق. بدت نبرته عرضية ولا مبالية، بعد أن انتهت الرحلة وعدنا مرة أخرى، وماندرلي على بُعد مئات الأميال، وقال:

- يمكنك أن تأخذه لتقرئه، إذا شئت.
أسعدني ذلك، وأمسكته بإحكام مع قفازي. شعرت بأنني أريد شيئاً ما من ممتلكاته، الآن بعد أن شارف اليوم على نهايته.
قال:

- انزلي، فعليّ الذهاب لأضع السيارة مكانها، ولن أراك في المطعم هذا المساء، لأنني سأتناول الطعام بالخارج، لكن شكرًا لك على هذا اليوم.
صعدت درج الفندق وحدي، بكل اليأس الذي يحمله طفل انتهت متعته. لم يعد في وسعي الاستمتاع بالساعات المتبقية من اليوم، بعد الأمسية التي قضيتها، وفكرت كم سيبدو الوقت طويلًا حتى يحين موعد نومي، وكم سيبدو عشائي وحدي مليئًا بالوحدة. بطريقة أو بأخرى، لم تكن في وسعي مواجهة استفسارات الممرضة المبتهجة في الطابق العلوي، ولا احتمالات الخضوع لاستجواب السيدة فان هوبر بصوتها الأجهش، لذلك جلست في أحد أركان الردهة خلف عمود، وطلبت الشاي.

بدا الضجر على النادل، ولم يشعر بالحاجة إلى الاستعجال عندما رأيته هناك وحدي. وعلى أي حال، كنا في ذلك الوقت الممل من اليوم، وقد تجاوزت الساعة الخامسة والنصف ببضع دقائق، أي بعد انتهاء الموعد التقليدي للشاي، بينما لا يزال موعد تناول المشروبات بعيدًا.

شعرت بالحزن نوعًا ما، وبلاستياء بعض الشيء، فاستندت إلى الوراء في مقعدي، والتقطت ديوان الشعر. بدا الكتاب مهترئًا بسبب فرط قراءته، وانفتح تلقائيًا على صفحة لا بد أن القارئ اعتاد التردد عليها بكثرة.

فررت منه، عبر الليالي والأيام
فررت منه، عبر جسور الأعوام
فررت منه، عبر دروب ذهني الملتفة كمتاهات
وفي خضم الدموع اختبأت منه، ووسط خريف الضحكات

وأسرعت صاعدًا المنحدرات المترامية
ثم انطلقت مندفعًا في أغوار ظلمات هائلة كالهواية
خوفًا من تلك الأقدام القوية، التي تتبعني وتلاحقني (*)

شعرت كأني شخصٌ يسترق النظر من خلال ثقب مفتاح باب مغلق، وبنوع
من الخلسة، نحيت الكتاب جانبًا. تُرى أي كلب من السماء طارده عبر التلال
المرتفعة عصر اليوم؟ فكرت في سيارته، التي لم يفصل بينها وبين تلك الهوة
البالغة ألفي قدم إلا مسافة تبلغ نصف طول السيارة، وفي ذلك التعبير الخاوي
المرتسم على ملامحه. أي خطوات تلك التي تردد صدى وقعها في ذهنه؟ وأي
همسات وأي ذكريات؟ ولماذا، من بين جميع دواوين الشعر، احتفظ بهذا في
جيب سيارته؟ تمنيت لو كان نائيًا بدرجة أقل، وأنا أي شخص آخر، سوى تلك
المخلوقة التي كنتها في سترتي وتنورتي الرثة، وقبعتي عريضة الحواف الشبيهة
بقبعات تلميذات المدارس.

أحضر لي النادل العابس الشاي، وبينما كنت أتناول الخبز والزبدة التي بلا
طعم مثل نشارة الخشب، فكرت في المسار عبر الوادي الذي وصفه لي بعد ظهر
اليوم، ورائحة الأزاليا، والحصى الأبيض على شاطئ الخليج. إذا كان يحب كل
ذلك إلى هذا الحد، فلماذا سعى إذن خلف الزبد السطحي في مونت كارلو؟ قال
للسيدة فان هوبر إنه لم يضع أي خطط، بل أتى في عجلة نوعًا ما. تخيلته وهو
يركض عبر ذلك الممر في الوادي، وفي أعقابه كلبه الخاص من السماء.

التقطت الكتاب مرة أخرى، وانفتح هذه المرة على صفحة العنوان، فقرأت
الإهداء: «ماكس - من ريبكا، ١٧ مايو»، وقد كُتِبَ بخط غريب مائل. شوهدت
قطرة صغيرة من الحبر الصفحة البيضاء المقابلة، كأن الكاتبة هزت قلمها بنفاد
صبر، لتجعل الحبر يتدفق بحرية. بعد ذلك، وهو يسيل عبر سن القلم، أتى سميكا

(*) الأبيات من قصيدة بعنوان «كلب السماء» للشاعر فرنسيس تومسون. (الترجمة).

بعض الشيء بحيث برز اسم ريبيكا بلون أسود قوي، وتضاءلت الحروف الأخرى بجانب حرف الراء الطويل المائل.

أغلقتُ الكتاب بقوة، ووضعتُه أسفل قفازي. ثم مددت يدي إلى مقعد قريب، وتناولت عددًا قديمًا من مجلة «الإليو ستراسيون»، وقلبت صفحاتها. كانت هناك بعض الصور الجميلة لقصور نهر لوار، بالإضافة إلى مقال. قرأته بتمعن، وراجعت الصور، لكن عندما انتهيت منه، لم أدر ما إذا كنت فهمت منه كلمة واحدة. لم تكن مدينة بلوا، بأبراجها الرفيعة وقممها المستدقة، هي ما يطالعني من الصفحات المطبوعة، بل كان وجه السيدة فان هوبر في المطعم في اليوم السابق، وعيناها الصغيرتان كعيني خنزير ترددان على الطاولة المجاورة، وقد توقفت شوكتها المكدسة بالرافيولي في منتصف الطريق.

كانت تقول:

- كانت مأساة مروعة، امتلأت بها الصحف، بالطبع. يقولون إنه لا يتحدث عن ذلك مطلقًا، ولا يذكر اسمها أبدًا. لقد غرقت كما تعلمين، في الخليج بالقرب من ماندرلي...

من دواعي سعادتي أنه لا يمكن وقوع ذلك الأمر مرتين: حمى الحب الأول، حيث إنها حمى، وعبء أيضًا، بصرف النظر عما يقوله الشعراء. ولا تتسم أيامنا بالشجاعة، ونحن في الحادية والعشرين من العمر، بل إنها مليئة بالعجب البسيط والمخاوف الصغيرة التي بلا أساس، ومن السهل أن يصاب المرء بالكدمات، وينجرح بسرعة، ويسقط أمام أول كلمة شائكة. اليوم، مع الاحتماء بدروع الرضا عن النفس والاقتراب من منتصف العمر، فلا يوجد تأثير كبير للوخزات اليومية اللامتناهية في الصغر، وسرعان ما يُنسى أمرها. لكن حينها، كم كان يمكن لكلمة عابرة أن تبقى، وتصبح وصمة عار نارية، وكم كان يمكن لنظرة أو التفاتة من فوق الكتف أن تتسم بالأبدية. كان الإنكار أشبه بإنكار بطرس للمسيح، والنفاق يبدو أشبه بقُبلة يهوذا. يمكن للعقل البالغ أن يكذب بضمير مستريح ورباطة جأش مبتهجة، لكن في تلك الأيام، حتى الخداع البسيط كان يكحت اللسان، ويربط المرء في عمود المحرقة.

يمكنني سماعها الآن، وهي مستندة إلى وسائدها، بكل ذلك الضيق البسيط للمريض الذي لا يعاني مرضًا بالفعل، لكنه رقد في الفراش فترة أطول من اللازم، وتقول:

- ماذا فعلتِ هذا الصباح؟

بينما شعرت بعنقي تصطبغ ببقع حمراء بفعل الشعور بالذنب، وأنا أمد يدي إلى درج طاولة الفراش الجانبية لجلب بطاقات اللعب.

قلت لها:

- لعبت التنس مع المدرب.

ودفعتني هذه الكلمات الكاذبة إلى الشعور بالذعر وأنا أنطق بها، فماذا لو أتى المدرب بنفسه إلى جناحها عصر اليوم، ودخل ليشتكى أنني فوتُ دروسي لعدة أيام؟

قالت:

- المشكلة في بقائي راقدة على هذا النحو، أنه ليس لديك الكثير لفعله. سحقَت سيجارتها في جرة من كريم تنظيف البشرة، وتناولت البطاقات بيدها وخلطتها بالسرعة المزعجة التي يتسم بها اللاعب العريق، وألقت بها في ثلاث أكوام، وهي تضرب ظهر البطاقات بعضها ببعض. تابعت قائلة:

- لا أدري ما الذي تفعلينه طوال اليوم، فليست لديك أي رسوم لتريني إياها، وعندما طلبت منك التسوق من أجلي، نسيت شراء دواء تاكسول. كل ما يمكنني قوله هو أنني أتمنى أن يتحسن لعبك للتنس، فسوف يفيدك ذلك لاحقًا. إذ إن اللاعب السيئ يبعث على الملل بدرجة كبيرة. هل ما زلت تلجئين إلى ضربات الإرسال المخادع؟

ألقت ملكة البستوني في الكومة، وحقق إليّ الوجه المكفهر كوجه إيزابل. قلت:

- أجل.

وآلمني سؤالها، وأنا أفكر كيف أن كلمتها تلك منصفة وملائمة تمامًا: وصفتني جيدًا، فقد كنت مخادعة. لم أَلعب التنس مع المدرب قطُّ، ولم أَلعب ولو مرة واحدة منذ أن رقدت في الفراش، وكان ذلك منذ أكثر من أسبوعين بقليل. تساءلتُ عن سبب تمسكي بذلك التحفظ، ولماذا لم أخبرها بأنني أذهب مع دي وينتر في سيارته كل صباح، وأتناول الغداء معه أيضًا على طاولته في المطعم. واصلتُ قائلة:

- يجب عليك الاقتراب من الشبكة أكثر، ولن تلعب جيداً أبداً حتى تفعل ذلك.

وافقتها وأنا أجفل من نفاقي، وغطيت الملكة بولد القلوب ذي الذقن الصغير. لقد نسيت الكثير من مونت كارلو، ومن تلك الرحلات الصباحية، وإلى أين ذهبنا، وحتى حديثنا، لكنني لم أنس كيف ارتجفت أصابعي وأنا أحشر قبعتي فوق رأسي، وكيف ركضت عبر الممر وركضت نازلة الدرج، حيث نفذ صبري ولم أطق انتظار أنين المصعد البطيء، حتى خرجت واحتككت بالباب الدوار قبل أن يتمكن حارس الباب من مساعدتي.

سيكون هناك، في مقعد السائق، يقرأ صحيفة بينما هو ينتظر، وعندما يراني، يتسم ويلقيها في المقعد الخلفي، ويفتح الباب قائلاً:

- حسناً، كيف حال الصديقة المقربة من القلب هذا الصباح، وإلى أين تريد الذهاب؟

لم يكن الأمر ليشكل معي أي فرق لو أنه قاد السيارة في دوائر، إذ كنت في مرحلة التوهج الأولى تلك، عندما كان مجرد الجلوس في المقعد المجاور له، والانحناء نحو النافذة الأمامية وأنا محتضنة ركبتي، يكادان يكونان أكثر مما أستطيع تحمله. كنت أشبه بتلميذ صغير رث، شغوف بعريف من الصف السادس، بينما كان هو اللطيف وأصعب منالاً بكثير.

- هناك ريح باردة هذا الصباح، من الأفضل أن ترتدي معطفي. أذكر ذلك، لأنني كنت صغيرة بما يكفي لاكتساب السعادة من ارتداء ملابسه، ولعب دور التلميذ مرة أخرى، الذي يحمل سترة بطله ويربطها حول عنقه وهو ينفجر تيهًا، وكانت استعارة معطفه وارتداؤه حول كتفي ولو لبضع دقائق في المرة بمنزلة انتصار في حد ذاته، أضفى بريقاً على صباحي.

لم يكن لي أنا ذلك الهدوء والرقعة اللذين قرأت عنهما في الكتب، بل التحدي والمطاردة، والمبارزة والنظرات الخاطفة والابتسامات المحفزة. لم يكن فن الإثارة معروفاً لي، وكنت أجلس وخريطته على حجري، والريح تطير شعري

الباهت الخفيف، وأنا سعيدة بصمته، لكنني أتلهف إلى كلماته. وسواء تحدث أم لا، لم يكن ذلك يُحدث فرقاً يُذكر في حالتي المزاجية. كان عدوي الوحيد هو الساعة على لوحة القيادة، التي كانت عقاربها تتحرك بلا هوادة نحو الساعة الواحدة. اتجهنا بالسيارة شرقاً وغرباً، وسط عدد لا يُحصى من القرى التي تشبث كالبطلينوس على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، واليوم لا أتذكر أيّاً منها.

كل ما أتذكره هو ملمس المقاعد الجلدية، وملمس الخريطة على ركبتَي، وحوافها البالية، وثباتها المهرثة، وكيف قلت لنفسِي ذات يوم وأنا أطلع الساعة: «هذه اللحظة الآن، في الحادية عشرة بعد الظهر، يجب ألا تضيق أبداً»، وأغمضت عيني لأجعل التجربة تدوم أكثر. عندما فتحت عيني، كنا عند منعطف على الطريق، ولوحت لنا فتاة ريفية ترتدي شالاً أسود. أستطيع رؤيتها الآن، بتنورتها المتربة، وابتسامتها اللامعة الودود، وفي غضون ثانية تجاوزنا المنعطف ولم تعد في وسعنا رؤيتها. باتت تنتمي إلى الماضي بالفعل، وأصبحت مجرد ذكرى.

أردت العودة ثانية، لاستعادة اللحظة التي مرت، ثم خطر لي أنه إذا فعلنا فلن تكون هي نفسها، وحتى الشمس ستتغير في السماء، وتلقي ظلالاً أخرى، وستمر الفتاة الريفية أمامنا عبر الطريق بطريقة مختلفة، من دون أن تلوح هذه المرة، وربما لا ترانا حتى. بدا هناك شيء مخيف في الفكرة، شيء حزين نوعاً ما، ونظرت إلى الساعة فرأيت أن خمس دقائق أخرى قد مرت. سرعان ما سنصل إلى نهاية وقتنا، ونضطر إلى العودة إلى الفندق.

قلت باندفاع:

- أتمنى لو أمكن أن يكون هناك اختراع يخزن الذكرى مثل الرائحة، بحيث لا تتلاشى أبداً، ولا تفقد نضارتها. وبعد ذلك، عندما يريد المرء، يمكن فتح الزجاجاة وسيصبح الأمر كأنه يعيش اللحظة من جديد.

رفعت إليه عيني لأرى ماذا سيقول، لكنه لم يلتفت إليّ، واستمر في مراقبة الطريق أمامنا.

قال:

- أي لحظات معينة في حياتك الشابة تريد فتح زجاجتها؟
لم أستطع أن أميز من صوته ما إذا كان يشاكسني أم لا. شرعت قائلة:
- لست متأكدة.

ثم واصلت الحديث بحماسة نوعاً ما، من دون التفكير في كلماتي:
- أود الاحتفاظ بهذه اللحظة وعدم نسيانها أبداً.
قال:

- هل يفترض أن تكون هذه مجاملة لليوم أم لقيادتي؟
وبينما هو يضحك، مثل أخ مشاكس، صمتُ، وقد غمرني فجأة الشعور بالهوة
الكبيرة بيننا، وكيف أن لطفه معي يزيد اتساعها.
علمت حينها أنني لن أخبر السيدة فان هوبر أبداً عن هذه الرحلات الصباحية،
لأن ابتسامتها ستؤلمني كما فعلت ضحكته. لن تغضب، ولن تبدو عليها الصدمة،
بل سترفع حاجبها بعض الشيء كأنها لا تُصدق حكايتي تماماً، ثم تهز كتفيها
بتسامح قائلة:

- يا طفلي العزيزة، إنه لطف وكرم بالغ منه أن يصطحبك للتنزه بالسيارة،
لكن الشيء الوحيد في الأمر هو، هل أنت متأكدة أن ذلك لا يشير ضجره
على نحو رهيب؟

ثم سترسلني إلى شراء دواء تاكسول، وهي تربت على كتفي. فكرت كم هو
مهين أن يكون المرء في سن الشباب، وشرعت أقضم أظفاري.
تخلّيت عن أي محاذير، وقلت بشراسة، وأنا لا أزال واعية لضحكته:
- أتمنى... أتمنى لو كنت امرأة في السادسة والثلاثين تقريباً، أرثدي الساتان
الأسود وعقدًا من اللؤلؤ.

قال:

- لن تكوني معي في هذه السيارة لو كنت كذلك. وتوقفي عن قضم أظفارك
تلك، فهي قبيحة بما فيه الكفاية بالفعل.
تابعت قائلة:

- أعتقد أنك ستظنني وقحة وفظة، لكنني أود أن أعرف لماذا تطلب مني الخروج معك بالسيارة، يومًا بعد يوم؟ من الواضح أنك تعاملني بلطف، لكن لماذا اخترتني أنا لكرمك هذا؟

جلست في مقعدي منتصبه ومتصلبه، بكل الغطرسة البائسة للشباب.
قال بجدية:

- أطلب منك هذا لأنك لا ترتدين الساتان الأسود مع عقد من اللؤلؤ، ولست في السادسة والثلاثين من عمرك.
بدا وجهه خاليًا من التعبير، ولم أستطع معرفة ما إذا كان يضحك من داخله أم لا.

قلت:

- كل هذا حسنٌ جدًّا، فأنت تعرف كل ما يمكن معرفته عني، وأعترف أنه لا يوجد الكثير، لأنني لم أحيَ فترة طويلة، ولم يحدث لي الكثير، باستثناء وفاة الناس، أما أنت، فلا أعرف شيئًا عنك أكثر مما عرفته في اليوم الأول للقائنا. سألني:

- وما الذي عرفته حينها؟

- أنك تعيش في ماندري، و... وأنت فقدت زوجتك.

ها قد قلتها أخيرًا، تلك الكلمة التي ظلت على طرف لساني طوال أيام. «زوجتك»، خرجت بسلاسة، من دون تردد، كأن مجرد ذكرها هو أكثر شيء عرضي في العالم. «زوجتك»، ظلت الكلمة عالقة في الجو ما إن تفوهت بها، وهي تتراقص أمامي، ولأنه استقبلها بصمت، من دون تعليق، تضخمت الكلمة وصارت شيئًا شنيعًا ومروعًا، كلمة محرمة، غير طبيعية على اللسان. ولم تعد في وسعي استعادتها، ولم يعد من الممكن إلغاء ما نطقت به. مرة أخرى، رأيت الإهداء المدوّن على الصفحة الخالية في مقدمة ديوان الشعر ذاك، وحرف الراء الغريب المائل. شعرت بالبرودة، وبسقم في قلبي. لن يسامحني أبدًا، وستكون هذه نهاية صداقتنا.

أذكر أنني حدثت أمامي مباشرة، عبر النافذة الأمامية للسيارة، من دون أن أرى شيئاً من الطريق الذي يمر مسرعاً، ولا تزال تلك الكلمة المنطوقة ترن في أذني. طال الصمت دقائق، وطالت الدقائق أميالاً، وفكرت أن كل شيء انتهى الآن، ولن أركب السيارة معه مرة أخرى. سيرحل غداً، وستنهض السيدة فان هوبر ثانية، وسأمشي أنا وهي عبر الشرفة كما كنا نفعل من قبل. سينزل الحمّال حقائبه، وسألمحها في مصعد الأمتعة وعليها ملصقات جديدة، مع صخب الرحيل القاطع، وصوت نقل تروس السيارة عند انعطافها، حتى يندمج ذلك الصوت مع حركة المرور العامة وتستوعبه، فيضيع إلى الأبد.

غرقت عميقاً في الصورة التي رسمتها، حتى إنني رأيت الحمّال يضع البقشيش في جيبه، ويعود عبر باب الفندق الدوار، وهو يلتفت ليقول شيئاً لحارس الباب، إلى درجة أنني لم ألحظ أن السيارة أبطأت في حركتها، ولم أعد إلى الواقع مرة أخرى إلا عندما توقفنا على جانب الطريق. جلس بلا حراك، ومن دون قبعته، وبوشاحه الأبيض حول رقبته، بدا أكثر من أي وقت مضى مثل شخص من العصور الوسطى يعيش داخل إطار. لم يكن ينتمي إلى المنظر الطبيعي المشرق، بل كان يجب أن يقف على درجات كاتدرائية كئيبة، وعباءته ملقاة إلى الوراء، بينما يندفع متسول أسفل قدميه للحصول على عملات ذهبية.

اختفى الصديق بلطفه ورفقته السلسة، وكذلك الأخ الذي سخر مني لقضم أظفاري. بدا هذا الرجل غريباً، وتساءلت عن سبب جلوسي بجانبه في السيارة. ثم التفت نحوي وتحدث قائلاً:

- تحدثت منذ قليل عن اختراع، أو خطة ما للقبض على الذكريات، وقلت لي إنك تودين معايشة لحظات مختارة من الماضي مرة أخرى. أخشى أنني أختلف عنك في التفكير، إذ إن كل الذكريات مريرة، وأفضل تجاهلها. حدث شيء ما قبل عام غير حياتي برمتها، وأريد أن أنسى كل مرحلة من مراحل وجودي حتى ذلك الوقت. لقد انتهت تلك الأيام وطُوست، ويجب أن أبدأ العيش من جديد. في اليوم الأول للقائنا، سألتني السيدة

فان هوبر عن سبب مجيئي إلى مونت كارلو. لقد وضعتُ سداً لحدس تلك الذكريات التي تودين إحياءها. لا يفلح الأمر دائماً، بالطبع، وأحياناً تكون الرائحة أقوى من الزجاجة، وأقوى مني، فيأتي الشيطان الكامن في المرء كمتلصصٍ ماهر ويحاول سحب السداً. فعلتُ ذلك في أول رحلة لنا بالسيارة، عندما صعدنا التلال ونظرنا من فوق الهاوية. كنت هناك قبل بضع سنوات مع زوجتي، وقد سألتني إذا كان المكان لا يزال كما هو، أو إذا تغير على الإطلاق. بدا كما هو تماماً، لكنني شعرت بالامتنان حين أدركت أنه محايد على نحو غريب، فلم يكن ثمة ما يشير إلى تلك المرة الأخرى، ولم أترك أنا وهي أي أثر. ربما كان ذلك بسبب وجودك معي. أتدري أنك محوت الماضي بالنسبة إليّ، بصورة أكثر فاعلية بكثير من كل الأضواء الساطعة لمونت كارلو؟ لولاك لرحلت منذ فترة طويلة، وذهبت إلى إيطاليا واليونان، وربما أبعد من ذلك. لقد جنّبتني كل ذلك الترحال. اللعنة على خطابك الصغير المتشدد الذي ألقيتَه عليّ، واللعنة على أفكارك بشأن لطفي وكرمي. لقد طلبت منك مرافقتي، لأنني أريدك وأريد صحبتك، وإذا كنت لا تصدقيني، فيمكنك النزول من السيارة الآن والبحث عن طريقة للعودة إلى المنزل.

جلست ساكنة ويدي في حجري، من دون أن أعرف إذا كان يعني ذلك أم لا. قال:

- حسناً، ماذا ستفعلين حيال ذلك؟

أعتقد أنني كنت سأبكي لو كنت أصغر بسنة أو سنتين. إن دموع الأطفال قريبة جداً من السطح، وتأتي عند أول أزمة. وبطبيعة الحال، شعرت بوخزها في عينيّ، وشعرت بوجهي يتخضب، ورأيت لمحة خاطفة لنفسي في المرأة التي تعلو نافذة السيارة الأمامية، ورأيت بالكامل منظري المؤسف بعينيّ المضطربتين ووجتيّ المخضبتين، وشعري الباهت المنسدل أسفل القبعة اللباد عريضة الحواف.

قلت وصوتي على وشك الارتجاف بدرجة خطيرة:

- أريد العودة إلى المنزل.

ومن دون التفوه بكلمة، أدار المحرك، ورفع قدمه عن دواسة الدبرياج، وأدار السيارة عائداً من الطريق الذي أتينا منه.

قطعنا الطريق بسرعة، وفكرت أن هذا أسرع مما يجب، وأسهل مما يجب، بينما يراقبنا الريف القاسي بلامبالاة. وصلنا إلى منعطف الطريق الذي أردت حبسه كذكرى، وكانت الفتاة الريفية قد اختفت، وبدت الألوان باهتة، ولم يعد يختلف في النهاية عن أي منعطف في أي طريق يمر به المئات من سائقي السيارات. اختفى سحره كما اختفت حالتي المزاجية السعيدة، وعند التفكير في ذلك، ارتجف وجهي الذي تجمدت ملامحه، وفقدت كبريائي كشخص بالغ، أما تلك الدموع الحقيمة التي فرحت بانتصارها، فأغرقت عينيّ وسالت على وجتنيّ. لم أستطع منعها، وجاءت بلا دعوة، وكان سيراني لو مددت يدي إلى جيبي بحثاً عن منديل، فاضطرت إلى تركها تسقط من دون أن تُمس، وعانيت مرارة الملح على شفتي، غارقة في أعماق الذل. لا أعرف ما إذا أدار رأسه لينظر إليّ، لأنني حدقت إلى الطريق أمامنا بنظرة ثابتة ومشوشة، لكنه فجأة مديده وأمسك يدي وقبّلها، ولم يقل شيئاً، ثم ألقى منديله على ركبتي، لكن الخجل غلبني فلم ألمسه.

فكرت في كل أولئك البطلات في الأعمال الأدبية اللاتي يبدون جميلات عندما يبكين، وعن مدى تبايني معهن بوجهي الملطخ المتورم، وعينيّ الحمراءوين. كانت نهاية كثيبة لصباحي، وامتد اليوم أمامي طويلاً. كان عليّ أن أتناول الغداء مع السيدة فان هوبر في غرفتها لأن الممرضة ستخرج، وبعد ذلك ستجعلني أشاركها في لعب الورق بكل الطاقة التي لا تعرف الكلل لشخص في مرحلة النقاهاة. عرفت أنني سأختنق في تلك الغرفة، إذ كان هناك شيء كرهه في ملاءات السرير الفوضوية، والبطانيات المتناثرة، والوسائد المجمعة، وطاولة الفراش الجانبية المغبرة بالبودرة والعطر المنسكب وأحمر

الشفاه المنصهر. ستتأثر فوق فراشها صفحات الصحف اليومية المنفصلة بعضها عن بعض والمطوية كيفما اتفق، بينما الروايات الفرنسية ذات الحواف الملتفة والأغلفة الممزقة ملقاة مع المجلات الأمريكية. كما كانت أعقاب السجائر المسحوقة في كل مكان: في علب كريمات تنظيف البشرة، وفي طبق من العنب، وعلى الأرض تحت الفراش. أبدى الزوّار كرمهم بالزهور، وتراصت المزهريات جنباً إلى جنب على أي شاكلة، ونباتات الصوب الزجاجية الغربية تراحم زهور السنط، بينما كانت أسوأها جميعاً سلة ضخمة مزينة بالأشرطة مليئة بصفوف متراصة من الفواكه المسكرة. وكان أصدقاؤها سيأتون لاحقاً لتناول المشروبات، التي عليّ إعدادها لهم وأنا أكره مهمتي تلك، بينما أشعر بالخجل والاضطراب في زاويتي، تحاصرني ثرثرتهم الببغاوية، وسأصبح كبش فداء لها مرة أخرى، وأتخضب خجلاً نيابة عنها عندما تغلبها الحماسة بذلك الحشد الصغير، وتعتدل في الفراش وتتحدث بصوت مرتفع أكثر من اللازم، أو تضحك أطول مما يجب، أو تمد يدها إلى الجرامافون المحمول وتشغل أسطوانة، وتهز كتفيها العريضتين مع اللحن. كنت أفضلها وهي منفعة وعصبية، وشعرها مرفوع بالدبابيس، وهي توبخني لأنني نسيت شراء دواء تاكسول. كان كل ذلك ينتظرني في جناحها، بينما بمجرد أن يتركني في الفندق، سيذهب هو بعيداً في مكان ما وحده، ربما باتجاه البحر، حيث يشعر بالريح على وجنتيه ويتبع الشمس، وقد يسرح في تلك الذكريات التي لا أعرف شيئاً عنها، التي لا أستطيع مشاركته إياها، وسيتجول بين السنوات التي انقضت.

باتت الهوة التي تفصل بيننا الآن أوسع مما كانت عليه في أي وقت مضى، ووقف بعيداً عني وهو يوليني ظهره، على الشاطئ الآخر. شعرت بأنني صغيرة وضييلة ووحيدة للغاية، والآن، على الرغم من كبريائي، وجدت منديله ومسحت أنفي، من دون أن أكتثر لمظهري الكئيب، فلا يمكن أن يكون لذلك أي أهمية أبداً.

قال فجأة، كأنه غاضب، أو يشعر بالملل:

- ليذهب كل هذا إلى الجحيم.

ثم جذبني إلى جواره، وأحاط كتفي بذراعه، وهو لا يزال ينظر أمامه مباشرة، ويده اليمنى على عجلة القيادة. أذكر أنه قاد السيارة أسرع حتى من ذي قبل، وقال:

- أعتقد أنك صغيرة بما يكفي لأن تكوني ابنتي، ولا أعرف كيف أتعامل معك. حينها ضاق الطريق عند منعطف، واضطر إلى الانحراف لتفادي كلب. ظننت أنه سيتركني، لكنه ظل يمسك بي إلى جانبه، وعندما تجاوزنا المنعطف وعاد الطريق مستقيمًا مرة أخرى، لم يفلتني، وقال:

- يمكنك أن تنسي كل ما قلته لك هذا الصباح، لقد انتهى كل ذلك ومضى. دعينا لا نفكر في ذلك مرة أخرى. دائمًا ما تناديني أسرتي باسم ماكسيم، وأريدك أن تفعلي الشيء نفسه، فقد التزمت معي سلوكًا رسميًا لما يكفي من الوقت.

تحسس حافة قبعتي، ثم أمسك بها ورماها وراء كتفه على المقعد الخلفي، ثم انحنى وقبّل قمة رأسي قائلاً:

- عديني بأنك لن ترتدي الساتان الأسود أبدًا. ابتسمت حينها، فضحك لي، وصار النهار مبهجًا مرة أخرى، والصباح ساطعًا، ولم يعد للسيدة فان هوبر وعصر ذلك اليوم أي أهمية، إذ إنه سيمر سريعًا، ثم ستحل الليلة، ويوم آخر غداً. شعرت بالثقة والبهجة، وفي تلك اللحظة كدت أمتلك الشجاعة الكافية لأدعي أننا متساويان. تخيلت نفسي أدخل غرفة السيدة فان هوبر متأخرة نوعًا ما للعب الورق معها، وعندما تستجوبني، سأثناء بلامبالاة قائلة: «لم أنتبه للوقت، إذ كنت أتناول الغداء مع ماكسيم».

كنت لا أزال صغيرة بما يكفي لاعتبار مناداة شخص ما باسمه الأول بمنزلة شيء يستحق الفخر، على الرغم من أنه ناداني باسمي الأول منذ البداية. وعلى الرغم من كل اللحظات المظلمة في ذلك النهار، فإنه رفعني إلى مستوى جديد من الصداقة، ولم أكن متخلفة وراءه بقدر كبير كما ظننت. كما أنه قبّلني أيضًا،

بشكل طبيعي تمامًا، وعلى نحو مريح وهادئ، ليس بصورة درامية مثل الكتب، ولا بشكل محرج. بدا أن ذلك أضفى بساطة على علاقتنا، وجعل كل شيء أسهل، ورُدِمت الهوة الكائنة بيننا في نهاية المطاف. كان عليّ مناداته باسم «ماكسيم». ولم يكن لعب الورق مع السيدة فان هوبر عصر ذلك اليوم مملاً كما كان يمكن أن يصير، على الرغم من أن شجاعتي خذلتني ولم أذكر شيئاً عن صباحي. فعندما جمعت بطاقات اللعب معاً في النهاية، ومدت يدها إلى علبتها، قالت عرضاً:

- أخبريني، هل لا يزال ماكس دي وينتر في الفندق؟

ترددتُ للحظة، مثل غطاس على حافة الهاوية، ثم فقدت هدوئي ورباطة جأشي اللذين تدربت عليهما، وقلت:

- نعم، أعتقد ذلك، فهو يأتي إلى المطعم لتناول وجباته.

ظننت أن أحدهم أخبرها، أو أن شخصاً ما شاهدنا معاً، أو أن مدرب التنس اشتكى لها، أو أن مدير الفندق أرسل رسالة، وانتظرت هجومها. لكنها استمرت في إعادة بطاقات اللعب إلى العلبة، وتثاءبت بعض الشيء، بينما رتبّت الفراش الفوضوي. ناولتها وعاء بودرة التجميل وحمرة الخدود وأحمر الشفاه، فنحّت بطاقات اللعب جانباً، وتناولت مرآة اليد من الطاولة بجانبها، وقالت:

- إنه جذاب، لكنه غريب الأطوار على ما أعتقد، ويصعب فهمه. ظننت أنه قد يبادر بدعوة المرأة إلى زيارة ماندرلي ذلك اليوم في الردهة، لكنه كان متحفظاً للغاية.

لم أقل شيئاً، وراقبتها تلتقط أحمر الشفاه وترسم قوساً على فمها القاسي. قالت وهي تبعد المرأة لترى التأثير:

- لم أرها قط، لكنني أعتقد أنها كانت جميلة جداً، ورائعة وبارعة من جميع النواحي. اعتادا إقامة حفلات هائلة في ماندرلي، وكان الأمر مفاجئاً ومأساوياً للغاية، وأعتقد أنه كان مغرماً بها. أحتاج إلى درجة أعمق من البودرة مع هذا الأحمر الزاهي يا عزيزتي، هلاً أحضرته، وأعدت هذه العلبة إلى الدرج؟

وانشغلنا حينها بالبودرة والعطر وحمرة الخدود، حتى رن الجرس ودخل زوّارها. ناولتهم مشروباتهم بضجر، من دون أن أتفوه بالكثير، وغيّرتُ الأسطوانات على الجرامافون، وألقيت أعقاب السجائر.

قال مصرفي عجوز بحماسة مفتعلة، ونظارته المفردة تتدلى على طرف خيط:

- هل رسمت أي شيء مؤخراً أيتها الأنسة الصغيرة؟

فوجهت إليه ابتسامة مشرقة زائفة، وقلت:

- لا، ليس مؤخراً. هل تريد سيجارة أخرى؟

لم أكن أنا من أجبت، إذ لم أكن موجودة هناك على الإطلاق. كنت أتبع شبحاً في ذهني، تبلورت هيئته الغامضة أخيراً. بدت ملامحها غير واضحة، ولونها غير مميز، وشكل عينيها وملمس شعرها لا يزالان غير مؤكدين، لم ينكشفوا بعد.

كانت تتمتع بجمال دائم، وابتسامة لا تُنسى. وفي مكان ما، كان صوتها وذكرى كلماتها لا يزالان يترددان. كانت هناك أماكن زارتها، وأشياء لمستها. وربما بقيت في الخزائن ملابس ارتدتها، ولا يزال عطرها عالماً بها. في غرفة نومي، احتفظت تحت وسادتي بكتاب أخذته بين يديها، وتخيلتها وهي تتجه إلى تلك الصفحة البيضاء في البداية، وتبتسم وهي تكتب، وتهز سن القلم المقوسة. «ماكس، من ريببكا». لا بد أنه كان عيد ميلاده، وقد وضعته بين هداياها الأخرى على مائدة الإفطار، وضحكا معاً وهو يمزق الورق والخيط، وربما اتكأت على كتفه وهو يقرأ. ماكس، نادته باسم «ماكس». بدا ذلك الاسم مألوفاً، ومبهجاً، وسهلاً على اللسان. يمكن أن تناديه أسرته ماكسيم إذا أرادوا، الجدات والعمات، والناس من أمثالي، الهادئون والمملون والشباب الذين لا أهمية لهم. لكن اسم ماكس كان خيارها هي، وكانت الكلمة ملكاً لها، وكتبها بثقة كبيرة جداً على الصفحة الأولى من ذلك الكتاب. كان ذلك الخط الجريء المائل، وهي تطعن الصفحة البيضاء، رمزاً إلى ذاتها، وهي تتمتع بالثقة الشديدة والثبات البالغ. لا بد أنها كتبت إليه كثيراً على هذا النحو، في حالات مزاجية متنوعة.

ملاحظات قصيرة، خربشتها على عجل على قصاصات من الورق، ورسائل،

عندما يسافر بعيدًا، صفحة تلو صفحة، حميمية، مليئة بأخبارهما. وصدى صوتها
يتردد عبر المنزل، وفي الحديقة، على نحو غير مبالٍ وحميمي، مثل الإهداء في
الكتاب.

وكان عليّ مناداته باسم «ماكسيم».

حزْم الأمتعة، والقلق المزعج من الرحيل، والمفاتيح المفقودة، والملصقات غير المكتوبة، والمناديل الورقية الملقاة على الأرض: أكره كل ذلك، وما زلت حتى الآن، على الرغم من أنني فعلت كل ذلك كثيرًا، وعلى الرغم من أنني أعيش متنقلة بحقائبي حريفًا. وحتى اليوم، بعد أن صار إغلاق الأدراج وفتح خزائن الملابس في فندق، أو الأرفف المحايدة في فيلاً مفروشة، مجرد أمر منهجي روتيني، لكنني أدرك الشعور بالحزن والخسارة. أقول لقد عشنا هنا، ونعمنا بالسعادة، وكان هذا المكان لنا، مهما قصرت المدة. وعلى الرغم من قضاء ليلتين فقط تحت سقف ما، فإننا نترك شيئًا من أنفسنا وراءنا. لا شيء مادي، ولا دبوس شعر على منضدة الزينة، ولا زجاجة فارغة من أقراص الأسبرين، ولا منديل تحت وسادة، بل شيء لا يمكن تحديده، لحظة من حياتنا، أو فكرة، أو حالة مزاجية.

لقد آوانا هذا المنزل، وتحدثنا وأحببنا بين تلك الجدران. كان ذلك بالأمس، أما اليوم، فسوف نمضي قُدَمًا، ولن نراه أبدًا، وقد صرنا مختلفين، وتغيرنا بدرجة متناهية الصغر، ولا يمكننا العودة كما كنا مرة أخرى. وحتى عند التوقف لتناول الغداء في نُزُل على جانب الطريق، والذهاب إلى غرفة مظلمة غير مألوفة لغسل يدي، حيث مقبض الباب غير مألوف بالنسبة إليّ، وورق الحائط يتقشر على شكل أشرطة، وهناك مرآة صغيرة غريبة مشروخة فوق الحوض، ففي هذه اللحظة، يصبح كل هذا أيضًا لي، وأملكه أنا. يعرف بعضنا بعضًا، في هذا الحاضر، ولا يوجد

ماضي ولا مستقبل. هأنذا أغسل يدي، وتظهر لي المرأة المشروخة صورتني،
معلقة في الزمن إن جاز التعبير، ولن تمر هذه اللحظة.
ثم أفتح الباب وأذهب إلى غرفة الطعام، حيث يجلس في انتظاري إلى الطاولة،
وأفكر كيف تقدم بي العمر في تلك اللحظة، ومضيت قُدماً، وتقدمت بمقدار
خطوة واحدة نحو مصير مجهول.

نبتسم، ونختار غداءنا، وتحدث عن هذا وذاك، لكنني أفكر أنني لست
الشخصية نفسها التي تركها منذ خمس دقائق، فقد تركتها ورائي، وأنا امرأة
أخرى، أكبر سنًا، وأكثر نضجًا.

رأيت في إحدى الصحف منذ عدة أيام أن فندق كوت دازور في مونت كارلو
قد انتقل إلى إدارة جديدة، وصار له اسم مختلف، كما أعيد تزيين الغرف، وتغير
التصميم الداخلي بالكامل. ربما لم يعد هناك وجود لجناح السيدة فان هوبر في
الطابق الأول، وربما لم يعد هناك أثر لغرفة النوم الصغيرة التي كانت لي. عرفت
أنني لن أعود أبدًا، في ذلك اليوم الذي جثوث فيه على الأرض وتعثرت في التعامل
مع قفل حقيبتها المزعج. انتهى الأمر بأن أغلقت القفل، وألقيت نظرة خاطفة من
النافذة، فبدا الأمر أشبه بقلب صفحة في الألبوم الصور. لم تعد تلك الأسطح وذلك
البحر لي، بل صارت تنتمي إلى الأمس، وإلى الماضي. لفَّ الغرف بالفعل جو
خاوٍ وهي مجردة من كل ممتلكاتنا، وبدا الجناح تواقًا نوعًا ما، كأنه يتمنى رحيلنا،
ومجيء الزوّار الجدد الذين سيحلون محلنا غدًا. تراصت الأمتعة الثقيلة، جاهزة
ومربوطة ومغلقة في الممر بالخارج، بينما سيتم الانتهاء من أمر الأمتعة الأصغر
لاحقًا. تأوهت سلال المهملات تحت وطأة النفايات: كل زجاجات أدويةها
نصف الفارغة، وأوعية كريمات الوجه التي تخلصت منها، والفواتير والرسائل
الممزقة. فغرت أدراج الطاولات فاها، وصار المكتب عاريًا تمامًا.

كانت قد ألقت إليَّ رسالة في صباح اليوم السابق، بينما كنت أصب قهوتها
عند الإفطار.

- سوف تبحر هيلين متجهة إلى نيويورك يوم السبت، إذ إن الصغيرة نانسي

تعاني الزائدة الدودية، وقد أرسلوا إليها برقية للعودة إلى المنزل. وجعلني هذا أحسم قراري بأن نعود نحن أيضًا، فقد سئمت من أوروبا بشدة، ويمكننا العودة في أوائل الخريف. ما رأيك في فكرة رؤية نيويورك؟ بدت تلك الفكرة أسوأ من السجن، ولا بد أن شيئًا من بؤسي ظهر على ملامحي، لأنها بدت مندهشة في البداية، ثم انزعجت:

- يا لك من فتاة غريبة لا يمكن إرضاؤها. لا أستطيع أن أفهمك. ألا تدركين أن الفتيات اللاتي هن في مثل وضعك في الوطن، ولا يملكن أي مال، يمكنهن الاستمتاع بوقتهن للغاية، حيث يوجد كثير من الفتيان والإثارة؟ وكلهم من مستواك الاجتماعي نفسه. كما يمكن أن تصير لديك مجموعة صغيرة من الأصدقاء، ولا داعي إلى أن تكوني رهن إشارتي بالقدر نفسه كما هي الحال هنا. ظننت أنك لا تحبين مونت كارلو.

قلت بوهن وبؤس، وذهن في حالة من الصراع:
- لقد ألفتها.

- حسنًا، سيتعين عليك أن تألفي نيويورك، هذا هو كل ما في الأمر. سنستقل تلك الباخرة التي ستبحر بها هيلين، مما يعني أنه يجب ترتيب أمر تذاكرنا في الحال. انزلي إلى مكتب الاستقبال على الفور، واجعلي ذلك الموظف الشاب يُظهر شيئًا من الكفاءة. سيكون يومك مشغولًا، إلى درجة أنك لن تجدي أي وقت للحزن بشأن مغادرة مونت كارلو!

ضحكت على نحو كريحه، وسحقت سيجارتها في الزبدة، ثم توجهت نحو الهاتف للاتصال بجميع أصدقائها.

لم أستطع مواجهة التعامل مع مكتب الاستقبال على الفور، فدخلت الحمام وأغلقت الباب، وجلست على الدواسة المصنوعة من الفلين، ورأسي بين كفّي. ها قد حلّت أخيرًا، الحاجة إلى الرحيل. انتهى كل شيء، وسأكون على متن القطار مساء غد، حاملة حقيبة جواهرها ودثارها مثل خادمة، بينما ترتدي هي تلك القبعة الجديدة البشعة التي تعلوها ريشة واحدة، وتتضاءل داخل معطفها

المصنوع من الفراء، وهي جالسة قبالي في عربة النوم. سنغتسل وننظف أسناننا في تلك المقصورة الخائفة ذات الأبواب المرتجة، والمغسلة التي يتناثر منها الرذاذ، والمنشفة الرطبة، والصابونة التي التصقت بها شعرة واحدة، والإبريق الممتلئ حتى نصفه بالمياه، إلى جانب تلك الملحوظة الحتمية على الجدار: «يوجد إناء تحت المغسلة». بينما ستخبرني كل اهتزازة ورعشة وارتجاجة من القطار الصارخ أن الأميال تحملني بعيداً عنه، وهو جالس وحده في مطعم الفندق إلى الطاولة التي عرفتها، منشغلاً بقراءة كتاب من دون إدراك أو تفكير.

ربما يجب أن أودعه في الردهة قبل رحيلنا، وداعاً سريعاً متعجلاً، بسببها، وستكون هناك وقفة، وابتسامة، وكلمات من نوعية: «نعم، بالطبع، اكتبني إليّ الرسائل»، و«لم أشكرك على لطفك بشكل لائق»، و«يجب أن ترسلي إليّ تلك الصور الفوتوغرافية»، و«ماذا عن عنوانك؟»، و«حسناً، سأبلغك به». ثم سيشعل سيجارة بشكل عرضي، بعد أن يطلب ثقاباً من نادل عابر، بينما أفكر أنا: «تبقت أربع دقائق ونصف، ولن أراه مرة أخرى».

ولأنني كنت راحلة، ولأن كل شيء انتهى، فجأة لن يعود هناك شيء آخر يمكن قوله، وسنصبح غريبين، يلتقيان للمرة الأخيرة والوحيدة، بينما عقلي يصرخ بألم، صائحاً: «أحبك بشدة، وأنا في غاية التعاسة. لم يحدث لي هذا من قبل، ولن يحدث أبداً». سترسم على وجهي ابتسامة تقليدية محافظة، وسيقول صوتي: «انظر إلى ذلك العجوز المضحك هناك، أتساءل عمّن يكون. لا بد أنه جديد هنا». وسنضيع اللحظات الأخيرة في الضحك على شخص غريب، لأننا صرنا غريبين عن بعضنا بالفعل. وسأكرر حديثي في يأس قائلة: «أتمنى أن تظهر تلك اللقطات الفوتوغرافية بشكل جيد»، فيجيب هو: «أجل، لا بد أن تكون تلك الصورة بالميدان جيدة، فقد كان الضوء مناسباً تماماً»، بعد أن ذكرنا كل تلك الأشياء حينها واتفقنا على ذلك، وعلى أي حال، فلن أهتم إذا كانت النتيجة ضبابية ومظلمة، لأن هذه هي اللحظة الأخيرة، وقد وصلنا إلى الوداع الأخير. ستمتد ابتسامتي المروعة عبر وجهي، وأنا أقول: «حسناً، شكراً جزيلاً مرة

أخرى، كان الأمر باهرًا للغاية...»، وأستخدم كلمات لم أستعملها من قبل. «باهر»، ما الذي يعنيه ذلك؟ الرب وحده يعلم، ولم أكرث للأمر. كانت من ذلك النوع من الكلمات التي تستخدمها التلميذات لوصف لعبة الهوكي، وهي غير ملائمة إلى حد كبير لتلك الأسابيع الماضية من البؤس والبهجة. ثم ستفتح أبواب المصعد لتظهر السيدة فان هوبر، وسأعبر الردهة لمقابلتها، وسيتوجه هو إلى ركنه مرة أخرى ويلتقط صحيفة.

بينما أنا جالسة هناك بشكل سخي فوق الدواسة المصنوعة من الفلين على أرض الحمام، عشت كل ذلك، ورحلتنا أيضًا، ووصولنا إلى نيويورك، وصوت هيلين الحاد، الذي هو نسخة مصغرة من والدتها، وطفلتها البشعة نانسي، والفتية الجامعين الذين أرادوني السيدة فان هوبر أن أعرف عليهم، وموظفي البنوك الشباب الملائمين لمكانتي الاجتماعية. «لنرتب موعدًا مساء الأربعاء». «هل تحبين الموسيقى الصاخبة؟». فتية لهم أنوف فطساء، ووجوه لامعة، وسأضطر إلى التزام التهذيب، في حين أريد الانفراد بأفكاري، كما هي الحال الآن، وأنا حبيسة خلف باب الحمام...

جاءت وقرعت الباب.

- ماذا تفعلين؟

- حسنًا، آسفة، أنا قادمة الآن.

وتظاهرت بفتح صنبور المياه، والتحرك بسرعة وطي منشفة على القضيبي. نظرت إليّ بتعجب وأنا أفتح الباب.

- لقد تأخرت كثيرًا. لا يمكنك الاستغراق في أحلام اليقظة هذا الصباح، كما تعلمين، فهناك الكثير مما يجب عمله.

سيعود إلى ماندرلي بالطبع في غضون أسابيع قليلة، شعرت بالثقة بذلك. وستكون هناك كومة كبيرة من الرسائل تنتظره في الردهة، ومن بينها رسالتي التي خربشتها على عجل على متن الباخرة: رسالة مفتعلة، أحاول فيها تسليته بوصف رفاقي من الركاب. وسترقد وسط ورق نشافه، حتى يجيئها بعد أسابيع، صباح

يوم أحد، على عجل قبل الغداء، بعد أن صادفته وهو يدفع بعض الفواتير، ثم لا شيء بعد ذلك. لا شيء حتى الإهانة الأخيرة المتمثلة في بطاقة عيد الميلاد، التي قد تصور ماندري لي نفسه، على خلفية من الثلوج. وستقول العبارة المطبوعة بحروف مذهبة: «عيد ميلاد سعيد، وعام جديد مليء بالازدهار، من ماكسيميليان دي ويتتر»، ولكي يبدي لطفه، سيخط بقلمه أسفل الاسم المطبوع، ويكتب بالحبر: «من ماكسيم»، على سبيل المجاملة، وإذا توفرت مساحة كافية، فسيضيف رسالة: «أتمنى أن تكوني مستمتعة بنيويورك». بعد ذلك يلحق الظرف، ويلصق طابعًا، ويلقيها وسط كومة من مئات البطاقات الأخرى.

قال موظف الاستقبال والهاتف في يده:

- من المؤسف أنك سترحلين غدًا. ستبدأ عروض الباليه في الأسبوع المقبل، كما تعلمين. هل تعرف السيدة فان هوبر؟

سحبت تفكيري من عيد الميلاد في ماندري لي، وعدت إلى حقيقة عربة النوم في القطار.

تناولت السيدة فان هوبر الغداء في المطعم لأول مرة منذ إصابتها بالإنفلونزا، وشعرتُ بألم في معدتي وأنا أتبعها إلى الغرفة. كنت أعلم أنه ذهب لقضاء اليوم في كان، لأنه نبهني في اليوم السابق، لكنني ظلت أفكر في أن النادل قد يخطئ ويقول: «هل ستتناول الأنسة الطعام مع السيد الليلة كالمعتاد؟». شعرت بالاعتلال نوعًا ما كلما اقترب من الطاولة، لكنه لم يقل شيئًا.

انقضى اليوم في حزم الأمتعة، وأتى الناس في المساء للوداع. تناولنا العشاء في غرفة الجلوس، وتوجهت هي إلى الفراش بعد ذلك مباشرة، ولم أكن قد رأيته بعد. نزلت إلى الردهة في الساعة التاسعة والنصف تقريبًا، بحجة الحصول على ملصقات للأمتعة، ولم يكن هناك. ابتسم موظف الاستقبال البغيض عندما رأيته.

- إذا كنت تبحثين عن السيد دي ويتتر، فقد تلقينا رسالة من مدينة كان تبلغنا أنه لن يعود قبل منتصف الليل.

قلت:

- أريد رزمة من ملصقات الأمتعة.

لكنني رأيت من نظرت أنه لم ينخدع. إذن لن تكون هناك أمسية أخيرة، في نهاية المطاف. سأضطر إلى قضاء الساعة التي تطلعت إليها طوال اليوم وحدي في غرفتي، وأنا أطلع حقيبة سفري الكبيرة، وحقيبة اليد المتينة. ربما كان الأمر أفضل هكذا، لأنني لن أشكل رفقة طيبة، ولا بد أنه سيتمكن من قراءة ملامحي. أعلم أنني بكيت في تلك الليلة، دموعاً شابة مريرة لا يمكن أن أذرفها اليوم. لا يحدث ذلك النوع من البكاء في أعماق الوسادة بعد أن نتجاوز الحادية والعشرين من العمر، بما يصاحبه من صداد، وعينين متورمتين، وضيق وغصة في الحلق، والقلق الشديد في الصباح لإخفاء آثار كل ذلك عن العالم، والاعتسال بالماء البارد، والتعطر، ووضع لمسة خفية من بودرة التجميل التي لها دلالة في حد ذاتها. هذا إضافة إلى الذعر أيضاً من أن المرء قد يبكي مرة أخرى، وتنفجر الدموع من دون سيطرة، وترتجف الشفتان على نحو قاتل يقود المرء إلى كارثة. أذكر أنني فتحت نافذتي على مصراعيها وانحنيت إلى الخارج، على أمل أن يزيل هواء الصباح المنعش اللون الوردي الذي يشي بأمري تحت البودرة، ولم يسبق أن بدت الشمس ساطعة إلى هذا الحد من قبل، ولا اليوم مليئاً بالوعود إلى هذه الدرجة. بدت مونت كارلو فجأة مليئة باللطف والسحر، كأنها المكان الوحيد بالعالم الذي ينطوي على الإخلاص. أحببتها، وغمرتني العاطفة، وأردت العيش هناك بقية حياتي. وهأنذا أرحل عنها اليوم. كانت هذه آخر مرة أمشط فيها شعري أمام المرأة، وآخر مرة أنظف أسناني فوق المغسلة، ولن أنام في ذلك الفراش مرة أخرى، ولن أطفئ ذلك المصباح الكهربائي أبداً. هأنذا أتجول مرتدية روباً منزلياً، غارقة في مستنقع من العواطف حول غرفة فندق عادية.

قالت عند الإفطار:

- لم تصابي بنوبة برد، أليس كذلك؟

قلت لها:

- نعم، لا أعتقد ذلك.

وتمسكت بذلك كقشة، لأنه قد يكون بمنزلة ذريعة لاحقاً، إذا ازداد احمرار عيني.

تذمرت قائلة:

- أكره الانتظار بعد حزم كل الأمتعة. كان علينا اختيار القطار المبكر. يمكننا اللحاق به إذا بذلنا بعض الجهد، وحينها سيتاح لنا مزيد من الوقت في باريس. أرسلني برقية إلى هيلين كي لا تنتظرننا، لكن رتبي موعداً آخر. أتساءل...

ألقت نظرة سريعة على ساعتها، وتابعت:

- أعتقد أنهم يستطيعون تغيير الحجز. الأمر يستحق المحاولة، على أي حال. اذهبي إلى مكتب الاستقبال وانظري في الأمر.

قلت:

- نعم.

وأنا رهن إشارة تقلباتها المزاجية، وتوجهت إلى غرفتي، وخلعت روبي المنزلي، وارتديت تنورتي المصنوعة من قماش الفلانيل، وجذبت فوق رأسي كنزتي المصنوعة منزلياً. تحولت لامبالاتي حيالها إلى كراهية. هذه هي النهاية إذن، وحتى صباحي سيُسلب مني. لن يسنح نصف ساعة أخير على الشرفة، ولا حتى عشر دقائق قد نودع فيها بعضنا بعضاً، وكل هذا لأنها انتهت من تناول الإفطار في وقت أبكر مما توقعت، ولأنها تشعر بالملل. حسناً، سأضرب عرض الحائط بضبط النفس والحياء، ولن أتمسك بالكرامة بعد الآن. صفقت باب غرفة الجلوس، وركضت عبر الممر. لم أنتظر المصعد، وصعدت السلم، ثلاث درجات في المرة الواحدة، حتى الطابق الثالث. كنت أعرف رقم غرفته، ٤٨، فطرقت الباب، وقد تخضب وجهي بشدة وتقطعت أنفاسي.

صاح:

- ادخل.

ففتحت الباب وقد بدأت أشعر بالندم بالفعل، وخذلتني شجاعتي، إذ ربما

استيقظ للتو، بعد أن تأخر الليلة الماضية، وسيكون لا يزال في الفراش، مهوش
الشعر متعكر المزاج.

وجدته يحلق ذقنه بالقرب من النافذة المفتوحة، مرتدياً سترة من وبر الإبل
فوق منامته، فشعرت بأني خرقاء، وأني بالغت في ارتداء ملابس، ببديلي
المصنوعة من الفلانيل وحذائي الثقيل. كنت مجرد حمقاء، في حين شعرت
بأنني دراماتيكية.
قال:

- ماذا تريدان؟ هل وقع خطب ما؟
- جئت كي أودعك، إذ إننا سنرحل هذا الصباح.
حدق إلى وجهي، ثم وضع شفرة حلاقته على المغسلة، وقال:
- أغلقي الباب.
أغلقته خلفي، ووقفت هناك وأنا أشعر بالخجل نوعاً ما، ويديا تتدليان
بجانبي. سألني:
- عمّ تتحدثين، بحق السماء؟
- هذا صحيح، سنرحل اليوم. كنا سنستقل القطار المتأخر، لكنها ترغب في
اللاحاق بالقطار المبكر الآن، وخشيت ألا أراك ثانية. شعرت بأنه يجب أن
أراك قبل رحيلي، لأشكرك.
تساقطت من فمي الكلمات الحمقاء، كما تخيلتها تماماً. بدا عليّ الجمود
والحرج، وبعد لحظة سأقول إنه كان باهراً.
قال:

- لماذا لم تخبريني عن هذا الأمر من قبل؟
- لقد قرّرت بالأمس فحسب، وتم كل شيء على عجل. ستبحر ابنتها
إلى نيويورك يوم السبت، وسوف نذهب معها. سننضم إليها في باريس،
وستوجه إلى شيربورج.
- هل ستأخذك معها إلى نيويورك؟

- نعم، ولا أريد الذهاب. سأكره ذلك، وسأشعر بالבוؤس.

- لماذا ستذهبين معها إذن، بحق السماء؟

- أنا مضطرة إلى ذلك، كما تعلم. فأنا أعمل مقابل راتب، ولا أستطيع تركها.

التقط شفرة حلاقته مرة أخرى، وأزال الصابون عن وجهه، وقال:

- اجلسي، لن أتأخر، سأبدل ملابسك في الحمام، وسأكون جاهزاً في غضون خمس دقائق.

التقط ملابس من على الكرسي، وألقاها على أرض الحمام، ثم دخل وصفق الباب. جلست على الفراش، وبدأت أقضم أظفاري. بدا الموقف غير واقعي، وشعرت بأنني مجرد نموذج دمية. تساءلت عما يفكر فيه، وما سيفعله. أُلقيت نظرة سريعة حول الغرفة، بدت كغرفة أي رجل، غير مرتبة وتفتقد أي لمسات شخصية. كان هناك كثير من الأحذية، أكثر بكثير مما سيحتاج إليه أبداً، وشموعات لأربطة العنق. وكانت منضدة الزينة عارية، باستثناء زجاجة كبيرة من غسول للشعر، وزوجين من فرش الشعر العاجية. لم تكن هناك أي صور أو لقطات فوتوغرافية، أو أي شيء من ذلك القبيل. بحثت عنها بشكل غريزي، معتقدة أنه ستكون هناك صورة واحدة على الأقل بجانب فراشه، أو في منتصف الرف أعلى المدفأة: صورة واحدة كبيرة في إطار جلدي. لكن لم يكن هناك إلا الكتب وعلبة سجائر.

صار جاهزاً، كما وعد، في خمس دقائق، وقال:

- انزلي إلى الشرفة بينما أتناول إفطاري.

نظرت إلى ساعتني، وقلت له:

- ليس لدي وقت، يجب أن أكون في مكتب الاستقبال الآن، كي أغير موعد الحجز.

- لا تهتمي بذلك، يجب أن أتحدث معك.

سرنا عبر الممر، وطلب المصعد. فكرت في أنه لا يمكن أن يدرك أن القطار المبكر يغادر في غضون ساعة ونصف الساعة تقريباً. سوف تتصل السيدة فان هوبر

بمكتب الاستقبال بعد قليل، وتسأل عما إذا كنت هناك. نزلنا في المصعد من دون أن نتحدث، وخرجنا هكذا إلى الشرفة، حيث وُضعت الطاولات لتناول الإفطار. قال:

- ماذا ستناولين؟

- لقد تناولت إفطاري بالفعل، ولا يمكنني البقاء إلا أربع دقائق على أي حال. قال للنادل:

- أحضر لي قهوة، وبيضة مسلوقة، وخبزًا محمصًا، ومربي البرتقال، وثمره يوسف.

ثم أخرج مبردًا من جيبه، وشرع يبرد أظفاره. قال:

- لقد سئمت السيدة فان هوبر من مونت كارلو إذن، وتريد العودة إلى المنزل الآن، وأنا كذلك، هي إلى نيويورك، وأنا إلى ماندرلي. أيهما تُفضلين؟ يمكنك الاختيار.

- لا تمزح بهذا الشأن، فهذا ليس من الإنصاف في شيء. وأعتقد أنه يتعين عليّ ترتيب أمر تلك التذاكر، وتوديعك الآن.

- إذا كنتِ تعتقدين أنني واحد من أولئك الأشخاص الذين يحاولون أن يكونوا مضحكين خلال وجبة الإفطار، فأنتِ مخطئة، إذ دومًا ما أكون متعكر المزاج في الصباح الباكر. أكرر لك، إن الخيار متاح أمامك. إما أن تذهبي إلى أمريكا مع السيدة فان هوبر، وإما أن تعودي إلى المنزل معي، إلى ماندرلي.

- هل تعني أنك تريد سكرتيرة، أو شيئًا من هذا القبيل؟

- لا، بل أطلب منك الزواج أيتها الحمقاء الصغيرة.

أتى النادل حاملًا الإفطار، وجلست ويدي في حجري، أراقبه بينما هو يضع إبريقَي القهوة والحليب.

قلت عقب انصراف النادل:

- أنت لا تفهم، فأنا لست من ذلك النوع الذي يتزوجه الرجال.
وضع ملعقته وحدثني قائلاً:

- ما الذي تقصدينه، بحق الجحيم؟
راقبت ذبابة تستقر على مربى البرتقال، فأبعدتها بنفاد صبر.
قلت بتأنٍ:

- لست متأكدة، لا أعتقد أنني أعرف كيف أوضح الأمر، لكنني لا أنتمي إلى
مثل ذلك العالم الذي تنتمي إليه أنت، على سبيل المثال.
- وما هو عالمي؟

- حسناً، ماندرلي. أنت تعرف ما أعنيه.

التقط ملعقته ثانية، وتناول مربى البرتقال.

- تكادين تكونين بنفس درجة الجهل مثل السيدة فان هوبر، وب نفس غباثها.
ما الذي تعرفينه عن ماندرلي؟ أنا الذي أستطيع الحكم على الأمر، سواء
أكنت ستنتمين إلى هناك أم لا. أنت تعتقدين أنني أطلب منك هذا بدافع من
النزوة، أليس كذلك؟ لأنك تقولين إنك لا تريدين الذهاب إلى نيويورك.
تعتقدين أنني أطلب منك الزواج للسبب نفسه الذي ظننت أنني اصططحتك
من أجله بالسيارة، وتناولت معك العشاء في تلك الليلة الأولى، كي أكون
لطيفاً، أليس كذلك؟
- بلى.

تابع قائلاً، وهو يفرد طبقة سميكة من المربى على الخبز المحمص:

- قد تدركين يوماً ما أن الكرم ليس من أقوى خصالي. لكن في الوقت الحالي،
لا أعتقد أنك تدركين أي شيء على الإطلاق. ولم تجيبي عن سؤالتي بعد:
هل ستزوجيني؟

لا أعتقد أنني فكرت في هذا الاحتمال، حتى في أشد لحظاتي جموحاً. ذات
مرة، عندما كنت أتجول معه بالسيارة، وبعد أن ظللنا صامتتين عدة أميال، بدأت
في ذهني حكاية طويلة عن كونه مريضاً بشدة، ويهذي على ما أظن، ثم أرسل في

طلبي واضطرت إلى تمريره. وصلت في حكايتي إلى نقطة حيث كنت أضع على رأسه ماء الكولونيا، ثم وصلنا إلى الفندق فانتهت الحكاية عند هذا الحد. وفي مرة أخرى، تخيلت العيش في كوخ على الأراضي المحيطة بماندرلي، وأنه كان يأتي لزيارتي أحيانًا ويجلس أمام نار المدفأة. لقد حيرني هذا الحديث المفاجئ عن الزواج، بل صدمني على ما أعتقد. كان الأمر كما لو أن الملك طلب مني الزواج، ولم يبدُ حقيقياً، وواصل هو تناول مربى البرتقال، كأن كل شيء طبيعي. في الكتب، كان الرجال يجثون على ركبهم أمام النساء، تحت ضوء القمر. ليس على الإفطار، وليس على هذا النحو. قال:

- لا يبدو أن اقتراحي لاقى القبول. معذرة، ظننت نوعاً ما أنك تحببني. يا لها من ضربة رائعة لكبريائي.

- أنا أحبك بالفعل، أحبك بشدة، وقد جعلتني في غاية التعاسة، وظللت أبكي طوال الليل لأنني اعتقدت أنني لن أراك مرة أخرى.

أذكر أنه ضحك حينما قلت هذا، ومدَّ يده نحوي عبر طاولة الإفطار، وقال: - فليباركك الرب لقولك هذا. ذات يوم، عندما تصلين إلى سن السادسة والثلاثين الرائعة هذه، التي أخبرتني بأنها طموحك، سأذكرك بهذه اللحظة، ولن تصدقيني. من المؤسف أنه يجب عليك التقدم في السن.

شعرت بالخجل بالفعل، وغضبت منه لأنه ضحك. لم تكن النساء يدلين للرجال بمثل هذه الاعترافات، إذن. كان أمامي الكثير لأتعلمه.

واصل تناول الخبز المحمص والمربى، وقال:

- إذن، فقد اتفقنا، أليس كذلك؟ بدلاً من أن تكوني رفيقة للسيدة فان هوبر، ستصبحين رفيقة لي، وستكون واجباتك متطابقة تقريباً. فأنا أيضاً أحب الكتب الجديدة، والزهور في غرفة الاستقبال، ولعب الورق بعد العشاء، وأن يصب لي أحدهم الشاي. الفرق الوحيد هو أنني لا أتناول دواء تاكسول، بل أفضل تناول إينو، كما يجب ألا تسمح لي أبداً بنفاد نوع معجون الأسنان الذي أفضله.

طرقت الطاولة بأصابعي، وأنا غير متأكدة من نفسي ولا منه. هل كان لا يزال يضحك مني، والأمر برمته مزحة؟ رفع عينيه، ورأى القلق على وجهي، فقال: - أنا أعاملك بفضاظة نوعاً ما، أليس كذلك؟ هذا لا يتماشى مع فكرتك عن طلب الزواج، حيث يجب أن نكون في صوبة زجاجية، وأنت ترتدين فستاناً أبيض وفي يدك وردة، بينما يعزف كمان لحن فالس عن بُعد، ويجب أن أقبلك بعنف خلف نخلة، وستشعرين حينها بأنك حصلت على ما تستحقينه. عزيزتي المسكينة، ياله من أمر مؤسف. لكن لا تهتمي بذلك، سأصطحبك إلى البندقية لقضاء شهر العسل، وسنمسك بأيدي بعضنا في الجندول، لكننا لن نبقى طويلاً، لأنني أريد أن أريك ماندري.

يريد أن يريني ماندري... وفجأة، أدركت أن كل هذا سيحدث: سأصبح زوجته، وستمشي في الحديقة معاً، وسنسير في ذلك الطريق عبر الوادي المؤدي إلى الشاطئ المفروش بالحصى. عرفت كيف سأقف على الدرج بعد الإفطار، أتأمل النهار وألقي الفتات إلى الطيور، ثم أتجول بعد ذلك مرتدية قبعة للحماية من الشمس، وفي يدي مقص طويل، كي أقص الزهور للمنزل. عرفت الآن لماذا اشتريت تلك البطاقة البريدية المصورة عندما كنت طفلة: كان ذلك بمنزلة هاجس، وخطوة مؤكدة نحو المستقبل.

يريد أن يريني ماندري... صار عقلي في حالة من الفوضى حينها، وتراءت أمامي الخيالات، وصورة تلو صورة، بينما ظل هو طوال ذلك الوقت يتناول اليوسفي، ويناولني قطعة بين الحين والحين وهو يراقبني. سنكون وسط حشد من الناس، وسيقول: «لا أعتقد أنك قابلت زوجتي، السيدة دي ويتتر». سأصبح السيدة دي ويتتر. فكرت في اسمي، وفي التوقيع على الشيكات للتجار، وفي الرسائل لدعوة الناس إلى العشاء. سمعت نفسي أتحدث عبر الهاتف: «لماذا لا تأتي إلى ماندري في عطلة نهاية الأسبوع؟». كما تخيلت الناس، حشوداً من الناس دائماً، وأحدهم يهمس عني عند حافة الحشد: «أوه، إنها فاتنة بكل بساطة، يجب أن تقابلها»، فأبتعد متظاهرة أنني لم أسمع.

سأنزل إلى الكوخ، وعلى ذراعي سلة بها عنب وخوخ للعجوز المريضة، التي تمد ذراعيها إليَّ قائلة: «باركك الرب يا سيدتي، لطيتك الشديدة هذه»، فأجيبها: «أرسلني إلى المنزل فحسب لطلب أي شيء تحتاجين إليه». السيدة دي وينتر. سأصبح السيدة دي وينتر. رأيت المائدة المصقولة في غرفة الطعام، والشموع الطويلة، وماكسيم جالس إلى رأسها، مع مجموعة من أربعة وعشرين شخصًا. في شعري وردة، وينظر الجميع نحوي، رافعين كؤوسهم: «لا بد أن نشرب نخب العروس». ثم يقول ماكسيم بعد ذلك: «لم أرك جميلة إلى هذا الحد من قبل». ورأيت غرفًا باردة رائعة، مليئة بالزهور، وغرفة نومي، وقد أشعلت بها نار في الشتاء، وشخصًا يطرق الباب، وتدخل امرأة مبتسمة، شقيقة ماكسيم، وتقول: «من الرائع حقًا كم أسعدتني، والجميع في غاية السرور. لقد حققت نجاحًا كبيرًا». السيدة دي وينتر. سأصبح السيدة دي وينتر.

قال:

- إن ما تبقى من ثمرة اليوسفي طعمه حامض، يجب ألا أتناولها. فحدقت إليه، وتشكلت الكلمات في ذهني على مهل، ثم نظرت إلى الفاكهة على طبق، فبدأ ربيع الثمرة صلبًا وباهت اللون. كان على حق، وكان اليوسفي حامضًا للغاية. شعرت بطعم حاد ومر في فمي، ولم ألاحظ إلا للتو.

قال:

- هل سأبلغ السيدة فان هوبر بالأخبار أم ستبلغنيها أنت؟ شرع يطوي منديله، ودفع طبقه إلى الوراء، وتساءلت كيف يتحدث بشكل عرضي على هذا النحو، كأن الأمر قليل الأهمية، ومجرد تعديل للخطط، بينما كان بالنسبة إليَّ بمنزلة قبلة، انفجرت مخلقة آلاف الشظايا. قلت: - فلتخبرها أنت. سوف تغضب بشدة.

قمنا من على الطاولة، وأنا متحمسة ومتوردة، وأرتجف بالفعل تحسبًا. تساءلت عما إذا كان سيخبر النادل، ويأخذ ذراعي مبتسمًا ويقول: «يجب أن تهئنا، أنا والآنسة ستزوج». وسيسمع جميع النذل الآخرين، وينحنون لنا،

ويبتسمون، وسنمر إلى الردهة، تتبعنا موجة من الإثارة ورفيف من التوقعات، لكنه لم يقل شيئاً. غادر الشرفة من دون التفوه بكلمة، وتبعته إلى المصعد. مررنا بمكتب الاستقبال، ولم ينظر إلينا أحد. انشغل الموظف برزمة من الأوراق، والتفت خلفه ليحدث مرؤوسه. فكرت أنه لا يعلم أنني سأصبح السيدة دي وينتر. سأذهب للعيش في ماندريلي، وسيصبح ملكاً لي. صعدنا في المصعد إلى الطابق الأول، وسرنا عبر الممر. أمسك بيدي، وأخذ يؤرجحها ونحن نمضي في طريقنا، وقال:

- هل تبدو لك سن الثانية والأربعين كبيرة جداً؟

أجبت بسرعة، وربما بحماس زائد:

- أوه، لا. أنا لا أحب الشباب.

قال:

- لم يسبق أن عرفت أي شباب.

وصلنا إلى باب الجناح، وقال:

- أعتقد أنه من الأفضل أن أتولى هذا الأمر وحدي. أخبريني، هل تمانعين زواجنا سريعاً؟ أنت لا تريدين جهاز عروس، ولا أي شيء من هذا الهراء، أليس كذلك؟ لأنه يمكن ترتيب كل شيء بسهولة في غضون أيام قليلة. يمكننا الحصول على ترخيص والزواج في مكتب، ثم الذهاب بالسيارة إلى البندقية أو إلى أي مكان آخر تريدينه.

- ليس في كنيسة؟ أألن أرتدي الأبيض، مع وصفات الشرف، والأجراس،

وفتيان الجوقة؟ وماذا عن أقاربك وكل أصدقائك؟

- لقد نسيت أنني أقيم مثل ذلك الزفاف من قبل.

ظللنا واقفين أمام باب الجناح، ولاحظت أن الصحيفة اليومية لا تزال محشورة داخل صندوق الرسائل، إذ إننا انشغلنا بشدة ولم نتمكن من قراءتها على الإفطار.

قال:

- حسناً، ما رأيك؟

- بالطبع، لكنني فكرت للحظة أننا سنتزوج في المنزل. بطبيعة الحال، لا أتوقع كنيسة، أو مدعوين، أو أي شيء من هذا القبيل.
ابتسمت له، ورسمت السعادة على وجهي، وتابعت:
- سيكون الأمر ممتعاً، أليس كذلك؟

لكنه استدار نحو الباب وفتحته، وصرنا في الممر الصغير بمدخل الجناح.
نادت السيدة فان هوبر من غرفة الجلوس:

- هل هذه أنت؟ ماذا كنت تفعلين، بحق السماء؟ لقد اتصلت بمكتب الاستقبال ثلاث مرات، وقالوا إنهم لم يروك.
انتابنتي رغبة مفاجئة في الضحك، أو البكاء، أو الاثنين معاً، كما شعرت بألم في أعماق معدتي. تمنيت للحظة جامحة لو أن شيئاً من هذا لم يحدث، وأنني وحدي في مكان ما، أصفر وأنا ذاهبة إلى التمشية.
دخل غرفة الجلوس، وأغلق الباب خلفه قائلاً:
- أخشى أن كل هذا خطئي.
وسمعتها تصيح من الدهشة.

ثم دخلت غرفة نومي وجلست بجوار النافذة المفتوحة، وبدا الأمر أشبه بالانتظار في غرفة الانتظار عند الطبيب. عليّ أن أقلب صفحات مجلة، وأطالع الصور التي بلا أهمية، وأقرأ مقالات لن أذكرها أبداً، حتى تأتي الممرضة وهي مرحة وكفو، وقد زالت عنها أي آثار للإنسانية بفعل سنوات من المطهرات.
«كل شيء على ما يرام. كانت العملية ناجحة للغاية، ولا داعي إلى القلق على الإطلاق. يجب أن تذهبي إلى المنزل وتنالي قسطاً من النوم».

كانت جدران الجناح سميقة، ولم أسمع طنيناً للأصوات. تساءلت عما يقوله لها، وكيف صاغ كلماته. ربما قال: «لقد وقعت في حبها، كما تعلمين، في المرة الأولى التي التقينا فيها. كنا نرى بعضنا كل يوم»، فتجيبه هي: «يا سيد دي ويتتر، هذا أكثر شيء رومانسي سمعته في حياتي». رومانسي، تلك هي الكلمة التي حاولت أن أذكرها عندما صعدت في المصعد. نعم، بالطبع، رومانسي. هذا ما

سيقوله الناس: «كان كل شيء مفاجئًا ورومانسيًا. قرّرا الزواج فجأة، وهذا هو ما حدث. يا لها من مغامرة». ابتسمت لنفسي وأنا أحتضن ركبتي على المقعد بجوار النافذة، وأنا أفكر كم كان الأمر رائعًا، وكم سأصبح سعيدة. سأتزوج الرجل الذي أحبه، وسأصبح السيدة دي وينتر. من الحماسة الشعور بذلك الألم في أعماق معدتي، في حين أنني سعيدة إلى هذا الحد. كان ذلك بسبب القلق بالطبع، والانتظار على هذا النحو، في غرفة انتظار الطبيب. كان سيصبح من الأفضل في النهاية، ومن الطبيعي أكثر بكل تأكيد، أن نذهب إلى غرفة الجلوس يدًا بيد، ضاحكين، ومبتسمين بعضنا لبعض، وأن يقول هو: «سوف نتزوج، ونحن واقعان في الحب بشدة».

واقعان في الحب. لم يقل أي شيء بعد عن الوقوع في الحب. ربما لم يسنح له الوقت، فقد كان كل شيء في غاية العجلة على طاولة الإفطار: مربى البرتقال، والقهوة، وثمرات اليوسفي تلك. لم يكن هناك وقت. كان اليوسفي مرًا جدًا. لا، لم يقل أي شيء عن الوقوع في الحب، بل إننا ستزوج فحسب، كان مقتضبًا ومحددًا ومبتكرًا للغاية. إن طلبات الزواج المبتكرة أفضل كثيرًا، وأكثر صدقًا. ليس مثل الآخرين، وليس مثل الشباب الأصغر سنًا، الذين يتفوهون بالهراء على الأرجح، ولا يعنون نصف ما يقولونه. ليس مثل الشباب الأصغر سنًا، وحديثهم غير مترابط بدرجة كبيرة، وتغلب عليهم العاطفة وهم يقسمون بأشياء مستحيلة. وليس مثل المرة الأولى التي طلب فيها من ربيكا... لا، يجب ألا أفكر في ذلك. عليّ تنحيها جانبًا، تلك الفكرة المحرمة التي دفعتني إليها الشياطين. إليك عني أيها الشيطان. يجب ألا أفكر في ذلك أبدًا، أبدًا، أبدًا. إنه يحبني، ويريد أن يريني ماندرلي. هل سينتهيان من حديثهما، وهل سينادياني إلى الغرفة؟

كان ديوان الشعر ملقى بجانب فراشي، ونسيت أنه أقرضني إياه. لا يمكن أن يعني له الكثير، إذن. همس إليّ الشيطان: «هيا، افتحي صفحة العنوان. هذا ما تريدين فعله، أليس كذلك؟ افتحي صفحة العنوان». قلت: «هراء، سأضع الكتاب مع باقي الأشياء فحسب». ثناءت، وتوجهت إلى الطاولة المجاورة للفراش،

والتقطت الكتاب. علقـت قدمي في سلك المصباح الكهربائي الذي بجانب الفراش، فتعثرت وسقط الكتاب من يدي على الأرض، وانفتح على صفحة العنوان. «ماكس، من ريبـيكا». لقد ماتت، ويجب ألا ينشغل المرء بالتفكير في الأموات الذين يـرقدون في سلام، والعشب يتمايل فوق قبورهم. لكن كم بدت كتابتها حية، وكم بدت مليئة بالقوة، بتلك الأحرف الغريبة المائلة، وبقعة الحبر التي سقطت بالأمس، إذ بدا كأن الكلمات كُتبت بالأمس. أخذت مقص أظفاري من حقيبة أدوات الزينة، وقصصت الصفحة وأنا أتلّف خلفي كمجرم.

قصصت الصفحة من الكتاب مباشرة، ولم أترك أي حواف غير منتظمة، وبدا الكتاب أبيض ونظيفاً عندما اختفت الصفحة، كأنه كتاب جديد لم يُمس. مزقت الصفحة إرباً إرباً، وألقيتها في سلة المهملات، ثم عدت وجلست على المقعد بجوار النافذة مرة أخرى. لكنني ظللت أفكر في القصاصات الممزقة في السلة، وبعد لحظة اضطررت إلى النهوض والنظر إلى السلة مرة أخرى. وحتى الآن، بدا الحبر على القصاصات أسود سميكاً، ولم تتلف الكتابة. تناولت علبة أعواد الثقاب، وأشعلت النار في القصاصات. بدا للهب وهجٌ جميل، وهو يـلـطـخ الورق ويشني حوافه، وجعل من المستحيل تمييز الكتابة المائلة. ارتعشت القصاصات وتحولت إلى رماد رصاصي اللون، وكان حرف الراء هو آخر ما اختفى. تـلـوـى وسط اللهب، والتف إلى الخارج لحظة وصار أكبر من ذي قبل، ثم انسحق هو أيضاً ودمره اللهب، ولم يتحول إلى رماد حتى، بل ذرات غبار خفيف كالريشة... ذهبت وغسلت يدي في المغسلة، وشعرت بتحسّن، تحسّن كبير. غمرني شعور جديد نظيف مثل الذي يستشعره المرء وهو يعلّق التقويم على الجدار في بداية العام. أول يناير: استشعرت نفس النظارة، ونفس الثقة والبهجة. ثم انفتح الباب، ودخل الغرفة.

قال:

- كل شيء على ما يرام. أفقدتها الصدمة القدرة على الحديث في البداية، لكنها بدأت تتعافى، لذا سأنزل إلى مكتب الاستقبال، لأتأكد من أنها ستلحق

بأول قطار. أبدت ترددها لحظة، وأعتقد أنها كانت تأمل أن تكون شاهدة على الزفاف، لكنني كنت حازماً للغاية. اذهبي وتحديثي إليها. لم يقل شيئاً عن كونه مسروراً أو يشعر بالسعادة، ولم يأخذ ذراعي ويدخل معي إلى غرفة الجلوس. بل ابتسم ولوح بيده، ثم عبر الممر وحده. ذهبت إلى السيدة فان هوبر وأنا مترددة وأشعر بالخلج، مثل خادمة سلمت إشعاراً باستقالتها من خلال صديقتها.

وقفت بجوار النافذة تدخن سيجارة، بهيئتها الغريبة القصيرة والبدينة، التي لن أراها مرة أخرى، ومعطفها مشدود فوق صدرها الضخم، وقبعتها السخيفة مائلة جانباً فوق رأسها.

قالت بنبرة جافة وقاسية، تختلف عن النبرة التي استخدمتها معه:
- حسناً، أعتقد أن عليّ الاعتراف بنجاحك في العمل بدوام مضاعف. من المؤكد في حالتك أن «تحت السواهي دواهي». كيف تمكنت من ذلك؟
لم أعرف بما أجيبها، ولم تعجبني ابتسامتها. تابعت قائلة:
- كان من حسن حظك أنني أصبت بالإنفلونزا، وأعرف الآن كيف قضيت أيامك، ولماذا كنت شديدة النسيان. دروس التنس! حقاً! كان في وسعك إخباري، كما تعلمين.

قلت:

- أنا آسفة.

نظرت إليّ بفضول، وتفحصت قوامي بعينها.
- كما أخبرني بأنه يريد الزواج بك في غضون أيام قليلة. من حسن حظك مرة أخرى أنه ليست لديك عائلة تطرح الأسئلة. حسناً، لم تعد لي صلة بالأمم بعد الآن، فأنا أنفض يدي من القضية برمتها. أتساءل عما سيظنه أصدقائه، لكن أعتقد أن هذا شأنه هو. هل تدريكين أنه يفوقك عمراً بسنوات كثيرة؟
قلت:

- إنه في الثانية والأربعين فحسب، وأنا ناضجة بالنسبة إلى سني.

ضحكت وأسقطت رماد السجائر على الأرض، وقالت:

- أنت كذلك بكل تأكيد.

وواصلت النظر إليَّ بطريقة لم تفعلها من قبل، وهي تقيّمني وتمرر عينيها فوقى مثل أحد الحكام في عرض للماشية. بدا في عينيها شيء كرهه ومحّب للاستطلاع.

قالت لي بحميمية، كما لو كان ذلك من صديقة إلى صديقتها:

- أخبريني، هل فعلت أي شيء لا ينبغي لك فعله؟

بدت مثل بليز، الخياطة، التي عرضت عليّ نسبة العشرة في المائة تلك.

قلت:

- لا أعرف ماذا تقصدين.

ضحكت وهزت كتفيها.

- أوه، حسنًا... لا عليك. لكن لطالما قلت إن الفتيات الإنجليزيات خبيثات،

على الرغم مما يبدو من تمتعهن بالروح الرياضية. هل من المفترض إذن أن

أسافر إلى باريس وحدي، وأتركك هنا حتى يحصل عشيقك على رخصة

زواج؟ لاحظت أنه لم يدعني إلى حضور الزفاف.

قلت:

- لا أعتقد أنه يريد أحدًا على الإطلاق، وعلى أي حال، ستكونين قد أبحرت.

قالت:

- هممم...

ثم أخرجت حقيبة أدوات زينتها، وشرعت تضع البودرة على أنفها، قبل أن

تواصل قائلة:

- أعتقد أنك واثقة حقًا بقرارك، ففي النهاية، تم كل شيء بسرعة شديدة، أليس

كذلك؟ في أسابيع قليلة. كما لا أظن أنه سلس للغاية، وستضطرين إلى التكيف

مع طباعه. لقد عشت حياة منعزلة جدًا حتى الآن، كما تعلمين، ولا يمكنك القول

إنني أرهقتك بالعمل. ستكون مهمتك شاقة، كسيدة ماندرلي. ولأكون صريحة

معك تمامًا يا عزيزتي، لا أستطيع ببساطة تخيلك وأنت تتولين ذلك الأمر.

بدت كلماتها كأنها صدى لكلماتي قبل ساعة.

تابعت الحديث:

- ليست لديك الخبرة، ولا تعرفين تلك البيئة. يمكنك بالكاد التفوه بجملتين في حفلات الشاي والبريدج التي أقيمها، فما الذي ستقولينه لكل أصدقائه؟ اشتهرت حفلات ماندرلي حينما كانت هي على قيد الحياة. وقد حكى لك كل شيء عنها بالطبع، أليس كذلك؟

ترددتُ، لكنها واصلت الحديث، حمداً للرب، من دون انتظار إجابتي:
- أريدك أن تكوني سعيدة، بطبيعة الحال، وأعترف أنه جذاب جداً، لكن... حسناً، أنا آسفة، أنا شخصياً أعتقد أنك تركبين خطأ فادحاً، ستندمين عليه ندماً مريراً.

وضعت علبة البودرة، ونظرت إليّ من فوق كتفها. ربما كانت صادقة أخيراً، لكنني لم أرغب في هذا النوع من الصدق. لم أقل شيئاً، وربما بدوت متجهمة، إذ هزت كتفيها والتفتت إلى المرأة لتعدل من وضع قبعاتها الصغيرة التي تميل حافتها نحو الأسفل. سعدتُ برحيلها، كما سعدت أنني لن أراها أبداً. نقمت على الأشهر التي قضيتها برفقتها، أعمل لديها، وأقبل منها المال، وأهرول في أعقابها كظلها، رتيبة وصامتة. بالطبع كنت عديمة الخبرة، وبالطبع كنت غبية وخجولاً وصغيرة في السن. كنت أعرف كل ذلك، ولم يكن عليها أن تخبرني. أعتقد أن سلوكها كان متعمداً، وقد استاءت من هذا الزواج لسبب أنثوي غريب، بعد أن تلقت معاييرها الأخلاقية صدمة.

حسناً، لن أهتم، وسأنساها هي وكلماتها الشائكة. تولد فيّ شعور جديد بالثقة عندما أحرقت تلك الصفحة ونثرت رمادها. لن يكون للماضي وجود لأيّ منّا، وسنبداً من جديد، أنا وهو، بعد أن تلاشى الماضي كالرماد في سلة المهملات. سأصبح السيدة دي وينتر، وسأعيش في ماندرلي. وسرعان ما سترحل، وترتج بها عربة النوم وحدها، من دوني، بينما أكون أنا وهو معاً في غرفة الطعام بالفندق، نتناول الغداء على الطاولة نفسها، ونخطط للمستقبل، على شفا مغامرة كبيرة.

وبمجرد رحيلها، ربما يحدثني أخيراً عن حبه لي، وشعوره بالسعادة. فلم يسنح الوقت حتى الآن، وعلى أي حال فليس من السهل قول تلك الأشياء، ويجب أن تنتظر حتى اللحظة المناسبة. رفعت عيني ولمحت انعكاسها في المرآة، فوجدتها تراقبني بابتسامة صغيرة متسامحة على شفتيها. ظننت أنها ستكون كريمة في النهاية، وتمد إليّ يدها وتتمنى لي التوفيق، وتشجعني وتقول لي إن كل شيء سيكون على ما يرام. لكنها واصلت الابتسام وهي تلف خصلة شعر نافرة في مكانها أسفل قبعتها.

قالت:

- أنت تعلمين بالطبع سبب زواجه بك، أليس كذلك؟ هل خدعت نفسك باعتقاد أنه واقع في حبك؟ الحقيقة أن ذلك المنزل الخاوي أثار أعصابه، إلى درجة أنه كاد يفقد عقله، وقد اعترف لي بذلك قبل دخولك الغرفة. كل ما في الأمر أنه لم يعد في وسعه العيش هناك وحده...

مكتبة
t.me/soramnqraa

وصلنا إلى ماندرلي في أوائل شهر مايو، مع وصول أول طيور سنونو وزهور
عشبة الجريس، كما قال ماكسيم. وهذه هي أفضل لحظة، قبل اشتداد الصيف،
كما سيعبق الوادي برائحة الأزاليا، وستينع زهور الرودودندرون التي بحمرة
الدم. أذكر أننا سافرنا بالسيارة، وتركنا لندن في صباح هطلت به أمطار غزيرة،
ووصلنا إلى ماندرلي في الساعة الخامسة تقريباً، في الوقت المناسب لتناول
الشاي. أستطيع رؤية نفسي الآن، مرتدية ملابس غير مناسبة كالمعتاد، على الرغم
من كوني عروساً منذ سبعة أسابيع، بفستاني المصنوع من قماش قطني بلون بني
فاتح، وحول عنقي فراء صغير من السمور، وفوق كل ذلك معطف قبيح واقٍ من
المطر، كبير جداً بالنسبة إليّ ويتدلى حتى كاحلي. ظننت أنه ملائم للطقس، وأن
طوله أضاف إلى قامتي بضع بوصات. أمسكت في يدي زوجين من القفازات
الطويلة، وحملت حقيبة يد جلدية كبيرة.

عندما رحلنا، قال ماكسيم:

- هذه أمطار لندن. انتظري، وستشرق الشمس من أجلك عندما نصل إلى
ماندرلي.

وكان على حق، إذ غابت عنا الغيوم في إكستر، وتلاشت وراءنا، تاركة سماء
زرقاء رائعة فوق رأسينا، وطريقاً أبيض أمامنا.

سعدت لرؤية الشمس، لأنني نظرت إلى المطر باعتباره نذير سوء، كمن يؤمن
بالخرافات، ودفعني سماء لندن الرصاصية إلى الصمت.

قال ماكسيم:

- هل تشعرين بتحسن؟

فابتسمت له وأمسكت يده، وفكرت كم أن الأمر سهل بالنسبة إليه، وهو يعود إلى منزله، ويدخل الردهة ويلتقط الرسائل، ويقرع الجرس ليطلب الشاي. كما تساءلت إلى أي مدى استشعر قلقي، وما إذا كان سؤاله «هل تشعرين بتحسن؟» يعني أنه يتفهم الأمر. تابع قائلاً:

- لا عليك، سرعان ما سنصل. أعتقد أنك تريدين تناول الشاي.

ثم ترك يدي لأننا وصلنا إلى منعطف في الطريق، واضطررنا إلى إبطاء السرعة. عرفت حينها أنه أخطأ تفسير صمتي باعتباره تعباً، ولم يخطر بباله أنني أخشى الوصول إلى ماندرلي بقدر ما كنت أتوق إلى ذلك نظرياً. لكن الآن بعد أن حلت اللحظة، تمنيت تأجيلها. أردت الوقوف عند نزل بجانب الطريق، والبقاء هناك في مقهى بجوار مدفأة محايدة. أردت أن أكون مسافرة على الطريق، عروساً تحب زوجها، وليس أنا وأنا قادمة إلى ماندرلي للمرة الأولى، زوجة ماكسيم دي وينتر. مررنا بعدد من القرى الودود حيث بدت نوافذ الأكواخ ذات طابع لطيف، وابتسمت لي من أحد المداخل امرأة تحمل طفلاً بين ذراعيها، بينما عبر الطريق متجهاً نحو البئر رجل يحمل دلوّاً تصدر قعقعة.

تمنيت لو أن في وسعنا أن نصير منهم، ربما جيرانهم، وأن يتكئ ماكسيم على بوابات الكوخ في المساء ويدخن غليون، شاعرًا بالفخر بزهور الخطمية فائقة الطول التي زرعها بنفسه، بينما أعمل في مطبخي النظيف وأعد الطاولة للعشاء. سيكون هناك منبه على الخزانة يدق بصوت عالٍ، وصفٌ من الأطباق اللامعة. وبعد العشاء، سيقراً ماكسيم صحيفته رافعاً حذاءه على سياج المدفأة، وأمد أنا يدي إلى درج الخزانة، نحو كومة كبيرة من الملابس التي في حاجة إلى الإصلاح. بالتأكيد سيكون نمط الحياة هذا هادئاً ومستقرًا، وأسهل أيضًا، ولا يتطلب معايير محددة.

قال ماكسيم:

- بقي ميلان فقط. أترين ذلك الحزام الضخم من الأشجار على قمة التل هناك، المنحدر نحو الوادي، ويبين خلفه جزء من البحر؟ ذلك ماندرلي هناك، وتلك هي الغابة.

أجبرت نفسي على الابتسام، ولم أجه، وقد بدأت أحس بالذعر، وتملكني شعور مزعج بالسقم، لا يمكن التحكم فيه.

غاب شعوري بالابتهاج والإثارة، واختفى إحساسي بالسرور والفخر. صرت مثل طفلة اصطحبوها إلى المدرسة أول مرة، أو خادمة صغيرة غير مدربة لم تغادر المنزل من قبل، تبحث عن عمل. وقد تحوّل أي قدر من الثقة بالنفس سبق أن اكتسبته خلال فترة الأسابيع السبعة الوجيزة للزواج، وصار كخرقة بالية الآن، ترفرف في مهب الريح. وبدأ لي أن حتى أبسط قواعد السلوك لم تعد معروفة لي الآن، ولن أميز يدي اليمنى من اليسرى، وما إذا كان عليّ الوقوف أم الجلوس، وأي ملاعق وشوك أستخدمها في أثناء العشاء.

قال وهو يلقي عليّ نظرة خاطفة:

- عليك خلع ذلك المعطف الواقى من المطر، فلم يهطل أي مطر هنا على الإطلاق، وعدّلي وضع فرائك الصغير الغريب هذا. أيتها المسكينة الصغيرة، لقد استعجلتُ حضورك هنا، في حين أنك كنت في حاجة إلى شراء كثير من الملابس من لندن على الأرجح.

قلت:

- لا مانع لديّ، مادمت أنت لا تمنع.

قال بشرود:

- معظم النساء لا يفكرن في شيء سوى الملابس.

ثم انحرفنا عند منعطف، ووصلنا إلى تقاطع طرق، وبداية جدار مرتفع.

قال وفي صوته نبرة جديدة من الإثارة:

- ها نحن أولاء.

وقبضت على مقعد السيارة الجلدي بكلتا يدي.

انحنى الطريق، وظهرت أمامنا جهة اليسار بوابات حديدية مرتفعة بجانب كوخ، مفتوحة على مصاريعها على الممر الطويل الكائن خلفها. وبينما نحن ندخل بالسيارة، رأيت وجوهاً تحديق من خلال نافذة الكوخ المظلم، وركض طفل قادم من الخلف، وهو يحديق بفضول. انكمشتُ في مقعدي، ودقات قلبي تتسارع، وأنا أعرف سبب وجود الوجوه عند النافذة، وسبب تحديق الطفل. أرادوا رؤية كيف أبدو، وأستطيع تخيلهم الآن، وهم يتحدثون بحماس، ويضحكون في المطبخ الصغير. يقولون: «لم ألمح سوى قمة قبعتها، إذ إنها لم تُظهر وجهها. أوه، حسنًا، سنعرف غذاً. ستصل الأخبار من المنزل». ولعله خمن شيئاً من خجلي أخيراً، فقد أمسك يدي وقبّلها، وضحك بعض الشيء وهو يتحدث.

- يجب ألا تكثرني إذا كان هناك قدر معين من الفضول، فسوف يرغب الجميع في معرفة كيف تبدين، وعلى الأرجح لم يتحدثوا عن شيء خلاف ذلك طوال أسابيع. تصرفني على طبيعتك فحسب، وسوف يحبونك جميعاً. ولا داعي إلى القلق بشأن المنزل، فالسيدة دانفرز تتولى الأمور. اتركي لها كل شيء. أعتقد أنها ستتصرف معك بجمود في البداية، فهي شخصية غير اعتيادية، لكن لا تدعي ذلك يثير قلقك، فذلك هي طبيعتها فحسب. هل ترين تلك الشجيرات؟ تبدو مثل جدار أزرق بطول الطريق هنا عندما تتفتح زهور القرطاسية.

لم أجه، لأنني انشغلت بالتفكير في تلك الشخصية التي اشتريت منذ زمن طويل بطاقة بريدية مصورة من متجر القرية، وخرجت في ضوء الشمس الساطعة وهي تقلبها بين يديها، مسرورة بشرائها، وهي تفكر: «سيكون هذا مناسباً لألبوم صوري». «ماندرلي»، يا له من اسم جميل، وهأنذا أنتمي إلى هنا الآن، وقد صار هذا منزلي. سأكتب رسائل للناس قائلة: «سنكون في ماندرلي طوال الصيف، يجب أن تأتوا لزيارتنا». وسأسير عبر هذا الممر، الذي يبدو غريباً وغير مألوف بالنسبة إليّ الآن، وأنا على دراية تامة به، وأعرف كل منعطف وانحناء فيه،

وألحظ أين عمل البستانيون وأبدي الموافقة على ما قاموا به، سواء أجزوا بعض الشجيرات هنا، أم قطعوا فرعاً هناك، وأمرُ بالكوخ المجاور للبوابات الحديدية في زيارة ودية، قائلة: «حسناً، كيف حال ساقك اليوم؟»، بينما ترحب بي السيدة العجوز، التي لم تعد فضولية، وتدعوني إلى مطبخها. حسدت ماكسيم على لامبالاته وشعوره بالارتياح، وتلك الابتسامة الصغيرة على شفثيه التي تعني أنه سعيد بالعودة إلى المنزل.

بدا هذا بعيداً عني، ونائياً للغاية: ذلك الوقت الذي سأبتسم فيه أنا أيضاً، وأشعر بالارتياح، وتمنيت أن يأتي سريعاً، كما تمنيت حتى أن أصبح عجوزاً بشعر أشيب وخطى وثيدة، بعد قضاء سنوات عديدة هنا، أي شيء عدا ذلك المخلوق الخجول الأحمق الذي شعرت بأنني أكونه.

انغلقت البوابات خلفنا بدوي مرتفع، واختفى الطريق المغبر عن الأنظار، وأدركت أن هذا الممر المؤدي إلى ماندري لم يكن كما تخيلته، إذ لم يكن واسعاً وعريضاً ومفروشاً بالحصى، يحده العشب الأنيق من كلا الجانبين، ويحافظ على استواء سطحه بمشط الحدائق والفرشاة.

بل كان هذا الممر يلتف ويتلوى كثعبان، ولا يكاد اتساعه في بعض المناطق يزيد على اتساع ممشى، وارتفعت فوق رأسينا أعمدة من الأشجار الضخمة، تمايلت أغصانها وتداخلت بعضها مع بعض، فصنعت لنا مدخلاً مقتطراً مثل سقف الكنيسة. ولم تتمكن شمس منتصف النهار حتى من اختراق تلك الأوراق الخضراء المتداخلة، التي تشابكت بشدة، ولم تمر سوى بقع صغيرة مرتعشة من الضوء الدافئ، في صورة أمواج متقطعة، فلطخت الممر بالذهب. بدا كل شيء صامتاً وساكناً للغاية.

هبت في وجهي ريح غربية مبهجة على الطريق السريع، مما جعل العشب على الجانبين يتراقص في انسجام، لكن لم تكن ثمة أي ريح هنا. وحتى محرك السيارة تغير صوته، وصار ارتجائه أهدأ وأكثر انخفاضاً من قبل. وعندما انحدر الممر في اتجاه الوادي، اقتربنا من الأشجار، التي كانت أشجار زان ضخمة لها

جذوع جميلة بيضاء ناعمة، ارتفعت أغصانها الوافرة بعضها نحو بعض، إلى جانب غيرها من الأشجار التي لم أعرف أسماءها، التي اقتربت منا بشدة إلى درجة أنه كان في وسعي لمسها بيدي. واصلنا طريقنا وعبرنا فوق جسر صغير يمتد فوق جدول ضيق، وظل هذا الممر، الذي لم يكن يشبه الممر، يلتف ويتلوى مثل شريط مسحور عبر الغابة المظلمة الصامتة، متوغلاً في أعماق قلب الغابة نفسها بالتأكيد، ومع ذلك لم تظهر أي فسحة ولا أي مكان يمكن أن يضم منزلاً. بدأ طول الممر يثير أعصابي، وفكرت في أن المنزل لا بد أن يكون عند هذا المنعطف، أو بعد ذلك المنحنى الذي يليه، لكنني ظللت أصاب بخيبة الأمل كلما انحنيت نحو الأمام في مقعدي، إذ لم يكن هناك منزل ولا حقل ولا حديقة واسعة لطيفة، ولا شيء إلا الصمت والغابات العميقة. صارت البوابات عند الكوخ مجرد ذكرى، والطريق السريع شيئاً ينتمي إلى زمن آخر، وعالم آخر. فجأة، رأيت فسحة في الممر المظلم أمامنا، وبقعة من السماء، وفي لحظة خفت كثافة الأشجار المظلمة، واختفت الشجيرات التي بلا اسم، وأحاط بنا من كلا الجانبين جدار ملون، في حمرة الدماء، وارتفع فوق رأسينا بكثير. صرنا بين شجيرات الرودودندرون، وبدأ هناك شيء محير، بل وصادم، في تلك الطريقة التي اكتشفناها بها فجأة، إذ لم تُعدني الغابة لرؤيتها، وفاجأتني بوجوهها القرمزية المحتشدة بعضها فوق بعض في غزارة لا تُصدق، من دون أن تظهر أي ورقة أو غصن، ولا شيء سوى اللون الأحمر الدموي، الفاتن، الرائع، على خلاف أي شجيرات رودودندرون رأيتها من قبل. ألقيت نظرة خاطفة على ماكسيم الذي كان يبتسم، وقال:

- هل تعجبك؟

قلت له وقد تقطعت أنفاسي بعض الشيء:

- أجل.

ولم أكن متأكدة ما إذا كنت أخبرته بالحقيقة أم لا، حيث إن شجيرات الرودودندرون بالنسبة إليّ نبات بسيط مألوف، تقليدي تماماً، باللون البنفسجي

أو الوردي، تتراص بجانب بعضها في حوض دائري أنيق، في حين أن هذه وحوش، ترتفع حتى السماء، محتشدة مثل كتيبة. فكرت أنها جميلة وقوية بدرجة زائدة على الحد، وليست نباتات على الإطلاق.

لم نعد بعيدين عن المنزل الآن، ورأيت الممر يتسع إلى الفسحة التي توقعتها، وبينما الجدار الأحمر الدموي لا يزال يحيطنا من الجانبين، انحرفنا عند المنعطف الأخير، وهكذا وصلنا إلى ماندرلي. أجل، كان ماندرلي هناك، كما توقعته، ماندرلي الذي ظهر في بطاقتي المصورة منذ زمن طويل. بدا بهيئاً جميلاً، وخلاباً لا تشوبه شائبة، وأجمل حتى مما تخيلت في أي وقت مضى، وهو قائم في الوادي وسط الأراضي العشبية الناعمة والمروج المغطاة بالطحالب، وشرافته تنحدر نحو الحدائق، بينما تميل الحدائق في اتجاه البحر. وعندما اقتربنا بالسيارة من الدرجات الحجرية العريضة وتوقفنا أمام الباب المفتوح، رأيت من خلال إحدى النوافذ المقسمة أن الردهة مليئة بالناس، وسمعت ماكسيم يطلق سباً بصوت هامس، وقال:

- اللعنة على تلك المرأة. إنها تعرف جيداً أنني لم أرغب في شيء من هذا القليل.

ثم داس فرامل السيارة بعنف.
قلت:

- ما الخطب؟ مَنْ هؤلاء الناس؟
قال بغضب:

- أخشى أنك ستضطرين إلى مواجهة كل ذلك الآن. جمعت السيدة دانفرز جميع الملائعين العاملين في المنزل والعزبة للترحيب بنا. لا بأس، لست مضطرة إلى قول أي شيء، سأتولى أنا الأمر.

تحسست بحثاً عن مقبض الباب، وشعرت بالسقم نوعاً ما، كما شعرت الآن بالبرد أيضاً من الرحلة الطويلة، وبينما تخبطت مع قفل الباب، نزل كبير الخدم على الدرج، وتبعه خادم، ثم فتح لي الباب.

كان عجوزًا له وجه بادي الطيبة، وابتسمت وأنا أمد إليه يدي، لكن لا أعتقد أنه لاحظ، لأنه تناول الدثار بدلًا من ذلك، وحقيقتي الصغيرة الخاصة بأدوات الزينة، ثم التفت نحو ماكسيم وهو يساعدني في الوقت نفسه للنزول من السيارة. قال ماكسيم وهو يخلع قفازيه:

- حسنًا، ها نحن أولاء يا فريث. هطلت الأمطار عندما غادرنا لندن، لكن لا يبدو أنها أمطرت هنا. هل الجميع بخير؟

- نعم يا سيدي، شكرًا لك يا سيدي. لا، كان الشهر جافًا بصفة عامة. سررت لرؤيتك في المنزل، وآمل أن تكون على ما يرام، وكذلك سيدتي.

- نعم، كلانا على ما يرام، شكرًا لك يا فريث. لقد تعبنا من الرحلة نوعًا ما، ونريد تناول الشاي. لم أتوقع كل هذا.

وأشار برأسه نحو الردهة.

قال الرجل ووجهه خالٍ من أي تعبير:

- أوامر السيدة دانفرز يا سيدي.

قال ماكسيم باقتضاب:

- كان عليّ توقع ذلك.

ثم التفت إليّ وتابع:

- تعالي، لن يستغرق الأمر طويلًا، وبعدها ستناولين الشاي.

صعدنا معًا درجات السلم، وفريث والخادم يتبعاننا حاملين الدثار ومعطفي الواقي من المطر، واستشعرت ألمًا بسيطًا في أعماق معدتي، وتقلصًا عصبيًا في حلقي.

يمكنني أن أغمض عيني الآن، وأطالع ذلك الموقف، وأرى نفسي كما كنت، واقفة على عتبة المنزل، بهيئتي النحيفة الخرقاء في ثوبي القطني، ممسكة بيدَي اللزجتين زوجين من القفازات الطويلة. كما أستطيع رؤية الردهة الحجرية الفسيحة، والأبواب الواسعة التي تفتح على المكتبة، ولوحات بيتر ليلي وفان ديك على الجدران، والدرج الرائع المؤدي إلى شرفة العازفين. وهناك في الردهة،

تراصّت، واحداً تلو واحد، وامتدت حتى الممرات الحجرية وراءها، وحتى غرفة الطعام، مجموعة من الوجوه الفضولية التي فغرت أفواهها، وحدقت إليّ كما لو أنهم الحشد الذي يراقب المقصلة، وأنا الضحية ويدي مقيدتان خلف ظهري. تقدمت هيئة شخص من بين بحر الوجوه، بقامة طويلة ونحيلة، متشحة بالأسود الداكن، ومنحت وجنتها البارزتان وعيناها الواسعتان الغائرتان وجهها الشاحب مظهر الجمجمة، التي تعلو جسداً أشبه بهيكل عظمي.

تقدمت مني، فمددت إليها يدي وأنا أحسدها على كبريائها ورباطة جأشها، لكن عندما تناولت يدي بدت يدها مرتخية وثقيلة وباردة بروداً مميتاً، ورقدت بين يدي كجثة هامدة.

قال ماكسيم:

- هذه السيدة دانفرز.

وبدأت تتحدث، وهي لا تزال تاركة تلك الكف الميتة بين يدي، وعيناها الخاويتان لم تفارقا عينيّ، حتى ترددت نظرتي ولم تلتق بنظرتها، وحينها تحركت يدها في كفي وعادت إليها الحياة، فأحسست بنوع من عدم الارتياح والخجل. لا يمكنني تذكر كلماتها الآن، لكنني أعلم أنها رحبت بي في ماندرلي، باسمها وباسم العاملين، في خطاب رسمي تقليدي تدربت عليه من أجل هذه المناسبة، وألقته بصوت بارد وخالٍ من الحياة مثلما كانت يداها. وعقب انتهائها، انتظرت كما لو أنها تتوقع جواباً، وأذكر أن وجهي تضرج بشدة، وتلعثمت بنوع من الشكر في المقابل، وأسقطت كلا قفازي في خضم ارتباكِي. انحنت لتلتقطهما، وعندما ناولتني إياهما، رأيت ابتسامة ازدراء صغيرة على شفثيها، وخمنت على الفور أنها تعتبرني سوقية. جعلني شيء ما في تعبير وجهها أشعر بالاضطراب، وحتى عندما تراجعته واتخذت مكانها بين البقية، كانت في وسعي رؤية هيئتها السوداء تلك، واقفة وحدها، متفردة ومتباعدة، وعلى الرغم من صمتها عرفت أنها تركز نظرتها عليّ. أمسك ماكسيم ذراعي وألقى كلمة شكر بسيطة، يبسر بالغ ومن دون أي حرج، كما لو أن إلقاءها لم يشكّل

أي جهد بالنسبة إليه على الإطلاق، ثم قادني إلى المكتبة لتناول الشاي، وأغلق الأبواب خلفنا، وصرنا وحدنا مرة أخرى.

جاء كلبان من فصيلة السبانيل من جانب المدفأة لتحيتنا، واحتكا بماكسيم، وقد أرجعا آذانهما الطويلة الناعمة إلى الوراء بودّ، وأنفاهما يفتشان عن يديه، ثم تركاه وجاءا إليّ وأخذتا يتشممان عقبي بتردد وريبة نوعاً ما. كان أحدهما الأم، التي تعاني فقدان البصر في إحدى عينيها، وسرعان ما سئمت مني ونخرت ثم عادت إلى المدفأة مرة أخرى، لكن الكلب الأصغر، جاسبر، وضع أنفه في كفي وذقنه فوق ركبتي، وعينه تموجان بالمعاني العميقة، وهز ذيله عندما داعبت أذنيه الناعمتين.

شعرت بتحسن عندما خلعت قبعتي، وفرائي الصغير البائس، وألقيتهما بجانب قفازي وحقيتي على المقعد بجوار النافذة. كانت الغرفة واسعة ومريحة، وغطت الكتب الجدران حتى السقف، وبدت من ذلك النوع من الغرف التي لن يغادرها الرجل أبداً إذا كان يعيش وحده. كان هناك مقعدان متينان بجوار مدفأة ضخمة مفتوحة، وسلتان للكلبين، لم يجلسا فيهما على الإطلاق، كما تشي الآثار الموجودة على تجويفي المقعدين. أطلت النوافذ الطويلة على المروج، ومن وراء المروج ظهر البحر متلألئاً عن بُعد.

عبرت الغرفة برائحة هادئة عتيقة، كأن هواءها لا يتجدد تقريباً، على الرغم من كل الأريج العذب لزهور الليلك والورد التي تصل إليها خلال أوائل الصيف. أياً كان الهواء الذي يأتي إلى هذه الغرفة، سواء من الحديقة أو من البحر، فسوف يفقد نقاوته الأولى، ويصير جزءاً من الغرفة الثابتة نفسها، ويتوحد مع الكتب العتيقة التي لا تُقرأ أبداً، ومع السقف المنقوش، والألواح الخشبية الداكنة التي تكسو الجدران، والستائر الثقيلة.

بدأت رائحة عتيقة كرائحة الطحالب: رائحة كنيسة صامته نادراً ما يُقام فيها قداس، حيث تنمو على الأحجار الأشنة بلونها الصدي، وتتسلل محاليق اللبلاب فوق النوافذ نفسها. كانت غرفة للهدوء والتأمل.

سرعان ما جلبوا إلينا الشاي، في عرض صغير فخم أداه فريث والخادم الشاب، لم ألعب فيه أي دور حتى رحيلهما، وبينما ألقى ماكسيم نظرة خاطفة على كومة رسائله الضخمة، عبثُ بقطعتين من الكعك الذي يقطر منه الزبد، وفَتَّت الكعك بيدي، وابتلعت الشاي الساخن. من حين إلى حين، كان يرفع إليَّ عينيه ويتسّم، ثم يعود إلى رسائله، التي افترضت أنها تراكمت خلال الأشهر الأخيرة، وفكرت في مدى ضآلة معرفتي بحياته هنا في ماندريلي، وكيف تسير الأمور يومًا بعد يوم، وفي الأشخاص الذين يعرفهم، وأصدقائه، رجالًا ونساء، وما الفواتير التي يسددها، والأوامر التي أصدرها بشأن منزله. انقضت الأسابيع بسرعة فائقة، وبينما ركبت السيارة بجانبه ونحن نسافر عبر فرنسا وإيطاليا، لم أفكر إلا في مدى حبي له، وأنا أرى البندقية من خلال عينيه، وأردد كلماته، من دون طرح أي أسئلة بشأن الماضي أو المستقبل، قانعة ببهجة عيش اللحظة الحاضرة.

إذ كان أكثر مرحًا مما ظننت، وأرق مما حلمت، وشابًا ومتحمسًا بمئات الطرق المبهجة، ويختلف عن ماكسيم الذي قابلته أول مرة: لم يكن ذلك الغريب الذي جلس وحده إلى الطاولة في المطعم محددًا أمامه، متدثرًا بطبيعته الغامضة. كان ماكسيم الذي عرفته يضحك ويغني، ويلقي الأحجار في الماء، ويمسك يدي، ولا يقطب ما بين حاجبيه، ولا يحمل أي عبء على كتفيه. عرفته كحبيب وصديق، وخلال تلك الأسابيع، نسيت أن لديه حياة منهجية منظمة يجب أن يعود إليها مرة أخرى، ويواصلها كما كانت الحال من قبل، مما يجعل الأسابيع المنصرمة مجرد إجازة قصيرة مهملة.

راقبته يقرأ رسائله، وشاهدته يتجهّم بسبب واحدة، ويتسّم لثانية، وينحي التالية جانبًا من دون تعبير. وفكرت أنه لولا فضل الرب، لكانت رسالتي التي كتبتها من نيويورك ملقاة هناك، وكان سيقراها بالطريقة اللامبالية نفسها، وربما يتحير من التوقيع في البداية، ثم يتشاءب ويلقيها نحو كومة الرسائل الأخرى في السلة، ويمد يده لتناول فنجان الشاي. سرت في برودة عند التفكير في ذلك:

مدى ضآلة المصادفة التي حالت بيني وبين ما كان يمكن أن يحدث، حيث كان سيجلس هنا لتناول الشاي، تمامًا كما يجلس الآن، ويواصل حياته المنزلية كما كان سيفعل على أي حال، وربما لم يكن ليفكر بي كثيرًا، أو ليس بندم على أي حال، بينما ألعب البريدج مع السيدة فان هوبر في نيويورك، وأنتظر يومًا بعد يوم رسالة لا تصل أبدًا.

استندت إلى الوراء في مقعدي، وألقيت نظرة سريعة على الغرفة، محاولة أن أغرس في نفسي قدرًا من الثقة، وإدراكًا حقيقيًا أنني هنا، في ماندرلي، المنزل الموجود على البطاقة المصورة، ماندرلي الذي يتمتع بالشهرة. كان عليّ أن أعلم نفسي أن كل هذا صار ملكي الآن، تمامًا مثلما هو ملكه: المقعد الوثير الذي أجلس عليه، وتلك المساحة الممتدة من الكتب حتى السقف، واللوحات على الجدران، والحدائق، والغابات. ماندرلي الذي قرأت عنه: صار كل هذا ملكي الآن، لأنني تزوجت بماكسيم.

ستتقدم في العمر هنا معًا، وسنجلس هنا ونحن عجوزان لتناول الشاي، أنا وماكسيم، مع كلاب أخرى تخلف هذين الكلبين، وستعقب المكتبة بالرائحة العتيقة المكتومة نفسها التي تحملها الآن، وستمر بفترة رائعة من الرثاء والتدهور خلال صبا الأولاد - أولادنا - إذ تخيلتهم مستقلين على الأريكة بأحذية موحلة، ويجلبون معهم دائمًا فوضى من الأغصان ومضارب الكريكييت ومُدَى جيب كبيرة قابلة للطّي وأقواس وسهام.

وعلى الطاولة المصقولة الخالية الآن، سيرقد صندوق قبيح يحتوي على الفراشات والعث، وآخر يحتوي على بيض الطيور الملفوف بالقطن. وسأقول: «لا تضعوا كل هذه الفوضى هنا، خذوها إلى حجرة الدراسة يا أعزائي»، وسيركضون وهم يتصايحون وينادون على بعضهم، بينما يتخلف الصغير ويسير الهوينى وحده، نظرًا إلى كونه أهدأ من الآخرين.

انقطعت خيالاتي بعد أن انفتح الباب، ودخل فريث مع الخادم لرفع الشاي، وبعد إخلاء المائدة، قال لي:

- تساءلت السيدة دانفرز يا سيدتي، عما إذا كنت ترغبين في رؤية غرفتك.

رفع ماكسيم عينيه عن رسائله، وقال:

- ماذا فعلوا بالجنح الشرقي؟

- يبدو لي جميلًا جدًا يا سيدي. تسبب الرجال في فوضى في أثناء عملهم، بالطبع، وخشيت السيدة دانفرز فترة من الوقت أن العمل لن ينتهي قبل عودتك، لكنهم رحلوا يوم الاثنين الماضي. أعتقد أنك ستنعم هناك بالراحة بدرجة كبيرة يا سيدي. كما أن الإضاءة أقوى كثيرًا، بالطبع، في ذلك الجانب من المنزل.

سألته:

- هل أجريت تجديدات؟

قال ماكسيم باقتضاب:

- أوه، ليس بدرجة كبيرة. مجرد إعادة تصميم ودهان الغرف في الجناح الشرقي، الذي اعتقدت أنه يمكننا استخدامه. وكما يقول فريث، فإن ذلك الجانب من المنزل أكثر بهجة بكثير، ويتمتع بإطلالة رائعة على حديقة الورد. كان جناح الزوار عندما كانت والدتي على قيد الحياة. سأنتهي من هذه الرسائل فقط، وبعد ذلك سأصعد وأنضم إليك. اذهبي وتعرّفي على السيدة دانفرز، هذه فرصة جيدة.

نهضت ببطء وقد عاد إليّ توتري القديم، وخرجت إلى الردهة. تمنيت لو كان في إمكاني انتظاره، ثم أخذ ذراعه كي نشاهد الغرف معًا. لم أرغب في الذهاب وحدي مع السيدة دانفرز. كم بدت الردهة الضخمة شاسعة الآن، بعد أن صارت خالية. رن وقع قدمي على الأرض الحجرية، وتردد صداهما إلى السقف، وشعرت بالذنب من الصوت كما يشعر المرء في الكنيسة، وأحسست بالخجل والقيود نفسها. أصدرت قدماي طقطقة غبية خلال سيري، وظننت أن فريث، بنعليّ حذائه المكسوتين باللباد، يعتقد أنني حمقاء لا محالة.

قلت بنبرة مبتهجة ومفتعلة بدرجة زائدة على الحد، كأنني لا أزال تلميذة:

- إنه كبير جدًا، أليس كذلك؟

لكنه أجباني بكل جدية:

- بلى يا سيدتي، ماندرلي مكان كبير. ليس كبيرًا بقدر بعض المنازل الأخرى، بالطبع، لكنه كبير بما يكفي. كانت هذه قاعة الولائم القديمة، في الأيام الخوالي، ولا تزال تُستخدم في المناسبات الكبيرة، مثل وليمة عشاء ضخمة، أو حفل راقص. ويُستقبل عامة الزوّار هنا، كما تعلمين، مرة أسبوعيًا.

قلت:

- أجل.

وأنا لا أزال واعية لارتفاع وقع خطواتي، وشعرت وأنا أتبعه بأنه يعتبرني واحدة من عامة الزوّار، وقد تصرف كزائرة أيضًا، وأنا أنظر بأدب يمينًا ويسارًا، وأأمل الأسلحة على الجدران واللوحات، وألمس بيدي الدرج المنقوش. وقفت هيئة متشحة بالسواد في انتظاري على رأس الدرج، وراقبتني العيان الخاويتان بتمعن من وجه الجمجمة البيضاء. تلفت بحثًا عن فريث ببنيته القوية، لكنه عبر الردهة ودخل الممر الآخر.

صرت وحدي مع السيدة دانفرز، وصعدت الدرج الكبير تجاهها، حيث انتظرت بلا حراك، ويدها معقودتان أمامها، وعيناها لا تفارقان وجهي أبدًا. استدعيت ابتسامة، لم تردها هي، ولم أَلَمها لذلك، إذ كانت ابتسامة بلا هدف، وسخيفة ومشركة ومصطنعة. قلت:

- أتمنى ألا أكون قد جعلتك تنتظرين.

أجابت قائلة:

- لك الحرية في تخصيص وقتك كما تشائين يا سيدتي. أنا هنا لتنفيذ أوامرك.

ثم انعطفت عبر مدخل الرواق المقوس ودخلت الممر الذي يليه. عبرنا ممرًا عريضًا مغطى بالسجاد، ثم انعطفنا يسارًا، عبر باب من خشب البلوط، ونزلنا درجًا ضيقًا وصعدنا درجًا مقابلًا له، حتى وصلنا إلى باب آخر. فتحت ذلك

الباب، ووقفت جانباً للسماح لي بالمرور، فدخلتُ إلى مخدع، أو غرفة جلوس صغيرة، مؤتة بأريكة وكراسي ومكتب للكتابة، تفتح على غرفة نوم مزدوجة كبيرة بها نوافذ واسعة وخلفها حَمَّام. توجهتُ إلى النافذة على الفور، ونظرت إلى الخارج، حيث كانت حديقة الورد في الأسفل، والجزء الشرقي من الشرفة، بينما تقع خلف حديقة الورد ضفة عشبية ناعمة تمتد إلى الغابة القريبة.

التفت إلى السيدة دانفرز قائلة:

- لا يمكنك رؤية البحر من هنا، إذن.
- لا، ليس من هذا الجناح، حيث لا يمكنك سماعه حتى. لا يمكن أن يميز المرء من هذا الجناح أن البحر قريب.
- تحدثت بطريقة غريبة، كأن شيئاً ما يكمن وراء كلماتها، وركزت على كلمتي «هذا الجناح»، كما لو أنها تشير إلى أن الجناح الذي نقف فيه الآن أقل شأنًا بطريقة ما.

- يؤسفني ذلك، فأنا أحب البحر.

لم تُجِب، بل ظلت تحديق إليَّ ويدها معقودتان أمامها.
قلت:

- ومع ذلك، فهي غرفة ساحرة جدًّا، وأنا على ثقة بأنني سوف أنعم فيها بالراحة. حسبما فهمت، فقد أُعيد تصميمها قبل عودتنا.
- قالت:

- أجل.

- كيف كانت تبدو من قبل؟

- كان بها ورق حائط بنفسجي، وستائر مختلفة. لم يعتقد السيد دي وينتر أنها مبهجة للغاية، ولم تُستخدم تقريبًا، إلا للزوّار العرضيين. لكن السيد دي وينتر أصدر أوامر خاصة في رسائله بأن تكون هذه الغرفة لك.

- إذن، لم تكن هذه غرفة نومه في الأصل؟

- لا يا سيدتي، لم يستخدم الغرفة في هذا الجناح من قبل.

- أوه، لم يخبرني بذلك.

ثم توجهت إلى منضدة الزينة وبدأت في تمشيط شعري. أفرغت أغراضي بالفعل من الحقائق، ورقدت فرش شعري والمشط فوق الصينية. سررت لأن ماكسيم منحني مجموعة من الفرش، وأنها هناك على منضدة الزينة، لكي تراها السيدة دانفرز. كانت جديدة، وتكلفتم مبلغاً من المال، ولم يكن هناك داعٍ إلى أن أخجل منها.

قالت السيدة دانفرز:

- لقد أفرغت لكِ أليس حقائقك، وستعطني بك حتى تصل خادمتك. ابتسمت لها مرة أخرى، ووضعت الفرشاة على منضدة الزينة.

قلت في حرج:

- ليست لديّ خادمة. أنا متأكدة أن أليس ستعطني بي جيداً، إذا كانت خادمة المنزل.

ارتسم على ملامحها التعبير نفسه الذي ظهر عليها عند لقائنا الأول، حينما أسقطت قفازي على الأرض على نحو أخرج.

قالت:

- أخشى أن هذا لن يصلح فترة طويلة من الوقت، فمن المعتاد، كما تعلمين، أن تكون للسيدات اللاتي في مكائتك خادمة شخصية.

تخضب وجهي، ومددت يدي نحو فرشاتي مرة أخرى. كانت كلماتها لاسعة على نحو فهمته جيداً، وتفاديت عينيها وأنا أقول:

- إذا كنت تعتقدين أن هذا ضروري، فقد يمكنك تولي الأمر من أجلي. فتاة شابة، ربما، ترغب في التدريب.

قالت:

- كما تشائين، الرأي لك.

ساد الصمت بيننا، وتمنيت أن ترحل. تساءلت لماذا يجب أن تظل واقفة هناك، تراقبني ويدها معقودتان على فستانها الأسود.

بذلت جهدًا مرة أخرى، وقلت:

- أعتقد أنك أمضيت سنوات عديدة في ماندري، هل مكثت أطول من أي شخص آخر؟

- ليس بقدر فريث.

وفكرت كم بدا صوتها بلا حياة، وباردًا، مثل يدها حينما رقدت في يدي.
تابعَت قائلة:

- كان فريث هنا حينما كان السيد الكبير لا يزال على قيد الحياة، عندما كان السيد دي وينتر صبيًا.

- فهمت. إذن، لم تأتي إلا بعد ذلك؟

- بلى، ليس إلا بعد ذلك.

مرة أخرى، رفعت نظري إليها، فقابلتني ثانية عيناها الداكنتان الكثيبتان في وجهها الشاحب ذاك، وغرست داخلي شعورًا غريبًا بالقلق والتشاؤم، من دون أن أعرف سببًا لذلك. حاولتُ الابتسام، فعجزت عن ذلك، ووجدت نفسي أسيرة لتلك العينين الخاليتين من أي ضوء، ومن أي وميض من التعاطف نحوي. تحوّل صوتها الذي كان حتى تلك اللحظة، كما ذكرت من قبل، فاترًا وبلا أي نبرة، وصار قاسيًا بانفعال غير متوقع، وبات مفعمًا بالحياة والمعنى، وظهر بعض التورد على عظام وجنتيها الهزيلتين، وقالت:

- جئت إلى هنا عندما كانت السيدة دي وينتر الأولى عروسًا.

بدا التغيير مفاجئًا إلى درجة أنني صُدمت، وشعرت بالخوف نوعًا ما. لم أدر ماذا أفعل، أو ماذا أقول. كان الأمر كما لو أنها نطقت بكلمات محرمة، ظلت تخفيها داخل نفسها فترة طويلة، ولم يعد في وسعها كتمانها بعد الآن. كل هذا ولم تفارق عيناها وجهي، ونظرتا إليّ بمزيج غريب من الشفقة والازدراء، حتى شعرت بأنني أصغر سنًا وأقل خبرة بأساليب الحياة بدرجة أكبر مما ظننت.

كان في وسعي أن أرى أنها تحتقرنني، وقد صنفنتني بكل العجرفة التي تتسم بها طبقتها بوصفي سيدة ليست ذات مكانة، بل متواضعة وخجول وأفتقر إلى

الثقة. ومع ذلك، بدا هناك شيء آخر بجانب الازدراء في عينيها تلك: بالتأكيد شيء من الكراهية القاطعة، أو الخبث الفعلي؟
كان عليّ أن أقول شيئاً، ولم يكن من الممكن أن أبقى جالسة هناك، أعبث بفرشاة شعري، وأدعها ترى مدى خوفاً منها وعدم ثقتي بها.
سمعت نفسي أقول:

- سيدة دانفرز، أتمنى أن نصبح صديقتين، وأن نتفاهم مع بعضنا. يجب أن تتحلي بالصبر معي، كما تعلمين، لأن هذا النوع من الحياة جديد بالنسبة إليّ، فقد عشت بشكل مختلف نوعاً ما، وأريد أن أنجح في هذا، وقبل كل شيء أريد أن أسعد السيد دي ويتتر. أعرف أنني أستطيع ترك جميع الترتيبات المنزلية لك، كما قال السيد دي ويتتر، وعليك إدارة كل شيء كما كانت الحال من قبل، فلا أريد إجراء أي تغيير.

توقفت عن الحديث لاهثة بعض الشيء، وأنا لا أزال غير واثقة بنفسي، وما إذا كنت أتحدث على نحو صحيح، وعندما رفعت نظري مرة أخرى رأيت أنها تحركت، لتقف ويدها على مقبض الباب.
قالت:

- حسناً، أمل أن أفعل كل شيء على نحو مرضٍ لك. لقد توليت مسؤولية المنزل منذ أكثر من عام إلى الآن، ولم يبادر السيد دي ويتتر بالشكوى على الإطلاق. كان الأمر مختلفاً تماماً بالطبع عندما كانت السيدة دي ويتتر الراحلة على قيد الحياة، إذ كانا يستضيفان كثيراً من الناس حينها، وقيمان الكثير من الحفلات. وعلى الرغم من أنني كنت أتولى إدارة الأمور نيابة عنها، فإنها كانت تحب الإشراف على كل شيء بنفسها.
مرة أخرى، تشكل لديّ انطباع بأنها اختارت كلماتها بعناية، وأنها تتحسس طريقها داخل ذهني، إن جاز التعبير، وتراقب تأثير ذلك في وجهي.
كررتُ قائلة:

- أفضّل أن أترك لك الأمور. أفضّل ذلك كثيراً.

فظهر على وجهها التعبير نفسه الذي لاحظته من قبل، عندما صافحتها في الردهة أول مرة: نظرة سخرية وازدراء مؤكد. كانت تعلم أنني لن أتحدثها أبدًا، وأني أخافها أيضًا.

تظاهرت بإلقاء نظرة خاطفة على الغرفة، وقالت:

- هل هناك أي شيء آخر أستطيع أن أفعله من أجلك؟

- لا، أعتقد أن لدي كل شيء. سأكون مرتاحة جدًا هنا، فقد جعلت الغرفة ساحرة جدًا.

وكانت كلماتي تلك محاولة تملق أخيرة ذليلة للفوز برضاها. هزت كتفيها، وقالت من دون أن تبتسم:

- لقد أتت تعليمات السيد دي وينتر فحسب.

ترددت عند المدخل، ويدها على مقبض الباب المفتوح. بدا الأمر كما لو أنها لا يزال لديها ما تقوله لي، ولم تحسم رأيها بشأن اختيار الكلمات، ومع ذلك ظلت تنتظر هناك، حتى أمنحها الفرصة.

تمنيت أن تذهب، إذ وقفت هناك كظل، تراقبني وتقيّمني بعينيها الخاويتين الكائنتين في وجه الجمجمة الميت ذاك.

- إذا وجدت أي شيء لا يرضيك فهل ستبلغيني على الفور؟

- نعم، نعم، بالطبع يا سيدة دانفرز.

لكنني علمت أن هذا لم يكن ما أرادت قوله، وحل الصمت بيننا مرة أخرى. قالت فجأة:

- إذا طلب السيد دي وينتر خزانة ملابسه الكبيرة، فيجب أن تخبريه بأن تحريكها كان مستحيلًا. لقد حاولنا، لكننا لم نتمكن من إدخالها عبر هذه المداخل الضيقة، فهذه الغرف أصغر من تلك الكائنة في الجناح الغربي. وإذا لم يعجبه ترتيب هذا الجناح، فعليه أن يخبرني، إذ كانت من الصعب معرفة كيفية تأييد هذه الغرف.

- أرجوك لا تقلقي يا سيدة دانفرز، أنا متأكدة أنه سيُعجب بكل شيء، لكنني

أسفة لأن هذا سبب لك كل ذلك القدر من المتاعب. لم تكن لدي أي فكرة أنه طلب إعادة تصميم الغرف وتأثيرها. ما كان يجب أن يزجج نفسه، فأنا واثقة بأنني كنت سأشعر بالقدر نفسه من السعادة والارتياح في الجناح الغربي. نظرت إليّ على نحو غريب، وبدأت تلف مقبض الباب، وقالت:

- قال السيد دي وينتر إنك ستفضلين أن تكوني في هذا الجانب، فالغرف في الجناح الغربي قديمة جدًا. تبلغ مساحة غرفة النوم في الجناح الكبير ضعف هذه الغرفة، وهي غرفة فائقة الجمال أيضًا، لها سقف منقوش، والكراسي المزخرفة ثمينة جدًا، وكذلك رف المدفأة المنحوت. إنها أجمل غرفة في المنزل، وتطل نوافذها عبر المروج نحو البحر.

شعرتُ بعدم الارتياح، وبشيء من الخجل. لم أعرف لمَ تحتم عليها الحديث بمثل ذلك الاستياء الخفي، وهي تلمّح ضمناً في الوقت نفسه إلى أن هذه الغرفة، التي وجدت نفسي نزيلة بها، كانت أقل شأنًا، ولا ترقى إلى مستوى ماندرلي، كأنها غرفة من الدرجة الثانية لشخص من الدرجة الثانية. قلت:

- أعتقد أن السيد دي وينتر يبقى أجمل غرفة لعرضها على عامة الزوّار. واصلت لف مقبض الباب، ثم نظرت إليّ مرة أخرى، تراقب عيني، وقد ترددت قبل أن تجيب، وعندما تحدثت خرج صوتها أهدأ حتى، وخاليًا من أي نبرة أكثر مما كان عليه من قبل.

قالت:

- لا تُعرض غرف النوم على عامة الزوّار أبدًا، بل الردهة، وشرفة العازفين، والغرفة السفلية فقط.

توقفت عن الحديث لحظة، وهي تتفحصني بنظراتها، ثم تابعت:

- كانا يعيشان في الجناح الغربي، ويستخدمان تلك الغرف عندما كانت السيدة دي وينتر على قيد الحياة. تلك الغرفة الكبيرة التي أخبرتك عنها، التي تطل على البحر، كانت غرفة نوم السيدة دي وينتر.

ثم غامت ملامحها، وتراجعت نحو الحائط منزوية عندما ارتفع وقع خطوات بالخارج، ودخل ماكسيم إلى الغرفة.
قال لي:

- كيف وجدتها؟ على ما يرام؟ هل تعتقدين أنها ستعجبك؟

نظر حوله بحماس وهو مسرور كتلميذ، وتابع قائلاً:

- لطالما اعتقدت أن هذه أكثر الغرف جاذبية، وقد أهدرت طوال تلك السنوات

التي استُخدمت فيها كغرفة للضيوف، لكنني دائماً ما ظننت أن بها إمكانيات.

لقد حققت نجاحاً كبيراً في ذلك يا سيدة دانفرز، وسأمنحك الدرجة النهائية.

قالت ووجهها خالٍ من أي تعبير:

- شكراً لك يا سيدي.

ثم استدارت وخرجت من الغرفة وأغلقت الباب خلفها بهدوء.

توجه ماكسيم نحو النافذة وأطل منها قائلاً:

- أحب حديقة الورد، وواحدة من أولى ذكرياتي هي السير خلف والدتي

على ساقين غير ثابتتين وصغيرتين للغاية، بينما هي تقطف الورد الميت.

ثمة شيء مطمئن ومبهج في هذه الغرفة، كما أنها هادئة أيضاً. لا يمكنك أن

تخمني أبداً في هذه الغرفة أنك على بُعد خمس دقائق من البحر.

- هذا ما قالته السيدة دانفرز.

ابتعد عن النافذة، وتجول في أرجاء الغرفة، وأخذ يلمس الأشياء، وينظر إلى

اللوحات، ويفتح الخزائن، ويلمس ملابس التي أفرغت من الحقائب بالفعل.

سأل فجأة:

- كيف انسجمت مع العجوز دانفرز؟

أشحت عنه وبدأت أمشط شعري أمام المرأة مرة أخرى، ثم قلت بعد لحظة

أو اثنتين:

- إنها تبدو جامدة بعض الشيء. ربما اعتقدت أنني سأدخل في إدارة المنزل.

- لا أعتقد أنها ستمانع لو أنك فعلت.

رفعت عيني فرأيت يراقب انعكاسي في المرأة، ثم استدار وتوجه إلى النافذة مرة أخرى، وهو يصفر بهدوء، ويتأرجح إلى الخلف وإلى الأمام على كعبيه. قال:

- لا تهتمي بها. إنها شخصية غير اعتيادية من نواح عديدة، وربما ليس من السهل للغاية على امرأة أخرى أن تتعامل معها. يجب ألا تقلقي بشأن ذلك، وإذا جعلت نفسها حقاً مصدر إزعاج، فسوف نتخلص منها. لكنها كفوء، كما تعلمين، وستولى كل متاعب التدبير المنزلي نيابة عنك. أعتقد أنها تضايق باقي العاملين نوعاً ما، لكنها لا تجرؤ على مضايقتي، وإلا لكنت طردتها من العمل منذ زمن طويل لو حاولت ذلك. قلت بسرعة:

- أعتقد أننا سننسجم جيداً عندما تعرفني بشكل أفضل، ففي النهاية، من الطبيعي أن تستاء مني قليلاً في بادئ الأمر.

- تستاء منك؟ لماذا تستاء منك؟ ماذا تعنين، بحق الجحيم؟ استدار من النافذة، عابساً، وعلى وجهه تعبير غريب يكاد يكون غضباً. تساءلت لماذا انزعج، وتمنيت لو أنني قلت شيئاً آخر. قلت:

- أعني، لا بد أنه من الأسهل على مدبرة المنزل أن تعتني برجل وحده. أعتقد أنها اعتادت فعل ذلك، وربما قلقت من أن أكون متحكمة بدرجة كبيرة. شرع يقول:

- متحكمة، يا إلهي. إذا كنت تعتقدين... ثم توقف عن الحديث، وأتى نحوي وقبّلني على قمة رأسي. قال:

- دعينا ننس أمر السيدة دانفرز، فهي لا تهمني كثيراً، على ما أخشى. تعالي معي، ودعيني أرك شيئاً من ماندري. لم أر السيدة دانفرز مرة أخرى في ذلك المساء، ولم نعد إلى الحديث عنها.

شعرت بأنني أسعد عندما طردتها من أفكاري، كما قلّ شعوري بأنني دخيلة بينما نحن نتجول في الغرف بالطابق السفلي، ونأمل اللوحات. أحاط ماكسيم كتفي بذراعه، وبدأت أشعر أكثر بأنني الإنسانية التي أردت أن أكونها، والإنسانية التي تصورتها في أحلامي، التي جعلت ماندرلي منزلاً لها.

لم تعد خطواتي تبدو حمقاء على بلاط الردهة الحجري، إذ إن حذاء ماكسيم ذا المسامير أصدر ضجيجاً أعلى مني بكثير، كما بدا لوقع خطوات الكلّيين نغمة لطيفة ومريحة.

سررت أيضاً لأنها كانت الأمسية الأولى، ولم نعد إلا من فترة وجيزة، وقد استغرق عرض اللوحات كثيراً من الوقت، وعندما نظر ماكسيم إلى الساعة، قال إن الوقت فات لتبديل الملابس من أجل العشاء، فوفر عليّ الشعور بالخرج من أليس، الخادمة، وهي تسألني ماذا سأرتدي، ثم مساعدتي في تبديل ملابسي، قبل أن أهبط ذلك الدرج الطويل المؤدي إلى الردهة وأنا أشعر بالبرد بكتفين عاريتين، بفستان أعطتني إياه السيدة فان هوبر لأنه لم يناسب ابنتها. خشيت رسميات العشاء في غرفة الطعام الصارمة تلك، والآن، لمجرد أننا لم نبدل ملابسنا، بدا كل شيء على ما يرام، وفي غاية السهولة، تمامًا كما كانت الحال عندما تناولنا العشاء معاً في المطاعم. شعرت بالارتياح في ثوبي القطني، وضحكت وتحدثت عن أشياء رأيناها في إيطاليا وفرنسا، حتى إننا وضعنا الصور الفوتوغرافية على المائدة، وكان فريث والخادم محايدَيْن، كما كان النُدل، ولم يحدثا إلى وجهي مثلما فعلت السيدة دانفرز.

جلسنا في المكتبة بعد العشاء، ثم أغلقت الستائر، وألقي مزيد من الحطب في النار. كان الجو بارداً بالنسبة إلى شهر مايو، وشعرت بالامتنان للدفء المنبعث من جذوع الأشجار المشتعلة.

كان من الجديد بالنسبة إلينا أن نجلس معاً هكذا، بعد العشاء، لأننا في إيطاليا كنا نتجول، نسير أو نقود السيارة، وندخل المقاهي الصغيرة، ونتكئ على الجسور. توجه ماكسيم غريزياً الآن نحو الكرسي الموجود على يسار المدفأة

المفتوحة، ومدّ يده نحو الصحف. وضع إحدى الوسائد العريضة خلف رأسه، وأشعل سيجارة. فكرت: «هذا هو روتينه. هذا ما يفعله دائماً، وظلت هذه عاداته منذ سنوات إلى الآن».

لم ينظر إليّ، وواصل قراءة صحيفته، وهو قانع ومرتاح، بعد أن عاد إلى أسلوب حياته، سيداً لمنزله. وبينما جلست هناك، أفكر وذقني فوق كفي، أداعب الأذنين الناعمين لأحد كلبَي السبانيل، خطر لي أنني لست أول من استلقى هناك على ذلك الكرسي، بل جلست إنسانة قبلي، ومن المؤكد أنها تركت أثرها في الوسائد، وفي المسند حيث استقرت يدها. كانت هناك إنسانة أخرى صبت القهوة من نفس إبريق القهوة الفضي هذا، ورفعت الفنجان إلى شفتيها، وانحنت فوق الكلب مثلما أفعل أنا الآن.

ارتجفت لاشعورياً، كما لو أن شخصاً ما فتح الباب خلفي وأدخل تياراً بارداً في الغرفة. كنت جالسة على كرسي ربيكا، متكئة على وسادة ربيكا، وقد جاء إليّ الكلب ووضع رأسه على ركبتي لأن هذه كانت عاداته، وتذكر أنها كانت تمنحه السكر هناك في الماضي.

لم أدرك قَطُّ، بالطبع، أن الحياة في ماندرلي ستكون منظمة ومخططة إلى هذا الحد. أذكر الآن، وأنا أستعيد الماضي، كيف استيقظ ماكسيم وبدل ملابسه في ذلك الصباح الأول، وشرع يكتب الرسائل قبل الإفطار حتى، وعندما نزلت إلى الطابق السفلي، بعد الساعة التاسعة تقريبًا، وأنا مضطربة بعض الشيء من النداء المدوي للجرس، وجدت أنه كاد ينتهي من إفطاره، وبدأ يقشر الفاكهة بالفعل. رفع إليّ عينيه وابتسم، قائلاً:

- لا عليك، هذا شيء يجب أن تألفيه، فلا وقت لديّ للتسكع في هذه الساعة من اليوم. إن إدارة مكان مثل ماندرلي هي وظيفة بدوام كامل، كما تعلمين. القهوة والأطباق الساخنة على البوفيه. دائمًا ما نخدم أنفسنا على الإفطار. قلت شيئًا عن تأخر ساعتني، وعن كوني قضيت وقتًا أطول من اللازم في الحمام، لكنه لم يستمع إليّ، بل نظر إلى رسالة، مستاء من شيء ما. لكم انبهرت: أذكر جيدًا، أنني انبهرت وشعرت ببعض الرهبة من روعة الإفطار المقدم لنا. كان هناك شاي في براد فضي ضخمة، وقهوة أيضًا، وعلى السخان أطباق حارة من البيض المقلي واللحم المقدد، وطبق آخر من السمك. كما كانت هناك مجموعة صغيرة من البيض المسلوق أيضًا، على السخان الخاص بها وعصيدة في وعاء من الفضة. وعلى بوفيه آخر كان هناك لحم خنزير، وقطعة ضخمة من اللحم المقدد البارد. كما كان هناك كعك أيضًا على الطاولة، وخبز محمص، وأوانٍ مختلفة بها مربى الفاكهة ومربى البرتقال، والعسل، بينما قبعَت أطباق الحلوى المكدسة عاليًا

بالفاكهة على طرفي الطاولة. بدا لي من الغريب أن ماكسيم، الذي اعتاد تناول الكرواسون والفاكهة وشرب فنجان من القهوة فقط في فرنسا وإيطاليا، يجلس في المنزل لتناول هذا الإفطار الذي يكفي اثني عشر شخصًا، يومًا بعد يوم، وعلى الأرجح عامًا بعد عام، من دون أن يرى في ذلك أي شيء سخيف أو مسرف.

لاحظت أنه تناول قطعة صغيرة من السمك. أخذت بيضة مسلوقة، وتساءلت عما سيحدث للباقي: كل ذلك البيض المقلي، واللحم المقدد المقرمش، والعصيدة، وبقايا السمك. تساءلت عما إذا كان هناك فقراء، لن أعرفهم ولن أراهم أبدًا، ينتظرون الإنعام عليهم بإفطارنا، خلف أبواب المطبخ؟ أم أن كل ذلك يُخلص منه، ويُلقي في صناديق القمامة؟ لن أعرف أبدًا، بالطبع، ولن أجروأ أبدًا على السؤال.

قال ماكسيم:

- فلتحمدي الرب أنني ليس لديّ حشد كبير من الأقارب لأعذبك بهم. مجرد شقيقة نادرًا ما أراها، وجدة شبه عمياء. بالمناسبة، دعت بياتريس نفسها إلى تناول الغداء، كما توقعت تقريبًا أن تفعل. أعتقد أنها تريد أن تلقي عليك نظرة.

انخفضت معنوياتي حد الصفر، وسألته:

- اليوم؟

- أجل، وفقًا للرسالة التي تلقيتها هذا الصباح. لن تبقى طويلًا، وأعتقد أنك ستحبينها. إنها مباشرة للغاية، وتؤمن بإعلان رأيها صراحة، من دون أي تظاهر على الإطلاق. إذا لم تحبك، فستخبرك بذلك وجهًا لوجه.

لم أجد هذا باعًا على الارتياح، وتساءلت عما إذا كان هناك شيء من الفضيلة في صفة النفاق. نهض ماكسيم عن كرسيه وأشعل سيجارة، وقال:

- لديّ كثير من الأشياء عليّ تولي أمرها هذا الصباح، هل تعتقدين أن في وسعك تسلية نفسك؟ كنت أتمنى أخذك في جولة حول الحديقة، لكن يجب أن أرى كرولي، وكيل أعماله. لقد غبت عن العمل أطول من اللازم.

سيحضر على الغداء هو أيضًا، بالمناسبة. لن تمنعني، أليس كذلك؟ هل ستكونين على ما يرام؟
قلت:

- بالطبع، سأكون سعيدة للغاية.

ثم التقط رسائله وخرج من الغرفة، وأذكر أنني فكرت أنني لم أتخيل أن يكون صباحي الأول على هذا النحو، بل تخيلتنا نسير معًا حتى البحر وقد عقدنا ذراعينا ببعضنا، ثم نعود في وقت متأخر نوعًا ما، متعبين وسعيدين، لتناول غداء بارد وحدنا، ثم نجلس بعد ذلك تحت شجرة الكستناء تلك التي يمكنني رؤيتها من نافذة المكتبة.

تباطأت طويلًا خلال إفطاري الأول، واستغرقت كثيرًا من الوقت، ولم أدرك أن الساعة تخطت العاشرة إلا عندما رأيت أن فريث أتى ليطل عليّ من خلف ستار الخدم. قفزت واقفة على قدمي على الفور، وشعرت بالذنب، واعتذرت عن جلوسي هناك حتى وقت متأخر إلى هذا الحد، فانحنى ولم يقل شيئًا، وهو في غاية التهذيب والرسمية، ورأيت الدهشة تلمع في عينيه، فتساءلت عما إذا كنت تفوهت بشيء خطأ. ربما لم يكن من اللائق أن أعتذر، وربما قلل ذلك من شأنني في نظره. تمنيت لو أنني أعرف ماذا أقول، وماذا أفعل. وتساءلت عما إذا تشكك، كما تشككت السيدة دانفرز، في أن الوقار والأناقة والثقة لم تكن صفات متأصلة داخلي، بل خصال يجب اكتسابها، ربما على نحو مؤلم، وببطء، مما سيكلفني الكثير من اللحظات المريعة.

بينما كنت في طريقي لمغادرة الغرفة، حدث أن تعثرت نظرًا إلى أنني لم أنتبه لموضع خطواتي، فعلق قدمي بعتبة الباب، وتقدم فريث لمساعدتي والتقط منديلي، في حين أن روبرت، الخادم الشاب الواقف خلف الستار، أدار وجهه ليخفي ابتسامته.

سمعت همهمة صوتيهما وأنا أعبّر الردهة، وضحك أحدهما، روبرت على ما أعتقد. ربما كانا يضحكان عليّ. صعدت مرة أخرى إلى الطابق العلوي، إلى

غرفة نومي الخاصة، لكن عندما فتحت الباب وجدت الخادومات بالداخل يرتبن الغرفة: كانت إحداهن تكنس الأرض، والثانية تنفض الغبار عن منضدة الزينة. نظرنا إليَّ بدهشة، فخرجت بسرعة مرة أخرى. لا يمكن أن يكون من الصحيح إذن، أن أذهب إلى غرفتي في تلك الساعة من الصباح. لم يكن ذلك متوقعاً مني، إذ يمثل كسرًا لروتين المنزل. تسللت إلى الطابق السفلي مرة أخرى، بصمت، وأنا ممتنة لنعلي اللتين لم تصدراً صوتاً على البلاط الحجري، حتى دخلت المكتبة، التي كانت باردة، والنوافذ مفتوحة على مصاريعها. وُضع الحطب في المدفأة، لكنه لم يكن مشتعلًا.

أغلقت النوافذ، وبحثت حولي عن علبة أعواد ثقاب، لكنني لم أتمكن من العثور على واحدة، وتساءلت عما عليَّ فعله. لم أحب قرع الجرس. لكن المكتبة التي كانت دافئة ومريحة جدًا مع الحطب المشتعل في الليلة الماضية، بدت مثل مخزن للتبريد الآن، في الصباح الباكر. كانت هناك أعواد ثقاب في غرفة النوم بالطابق العلوي، لكنني لم أرغب في الذهاب لجلبها، لأن ذلك سيعني إزعاج الخادومات في أثناء عملهن، ولن أتحمل أن تحرق إليَّ إحداهن مرة أخرى بوجهها المستدير. قررت أن أحضر أعواد الثقاب من على البوفيه، عندما يغادر فريث وروبرت غرفة الطعام. تسللت على أطراف أصابعي إلى الردهة، وأصخت السمع. كانا لا يزالان يرفعان الطاولة، وسمعت الأصوات وحركة الصواني، حتى ساد الصمت بعد فترة. لا بد أنهما خرجا من باب الخدم ودخلا المطبخ، لذا عبرت الردهة ودخلت غرفة الطعام مرة أخرى. نعم، كانت هناك علبة أعواد ثقاب على البوفيه، كما توقعت. عبرت الغرفة بسرعة والتقطتها، ودخل فريث الغرفة مرة أخرى بينما أفعل ذلك، فحاولت إخفاء العلبة في جيبي خلسة، لكنني رأيته يلقي نظرة على يدي باندهاش.

قال:

- هل تحتاجين إلى شيء يا سيدتي؟

قلت بحرج:

- أوه يا فريث، لم أستطع العثور على أي أعواد ثقاب.
قدم لي علبة أخرى في الحال، وناولني السجائر أيضًا في الوقت نفسه، وهو
ما مثل سببًا آخر للشعور بالحرج، لأنني لا أدخن.
قلت:

- لا، الحقيقة أنني شعرت بالبرد نوعًا ما في المكتبة. أعتقد أن الطقس يبدو
باردًا بالنسبة إليّ، بعد أن قضيت فترة في الخارج، وظننت أنه قد يمكنني
إشعال النار بالثقاب فحسب.
قال:

- لا تُشعل النار في المكتبة عادة إلا بعد الظهيرة يا سيدتي. دائمًا ما كانت
السيدة دي ويتتر تستخدم غرفة الجلوس الصباحية، إذ توجد نار جيدة مشتعلة
هناك. لكن بالطبع إذا أردتِ النار في المكتبة أيضًا، فسأصدر أوامر بإشعالها.
قلت:

- أوه، لا، لن أفكر في الإقدام على ذلك. سأذهب إلى غرفة الجلوس
الصباحية، شكرًا لك يا فريث.
قال:

- ستجدين ورق كتابة وأقلامًا وحبرًا هناك يا سيدتي. اعتادت السيدة دي ويتتر
القيام بجميع مراسلاتها ومكالماتها الهاتفية في غرفة الجلوس الصباحية،
بعد الإفطار. كما أن هاتف المنزل موجود هناك أيضًا، إذا رغبتِ في التحدث
إلى السيدة دانفرز.
قلت:

- شكرًا لك يا فريث.
استدرت عائدة إلى الردهة مرة أخرى وأنا أدندن لحنًا صغيرًا ليضفي عليّ
طابعًا من الثقة، ولم أتمكن من إخباره بأنني لم أر غرفة الجلوس الصباحية
قَطُّ، وأن ماكسيم لم يطلعني عليها في الليلة السابقة. كنت أعلم أنه يقف عند
مدخل غرفة الطعام، يراقبني وأنا أعبر الردهة، وأنني يجب أن أظهر أنني أعرف

الطريق. كان هناك باب على يسار الدرج الكبير، فتوجهت نحوه بتهور وأنا أدعو من كل قلبي أن يوصلني إلى هدفي، لكن عندما وصلت إليه وفتحته، رأيت أنه غرفة خاصة بالحديقة، ومكان يضم أشياء مختلفة: كانت هناك طاولة تُنسق فوقها الزهور، وكراسي من الخيزران مكدسة بجوار الحائط، وزوجان من المعاطف الواقية من المطر أيضًا معلقان على مشجب. خرجت بشيء من التحدي، ونظرت عبر الردهة، ورأيت فريث لا يزال واقفًا هناك، ولم أنجح في خداعه ولو لحظة.

قال:

- عليكِ المرور عبر غرفة الاستقبال، للوصول إلى غرفة الجلوس الصباحية يا سيدتي. من ذلك الباب هناك، على يمينك، على هذا الجانب من الدرج. ادخلي عبر غرفة الاستقبال مباشرة، وانحرفي يسارًا. تخليت عن التظاهر، وقلت بتواضع:
- شكرًا لك يا فريث.

مررت عبر غرفة الاستقبال الطويلة، كما دُلّني، وكانت غرفة جميلة، متناسقة على نحور رائع، وتطل على المروج وصولًا إلى البحر. افترضت أن عامة الزوّار سيرون هذه الغرفة، وإذا قادهم فريث في جولة، فسيعرف تاريخ اللوحات على الجدران، وإلى أي عصر يعود الأثاث. بدت جميلة بالطبع، كنت أعرف ذلك، وربما كانت تلك الكراسي والطاولات لا تُقدر بثمن، لكن على الرغم من كل ذلك لم أرغب في البقاء هناك، ولم أستطع أن أتخيل نفسي قَطُّ جالسة على تلك المقاعد، أو واقفة أمام رف المدفأة المنحوت، ألقي بالكتب على الطاولات. كان لها طابع رسمي مثل قاعة متحف، حيث تُغلق الأركان بحبال، ويجلس حارس على مقعد بجوار الباب، مرتديًا عباءة وقبعة مثل المرشدين في القصور الفرنسية. مررت خلالها، ثم انحرفت يسارًا، ووصلت إلى غرفة الجلوس الصباحية الصغيرة التي لم أرها من قبل.

سررت لرؤية الكلبين هناك، جالسين أمام النار، وجاء أصغرهما، جاسبر، إليَّ

على الفور، وهو يهز ذيله، ودفع أنفه في كفي. رفعت الكلبة العجوز أنفها عند اقترابي، وحدثت اتجاهي بعينها العمياوين، لكن عندما تشممت الهواء لحظة، ووجدت أنني لست الشخص الذي تبحث عنه، نخرت وأدارت رأسها بعيداً، ثم نظرت بثبات إلى النار مرة أخرى. بعد ذلك، تركني جاسبر أيضاً، واستقر إلى جانب رفيقته، ولحق جانبها. كان هذا روتينهما. كانا يعلمان، كما يعلم فريث، أن النار لا تُشعل بالمكتبة حتى بعد الظهيرة، وجاءا إلى غرفة الجلوس الصباحية بحكم العادة منذ زمن. توقعت بطريقة ما قبل أن أتوجه إلى النافذة أن الغرفة تطل على الرودودندرون. نعم، كانت هناك، حمراء بلون الدم وفاتنة، كما رأيتهما في المساء السابق، شجيرات ضخمة منها، محتشدة تحت النافذة المفتوحة، وتتعدى على مساحة الممر نفسه. كما كانت هناك فسحة صغيرة أيضاً بين الشجيرات، مثل مرج صغير، والعشب في نعومة بساط من الطحالب، وفي الوسط تمثال صغير لفون(*) عارٍ، رفع مزماره إلى شفثيه.

شكّلت شجيرات الرودودندرون القرمزية خلفية له، وبدت الفسحة نفسها أشبه بمسرح صغير، حيث يرقص ويلعب دوره. لم تكن هناك رائحة مكتومة في هذه الغرفة، كما كانت الحال في المكتبة، ولم تكن هناك مقاعد قديمة مستهلكة، ولا طاولات تناثرت على سطحها المجلات والصحف التي نادراً ما يقرأها أحد، لكنها تُركت هناك بحكم العادة منذ زمن طويل، لأن والد ماكسيم، أو ربما حتى جده، أراد ذلك.

كانت هذه غرفة امرأة، جميلة ورقيقة: غرفة إنسانة اختارت كل قطعة أثاث بعناية فائقة، بحيث يكون كل كرسي، وكل مزهرية، وكل شيء صغير متناهي الصغر منسجماً بعضه مع بعض، ومع شخصيتها الخاصة. بدا الأمر كأن من رتب هذه الغرفة قالت: «سأخذ هذا، وهذا، وهذا»، وانتقت قطعة قطعة أفضل ما يعجبها من كنوز ماندريلي، متجاهلة كل ما هو متواضع ومن الدرجة الثانية،

(*) الفون كائن خيالي من الميثولوجيا، له رأس وجذع إنسان، وساقا ماعز، وله قرون. (المترجمة).

ووضعت يدها على نحو غريزي مؤكد على الأفضل فحسب. لم يكن هناك تداخل في التصميمات، ولا خلط في الفترة الزمنية، وتميزت النتيجة بالكمال على نحو غريب ومفاجئ، حيث لم تكن ذات طابع رسمي بارد مثل غرفة الاستقبال التي تُعرض على عامة الزوّار، بل كانت تنبض بالحياة، وبها شيء من نفس الوهج والتألق اللذين يميزان شجيرات الرودودندرون المحتشدة هناك أسفل النافذة. ولأحظت حينها أن الرودودندرون لم تقنع بتشكيل مسرحها على ذلك المرج الصغير خارج النافذة، بل سُمح لها بدخول الغرفة نفسها، فأطلت عليّ وجوها الدافئة من فوق رف المدفأة، وطففت في وعاء على الطاولة بجوار الأريكة، كما وقفت نحيلة ورشيقة على المكتب بجانب الشمعدانات الذهبية.

امتألت بها الغرفة، حتى إن الجدران استمدت لونها منها، وصارت غنية ومتوهجة في شمس الصباح. كانت هي الزهور الوحيدة في الغرفة، وتساءلت عما إذا كان هناك هدف من ذلك، وعما إذا كانت الغرفة قد رُتبت بالأساس وهذا الهدف في الحسبان، إذ لم يكن هناك مكان آخر في المنزل تغلب عليه زهور الرودودندرون. كانت هناك زهور في غرفة الطعام، وزهور في المكتبة، لكنها منظمة ومرتبة، وتظهر في الخلفية، ليس على هذا النحو، وليس بوفرة. ذهبت للجلوس إلى المكتب، وفكرت كم هو غريب أن هذه الغرفة الجميلة جدًا والغنية بالألوان كانت في الوقت نفسه عملية وهادفة. بطريقة ما، توقعت أن تكون الغرفة المفروشة بهذا الذوق الرائع، مع كل هذه المبالغة في الزهور، مكانًا للزينة فقط، ساكنة وحميمة.

لكن المكتب هذا، على الرغم من جماله، فإنه لم يكن مجرد لعبة جميلة تخريش المرأة فوقها ملاحظات صغيرة، وهي تقضم طرف قلمها، وتركها مهملة يومًا تلو يوم، وورق النشاف منحرف بعض الشيء. بل وُضعت على صناديق الرسائل ملصقات كُتب عليها: «رسائل لم يتم الرد عليها»، و«رسائل يجب الاحتفاظ بها»، و«المنزل»، و«العزبة»، و«قوائم الطعام»، و«متفرقات»، و«عناوين»، وكُتبت كل بطاقة بذلك الخط المدبب نفسه الذي كنت أعرفه بالفعل.

وقد فوجئت، بل صدمت، عندما تعرفت عليه مرة أخرى، إذ لم أره منذ أن دمرت تلك الصفحة من ديوان الشعر، ولم أعتقد أنني سأراه مرة أخرى.

فتحتُ درجًا على نحو عشوائي، فظهرت الكتابة مرة أخرى، هذه المرة في كتاب جلدي مفتوح، ظهر عنوانه على الفور: «ضيوف في ماندرلي»، وكان مقسمًا إلى أسابيع وشهور، ويوضح أي زوّار جاءوا وذهبوا، والغرف التي استخدموها، والطعام الذي تناولوه. قلبت الصفحات ورأيت أن الكتاب عبارة عن سجل كامل لمدة عام، حتى تعرف المضيفة إذا رجعت إليه، باليوم والساعة تقريبًا، أي ضيف بات تحت سقفها في أي ليلة، وأين نام، وما قدمته له من طعام. كان في الدرج أيضًا دفتر ملاحظات، بأوراق بيضاء سميكة لكتابة المسودات، وورق الرسائل الخاص بالمنزل، وعليه الشعار والعنوان، وبطاقات زيارة بيضاء عاجية في صناديق صغيرة.

أخرجت إحداها وتأملتها، وفككتها من النسيج الورقي الرفيع المحيط بها. كُتب عليها: «السيدة م. دي وينتر»، وفي الركن «ماندرلي». أعدتها إلى الصندوق مرة أخرى، وأغلقت الدرج. وشعرت بالذنب فجأة، وبأنني مخادعة، كأنني أقيم في منزل شخص آخر، وقالت لي مضيفتي: «أجل، بالطبع، يمكنك كتابة الرسائل على مكيتي»، فاختلست النظر إلى مراسلاتها سرًا على نحو لا يُغتفر. وقد تعود إلى الغرفة في أي لحظة، وتراني هناك، جالسة أمام درجها المفتوح الذي لا يحق لي أن ألمسه.

وعندما رن جرس الهاتف فجأة بطريقة مزعجة على المكتب أمامي، قفز قلبي وجفلت في رعب، معتقدة أنني انكشفت. رفعت السماعة بيد مرتجفة، وقلت:

- مَنْ أنت، وماذا تريد؟

كان هناك أزيز غريب على الطرف الآخر من الخط، ثم جاء صوت خفيض وقاسٍ نوعًا ما، لم أميز ما إذا كان صوت امرأة أو رجل، وقال:

- سيدة دي وينتر؟ سيدة دي وينتر؟

قلت:

- أخشى أنك ارتكبت خطأً، فقد ماتت السيدة دي وينتر منذ أكثر من عام.
جلست هناك منتظرة، أهدق بغباء إلى السماء، وعندما تكرر الاسم مرة
أخرى، وبدا الصوت متشككاً ومرتفعاً بعض الشيء، تضرج وجهي وأدركت
أنني أخطأت على نحو لا يمكن التراجع عنه، ولم أستطع التراجع عن كلامي.
قال الصوت:

- أنا السيدة دانفرز يا سيدتي، أتحدث إليك على هاتف المنزل.
بدت زلتي واضحة للغاية، وغبية جداً ولا تُغتفر، إلى درجة أن تجاهلها سيظهر
أنني أكثر حمقاً حتى مما كنت عليه بالفعل، إذا أمكن ذلك.
تعثرت كلماتي، وتلعثمت قائلة:

- معذرة يا سيدة دانفرز، لقد فاجأني الهاتف، ولم أدْرِ ما الذي أقوله، ولم
أدرك أن المكالمات من أجلي، ولم ألحظ أنني أتحدث على هاتف المنزل.
قالت:

- آسفة لأنني أزعجتك يا سيدتي.
وفكرت أنها تعلم، وخمنت أنني كنت أفتش في المكتب. تابعت قائلة:
- تساءلت فقط عما إذا كنت ترغبين في رؤيتي، وما إذا كنت توافقيين على
قوائم الطعام لهذا اليوم.
قلت:

- أوه، أنا متأكدة من ذلك. أعني، أنا متأكدة أنني سأوافق على القوائم. اطلبي
ما تريدينه فحسب يا سيدة دانفرز، ولا داعي لأن تسأليني.
واصل الصوت قائلاً:

- سيكون من الأفضل، على ما أعتقد، إذا قرأت قائمة الطعام. ستجدين قائمة
اليوم على النشاف، بجانبك.

بحثت حولي على المكتب على نحو محموم، حتى عثرت أخيراً على ورقة
لم ألحظها من قبل، وألقيت عليها نظرة سريعة: الجمبري بالكاري، ولحم العجل

المشوي، والهلين، وموس الشوكولاتة الباردة. هل كان هذا الغداء أم العشاء؟
لم أستطع أن أرى. الغداء، على ما أظن.
قلت:

- نعم يا سيدة دانفرز، إنها مناسبة جدًا، ولطيفة للغاية حقًا.
أجابت:

- أرجو إبلاغي إذا أردت تغيير أي شيء، وسأصدر الأوامر على الفور.
ستلاحظين أنني تركت مساحة خالية بجانب الصلصة، لكي تحددى ما
تفضلينه. لم أكن متأكدة من نوع الصلصة التي اعتدت تقديمها مع لحم
العجل المشوي. اعتادت السيدة دي ويتر الاهتمام بشدة بنوع الصلصات،
وكان عليّ دائمًا الرجوع إليها.

قلت:

- أوه. أوه، حسنًا... دعيني أرّ يا سيدة دانفرز. بالكاد أعرف. أعتقد أنه من
الأفضل أن نتناول ما تتناولونه عادة، أيًا ما كان الذي تعتقدين أن السيدة
دي ويتر كانت ستطلبه.

- هل لديك تفضيل معين يا سيدتي؟

قلت:

- لا، لا، ليس في الواقع يا سيدة دانفرز.
- أعتقد أن السيدة دي ويتر كانت ستطلب صلصة نبيذ يا سيدتي.

قلت:

- إذن، ستتناول الشيء نفسه بالطبع.
- آسفة جدًا لأنني أزعجتك وأنت مشغلة بالكتابة يا سيدتي.

قلت:

- لم تزعجيني على الإطلاق. من فضلك لا تعتذري.

قالت:

- يُرسل البريد في منتصف النهار، وسيأتي روبرت ليأخذ رسائلك ويختتمها

بنفسه. كل ما عليك فعله هو الاتصال به على الهاتف، إذا كان لديك أي شيء عاجل ليتم إرساله، وسيصدر أوامر بأخذه إلى مكتب البريد على الفور. قلت:

- شكرًا يا سيدة دانفرز.

أصخت السمع لحظة، لكنها لم تقل المزيد، ثم سمعت تكة صغيرة على الطرف الآخر، مما يعني أنها وضعت السماعة، ففعلت الشيء نفسه. ثم نظرت إلى المكتب مرة أخرى، على ورق الرسائل الجاهز للاستخدام، فوق ورق النشاف. وأمامي، حدثت إليّ صناديق الرسائل المُنونة، وبدت الكلمات المكتوبة عليها، مثل «رسائل لم يتم الرد عليها»، و«العزبة»، و«متفرقات»، بمنزلة توبيخ لي على كسلي. فلم تضيق تلك التي جلست هنا قبلي وقتها، كما أفعل أنا. بل مدّت يدها إلى هاتف المنزل، وأصدرت أوامرها لذلك اليوم، بسرعة وكفاءة، وربما شطبت بقلمها على عنصر في قائمة الطعام لم يحظَ برضاها، ولم تقل «نعم يا سيدة دانفرز»، و«بالطبع يا سيدة دانفرز»، كما فعلت أنا. بعد ذلك، عقب انتهائها، تبدأ كتابة رسائلها: ربما خمس، أو ست، أو سبع يجب الرد عليها، كلها مكتوبة بذلك الخط الغريب نفسه المائل الذي أعرفه جيدًا. ستتزع صفحة تلو صفحة من ذلك الورق الأبيض الناعم، وتستخدمه بإسراف، بسبب الضربات الطويلة التي تخطها في أثناء الكتابة، وفي نهاية كل رسالة من رسائلها الشخصية، تضع توقيعها، «ريبيكا»، بحرف الرء الطويل المائل ذلك، الذي يتضاءل رفاقه بجانبه. نقرت بأصابعي على المكتب. كانت صناديق الرسائل فارغة الآن. لم تكن هناك «رسائل لم يتم الرد عليها» تنتظر من يتولى أمرها، ولا فواتير أعلم عنها شيئًا في حاجة إلى الدفع. قالت السيدة دانفرز إنه إذا كان لديّ أي شيء عاجل، فيجب عليّ الاتصال بروبرت وسيصدر الأوامر لأخذها إلى البريد. تساءلت عن عدد الرسائل العاجلة التي كانت ريبيكا تكتبها، وإلى من كتبتها. ربما إلى الخياطة: «يجب أن أحصل على الساتان الأبيض في يوم الثلاثاء، على وجه التأكيد»، أو إلى مصفف شعرها: «سأتي يوم الجمعة المقبل، وأريد موعدًا في الساعة الثالثة

مع السيد أنطوان نفسه، من أجل الشامبو والتدليك وتصفيف الشعر والمانيكير». لا، ستكون الرسائل من هذا النوع مضيعة للوقت. كانت ستطلب الاتصال بلندن، وسيتولى فريث ذلك. سيقول فريث: «أتحدث نيابة عن السيدة دي وينتر». واصلت النقر بأصابعي على المكتب. لم أستطع التفكير في أي شخص أكتب إليه، سوى السيدة فان هوبر. وبدا هناك شيء أحرق، وساخر إلى حد ما، في إدراك أنني جالسة هنا إلى مكتبي الخاص في منزلي، وليس لدي ما أفعله أفضل من كتابة رسالة إلى السيدة فان هوبر، وهي امرأة لا أحبها ولن أراها مرة أخرى. سحبت ورقة رسائل نحوي، والتقطت القلم النحيل الرقيق ذا السن المدببة اللامعة، وبدأت: «عزيزتي السيدة فان هوبر»، وبينما أنا أكتب على نحو متردد ومتعسر، قائلة إنني آمل أن رحلتها كانت جيدة، وأنها وجدت ابتها في حال أفضل، وأن الطقس في نيويورك كان لطيفاً ودافئاً، لاحظت لأول مرة كيف يبدو خط يدي مكتظاً وغير متناسق، ومن دون شخصية وأسلوب مميز، بل وحتى مثل خط شخص غير متعلم، أشبه بكتابة تلميذ غير مبالٍ تعلم في مدرسة من الدرجة الثانية.

عندما سمعت صوت السيارة في الممر، نهضت في دعر مفاجئ، وألقيت نظرة سريعة على الساعة، لأنني كنت أعرف أن ذلك يعني أن بياتريس وزوجها وصلا. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة فحسب. جاء في وقت أبكر بكثير مما كنت أتوقع، ولم يعد ماكسيم بعد. تساءلت عما إذا كان من الممكن الاختباء، والخروج من النافذة إلى الحديقة، حتى يقول فريث عندما يُحضّرهما إلى غرفة الجلوس الصباحية: «لا بد أن سيدتي قد خرجت»، وسيبدو الأمر طبيعياً تماماً، وسيأخذانه باعتباره مسألة طبيعية. نظر إليّ الكلبان باستفهام عندما هرعت إلى النافذة، وتبعني جاسبر وهو يهز ذيله.

انفتحت النافذة على الشرفة، وعلى الفسحة العشبية الصغيرة وراءها، ولكن بينما كنت أستعد لتخطي شجيرات الرودودندرون، اقتربت الأصوات، فدخلت إلى الغرفة مرة أخرى. كانا قادمين إلى المنزل عن طريق الحديقة، بعد أن أخبرهما فريث بلا شك بأنني في غرفة الجلوس الصباحية. دخلت بسرعة إلى غرفة الاستقبال الكبيرة، وتوجهت إلى الباب القريب مني في جهة اليسار، فوجدته يؤدي إلى ممر حجري طويل، ركضت عبره وأنا مدركة تماماً لغبائي، وأحترق نفسي لتوتر الأعصاب المفاجئ هذا، لكنني كنت أعلم أنني لا أستطيع مواجهة هؤلاء الناس، ليس في هذه اللحظة على أي حال. بدا أن الممر يقودني إلى الأجزاء الخلفية من المنزل، وحينما انحرفت عند منعطف، ووصلت إلى درج آخر، قابلت خادمة لم أرها من قبل، ربما خادمة مطبخ، تحمل في يديها دلوًا

وممسحة. حدثت إليّ بتعجب كأنني شبح غير متوقع في هذا الجزء من المنزل، فقلت بارتباك شديد، وأنا أتوجه إلى الدرج:
- صباح الخير.

فأجابت، فاعرة فاهاً، وعيناها المستديرتان مليئتان بالفضول وأنا أصعد الدرج:
- صباح الخير يا سيدتي.

افترضت أن الدرج سيقودني إلى غرف النوم، وسأتمكن من العثور على غرفتي في الجناح الشرقي، وأجلس هناك بعض الوقت، حتى أقرر أن موعد الغداء اقترب، وحينها ستجبرني اللياقة على النزول مرة أخرى.
لا بد أنني فقدت الاتجاه، لأنني مررت من باب على رأس الدرج، فوصلت إلى ممر طويل لم أره من قبل، يشبه من بعض النواحي ذلك الموجود في الجناح الشرقي، لكنه أوسع وأشد قتامة، إذ كان داكنًا بسبب الألواح الخشبية التي تكسو الجدران.

ترددت، ثم انعطفت يسارًا، فوصلت إلى بسطة عريضة ودرج آخر. بدا المكان هادئًا ومظلمًا للغاية، ولم يكن أحد موجودًا هناك. إذا أتت الخادومات هنا خلال الصباح، فقد انتهين من عملهن الآن، ونزلن إلى الطابق السفلي. لم يكن هناك أثر لوجودهن، ولا رائحة غبار عالقة من أثر السجاد المكنوس حديثًا، وفكرت بينما أنا واقفة هناك، أتساءل إلى أي ناحية أتجه، أن ذلك الصمت غير عادي، ويحمل شيئًا من الكآبة نفسها مثل المنزل الخالي، عقب رحيل أصحابه.

فتحت بابًا على نحو عشوائي، فوجدت غرفة غارقة في ظلام دامس، من دون أن يمر أي ضوء عبر المصاريع المغلقة، في حين استطعت أن أرى على نحو خافت، في منتصف الغرفة، هيئة أثاث مغطى بملاءات بيضاء للحماية من الغبار. بدت رائحة الغرفة خانقة ومكتومة، مثل رائحة غرفة نادرًا ما تُستخدم، وجمعت ديكوراتها معًا في منتصف الفراش، وتُركت هناك مغطاة بملاءة. ربما لم تُفتح ستائر النافذة أيضًا منذ الصيف الماضي، وإذا توجه المرء نحوها الآن وفتحها، وفتح المصاريع التي تصدر صريرًا، فستسقط على السجادة عثة ميتة

ظلت حبيسة خلفها أشهرًا طويلة، وترقد هناك بجوار دبوس منسي، وورقة شجر جافة طيرتها الريح هناك قبل أن تغلق النوافذ للمرة الأخيرة. أغلقت الباب بهدوء، وسرت بتردد عبر الممر، محاطة بالأبواب من كلا الجانبين، وجميعها مغلقة، حتى وصلت إلى كوة صغيرة في جدار يطل على الخارج، حيث كانت هناك نافذة عريضة أمدتني بالضوء أخيرًا. نظرت إلى الخارج، فرأيت تحتي المروج العشبية الناعمة الممتدة حتى البحر، والبحر نفسه، أخضر زاهٍ بأمواج ذات قمم بيضاء، وقد ضربتها ريح غربية فاندفعت نحو الشاطئ.

كان أقرب مما ظننت، أقرب بكثير، ومن المؤكد أنه يجري تحت تلك المجموعة الصغيرة من الأشجار أسفل المروج، على بُعد خمس دقائق تقريبًا، وإذا أنصت الآن، وأذني إلى النافذة، فسيمكنني سماع تكسر الأمواج على شاطئ خليج صغير ما، لم أتمكن من رؤيته. أدركت حينها أنني أتممت دورة كاملة حول المنزل، وأني أقف في ممر الجناح الغربي. نعم، كانت السيدة دانفرز محقة، ويمكنك سماع صوت البحر من هنا. قد تتخيل في فصل الشتاء أنه سيتسلسل إلى تلك المروج الخضراء ويهدد المنزل نفسه، وحتى في هذه اللحظة، بسبب الريح العاتية، ظهر ضباب على زجاج النافذة كما لو أن شخصًا ما زفر فوقها: ضباب محمل بالملح، صاعد من البحر. أخفت سحابة سريعة الشمس للحظة وأنا أراقب المنظر، فتغير لون البحر على الفور وأصبح أسود، وصارت الأمواج ذات القمم البيضاء شديدة وقاسية فجأة، ولم يعد هو ذلك البحر المتلألئ المبهج الذي شاهدته في البداية.

بطريقة ما، سررت لأن غرفتي تقع في الجناح الشرقي، إذ إنني فضلت حديقة الورد في النهاية، عن صوت البحر. عدت إلى البسطة حينها، عند رأس الدرج، وبينما أستعد للنزول ويدي على الدرابزين، سمعت الباب خلفي يفتح، ووجدت السيدة دانفرز. حدثت إحدانا إلى الأخرى لحظة من دون أن نتحدث، ولم أستطع التأكد ما إذا كان ما قرأته في عينيها غضبًا أم فضولًا، إذ صار وجهها خاليًا من التعبير بمجرد أن رأته. وعلى الرغم من أنها لم تقل شيئًا، فإنني شعرت بالذنب

والخجل، كأني ضُبطت متلبسة بالتعدي على ممتلكات الغير، وأحسست بوجهي يتخضب ويشي بمشاعري.

قلت:

- لقد ضللت طريقي. كنت أحاول العثور على غرفتي.

قالت:

- لقد جئتِ إلى الجانب الآخر من المنزل. هذا هو الجناح الغربي.

قلت:

- نعم، أعرف.

سألتنِي:

- هل دخلت أي غرفة؟

قلت:

- لا، لقد فتحت بابًا فقط، ولم أدخل، إذ بدا كل شيء مظلمًا ومغطى بملاءات

للحماية من الغبار. معذرة، لم أقصد إفساد أي شيء. أعتقد أنك تريدان

إبقاء كل هذا مغلقًا.

قالت:

- إذا أردتِ فتح الغرف، فسوف أفعل، وما عليك إلا أن تخبريني. جميع

الغرف مؤثثة ويمكن استخدامها.

قلت:

- أوه، لا. لا، لم أقصد دفعك إلى التفكير في ذلك.

قالت:

- ربما تريدني أن أريك جميع أنحاء الجناح الغربي؟

هززت رأسي قائلة:

- لا، أفضل ألا أفعل. لا، عليّ النزول إلى الطابق السفلي.

بدأت أنزل الدرج، وأتت معي، بجانبني، كما لو أنها سجانة وأنا محتجزة.

أصرت بطريقة جعلتني أشعر بالانزعاج على نحو غامض، وقالت:

- في أي وقت، عندما لا يكون لديك ما تفعلينه، ما عليك إلا أن تسأليني، وسأريك الغرف في الجناح الغربي.

لم أدرِ لماذا، لكن إصرارها ضرب وترًا حساسًا في ذاكرتي، وذكّرني بزيارة منزل أحد الأصدقاء عندما كنت طفلة، عندما أمسكت ابنة الأسرة التي تفوقني سنًا ذراعي، وهمست في أذني:

- أعرف مكان كتاب، في خزانة مغلقة في غرفة نوم أمي. هل نذهب لنطالعه؟ تذكرت وجهها الشاحب الذي ارتسمت عليه الإثارة، وعينيها الصغيرتين المستديرتين اللامعتين، وكيف ظلت تضغط على ذراعي.

قالت السيدة دانفرز:

- سأطلب إزالة ملاءات الغبار، وبعدها يمكنك رؤية كيف كانت الغرف تبدو وهي مستخدمة. كنت سأريك إياها هذا الصباح، لكنني ظننت أنك تكتبين الرسائل في غرفة الجلوس الصباحية. ما عليك إلا الاتصال بغرفتي، كما تعلمين، حينما تريدينني. لن يستغرق الأمر إلا فترة قصيرة كي تصبح الغرف جاهزة.

نزلنا الدرج القصير، وفتحت بابًا آخر، ووقفت جانبًا كي أتمكن من المرور، وعيناها الداكنتان تفتشان وجهي.

قلت:

- هذا لطف بالغ منك يا سيدة دانفرز. سأخبرك وقتًا ما.

خرجنا معًا إلى البسطة الكائنة وراء الباب، ورأيت أننا صرنا على رأس الدرج الرئيسي الآن، خلف شرفة العازفين.

قالت:

- أتساءل كيف ضللت طريقك؟ إن الباب المؤدي إلى الجناح الغربي مختلف تمامًا عن هذا.

قلت:

- لم آتِ من هذا الطريق.

- لا بد أنك جئت من الطريق الخلفي إذن، عبر الممر الحجري؟
قلت من دون أن تلتقي عيناى بعينها:
- أجل، لقد جئت عبر ممر حجري.

واصلت النظر إليّ، كأنها تتوقع مني أن أخبرها لماذا غادرت غرفة الجلوس الصباحية في حالة من الذعر المفاجئ، ومررت عبر المناطق الخلفية من المنزل، وشعرت فجأة بأنها تعرف، ولا بد أنها راقبتني، وربما شاهدتني أتجول في ذلك الجناح الغربي منذ البداية، وقد ألصقت عينها بصدع الباب الموارب. قالت:

- السيدة لاسي والرائد لاسي هنا منذ فترة. سمعت سيارتهما تقترب بعد الثانية عشرة بقليل.

- أوه! لم أدرك ذلك.

- اصطحبهما فريث إلى غرفة الجلوس الصباحية، ولا بد أن الساعة تقترب من الثانية عشرة والنصف. لقد بت تعرفين طريقك الآن، أليس كذلك؟
- بلى يا سيدة دانفرز.

ونزلت الدرج الكبير إلى الردهة، وأنا أعرف أنها تقف هناك فوقى، وعيناها تراقبانى.

عرفت أن عليّ العودة إلى غرفة الجلوس الصباحية، لمقابلة شقيقة ماكسيم وزوجها، ولم يعد في وسعي الاختباء في غرفة نومي الآن. وعندما دخلت غرفة الاستقبال، ألقىت نظرة سريعة إلى الخلف، وراء كتفى، ورأيت السيدة دانفرز لا تزال تقف هناك على رأس الدرج، مثل حارس أسود.

وقفت لحظة خارج غرفة الجلوس الصباحية ويدي على الباب، أستمع إلى همهمة الأصوات. كان ماكسيم قد عاد حينها، وأنا بالطابق العلوي، وافترضت أنه جلب معه وكيله، إذ بدا لي أن الغرفة مليئة بالناس. انتابني الشعور نفسه بالتردد المرضي الذي كثيراً ما عانيت في أثناء طفولتي عند استدعائي لمصافحة الزوّار، وأدّرت مقبض الباب ودخلت متخبطة، فقابلني في الحال، على ما يبدو، بحر من الوجوه وصمت عام.

قال ماكسيم:

- ها هي ذي، أخيراً. أين اختفيت؟ كنا نفكر في إرسال فريق بحث. ها هي ذي بياتريس، وهذا جايلز، وهذا فرانك كرولي. انتبهي، كدت تطئين الكلب. كانت بياتريس طويلة القامة ولها كتفان عريضتان، وفائقة الملاحظة، بها شبه كبير من ماكسيم في العينين والفك، لكنها لم تكن متأنقة كما توقعت، بل بدت أبسط من ذلك بكثير، مثل ذلك النوع من الأشخاص الذين يمرضون الكلاب في أثناء إصابتها بمرض السل الفيروسي، ويفهمون في شؤون الخيل، ويجيدون الرماية. لم تقبلني، بل صافحت يدي بقوة بالغة وهي تنظر في عيني مباشرة، ثم التفتت إلى ماكسيم قائلة:

- إنها مختلفة تماماً عما توقعته، ولا تشبه وصفك على الإطلاق. ضحك الجميع، وشاركتهم الضحك، وأنا غير متأكدة تماماً ما إذا كان هذا الضحك عليّ أم لا، وتساءلت سرّاً عما كانت تتوقعه، وعن وصف ماكسيم. وكز ماكسيم ذراعي، قائلاً:

- وهذا جايلز.

فمد جايلز كفّاً ضخمة واعتصر كفي، وضغط أصابعي حتى ارتخت، بينما أطلت من عينيه الودودين ابتسامة من خلف نظارة ذات إطار من قرون حيوان. قال ماكسيم:

- فرانك كرولي.

فالتفت إلى الوكيل الذي بدا رجلاً شاحباً ونحيفاً نوعاً ما، ولديه تفاحة آدم بارزة. قرأت في عينيه شعوراً بالارتياح وهو يتأملني، وتساءلت عن السبب، لكن لم يسنح لي الوقت للتفكير في ذلك، لأن فريث دخل وقدم لي الشيري، وعادت بياتريس تتحدث إليّ مرة أخرى.

- أخبرني ماكسيم بأنكما عدتما في الليلة الماضية فحسب. لم أدرك ذلك، وإلا لم نكن لنفرض أنفسنا عليكما بهذه السرعة بالطبع. حسناً، ما رأيك في ماندريلي؟

أجبتها قائلة:

- لم أرَ شيئاً منه تقريباً بعد، لكنه جميل بالطبع.

تفحصتني من رأسي حتى أخمصي قدمي كما توقعت، لكن على نحو صريح ومباشر، وليس بخبث مثل السيدة دانفرز، وليس من دون ود. كان لديها الحق في الحكم عليّ، إذ إنها شقيقة ماكسيم، وأتى ماكسيم بنفسه إلى جانبي الآن، وعقد ذراعه بذراعي، مما منحني الشعور بالثقة.

أملت رأسها جانباً، وتأملت قائلة:

- تبدو أفضل أيها العجوز. لقد فقدت هيتك فائقة النحول تلك، حمداً للرب.

ثم أو مأت برأسها تجاهي وتابعت:

- أعتقد أن علينا التوجه إليك بالشكر لذلك؟

قال ماكسيم بخشونة:

- دائماً ما أتمتع باللياقة، ولم أعانِ شيئاً طوال حياتي. لكنك تتخيلين أن أي

شخص يعاني المرض، ما لم يبدُ سميناً مثل جايلز.

قالت بياتريس:

- هراء. أنت تعرف جيداً أنك كنت محطماً تماماً قبل ستة أشهر، وأصبتني

بالرعب الشديد عندما جئت لرؤيتك. ظننت أنك على مشارف الانهيار

العصبي. جايلز، فلتؤيدني في حديثي: ألم يبدُ ماكسيم مروعاً للغاية في

المرة الأخيرة التي جئنا فيها، وألم أقل إنه يشارف على الانهيار العصبي؟

قال جايلز:

- حسناً، عليّ أن أعترف أيها العجوز، أنك تبدو شخصاً مختلفاً. من الجيد

جداً أنك سافرت. ألا يبدو في حالة جيدة يا كرولي؟

عرفت من خلال تقلص عضلات ماكسيم تحت ذراعي أنه يحاول السيطرة

على أعصابه. لسبب ما، لم يرحب بهذا الحديث عن صحته، بل أغضبه ذلك،

وظننت أن بياتريس تفتقر إلى اللياقة لإصرارها عليه على هذا النحو، وتكبير

الموضوع إلى هذه الدرجة.

قلت بخجل:

- لقد احترق ماكسيم بشدة من أثر الشمس، وهذا يخفي الكثير من العيوب.
كان عليك رؤيته في البندقية وهو يتناول إفطاره على الشرفة، ويحاول أن
يسمر عن عمد، فهو يعتقد أن ذلك يجعله أكثر وسامة.

ضحك الجميع، وقال السيد كرولي:

- لا بد أن البندقية كانت رائعة في مثل هذا الوقت من العام يا سيدة دي وينتر.
فقلت:

- أجل، لقد نعمنا بجو رائع حقًا. لم يكن هناك سوى يوم واحد سيئ، أليس
كذلك يا ماكسيم؟

ابتعد الحديث بسلام عن صحته، واتجه نحو إيطاليا، أكثر الموضوعات
أمانًا، ونحو موضوع الطقس الجيد. بات الحديث سهلًا الآن، ولم يعد يمثل
جهدًا. انشغل ماكسيم وجايلز وبياتريس بمناقشة تشغيل سيارة ماكسيم، وسأل
السيد كرولي عما إذا كان صحيحًا أنه لم يعد هناك أي جنادل في القنوات الآن،
بل قوارب ذات محركات فحسب. لا أعتقد أنه كان سيهتم على الإطلاق لو أن
سفنًا بخارية رست في القناة الكبرى، بل قال ذلك لمساعدتي، وساهم بذلك في
الجهد البسيط لتوجيه مسار الحديث بعيدًا عن صحة ماكسيم، فصرت ممتنة له،
وشعرت بأنه حليف، على الرغم من شكله الممل.

دأبت بياتريس الكلب بقدمها، وقالت:

- جاسبر في حاجة إلى التمرين، فقد صار سمينًا جدًّا، مع أنه بالكاد يبلغ من
العمر عامين. ماذا تطعمه يا ماكسيم؟

قال ماكسيم:

- يا عزيزتي بياتريس، إنه يتبع النظام نفسه تمامًا مثل كلابك. لا تتباهي وتظهري
أنك تعرفين عن الحيوانات أكثر مما أعرفه.

- يا سيدي العزيز، كيف يمكنك التظاهر بأنك تعرف ما يأكله جاسبر، في حين
أنك سافرت لمدة شهرين؟ لا تقل لي إن فريث يمشي معه حتى بوابات

الكوخ مرتين يومياً، فهذا الكلب لم يجر منذ أسابيع، ويمكنني معرفة ذلك من حالة فرائه.

قال ماكسيم:

- أفضل أن يبدو ضخماً، عن أن يبدو كما لو أنه يكاد يتضور جوعاً، مثل كلبك الأبله ذاك.

قالت بياتريس:

- هذه ليست ملاحظة ذكية بدرجة كبيرة، خصوصاً أن لا يون فاز بالمركز الأول مرتين في مهرجان كرافتس للكلاب، في فبراير الماضي. صار الجو متوتراً إلى حدٍّ ما مرة أخرى، واستشففت ذلك من الخطوط الرفيعة التي ارتسمت حول فم ماكسيم، وتساءلت عما إذا كان الإخوة والأخوات يتشاجرون دائماً بهذه الطريقة، على نحو يجعل الوضع مزعجاً لمن يستمعون. تمنيت أن يأتي فريث ويعلن أن موعد الغداء حان. أم هل سنُستدعى بقرع جرس مدوّ؟ لم أكن أعرف كيف تسير الأمور في ماندرلي.

جلست بجانب بياتريس وسألتها:

- كم تبعدان عنا؟ هل اضطررتما إلى الخروج في وقت مبكر للغاية؟
- نسكن على بُعد خمسين ميلاً يا عزيزتي، في المقاطعة التالية، على الجانب الآخر من تروثيستر. الصيد لدينا أفضل كثيراً، يجب أن تأتي وتبقي معنا حين يستطيع ماكسيم الاستغناء عنك، وسيساعدك جايلز على ركوب الحصان.

اعترفت قائلة:

- أخشى أنني لا أصيد، فقد تعلمت ركوب الخيل وأنا طفلة، لكن بدرجة بسيطة للغاية، ولا أذكر الكثير عن الأمر.

قالت:

- يجب أن تعودى للركوب ثانية، فلا يمكنك العيش في الريف من دون ركوب الخيل. لن تعرفي كيف تمضين وقتك. ذكر ماكسيم أنك ترسمين،

وهذا جميل جدًا بالطبع، لكنه لا ينطوي على أي تمرين، أليس كذلك؟ إنه ملائم ليوم مطير فحسب، حينما لا يوجد شيء أفضل للقيام به.
قال ماكسيم:

- يا عزيزتي بياتريس، لسنا جميعًا من هواة الهواء الطلق مثلك.
- لم أكن أتحدث إليك أيها الفتى العجوز، فجميعنا نعلم أنك قانع تمامًا بالتجول في حدائق ماندري، من دون أن تسرع من خطوك أبدًا.
قلت بسرعة:

- أنا أيضًا أحب المشي جدًا، وأنا على ثقة بأنني لن أملّ أبدًا من التجوال في أنحاء ماندري، كما يمكنني السباحة أيضًا حينما يصير الجو أكثر دفئًا.
قالت بياتريس:

- يا عزيزتي، أنت متفائلة. بالكاد يمكنني تذكر السباحة هنا، فالمياه شديدة البرودة، والشاطئ صخري.
قلت:

- لا مانع لديّ في ذلك، فأنا أحب السباحة، ما دامت التيارات ليست قوية للغاية. هل السباحة آمنة في الخليج؟
لم يجبني أحد، وفجأة أدركت ما قلته، فخفق قلبي، وشعرت بأن وجنتي التهبّت بالحمرة. انحنيت لأداعب أذن جاسبر، وأنا أعاني الارتباك، فكسرت بياتريس الصمت قائلة:

- يمكن لجاسبر الاستفادة من السباحة، للتخلص من بعض تلك الدهون، لكنه سيجد الخليج شاقًا بالنسبة إليه بعض الشيء، أليس كذلك يا جاسبر؟
جاسبر الطيب، يا لك من كلب لطيف.
ربتنا على الكلب معًا، من دون أن نتبادل النظر.
قال ماكسيم:

- لقد جعت بشدة، ما الذي حدث للغداء، بحق السماء؟
قال السيد كرولي:

- إنها الواحدة فحسب الآن، وفقاً للساعة الموجودة على رف المدفأة.

قالت بياتريس:

- لطالما كانت تلك الساعة تقدم الوقت.

قال ماكسيم:

- لقد ظلت تعمل بشكل مثالي لعدة أشهر إلى الآن.

في تلك اللحظة، انفتح الباب وأعلن فريث تقديم الغداء.

نظر جايلز إلى يديه وقال:

- يا إلهي، يجب أن أغتسل.

نهضنا جميعاً وعبرنا غرفة الاستقبال متوجهين إلى الردهة بارتياح بالغ،

وتقدمت أنا وبياتريس الرجال بعض الشيء، وشبكت ذراعها بذراعي.

قالت:

- ذلك العجوز العزيز فريث، دائماً ما يبدو بالهيئة نفسها تماماً، ويجعلني

أشعر كأنني عدت فتاة مرة أخرى. أتدري، أتمنى ألا تمانعي قلبي هذا،

لكنك أصغر حتى مما كنت أتوقع. أخبرني ماكسيم كم تبلغين من العمر،

لكنك طفلة تماماً. أخبريني، هل أنت مغرمة به كثيراً؟

لم أكن مستعدة لهذا السؤال، ولا بد أنها رأت الدهشة على وجهي، لأنها

ضحكت بخفة، وضغطت على ذراعي.

قالت:

- لا تجيبي عن السؤال، فيمكنني رؤية مشاعرك. أنا متطفلة ومملة، أليس

كذلك؟ لا تهتمي بي. أنا أحب ماكسيم، كما تعلمين، على الرغم من

أننا نتشاجر دائماً مثل القط والكلب عندما نلتقي. أهنتك مرة أخرى على

مظهره، فقد شعرنا جميعاً بالقلق حياله العام الماضي، لكنك تعرفين القصة

برمتها بالطبع.

وصلنا إلى غرفة الطعام، ولم تقل شيئاً آخر، حيث كان الخدم هناك، وانضم

إلينا الآخرون. لكن بينما جلست وفتحت منديلي، تساءلت عما ستقوله بياتريس

إذا أدركت أنني لا أعرف شيئاً عن ذلك العام السابق، ولا أي تفاصيل عن المأساة التي حدثت هناك في الخليج، وأن ماكسيم احتفظ بهذه الأشياء لنفسه، ولم أستجوبه قَطُّ.

مرَّ الغداء على نحو أفضل مما جرؤت أن أتمنى، ولم يكن هناك سوى القليل من الجدل، أو ربما حرصت بياتريس على الالتزام بقواعد اللياقة أخيراً. على أي حال، تحدثت هي وماكسيم حول الأمور المتعلقة بماندرلي، وخيولها، والحديقة، والأصدقاء المشتركين، بينما ظل فرانك كرولي الجالس على يساري يثرثر معيثرثرة خفيفة، فشعرت بالامتنان لذلك لأنه لم يتطلب جهداً. أما جايلز، فبدأ مهتماً بالطعام أكثر من اهتمامه بالحديث، على الرغم من أنه كان يتذكر وجودي من حين إلى حين، ويوجه إليَّ ملاحظة عشوائية.

قال عندما قدم له روبرت السوفليه البارد للمرة الثانية:

- الطاهي نفسه على ما أعتقد يا ماكسيم؟ دائماً ما أقول لبي إن ماندرلي هو المكان الوحيد المتبقي في إنجلترا حيث يمكن للمرء الحصول على طعام لائق. أذكر هذا السوفليه منذ زمن.

قال ماكسيم:

- أعتقد أننا نغيّر الطهارة بشكل دوري، لكن مستوى الطهي يظل كما هو. فالسيدة دانفرز لديها جميع الصفات، وهي تخبرهم بما يجب عليهم فعله. التفت إليَّ جايلز قائلاً:

- إن السيدة دانفرز امرأة مذهلة، ألا تعتقدين ذلك؟ قلت:

- أوه، بلى، تبدو السيدة دانفرز شخصاً رائعاً. قال جايلز وهو يضحك بالضحك:

- لكنها على الرغم من هذا ليست فائقة الجمال، أليس كذلك؟ لم يقل فرانك كرولي شيئاً، ورفعت نظري فرأيت بياتريس تراقبني، ثم أشاحت عني مرة أخرى، وبدأت تتحدث إلى ماكسيم.

قال السيد كرولي:

- هل تلعبين الجولف يا سيدة دي ويتتر؟

أجبتة قائلة:

- لا، أخشى أنني لا أفعل.

وسعدت لأن موضوع الحديث تغير مرة أخرى، وأنهم نسوا أمر السيدة دانفرز. وعلى الرغم من أنني لم أكن لاعبة، ولا أعرف شيئاً عن اللعبة، فإنني كنت على استعداد للاستماع إليه بقدر ما يشاء، إذ كان هناك شيء مطمئن وآمن وممل في لعبة الجولف، ولا يمكن أن يتسبب لنا في أي صعوبات. تناولنا الجبن والقهوة، وتساءلت عما إذا كان من المفترض أن أتحرك. ظللت أنظر إلى ماكسيم، لكنه لم يعط أي إشارة، ثم شرع جايلز يحكي قصة تصعب متابعتها نوعاً ما، عن الحفر لاستخراج سيارة من الثلوج المتراكمة - لم أعرف ما الذي أدى إلى حبل الأفكار ذاك - واستمعت إليه بأدب، وأنا أومئ برأسي بين الحين والحين وأبتسم، وأدركت أن ماكسيم بدأ يتململ عند جانبه من المائدة. أخيراً، توقف جايلز عن الحديث، والتقت عينايا بعيني ماكسيم، فعبس قليلاً وأوماً برأسه نحو الباب.

نهضت في الحال، وتسببت في اهتزاز المائدة على نحو أخرق عندما حركت مقعدي، فسكبت كأس جايلز من نبيذ بورت. قلت:

- يا إلهي!

ترددت متسائلة عما يجب أن أفعله، ومددت يدي إلى منديلي بلا جدوى،

لكن ماكسيم قال:

- حسناً، سيتولى فريث الأمر، لا تريدي الموقف ارتباكاً. بياتريس، اصطحبها

إلى الحديقة، فهي لم تر المكان حتى الآن تقريباً.

بدا مرهقاً، وضجراً نوعاً ما، وبدأت أتمنى لو أنهم لم يحضروا، لكنهم أفسدوا يومنا على أي حال. تطلب الأمر جهداً كبيراً، وقد عدنا للتو. شعرت أنا أيضاً بالتعب: التعب والاكئاب. بدا ماكسيم عصيباً إلى حدٍّ ما عندما اقترح علينا الذهاب إلى الحديقة. كم كنت حمقاً، عندما سكبت كأس النبيذ تلك.

خرجنا إلى الشرفة، وسرنا إلى المروج الخضراء الناعمة.

قالت بياتريس:

- أعتقد أنه من المؤسف أنكما عدتما إلى ماندرلي بهذه السرعة. كان من الأفضل بكثير أن تتجولا في إيطاليا ثلاثة أو أربعة أشهر، ثم تعودا في منتصف الصيف. كان ذلك سيفيد ماكسيم بشدة أيضًا، إلى جانب كونه أسهل بالنسبة إليك. لا يسعني سوى الشعور بأن الأمر سيمثل ضغطاً نوعاً ما بالنسبة إليك في البداية هنا.

- أوه، لا أعتقد ذلك، أعرف أنني سأحب ماندرلي.

لم تُجب، ومشينا جيئةً وذهاباً عبر المروج.

قالت أخيراً:

- أخبريني قليلاً عن نفسك، ماذا كنت تفعلين في جنوب فرنسا؟ قال ماكسيم إنك كنت تقيمين مع امرأة أمريكية مروعة.

أوضحت لها الأمر بشأن السيدة فان هوبر، وما أدى إلى ذلك، فبدت متعاطفة لكن شاردة بعض الشيء، كأنها تفكر في شيء آخر. عندما توقفت عن الحديث، قالت:

- نعم، حدث كل هذا فجأة، كما تقولين. لكننا سعدنا جميعاً بالطبع يا عزيزتي، وآمل أن تكونا سعيدين.

- شكراً لك بياتريس، شكراً جزيلاً.

تساءلت عن السبب الذي دعاها إلى قول إنها تأمل أن نكون سعيدين، بدلاً من أن تقول إنها تعلم أننا سنكون سعيدين. كانت لطيفة وصادقة، وأحببتها كثيراً، لكن بدا شك بسيط في صوتها جعلني أشعر بالخوف. أمسكت ذراعي وواصلت الحديث:

- عندما كتب إليّ ماكسيم وأخبرني، وقال إنه قابلك في جنوب فرنسا، وإنك صغيرة جداً، وجميلة للغاية، يجب أن أعترف أن هذا سبب لي نوعاً من الصدمة. بالطبع توقعنا جميعاً فراشة اجتماعية، عصرية للغاية تغطي وجهها

مسا حيق التجميل، أي ذلك النوع من الفتيات اللاتي تتوقعين مقابلتهن في تلك الأماكن. وعندما دخلت غرفة الجلوس الصباحية قبل الغداء، كدت أقع من شدة المفاجأة.

ضحكت وضحكتُ معها، لكنها لم تقل ما إذا أصابها مظهري بخيبة الأمل أم أنها شعرت بالارتياح. قالت:

- مسكين ماكسيم، لقد مرّ بوقت مروع، فلنأمل أنك ساعدته على نسيانه. وهو يعشق ماندرلي بالطبع.

أراد جزء مني أن تواصل حبل أفكارها ذاك، وتخبرني بالمزيد عن الماضي، بسهولة وبشكل طبيعي هكذا، لكن كان هناك شيء آخر منزويًا داخل ذهني لا يريد أن يعرف، ولا يريد أن يسمع. قالت:

- نحن لسنا متشابهين على الإطلاق، كما تعلمين، وشخصيتانا مختلفتان تمام الاختلاف. كل شيء يظهر على وجهي: ما إذا كنت أحب الناس أم لا، وما إذا كنت غاضبة أم مسرورة، ولا أتصف بالتحفظ على الإطلاق. أما ماكسيم، فهو مختلف تمامًا: إنه هادئ للغاية، ومتحفظ جدًّا، ولا يمكنك أبدًا معرفة ما يدور في عقله الغريب ذاك. أفقد أعصابي عند أدنى استفزاز، وأثور، ثم ينتهي كل شيء. أما ماكسيم، فيفقد أعصابه مرة أو مرتين في السنة، وعندما يفعل - يا إلهي - فإنه يفقدها تمامًا. لكن لا أظن أنه سيفقدها معك، حيث أعتقد أنك مخلوق صغير مسالم.

ابتسمت وضغطت ذراعي، وفكرتُ في كون المرء مسالمًا، وكم يبدو ذلك هادئًا ومريحًا، مثل امرأة تجلس وعلى حجرها شيء تغزله بالصوف، وملاحها هادئة غير مضطربة. امرأة لا يساورها القلق أبدًا، ولا تعذبها مشاعر الشك والتردد، امرأة لا تقف أبدًا مثلما هي حالي أنا، يملأها الأمل واللهفة والخوف وهي تشد أظفارها المقضومة، غير متأكدة أي طريق تسلكه، وأي نجم تتبعه.

تابعت قائلة:

- لن تمانعي قولي هذا، أليس كذلك؟ لكنني أعتقد أن عليك أن تفعلي شيئاً ما بشعرك. لماذا لا تموجينه؟ فهو خفيف جداً هكذا، أليس كذلك؟ لا بد أنه يبدو فظيلاً تحت القبعة. لماذا لا تجمعينه وراء أذنيك؟ أظعتها وفعلت ذلك، وانتظرت أن أحظى بقبولها. تأملتني بعين نافذة، وقد أمالت رأسها جانباً، ثم قالت:

- لا، لا، أعتقد أن هذا أسوأ. يبدو صارماً جداً، ولا يناسبك. كل ما تحتاجين إليه هو تمويجه، لمنحه بعض الكثافة. لم تعجبني قَطُّ تسريحة الشعر تلك الشبيهة بجان دارك، أيّاً كان ما يُسمونها. ما رأي ماكسيم؟ هل يعتقد أنه يناسبك؟

- لا أعرف، لم يذكر ذلك قَطُّ.

- أوه، حسنًا، ربما يعجبه، لا تأخذي برأيي. أخبريني، هل اشتريت أي ملابس في لندن أو باريس؟

- لا، لم يكن لدينا وقت، كان ماكسيم حريضاً على العودة إلى المنزل. ويمكنني دائماً أن أرسل في طلب دليل للمشتريات.

- يمكنني أن أميز من خلال طريقة لباسك أنك لا تهتمين على الإطلاق بما ترتدينه.

بشيء من الاعتذار، ألقى نظرة خاطفة على تنورتي المصنوعة من قماش الفلانيل. قلت:

- بل أهتم بالفعل. أنا أحب الأشياء الجميلة، لكنني لم أمتلك ما يكفي من المال لإنفاقه على الملابس حتى الآن.

قالت:

- أتعجب من أن ماكسيم لم يمكث أسبوعاً أو نحو ذلك في لندن كي يشتري لك شيئاً لائقاً لترتيديه. عليّ القول إنني أعتقد أن هذه أنانية منه، كما أن هذا يخالف طباعه أيضاً، فهو عادة ما يهتم بالتفاصيل بدرجة كبيرة.

- هل هو كذلك بالفعل؟ لم يبدو لي أنه يدقق في التفاصيل قَطُّ، ولا أعتقد أنه يلاحظ ما أرنديه على الإطلاق. لا أظن أنه يمانع ما أرنديه.
- أوه. أوه، حسنًا، لا بد أنه تغير إذن.

أشاحت عني وصفرت لجاسبر ويدها في جيبيها، ثم حدقت إلى المنزل فوقنا، وقالت:

- أنتما لا تستخدمان الجناح الغربي إذن.
- لا، غرفنا في الجناح الشرقي، وقد أُعيد تصميمه كله.
- حقًا؟ لم أكن أعرف ذلك. أتساءل عن السبب في هذا.
- كانت فكرة ماكسيم، ويبدو أنه يفضّله.
لم تقل شيئًا، وظلت تنظر إلى النوافذ وتصفر، ثم قالت فجأة:
- كيف تتعاملين مع السيدة دانفرز؟
انحنيت وبدأت أربت على رأس جاسبر، وأداعب أذنيه، وقلت:
- لم أرها كثيرًا، وهي تخيفني نوعًا ما. لم أرَ أحدًا مثلها من قبل.
قالت بياتريس:

- لا أعتقد أنك فعلت.

نظر إليَّ جاسبر بعينين واسعتين ذليلتين خجولين نوعًا ما، فقبّلت قمة رأسه الناعم، ووضعت يدي على أنفه الأسود.

قالت بياتريس:

- لا داعي إلى الخوف منها، ولا تدعيها ترّ ذلك، مهما فعلت. بالطبع لم تكن لديَّ أي علاقة بها، ولا أعتقد أنني أريد ذلك أبدًا، ومع ذلك، لطالما عاملتني باحترام بالغ.

واصلت الترييت على رأس جاسبر.

قالت بياتريس:

- هل بدت ودودًا؟

قلت:

- لا. لا، ليس بدرجة كبيرة.

بدأت بياتريس تصفر مرة أخرى، وداعبت رأس جاسبر بقدمها وهي تقول:
- لا تتعاملني معها أكثر مما تضطرك الحاجة.

قلت:

- لا، إنها تدير المنزل بكفاءة عالية، ولا حاجة لي إلى التدخل.
قالت بياتريس:

- أوه، لا أعتقد أنها ستمانع في ذلك.

كان هذا ما قاله ماكسيم في الليلة السابقة، واعتقدت أنه من الغريب أن يكون
لهما الرأي نفسه. تخيلت أن التدخل هو الشيء الوحيد الذي لا تريده السيدة
دانفرز.

قالت بياتريس:

- أعتقد أنها ستتجاوز الأمر بمرور الوقت، لكن قد يجعل هذا الوضع مزعجًا
بالنسبة إليك في البداية. وهي تشعر بالغيرة حد الجنون بالطبع، كما خشيت
أن تكون.

رفعت إليها عيني وسألتها:

- لماذا؟ لماذا تغار؟ لا يبدو أن ماكسيم يميل إليها على وجه الخصوص.
قالت بياتريس:

- يا طفلي العزيزة، ليس ماكسيم هو من يشغل تفكيرها. أعتقد أنها تحترمه
وما إلى ذلك، لكن لا شيء أكثر من هذا بكثير.
لا، كما ترين...

توقفت عن الحديث وعبست بعض الشيء وهي تنظر إليّ بتردد، ثم تابعت:
- إنها مستاءة من وجودك هنا من الأساس، هذه هي المشكلة.

- لماذا؟ لماذا تستاء مني؟

- ظننت أنك تعرفين. اعتقدت أن ماكسيم أخبرك. ببساطة، كانت تعشق ربيكا.
- أوه. أوه، فهمت.

واصلنا الترييت على جاسبر ومداعبته، ولم يعتد مثل ذلك الاهتمام، فانقلب على ظهره في نشوة.

قالت بياتريس:

- ها هم أولاء الرجال. لُنْخِرج بعض الكراسي ونجلس تحت شجرة الكستناء. كم ازداد جايلز سمنة، إنه يبدو منفراً للغاية بجانب ماكسيم. أعتقد أن فرانك سيعود إلى المكتب. يا له من مخلوق ممل، ليس لديه أي شيء مثير للاهتمام ليقوله أبداً. حسناً، ماذا كنتم تناقشون جميعاً؟ تنتقدون كل شيء بشدة، على ما أعتقد.

ضحكت، وتقدم الآخرون منا ونحن واقفتان، وألقى جايلز غصناً لجاسبر لاستعادته. نظرنا جميعاً إلى جاسبر، ونظر السيد كرولي إلى ساعته، وقال: - لا بد أن أرحل. شكراً جزيلاً على الغداء يا سيدة دي وينتر. صافحت يده قائلة:

- لا بد أن تأتي كثيراً.

وتساءلت عما إذا كان الآخرون سيرحلان أيضاً. لم أكن متأكدة ما إذا كانا قد حضرنا تناول الغداء فحسب، أم لقضاء اليوم. تمنيت أن يرحلا، وأردت أن أكون وحدي مع ماكسيم مرة أخرى، وأن يصبح الأمر كما لو كنا في إيطاليا. ذهبنا جميعاً وجلسنا تحت شجرة الكستناء، وأحضر روبرت الكراسي والأغطية. استلقى جايلز على ظهره ووضع قبعته على عينيه، وبعد فترة بدأ يشخر وفمه مفتوح.

قالت بياتريس:

- اخرس يا جايلز.

فتح عينيه وتمتم قائلاً:

- أنا لست نائماً.

ثم أغلق عينيه مرة أخرى. ظننت أنه غير جذاب، وتساءلت لماذا تزوجته بياتريس، إذ لا يمكن أن تكون واقعة في حبه. وربما كان هذا ما تفكر فيه عني، فقد لمحتها تأملني من حين إلى حين، وهي حائرة ومستغرقة في التفكير، كما لو

أنها تقول لنفسها: «ما الذي يراه ماكسيم فيها، بحق السماء؟»، لكنها كانت لطيفة في الوقت نفسه، ولم تكن غير ودود. انشغلا بالحديث عن جدتهما.

قال ماكسيم:

- يجب أن نذهب لزيارة المرأة العجوز.

فقالت بياتريس:

- لقد أصابها الخرف، ويسقط الطعام على ذقنها، العزيزة المسكينة.

استمعت إليهما وأنا متكئة على ذراع ماكسيم، أفرك ذقني على كمي، فداعب يدي بشروء، من دون تفكير، وهو يتحدث إلى بياتريس.

فكرت: «هذا نفس ما أفعله مع جاسبر. لقد صرت مثل جاسبر الآن، وأنا متكئة عليه، وهو يربت عليّ من حين إلى حين عندما يتذكر، فأشعر بالسرور، وأزداد قرباً منه للحظة. إنه يحبني بالطريقة التي أحب بها جاسبر».

خفّت الريح، وبدأ عصر اليوم خاملاً وهادئاً. كان العشب قد جُزَّ حديثاً، وبدت رائحته عذبة وغنية، مثل الصيف. طنت نحلة فوق رأس جايلز، فنفضها بقبعته، ونزل جاسبر لينضم إلينا وقد أحس بالحرارة تحت الشمس، ولسانه يتدلى من فمه. ارتمى بجانبي، وبدأ يلحق جنبه، وقد بدا الاعتذار في عينيه الكبيرتين. التمعت الشمس على نوافذ المنزل المقسمة، وكانت في إمكاني رؤية المروج الخضراء والشرفة منعكسة عليها. تلوى دخان خفيف من إحدى المداخل القريبة، وتساءلت عما إذا كانت النار أشعلت في المكتبة وفقاً للنظام المتبع.

حلّق طائر سمينة عبر المرج، إلى شجرة ماجنوليا خارج نافذة غرفة الطعام، وكان في وسعي أن أشم رائحة الماجنوليا الناعمة الخافتة بينما أنا جالسة على العشب. بدا كل شيء هادئاً وساكناً، ومن على مبعدة كبيرة، أتى صوت البحر من الخليج بالأسفل. لا بد أن المد قد انحسر. طنت النحلة فوقنا مرة أخرى، وتوقفت لتتذوق زهور الكستناء فوق رؤوسنا. فكرت: «هذا هو ما تخيلته دائماً، وهكذا تمنيت أن تكون الحياة في ماندري».

أردت أن أظل جالسة هناك، لا أتحدث، ولا أستمع إلى الآخرين، وأن

أحافظ على تلك اللحظة الثمينة إلى الأبد، لأننا كنا مطمئنين جميعاً، ومرتاحي البال وناعسين، حتى مع طنين النحلة فوق رؤوسنا. بعد قليل، سيختلف الأمر، وسيأتي الغد، واليوم الذي يليه، وعام آخر، وربما نتغير، ولن نجلس هكذا مرة أخرى. سيرحل بعضنا، أو يعاني، أو يموت، وامتد المستقبل أمامنا، مجهولاً وغير مرئي، وربما ليس كما أردناه، وليس كما خططنا له. لكن هذه اللحظة كانت آمنة، ولا يمكن المساس بها. جلسنا هنا معاً، ماكسيم وأنا، يدًا بيد، ولم يكن للماضي والمستقبل أي أهمية على الإطلاق. كانت هذه اللحظة الغريبة من الوقت آمنة، ولن يتذكرها أبداً، ولن يفكر فيها مرة أخرى، ولن يعتبرها مقدسة. كان يتحدث عن قطع بعض الشجيرات في الممر، ووافقته بياتريس، وقاطعت حديثه باقتراح من جانبها، وهي تلقي كتلة من العشب على جايلز في الوقت نفسه. بالنسبة إليهم، كان الوقت بعد الغداء مباشرة، في الساعة الثالثة والرابع عصر يوم عشوائي، مثل أي ساعة، ومثل أي يوم. لم يشعروا بالرغبة في احتضان اللحظة، وحبسها في أمان، كما شعرت أنا، ولم يشعروا بالخوف.

قالت بياتريس وهي تنفض العشب عن تنورتها:

- حسناً، أعتقد أن علينا الرحيل. لا أريد أن نتأخر، إذ إن الزوجين كارتر ايت سينضممان إلينا لتناول العشاء.

قال ماكسيم:

- كيف حال فيرا العجوز؟

- أوه، كما هي الحال دائماً. دوماً ما تتحدث عن صحتها، كما تقدم زوجها في العمر بشدة. من المؤكد أنهما سيسألان عن كل شيء عنكما.

قال ماكسيم:

- بلغيهما مني السلام.

نهضنا، ونفض جايلز الغبار عن قبعته، وتساءب ماكسيم وتمطى. غابت الشمس، ورفعت رأسي إلى السماء التي تغيرت بالفعل وصارت مرقطة مثل سمك الماكريل، والسحب الصغيرة تنطلق في تشكيلات مؤلفة من سطر تلو سطر.

قال ماكسيم:

- غيرت الريح اتجاهها.

قال جايلز:

- أتمنى ألا تهطل علينا الأمطار.

قالت بياتريس:

- أخشى أننا تمتعنا بأفضل جزء من اليوم.

سرنا ببطء نحو الممر، والسيارة الواقفة في الانتظار.

قال ماكسيم:

- لم تشاهدا ما تم في الجناح الشرقي.

اقترحتُ قائلة:

- فلتصعدا إلى الطابق العلوي، لن يستغرق الأمر دقيقة.

ولجت أنا وبياتريس الردهة، وصعدنا الدرج الكبير، وتبعنا الرجلان.

بدا من الغريب أن بياتريس عاشت هنا سنوات عديدة. ركضت على هذا الدرج نفسه وهي فتاة صغيرة مع مربيتها، وولدت هنا ونشأت هنا، وكانت تعرف كل شيء، وتنتمي إلى هنا أكثر مما سأنتمي أنا على الإطلاق. لا بد أن لديها ذكريات كثيرة حبيسة في قلبها. تساءلت عما إذا كانت تفكر في الأيام الخوالي، وتذكر الطفلة النحيلة ذات الجداول التي كانت ذات يوم، التي تختلف تمامًا عن المرأة التي صارتها، في الخامسة والأربعين من عمرها الآن، قوية ولها عادات ثابتة. شخص مختلف...

وصلنا إلى الغرف، فانحنى جايلز وهو يجتاز مدخل الباب المنخفض، وقال:

- يا له من أمر مبهج. هذا تحسن كبير، أليس كذلك يا بي؟

قالت بياتريس:

- عليّ القول أيها العجوز، إنك أنفقت الكثير: ستائر جديدة، وأسرة جديدة،

وكل شيء جديد. هل تذكر يا جايلز، أننا شغلنا هذه الغرفة حينما اضطرت

إلى ملازمة الفراش بسبب ساقك؟ كانت حقيرة جدًا حينها، وبالطبع لم

مكتبة

t.me/soramnqraa

تعرف والدتي قَطُّ الكثير عن مفهوم الراحة. وبعد ذلك، لم تُسكن أنت أحدًا هنا على الإطلاق، أليس كذلك يا ماكسيم؟ إلا في حالة وجود عدد زائد من الناس، دومًا ما كان يُلقى بالعزّاب هنا. حسنًا، عليّ الاعتراف بأنها فاتنة، وتظل على حديقة الورد أيضًا، وهو ما كان يمثل ميزة دائمًا. هل يمكنني إصلاح زينتني؟

نزل الرجلان إلى الطابق السفلي، ونظرت بياتريس في المرأة. قالت:

- هل فعلت دانفرز العجوز كل هذا من أجلك؟ قلت:

- أجل، أعتقد أنها فعلت ذلك على نحو جيد جدًا. قالت بياتريس:

- يجب أن تفعل، بكل ما تتمتع به من خبرة. أتساءل كم تكلف الأمر، بحق السماء. أراهن أنه مبلغ باهظ. هل سألت؟ قلت:

- لا، أخشى أنني لم أفعل. قالت بياتريس:

- لا أظن أن ذلك أزعج السيدة دانفرز. هل لديك مانع أن أستخدم مشطك؟ هذه فرش جميلة. هل كانت هدية زفاف؟ - لقد أعطاها لي ماكسيم.

- هممم، إنها تعجبني. يجب أن نقدم لك شيئًا، بالطبع. ماذا تريدان؟ قلت:

- أوه، لا أعرف حقًا. يجب ألا ترعجي نفسك. - لا تكوني سخيفة يا عزيزتي. لن أضن عليك بهدية، على الرغم من أننا لم نُدعَ إلى حضور زفافك! - أتمنى أن الأمر لم يزعجك. أراد ماكسيم أن يكون في الخارج.

- بالطبع لا، هذا تعقل بالغ منكما. ففي النهاية، ليس الأمر كما لو أن...
توقفت في منتصف جملتها، وأسقطت حقيبتها.
- اللعنة، هل كسرت القفل؟ لا، كل شيء على ما يرام. ماذا كنت أقول؟ لا
أستطيع التذكر. أوه، نعم، هدايا الزفاف. يجب أن نفكر في شيء. أنت لا
تهتمين بالجواهر، على الأرجح.
- لم أجب، فقالت:
- الأمر مختلف تمامًا عن أي زوجين شابين عاديين. تزوجت ابنة صديقة
لي منذ بضعة أيام، وبالطبع تلقوا الهدايا المعتادة من المفروشات، وأطقم
القهوة، وكراسي غرفة الطعام، وما إلى ذلك. قدمت مصباحًا تقليديًا لطيفًا،
كلفني خمسة جنيهات في متجر «هارودز». إذا ذهبت إلى لندن لشراء
الملابس، فاحرصي على الذهاب إلى خياطتي، السيدة كارو، فهي تتمتع
بذوق جيد للغاية، ولن تخدعك.
- قامت من على منضدة الزينة وشدت تنورتها.
- قالت:
- هل تعتقدين أن كثيرًا من الناس سيأتون لزيارتكما؟
- لا أعرف. لم يقل ماكسيم.
- يا له من عجوز غريب، ولا يكاد المرء يعرف ما ينويه أبدًا. في وقت من
الأوقات، كان من الصعب الحصول على فراش في هذا المنزل، نظرًا إلى
كونه مزدحمًا تمامًا. بطريقة ما، لا يمكنني تخيلك...
- توقفت عن الحديث فجأة، وربتت على ذراعي، ثم تابعت:
- أوه، حسنًا، سنرى. من المؤسف أنك لا تركبين الخيل أو تجيدين الصيد،
إذ يفوتك الكثير. أنت لا تحبين الإبحار بالقوارب، أليس كذلك؟
- نعم.
- حمدًا للرب على ذلك.
- توجهت إلى الباب، وتبعها عبر الممر.

قالت:

- تعالي لزيارتنا إذا رغبت في ذلك. دائماً ما أتوقع أن يتولى الناس دعوة أنفسهم إلى الزيارة، فالحياة أقصر بكثير من أن نضيعها في إرسال الدعوات.
- شكراً جزيلاً لك.

وصلنا إلى رأس الدرج المطل على الردهة. وقف الرجلان على الدرج بالخارج، وصاح جايلز:

- هيا يا بي. لقد شعرت بقطرة مطر، لذا رفعنا سقف السيارة، ويقول ماكسيم إن مؤشر الباروميتر أخذ في الانخفاض.

أخذت بياتريس يدي، وانحنت ومنحتني قُبلة عاجلة على وجنتي، وقالت:
- إلى اللقاء. سامحيني إذا وجهت إليك كثيراً من الأسئلة الوقحة يا عزيزتي، وقلت كثيراً من الأشياء التي لم يكن من المفترض التفوه بها. لم تكن اللباقة من أقوى خصالي قَطُّ، كما سيخبرك ماكسيم. وكما أخبرتك من قبل، فأنت لست كما توقعت على الإطلاق.

وجهت إليّ نظرة مباشرة، وقد زمّت شفيتها كأنها ستصفر، ثم تناولت سيجارة من حقيبتها وأشعلت قداحتها.

أطفأت القداحة، ثم قالت وهي تنزل الدرج:

- كما ترين، فأنت مختلفة تماماً عن ربيكا.

ثم خرجنا إلى الدرج، ووجدنا أن الشمس قد غابت خلف ركام من الغيوم، وبدأ رذاذ خفيف من المطر يتساقط، وأسرع روبرت عبر العشب ليدخل الكراسي.

راقبنا السيارة وهي تختفي عبر امتداد الممر، ثم أخذ ماكسيم ذراعي وقال:
 - حمدًا للرب أننا انتهينا من ذلك، أحضري معطفك بسرعة، وتعالى. اللعنة
 على المطر، أريد الذهاب للتمشية، فلا أطيع الجلوس على هذا النحو.
 بدا شاحبًا ومجهّدًا، وتساءلت لماذا تسببت استضافة بياتريس وجايلز، شقيقته
 وصهره، في إرهاقه إلى هذا الحد.

قلت:

- انتظر حتى أهرع إلى الطابق العلوي لأجلب معطفي.

قال بنفاد صبر:

- هناك كومة من المعاطف الواقية من المطر في غرفة الزهور، اجلبي
 واحدًا منها. دائمًا ما تغيب النساء نصف ساعة عندما يذهبن إلى غرف
 نومهن. روبرت، هلاًّ جلبت معطفًا من غرفة الزهور للسيدة دي وينتر؟
 لا بد أن هناك ستة معاطف واقية من المطر معلّقة هناك، تركها الناس في
 وقت أو آخر.

وقف في الممر بالفعل، وهو ينادي جاسبر:

- تعالَ أيها المتسول الصغير الكسول، وتخلص من بعض تلك الدهون.

ركض جاسبر في دوائر، وهو ينبج بشكل هستيري، فرحًا بالذهاب للتمشية.

قال ماكسيم:

- اخرس أيها الأحمق. ما الذي يفعله روبرت، بحق السماء؟

هرع روبرت خارجًا من الردهة وهو يحمل معطفًا واقيًا من المطر، وجاهدت لارتدائه على عجل، فتخبطت في التعامل مع الياقة. كان كبيرًا جدًا بالطبع، وأطول مما يجب، لكن لم يكن هناك وقت لتغييره، وانطلقنا معًا عبر الممرج إلى الغابة، وركض جاسبر أمامنا.

قال ماكسيم:

- تكفيني رؤية أسرتي فترة قصيرة من حين إلى حين. بياتريس واحدة من أفضل الناس في العالم، لكنها دائمًا ما تفتقر إلى اللياقة. لم أكن متأكدة فيما أخطأت بياتريس، وظننت أن من الأفضل ألا أسأل. ربما ما زال مستاءً من الحديث حول صحته قبل الغداء.

واصل قائلاً:

- ما رأيك فيها؟

قلت:

- لقد أحببتها كثيرًا، وكانت لطيفة جدًا معي.
- عمّ تحدثت إليك هنا بالخارج، بعد الغداء؟
- أوه، لا أدري، أعتقد أنني استحوذت على معظم الحديث. أخبرتها عن السيدة فان هوبر، وكيف التقيت أنا وأنت، وما إلى ذلك. قالت إنني مختلفة تمامًا عما توقعته.

- وما الذي توقعته، بحق الجحيم؟
- شخص أذكى بكثير، وأرقى على ما أتخيل. قالت إنها توقعت فراشة اجتماعية.

لم يرد ماكسيم للحظة، ثم انحنى وألقى عصا إلى جاسبر، وقال:
- أحيانًا تتسم بياتريس بالغباء الشديد.

صعدنا إلى الضفة العشبية فوق المروج، واخترقنا الغابة، حيث نمت الأشجار متقاربة جدًا من بعضها، وساد الظلام. وطئنا الأغصان المكسورة وأوراق الأشجار المتساقطة منذ العام الماضي، وظهرت هنا وهناك بقع خضراء غضة من السرخس

الصغير، وبراعم زهور عشبة الجريس، التي ستينع قريبًا. صمت جاسبر الآن، وألصق أنفه بالأرض، وأمسكتُ بذراع ماكسيم.

قلت:

- هل يعجبك شعري؟

حدق إليَّ بدهشة، وقال:

- شعرك؟ لماذا تسألين، بحق السماء؟ بالطبع يعجبني. ما خطبه؟

- أوه، لا شيء. كنت أتساءل فحسب.

- كم أنت غريبة!

وصلنا إلى فسحة في الغابة، وكان هناك طريقان يسيران في اتجاهين متعاكسين، فسلك جاسبر الطريق الأيمن من دون تردد.

ناداه ماكسيم قائلاً:

- ليس من ذلك الاتجاه، تعالَ أيها الفتى العجوز.

نظر إلينا الكلب ووقف يهز ذيله، لكنه لم يعد. سألت:

- لماذا يريد أن يسلك ذلك الاتجاه؟

قال ماكسيم باقتضاب:

- أعتقد أنه اعتاد ذلك. يؤدي هذا الطريق إلى خليج صغير، حيث كنا نحتفظ

بقارب. تعالَ يا جاسبر، أيها العجوز.

انعطفنا في الطريق الأيسر من دون أن نقول شيئًا، وألقيت نظرة ورائي بعد فترة قصيرة، فرأيت أن جاسبر يتبعنا.

قال ماكسيم:

- يقودنا هذا الطريق إلى الوادي الذي أخبرتك عنه، وستشمين رائحة الأزاليا.

لا تهتمي بالمطر، سوف يبرز الرائحة.

بدا على ما يرام مرة أخرى الآن، سعيدًا ومبتهجًا، ماكسيم الذي عرفته وأحببته، وبدأ يتحدث عن فرانك كرولي وكم هو رجل طيب ودقيق وأهل للثقة، ومخلص لمأندرلي.

فكرت: «هذا أفضل، كما كانت الحال في إيطاليا»، وابتسمت له وأنا أضغط ذراعه، وشعرتُ بالارتياح لأن النظرة الغريبة المتوترة المرتسمة على وجهه قد زالت، وبينما قلت «نعم»، و«حقًا؟»، و«رائع يا حبيبي»، عادت أفكارى إلى بياتريس، وتساءلت لماذا أزعجه وجودها، وماذا فعلت، كما فكرت أيضًا في كل ما قالته عن عصبيته، وكيف أنه يفقد أعصابه، كما أخبرتني، مرة أو مرتين في العام. لا بد أنها تعرفه بالطبع، حيث إنها شقيقته، لكن لم يكن هذا هو ما اعتقدته. لم تكن تلك هي فكرتي عن ماكسيم. كان في إمكاني تخيُّله متقلب المزاج، صعب المراس، وربما حاد الطباع، لكن ليس غاضبًا كما افترضت هي، ولا شديد الانفعال. ربما كانت تبالغ، وكثيرًا ما يخطئ الناس بشأن أقاربهم. قال ماكسيم فجأة:

- هناك، فلتلقي نظرة على ذلك.

وقفنا على منحدر تل مغطى بالأشجار، وتلوَّى الطريق أمامنا مؤدبًا إلى وادٍ، بجانبه جدول ماء جارٍ.

لم تكن هناك أشجار مظلمة، ولا شجيرات متشابكة، لكن على جانبي الطريق الضيق انتصبت شجيرات الأزاليا والروودندرون، ليست بلون الدم مثل تلك العملاقة الكائنة عند الممر، لكن بألوان السلمون والأبيض والذهبي، وبدت فائقة الجمال والرقّة، وقد تدلت رؤوسها الجميلة الناعمة تحت مطر الصيف الخفيف. عبق الجو برائححتها العذبة القوية، وبدالي كما لو أن جوهرها نفسه قد اختلط بالمياه الجارية للجدول، وتوحد مع الأمطار التي تهطل، والطحالب الغنية الرطبة تحت أقدامنا. لم يكن ثمة صوت هنا سوى خرير الجدول الصغير، والمطر الهادئ. وعندما تحدث ماكسيم، كان صوته خافتًا أيضًا، رقيقًا ومنخفضًا، كأنه لا يرغب في كسر الصمت.

قال:

- نطلق عليه الوادي السعيد.

وقفنا ساكنين تمامًا، من دون أن نتحدث، ننظر إلى الوجوه البيضاء الصافية

للزهور الأقرب إلينا، وانحنى ماكسيم والتقط بتلة ساقطة وأعطاهها لي. كانت مسحوفة ومبقعة، وتحولت أطرافها الملتفة إلى اللون البني، لكن عندما فركتها في يدي تصاعدت الرائحة إلى أنفي، عذبة وقوية، وملئية بالحيوية مثل الشجرة الحية التي أتت منها.

ثم بدأت الطيور: في البداية، طائر شحور، نغماته واضحة وهادئة فوق الجدول الجاري، وبعد لحظة جاوبه زميله المختبئ في الغابة خلفنا، وسرعان ما صار الهواء الساكن من حولنا مضطرباً بالأغنيات التي لاحقتنا ونحن نتجول في الوادي، كما تبعنا أريج البتلات البيضاء أيضاً. بدا مربكاً، كمكان مسحور، ولم أعتقد أنه يمكن أن يكون جميلاً هكذا.

لم تستطع السماء التي صارت ملبدة بالغيوم الآن ومتجهمة، وقد تغيرت تماماً عن فترة الظهيرة المبكرة، والمطر الهادئ المستمر، أن يعكرا الهدوء الناعم الذي ينعم به الوادي. امتزج الجدول والمطر بعضهما مع بعض، وسقطت نغمات الشحور الرخيمة على الهواء الرطب في تناغم مع كليهما. احتكت برؤوس الأزاليا المتدلية في أثناء مروري، إذ كانت تنمو متقاربة من بعضها بشدة، على جانبي الطريق، وسقطت قطرات صغيرة على يدي من البتلات الغارقة بالماء. كما كانت هناك بتلات عند قدمي أيضاً، بنية ومبللة، لا تزال تحمل رائحتها، إلى جانب رائحة أغني وأقدم أيضاً، ورائحة الطحالب العميقة والأرض اللاذعة، وسيقان السرخس، وجذور الأشجار الدفينة الملتوية. أمسكت بيد ماكسيم من دون أن أتحدث، وحل عليّ سحر الوادي السعيد. ها هو ذا أخيراً جوهر ماندري، ماندري الذي سأعرفه وأتعلم أن أحبه. نسيت الممر الأول، بغاباته المظلمة المتشابكة، وشجيرات الرودودندرون الفاقعة، والفاتنة، والمتغطرة. كما نسيت أيضاً البيت الواسع، وصمت تلك الردهة التي يتردد الصدى في جنباتها، والسكون المربك للجناح الغربي الملتف بالملاءات للوقاية من الغبار. كنت دخيلة هناك، أتجول في غرفٍ لا تعرفني، وأجلس إلى مكتب وكرسي ليسا ملكاً لي. لكن الوضع كان مختلفاً هنا، إذ إن الوادي السعيد لا يعرف الدخلاء. وصلنا إلى نهاية الطريق،

وشكّلت الزهور ممراً مقنطراً فوق رأسينا. انحنينا ومررنا أسفله، وعندما وقفت وفردت قامتي مرة أخرى، ونفضت قطرات المطر من شعري، رأيت الوادي خلفنا، والأزاليا، والأشجار، كما وصفها لي ماكسيم عصر ذلك اليوم قبل عدة أسابيع في مونت كارلو. وقفنا في خليج صغير ضيق، والحصى الأبيض صلب تحت أقدامنا، وموج البحر يتكسر على الشاطئ وراءنا. ابتسم لي ماكسيم وهو يشاهد الحيرة على وجهي.
قال:

- إنها صدمة، أليس كذلك؟ لا أحد يتوقع ذلك أبداً، إذ إن التباين مفاجئ للغاية، بدرجة تكاد تكون مؤلمة.
التقط حجراً ورماه عبر الشاطئ لجاسبر، وقال:
- اجلبه أيها الفتى الطيب.

فركض جاسبر بحثاً عن الحجر، وأذناه السوداوان الطويلتان ترفرفان في الريح. زال السحر، وانكسرت التعويذة، وعدنا بشراً مرة أخرى، شخصان يلعبان على الشاطئ. ألقينا مزيداً من الأحجار، وتوجهنا إلى حافة المياه، وألقينا الأحجار بحيث تقفز على سطح الماء، كما بحثنا عن الأخشاب الطافية. عاد المد، وأتت الأمواج تتلاطم في الخليج، فغطت الصخور الصغيرة، وأتى الماء بالأعشاب البحرية فوق الحجارة. أنقذنا لوحاً كبيراً عائماً، وحملناه إلى الشاطئ فوق أقصى حد للمد. التفت ماكسيم نحوي ضاحكاً وهو يبعد الشعر عن عينيه، وشمرت كمّي معطفي اللذين نالهما رذاذ البحر. ثم نظرنا حولنا، ورأينا أن جاسبر قد اختفى، فنادينا وصفرنا، لكنه لم يأت. نظرت بقلق نحو فم الخليج حيث كانت الأمواج تتكسر على الصخور.

قال ماكسيم:

- لا، كنا سنراه. لا يمكن أن يكون قد سقط. جاسبر أيها الأحمق، أين أنت؟
جاسبر، جاسبر؟
قلت:

- ربما عاد إلى الوادي السعيد؟

قال ماكسيم:

- كان بجوار تلك الصخرة قبل دقيقة، يتشمم نورسًا ميتًا.

مشينا عبر الشاطئ في اتجاه الوادي مرة أخرى، ونادى ماكسيم:

- جاسبر، جاسبر؟

سمعت نباحًا قصيرًا حادًا من بعيد، وراء الصخور على يمين الشاطئ، وقلت:

- أسمع ذلك؟ لقد صعد من هذا الاتجاه.

شرعت أتسلق الصخور الزلقة في اتجاه النباح.

قال ماكسيم بحدة:

- تعالي، لا نريد السير في ذلك الاتجاه. يجب أن يعتني ذلك الكلب الأحمق

بنفسه.

ترددت ونظرت نحو الأسفل من مكاني على الصخرة، وقلت:

- ربما سقط المسكين الصغير، دعني أحضره.

نبح جاسبر مرة أخرى، من مسافة أبعد هذه المرة.

قلت:

- أوه، اسمع، يجب أن أحضره. الأمر آمن تمامًا، أليس كذلك؟ ولم يقطع

المد عليه الطريق؟

قال ماكسيم بانفعال:

- إنه بخير. لماذا لا تتركينه؟ إنه يعرف طريق العودة.

تظاهرت بأنني لم أسمع، وبدأت أتدافع فوق الصخور في اتجاه جاسبر.

حجبت صخور مديبة ضخمة المنظر، وانزلقت وتعثرت على الأحجار الرطبة،

وأنا أشق طريقي بأفضل ما في وسعي في اتجاه جاسبر. فكرت أنها قسوة من

ماكسيم أن يترك جاسبر، ولم أستطع فهم ذلك. وبالإضافة إلى ذلك، كان المد

قادمًا. صعدت بجانب الصخرة الكبيرة التي أخفت المنظر، ونظرت إلى ما وراءها.

ولدهشتي، رأيت أنني أنظر إلى خليج آخر، يشبه ذلك الذي تركته، لكنه أوسع

وأكثر استدارة. بُني حاجز أمواج حجري صغير عبر الخليج للحماية، وشكّل الخليج خلفه ميناءً طبيعيًا صغيرًا. رست عوامة هناك، لكن لم يكن هناك وجود لقارب. كان شاطئ الخليج من الحصى الأبيض، مثل ذلك الذي يقع خلفي، لكنه أشد ميلًا، وينحدر فجأة نحو البحر. امتدت الغابة مباشرة حتى الأعشاب البحرية المتشابكة التي تشير إلى أقصى حدٍّ للمد، وكادت تتعدى على الصخور نفسها، وعلى حافة الغابة كان هناك مبنى طويل منخفض، نصفه كوخ ونصفه مستودع لقارب، مبني من الحجر نفسه مثل حاجز الأمواج.

كان هناك رجل على الشاطئ، ربما صياد، يرتدي حذاءً طويل العنق وقبعة مضادة للمطر، أخذ جاسبر ينبح عليه وهو يركض حوله في دوائر، ويندفع نحو حذائه. لم يعره الرجل انتباهًا، وانحنى يفتش في الحصى. صحت:

- جاسبر، جاسبر تعالَ إلى هنا.

رفع الكلب رأسه وهو يهز ذيله، لكنه لم يطعني، وواصل مشاكسة ذلك الرجل الوحيد على الشاطئ.

التفتُ ورائي، ولم يكن هناك أثر لماكسيم بعد، فنزلت من فوق الصخور إلى الشاطئ في الأسفل. انسحق الحصى تحت قدميَّ مصدرًا جلبة، ورفع الرجل رأسه صوب مصدر الصوت. رأيت حينها أن لديه العينين الصغيرتين الضيقتين اللتين تميزان المصابين بالتأخر العقلي، وفمًا وردّيًا مبللًا، وابتسم لي مظهرًا لثة خالية من الأسنان.

قال:

- يومك سعيد. الجو عاصف، أليس كذلك؟
- مساء الخير. بلى، أخشى أن الطقس ليس لطيفًا جدًا.
- راقبني باهتمام، وهو يبتسم طوال الوقت، وقال:
- أبحث عن المحار. لا يوجد محار هنا. كنت أبحث منذ الظهر.
- أوه، يؤسفني أنك لم تعثر على أي محار.
- هذا صحيح، لا يوجد محار هنا.

- تعال يا جاسبر، لقد تأخر الوقت. تعال أيها الفتى العجوز.
لكن جاسبر كان في حالة تثير الغيظ، وربما أثار البحر والريح في سلوكه، لأنه
تراجع مبتعداً عني وهو ينبج على نحو أحرق، وبدأ يركض في أرجاء الشاطئ
مطارداً الفراغ. رأيت أنه لن يتبعني أبداً، ولم يكن لديّ مقود. التفتُ إلى الرجل
الذي انحنى مرة أخرى وعاد إلى حفرة غير المجدي.
قلت:

- هل لديك أي حبل؟

- ماذا؟

كررت قائلة:

- هل لديك أي حبل؟

هز رأسه قائلاً:

- لا يوجد محار هنا. كنت أبحث منذ الظهيرة.

أوماً برأسه نحوي، ومسح عينيه الزرقاوين الشاحبتين الدامعتين.

قلت:

- أريد شيئاً لأربط الكلب، فهو يرفض أن يتبعني.

- ماذا؟

وابتسم ابتسامته البلهاء المسكينة.

قلت:

- حسناً، لا يهم.

نظر إليّ بشك، ثم انحنى إلى الأمام ووكزني في صدري.

قال:

- أنا أعرف هذا الكلب، لقد جاء من المنزل.

- أجل، أريده أن يعود معي الآن.

- إنه ليس ملكاً لك.

قلت بلطف:

- إنه كلب السيد دي ويتتر، وأريد أن أعيده إلى المنزل.

- ماذا؟

ناديت جاسبر مرة أخرى، لكنه انشغل بمطاردة ريشة طيرتها الريح. تساءلت عما إذا كان هناك أي حبل في مستودع القارب، وسرت عبر الشاطئ في اتجاهه. لا بد أنه كانت هناك حديقة في وقت ما، لكن العشب طال ونما بإفراط، وزاحمه نبات القراص. أغلقت النوافذ بألواح خشبية، ولا شك أن الباب كان مقفلاً أيضاً. رفعت المزلاج من دون الكثير من الأمل، ولدهشتي انفتح بعد صلابته في البداية، فدخلت وأنا أحنى رأسي بسبب الباب المنخفض. توقعت أن أجد مستودع قارب كالمتعاد، متسخاً ومغبراً من قلة الاستخدام، والحبال وكتل الخشب والمجاديف على الأرض. كان هناك غبار وأوساخ في بعض الأماكن، لكن لم تكن هناك أي حبال أو كتل خشبية. كانت الغرفة مفروشة، وممتدة بطول الكوخ: كان هناك مكتب في الزاوية، وطاولة، وكراسي، وأريكة فراش ملتصقة بالحائط. كما كانت هناك خزانة أيضاً، بها أكواب وأطباق، ومكتبات بداخلها كتب، وفوق الأرفف نماذج سفن. ظننت للحظة أنه لا بد أن يكون مأهولاً - ربما كان الرجل المسكين على الشاطئ يعيش هنا - لكنني نظرت حولي مرة أخرى ولم أر أي علامة تدل على إقامة أحد هنا مؤخراً، فلم تعرف تلك المدفأة الصدئة أي نيران، كما لم تعرف هذه الأرضية المتربة وقع أي أقدام، وصار الخزف على الخزانة هناك مرقطاً ببقع زرقاء بفعل الرطوبة. عبق المكان برائحة غريبة عفنة، ونسجت العناكب خيوطها على نماذج السفن، فصنعت بطريقتها الخاصة حبالاً مخيفة للأشعة والصواري. لم يكن أحد يعيش هنا، ولا أحد يأتي إلى هنا، وأصدرت مفصلات الباب صريراً عندما فتحته. طرق المطر السقف بصوت أجوف، ونقر النوافذ المغلقة بالألواح الخشبية. قرضت الفئران أو الجرذان قماش الأريكة الفراش، وكانت في إمكاني رؤية الثقوب الممزقة والحواف المهترئة. بدا الكوخ رطباً، رطباً وبارداً، ومظلماً وخانقاً، ولم أحبه. لم تكن لديّ رغبة في البقاء هناك، وكرهت صوت المطر الأجوف

وهو يطرق السقف. بدا صدها يتردد في الغرفة نفسها، وسمعت الماء يقطر أيضاً في المدفأة الصدئة.

بحثت حولي عن حبل، ولم يكن هناك شيء يفي بغرضي، لا شيء على الإطلاق. كان هناك باب آخر في نهاية الغرفة، فتوجهت إليه وفتحته، وأنا قلقة بعض الشيء الآن، وخائفة قليلاً، إذ انتابني شعور غريب ومزعج أنني قد أصادف على حين غرة شيئاً لا أرغب في رؤيته، شيئاً قد يؤذيني، وقد يكون فظيماً.

كان ذلك مجرد هراء بالطبع، وفتحت الباب، إذ كان في النهاية مجرد مستودع قارب. وجدت الحبال ومكعبات الخشب التي توقعتها، وشرائعين أو ثلاثة، وأسوجة للمدفأة، وقارباً صغيراً، وأواني الدهانات، وكل الفوضى والخردة التي ترافق استخدام القوارب. قبعت كرة من الدوبارة فوق رف، وبجانبتها سكين جيب صدئة. هذا هو كل ما أحتاج إليه من أجل جاسبر. فتحت السكين وقطعت جزءاً من الدوبارة، وعدت إلى الغرفة مرة أخرى، حيث كان المطر لا يزال يسقط على السقف وفي المدفأة. خرجت من الكوخ على عجل من دون أن أنظر خلفي، محاولة ألا أرى الأريكة الممزقة والخزف الصيني المتعفن، وخيوط العناكب المغزولة على نماذج السفن، وهكذا خرجت من الباب الذي تعالى صريره، وتوجهت إلى الشاطئ الأبيض.

لم يعد الرجل منشغلاً بالحفر، بل كان يراقبني وجاسبر إلى جانبه.
قلت:

- تعال يا جاسبر، هياً أيها الكلب الطيب.

انحنيت، فسمح لي بلمسه هذه المرة، وسحب طوقه. قلت للرجل:

- وجدت بعض الدوبارة في الكوخ.

لم يرد، وربطت الخيط بشكل غير محكم حول طوق جاسبر.

جذبت جاسبر قائلة:

- عمت مساء.

أوماً الرجل، وحدث إليّ بعينيه الضيقتين البلهاوين، وقال:

- رأيتك تدخلين هناك.
- أجل، هذا صحيح، لن يمانع السيد دي ويتر.
- لم تعد تدخل هناك الآن.
- لا، ليس الآن.
- لقد ذهبت إلى البحر، أليس كذلك؟ ولن تعود ثانية؟
- لا، لن تعود.
- لم أقل شيئاً قط، أليس كذلك؟
- نعم، بالطبع لم تقل شيئاً. لا تقلق.
- انحنى مرة أخرى وعاود الحفر وهو يهمهم لنفسه. عبرت فوق الحصى، ورأيت ماكسيم ينتظرنى عند الصخور ويداه في جيبه.
- قلت:
- أنا آسفة، رفض جاسبر المجيء، واضطرت إلى جلب بعض الدوبارة.
- استدار على عقبيه فجأة، وتوجه نحو الغابة.
- قلت:
- أألن نعود من فوق الصخور؟
- قال باقتضاب:
- وما الفائدة من ذلك؟ نحن هنا الآن.
- صعدنا متجاوزين الكوخ، وسلكنا طريقاً عبر الغابة. قلت:
- آسفة لأن الأمر استغرق كل هذا الوقت، لكنه كان خطأ جاسبر، إذ ظل ينبح على الرجل. من يكون؟
- قال ماكسيم:
- إنه بن، ولا ضرر منه، ذلك الوغد المسكين. كان والده العجوز أحد الحراس، وهم يسكنون بالقرب من مزرعة المنزل. من أين أتيت بقطعة الدوبارة تلك؟
- قلت:
- عثرت عليها في الكوخ على الشاطئ.

سأل:

- هل كان الباب مفتوحًا؟

- نعم، لقد دفعته فانفتح، ووجدت الدوبارة في الغرفة الأخرى، التي بها
الأشعة وقارب صغير.

قال باقتصاب:

- أوه. أوه، فهمت.

ثم أضاف بعد لحظة أو اثنتين:

- من المفترض أن يكون الكوخ مغلقًا، ويجب ألا يكون ذلك الباب مفتوحًا.

لم أقل شيئًا، فلم يكن ذلك من شأني.

- هل أخبرك بن بأن الباب مفتوح؟

قلت:

- لا، لم يبدو أنه يفهم أي شيء سألته إياه.

قال ماكسيم:

- إنه يتظاهر بأن حالته أسوأ مما هي عليه بالفعل، فهو يمكنه التحدث بوضوح

تام إذا أراد ذلك. لقد دخل وخرج من ذلك الكوخ عشرات المرات على

الأرجح، لكنه لم يردك أن تعرفي.

أجبت قائلة:

- لا أعتقد ذلك، فقد بدا المكان مهجورًا ولم يمسه أحد. كان هناك غبار

في كل مكان، ولا توجد آثار أقدام. كانت الرطوبة رهيبية، وأخشى أن تلك

الكتب ستكون تالفة تمامًا، والكراسي، وتلك الأريكة. كما أن هناك فئرانًا

أيضًا، وقد أكلت بعض الأغذية.

لم يرد ماكسيم، وسار بسرعة هائلة، وكان الطريق الصاعد من الشاطئ شديد

الانحدار. بدا مختلفًا تمامًا عن الوادي السعيد، إذ كانت الأشجار هنا مظلمة

ومتقاربة، ولم تكن هناك شجيرات أزاليا تلامس الطريق. تساقط المطر بغزارة

من الأغصان الكثيفة، وتناثر على ياقتي، وتسلسل إلى عنقي، فارتجفت. بدا شعورًا

مزعجًا، مثل إصبع باردة. أخذت ساقاي تؤلمانني بعد ذلك التدافع غير المعتاد فوق الصخور، وتخلف جاسبر ورائي، متعبًا من ركضه الجامح، ولسانه يتدلى من فمه.

قال ماكسيم:

- هيّا يا جاسبر، بربك! أجبريه على الصعود، واسحبي ذلك الخيط، أو أي شيء من هذا القبيل. ألا يمكنك ذلك؟ كانت بياتريس على حق. هذا الكلب سمين جدًّا.

قلت:

- إنه خطوك، فأنت تمشي بسرعة كبيرة، ولا يمكننا مواكبتك.

قال ماكسيم:

- لو أنكِ أطعتني، بدلًا من الاندفاع بتهور فوق تلك الصخور، لكنا عدنا إلى المنزل الآن. جاسبر يعرف طريق العودة جيدًا، ولا أعرف لماذا أردت ملاحقته.

قلت:

- اعتقدت أنه ربما يكون قد سقط، وكنت خائفة من المد.

قال ماكسيم:

- هل هناك احتمال أن أترك الكلب لو كان هناك أي شك فيما يتعلق بالمد؟ قلت لك ألا تتسلقي تلك الصخور، وها أنت ذي الآن تتذمرين لأنك تشعرين بالتعب.

قلت:

- أنا لا أتذمر، كما أن أي شخص، حتى لو كانت ساقاه من الحديد، سيتعب من المشي بهذه السرعة. ظننت أنك ستأتي معي على أي حال عندما ذهبت في أعقاب جاسبر، بدلًا من أن تتخلف ورائي.

قال:

- ولماذا أرهق نفسي في مطاردة الكلب اللعين؟

أجبتة:

- لم تكن مطاردة جاسبر فوق الصخور مرهقة أكثر مما كانت مطاردة الأخشاب الطافية على الشاطئ. أنت تقول ذلك فحسب لأنه ليس لديك أي عذر آخر.
- يا طفلي العزيزة، وما الذي يفترض أن أعتذر عنه؟
قلت بنبرة مرهقة:

- أوه، لا أدري. دعنا نتوقف عن هذا.
- لا، على الإطلاق، فقد بدأت أنت الأمر. ماذا تقصدين بقولك إنني كنت أحاول إيجاد عذر؟ عذر على ماذا؟
قلت:

- عذر لعدم الصعود معي فوق الصخور.
- حسنًا، ولماذا تعتقدين أنني لا أريد العبور إلى الشاطئ الآخر؟
- أوه يا ماكسيم، كيف لي أن أعرف؟ أنا لا أقرأ الأفكار. أعلم أنك لا تريد ذلك، هذا كل ما في الأمر. رأيت ذلك على وجهك.
- رأيت ماذا على وجهي؟

- لقد أخبرتك بالفعل: كانت في وسعي رؤية أنك لا تريد الذهاب. أوه، دعنا نضع حدًا لهذا، لقد سئمت من هذا الموضوع حد الموت.
- هذا ما تقوله جميع النساء حينما يخسرن جدًّا. حسنًا، لم أرغب في الذهاب إلى الشاطئ الآخر. هل يسعدك ذلك؟ لا أقترب من ذلك المكان البغيض على الإطلاق، ولا من ذلك الكوخ اللعين. وإذا كانت لديك ذكرياتي فلن ترغبني في الذهاب إلى هناك أو التحدث عنه أو حتى التفكير فيه. هاك، يمكنك التفكير في هذا إذا أردت، وآمل أن يرضيك ذلك.

بدا وجهه شاحبًا، وعيناه متوترتين، وبهما تلك النظرة الكثيية البائسة نفسها التي كانت ظاهرة بهما عندما التقيته أول مرة. مددت إليه يدي وتناولت يده، وأمسكتها بقوة. قلت:

- أرجوك يا ماكسيم، أرجوك.

قال بخشونة:

- ما الخطب؟

- لا أريدك أن تبدو هكذا، فهذا يؤلم كثيرًا. من فضلك يا ماكسيم، دعنا ننس كل ما قلناه. إنه جدال سخيف عقيم. أنا آسفة يا حبيبي، معذرة. أرجوك، دع كل شيء يصير على ما يرام.

- كان يجب أن نبقي في إيطاليا، وما كان يجب أن نعود إلى ماندرلي أبدًا. يا إلهي، يا لها من حماقة مني أن أعود.

مرّ عبر الأشجار بنفاد صبر وهو يمشي أسرع من قبل حتى، واضطرت إلى الركض لمواكبته، لاهثة ودموعي توشك على الانهمار، وأنا أسحب ورائي جاسبر المسكين من طرف خيطه.

وصلنا إلى قمة الطريق أخيرًا، ورأيت الطريق الآخر المتفرع يسارًا نحو الوادي السعيد. كنا قد تسلقنا الطريق الذي أراد جاسبر أن يسلكه في بداية فترة ما بعد الظهيرة، وعرفت الآن لماذا انعطفت إليه جاسبر، إذ كان يؤدي إلى الشاطئ الذي يعرفه على نحو أفضل، وإلى الكوخ. كان هذا هو نظامه القديم المألوف له. وصلنا إلى المروج، وعبرناها نحو المنزل من دون التفوه بكلمة. بدا وجه ماكسيم قاسيًا، بلا تعبير. دخل إلى الردهة مباشرة، ومنها إلى المكتبة، من دون أن ينظر إليّ. كان فريث في الردهة.

قال ماكسيم:

- نريد الشاي في الحال.

ثم أغلق باب المكتبة.

حاربت لأمنع دموعي، فلا يجب أن يراها فريث. سيعتقد أننا كنا نتشاجر، وسيذهب إلى قاعة الخدم ليقول لهم جميعًا: «كانت السيدة دي وينتر تبكي في الردهة الآن، ويبدو أن الأمور لا تسير على ما يرام». أشحت بعيدًا كي لا يرى فريث وجهي، لكنه تقدم مني وبدأ يساعدني في خلع معطفي الواقفي من المطر. قال:

- سأضع لك معطفك الواقى من المطر في غرفة الزهور يا سيدتي.

قلت وأنا لا أزال أدير وجهي بعيداً عنه:

- شكراً لك يا فريث.

- ليست أمسية لطيفة للتنزه على ما أخشى يا سيدتي.

- لا، لا لم تكن لطيفة جداً.

التقط شيئاً سقط على الأرض، وقال:

- منديلك يا سيدتي؟

- شكراً لك.

أخذت المنديل ووضعتة في جيبى. تساءلت عما إذا كان عليّ الصعود إلى الطابق العلوي، أو أن أتبع ماكسيم إلى المكتبة. أخذ فريث المعطف إلى غرفة الزهور، بينما وقفت هناك مترددة، أقضم أظفاري. عاد فريث مرة أخرى، وبدأ متفاجئاً عندما رأى أنني لا أزال موجودة.

- هناك نار جيدة في المكتبة الآن يا سيدتي.

- شكراً لك يا فريث.

سرت عبر الردهة ببطء، متوجهة إلى المكتبة. فتحت الباب ودخلت، فوجدت ماكسيم جالساً على كرسيه، وجاسبر عند قدميه، والكلبة العجوز في سلتها. لم يكن ماكسيم يقرأ الصحيفة، على الرغم من أنها كانت موضوعة على ذراع الكرسي المجاور له. ذهب وركعت بجانبه، ووضعت وجهي بالقرب من وجهه.

همست:

- لا تظل غاضباً مني.

أمسك وجهي بين يديه، ونظر إليّ بعينيه المرهقتين المتوترتين، وقال:

- أنا لست غاضباً منك.

- نعم، لقد جعلتك تشعر بالتعاسة، وهذا يماثل إغضابك. أنت جريح وتتألم وتتمزق من الداخل، ولا أتحمّل رؤيتك هكذا، فأنا أحبك بشدة.

- أتحييني؟ أتحييني؟

احتضنني بشدة، وعيناه الداكنتان المترددتان تستجوبانني، كعيني طفل يتألم،
أو طفل خائف.

قلت:

- ما الأمر يا حبيبي؟ لماذا تبدو هكذا؟

سمعت الباب يفتح قبل أن يتمكن من الإجابة، فجلست القرفصاء مرة أخرى،
متظاهرة بأنني أمد يدي لأتناول حطبًا لألقيه في النار، بينما دخل فريث الغرفة
وتبعه روبرت، وبدأت طقوس الشاي.

تكرر أداء اليوم السابق، ووُضعت الطاولة، ووُضع المفروش ذو البياض
الثلجي، كما وُضع الكعك والفطائر الصغيرة، وإبريق الماء الساخن الفضي فوق
موقده الصغير، بينما أخذ جاسبر يراقب وجهي وهو يهز ذيله وقد أرجع أذنيه
إلى الخلف ترقبًا. لا بد أن خمس دقائق انقضت قبل أن نصير وحدنا مرة أخرى،
وعندما نظرت إلى ماكسيم رأيت أن الدماء عادت تجري في وجهه مرة أخرى،
واختفت النظرة المرهقة اليائسة، وقد مد يده ليتناول شطيرة.
قال:

- كانت المشكلة هي استضافة كل ذلك الحشد لتناول الغداء. دومًا ما تستفزني
تلك العجوز المسكينة بياتريس. اعتدنا الشجار مثل كلبين خلال طفولتنا،
لكنني أحبها بشدة، باركها الرب. من المثير للارتياح أنهما لا يعيشان على
مقربة كبيرة. وهو ما يذكّرني، علينا الذهاب لزيارة جدتي في وقت ما. صبي
لي الشاي يا حبيبي، وسامحني لأنني عاملتك بخشونة.

انتهى الأمر إذن. انقضى ذلك الحادث، ويجب ألا نتحدث عنه مرة أخرى.
ابتسم لي وهو يتناول الشاي، ثم مد يده نحو الصحيفة على ذراع كرسيه. كانت
تلك الابتسامة مكافأتي، مثل تربيتة على رأس جاسبر. كلب طيب إذن، استلقِ،
ولا تزعجني بعد الآن. صرت مثل جاسبر مرة أخرى، وعدت إلى النقطة التي
كنت عندها من قبل. تناولت قطعة من الكعك وقسمتها بين الكلبين، فلم أرغب
فيها، إذ لم أكن أشعر بالجوع. شعرت بالتعب الشديد الآن، وبالإرهاق البالغ

والثقل وقد خارت قواي. نظرت إلى ماكسيم، لكنه انشغل بقراءة صحيفته، وقلبها إلى صفحة أخرى. تلوّث أصابعي بالزبدة من الكعكة، فتحسست جيبي بحثًا عن منديل، وسحبت منديلًا صغيرًا له حواف من الدانتيل. حدقت إليه عابسة، إذ لم يكن ملكي، وتذكرت حينها أن فريث التقطه من الأرض الحجرية بالردهة. لا بد أنه سقط من جيب المعطف الواقي من المطر. قلبته في يدي، ووجدته قدرًا وقد علقته به قطع صغيرة من الزغب من جيب المعطف. لا بد أنه ظل في جيب المعطف الواقي من المطر فترة طويلة. كان هناك حرف في زاوية المنديل. حرف راء طويل مائل، تشابك مع أحرف دي و. تضاءلت باقي الأحرف بجوار حرف الراء، الذي امتد طرفه حتى النسيج القطني، بعيدًا عن الحافة المزينة بالدانتيل. كان منديلًا صغيرًا فحسب، ضئيلًا للغاية، لُفَّ على شكل كرة ووُضع في الجيب، ثم نُسي أمره.

لا بد أنني كنت أول شخص يرتدي هذا المعطف منذ استخدام المنديل. كانت صاحبة المعطف طويلة ونحيلة ولها كتفان أعرض مني، لأنني وجدته كبيرًا وطويلاً بدرجة زائدة، وتدلىّ الكُمّان أسفل معصمي. كانت بعض الأزرار مفقودة، أي أنها لم تهتم بإقفاله، بل ألقت على كتفها مثل العباءة، أو ارتدته فضفاضًا ومفتوحًا ويدها في أعماق الجيبين.

كانت هناك بقعة وردية على المنديل، من أثر أحمر الشفاه. مسحت شفتيها بالمنديل، ثم كورته وتركته في الجيب. مسحت أصابعي بالمنديل، وعندما فعلت ذلك لاحظت أن ثمة رائحة باهتة لا تزال عالقة به. رائحة ميزتها، وتعرفت عليها. أغمضت عيني وحاولت أن أتذكر. كان شيئًا مروغًا، شيئًا خافتًا وعطرًا لم أستطع تحديده. من المؤكد أنني شممته من قبل، ولمسته عصر ذلك اليوم.

وحينها عرفت أن الرائحة الباهتة على المنديل هي نفس رائحة بتلات الأزاليا البيضاء المسحوقة في الوادي السعيد.

ظل الطقس رطبًا وباردًا أسبوعًا تقريبًا، كما هي الحال غالبًا في المنطقة الغربية من البلاد في أوائل الصيف، ولم نذهب إلى الشاطئ مرة أخرى. كانت في إمكاني رؤية البحر من الشرفة والمروج، وقد بدا رماديًا وغير جذاب، والأمواج الضخمة تجتاح الخليج متجاوزة الفئار الكائن على الرأس البحري. تخيلتها تندفع إلى الخليج الصغير وتتكسر على الصخور بهدير مرتفع، ثم تجري سريعة وقوية إلى الشاطئ المنحدر. وإذا وقفت على الشرفة وأصخت السمع، كان يمكنني سماع همهمة البحر تحتي، خافتة وكثيية، صوت ضعيف ومستمر لا ينقطع أبدًا. كما حلقت النوارس نحو الداخل أيضًا، مدفوعة بالطقس. حلقت فوق المنزل في دوائر وهي تلف وتصيح، وترفرف بأجنحتها المفرودة. وبدأت أفهم لماذا لا يستطيع بعض الناس تحمل ضجيج البحر، إذ إن له في بعض الأحيان نغمة حزينة متواصلة، واستمرار ذلك التدفق والدوي والهسيس الأبدي يستثير الأعصاب كلحن خشن. سررت لأن غرفنا تقع في الجناح الشرقي، وكان في إمكاني أن أميل إلى الخارج من نافذتي وألقي نظرة على حديقة الورد. ففي بعض الأحيان، كنت أعجز عن النوم، فأتسلل من الفراش في هدوء الليل وأتجه نحو النافذة، وأتكئ هناك وذراعي على جلسة النافذة، والجو هادئ جدًا وساكن للغاية.

لم يكن في وسعي سماع البحر المضطرب، ولأنني لم أتمكن من سماعه، كانت أفكارني أيضًا هادئة، ولم تحملني إلى ذلك الطريق شديد الانحدار عبر الغابة، إلى الخليج الرمادي والكوخ المهجور. لم أرغب في التفكير في الكوخ،

الذي كنت أتذكره كثيرًا خلال النهار، وأزعجتني ذكره كلما رأيت البحر من الشرفة. رأيت مرة أخرى البقع الزرقاء على الخزف الصيني، والشباك التي غزلتها العناكب على الصواري الصغيرة لنماذج السفن، والثقوب التي أحدثتها الجرذان في الأريكة الفراش. كما كنت أتذكر طرقات المطر على السقف، وأفكر أيضًا في بن، بعينه الزرقاوين الضيقتين الدامعتين، وابتسامته البلهاء الماكرة. أزعجتني هذه الأشياء، ولم أسعد بذلك. أردت نسيانها، لكن في الوقت نفسه أردت أن أعرف لماذا أزعجتني، ولماذا جعلتني أشعر بالاضطراب والتعاسة. في مكان ما في ركن من ذهني، كانت هناك بذرة فضول قلقة خفية، تنمو ببطء في الخفاء، على الرغم من إنكاري لها، وتملّكني كل الشك والقلق الذي يملك طفلاً قليل له: «هذه الأشياء لا تخضع للنقاش، فهي محرمة».

لم أستطع نسيان النظرة الخاوية الشاردة في عيني ماكسيم عندما صعدنا الطريق عبر الغابة، كما لم أستطع نسيان كلماته: «يا إلهي، يا لها من حماقة مني أن أعود». كان كل هذا خطئي، لأنني نزلت إلى الخليج، وفتحت طريقًا إلى الماضي مرة أخرى. وعلى الرغم من أن ماكسيم تعافى وعاد إلى طبيعته، وأنا نعيش حياتنا معًا، ننام، ونأكل، ونتمشى، ونكتب الرسائل، ونذهب إلى القرية بالسيارة، ونعمل ساعة تلو ساعة خلال يومنا، فإنني علمت أن هناك حاجزًا بيننا بسبب ذلك.

كان يسير وحده على الجانب الآخر، ولم يكن مسموحًا لي أن آتي إليه، فملأني الخوف والتوتر من أن كلمة طائشة أو تحولًا في محادثة عابرة قد يتسبب في عودة ذلك التعبير إلى عينيه مرة أخرى. كما بدأت أخشى أي ذكر للبحر، لأن البحر قد يقود دفعة الحديث إلى القوارب، والحوادث، والغرق... وحتى فرانك كرولي، الذي جاء لتناول الغداء ذات يوم، أصابني بحمى من الخوف بعض الشيء، عندما ذكر شيئًا عن سباقات الإبحار في ميناء كيريث، على بُعد ثلاثة أميال. نظرت إلى طبقتي في ثبات، وشعرت بطعنة ألم في قلبي في الحال، لكن ماكسيم استمر في الحديث بشكل طبيعي، ولم يبدُ أنه يمانع ذلك، بينما جلست أتصعب عرقًا، وتراودني الشكوك وأنا أتساءل عما سيحدث، وإلى أين ستقودنا المحادثة.

كان ذلك في أثناء تناول الجبن، وقد غادر فريث الغرفة، وأذكر أنني نهضت وتوجهت إلى البوفيه لآخذ مزيدًا من الجبن، على الرغم من أنني لا أريده، لمجرد ألا أكون معهما على المائدة وأستمع إليهما، ودندنت لنفسي لحناً صغيراً كي لا أسمع. كنت مخبطة بالطبع، ومهووسة وحمقاء: بدا هذا سلوكاً مفرط الحساسية لمريض عصابي، ولا يشبه طبيعتي الشخصية المرححة التي أعرفها. لكنني لم أستطع تمالك نفسي، ولم أعرف ماذا أفعل. كما ازداد خجلي وارتباكي أيضاً، مما جعلني أبدو باردة وحمقاء عندما يأتي الناس للزيارة. إذ زارنا خلال تلك الأسابيع الأولى، على ما أتذكر، الناس الذين يسكنون بالقرب منا في المقاطعة، وصار استقبالهم ومصافحتهم وتمضية ذلك الوقت من الزيارة الرسمية محنة أسوأ مما توقعت في بادئ الأمر، بسبب خوفي الجديد هذا من أن يتحدثوا عن شيء يجب ألا يُناقش. يا للعذاب الذي عانيته من صوت تلك العجلات على الممر، ورنين ذلك الجرس، والرغبة الجامحة التي تتابني في البداية للهرب إلى غرفتي. كنت أضع البودرة على أنفي في عجل، وأمشط شعري بسرعة، تلي ذلك الطرقات التي لا مفر منها على الباب، ودخول البطاقات على صينية فضية.

- حسناً، سأنزل على الفور.

تتعالى طقطقة كعب حذائي على الدرج وعبر الردهة، بعد ذلك أفتح باب المكتبة، أو ما هو أسوأ من ذلك، غرفة الاستقبال الطويلة الباردة الكئيبة تلك، حيث يكون في الانتظار امرأة أو اثنتان ربما، أو زوج وزوجته.

- كيف حالكما؟ معذرة، ماكسيم في الحديقة في مكان ما، ذهب فريث للعثور عليه.

- شعرنا بأنه يتعين علينا الحضور وتقديم التحية للعروس.

تنطلق بعض الضحكات، وموجة صغيرة من الدردشة، ثم يسود الصمت وتتجول الأنظار عبر الغرفة.

- يبدو ماندرلي ساحراً كالعادة، ألا تحببينه؟

- أوه، بلى، بدرجة كبيرة...

وفي غمرة خجلي وحرصني على أن أنال الإعجاب، عادت تلك العبارات التي تستخدمها تلميذات المدارس لتفلت مني مرة أخرى، وهي كلمات لم أستخدمها قط إلا في مثل تلك اللحظات: «أوه، مدهش»، و«أوه، بديع»، و«تمامًا»، و«لا يُقدر بضمن»، حتى إنني أعتقد أنني قلت لأرملة تحمل منظارًا للأوبرا: «سلام!». وكان ارتياحي لوصول ماكسيم يشوبه الخوف من أنهم قد يتفوهون بشيء طائش، فالتزم الصمت في الحال، وأرسم على شفتي ابتسامة ويدي معقودتان في حجري. كانوا يلتفتون إلى ماكسيم حينها، ويتحدثون عن أشخاص لم أقابلهم أو أماكن لا أعرفها، وبين الحين والحين أجد نظراتهم موجهة إليّ، مليئة بالشك والارتباك نوعًا ما.

تخيلتهم يقولون لبعضهم وهم يتعدون بالسيارة: «يا إلهي، يا لها من فتاة مملة، بالكاد فتحت فمها». ثم الجملة التي سمعتها أول مرة على شفتي بياتريس، وظلت تطاردني منذ ذلك الحين، وهي جملة قرأتها في كل عين وكل لسان: «إنها مختلفة تمامًا عن ريبيكا».

في بعض الأحيان، كنت أجمع نتفًا من المعلومات لإضافتها إلى مخزوني السري: كلمة سقطت هنا عشوائيًا، أو سؤال، أو جملة عابرة. وإذا لم يكن ماكسيم معي، فإن سماعها يصير متعة خفية، مؤلمة إلى حدٍّ ما، كمعلومات محرمة عرفتها في الظلام.

كنت أرد الزيارات أحيانًا، لأن ماكسيم دقيق في مثل هذه الأمور، ولا يجنبني إياها. وإذا لم يأت معي، كان عليّ التحلي بالشجاعة لتحمل تلك الزيارات الرسمية وحدي، حيث يحل الصمت خلال الحديث بينما أبحث عن شيء أقوله، ثم يقولون:

- هل ستستضيفين كثيرًا من الناس في ماندركلي يا سيدة دي وينتر؟

فيأتي جوابي:

- لا أدري، لم يقل ماكسيم الكثير عن الأمر حتى الآن.

- لا، بالطبع لا، ما زال الوقت مبكرًا. أعتقد أن المنزل كان ممتلئًا بالناس بشكل عام في الأيام الخوالي.

ثم يحل الصمت ثانية قبل أن يواصلوا:
- أناس من لندن، كما تعلمين. كانت هناك حفلات هائلة.
فأقول:

- أجل، أجل هكذا سمعت.

ثم يسود الصمت مرة أخرى، قبل أن يتكلم أحدهم بذلك الصوت الخفيض الذي يستخدم دائمًا للحديث عن الموتى، أو في مكان للعبادة:
- كانت ذات شعبية هائلة، كما تعلمين. يا لها من شخصية.
كنت أقول:

- نعم، نعم، بالطبع.

وبعد لحظة أو نحو ذلك، كنت ألقى نظرة على ساعتى تحت قفازي، وأقول:
- أخشى أن عليّ الذهاب، لا بد أن الساعة تجاوزت الرابعة.
- ألن تبقي حتى موعد الشاي؟ دائمًا ما تناولته في الرابعة والربع.
- نعم، نعم، حقًا، شكرًا جزيلاً. لقد وعدت ماكسيم...

تتلاشى نهاية حديثي، لكن المعنى يظل مفهومًا. ثم تنهض كلتانا واقفة على قدميها، وكلتانا تعلم أنني لم أنخدع بشأن عرضها للشاي، ولم تنخدع هي بخصوص ذكرى لوعده قطعه لماكسيم. تساءلت في بعض الأحيان عما سيحدث إذا خالفت التقاليد، بعد أن ركبت السيارة ولوحت بيدي لمضيفتي عند عتبة الباب، ثم فتحته فجأة مرة أخرى وقلت: «لا أعتقد أنني سأعود إلى المنزل. دعينا نرجع إلى غرفة استقبال مرة أخرى، ونجلس. سأبقى لتناول العشاء إذا أردت، أو أمضي الليلة». تساءلت عما إذا كانت التقاليد والأخلاق الحميدة لسكان الأقاليم ستتحمل المفاجأة، وما إذا كان الوجه الذي تجمدت ملامحه سيستدعي ابتسامة ترحيب: «بكل تأكيد! كم هو رائع أن تقترحي ذلك». تمنيت لو أنني أتحدى بالشجاعة اللازمة للمحاولة. لكن بدلًا من ذلك، كان الباب يُغلق بقوة، وتندفع السيارة

عبر الممر المرصوف بالحصى الناعم، وتتوجه مضيفتي إلى غرفتها وهي تنفَس الصعداء، وتعود إلى طبيعتها مرة أخرى. كانت زوجة أسقف الكاتدرائية في البلدة المجاورة هي التي قالت لي:

- هل تعتقدين أن زوجك سيعيد إحياء حفل ماندرلي التنكري الراقص؟
لطالما كان مشهدًا رائعًا، لن أنساه أبدًا.

اضطرت إلى الابتسام كأنني أعرف كل شيء عن الأمر، قلت:

- لم نقرر بعد، إذ كان هناك كثير من الأشياء التي يجب فعلها ومناقشتها.
- نعم، أعتقد ذلك، لكن أرجو ألا يتوقف الحفل. يجب أن تستغلي تأثيرك فيه. لم يُقام حفل في العام الماضي، بالطبع، لكنني أذكر منذ عامين، ذهبت أنا والأسقف، وكان الأمر ساحرًا للغاية. إن ماندرلي ملائم جدًا لأي شيء من هذا القبيل. بدت الردهة رائعة، ورقصوا هناك، والعازفون في الشرفة، وبدا كل شيء ملائمًا للغاية. استدعى التنظيم جهدًا هائلًا، لكن الجميع قدّروا ذلك بشدة.

قلت:

- نعم، نعم، يجب أن أسأل ماكسيم عن ذلك.

فكرت في صندوق الرسائل على المكتب في غرفة الجلوس الصباحية، وتخيلت الأكوام المكدسة من بطاقات الدعوة، وقائمة الأسماء الطويلة والعناوين، وكانت في إمكاني رؤية امرأة جالسة هناك إلى المكتب، تضع «٧» بجانب الأسماء التي تريدها، وتمديدها إلى بطاقات الدعوة، ثم تغمس قلمها في الحبر، وتكتب عليها بسرعة وثقة بذلك الخط الطويل المائل.

قالت زوجة الأسقف:

- كان هناك حفل يقام في الحديقة أيضًا، ذهبنا إليه ذات صيف. دومًا ما كان كل شيء يُنفَّذ على نحو رائع، والزهور في أفضل حالاتها. كان يومًا رائعًا، على ما أتذكر. قُدم الشاي على طاولات صغيرة في حديقة الورد، يا لها من فكرة مبتكرة وجذابة. بالطبع، كانت بارعة للغاية...

توقفت عن الحديث، وتورد وجهها بعض الشيء، وهي تخشى أن تكون
افتقدت اللباقة، لكنني وافقتها على الفور لأنقذها من الشعور بالحرَج، وسمعت
نفسي أقول بجرأة وبوقاحة:

- لا بد أن ربييكا كانت إنسانة رائعة.

لم أصدق أنني نطقت الاسم أخيرًا، وانتظرت متسائلة عما سيحدث. لقد
تفوهت بالاسم، وذكرت اسم ربييكا بصوت مرتفع. بدا شعورًا هائلًا بالراحة،
كما لو أنني تناولت دواءً مليئًا، وخلصت نفسي من ألم لا يطاق. ربييكا. قلتها
بصوت مرتفع.

تساءلت عما إذا رأت زوجة الأسقف تخضّب وجهي، لكنها واصلت الحديث
بسلاسة، واستمعت إليها بنهم، مثل مُنصت يقف عند نافذة مغلقة.

سألتني:

- ألم تقابلها قط، إذن؟

وعندما هزرت رأسي، ترددت للحظة، وهي غير واثقة بعض الشيء، ثم تابعت:
- لم نعرفها جيدًا على الإطلاق بصفة شخصية، كما تعلمين، إذ إن الأسقف
تقلد منصبه هنا منذ أربع سنوات فحسب، لكنها استقبلتنا بالطبع عندما ذهبنا
إلى الحفل الراقص وحفل الحديقة. كما تناولنا العشاء هناك أيضًا، ذات
شتاء. أجل، كانت مخلوقة جميلة جدًا، تنبض بالحياة.

قلت بنبرة لامبالية بدرجة تكفي لإظهار أنني لا أمانع، بينما أعبت بحافة قفازي:
- يبدو أنها كانت بارعة في كل شيء أيضًا، فنادرًا ما تجدين امرأة ذكية وجميلة
ومولعة بالرياضة.

قالت زوجة الأسقف:

- لا، لا أعتقد ذلك. من المؤكد أنها كانت موهوبة جدًا. يمكنني رؤيتها الآن،
وهي واقفة أسفل الدرج ليلة الحفل الراقص، تصافح الجميع وتلك الهالة
من الشعر الداكن تتباين مع بشرتها شديدة البياض، كما كان زيتها أيضًا
ملائمًا لها. أجل، كانت بارعة الجمال.

قلت:

- كما كانت تدير المنزل بنفسها أيضًا.

وابتسمت كأنني أقول: «أنا مرتاحة تمامًا، وكثيرًا ما أتحدث عنها». ثم تابعت الحديث:

- لا بد أن الأمر استغرق كثيرًا من الوقت والتفكير. أخشى أنني أترك ذلك لمدبرة المنزل.

- أوه، حسنًا، لا يمكننا جميعًا فعل كل شيء. كما أنك صغيرة جدًا في السن، أليس كذلك؟ لا شك أنك ستستقرين بمرور الوقت. علاوة على ذلك، لديك هوايتك الخاصة، أليس كذلك؟ أخبرني أحدهم بأنك مغرمة بالرسم.

قلت:

- أوه، هذا، لا أعتقد أنني أستطيع أن أعول على ذلك كثيرًا.

قالت زوجة الأسقف:

- إنها موهبة صغيرة من اللطيف أن يتمتع بها المرء، فلا يستطيع الجميع الرسم. عليك ألا تتخلي عنه. لا بد أن ماندري مليء بالأمكن الجميلة التي يمكن رسمها.

قلت:

- نعم، نعم أعتقد ذلك.

وأصابتني كلماتها بالاكئاب، إذ رأيت نفسي فجأة أتجول عبر المروج وتحت ذراعي كرسي قابل للطّي وعلبة أقلام رصاص، وتحت ذراعي الأخرى «موهبي الصغيرة»، كما وصفتها. بدا الأمر مثل مرض لطيف.

سألتنى:

- هل تلعبين أي رياضة؟ هل تركبين الخيل أو تمارسين الرماية؟

قلت:

- لا، لا أفعل أي شيء من هذا القبيل.

ثم أضفت قائلة، كخاتمة بائسة مخيبة للآمال:

- أنا أحب المشي.

فقلت بسرعة:

- هذه أفضل رياضة في العالم. أنا والأسقف نمشي كثيرًا.

تساءلت عما إذا كان يدور ويدور حول الكاتدرائية، مرتديًا قبعته وواقعي حذائه، وهي ممسكة بذراعه. بدأت تتحدث عن إجازة للمشي قضياها ذات مرة منذ سنوات في مرتفعات البينينز، وكيف قطعنا متوسط عشرين ميلًا في اليوم، فأومأت برأسي مبتسمة بأدب، وتساءلت عن مرتفعات البينينز، معتقدة أنها شيء يشبه جبال الأنديز، ثم تذكرت بعد ذلك أنها تلك السلسلة من التلال المميزة بخط مزغب في منتصف إنجلترا التي ظهرت بلون وردي في أطلسي المدرسي. وطوال ذلك الوقت، كان هو يرتدي قبعته وواقعي حذائه.

ثم حل الصمت الذي لا مفر منه، والنظرة العاجلة غير الضرورية على الساعة، بينما دقت الساعة في غرفة استقبالها أربع دقائق حادة، ونهضت عن مقعدي.

- أنا سعيدة جدًا أنني وجدتك في المنزل. آمل أن تأتي لزيارتنا.

- سيسعدنا ذلك، لكن الأسقف دائمًا ما يكون منشغلًا جدًا، للأسف. أرجو أن

تبلغني تحياتي لزوجك، ولا تنسي أن تطلبي منه إعادة إحياء الحفل الراقص.

كذبت متظاهرة بأنني أعرف كل شيء عن الأمر، وقلت:

- أجل، سأفعل بالتأكيد.

وفي طريق العودة إلى المنزل، جلست في ركني بالسيارة وأنا أقضم ظفر إبهامي، وأتخيل الردهة الكبيرة في ماندريلي وقد ازدحمت بأشخاص يرتدون ملابس تنكرية، والثروة والهمهمة والضحكات المتصاعدة من الحشد المتحرك، والعازفين في الشرفة، والعشاء في غرفة الاستقبال على الأرجح، وقد تراصت طاوولات الطعام الطويلة بجانب الحائط. كما تخيلت ماكسيم واقفًا أمام الدرج، يضحك ويصافح الناس، ثم يلتفت إلى امرأة تقف بجانبه، طويلة ورشيقة، ولها شعر داكن. قالت زوجة الأسقف إن شعرها الداكن يتباين مع بياض وجهها. امرأة لها نظرات سريعة تقوم على راحة ضيوفها، وتلتفت وراء كتفها لتلقي أوامر إلى

أحد الخدم. امرأة لم تتصرف على نحو أخرق قطُّ، ولم تفتقر إلى الكياسة قطُّ، وعندما ترقص، تخلف في الجو عطرًا مثل الأزاليا البيضاء.

«هل ستستضيفين كثيرًا من الناس في ماندريلي يا سيدة دي وينتر؟». سمعت الصوت مرة أخرى، بنبرة موحية وفضولية نوعًا ما، بصوت تلك المرأة التي زرتها التي تعيش في الجانب الآخر من كيريث، كما رأيت عينيها أيضًا، وهي متشككة وتأمل، وتطالع ملابسها من رأسي حتى قدمي، وتتساءل بتلك النظرة السريعة التي تُمنح لكل عروس، ما إذا كنت سأنجب طفلًا.

لم أرغب في رؤيتها مرة أخرى. لم أرغب في رؤية أيٍّ منهم مرة أخرى. فقد أتوا لزيارة ماندريلي فقط لأنهم فضوليون ومتطفلون، وأحبوا انتقاد مظهري، وسلوكي، وهيتي، وأحبوا مراقبة كيف أتصرف أنا وماكسيم مع بعضنا، وما إذا كنا نبدو مغرمين ببعضنا، كي يتمكنوا من العودة إلى منازلهم ومناقشة شأننا بعد ذلك، قائلين: «الأمر مختلف تمامًا عن الأيام الخوالي». جاءوا لأنهم أرادوا مقارنتي برييكا... قررت أنني لن أرد هذه الزيارات بعد الآن. يجب أن أخبر ماكسيم بذلك، ولن أكرث إذا ظن أنني وقحة أو غير مهذبة. سيمنحهم ذلك المزيد لينتقدوه، والمزيد ليناقدوه، وسيقولون إنني سيئة التنشئة. سيقولون: «لست متفاجئة، ففي النهاية، مَنْ تكون؟»، يلي ذلك ضحكة وهزة للكتفين. «يا عزيزتي، ألا تعلمين؟ لقد عثر عليها في مونت كارلو، أو في مكان ما، ولم تكن تمتلك بنسًا واحدًا. كانت رفيقة لامرأة عجوز»، ثم المزيد من الضحكات، والمزيد من الحواجب المرفوعة. «هذا هراء. حقًا؟ يا لغرابة الرجال. من بين جميع الناس، ماكسيم، الذي كان يصعب إرضاءه بشدة. كيف أمكنه ذلك، بعد برييكا؟».

لم أهتم، ولم أكرث. يمكنهم قول ما يحلو لهم. عندما انحرفت السيارة عند بوابات الكوخ، ملت إلى الأمام في مقعدي لأبتسم للمرأة التي تعيش هناك. انحنت لتقطف الزهور في الحديقة الأمامية، وفردت قامتها عندما سمعت السيارة، لكنها لم ترني أبتسم. لوحت لها، فحدقت إليَّ بنظرة خاوية. لا أعتقد أنها عرفت مَنْ

أكون. استندت إلى الوراء في مقعدي مرة أخرى، وواصلت السيارة طريقها عبر الممر.

حينما انحرفنا عند أحد المنعطفات الضيقة، رأيت رجلًا يسير عبر الممر، على بُعد مسافة قصيرة أمامنا. كان الوكيل، فرانك كرولي. توقف عندما سمع صوت السيارة، وأبطأ السائق سرعته. خلع فرانك كرولي قبعته وابتسم عندما رأي في السيارة، وبدا سعيدًا لرؤيتي، فبادلته الابتسام. كان لطفًا منه أن يسعد لرؤيتي. أحببت فرانك كرولي، ولم أجده مثيرًا للضجر أو غير مثير للاهتمام مثلما وجدته بياتريس. ربما كان هذا لأنني أنا نفسي مثيرة للضجر. كان كلانا مملًا، ليس لدينا شيء لنقول، المثل بالمثل.

نقرت على الزجاج، وطلبت من السائق التوقف.
قلت:

- أعتقد أنني سأخرج، وأمشي مع السيد كرولي.
فتح لي الباب، وقال:

- هل ذهبت لتبادل الزيارات يا سيدة دي ويتتر؟
قلت:

- نعم يا فرانك.

كنت أناديه فرانك لأن ماكسيم يفعل ذلك، لكنه كان يناديني دائمًا السيدة دي ويتتر، إذ كان من ذلك النوع من الأشخاص. حتى لو ألقينا معًا في جزيرة مهجورة، وعشنا هناك في حميمة لبقية حياتنا، كنت سأظل السيدة دي ويتتر. قلت:

- ذهبت لزيارة الأسقف، فوجدته قد خرج، لكن زوجته كانت في المنزل. هي والأسقف يحبان المشي بشدة، وفي بعض الأحيان يقطعان حتى عشرين ميلًا في اليوم، في مرتفعات البيينز.

قال فرانك كرولي:

- لا أعرف تلك المنطقة من العالم. يُقال إن المناطق الريفية المحيطة هناك جميلة جدًا. كان لي عم يعيش هناك.

هذا هو نوع الملاحظات التي يبدئها فرانك كرولي دائماً: آمنة، وتقليدية، وصحيحة تماماً.

راقبته بطرف عيني، وقلت:

- تريد زوجة الأسقف أن تعرف متى سنقيم حفلاً تنكرياً راقصاً في ماندرلي.
قالت إنها حضرت الحفل الأخير، واستمتعت به بشدة. لم أكن أعرف أنكم تقيمون حفلات تنكزية راقصة هنا يا فرانك.

تردد لحظة قبل أن يجيب، وبدأ مضطرباً بعض الشيء، ثم قال بعد لحظة:
- أوه، أجل، كان حفل ماندرلي الراقص يقام سنوياً بشكل عام، ويحضره جميع من في المقاطعة، كما كان يأتي الكثير من الناس من لندن أيضاً.
كان حفلاً كبيراً جداً.

قلت:

- لا بد أن الأمر تطلب قدرًا كبيرًا من التنظيم.

قال:

- أجل.

قلت بلامبالاة:

- أعتقد أن ربيكا هي من تولت معظم الأمر؟

وجهت نظري أمامي مباشرة، على امتداد الممر، لكنني رأيت وجهه متجهًا نحوي، كأنه يرغب في قراءة تعابير وجهي.

قال بهدوء:

- لقد عملنا جميعًا بجد.

وبدا في سلوكه تحفظ غريب وهو يقول ذلك، ونوع من الخجل ذكرني بخجلي أنا. تساءلت فجأة عما إذا كان قد وقع في حب ربيكا، إذ بدا صوته هو الصوت نفسه الذي كنت سأستخدمه لو أنني مكانه، لو كان الأمر صحيحًا. فتحت هذه الفكرة مجالاً جديداً من الاحتمالات. نظرًا إلى كون فرانك كرولي خجولاً ومملاً إلى هذا الحد، لم يكن ليخبر أحداً قط، ولا سيما ربيكا.

قلت:

- أخشى أنني لن أكون ذات جدوى كبيرة إذا أقمنا حفلاً راقصاً، فلا فائدة
تُرجى مني في تنظيم أي شيء.

قال:

- لن تكون هناك حاجة إلى أن تفعل أي شيء، كوني على طبيعتك فحسب،
واظهري بمظهر جذاب.

قلت:

- هذا لطف بالغ منك يا فرانك، لكنني أخشى أنني لن أتمكن من فعل أي
شيء من ذلك أيضاً على نحو جيد.

قال:

- أعتقد أنك ستفعلين ذلك بصورة ممتازة.
عزيزي فرانك كرولي، كم كان لبقاً ومراعياً للغير. كدت أصدقه، لكنه لم
يخدعني حقاً.

قلت:

- هل ستسأل ماكسيم عن الحفل الراقص؟

فأجاب:

- لماذا لا تسألينه أنت؟

قلت:

- لا، لا أحب أن أفعل ذلك.

حل علينا الصمت حينها، وواصلنا السير عبر الممر. والآن، بعد أن كسرت
ترديدي في النطق باسم ريبيكا، في البداية مع زوجة الأسقف والآن مع فرانك
كرولي، اشتدت داخلي الرغبة في الاستمرار في ذلك. منحني ذلك شعوراً غريباً
بالارتياح، وأثر فيّ كما يؤثر المنشط. عرفت أنني سأضطر إلى التفوه به مرة أخرى
في غضون لحظة أو اثنتين. قلت:

- كنت على أحد الشواطئ منذ عدة أيام، ذلك الذي به حاجز الأمواج، وأخذ

جاسبر يتصرف على نحو مستفز، وظل ينبح على ذلك الرجل المسكين الذي له عينان بلهاوان.

قال فرانك وصوته هادئ تمامًا الآن:

- دومًا ما يتسكع على ذلك الشاطئ. إنه شخص لطيف للغاية، ولا داعي إلى الخوف منه أبدًا، فهو غير مؤذٍ على الإطلاق.
قلت:

- أوه، لم أشعر بالخوف.

ثم انتظرت لحظة وأخذت أدندن لحنًا لأستمد الشعور بالثقة، وقلت بخفة:
- أخشى أن ذلك الكوخ في حالة من الخراب والتردي، فقد اضطرت إلى الدخول للبحث عن قطعة من الدوبارة أو شيء ما أربط به جاسبر. الخزف الصيني متعفن، والكتب معرضة للتلف. لماذا لا يُفعل شيء حيال ذلك؟ يبدو هذا مؤسفًا جدًا.

عرفت أنه لن يجيب على الفور، وانحنى ليربط حذاءه.

تظاهرت بتفحص ورقة على إحدى الشجيرات، وقال وهو لا يزال يعث بحذائه:
- أعتقد أن ماكسيم سيخبرني إذا أراد فعل أي شيء.

- هل كلها أشياء ربييكا؟

- نعم.

رميت ورقة الشجر بعيدًا وقطفت ورقة أخرى، وقلبتها في يدي.

سألته:

- فيم كانت تستخدم الكوخ؟ بدا مفروشًا تمامًا، على الرغم من أنني ظننت من الخارج أنه مستودع قارب فحسب.

بدا صوته متوترًا مرة أخرى ومحيرًا، كصوت شخص لا يشعر بالارتياح بشأن الموضوع الذي يتحدث عنه. قال:

- كان في الأصل مستودع قارب، ثم... ثم حوّلته هي على ذلك النحو، ووضعت به أثاثًا، وأواني خزفية.

ظننت أنه من الغريب تلك الطريقة التي أشار إليها بها، مستخدمًا كلمة «هي»، ولم يقل ربيكا أو السيدة دي وينتر، كما توقعت أن يفعل.

- هل كانت تستخدمه كثيرًا؟

- نعم، نعم كانت تفعل، للنزهات في ضوء القمر، و... ولشيء أو لآخر. عدنا نسير جنبًا إلى جنب مرة أخرى، وأنا لا أزال أذندن لحناً صغيرًا. قلت بابتهاج:

- ياله من أمر مبهج، لا بد أن النزهات في ضوء القمر ممتعة للغاية. هل سبق لك أن حضرتها؟

- مرة أو مرتين.

تظاهرت بأنني لم ألاحظ سلوكه، وكيف صار هادئًا للغاية، ومدى عزوفه عن الحديث عن هذه الأشياء.

قلت:

- لماذا توجد عوامة هناك في ذلك الميناء الصغير؟

قال:

- كان القارب يرسو هناك.

- أي قارب؟

- قاربها.

شعرت بنوع غريب من الإثارة، وكان عليّ أن أواصل أسئلتي. لم يكن يريد الحديث عن الأمر، وكنت أعرف ذلك، لكن على الرغم من إشفافي عليه وصدمتي من نفسي، فإنه كان عليّ الاستمرار، ولم أستطع التزام الصمت.

قلت:

- ماذا حدث له؟ هل كان هذا هو القارب الذي أبحرت به عندما غرقت؟

قال بهدوء:

- نعم، انقلب وغرق، وسقطت هي في البحر.

- ماذا كان حجم القارب؟

- ثلاثة أطنان تقريبًا، وكان به قمرة صغيرة.

- وما الذي جعله ينقلب؟

- يمكن أن يكون الخليج عاصفًا للغاية.

فكرت في ذلك البحر الأخضر المرقط بالزبد الذي يجري في اتجاه القناة وراء الرأس البحري. تساءلت، هل أتت الريح فجأة في عاصفة قادمة من عند الفنار على التل، وهل مال القارب الصغير أمامها وارتجف، والشرع الأبيض مُستوفٍ في مواجهة البحر الهائج؟

- ألم يتمكن أحد من الوصول إليها؟

- لم يرَ أحد الحادث، ولم يعلم أحد أنها ذهبت.

حرصت بشدة على ألا أنظر إليه، إذ ربما يتمكن من رؤية المفاجأة على وجهي. لطالما ظننت أن الحادث وقع خلال سباق للإبحار، وأنه كانت توجد قوارب أخرى، تلك القوارب من كيريث، وأن الناس كانوا يراقبون من فوق الجروف الصخرية. لم أعرف أنها كانت وحدها، وحيدة تمامًا، هناك في الخليج. قلت:

- لا بد أنهم كانوا يعرفون في المنزل!

- لا، كثيرًا ما كانت تخرج وحدها هكذا، وتعود في أي وقت من الليل، وتنام في الكوخ على الشاطئ.

- ألم تشعر بالقلق؟

- قلق؟ لم تكن تشعر بالقلق من أي شيء.

- هل ... هل كان ماكسيم يمانع ذهابها وحدها هكذا؟

انتظر لحظة، ثم قال باقتضاب:

- لا أدري.

تشكل لديّ انطباع بأنه ملتزم بالولاء لشخص ما: إما ماكسيم، أو ريبيكا، أو ربما حتى لنفسه. بدا غريب الطباع، ولم أعرف كيف أفسر الأمر.

- لا بد أنها غرقت إذن، وهي تحاول السباحة إلى الشاطئ، بعد غرق القارب؟

- نعم.

كنت أعرف كيف سير تجف القارب الصغير ويغرق، ويتدفق الماء في قمرة القيادة، وكيف ستضغط عليها الأشعة فجأة بشكل مرعب، في تلك العاصفة من الريح. لا بد أن الظلام كان مطبقاً بشدة هناك في الخليج، ولا بد أن الشاطئ بدا بعيداً للغاية، بالنسبة إلى أي شخص يسبح هناك في الماء.

- كم مضى من الوقت قبل أن يعثروا عليها؟

- شهران تقريباً.

شهران. ظننت أن الغرقى يُعثر عليهم بعد يومين، واعتقدت أن الموج سيحملهم قريباً من الشاطئ عندما يأتي المد.

- أين عثروا عليها؟

- بالقرب من إيدجكوم، على بُعد أربعين ميلاً تقريباً أعلى القناة.

سبق أن قضيت عطلة في إيدجكوم ذات مرة، وأنا في السابعة من عمري. كان مكاناً كبيراً به رصيف ميناء وحمير، وتذكرت ركوب حمار عبر الرمال. قلت:

- كيف عرفوا أنها هي، بعد شهرين، كيف ميزوا ذلك؟

تساءلت عن سبب توقفه قبل كل جملة، كما لو أنه يزن كلماته. هل كان يكن لها مشاعر إذن، وهل يهتم كثيراً؟ قال:

- ذهب ماكسيم إلى إيدجكوم للتعرف عليها.

فجأة، لم أعد أرغب في طرح مزيد من الأسئلة عليه. شعرت بالاشمئزاز من نفسي، الاشمئزاز والتقزز. بدوت أشبه بمشاهد فضولي يقف على هامش حشد من الناس، بعد سقوط أحدهم أرضاً، أو مثل شخص فقير في بناية سكنية، يسأل عقب موت شخص ما، إذا كانت في وسعه رؤية الجثة. كرهت نفسي، وكانت أسئلتي مهينة ومخزية، ولا بد أن فرانك كرولي احتقرني.

قلت بسرعة:

- لقد كان وقتًا عصيبًا لكم جميعًا، ولا أعتقد أنك تحب أن تتذكر ذلك. تساءلت فحسب عما إذا كان هناك شيء يمكن للمرء عمله بشأن الكوخ، هذا كل ما في الأمر. يبدو من المؤسف جدًا، كل ذلك الأثاث الذي أتلفته الرطوبة.

لم يقل شيئًا، وشعرت بالحر وعدم الارتياح. لا بد أنه شعر بأن القلق على الكوخ الخالي لم يكن هو ما دفعني إلى طرح كل هذه الأسئلة، والتزم الصمت الآن لأنه صُدم مني. كانت صداقتنا مريحة ووطيدة، وشعرت بأنه حليف لي، لكن ربما دمرت كل ذلك، ولن يحمل لي الشعور نفسه مرة أخرى. قلت:

- يا له من ممر طويل، دائمًا ما يذكّرني بطريق في غابة في إحدى الحكايات الخيالية للأخوين جريم، حيث يضل الأمير الطريق، كما تعلم. إنه أطول مما يتوقع المرء دائمًا، والأشجار مظلمة ومتقاربة من بعضها. - نعم، إنه استثنائي في الواقع.

لكنني ميزت من سلوكه أنه لم يتخلّ عن حذره بعد، كأنه ينتظر سؤالًا آخر مني. نما بيننا حرج لا يمكن تجاهله، وكان لا بد من فعل شيء حيال ذلك، حتى لو غمرني ذلك بالخزي. قلت بيأس:

- فرانك، أعرف ما تفكر فيه، وأنت لا تفهم لماذا طرحت كل هذه الأسئلة الآن. أنت تعتقد أنني بشعة وفضولية على نحو بغیض، لكنني أعدك بأن الأمر ليس كذلك. كل ما في الأمر هو... هو أنني أشعر أحيانًا بأنني في موقف ضعيف. كل شيء في غاية الغرابة بالنسبة إليّ، وأنا أعيش هنا في ماندرلي، فهذه ليست نوعية الحياة التي نشأت عليها. عندما أذهب لرد هذه الزيارات، كما فعلت عصر اليوم، أعرف أن الناس يتفحصونني من قمة رأسي حتى أخمص قدمي، ويتساءلون عما إذا كنت سأنجح. أستطيع أن أتخيلهم وهم يقولون: «ما الذي يراه ماكسيم فيها، بحق السماء؟»، وبعد ذلك يا فرانك،

أشرع في التساؤل أنا أيضًا، وأبدأ في التشكك، ويطاردني شعور مخيف بأنني ما كان يجب عليّ الزواج بماكسيم أبدًا، وأنا لن ننعم بالسعادة. كما ترى، فأنا أعلم طوال الوقت، كلما التقيت أي شخص جديد، أنهم جميعًا يفكرون في الشيء نفسه: كم تختلف عن ربيكا.

توقفت لاهثة، وبدأت أحس بالخجل بالفعل من اندفاعتي هذه، وشعرت بأنني أحرقت الآن جميع قواربي على أي حال. التفت نحوي وهو يبدو قلقًا ومضطربًا بشدة.

قال:

- يا سيدة دي ويتتر، أرجوك لا تفكري في ذلك. من جهتي، لا أستطيع أن أخبرك كم أنا سعيد لزواجك بماكسيم، حيث سيحدث ذلك فارقًا كبيرًا في حياته وأنا متأكد أنك ستحققين نجاحًا كبيرًا. في رأيي إنه لأمر منعش وساحر للغاية أن يجد المرء شخصًا مثلك ليس... همم...

تخضب وجهه وهو يبحث عن كلمة ملائمة، ثم تابع:

- دعينا نقل ليس مطلقًا تمامًا على العادات في ماندرلي. وإذا أعطاك الناس هنا انطباعًا بأنهم يتقدونك، فهذا... حسنًا... هذا وقاحة بالغة منهم، هذا كل ما في الأمر. لم أسمع أي كلمة انتقاد قط، وإذا حدث فسوف أحرص بشدة على ألا يتكرر ذلك أبدًا.

قلت:

- هذا لطف بالغ منك يا فرانك، وما تقوله يمثل عونًا كبيرًا. أعتقد أنني كنت حمقاء جدًّا، فأنا لا أجيد مقابلة الناس، إذ لم أضطر إلى ذلك من قبل، وطوال الوقت، أتذكر كيف... كيف كانت الأمور في ماندرلي من قبل، في وجود شخص وُلد وترعرع على ذلك، وفعل هذا بشكل طبيعي ومن دون جهد. وفي كل يوم، أدرك الأشياء التي أفقدها: الثقة، والكياسة، والجمال، والذكاء، والفطنة - أوه، كل الصفات الأكثر أهمية في المرأة - التي كانت تمتلكها هي. وهذا لا يساعد يا فرانك، لا يساعد.

لم يقل شيئاً، بل ظل بادي القلق والحزن. أخرج منديله ومسح أنفه، وقال:
- يجب ألا تقولي ذلك.
قلت:

- ولمَ لا؟ إنها الحقيقة.

- إنك تتمتعين بصفات لا تقل أهمية، بل هي أشد أهمية بكثير في الواقع. ربما كانت وقاحة مني أن أقول هذا، فأنا لا أعرفك جيداً. أنا عازب، لا أعرف الكثير عن النساء، وأعيش حياة هادئة هنا في ماندرلي، كما تعلمين، لكن يجب أن أقول إن اللطف، والإخلاص، والحياء - إذا جاز لي القول - أهم بكثير بالنسبة إلى الرجل وإلى الزوج من كل الفطنة والجمال في العالم. بدا منفِعاً للغاية، ومسح أنفه مرة أخرى. رأيت أنني أزعجته أكثر بكثير مما أزعجت نفسي، ومنحني إدراكي لذلك شعوراً بالهدوء والتفوق، وتساءلت لمَ يكبر الموضوع إلى هذا الحد، ففي النهاية، لم أقل الكثير، بل اعترفت فقط بشعوري بعدم الأمان، نظراً إلى كوني أتييت بعد ريببكا. ولا بد أنها كانت تتمتع بهذه الصفات التي قدمها بوصفها تميزني. لا بد أنها كانت لطيفة وصادقة مع كل أصدقائها، بشعبيتها اللامحدودة. لكنني لم أكن متأكدة مما يقصده بالحياء، إذ كانت كلمة لم أفهمها على الإطلاق. لطالما تخيلت أنها تتعلق بالحرص على عدم الالتقاء بالناس في ممر وهم في طريقهم إلى الحمام... يا لفرانك المسكين. وقد وصفته بياتريس بأنه رجل ممل، ليس لديه ما يقوله أبداً.

قلت وأنا أشعر بالحرج نوعاً ما:

- حسناً، لا أدري عن ذلك، فلا أعتقد أنني لطيفة جداً، ولا صادقة على وجه الخصوص، أما بالنسبة إلى كوني أتمتع بالحياء، فلا أعتقد أن الفرصة سنحت لي لأتصرف على أي نحو آخر. وبالطبع، لم يكن من الحياء في شيء أن نتزوج بسرعة على هذا النحو في مونت كارلو، وأن نكون وحدنا في ذلك الفندق قبلها، لكن ربما لم تضع ذلك في حسابك؟
قال بصوت خفيض:

- يا عزيزتي السيدة دي وينتر، هل تعتقدين أنني تخيلت ولو لحظة واحدة أن لقاء كما هناك لم يكن لائقًا تمامًا؟
قلت بجدية:

- لا، بالطبع لا.

العزیز فرانك، أعتقد أنني تسببت له في الشعور بالصدمة. ويا له من تعبير يليق بفرانك: «لائق تمامًا».

كان ذلك يدفع المرء على الفور إلى التفكير في نوعية الأشياء التي قد تحدث، والتي ليست لائقة تمامًا.

شرح يقول:

- أنا متأكد...

ثم تردد، ولا يزال الاضطراب بادياً على ملامحه، قبل أن يتابع:
- أنا متأكد أن ماكسيم سيكون قلقًا للغاية، وحزينًا بشدة، إذا عرف شعورك هذا. لا أعتقد أنه يمكن أن تكون لديه أي فكرة عن ذلك.

قلت على عجل:

- هل ستخبره؟

- لا، بالطبع لا، أي نوع من الأشخاص تظنينني؟ لكن كما ترين يا سيدة دي وينتر، فأنا أعرف ماكسيم جيدًا جدًا، وقد رأيته وهو يمر بكثير من... الحالات المزاجية. وإذا اعتقد أنك قلقة بشأن... حسنًا، بشأن الماضي، فسيؤلمه ذلك أكثر من أي شيء آخر على وجه الأرض. يمكنني أن أؤكد لك هذا. إنه يبدو في حالة طيبة للغاية، وفي لياقة جيدة، لكن السيدة لاسي كانت محقة تمامًا يومها، حينما قالت إنه كان على مشارف الانهيار العصبي العام الماضي، على الرغم من أنه لم يكن من اللباقة أن تقول ذلك أمامه. لهذا فأنت مفيدة جدًا له: فأنت نضرة وشابة... وعاقلة، ولا علاقة لك بكل ذلك الزمن الماضي. فلتنسي الأمر يا سيدة دي وينتر، انسيه كما فعل هو، حمدًا للرب، وكما فعل بقيتنا. لا أحد منا يريد إعادة الماضي، ولا سيما

ماكسيم. والأمر متروك لك، كما تعلمين، لتقودينا بعيداً عنه، ولا تعيدنا إلى هناك أبداً.

كان على حق، بالطبع كان على حق. عزيزي الطيب فرانك، صديقي، وحليفي. كنت أنانية، ومفرطة الحساسية، وضحية لعقدة النقص التي أعانيها. قلت:

- كان يجب أن أخبرك بكل هذا من قبل.

- أتمنى لو أنك فعلت، فربماجنبك ذلك بعض القلق.

- أشعر بأنني أسعد، أسعد كثيراً، وأنت صديقي مهما حدث، أليس كذلك يا فرانك؟

- بلى، بالتأكيد.

خرجنا من الممر المظلم المحاط بالأشجار، إلى النور مرة أخرى، وأحاطت بنا شجيرات الرودودندرون. سرعان ما سيتهيأ أوانها، وقد بدت متفتحة بدرجة زائدة على الحد بالفعل، وباهتة بعض الشيء. وفي الشهر المقبل، ستتساقط البتلات واحدة تلو واحدة من الوجوه الضخمة، وسيأتي البستانيون ويكنسونها بعيداً. كان جمالها مؤقتاً، لا يدوم طويلاً.

قلت:

- فرانك، قبل أن نضع حداً لهذه المحادثة إلى الأبد، هل تعد بأن تجيبني عن شيء واحد، بصراحة تامة؟

وقف وهو ينظر إليّ بشيء من الريبة، وقال:

- هذا ليس عدلاً تماماً، فربما تسأليني شيئاً لا أستطيع الإجابة عنه، شيئاً مستحيلاً تماماً.

- لا، إنه ليس من ذلك النوع من الأسئلة. إنه ليس حميمياً أو شخصياً، أو أي شيء من هذا القبيل.

- حسناً، سأبذل قصارى جهدي.

دربنا حول منعطف الممر، وظهر ماندرلي أمامنا، ساكناً وهادئاً وسط المروج المرتفعة حوله، وفاجأني كما يفعل دائماً بتناسقه المثالي وجماله وبساطته الفائقة.

التمتع ضوء الشمس على النوافذ المقسمة، وبدا وهج ناعم بلون الصداً على
الجدران الحجرية حيث تشبثت الأشنة، وتصاعد عمود رفيع من الدخان من
مدخنة المكتبة. قضمت ظفر إبهامي، وراقبت فرانك من طرف عيني.

قلت بنبرة عفوية، كما لو أنني لا أهتم على الإطلاق:

- أخبرني، هل كانت ريبكا جميلة جداً؟

انتظر فرانك للحظة، ولم أتمكن من رؤية وجهه، إذ كان ينظر بعيداً عني في
اتجاه المنزل. قال ببطء:

- نعم، نعم، أعتقد أنها كانت أجمل مخلوق رأيته في حياتي.

صعدنا الدرج، ثم دخلنا الردهة، وقرعت الجرس لطلب الشاي.

لم أرَ السيدة دانفرز كثيرًا، وقد حافظت هي على عزلتها بدرجة كبيرة. واطبّت على الاتصال من خلال الهاتف المنزلي في غرفة الجلوس الصباحية كل يوم، وقدمت لي قائمة الطعام كمسألة شكلية، لكن كان هذا هو أقصى تواصل بيننا. وظفّت خادمة لي، كلاريس، ابنة أحد العاملين في العزبة، وهي فتاة لطيفة وهادئة ومهذبة لم يسبق لها العمل بالخدمة من قبل، حمداً للرب، لذا لم تكن لديها أي معايير مخيفة. أعتقد أنها كانت الشخص الوحيد في المنزل الذي أحس بالرهبة حيالي. بالنسبة إليها، كنت سيدة المنزل: كنت السيدة دي وينتر، ولا يمكن أن تؤثر فيها الثروة المحتملة للآخرين. بقيت بعيداً فترة من الوقت، وترعرعت على يد عمة لها على بُعد خمسة عشر ميلاً، وبطريقة ما كانت جديدة في ماندري مثلما كنت أنا. شعرت بالارتياح معها، ولم أمانع القول: «أوه، كلاريس، هلاً رتقت لي جوربي؟».

كانت خادمة المنزل أليس متعالية جداً، واعتدتُ إخراج قميصي الداخلي وملابس نومي من درجي في الخفاء لرتقتها بنفسني بدلاً من أن أطلب منها ذلك. رأيته ذات مرة وأحد قمصاني الداخلية على ذراعها، وهي تتفحص النسيج البسيط بحافته الصغيرة من الدانتيل. لن أنسى أبداً التعبير المرتسم على وجهها، إذ كادت تبدو مصدومة، كأن كرامتها الشخصية تلقت ضربة. لم يسبق أن فكرت في ملابس الداخلية من قبل. ما دامت نظيفة وأنيقة، لم أعتقد أن الخامة أو وجود الدانتيل أمر ذو أهمية. كانت العرائس اللاتي يقرأ عنهن المرء يمتلكن جهازاً،

يحتوي عشرات الأطقم الداخلية في وقت واحد، في حين لم أكتث لذلك على الإطلاق، لكن وجه أليس لقنني درسًا. كتبت بسرعة إلى متجر في لندن، وطلبت دليلًا مصورًا للملابس الداخلية، لكن عندما حسمت خيارى لم تعد أليس تعمل على خدمتي، وأتت كلاريس بدلًا منها. بدا شراء ملابس داخلية جديدة من أجل كلاريس بمنزلة إسراف كبير، فوضعت الدليل المصور في أحد الأدراج، ولم أكتب إلى المتجر مرة أخرى في نهاية المطاف.

كثيرًا ما تساءلت عما إذا أخبرت أليس الأخريات، وما إذا صارت ملابسي الداخلية موضوع نقاش في قاعة الخدم: أمر مروع إلى حدٍّ ما، يُناقش بنبرات منخفضة في غياب الرجال. كانت أكثر تعاليًا من أن يتحول الأمر إلى مسألة للمزاح. لن تتبادل هي وفريث أبدًا، على سبيل المثال، عبارات من نوعية «يا له من قميص داخلي».

لا، بل كان موضوع ملابسي الداخلية أكثر جدية من ذلك. بدا أشبه بقضية طلاق نُظرت في غرفة المداولة... على أي حال، سررت عندما سلمتني أليس إلى كلاريس. لن تميز كلاريس أبدًا ما بين الدانتيل الحقيقي والزائف، وكان لطفًا من السيدة دانفرز أن توظفها. لا بد أنها اعتقدت أننا سنشكل رفقة ملائمة لبعضنا. والآن بعد أن عرفت سبب كراهية السيدة دانفرز واستيائها، سهل ذلك الأمور بالنسبة إليّ بعض الشيء، إذ علمت أنها لا تكرهني أنا شخصيًا فحسب، بل ما أمثله.

كانت ستحمل المشاعر نفسها تجاه أي شخص يحل محل ريبिका. على الأقل، هذا ما فهمته من بياتريس يوم جاءت لتناول الغداء.

قالت:

- ألا تعرفين؟ ببساطة، كانت تعشق ريبिका.

صدمتني الكلمات حينها، وبطريقة ما لم أتوقعها. لكن عندما فكرت في الأمر، بدأت أفقد خوفاً المبدئي من السيدة دانفرز، وبدأت أشعر بالشفقة حيالها، وتخيلت شعورها. لا بد أن الأمر كان مؤلمًا بالنسبة إليها، في كل مرة

تسمع فيها أحدهم يناديني «السيدة دي ويتتر». في كل صباح، عندما ترفع سماعة الهاتف المنزلي وتحدث إليّ، وأجيبها «نعم يا سيدة دانفرز»، لا بد أنها تفكر في صوت آخر. وعندما تمر عبر الغرف وترى آثار في المكان: قلنسوة على مقعد بجوار النافذة، أو كيسًا على أحد الكراسي يحوي أغراض الحياكة، لا بد أنها كانت تفكر في شخص آخر قام بهذه الأشياء من قبل، كما كنت أفعل أنا أيضًا، على الرغم من أنني لم أعرف ريبكا قط. عرفت السيدة دانفرز كيف كانت تمشي، وكيف كانت تتحدث. كما عرفت السيدة دانفرز لون عينيها، وابتسامتها، وملبس شعرها. لم أعرف أنا أيًا من هذه الأشياء، ولم أسأل عنها قط، لكن في بعض الأحيان كنت أشعر بأن ريبكا حقيقية بالنسبة إليّ مثلما كانت حقيقية بالنسبة إلى السيدة دانفرز.

قال لي فرانك أن أنسى الماضي، وأردت نسيانه بالفعل. لكن فرانك لم يكن مضطرًا إلى البقاء في غرفة الجلوس الصباحية كل يوم مثلي، ولمس القلم الذي حملته بين أصابعها. لم يكن مضطرًا إلى وضع يديه على ورقة النشاف، والتحديث أمامه إلى كتابتها على صناديق الرسائل. لم يكن مضطرًا إلى النظر إلى الشمعدانات الموجودة على رف المدفأة، والساعة، والمزهريات التي تضم الزهور، والصور على الجدران، وأن يتذكر كل يوم أنها تخصها، وأنها اختارتها، وأنها ليست لي على الإطلاق. لم يكن فرانك مضطرًا إلى الجلوس في مكانها بغرفة الطعام، والإمساك بالشوكة والسكين اللتين أمسكتهما، والشرب من كأسها. كما لم يُحِط كتفيه بمعطف كان ملكًا لها، ولم يجد منديلها في جيبه. ولم يلاحظ، كما لاحظت كل يوم، النظرة العمياء للكلبة العجوز في سلتها بالمكتبة، التي كانت ترفع رأسها عند سماع وقع خطاي، خطي امرأة، ثم تتشمم الهواء وتنزل رأسها مرة أخرى لأنني لم أكن تلك التي تنشدها.

تبدو تلك الأشياء صغيرة وبلا معنى وتافهة في حد ذاتها، لكنها كانت موجودة أمامي كي أراها وأسمعها، وأشعر بها. رباه، لم أرغب في التفكير في ريبكا.

أردت أن أنعم بالسعادة، وأن أسعد ماكسيم، وأردت أن نكون معًا. لم تكن في قلبي أمنية أخرى سوى ذلك. لم يكن الأمر بيدي، كونها تشغل أفكاري وتزور أحلامي. ولم يسعني سوى الشعور بأنني ضيفة في ماندرلي، في منزلي، وأنا أسير حيث سارت، وأستريح حيث رقدت. كنت مثل ضيفة، أمضي الوقت، في انتظار عودة المضيقة، وعبارات بسيطة، أشبه بالتوبيخ البسيط، تذكّرني بالأمر كل ساعة، وكل يوم.

دخلت المكتبة صباح أحد أيام الصيف، وذراعي ممتلئتان بزهور الليلك، وقلت:

- فريث، فريث أين يمكنني العثور على مزهرية طويلة لهذه؟ فجميعها في غرفة الزهور أصغر مما يجب.

- المزهرية البيضاء المصنوعة من المرمر، والموجودة في غرفة الاستقبال، دائمًا ما كانت تُستخدم لزهور الليلك يا سيدتي.

- أوه، ألن تتلف؟ قد تنكسر.

- دائمًا ما كانت السيدة دي وينتر تستخدم المزهرية المصنوعة من المرمر يا سيدتي.

- أوه، أوه فهمت.

بعد ذلك، جُلبت إليّ المزهرية المرمرية، وهي ممتلئة بالماء بالفعل، وبينما وضعت زهور الليلك العذبة في المزهرية، ورتبت الأفرع واحدًا تلو واحد، ملأت الرائحة البنفسجية الدافئة الغرفة، وامتزجت مع رائحة العشب الذي جُز حديثًا، التي انبعثت من النافذة المفتوحة، وفكرت: «كانت ريبيكا تفعل هذا. أخذت الليلك، كما أفعل أنا، ووضعت الأفرع واحدًا تلو واحد في المزهرية البيضاء. أنا لست أول من يفعل ذلك. هذه مزهرية ريبيكا، وهذه زهور ليلك ريبيكا». لا بد أنها تجولت في الحديقة كما فعلت أنا، مرتدية قبعة الحديقة العريضة تلك التي رأيتها ذات مرة في مؤخرة الخزانة في غرفة الزهور، مختفية تحت بعض الوسائد القديمة. عبرت الممرج في اتجاه شجيرات الليلك، وربما

كانت تصفر أو تدندن لحناً، وتنادي الكلبين كي يتبعها وهي تحمل في يديها المقص الذي أحمله الآن.

- فريث، هل يمكنك نقل حامل الكتب من على الطاولة الموجودة قرب النافذة، كي أضع الليلك هناك؟

- دائماً ما كانت السيدة دي وينتر تضع المزهريّة المرمرية على الطاولة خلف الأريكة يا سيدتي.

- أوه، حسناً...

ترددت والمزهريّة بين يديّ، وظل وجه فريث بلا تعبير. سيطيعني بالطبع إذا قلت إنني أفضل وضع المزهريّة على الطاولة الصغيرة بجوار النافذة، وسيحرك حامل الكتب على الفور.

قلت:

- حسناً، ربما تبدو أفضل على الطاولة الأكبر.

ووقفت المزهريّة المرمرية، كما كانت دائماً، على الطاولة خلف الأريكة... تذكرت بياتريس وعدها بتقديم هدية زفاف. وصل طرد كبير ذات صباح، أكبر من أن يحمله روبرت تقريباً. كنتُ في غرفة الجلوس الصباحية، وقد انتهيت للتوّ من قراءة قائمة الطعام لذلك اليوم. لطالما تمتعت بحبّ طفولي للطرود. قصصت الخيط بحماس، ومزقت الورق البني الداكن. بدت الهدية كأنها كتب، وكنت محقة، إذ كانت كتباً بالفعل. أربعة مجلدات ضخمة: «تاريخ الرسم». كانت هناك ورقة من دفتر ملاحظات في المجلد الأول، كُتِب عليها: «أمل أن يكون هذا هو نوع الأشياء التي تفضلينها»، وكانت موقّعة: «مع محبتي، من بياتريس». تخيلتها تذهب إلى المتجر في شارع ويجمور وتشتريها. ستلتفت حولها بطريقتها الحادة الذكورية نوعاً ما، وتقول: «أريد مجموعة من الكتب لشخص مهتم بالفن»، وسيجيبها البائع: «نعم يا سيدتي، تعالي من هنا». ستتحسس المجلدات بشيء من الشك، وتقول: «أجل، هذا هو السعر تقريباً. إنها هدية زفاف، أريدها أن تبدو بمظهر جيد. هل كل هذه الكتب عن الفن؟». سيقول البائع: «نعم، هذه هي

الكتب المعتادة عن الموضوع». ولا بد أن بياتريس كتبت رسالتها حينها، ودفعت الفاتورة، وأعطت العنوان: «السيدة دي وينتر، ماندرلي».

كان ذلك لطفًا من بياتريس. بدا هناك شيء صادق ويحرك المشاعر في ذهابها إلى متجر في لندن كي تشتري لي هذه الكتب، لأنها تعلم أنني أحب الرسم. تخيلتني، على ما أعتقد، جالسة في يوم ممطر، أطلع الرسوم التوضيحية بجدية، وربما أ جلب ورقة رسم وعلبة ألوان، وأنسخ إحدى الصور. العزيزة بياتريس. انتابني رغبة حمقاء مفاجئة في البكاء. حملتُ المجلدات الثقيلة، وبحثت عن مكان لوضعها في غرفة الجلوس الصباحية. بدا وجودها غير ملائم في تلك الغرفة الرقيقة المليئة بأشياء قابلة للكسر. لكن لا يهم، ففي النهاية، صارت هذه غرفتي الآن. رتبت الكتب في صف على سطح المكتب، فتأرجحت على نحو خطير، ومال أحدها على الآخر. تراجعْتُ إلى الخلف بعض الشيء لأرى المنظر، لكن ربما تحركت بسرعة زائدة على الحد، وقلبتُها. على أي حال، سقط الأول، وانزلقت الكتب الأخرى من بعده، فقلبتُ تمثالًا خزفيًا صغيرًا لكيوبيد، وقف على المكتب وحده حتى هذه اللحظة، باستثناء الشمعدانات. سقط على الأرض، واصطدم في طريقه بسلة المهملات، وانكسر إلى شظايا. ألقيت نظرة خاطفة نحو الباب، مثل طفل مذنب، ثم جثوت على الأرض ورفعت القطع في يدي، وعثرت على ظرف لأضعها بداخله. أخفيت الظرف في الجزء الخلفي من أحد أدراج المكتب، ثم أخذت الكتب إلى المكتبة، ووجدت لها مكانًا على الأرفف.

ضحك ماكسيم عندما أريتها له بفخر.

قال:

- العزيزة بي، لا بد أنك حظيت بالقبول لديها، فهي لا تفتح كتابًا أبدًا، إذا كان في وسعها ذلك.

سألته:

- هل قالت شيئًا عن... حسنًا، عن رأيها في؟

- يوم أتت لتناول الغداء؟ لا، لا أعتقد ذلك.

- ظننت أنها قد تكون كتبت رسالة أو شيئاً من هذا القبيل.

قال ماكسيم:

- أنا وبياتريس لا نتراسل ما لم يكن هناك حدث كبير في الأسرة. إن كتابة

الرسائل مضيعة للوقت.

افترضت أنني لم أكن حدثاً كبيراً. ومع ذلك، إذا كنت بياتريس، وكان لي أخ وتزوج، فمن المؤكد أنني كنت سأقول شيئاً، أو أبدي رأيي، أو أكتب بضع كلمات؟ ما لم أكن، بالطبع، قد شعرت بالنفور من الزوجة، أو ظننت أنها غير ملائمة. حينها سيصبح الأمر مختلفاً، بالتأكيد. ومع ذلك، تجشمت بياتريس العناية للذهاب إلى لندن وشراء الكتب من أجلي، ولم تكن لتفعل ذلك لو أنها أحست بالنفور مني.

في اليوم التالي، أذكر أن فريث جلب القهوة إلى المكتبة بعد الغداء، وانتظر لحظة وهو يحوم خلف ماكسيم، وقال:

- هل يمكنني التحدث إليك يا سيدي؟

رفع ماكسيم عينيه عن صحيفته.

قال وهو مندهش نوعاً ما:

- نعم يا فريث، ما الخطب؟

ارتسم على وجه فريث تعبير صارم جامد، وزم شفثيه، فظننت على الفور أن زوجته تُوفيت.

- الأمر بخصوص روبرت يا سيدي، فقد وقع خلاف بسيط بينه وبين السيدة دانفرز، وروبرت مستاء جداً.

نظر إليَّ ماكسيم ولوى قسماته، وقال:

- أوه، يا إلهي.

انحنيت لأداعب جاسبر، وهي عادتي الثابتة في لحظات الحرج.

- أجل يا سيدي. يبدو أن السيدة دانفرز اتهمت روبرت بإخفاء زينة ثمينة

من غرفة الجلوس الصباحية. من مهام روبرت جلب الزهور إلى غرفة الجلوس الصباحية، ووضع المزهريات. وقد دخلت السيدة دانفرز الغرفة هذا الصباح بعد الانتهاء من وضع الزهور، ولاحظت أن إحدى الزينات مفقودة. قالت إنها كانت موجودة بالأمس، واتهمت روبرت إما بأخذ الزينة، وإما بكسرها وإخفاء الكسر. أنكر روبرت كلا الاتهامين بصورة قاطعة، وجاءني وهو على مشارف الدموع يا سيدي. ربما لاحظت أنه لم يكن على طبيعته وقت الغداء.

تمتم ماكسيم:

- تسألت لماذا ناولني شرائح اللحم من دون أن يعطيني طبقًا. لم أعرف أن روبرت حساس إلى هذه الدرجة. حسنًا، أعتقد أن شخصًا آخر فعل ذلك. إحدى الخادومات.

- لا يا سيدي. دخلت السيدة دانفرز الغرفة قبل أن تنظفها الفتاة. ولم يدخل أحد هناك منذ سيدتي بالأمس، ثم روبرت ومعه الزهور أول شيء في الصباح. هذا يجعل الوضع مزعجًا جدًا بالنسبة إلى روبرت وإليَّ يا سيدي. - نعم، بالطبع. حسنًا، من الأفضل أن تطلب من السيدة دانفرز أن تأتي إلى هنا، وسنكتشف حقيقة هذا الأمر. أي زينة كانت، على أي حال؟

- تمثال كيوييد الخزفي يا سيدي، الموضوع فوق طاولة الكتابة. - أوه! أوه، رباه، هذا أحد كنوزنا، أليس كذلك؟ يجب العثور عليه. أحضر السيدة دانفرز في الحال. - حسنًا يا سيدي.

غادر فريث الغرفة، وصرنا وحدنا مرة أخرى. قال ماكسيم: - يا لها من مشكلة لعينة! إن تمثال كيوييد هذا يساوي الكثير جدًا. وكم أكره خلافات الخدم أيضًا. أتساءل لماذا أتوا إليَّ أنا بخصوص هذا الأمر، فهذه مهمتك يا عزيزتي.

رفعت عيني عن جاسبر، ووجهي أحمر كاللهب، وقلت:

- حبيبي، كنت أنوي إخبارك من قبل، لكن... لكنني نسيت. الحقيقة أنني كسرت تمثال كيوييد ذاك عندما كنت في غرفة الجلوس الصباحية بالأمس. - أنت كسرتة؟! حسنًا، لماذا لم تقولي هذا بحق الجحيم، حينما كان فريث هنا؟

- لا أدري، لم أرغب في ذلك. خشيت أن يعتقد أنني حمقاء. - سيعتقد أنك حمقاء بدرجة أشد كثيرًا الآن. ستضطرين إلى توضيح الأمر له وللسيدة دانفرز.

- أوه، لا، أرجوك يا ماكسيم، فلتخبرهما أنت، ودعني أصعد إلى الطابق العلوي.

- لا تكوني حمقاء صغيرة، سيعتقد أي شخص أنك تخشينهما. - أنا أخشاهما بالفعل. على الأقل، لا أخشاهما، لكن... انفتح الباب، وأدخل فريث السيدة دانفرز إلى الغرفة. نظرتُ إلى ماكسيم بقلق، فهز كتفيه، وهو نصف مستمتع ونصف غاضب. قال ماكسيم:

- الأمر برمته خطأ يا سيدة دانفرز. على ما يبدو، كسرت السيدة دي ويتتر تمثال كيوييد بنفسها، ونسيت أن تقول أي شيء. نظر إليّ الجميع، وبدا الأمر كأنني عدت طفلة مرة أخرى. كنت لا أزال أشعر بتخضُّب وجهي من أثر الشعور بالذنب، وراقبت السيدة دانفرز وأنا أقول: - أنا آسفة جدًا. لم أعتقد قطُّ أن روبرت سيقع في المتاعب. قالت السيدة دانفرز:

- هل يمكن ترميم الزينة يا سيدتي؟ لم يبدُ عليها الشعور بالاندهاش من كوني المذنبة، ونظرت إليّ بعينيها الداكنتين ووجهها الشبيه بجمجمة شاحبة، فشعرت بأنها كانت تعرف طوال الوقت أنني المسؤولة، واتهمت روبرت لترى ما إذا كنت سأتحلى بالشجاعة اللازمة للاعتراف.

قلت:

- أخشى أن ذلك غير ممكن، فقد تحطمت إلى قطع صغيرة.
قال ماكسيم:

- ماذا فعلتِ بالقطع؟

بدا الأمر أشبه بكوني سجينة، أدلي بشهادتي. لَكم بدت أفعالي تافهة ووضيعة،
حتى بالنسبة إليّ. قلت:

- وضعتها جميعًا داخل ظرف.

أشعل ماكسيم سيجارة، وقال بنبرة بدت مزيجًا من الشعور بالتسلية والحنق:
- حسنًا، ماذا فعلتِ بالظرف؟

قلت:

- وضعته في مؤخرة أحد أدراج المكتب.

قال ماكسيم:

- يبدو أن السيدة دي ويتتر ظنت أنك ستضعينها في السجن، أليس كذلك
يا سيدة دانفرز؟ ربما يمكنك العثور على الظرف، وإرسال القطع إلى لندن،
وإذا تحطمت بدرجة يتعذر إصلاحها، فلا حيلة في الأمر. حسنًا يا فريث،
قل لروبرت أن يجفف دموعه.

بقيت السيدة دانفرز عقب رحيل فريث، وقالت:

- سأعتذر إلى روبرت بالطبع، لكن الأدلة أشارت إليه بقوة. لم يخطر لي أن
السيدة دي ويتتر كسرت الزينة بنفسها. إذا وقع مثل هذا الأمر ثانية، فربما
تستطيع السيدة دي ويتتر إبلاغي شخصيًا، وسأتولى العناية بالموضوع.
سيوفر ذلك على الجميع كثيرًا من المشكلات.

قال ماكسيم بنفاد صبر:

- بالطبع. لا أدري لماذا لم تفعل ذلك بالأمر. كنت سأخبرها بذلك للتو،
عندما دخلتِ الغرفة.

أدارت السيدة دانفرز عينيها نحوي، وقالت:

- ربما لم تكن السيدة دي وينتر على دراية بقيمة الزينة.

قلت بنبرة بائسة:

- نعم، نعم خشيت أن تكون قيّمة، ولهذا جمعت القطع بعناية بالغة.

هز ماكسيم كتفيه، وضحك قائلاً:

- وأخفيتهما في مؤخرة درج، حيث لن يجدها أحد، أليس كذلك؟ أليس هذا

هو نوع الأفعال التي من المفترض أن تقدّم عليها الخادمة يا سيدة دانفرز؟

قالت السيدة دانفرز:

- لا يُسمَح أبداً للخادمة في ماندرلي بلمس الأشياء الثمينة في غرفة الجلوس

الصباحية يا سيدي.

قال ماكسيم:

- لا، لا أتخيل أنك ستدعينها تفعل ذلك.

قالت السيدة دانفرز:

- إنه أمر مؤسف جداً. لا أعتقد أن أي شيء انكسر في غرفة الجلوس الصباحية

من قبل، إذ كنا دائماً حريصين للغاية. توليت نفص الغبار هناك بنفسى منذ...

العام الماضى. لم يكن هناك أحد يمكننى الوثوق به. وعندما كانت السيدة

دي وينتر على قيد الحياة، اعتدنا تنظيف الأغراض الثمينة معاً.

قال ماكسيم:

- أجل، حسناً، لا حيلة لنا فى الأمر. حسناً يا سيدة دانفرز.

خرجت من الغرفة، وجلسْتُ على المقعد المجاور للنافذة، ونظرت من

النافذة. التقط ماكسيم صحيفته مرة أخرى، ولم يتحدث أيّ منا.

قلت بعد لحظة:

- آسفة جداً يا حبيبى، كان ذلك إهمالاً بالغاً منى، ولا أعرف كيف حدث

ذلك. كنت أرتب تلك الكتب على المكتب فحسب، لأرى ما إذا كانت

ستقف فى مكانها، فانزلق تمثال كيوبيد.

- يا طفلى العزيزة، فلتنسى ذلك. ماذا يهم فى الأمر؟

- بل بهم، كان عليّ توخي الحرص بدرجة أشد. لا بد أن السيدة دانفرز غاضبة مني بشدة.
- ولماذا تغضب، بحق الجحيم؟ إن تلك القطعة الخزفية ليست ملكًا لها.
- لا، لكنها تفتخر بشدة بكل ذلك. من الفطيع التفكير في أن شيئًا لم ينكسر هناك قط. أكان لا بد أن أكون أنا السبب؟
- من الأفضل أن تكوني أنت السبب، بدلًا من روبرت التعيس.
- أتمنى لو كان روبرت. لن تسامحني السيدة دانفرز أبدًا.
- قال ماكسيم:
- اللعنة على السيدة دانفرز! إنها ليست الرب، أليس كذلك؟ لا أفهمك. ما الذي تعنيه بقولك إنك تخافينها؟
- لم أقصد أنني أخافها تحديدًا، فأنا لا أراها كثيرًا. ليس هذا هو الأمر. لا أستطيع التوضيح حقًا.
- قال ماكسيم:
- إنك تفعلين أشياء غريبة للغاية. لا أتخيل أنك لم تناديهما عندما انكسر التمثال، ولم تقولي: «هاك يا سيدة دانفرز، أرسلني هذا ليتم إصلاحه». كانت ستفهم ذلك. بدلًا من هذا، جمعت القطع في ظرف، وأخفيتُها في مؤخرة درج، تمامًا مثل الخادمة كما قلت، وليس مثل سيدة المنزل.
- قلت بتأن:
- أنا أشبه الخادمة بالفعل. أعرف أنني كذلك، في كثير من النواحي. لهذا لدي الكثير من القواسم المشتركة مع كلاريس، ونحن على قدم المساواة. ولهذا السبب تميل إليّ. ذهبتُ إلى زيارة والدتها منذ عدة أيام، وهل تعلم ماذا قالت؟ سألتها ما إذا كانت تعتقد أن كلاريس سعيدة معنا، فقالت: «أوه، أجل يا سيدة دي ويتتر. تبدو كلاريس سعيدة جدًا. قالت: «إن الأمر لا يشبه الوجود مع سيدة يا أمي، بل يشبه الوجود مع واحدة منا»، هل تعتقد أنها كانت تعني هذا على سبيل المجاملة، أم لا؟

قال ماكسيم:

- الرب وحده يعلم. وفقًا لما أتذكره عن والدته كلاريس، ساعد ذلك إهانة مباشرة، حيث إن كوخها في حالة من الفوضى بشكل عام، ويعبق برائحة الكربن المسلووق. في وقت من الأوقات، كان لديها تسعة أطفال دون سن الحادية عشرة، واعتادت هي نفسها التجول في حديقته الصغيرة تلك وهي حافية القدمين، وترتدي جوربًا على رأسها. كدنا نعطيها إشعارًا بتقديم استقلالها من العمل. لا أتخيل السبب في كون كلاريس تبدو نظيفة ومهندمة على هذا النحو.

قلت وأنا أشعر بالضيق نوعًا ما:

- كانت تعيش مع إحدى عماتها. أعرف أن تنورتي المصنوعة من الفلانيل بها بقعة قدرة من الأمام، لكنني لم أسِر حافية القدمين قطُّ وأنا أرتدي جوربًا على رأسي.

عرفت الآن لماذا لم تزدِر كلاريس ملابسها الداخلية كما فعلت أليس. تابعت قائلة:

- ربما لهذا السبب أفضّل زيارة والدته كلاريس عن زيارة أشخاص مثل زوجة الأسقف. لم تذكر زوجة الأسقف قطُّ أنني مثل واحدة منهم.

قال ماكسيم:

- لا أعتقد أنها ستفعل، إذا ارتديت تلك التنورة القذرة عند الذهاب لزيارتها. قلت:

- بالطبع لم أرتدِ تنورتي القديمة عندما ذهبت لزيارتها، بل ارتديت فستانًا. وعلى أي حال، لا أكنُ كثيرًا من التقدير للناس الذين يحكمون على المرء تبعًا لملابسه.

قال ماكسيم:

- لا أعتقد أن زوجة الأسقف تكثر للملابس أبدًا، لكن ربما أصابته الدهشة نوعًا ما، إذا جلست على حافة مقعدك وأجبته قائلة «نعم» و«لا»،

مثل شخص يسعى لنيل وظيفة جديدة، وهو ما فعلته في المرة الوحيدة التي قمنا فيها برد زيارة معًا.

- لا حيلة لي في الشعور بالخجل.

- أعرف أن لا حيلة لك يا عزيزتي، لكنك لا تبذلين جهدًا للتغلب عليه.
قلت:

- أعتقد أن هذا غير منصف تمامًا، فأنا أحاول كل يوم، وفي كل مرة أخرج فيها أو أقابل شخصًا جديدًا. دائمًا ما أبذل جهدًا. أنت لا تفهم، فكل شيء على ما يرام بالنسبة إليك، وقد اعتدت أنت مثل هذا النوع من الأشياء، لكنني لم أنشأ على ذلك.
قال ماكسيم:

- هراء، إنها ليست مسألة تنشئة، على حد تعبيرك، بل مسألة تدريب. أعتقدين أنني أحب زيارة الناس؟ هذا الأمر يضجرني حد الموت، لكن لا مفر من فعله في هذه المنطقة.
قلت:

- نحن لا نتحدث عن الضجر، وليس هناك ما تخشاه في الشعور بالملل. لو أنني أشعر بالملل فحسب، لاختلف الأمر. أكره أن يتفحصني الناس من رأسي حتى قدمي كما لو أنني بقرة فازت بجائزة في إحدى المسابقات.
- من الذي يتفحصك من رأسك حتى قدميك؟
- كل الناس هنا. الجميع.

- وماذا يهم إذا فعلوا؟ فهذا يمنحهم بعض التسلية في الحياة.
- ولماذا يجب أن أكون أنا الشخص الذي يوفر التسلية، ويتلقى كل النقد؟
- لأن الحياة في ماندرلي هي الشيء الوحيد الذي يثير اهتمام أي شخص هنا.
- لا بد أنني بمنزلة خيبة أمل لهم إذن.
لم يرد ماكسيم، وواصل مطالعة صحيفته. كررت قائلة:
- لا بد أنني بمنزلة خيبة أمل لهم إذن.

ثم أضفت قائلة:

- أعتقد أن هذا هو سبب زواجك بي، إذ كنت تعلم جيدًا أنني مملة وهادئة وعديمة الخبرة، حتى لا تثور حولي أي شائعات أبدًا.

ألقي ماكسيم صحيفته أرضًا، ونهض عن مقعده قائلاً:

- ماذا تقصدين؟

بدا وجهه مكفهرًا وغريبًا، وصوته خشنًا، كما لو أنه ليس صوته على الإطلاق.

اتكأت على النافذة، وقلت:

- لا... لا أدري. لا أقصد شيئًا. لماذا تنظر إليّ على هذا النحو؟

- ما الذي تعرفينه عن أي شائعات هنا؟

أخافتنى الطريقة التي نظر إليّ بها، وقلت:

- لا أعرف شيئًا، لم أتفوّه بذلك إلا... إلا لأقول شيئًا ما فحسب. لا تنظر إليّ

هكذا. ماكسيم، ماذا قلت؟ ما الخطب؟

قال ببطء:

- مَنْ الذي تحدث معك؟

- لا أحد. لا أحد على الإطلاق.

- لماذا قلتِ ما نظقت به؟

- قلت لك، لا أعرف. لقد طرأ على ذهني فحسب. شعرت بالغضب

والاستياء، فأنا أكره زيارة أولئك الناس. لا حيلة لي في ذلك، وقد انتقدتني

لكوني خجولًا. لم أقصد ذلك، حقًا يا ماكسيم، لم أقصده، أرجوك

صدقني.

- لم يكن ذلك شيئًا لطيفًا على وجه الخصوص كي تتفوهي به، أليس

كذلك؟

- بلى، بلى، كان فظًا وبغيضًا.

حرق إليّ بمزاج متعكر، ويداه في جيبيه، وهو يتأرجح على كعبيه إلى الأمام

والى الخلف، وقال ببطء وتمعن:

- أتساءل عما إذا كنت قد اقترفت شيئاً في غاية الأنانية بزواجي بك.

اعترتني برودة شديدة، وشعرت بالغثيان نوعاً ما، وقلت:

- ماذا تعني؟

- لا أكاد أمثل رفيقاً لك، أليس كذلك؟ هناك سنوات كثيرة تفصل بيننا. كان

عليك الانتظار، والزواج بفتى في مثل عمرك، وليس بشخص مثلي، انقضى

نصف عمره.

أسرعت قائلة:

- هذه سخافة، فأنت تعلم أن العمر لا يعني أي شيء في الزواج، ونحن

رفيقان بكل تأكيد.

- هل نحن كذلك فعلاً؟ لم أكن على دراية بهذا.

جثوت على ركبتي على المقعد المجاور للنافذة، وأحطت كتفيه بذراعي، قائلة:

- لماذا تقول لي هذه الأشياء؟ أنت تعلم أنني أحبك أكثر من أي شيء آخر

في العالم، ولم يكن هناك أي شخص سواك قَطُّ. أنت أبي وأخي وابني،

كل هذه الأشياء.

قال من دون أن يستمع إليّ:

- إنه خطئي، فقد دفعتك إلى التعجل في الأمر، ولم أمنحك فرصة للتفكير

في الموضوع قَطُّ.

قلت:

- لم أرغب في التفكير في الأمر، فلم يكن هناك خيار آخر. أنت لا تفهم

يا ماكسيم. عندما يحب المرء شخصاً ما...

أشاح بعيداً عني، ونظر من النافذة قائلاً:

- هل أنت سعيدة هنا؟ أتساءل في بعض الأحيان، فقد صرت أنحف، وتبدلين

شاحبة.

- بالتأكيد أنا سعيدة. أحب ماندرلي، وأحب الحديقة، وأحب كل شيء. ولا

مانع لديّ من زيارة الناس. قلت ذلك كي أكون مزعجة فحسب. سأزور

الناس كل يوم، إذا أردت مني ذلك، ولا مانع لديّ مما أفعله. لم أندم على الزواج بك قطُّ، ولو لحظة واحدة، ومن المؤكد أنك تعرف ذلك. ربت على وجنتي بأسلوبه الشارد الفطيع ذاك، وانحنى وقبّل قمة رأسي قائلاً:

- أيتها العزيزة المسكينة، إنك لا تحظين بكثير من المتعة، أليس كذلك؟ أخشى أنني صعب المعشر بدرجة كبيرة. قلت بلهفة:

- أنت لست صعباً، بل سهلاً، فائق السهولة، أسهل بكثير مما اعتقدت. كنت أظن أن الزواج سيكون مروّعاً، وأن الزوج سيفرط في تناول الشراب، أو يستخدم لغة فظيعة، أو يتدمر إذا وجد الخبز المحمص طرياً وقت الإفطار، ويكون بصفة عامة غير جذاب إلى حدّ ما، وقد يكون كرهه الرائحة. لكنك لا تفعل أيّاً من تلك الأشياء.

ابتسم ماكسيم، وقال:

- يا إلهي، أتمنى ألا أفعل.

انتهزت فرصة ابتسامته، وابتسمت أنا أيضاً، وأخذت يديه وقبلتهما قائلة:

- يا لها من سخافة، أن تقول إننا لسنا رقيقين. انظر كيف نجلس هنا كل مساء، أنت مع كتاب أو صحيفة، وأنا مع أغراض الحياكة. بالضبط مثل فنجاني شاي، أو تمامًا مثل عجوزين متزوجين منذ سنوات وسنوات. بالتأكيد نحن رقيقان، وبالتأكيد نعم بالسعادة. نتحدث كأنك تعتقد أننا ارتكبنا خطأً. أنت لا تقصد الأمر على هذا النحو، أليس كذلك يا ماكسيم؟ أتدري أن زواجنا ناجح نجاحاً باهراً؟

- ما دمّتِ تقولين هذا، فلا بأس إذن.

- لا، لكنك تعتقد ذلك أيضاً، أليس كذلك يا حبيبي؟ ولست أنا فقط؟ نحن سعيدان، أليس كذلك؟ سعادة فائقة.

لم يُجب، وواصل التحديق من النافذة بينما أنا ممسكة بيديه. أحسست

بجفاف وضيق في حلقي، والتهاب في عيني. فكرت: يا إلهي، يبدو الأمر أشبه بشخصين في مسرحية، وسينزل الستار خلال لحظة، ثم ننحني للجمهور ونتوجه إلى غرف تبديل الملابس. لا يمكن أن تكون هذه لحظة حقيقية في حياتي أنا وماكسيم. جلست على المقعد المجاور للنافذة، وتركت يديه. سمعت نفسي أتحدث بصوت بارد وقاسٍ:

- إذا لم تكن تعتقد أننا سعيدين، فسيكون من الأفضل كثيرًا أن تعترف بذلك. لا أريدك أن تتظاهر بأي شيء. سأفضل كثيرًا أن أرحل بعيدًا، وألا أعيش معك بعد الآن.

لم يكن هذا طبعًا يحدث بالفعل، بل كانت الفتاة في المسرحية هي التي تتحدث، ولست أنا التي أتحدث إلى ماكسيم. تخيلت نوع الفتاة التي ستلعب الدور: طويلة ونحيفة، وعصية نوعًا ما. قلت:

- حسنًا، لماذا لا تجيبني؟

أخذ وجهي بين يديه ونظر إليّ، تمامًا كما فعل من قبل، عندما دخل فريث إلى الغرفة ومعه الشاي، في ذلك اليوم الذي ذهبنا فيه إلى الشاطئ. قال:

- كيف أجيبك، وأنا نفسي لا أعرف الرد؟ إذا كنت تقولين إننا ننعم بالسعادة، فلنترك الأمر عند هذا الحد، فهذا أمر لا أعرف عنه شيئًا. سأصدق كلامك بهذا الشأن، نحن ننعم بالسعادة. حسنًا إذن، اتفقنا!

قبّلني مرة أخرى، ثم ابتعد وعبر الغرفة، بينما ظللت جالسة بجانب النافذة، ثابتة بظهر مفرد، وكانت يداي في حجري. قلت:

- أنت تقول كل هذا لأنك تشعر تجاهي بخيبة الأمل، فأنا خرقاء وأفقر إلى اللبابة، ولست أنيقة المظهر، وأشعر بالخجل من الناس. لقد حذرتك في مونت كارلو كيف سيكون الأمر. أنت تعتقد أنني لست مناسبة لماندرلي.

- لا تفوهي بذلك الهراء، فلم أقل قَطُّ إنك خرقاء أو تفتقرين إلى الأناقة، كل هذا من وحي خيالك. أما بالنسبة إلى كونك خجولاً، فسوف تتغلبين على هذا، أخبرتك بذلك من قبل.

- جدالنا يلف في دوائر، وها قد عدنا من حيث بدأنا مباشرة. بدأ هذا الأمر برمته لأنني كسرت تمثال كيوبيد في غرفة الجلوس الصباحية. لو لم أكسره، لما حدث شيء من هذا. كنا سنشرب قهوتنا ونخرج إلى الحديقة.
قال ماكسيم بضجر:

- أوه، اللعنة على ذلك التمثال المزعج. هل تعتقدين حقاً أنني أكثر ث ما إذا تحطم إلى عشرة آلاف قطعة أم لا؟

- هل كان ذا قيمة كبيرة؟

- الرب وحده يعلم، أعتقد ذلك. لقد نسيت في الواقع.

- هل كل تلك الأشياء في غرفة الجلوس الصباحية ذات قيمة؟
- نعم، أعتقد ذلك.

- لماذا وُضعت كل الأشياء الثمينة في غرفة الجلوس الصباحية؟
- لا أدري، أعتقد لأنها تبدو جيدة هناك.

- هل كانت هناك على الدوام؟ عندما كانت والدتك على قيد الحياة؟

- لا، لا أعتقد أنها كانت كذلك، بل كانت متفرقة في أرجاء المنزل. كانت الكراسي مخزنة في غرفة للأثاث غير المستخدم، على ما أظن.

- متى تم تأثيث غرفة الجلوس الصباحية بالشكل الذي هي عليه الآن؟
- عندما تزوجت.

- أعتقد أن كيوبيد وُضع هناك حينها؟
- أظن هذا.

- هل عُثر عليه في غرفة لتخزين الأثاث غير المستخدم؟

- لا، لا أظن ذلك. في واقع الأمر، أعتقد أنه كان هدية زفاف. كانت ربييكا تعرف الكثير عن الخزف الصيني.

لم أنظر إليه، وبدأت في طلاء أظفاري. نطق الكلمة بصورة طبيعية تمامًا، وبمنتهى الهدوء، من دون أن يمثل ذلك أي جهد بالنسبة إليه. بعد دقيقة، ألقيت نحوه نظرة خاطفة، حيث كان واقفًا بجانب رف المدفأة ويده في جيبيه، محدقًا أمامه مباشرة. قلت لنفسي إنه يفكر في ربيكا، ويفكر كم هو غريب أن تتسبب هدية الزفاف التي تلقيتها في إتلاف هدية زفاف تلقتها ربيكا. إنه يفكر في تمثال كيوبيد، ويتذكر مَنْ أعطاه لربيكا، ويراجع في ذهنه كيف وصل الطرد، وكم بدت سعيدة. كانت ربيكا تعرف الكثير عن الخزف الصيني. ربما دخل الغرفة وهي جاثية على الأرض، تفتح الصندوق الصغير الذي وُضع داخله تمثال كيوبيد. لا بد أنها رفعت إليه نظرها وابتسمت قائلة: «انظر يا ماكس». كانت ستقول: «انظر ماذا أرسل إلينا»، ثم تمد يديها وسط نشارة الخشب، لتخرج تمثال كيوبيد الذي وقف على قدم واحدة، وقوسه في يده. لا بد أنها قالت: «سنضعه في غرفة الجلوس الصباحية»، ولا بد أنه جثا بجانبها، وتأملًا التمثال معًا.

واصلت طلاء أظفاري التي بدت قميئة، مثل أظفار تلميذ مدرسي، إذ نما الجلد المحيط بها وغطى هليل الأظفار، وقُضم ظفر الإبهام حتى اللحم تقريبًا. نظرت إلى ماكسيم مرة أخرى، وكان لا يزال يقف أمام المدفأة. قلت:

- بم تفكر؟

بدا صوتي ثابتًا وهادئًا، ليس مثل قلبي الذي يدق بقوة داخلي، ولا مثل عقلي الذي امتلأ بالمرارة والحنق. أشعل سيجارة، بالتأكيد الخامسة والعشرين في ذلك اليوم، وقد انتهينا للتو من تناول الغداء. ألقى عود الثقاب في المدفأة الخالية، والتقط الصحيفة.

قال:

- لا شيء بالتحديد، لماذا؟

- أوه، لا أدري، تبدو جادًا للغاية، وشاردًا بشدة.

صفر لحنًا بشرود، وأدار السيجارة بين أصابعه، وقال:
- في الواقع، كنت أتساءل عما إذا اختاروا أعضاء فريق سري الذي سيواجه
ميدلسكس في ملعب أوفال للكريكيت.
جلس على الكرسي مرة أخرى وطوى الصحيفة. نظرت من النافذة، وما لبث
أن جاء إليّ جاسبر وصعد إلى حجري.

مكتبة
t.me/soramnqraa

اضطر ماكسيم إلى الذهاب إلى لندن في نهاية يونيو لحضور عشاء عام. كان عشاء للرجال فقط، متعلقاً بالمقاطعة بطريقة ما. غاب يومين، وبقيت وحدي. فزعت من رحيله، وعندما رأيت السيارة تختفي عند منعطف الممر، شعرت تمامًا كأنه سيكون الفراق الأخير، ولن أراه أبدًا. سيقع حادث بالطبع، وفي وقت لاحق بعد العصر، عقب عودتي من التمشية، سأجد فريث في انتظاري شاحبًا وخائفًا، ومعه رسالة: اتصل الطبيب من مستشفى ريفي صغير ما. سيقول: «عليك التحلي بالشجاعة الفائقة، أخشى أن عليك الاستعداد لتلقي صدمة كبيرة».

وسأأتي فرانك، ونذهب معًا إلى المستشفى، ولن يتعرف عليَّ ماكسيم. تخيلت الأمر كله بينما أنا جالسة لتناول الغداء، وكانت في وسعي رؤية حشد من السكان المحليين الذين تجمعوا حول فناء الكنيسة في الجنازة، وأنا متكئة على ذراع فرانك. بدا لي الأمر حقيقيًا جدًّا، إلى درجة أنني لم أستطع تناول أي شيء على الغداء تقريبًا، وظللت أصيخ السمع كي أسمع الهاتف إذا رن. جلست في الحديقة تحت شجرة الكستناء بعد العصر، مع كتاب على حجري، لكنني لم أقرأ شيئًا تقريبًا. وعندما رأيت روبرت يعبر الممرج، عرفت أنه الهاتف، وشعرت بالاعتلال جسديًا.

- رسالة من النادي يا سيدتي، تقول إن السيد دي وينتر وصل قبل عشر دقائق. أغلقت كتابي، وقلت:

- شكرًا لك يا روبرت. كم وصل بسرعة.
- أجل يا سيدتي. كانت رحلة جيدة جدًا.
- هل طلب التحدث إليّ أو ترك أي رسالة خاصة؟
- لا يا سيدتي. مجرد أنه وصل بأمان. كان حارس الباب هو من تحدث.
- حسنًا يا روبرت. شكرًا جزيلًا.

غمرني ارتياح هائل، ولم أعد أشعر بالاعتلال، واختفى الألم. بدا الأمر أشبه بالوصول إلى الشاطئ بعد عبور القنال. بدأت أشعر بالجوع إلى حدّ ما، وعندما عاد روبرت إلى المنزل تسللت إلى غرفة الطعام عبر النافذة الطويلة، وسرقت بعض البسكويت من الطاولة الجانبية. تناولت ست قطع من البسكويت الجاف، وتفاحة أيضًا. لم تكن لديّ أدنى فكرة أنني جائعة إلى هذا الحد. ذهبت وأكلتهما في الغابة، في حال ما إذا رأي أحد الخدم من النوافذ وأنا على العشب، ثم ذهب وأخبر الطاهي بأنه لا يعتقد أن السيدة دي وينتر أعجبتها الطعام المعد في المطبخ، لأنه رآها للتوّ تملأ معدتها بالفواكه والبسكويت. سيشعر الطاهي بالإهانة، وربما يذهب إلى السيدة دانفرز.

الآن، بعد أن صار ماكسيم في لندن بأمان، وقد تناولت البسكويت، شعرت براحة كبيرة، وبسعادة غريبة. انتابني شعور بالحرية، كما لو أنني لا أتحمّل أي مسؤوليات على الإطلاق. بدا الأمر أشبه بيوم السبت، حينما كنت طفلة، من دون أي دروس ولا استعدادات، وفي وسعي أن أفعل ما أشاء. كنت أرتمي تنورة قديمة، وحذاء من القماش، وأنغمس في ألعاب المطاردة في أرض مفتوحة مع أطفال الجيران.

أحسست بالشعور نفسه تمامًا، ولم يسبق أن شعرت بهذا طوال فترة وجودي في ماندرلي. لا بد أن السبب هو ذهاب ماكسيم إلى لندن.

صُدمت من نفسي إلى حدّ ما، ولم أستطع فهم الأمر على الإطلاق. لم أرده أن يذهب، والآن أشعر بهذه الخفة في قلبي، والانطلاق في خطوتي، وهذا الإحساس الطفولي بالرغبة في الركض عبر الممرج والتدحرج إلى أسفل الضفة

العشبية. مسحت فتات البسكويت من على فمي وناديت جاسبر. ربما غمرني هذا الشعور لأنه يوم جميل فحسب...

مررنا عبر الوادي السعيد، وذهبنا إلى الخليج الصغير. انقضى إزهار الأزاليا الآن، ورقدت البتلات البنية المغضنة فوق الطحالب. لم تكن زهور عشبة الجريس قد ذبلت بعد، وشكلت بساطاً ثابتاً في الغابة فوق الوادي، وأخذت السراخس الصغيرة تنمو، بأوراق ملتفة خضراء. بدت رائحة الطحالب غنية وعميقة، وزهور عشبة الجريس ترابية ولاذعة. استلقيت فوق العشب الطويل بجانب زهور عشبة الجريس، ويدي خلف رأسي، وجاسبر بجانبني. نظر إليّ لاهثاً والحماسة بادية على وجهه، واللعب يقطر من لسانه وفكه الثقيل. كانت هناك حمائم في مكان ما بالأشجار في الأعلى، والمكان هادئ وساكن للغاية. تساءلت لماذا تبدو الأماكن أجمل كثيراً حينما يكون المرء وحده. كم سيصير الأمر مبتذلاً وتافهًا، إذا كانت لديّ الآن صديقة جالسة بجانبني، عرفتھا من المدرسة، تقول: «بالمناسبة، رأيت هيلدا منذ عدة أيام. أنت تذكرينها، تلك التي كانت بارعة جداً في لعب التنس. إنها متزوجة ولديها طفلان». وستظل زهور عشبة الجريس بجانبنا من دون أن يلاحظها أحد، والحمائم فوق رؤوسنا من دون أن يسمعها أحد. لم أرغب في وجود أحد معي، ولا حتى ماكسيم. لو كان ماكسيم هناك، لما استلقيت كما أنا الآن، أمضغ قطعة من العشب وعيناوي مغمضتان. كنت سأراقبه، وأراقب عينيه وتعبيرات وجهه، وأتساءل عما إذا كان يحب هذا أم يشعر بالملل، وأتساءل عما يشغل تفكيره. لكن الآن، يمكنني الاسترخاء، ولم تكن هناك أهمية لأيّ من هذه الأشياء، إذ كان ماكسيم في لندن. كم هو رائع أن أصير وحدي مرة أخرى. لا، لم أقصد ذلك. كان ذلك خيانة وخبثاً. لم يكن هذا ما قصدته. كان ماكسيم حياتي وعالمي. نهضت من وسط زهور عشبة الجريس، وناديت جاسبر بحدّة. انطلقنا معاً وهبطنا الوادي متجهين نحو الشاطئ. تراجع المد، وبدا البحر هادئاً جداً وبعيداً. بدا مثل بحيرة هادئة كبيرة، هناك في الخليج. لم أستطع تخيله وهو مضطرب الآن، مثلما لم يكن في وسعي تخيل الشتاء في فصل الصيف. لم تكن

هناك أي ربح، والتمعت الشمس فوق المياه المتماوجة حيث جرت في برك صغيرة وسط الصخور. صعد جاسبر الصخور على الفور، ونظر إليّ وقد طيرت الريح إحدى أذنيه فالتصقت برأسه ومنحته مظهرًا ماجنًا غريبًا. قلت:

- ليس من هذا الاتجاه يا جاسبر.

لم يكثر لي على الإطلاق بالطبع، وانطلق متعمدًا مخالفة أوامري. قلت بصوت مرتفع:

- يا له من مزعج.

تسلقت الصخور وراءه، وتظاهرت لنفسي بأنني لا أريد الذهاب إلى الشاطئ الآخر. فكرت: «أوه، حسنًا، لا حيلة في الأمر. في النهاية، ماكسيم ليس معي، ولا علاقة لي بالأمر».

خضت وسط البرك بين الصخور، ودندنت لحنا.

بدا الخليج مختلفًا عند انحسار المد، وأقل إثارة للخوف. بلغ ارتفاع الماء ثلاث أقدام فقط تقريبًا في المرفأ الصغير، وافترضت أنه يمكن أن يطفو قارب هناك على نحو مريح عند أقصى درجات انحسار المد. كانت العوامة لا تزال موجودة، ومطلية باللونين الأبيض والأخضر، لكنني لم ألحظ ذلك من قبل. ربما لم يكن اللون واضحًا بسبب هطول المطر. لم يكن هناك أحد على الشاطئ، وسرت عبر الحصى إلى الجانب الآخر من الخليج، وتسلقت الجدار الحجري المنخفض لرصيف المرفأ. واصل جاسبر الركض إلى الأمام، كما لو أن هذه هي عادته. كانت هناك حلقة في الجدار، وسلم حديدي ينزل إلى الماء. هذا هو المكان الذي يُربط فيه القارب، على ما أعتقد، ويهبط المرء إليه عن طريق السلم. كانت العوامة في الجهة المقابلة، على بُعد ثلاثين قدمًا تقريبًا، وقد كُتب عليها شيء ما. مددت عنقي جانبًا لأقرأ الأحرف: «سأعود»، باللغة الفرنسية. يا له من اسم غريب، لا يشبه اسمًا لقارب. لكن ربما كان قاربًا فرنسيًا، أو قارب صيد. أحيانًا ما تحمل قوارب الصيد أسماء من هذا القبيل: «عودة سعيدة»، أو «أنا هنا»، هذا

النوع من الأسماء. «سأعود»، نعم، أعتقد أنه كان اسمًا جيدًا جدًا للقارب. لكنه لم يكن مناسبًا لذلك القارب بالتحديد، الذي لم يعد مرة أخرى.

لا بد أن الجو بارد عند الإبحار هناك في الخليج، بعيدًا عن الفئار الكائن على الرأس البحري. بدا البحر هادئًا في الخليج، ولكن حتى وهو ساكن إلى هذا الحد اليوم، تموجت رغوة بيضاء على سطح الماء حيث يتسابق الموج هناك عند الرأس البحري. سيميل القارب الصغير في مواجهة الريح عندما يدور حول الرأس البحري، ويخرج من الخليج المُحاط باليابسة. ربما يتناثر رذاذ البحر على القارب، ويجري على سطحه. وستمسح المرأة الواقفة عند ذراع الدفة الرذاذ من عينيها وشعرها، وترفع عينيها إلى الصاري الواقع تحت وطأة الريح. تساءلت عن لون القارب: ربما كان باللونين الأخضر والأبيض، مثل العوامة. قال فرانك إنه لم يكن كبيرًا جدًا، وبه قمرة صغيرة.

تشمم جاسبر السلم الحديدي، فقلت:

- تعال، لا أريد أن أذهب وراءك.

عدت عبر جدار المرفأ، متوجهة إلى الشاطئ. لم يبدُ الكوخ على حافة الغابة بعيدًا ومخيفًا جدًا مثلما كان من قبل، حيث شكلت الشمس فرقًا كبيرًا. لم يكن هناك مطر يقطر فوق السطح اليوم. مشيت ببطء عبر الشاطئ، متوجهة نحوه. ففي النهاية، كان مجرد كوخ لا يعيش فيه أحد، ولا شيء يثير الخوف، لا شيء على الإطلاق. كان أي مكان يبدو رطبًا ومخيفًا بعد أن يظل غير مأهول فترة من الوقت، حتى الأكواخ والأماكن الجديدة. إضافة إلى ذلك، كانت تُقام هنا نزعات على ضوء القمر، وأشياء من هذا القبيل، وعلى الأرجح اعتاد زوّار عطلة نهاية الأسبوع المجيء إلى هنا والاستحمام، ثم الذهاب للإبحار في القارب. وقفت أنظر إلى الحديقة المهملة المختنقة بنبات القراص. يجب أن يأتي شخص ما لتنظيفها، أحد البستانيين، فلم يكن هناك داعٍ إلى تركها على هذا النحو. دفعت البوابة الصغيرة، وتوجهت إلى باب الكوخ. لم يكن مغلقًا تمامًا، على الرغم من أنني متأكدة أنني أغلقته في آخر مرة. بدأ جاسبر يزمرجر، ويتشمم أسفل الباب.

قلت:

- جاسبر، لا تفعل.

واصل الشم بعمق، ودفع أنفه في الصدع. دفعت الباب وفتحته، ونظرت إلى الداخل. بدا المكان مظلمًا بشدة، مثلما كان من قبل، ولم يتغير شيء. كانت خيوط العناكب لا تزال عالقة بأشعة وصواري نماذج السفن، لكن باب مستودع القارب في نهاية الغرفة كان مفتوحًا. زمجر جاسبر مرة أخرى، وسقط شيء ما فأصدر صوتًا. نبج جاسبر بشراسة، واندفع من بين ساقَي إلى الغرفة، وانقض نحو باب المستودع المفتوح. تبعته وقلبي يخفق، ثم وقفت مترددة في منتصف الغرفة، وقلت:

- جاسبر، عُد إلى هنا، لا تكن أحمق.

وقف في المدخل وهو لا يزال ينبج بشراسة، وفي صوته نغمة هستيرية. كان هناك شيء إذن داخل المستودع، ولم يكن جردًا، لأنه كان سيطارده. قلت:

- جاسبر، جاسبر تعالَ إلى هنا.

رفض المجيء، فاقتربت ببطء من باب المستودع.

قلت:

- هل من أحد هناك؟

لم يُجب أحد، فانحنيت نحو جاسبر ووضعت يدي على طوقه، ونظرت خلف حافة الباب. كان هناك شخص جالس بالزاوية، ملتصق بالحائط: شخص بدا من وضع القرفصاء الذي اتخذه أنه خائف أكثر مني حتى. كان بن، وأخذ يحاول الاختباء خلف أحد الأشرطة. قلت:

- ما الخطب؟ هل تريد شيئًا؟

نظر إليّ وهو يرمش بغباء، وفمه مفتوح بعض الشيء.

قال:

- أنا لا أفعل شيئًا.

قلت بنبرة توبيخ:

- هدوء يا جاسبر .

ووضعت يدي على خطمه، وخلعت حزامي ومررته عبر طوقه كمقود.
قلت بجرأة أكبر بعض الشيء:

- ماذا تريد يا بن؟

لم يُجب، وراقبني بعينه البلهاوين الماكرتين.
قلت:

- أعتقد أنه من الأفضل أن تخرج، فالسيد دي ويتتر لا يحب دخول وخروج
الناس من هنا.

نهض على قدميه متثاقلاً وهو يبتسم ابتسامة مأكرة، ومسح أنفه بظهر كفه،
بينما أبقى يده الأخرى خلف ظهره. قلت:

- ماذا لديك يا بن؟

فأطاعني كطفل، وأظهر لي يده الأخرى، التي كان بها خيطٌ من خيوط الصيد،
وكرر قائلاً:

- أنا لا أفعل شيئاً.

- هل هذا الخيط من هنا؟

- ماذا؟

- اسمع يا بن، يمكنك أخذ ذلك الخيط إذا أردت، لكن يجب ألا تفعل ذلك
مرة أخرى. ليس من الأمانة أن تأخذ أشياء الناس.

لم يقل شيئاً، ونظر إليّ وهو يرمش ويتلوى.

قلت بحزم:

- تعال معي.

دخلت الغرفة الرئيسية، وتبعني. توقف جاسبر عن النباح، وبدأ يتشمم كعب
بن. لم أرغب في البقاء بالكوخ أكثر من ذلك، فمشيت بسرعة وخرجت إلى ضوء
الشمس، وبن يجر جر قدميه خلفي، ثم أغلقت الباب.

قلت لبن:

- من الأفضل أن تعود إلى المنزل.
- قبض على خيط الصيد وضمه إلى قلبه كأنه كنز، وقال:
- لن تضعيني في مصحة عقلية، أليس كذلك؟
- رأيت حينها أنه يرتجف من الخوف، ويداه ترتعشان، وعيناه مثبتتان على عيني في توسل، كمخلوق أبله.
- قلت بلطف:
- بالطبع لن أفعل ذلك.
- كرر قائلاً:
- لم أفعل شيئاً، ولم أخبر أحداً قط. لا أريد أن أوضع في مصحة عقلية.
- وتدحرجت دمعة فوق وجنته القذرة.
- قلت:
- لا بأس يا بن. لن يضعك أحد في مصحة، لكن يجب ألا تذهب إلى الكوخ مرة أخرى.
- التفتُ بعيداً عنه، لكنه تبعني ولمس يدي.
- قال:
- هاك، لدي شيء من أجلك.
- ابتسم بحماقة، وأشار بإصبعه، ثم استدار نحو الشاطئ. ذهبت معه، فانحنى والتقط حجراً مسطحاً بجانب صخرة، وكانت هناك كومة صغيرة من الأصدا ف تحت الحجر. اختار واحدة، وقدمها لي قائلاً:
- هذه لك.
- شكرًا لك، إنها جميلة جدًا.
- ابتسم مرة أخرى وفرك أذنه وقد نسي خوفه، وقال:
- لديك عينا ملاك.
- نظرت إلى الصدفة مرة أخرى، وفوجئت نوعاً ما، ولم أدر ماذا أقول.
- أنت لست مثل الأخرى.

- مَنْ تقصد؟ أي أخرى؟

هز رأسه، وبدت عيناه ماكرتين مرة أخرى. وضع إصبعه على أنفه، وقال:
- كانت طويلة ذات شعر داكن، وكانت تعطيك انطباعًا بأنها ثعبان. رأيته هنا
بأم عيني، كانت تأتي ليلاً، وقد رأيته.

توقف عن الحديث وراقبني بتمعن. لم أقل شيئاً، فواصل قائلاً:

- اختلستُ النظر إليها ذات مرة، فانقلبت عليّ. قالت: «أنت لا تعرفني، أليس
كذلك؟ لم يسبق أن رأيته هنا من قبل، ولن تفعل مرة أخرى. وإذا ضبطتك
متلبساً باختلاس النظر إليّ عبر النوافذ، سأدعهم يضعونك في مصحة
عقلية. لن ترغب في هذا، أليس كذلك؟ إنهم يعاملون الأشخاص بقسوة
في المصحة». قلت: «لن أقول شيئاً يا سيدتي»، ولمست قبعتي، هكذا.

لمس قبعته المضادة للمطر، وقال بقلق:

- لقد رحلت الآن، أليس كذلك؟

قلت بتأنٍ:

- لا أعرف مَنْ تقصد. لن يضعك أحد في مصحة عقلية. طاب مساؤك يا بن.
استدرت بعيداً عنه، وسرت عبر الشاطئ نحو الممر، وسحبت جاسبر بالحزام.
يا للبائس المسكين، كان مخبئاً بالطبع، ولا يدري ما يتحدث عنه، فمن غير
المرجح أن يهدده أحدهم بالمصحة العقلية. قال ماكسيم إنه لا ضرر منه على
الإطلاق، وكذلك فرانك. ربما سمع أهله يناقشون أمره ذات مرة، وعلقت تلك
الذكرى كصورة قبيحة في ذهن طفل. كما أن لديه عقلية طفل أيضاً، فيما يتعلق
بما يحبه ويكرهه. قد يعجب بشخص من دون سبب، وربما يتصرف على نحو
ودود في يوم، ثم يصير متجهماً في اليوم التالي. تصرف بودّ معي لأنني أخبرته بأنه
يمكنه الاحتفاظ بخيط الصيد، وإذا قابلته غداً، فقد لا يعرفني. كان من السخف
أن يعير المرء الانتباه لأي شيء يتفوه به شخص أحمق. ألقيت نظرة خاطفة خلفي
نحو الخليج. بدأ المد يتقدم، وأخذ يدور ببطء حول امتداد جدار المرفأ، واختفى
بن فوق الصخور، وصار الشاطئ خالياً مرة أخرى. لم أر سوى مدخنة الكوخ

الحجرية من خلال فجوة في الأشجار المظلمة. اعترني رغبة مفاجئة غير مبررة للركض. جذبت مقود جاسبر، ولهت صاعدة الممر المنحدر الضيق عبر الغابة، من دون الالتفات خلفي مرة أخرى. لو عُرضت عليّ كنوز العالم أجمع، لما استدرت ونزلت إلى الكوخ أو الشاطئ ثانية. بدا الأمر كأن شخصاً ينتظر هناك في الأسفل، في الحديقة الصغيرة حيث ينمو القراص. شخصاً يراقب ويسمع. نبج جاسبر بينما نحن نركض معاً. ظن الأمر لعبة من نوع جديد، وظل يحاول عض الحزام وجذبه بأسنانه. لم أدرك من قبل مدى تقارب نمو الأشجار هنا، حيث امتدت جذورها عبر الممر كمحاليق جاهزة ليتعثر بها أحد ما. فكرت وأنا أركض وألتقط أنفاسي أن عليهم إزالة كل هذا، وأنه يجب على ماكسيم تكليف الرجال بالأمر. فلم يكن هناك أي معنى ولا جمال في هذا الغطاء النباتي. يجب قطع تلك الشجيرات المتشابكة هناك كي يدخل الضوء إلى الممر الذي كان مظلمًا، بدرجة شديدة للغاية. بدت شجرة الأوكالبتوس العارية تلك التي خنقها نبات العليق مثل طرف شاحب مبيض لهيكل عظمي، يجري تحتها جدول أسود ترابي، خنقته سنوات من الأمطار الموحلة، ويتدفق بصمت نحو الشاطئ في الأسفل. لم تغرد الطيور هنا كما تفعل في الوادي، وساد الهدوء على نحو مختلف. وحتى في أثناء ركضي ولهائي وأنا أصعد الممر، كان في وسعي سماع هدير البحر والمد يتسلل إلى الخليج. فهمت لماذا يكره ماكسيم ذلك الممر والخليج، وكرهتهما أنا أيضًا. كانت حماقة مني أن آتي من هذا الطريق. كان يجب أن أبقى على الشاطئ الآخر، على الحصى الأبيض، وأن أعود إلى المنزل عبر الوادي السعيد.

سررت عندما خرجت إلى الممرج، ورأيت المنزل هناك في الأسفل، راسخًا وآمنًا، والغابة خلفي. سأطلب من روبرت أن يجلب إليّ الشاي تحت شجرة الكستناء. ألقيت نظرة خاطفة على ساعتني، فوجدت الوقت أبكر مما ظننت، ولم تبلغ الساعة الرابعة بعد. سأضطر إلى الانتظار قليلًا، فلم يكن من المعتاد في ماندرلي تناول الشاي قبل الرابعة والنصف. شعرت بالارتياح لأن فريث خرج،

ولن يبالغ روبرت في طقوس تقديم الشاي في الحديقة. في أثناء مروري عبر الممر متوجهة نحو الشرفة، لفت نظري التمتع الشمس على شيء معدني ظهر من بين أوراق الرودودندرون الخضراء عند منعطف الممر. ظللت عيني بيدي لأرى ماذا يكون، فبدا مثل رادياتير سيارة. تساءلت عما إذا أتى شخص للزيارة، لكن إذا كان أحدهم قد فعل، كان سيتوجه إلى المنزل، ولا يترك سيارته مخفية هكذا بعيداً عن المنزل، عند منعطف الممر بجوار الشجيرات. اقتربت بعض الشيء. أجل، كانت سيارة بالفعل. صارت في وسعي رؤية جناح السيارة الآن، وغطاء المحرك. يا له من أمر غريب، فلم يكن الزوار يفعلون ذلك قط عادة، وكان العمال يسلكون الطريق الخلفي بجوار الأسطبلات القديمة والمراب. لم تكن سيارة فرانك التي من طراز موريس، فقد كنت أعرفها جيداً. كانت هذه سيارة رياضية طويلة ومنخفضة. تساءلت عما يتعين عليّ فعله. لو كان زائراً، لقاده روبرت إلى المكتبة أو غرفة الاستقبال. وفي غرفة الاستقبال، سيتمكن من رؤيتي وأنا أعبر الممر. لم أرغب في مواجهة زائر وأنا مرتدية مثل هذه الملابس، وسأضطر إلى أن أطلب منه البقاء لتناول الشاي. ترددت عند حافة الممر، ومن دون سبب، ربما بسبب وميض ضوء الشمس للحظة على الزجاج، رفعت نظري إلى المنزل، وعندما فعلت لاحظت بدهشة أن مصراع إحدى النوافذ في الجناح الغربي مفتوح. وقف شخص ما بجانب النافذة: رجل. ولا بد أنه لمحني، إذ إنه تراجع فجأة، ورفع شخص خلفه ذراعاً وأغلق المصراع.

كانت ذراع السيدة دانفرز، حيث تعرفتُ على الكم الأسود. تساءلت لحظة عما إذا كان يوماً مخصصاً لاستقبال العامة، وكانت تعرض الغرف. لكن لا يمكن أن يكون الأمر كذلك، لأن فريث هو الذي يتولى هذه المهمة دائماً، ولم يكن فريث موجوداً. علاوة على ذلك، لم تكن غرف الجناح الغربي تُعرض على العامة، حتى إنني أنا نفسي لم أدخلها بعد. لا، كنت أعرف أنه ليس يوماً مخصصاً للعامة، ولم يكن عامة الجمهور يأتون يوم الثلاثاء قط. ربما يتعلق الأمر بالإصلاحات في إحدى الغرف. على الرغم من ذلك، بدا من الغريب تلك الطريقة التي أطل بها

الرجل، ثم تراجع داخل الغرفة ما إن رأي، وأغلق المصراع. وتلك السيارة أيضًا الموضوع خلف شجيرات الرودودندرون، بحيث لا يمكن رؤيتها من المنزل. ومع ذلك، كان هذا الأمر متروكًا للسيدة دانفرز، ولا علاقة لي به. إذا كان لديها أصدقاء اصطحبتهم إلى الجناح الغربي، فلم يكن ذلك من شأني بالتحديد. لكن لم أعلم بحدوث ذلك من قبل، وبدا من الغريب أنه حدث في اليوم الوحيد الذي غاب فيه ماكسيم عن المنزل.

سرت بحرج نوعًا ما عبر الممرج متوجهة نحو المنزل، وأنا أدرك أنهما ربما لا يزالان يراقبانني عبر شق في المصراع.

صعدت الدرج، وعبرت من الباب الأمامي الكبير إلى الردهة. لم يكن هناك أثر لقبعة غريبة أو عصا، ولا بطاقة شخصية على الصينية. بدا من الواضح أن هذا ليس زائرًا رسميًا. حسنًا، لم يكن هذا من شأني. دخلت غرفة الزهور وغسلت يدي في الحوض لأوفر على نفسي الصعود إلى الطابق العلوي. سيكون الأمر محرجًا إذا قابلته وجهًا لوجه على الدرج أو في مكان ما. تذكرت أنني تركت أغراض حياكتي في غرفة الجلوس الصباحية قبل الغداء، وذهبت عبر غرفة الاستقبال كي أجلبها، وجاسبر الوفي في أعقابني. كان باب غرفة الجلوس الصباحية مفتوحًا، ولاحظت أن كيس أغراض حياكتي تحرك من موضعه. كنت قد تركته على الأريكة، والتقطه أحدهم ودفعه خلف وسادة، وبدا أثر جلوس شخص على قماش الأريكة، حيث كان كيس أغراض حياكتي من قبل. جلس شخص ما هناك مؤخرًا، والتقط أغراض حياكتي لأنها اعترضت طريقه. كما نقل الكرسي المجاور للمكتب أيضًا. بدا الأمر كأن السيدة دانفرز تستضيف زوارها في غرفة الجلوس الصباحية في غيابي أنا وماكسيم. شعرت بالضيق نوعًا ما. أفضل ألا أعرف بالأمر. أخذ جاسبر يتشمم تحت الأريكة، ويهز ذيله، ولم يشك في الزائر على أي حال. أخذت كيس أغراض حياكتي وخرجت. وبينما أفعل ذلك، انفتح باب غرفة الاستقبال الكبيرة المؤدية إلى الممر الحجري والغرف الخلفية، وسمعت أصواتًا. اندفعت إلى غرفة الجلوس الصباحية مرة أخرى، في الوقت

المناسب. لم يرني أحد، وانتظرت خلف الباب عابسة في وجه جاسبر الذي وقف في المدخل ينظر إليّ وقد تدلى لسانه وهو يهز ذيله. ذلك البائس الصغير سيفضح أمري. وقفت ساكنة تمامًا، وحبست أنفاسي.

ثم سمعت السيدة دانفرز تتحدث قائلة:

- أتوقع أنها ذهبت إلى المكتبة. لقد عادت إلى المنزل مبكرًا لسبب ما. إذا ذهبت إلى المكتبة، فستتمكن من المرور عبر الردهة من دون أن تراك. انتظر هنا بينما أذهب وأرى.

عرفت أنهما يتحدثان عني، وبدأت أشعر بعدم الارتياح أكثر من أي وقت مضى. بدا الأمر برمته سرّيًا للغاية، ولم أرغب في ضبط السيدة دانفرز متلبسة باقتراف خطأ. ثم أدار جاسبر رأسه بحدة نحو غرفة الاستقبال، وهرب خارجًا وهو يهز ذيله.

سمعت الرجل يقول:

- مرحبًا أيها الصغير.

بدأ جاسبر ينبع بحماس، وتلفت حولي بياس، بحثًا عن مكان يمكنني الاختباء فيه، من دون جدوى بالطبع. ثم سمعت وقع خُطى قريبة جدًا من أذني، ودخل الرجل الغرفة. لم يرني في البداية لأنني كنت خلف الباب، لكن جاسبر اندفع نحوي، وهو لا يزال ينبع مبتهيجًا.

استدار الرجل فجأة ورآني، ولم يسبق أن شاهدت أي شخص يبدو أشد دهشة. بدا الأمر كما لو أنني اللص، وهو سيد المنزل.

تفحصني من رأسي حتى قدمي، وقال:

- أستمحك عذرًا.

بدا قويًا ضخّم الجثة، حسن المظهر على نحو مبهرج، ببشرته التي لوحتها الشمس. وكانت عيناه زرقاوين حادتين على ذلك النحو المرتبط عادة بالإفراط في الشراب والعيش المنحل. وكان شعره ضاربًا إلى الحمرة مثل بشرته. في غضون بضع سنوات، ستغلب عليه السمنة، وستبرز عنقه من فوق ظهر ياقته.

وشى فمه بأمره، إذ بدا ناعماً للغاية ومتورداً بدرجة أكثر مما يجب، واستطعت أن أشم رائحة الويسكي في أنفاسه من مكاني حيث وقفت. بدأ يتسم، ابتسامة من ذلك النوع الذي يمنحه لأي امرأة.
قال:

- أتمنى ألا أكون قد فاجأتك.

خرجت من وراء الباب، ولا شك أنني بدوت في غاية الحماسة، كما شعرت تماماً. قلت:

- لا، بالطبع لا. سمعت أصواتاً، ولم أكن متأكدة تماماً لمن تكون، فلم أتوقع أي زوار عصر اليوم.
قال بود:

- يا له من أمر مؤسف، إنه سوء سلوك مني أن أقتحم عليك المكان هكذا. أتمنى أن تسامحيني. الحقيقة أنني أتيت كي أرى داني العجوز فحسب، فهي صديقة قديمة لي.
- بالطبع، لا بأس.

- داني العجوز العزيزة، باركها الرب، إنها حريصة جداً على ألا تزجج أحداً، ولم تشأ أن تقلقك.
راقبت جاسبر، الذي أخذ يتقافز ويضرب الرجل بقوائمه في بهجة، وقلت:

- أوه، لا يهم على الإطلاق.
- لم ينسني هذا المتسول الصغير، أليس كذلك؟ لقد كبر وصار وحشاً صغيراً ظريفاً. كان صغيراً جداً عندما رأيته آخر مرة، لكنه سمين جداً، ويحتاج إلى مزيد من التمرين.

- لقد أخذته للتو في نزهة طويلة.

- هل فعلت حقاً؟ يا له من لطف منك.

واصل التريبت على جاسبر، وابتسم لي على نحو حميمي، ثم أخرج علبة سجائره وقال:

- أتريدين واحدة؟

- أنا لا أدخن.

- ألا تدخين حقًا؟

ثم أخرج واحدة لنفسه وأشعلها.

لم يكن لديّ مانع من السجائر من قبل، لكن بدا ذلك غريبًا بالنسبة إليّ، في غرفة تخص شخصًا آخر. بالتأكيد كان ذلك ينم عن سوء السلوك نوعًا ما، ولا يحمل الاحترام تجاهي.

- كيف حال ماكس العجوز؟

فاجأني نبرته، إذ بدا كأنه يعرفه جيدًا. بدا من الغريب أن أسمع أحدهم يتحدث عن ماكسيم ويناديه باسم «ماكس»، فلم يكن أحد يناديه بذلك.

- إنه بخير، شكرًا لك. لقد ذهب إلى لندن.

- وترك العروس وحدها تمامًا؟ هذا مؤسف جدًا. ألا يخشى أن يأتي أحدهم ويخطفك بعيدًا؟

ضحك وفمه مفتوح، ولم تعجبني ضحكته. كان فيها شيء كريه، ولم يعجبني هو أيضًا. حينها دخلت السيدة دانفرز الغرفة، وأدارت عينيها نحوي، فاعترتني برودة شديدة. فكرت: «أوه، يا إلهي، لا بد أنها تكرهني بشدة».

قال الرجل:

- مرحبًا، داني، ها أنت ذي. كل احتياطاتك ذهبت سدى، إذ كانت سيدة المنزل مخبئة خلف الباب.

ثم ضحك مرة أخرى، ولم تقل السيدة دانفرز أي شيء، بل ظلت تنظر إليّ، فقال:

- حسنًا، ألن تقدميني؟ ففي النهاية، هذا هو المعتاد، أليس كذلك؟ أن يقدم المرء التهنئة للعروس.

قالت السيدة دانفرز:

- هذا هو السيد فافيل يا سيدتي.

تحدثت بهدوء، وعلى مضض نوعاً ما. لا أعتقد أنها أرادت تقديمه لي.
قلت:

- كيف حالك؟

ثم بذلتُ جهداً لأكون مهذبة، وقلت:

- أَلن تبقى لتناول الشاي؟

بدا كأنه يجد الأمر مسلياً للغاية، والتفت إلى السيدة دانفرز قائلاً:

- أليست هذه دعوة لطيفة؟ طُلب مني البقاء لتناول الشاي. بحق السماء

يا داني، أفكر جدياً في ذلك.

رأيتها ترسل إليه نظرة تحذير، وشعرتُ بضيق شديد. كان هذا الوضع برمته

خطأً، ويجب ألا يحدث أبداً.

قال:

- حسناً، ربما أنت على حق. لكن مع ذلك، كان يمكن أن يصبح الأمر ممتعاً

جداً. أعتقد أنه من الأفضل أن أذهب، أليس كذلك؟ تعالي وألقي نظرة

على سيارتي.

واصل الحديث بطريقة حميمية مزعجة نوعاً ما. لم أرغب في الذهاب وإلقاء

نظرة على سيارته، وشعرت بالاضطراب والحرج البالغ. قال:

- تعالي، إنها سيارة صغيرة لطيفة، أسرع كثيراً من أي شيء يمتلكه المسكين

ماكس.

لم أستطع التفكير في عذر. بدا الأمر برمته قسرياً وطائشاً، ولم يعجبني.

ولماذا كان على السيدة دانفرز أن تقف هناك وتوجه إليّ تلك النظرة المشتعلة

في عينيها؟

قلت بوهن:

- أين السيارة؟

- عند منعطف الممر. لم أقدها حتى الباب، حيث إنني خشيت أن أزعجك.

ظننت أنك ربما تستريحين في فترة ما بعد الظهر.

لم أقل شيئاً، وبدت كذبتة واضحة جداً. خرجنا جميعاً عبر غرفة الاستقبال، ودخلنا الردهة. رأيته يلقي نظرة خلفه ويغمز للسيدة دانفرز. لم تغمز له في المقابل، ولم أتوقع أن تفعل تقريباً، إذ بدت صارمة ومتجهمّة للغاية. انطلق جاسبر خارجاً إلى الممر، وبدأ مسروراً جداً بالظهور المفاجئ لهذا الزائر الذي يبدو أنه يعرفه جيداً.

تظاهر الرجل بأنه يلقي نظرة حول الردهة، وقال:

- لقد تركت قبعتي في السيارة، على ما أعتقد. في الواقع، لم آت من هذا الاتجاه، بل تسللت من الخلف وواجهت داني في عرينها. هل ستأتين لرؤية السيارة أنت أيضاً؟

نظر مستفسراً إلى السيدة دانفرز، فترددت وهي تراقبني من طرف عينها. قالت:

- لا، لا أعتقد أنني سأخرج الآن. إلى اللقاء يا سيد جاك.

قبض على يدها وصافحها بحرارة.

- إلى اللقاء يا داني، اعتني بنفسك. أنت تعرفين أين يمكنك الاتصال بي دائماً. لقد سعدت كثيراً لرؤيتك مرة أخرى.

خرج إلى الممر، وجاسبر يتراقص عند كعبيه، وتبعته ببطء وأنا لا أزال أشعر بالانزعاج الشديد.

رفع نظره صوب النوافذ، وقال:

- ماندرلي العزيز، لم يتغير المكان كثيراً. أعتقد أن داني تتولى ذلك الأمر. يا لها من امرأة رائعة، أليس كذلك؟

قلت:

- بلى، إنها في غاية الكفاءة.

- وما رأيك في كل هذا؟ هل يعجبك كونك دافئة هنا؟

قلت بنبرة جافة:

- أنا أحب ماندرلي جداً.

- ألم تكوني تعيشين في مكان ما في جنوب فرنسا عندما قابلتك ماكس؟
مونت كارلو، أليس كذلك؟ كنت أعرف مونت كارلو جيداً.
- بلى، كنت في مونت كارلو.

وصلنا إلى سيارته، وهي سيارة رياضية خضراء، بدت شبيهة بمالكها.
قال:

- ما رأيك فيها؟

قلت بتعذيب:

- لطيفة جداً.

- أتأتين في جولة حتى بوابات الكوخ؟

- لا أعتقد أنني سأفعل، فأنا متعبة قليلاً.

- لا تعتقدين أنه من الجيد أن تظهر سيدة ماندرلي في السيارة بصحبة شخص
مثلي، أليس كذلك؟

وضحك وهو يهز رأسه تجاهي.

تضرج وجهي بعض الشيء، وقلت:

- أوه، نعم، حقاً نعم.

واصل تفحصي من رأسي حتى قدمي بطريقته التي تنم عن استمتاعه بالأمر،
بتلكما العينين الزرقاوين الوقحتين المزعجتين، وشعرت بأثني نادلة في حانة.

- أوه، حسناً، علينا ألا نقود العروس إلى الضلال، أليس كذلك يا جاسبر؟
فلن يليق ذلك أبداً.

مديده إلى قبعته وإلى زوجين ضخمين من قفازات القيادة، ثم ألقى سيجارته
على الممر.

مديده قائلاً:

- إلى اللقاء، استمتعت جداً بمقابلتك.

- إلى اللقاء.

قال بلامبالاة:

- بالمناسبة، سيكون كرمًا رائعًا منك إذا لم تذكرني زيارتي الصغيرة هذه لماكس. فأنا لا أحظى بقبوله تحديدًا، على ما أخشى، ولا أعرف السبب. وقد يتسبب ذلك في وقوع داني العجوز المسكينة في مشكلة.

قلت بحرج:

- لا، لا، حسنًا.

- هذا لطف بالغ منك. هل أنت متأكدة أنك لن تغيري رأيك، وتأتي في جولة؟
- لا، لا أعتقد أنني سأفعل، إذا لم يكن لديك مانع.

- الوداع، إذن. ربما آتي لزيارتك يومًا ما. انزل يا جاسبر، أيها الشيطان، سوف تخدش طلاء سيارتي. عليّ القول إنني أعتقد أنه من المؤسف جدًا أن يذهب ماكس إلى لندن ويتركك وحدك هكذا!

- لا مانع لديّ، فأنا أحب الانفراد بنفسي.

- أتفعلين حقًا؟ يا له من أمر غريب. كل هذا خطأ، كما تعلمين، وغير طبيعي.
كم مضى على زواجك؟ ثلاثة أشهر، أليس كذلك؟
- تقريبًا.

- عليّ القول إنني أتمنى لو كانت لديّ عروس جديدة منذ ثلاثة أشهر تنتظرني في المنزل! فأنا عازب مسكين وحيد.

ضحك مرة أخرى، وسحب قبعته على عينيه، وقال وهو يشغل المحرك:
- إلى اللقاء.

واندفعت السيارة عبر الممر يتفجر منها العادم في غضب، بينما وقف جاسبر ناظرًا في أعقابها، وقد تدلت أذناه وذيله بين ساقيه.
قلت:

- أوه، تعال يا جاسبر، لا تكن أحمق هكذا.

سرت ببطء عائدة نحو المنزل. اختفت السيدة دانفرز، فوقفتُ في الردهة وقرعت الجرس. لم يحدث شيء لمدة خمس دقائق تقريبًا، فقرعته ثانية. ما لبثت أليس أن ظهرت وقد ارتسم الضيق على وجهها إلى حدٍّ ما، وقالت:

- نعم يا سيدتي؟

قلت:

- أوه، أليس، هل روبرت موجود؟ كنت أود تناول الشاي تحت شجرة الكستناء.

قالت أليس:

- ذهب روبرت إلى مكتب البريد عصر اليوم، ولم يعد بعدُ يا سيدتي، حيث إنه فهم من السيدة دانفرز أنك ستتأخرين على تناول الشاي. كما أن فريث أيضًا غير موجود بالتأكيد. إذا أردت تناول الشاي الآن، فيمكنني إحضاره لك. لا أعتقد أن الساعة الرابعة والنصف قد حلت بعد.

قلت:

- أوه، لا يهم يا أليس. سأنتظر حتى يعود روبرت.

افترضت أن الأمور تصير متراخية تلقائيًا في غياب ماكسيم. ولم يسبق أن وجدت فريث وروبرت متغييبين معًا في الوقت نفسه. كان اليوم هو عطلة فريث بالتأكيد، وقد أرسلت السيدة دانفرز روبرت إلى مكتب البريد، وظننت أنني ذهبت للتمشية مسافة طويلة. اختار ذلك الرجل فافيل وقتًا مناسبًا لزيارة السيدة دانفرز، بل كاد يبدو اختياره مناسبًا بدرجة زائدة على الحد. كان هناك شيء خطأ في الأمر، وكنت على يقين من ذلك. وبعد ذلك، طلب مني ألا أذكر شيئًا لماكسيم. بدا الأمر برمته مربكًا جدًا. لم أرغب في توريط السيدة دانفرز في أي مشكلات، أو التسبب في أي نوع من الفضائح، والأهم من ذلك هو أنني لا أريد أن أثير قلق ماكسيم. تساءلت عمّن يكون هذا الرجل، فافيل. لقد دعا ماكسيم باسم «ماكس»، ولا يناديه أحد على الإطلاق باسم «ماكس». رأيته مكتوبًا ذات مرة، على الصفحة الأولى من كتاب، بأحرف رفيعة ومائلة، ومدببة بشكل غريب، وطرف حرف السين محدد وطويل للغاية. ظننت أن شخصًا واحدًا فقط كان يناديه باسم «ماكس»... بينما أنا واقفة هناك في الردهة مترددة بشأن الشاي، أتساءل عما يجب أن أفعله، فكرت فجأة في أن السيدة دانفرز ربما كانت مخادعة، وأنها طوال هذا الوقت

ربما كانت منغمسة في عمل ما من دون أن يعرف ماكسيم، وعند عودتي مبكرًا اليوم، اكتشفتها مع هذا الرجل، شريكها، الذي نجح في الخروج من الموقف بطريق الخداع، من خلال التظاهر بأنه يعرف المنزل وماكسيم. تساءلت عما كانا يفعلانه في الجناح الغربي. ولماذا أغلقا المصراع عندما شاهداني في الممرج؟ ملأني قلق غامض. كان فريث وروبرت غير موجودين، والخادومات بصفة عامة في غرفهن يبدلن ملابسهن خلال فترة ما بعد الظهر.

ستكون السيدة دانفرز هي المسؤولة عن المكان. ماذا لو كان هذا الرجل لصًا، والسيدة دانفرز تعمل لصالحه؟ كانت هناك أشياء ثمينة في الجناح الغربي. انتابني دافع مفاجئ مرعب للتسلل إلى الطابق العلوي الآن والذهاب إلى الجناح الغربي ودخول تلك الغرف لأرى بنفسني.

لم يعد روبرت بعد، وسيكون لديّ ما يكفي من الوقت قبل موعد الشاي. ترددت، وألقيت نظرة خاطفة نحو شرفة العازفين. بدا المنزل ساكنًا وهادئًا جدًا. كان الخدم جميعًا في المقر الخاص بهم وراء المطبخ. شرب جاسبر الماء بصخب من طبقه أسفل الدرج، وتردد صدى الصوت في الردهة الحجرية الشاسعة. بدأت أصعد الدرج، وقلبي يدق بحماس غريب.

وجدت نفسي في الممر الذي وقفت فيه صباح ذلك اليوم الأول. لم أذهب إلى هناك منذ ذلك الحين، ولم أرغب في ذلك. تدفقت الشمس من النافذة في الكوة، وصنعت نقوشًا ذهبية على الألواح الخشبية الداكنة.

لم يكن هناك صوت على الإطلاق، ووعيت لوجود نفس الرائحة العطنة المميزة للأماكن المهجورة، التي كانت موجودة من قبل. لم أكن متأكدة من الاتجاه الذي عليّ أن أسلكه، إذ لم أكن على دراية بمخطط توزيع الغرف. تذكرت حينها أنه في المرة الأخيرة خرجت السيدة دانفرز من باب هنا، ورأيت مباشرة، وبدا لي أن موقع الغرفة سيجعلها هي التي أنشدتها، حيث تظهر من نوافذها المروج المطلّة على البحر. أدّرت مقبض الباب ودخلت. ساد الظلام في الداخل بسبب المصاريح، فتحسست الجدار بحثًا عن مفتاح الإضاءة الكهربائي، وأشعلته. وقفت في غرفة جانبية صغيرة، خمنت أنها غرفة تبديل الملابس، بها خزائن كبيرة حول الجدران، وفي نهاية هذه الغرفة كان هناك باب آخر مفتوح يؤدي إلى غرفة أكبر. دخلت هذه الغرفة وأشعلت الضوء، وكان انطباعي الأول هو الشعور بالصدمة، لأن الغرفة بدت مفروشة بالكامل، كأنها قيد الاستخدام.

توقعت رؤية كراسي وطاولات مغطاة بالملاءات للحماية من الغبار، وملاءات للحماية من الغبار أيضًا فوق الفراش المزدوج الكبير المقابل للحائط، لكن لم يكن أي شيء مغطى. كانت هناك فرش وأمشاط على منضدة الزينة، وعطور وبودرة. كما كان الفراش مرتبًا، ورأيت بريق الكتان الأبيض على كيس الوسادة،

وطرف بطانية تحت غطاء الفراش المبطن. كانت هناك زهور على منضدة الزينة وعلى المنضدة بجانب الفراش، وزهور أيضًا على رف المدفأة المنقوش. وُضع روب من الساتان على كرسي، وتحت زوجان من النعال لغرفة النوم. للحظة يائسة، ظننت أن شيئًا ما أصاب عقلي، وأني أرى الزمن الماضي، وأطالع الغرفة كما كانت من قبل، قبل وفاتها... وفي غضون دقيقة، ستعود ربييكا نفسها إلى الغرفة، وتجلس أمام المرأة على منضدة الزينة، وتدندن لحناً، ثم تمد يدها نحو مشطها وتمشط شعرها. إذا جلست هناك، فسأرى انعكاس صورتها في المرأة، وستراني أيضًا وأنا أقف هكذا بجانب الباب. لم يحدث شيء، وبقيت واقفة هناك، في انتظار وقوع شيء ما. أعادتني الساعة التي تدق على الحائط إلى الواقع مرة أخرى، حيث وقفت العقارب عند الساعة الرابعة وخمس وعشرين دقيقة، وأظهرت ساعة يدي الشيء نفسه. بدا هناك شيء واقعي ومريح في دقائق الساعة، وذكّرني بالحاضر، وبأن الشاي سرعان ما سيصبح جاهزًا لي في الحديقة. سرت ببطء حتى منتصف الغرفة. لا، لم تكن مستخدمة، ولم يعد أحد يعيش فيها، وحتى الزهور لم تستطع القضاء على الرائحة العطنة. كانت الستائر مسدلة، والمصاريع مغلقة، ولن تعود ربييكا إلى الغرفة أبدًا. وحتى لو وضعت السيدة دانفرز الزهور على رف المدفأة والأغطية على الفراش، فلن يعيدها ذلك. لقد رحلت: ماتت منذ عام الآن، وترقد دفينّة في السرداب بالكنيسة مع كل الموتى الآخرين من آل دي ويتتر.

تمكنت من سماع صوت البحر بوضوح شديد. توجهت إلى النافذة، وفتحت المصراع. أجل، وقفت عند النافذة نفسها التي وقف فيها فافيل والسيدة دانفرز قبل نصف ساعة. جعل الشريط الطويل من ضوء النهار الضوء الكهربائي يبدو زائفاً أصفر اللون. فتحت المصراع بدرجة أكبر بعض الشيء، فألقى ضوء النهار شعاعاً أبيض على الفراش، والتمع على الكيس الذي يحوي قميص النوم الموضوع فوق الوسادة، كما التمع على السطح الزجاجي لمنضدة الزينة، وعلى الفرش وزجاجات العطور.

أضفى ضوء النهار على الغرفة جواً أكثر واقعية. عندما كانت المصاريع مغلقة، والغرفة مضاءة بالكهرباء، بدت كأنها ديكور على خشبة المسرح، والمشهد مُعد بين العروض بعد أن نزل الستار لهذه الليلة، وانتهت الأمسية، والفصل الأول جاهز للعرض الصباحي غداً. لكن ضوء النهار أضفى على الغرفة حياة وحيوية. نسيت الرائحة العطنة والستائر المسدلة على النوافذ الأخرى، وصرت ضيفة مرة أخرى: ضيفة غير مدعوة، دخلت غرفة نوم مضيفتي بالخطأ. كانت تلك فرشها على منضدة الزينة، وكان ذلك روبها ونعليها عند المقعد.

أدركت لأول مرة منذ دخولي الغرفة أن ساقَي ترتعشان، واهتتان كالقش. جلست على المقعد بجانب منضدة الزينة، ولم يعد قلبي يخفق على نحو غريب بحماس، بل شعرت بأنه في ثقل الرصاص. نظرت حولي في الغرفة بنوع من البلاهة الصامتة. نعم، كانت غرفة جميلة، ولم تبالغ السيدة دانفرز في ذلك المساء الأول. كانت أجمل غرفة في المنزل، برف المدفأة الرائع هذا، والسقف، وهيكل الفراش المنحوت، والستائر المعلقة، حتى الساعة على الحائط والشمعدانات على منضدة الزينة بجانبني، جميعها أشياء كنت سأحبها حد العبادة لو كانت ملكاً لي. لكنها لم تكن لي، بل كانت ملكاً لشخص آخر. مددت يدي ولمست الفرش. بدت إحداها بالية أكثر من الأخرى، وتفهمت ذلك جيداً. دوماً ما تكون هناك فرشاة تُستخدم أكثر من الأخرى، وكثيراً ما ينسى المرء استخدام الأخرى، وعند أخذها للغسيل، تكون هناك واحدة لا تزال نظيفة تقريباً ولم تُمس. كم بدا وجهي نحيفاً وشاحباً في المرأة، وشعري خفيفاً ومفروداً. هل كنت أبداً هكذا دائماً؟ بالتأكيد كان وجهي أكثر تورداً بصفة عامة؟ حرق إليّ الانعكاس، شاحباً وغير جذاب.

نهضت عن المقعد، ولمست الروب الموضوع فوق الكرسي، والتقطت النعلين وأمسكتهما في يدي. أدركت شعوري المتزايد بالرعب، ثم تحول الرعب إلى يأس. لمست اللحاف فوق الفراش، وتتبع بأصابعي الأحرف المطرزة على كيس قميص النوم: «ر. دي و.» متداخلة ومتشابكة. كانت الأحرف بارزة

وصلبة على خلفية من قماش الساتان الذهبي، وقميص النوم داخل الكيس رقيقاً كخيوط العناكب، وبلون المشمش. لمستته، وأخرجته من الكيس، ووضعتته على وجهي، فبدأ بارداً، بارداً جداً، لكنه عقب برائحة عطنة خفيفة حيث كان العطر، عطر الأزاليا البيضاء. طويته وأعدته إلى داخل الكيس، وبينما أنا أفعل ذلك، شعرت بألم خفيف في قلبي عندما لاحظت وجود تجاعيد في قميص النوم، وأن نسيجه مغضن، ولم يُمس أو يُغسل منذ أن ارتدي آخر مرة.

انتابنتي رغبة مفاجئة في الابتعاد عن الفراش، وعدت إلى الغرفة الجانبية الصغيرة حيث رأيت خزان الملبس. فتحت واحدة منها، ووجدت الأمر كما ظننت، إذ كانت الخزان مليئة بالملابس. كانت ثمة فساتين سهرة هنا، ولمحت بريق الفضة فوق حافة الأكياس البيضاء التي تغطيها. وكانت هناك قطعة من النسيج الموشى بالذهب، وبجانبها مخمل ناعم بلون النيذ. وانسدل على أرضية خزانة الملابس ذيل ثوب من الساتان الأبيض، وأطلت من بين الورق في رف بالأعلى مروحة من ريش النعام.

بدت رائحة الخزانة خائفة وغريبة، إذ إن أريج الأزاليا الذي يبدو عطراً ورقيقاً في الجو صار عطناً داخل الخزانة ولوث الفساتين الفضية والنسيج الموشى، وفاحت في اتجاهي الآن من الأبواب المفتوحة أنفاسه الباهتة القديمة. أغلقت الأبواب، وعدت إلى غرفة النوم مرة أخرى. كان وميض الضوء المنبعث من المصراع لا يزال يلتصع بوضوح باللون الأبيض على غطاء الفراش الذهبي، مظهرًا بوضوح وعلى نحو مميز حرف الراء الطويل المائل بين أحرف الاسم المطرزة.

حينها سمعت خلفي وقع خطوات، فالتفت ورأيت السيدة دانفرز. لن أنسى أبداً التعبير المرتسم على وجهها: الانتصار، والشماتة، والحماس، على نحو مرضي غريب. شعرت بالخوف الشديد.

قالت:

- هل هناك خطب ما يا سيدتي؟

حاولت الابتسام لها، ولم أستطع، فحاولتُ التحدث.

اقتربت مني وتحدثت بهدوء شديد، قائلة:

- هل تشعرين بتوعك؟

تراجعت مبتعدة عنها، وأعتقد أنني كنت سأفقد الوعي لو أنها اقتربت مني أكثر من ذلك. شعرت بأنفاسها على وجهي.

قلت بعد لحظة:

- أنا بخير يا سيدة دانفرز. لم أتوقع رؤيتك. في الواقع، كنت أنظر إلى النوافذ من الممرج، ولاحظت أن أحد المصاريع لم يكن مغلقًا تمامًا، فجئت لأرى ما إذا كان في إمكاني إحكامه.

قالت:

- سأحكم غلقه.

وعبرت الغرفة بصمت، وأحكمت المصراع. غاب ضوء النهار، فبدت الغرفة غير واقعية مرة أخرى في الضوء الأصفر الزائف: غير واقعية ومخيفة. عادت السيدة دانفرز ووقفت بجانبني. ابتسمت، وبدلاً من أن يكون سلوكها هادئاً وجامداً كالمتعاد، صار حميمياً على نحو مثير للدهشة، بل ومتملقاً حتى. سألتني:

- لماذا أخبرتني بأن المصراع مفتوح؟ أغلقته قبل أن أغادر الغرفة. لقد فتحته بنفسك الآن، أليس كذلك؟ أردت رؤية الغرفة. لماذا لم تطلبي مني أن أريها لك من قبل؟ كنت على استعداد لأن أريها لك كل يوم. ما كان عليك إلا أن تسأليني فحسب.

أردت أن أهرب، لكنني لم أستطع التحرك، فواصلت مراقبة عينيها.

قالت بصوت متملق في حلاوة العسل، وزائف على نحو فظيع:

- ها أنت ذي هنا الآن، دعيني أرك كل شيء. أعلم أنك ترغيبين في رؤيتها كلها، وقد أردت ذلك منذ فترة طويلة، لكنك شعرت بالخجل بدرجة منعتك من السؤال. إنها غرفة جميلة، أليس كذلك؟ أجمل غرفة رأيتها على الإطلاق.

أمسكت ذراعي، وقادتني نحو الفراش. لم أستطع مقاومتها، وصرت مثل كائن أبكم. بعثت فيّ لمسة يدها القشعريرة، وبدا صوتها منخفضاً وحميمياً، وهو صوت كرهته وخشيته.

- كان هذا فراشها. إنه فراش جميل، أليس كذلك؟ أُنقي الغطاء الذهبي فوقه دومًا، فقد كان المفضل لديها. وها هو ذا قميص نومها داخل الكيس. لقد لمستّه، أليس كذلك؟ كان هذا هو قميص النوم الذي ارتدته آخر مرة، قبل وفاتها. هل تريدن لمسه مرة أخرى؟

أخرجت قميص النوم من الكيس، وأمسكته أمامي قائلة:

- تحسسيه، وأمسكيه. كم هو ناعم وخفيف، أليس كذلك؟ لم أغسله منذ أن ارتدته للمرة الأخيرة. وضعته هكذا، والروب والنعلين، تمامًا كما وضعتها لها في تلك الليلة التي لم تعد فيها قطّ، في تلك الليلة التي غرقت فيها. طوت قميص النوم، وأعادته إلى الكيس. ثم أمسكت ذراعي مرة أخرى وقادتني إلى الروب والنعلين وقالت:

- اعتدت أن أفعل لها كل شيء، كما تعلمين. جربنا خادمة تلو خادمة، لكن لم تكن أيٌّ منهن مناسبة. كانت تقول: «أنتِ تخدميني أفضل من أي شخص آخر يا داني، ولن أقبل شخصًا سواك». انظري، ها هو ذا روبها. كانت تفوق قامة بكثير، يمكنك رؤية ذلك من خلال طوله. ضعيه على جسدك، إنه يصل إلى كاحليك. كانت تتمتع بقوام رائع. هاتان نعلها، وكانت تقول: «ألقي إليّ نعلَيّ يا داني». كانت قدماها صغيرتين بالنسبة إلى طول قامتها. ضعي يديك داخل النعلين، إنهما صغيرتان جدًّا وضيقتان، أليس كذلك؟

دفعَت النعلين في يدي وهي تبتسم طوال الوقت، وتراقب عيني. قالت: - لم يكن ليخطر ببالك أنها طويلة إلى هذا الحد، أليس كذلك؟ فهاتان النعلان تناسبان قدمين صغيرتين. كما كانت نحيلة جدًّا أيضًا، وكنت تنسين طول قامتها، حتى تقف بجانبك. كانت طويلة مثلي، لكنها كانت تبدو ضئيلة جدًّا وهي مستلقية هناك في الفراش، وشعرها الداكن يحيط بوجهها كالهالة.

أعادت النعلين إلى الأرض، ووضعت الروب على الكرسي، وقادتني إلى منضدة الزينة قائلة:

- لقد رأيت فرشها، أليس كذلك؟ ها هي ذي، تمامًا كما استخدمتها، لم تُغسل ولم تُمس. اعتدت أن أمشط لها شعرها كل مساء. كانت تقول: «هيا يا داني، تدريب تمشيط الشعر»، فأقف خلفها بجانب المقعد هنا، وأمشطه عشرين دقيقة في المرة الواحدة. لم تقصره إلا في السنوات الأخيرة، كما تعلمين، لكنه كان يصل إلى أسفل خصرها في بداية زواجها. اعتاد السيد دي وينتر أن يمشطه لها حينها، وكنت أدخل هذه الغرفة مرارًا وتكرارًا، فأراه مرتديًا قميصه والفرشتان في يده، وهي تضحك له وتقول: «بقوة أكبر يا ماكس، بقوة أكبر»، فيفعل كما تقول له. كانا يرتديان ملابسهما استعدادًا للعشاء، كما ترين، والمنزل ممتلئ بالضيوف، فيقول هو: «سوف أتأخر»، ويلقي الفرش إليّ وهو يضحك لها. دائمًا ما كان مبتهجًا ويضحك حينها.

توقفت عن الحديث، ويدها لا تزال على ذراعي.
قالت:

- غضب منها الجميع عندما قصت شعرها، لكنها لم تكثرث. قالت: «الأمر لا يخص أحدًا سواي». وبالطبع كان الشعر القصير أسهل كثيرًا عند ركوب الخيل والإبحار. رُسمت لها لوحة وهي على ظهر حصان، كما تعلمين، رسمها فنان شهير. عُرضت اللوحة في الأكاديمية الملكية للفنون، هل رأيته من قبل؟

هزرت رأسي، وقلت:

- لا، لا.

واصلت قائلة:

- كانت لوحة العام حسب ما فهمت، لكنها لم تعجب السيد دي وينتر ورفض جلبها إلى ماندرلي. أعتقد أنه وجدها لا تفيها حقها. تريد رؤية ملابسها، أليس كذلك؟

لم تنتظر إجابتي، وقادتنني إلى غرفة الانتظار الصغيرة وفتحت الخزان، واحدة تلو واحدة.

قالت:

- أحتفظ بفرائها هنا، ولم تصل العث إليه بعد، وأشك أنها ستفعل أبدًا، فأنا شديدة الحرص. تحسسي ذلك الدثار من فراء السمور. كان هدية في عيد الميلاد من السيد دي وينتر، وقد أخبرتني عن ثمنه مرة، لكنني نسيت الآن. أما فراء الشنشيلة هذا، فقد اعتادت ارتدائه في الأمسيات غالبًا، حول كتفيها في معظم الأحيان، عندما يكون المساء باردًا. هذه الخزانة هنا مليئة بملابس السهرة خاصتها. لقد فتحتها، أليس كذلك؟ فالمزلاج ليس مغلقًا تمامًا. أعتقد أن السيد دي وينتر كان يحب أن ترتدي اللون الفضي في الغالب، لكن بالطبع كان يمكنها ارتداء أي شيء، ويليق بها أي لون. بدت جميلة في هذا المخمل. ضعيه على وجهك، إنه ناعم، أليس كذلك؟ يمكنك أن تحسي به، أليس كذلك؟ ولا تزال رائحته منعشة، أليس كذلك؟ يكاد المرء يتخيل أنها خلعتة للتو. دائمًا ما كنت أعرف إذا كانت موجودة قبلي في الغرفة، إذ تبقى نفحة من شذاها في الغرفة. هذه ملابسها الداخلية، في هذا الدرج، وهذا الطقم الوردي هنا لم ترتديه قط. كانت ترتدي سروالًا وقميصًا بالطبع عندما ماتت، لكن الماء انتزعهما من على جسدها، ولم يكن هناك شيء على الجثة عندما عُثر عليها، بعد كل تلك الأسابيع.

شدت قبضة أصابعها على ذراعي، وانحنت نحوي واقتربت بوجهها الشبيه بالجمجمة، وعيناها الداكنتان تفتشان في عيني، وهمست:

- ضربتها الصخور حتى صارت أشلاء، كما تعلمين، ولم يعد من الممكن التعرف على وجهها الجميل، واختفت ذراعاها. تعرّف عليها السيد دي وينتر، وذهب إلى إيدجكوم لفعل ذلك. ذهب وحده تمامًا، وكان مريضًا جدًا حينها، لكنه صمم على الذهاب، ولم يستطع أحد منعه، ولا حتى السيد كرولي.

توقفت عن الحديث من دون أن تغادر عيناها وجهي على الإطلاق، ثم تابعت:

- سألوم نفسي دائماً على الحادث، فقد كان خطئي لأنني غادرت المنزل في ذلك المساء. ذهبت إلى كيريث عصرًا، وبقيت هناك حتى وقت متأخر، حيث كانت السيدة دي وينتر في لندن، ولم يكن من المتوقع عودتها إلا بعد ذلك بكثير، لهذا لم أسرع في العودة. وعندما رجعتُ في الساعة التاسعة والنصف تقريبًا، سمعت أنها عادت قبل الساعة بقليل، وتناولت العشاء، ثم خرجت مرة أخرى، ونزلت إلى الشاطئ بالتأكيد. شعرت بالقلق حينها، إذ كانت الريح تهب من الجنوب الغربي، ولم تكن لتذهب قطُّ لو كنتُ موجودة. دائماً ما كانت تستمع إليّ. كنت سأقول: «لا تخرجي هذا المساء، فالجو غير ملائم»، وكانت هي ستجيبني: «حسنًا يا داني، أيتها العجوز القلوق». وكنا نجلس هنا ونحدث بلا شك، وتخبرني هي بكل ما فعلته في لندن، كعادتها دائماً.

أصيبت ذراعي بالكدمات وشعرت بالخدر من ضغط أصابعها. ورأيت كم يبدو الجلد مشدودًا على وجهها، مظهرًا عظام وجنتيها، وكانت هناك بقع صفراء صغيرة تحت أذنيها. تابعت قائلة:

- تناول السيد دي وينتر العشاء مع السيد كرولي في منزله، ولا أعرف متى عاد، أعتقد أنه كان بعد الحادية عشرة. لكن الريح بدأت تهب بشدة قبل منتصف الليل بقليل، ولم تعد بعد. نزلت إلى الطابق السفلي، لكن لم يكن هناك ضوء منبعث من تحت باب المكتبة. صعدت إلى الطابق العلوي مرة أخرى، وطرقت باب غرفة تبديل الملابس. أجاب السيد دي وينتر على الفور: «من أنت، وماذا تريد؟». أخبرته بأنني قلقة بشأن عدم عودة السيدة دي وينتر. انتظر لحظة، ثم جاء وفتح الباب مرتدًا رويه، وقال: «أعتقد أنها ستقضي الليلة في الكوخ. سأعود إلى الفراش، لو كنت مكانك، فلن

تعود للنوم هنا إذا استمر الجو على هذا النحو». بدا متعبًا، ولم أرغب في إزعاجه، ففي النهاية كانت قد أمضت ليالي كثيرة في الكوخ، وأبحرت في جميع حالات الطقس. وربما لم تذهب إلى الإبحار حتى، بل أرادت قضاء الليلة في الكوخ فحسب، على سبيل التغيير بعد لندن. تمنيت للسيد دي وينتر أمسية طيبة، وعدت إلى غرفتي. لكن على الرغم من ذلك فلم أتم، وظللت أتساءل عما تفعله.

توقفت عن الحديث مرة أخرى، ولم أعد أرغب في سماع المزيد. أردت الابتعاد عنها، بعيدًا عن الغرفة.

قالت:

- جلستُ على فراشي إلى الساعة الخامسة والنصف، حتى لم أعد أطيع الانتظار هناك أكثر من ذلك. نهضت وارتديت معطفي ونزلت عبر الغابة إلى الشاطئ. بدأ الضوء يسطع، لكن كان لا يزال هناك مطر ضبابي يتساقط، على الرغم من سكون الريح. عندما وصلت إلى الشاطئ، رأيت العوامة هناك في الماء، والزورق الصغير، لكن القارب اختفى...

بدا لي أنني أستطيع رؤية الخليج في ضوء الصباح الرمادي، والشعور برذاذ المطر الرقيق على وجهي، ولو حدثت من وسط الضباب، سأميز على نحو غائم غير واضح حدود العوامة الداكنة المنخفضة.

خفت السيدة دانفرز الضغط على ذراعي، وسقطت يدها إلى جانبها مرة أخرى. خلت نبرة صوتها من أي تعبير، وعادت إلى صوتها الآلي الصارم المعتاد كل يوم.

قالت:

- جلب الموج إحدى العوامات إلى الشاطئ في كيريث عصرًا، وعثر بعض صائدي السلطعون على الأخرى في اليوم التالي على الصخور تحت الرأس البحري. كما أخذت أجزاء من حبال الأشرعة والصواري أيضًا تأتي مع المد. أشاحت عني، وأغلقت خزانة الأدراج، وعدلت إحدى اللوحات على الحائط،

ثم التقطت قطعة من الزغب من السجادة. وقفت أراقبها من دون أن أعرف ماذا أفعل.

قالت:

- ها أنتِ ذي تعرفين الآن، لماذا لم يعد السيد دي وينتر يستخدم هذه الغرفة. اسمعي صوت البحر.

حتى مع إغلاق النوافذ وإحكام المصاريع، كان في وسعي سماعه: همهمة خافتة كثيفة، والأمواج تتكسر على الحصى الأبيض في الخليج. سيأتي المد سريعاً الآن، ويجري عبر الشاطئ حتى يكاد يصل إلى الكوخ الحجري.

قالت:

- لم يستخدم هذه الغرفة منذ الليلة التي غرقت فيها، وطلب نقل أغراضه من غرفة تبديل الملابس. جهزنا إحدى الغرف في نهاية الممر، لكن لا أعتقد أنه حظي بكثير من النوم هناك. اعتاد الجلوس في المقعد، وكان رماد السجائر يحيط به في كل مكان في الصباح. وفي النهار، كان فريث يسمعه في المكتبة وهو يروح جيئةً وذهاباً، جيئةً وذهاباً، جيئةً وذهاباً.

استطعت أنا أيضاً رؤية رماد السجائر على الأرض بجانب المقعد، واستطعتُ أيضاً سماع وقع خُطاه: واحد، اثنان، واحد، اثنان، جيئةً وذهاباً عبر المكتبة... أغلقت السيدة دانفرز الباب بهدوء بين غرفة النوم والغرفة الجانبية حيث كنا نقف، وأطفأت الضوء. لم أعد أستطيع رؤية الفراش، ولا كيس قميص النوم على الوسادة، ولا منضدة الزينة، ولا النعلين بجوار الكرسي. اجتازت الغرفة الجانبية ووضعت يدها على مقبض الباب ووقفت في انتظار أن أتبعها.

قالت:

- آتي إلى هذه الغرفة وأنفض الغبار عنها بنفسني كل يوم، وإذا أردتِ المجيء مرة أخرى، فما عليك إلا أن تخبريني فحسب. اتصل بي على الهاتف المنزلي، وسوف أتفهم الأمر. لا أسمح للخادومات بالصعود إلى هنا، ولا أحد يأتي إلى هنا على الإطلاق سواي.

صار أسلوبها متملقاً مرة أخرى، وحميمياً وبغيضاً.

بدت الابتسامة على وجهها زائفة وغير طبيعية.

- في بعض الأحيان عندما يكون السيد دي وينتر غائباً، وتشعرين بالوحدة، قد ترغبين في القدوم إلى هذه الغرفة والجلوس هنا. ما عليك إلا أن تخبريني. إنها غرف جميلة جداً، ولا يمكن أن تعتقدي أنها غابت طوال هذا الوقت، نظرًا إلى طريقة الاهتمام بالغرف، أليس كذلك؟ بل قد تعتقدين أنها خرجت للتو لفترة قصيرة، وستعود في المساء.

أجبرت نفسي على الابتسام، ولم أستطع الحديث، وشعرت بضيق وجفاف في الحلق. قالت:

- ليست هذه الغرفة فحسب، بل في عديد من الغرف في المنزل: في غرفة الجلوس الصباحية، وفي الردهة، وحتى في غرفة الزهور الصغيرة، أشعر بوجودها في كل مكان. وأنت أيضًا، أليس كذلك؟ حدقت إليّ بفضول، وانخفض صوتها حتى صار همسًا:

- في بعض الأحيان، عندما أسير في الممر هنا، أتخيل أنني أسمعها خلفي مباشرة. تلك الخطى السريعة الخفيفة، لا يمكنني أن أخطئها في أي مكان. وفي شرفة العازفين فوق الردهة، رأيتها متكئة هناك في الأمسيات في الأيام الخوالي، تطل على الردهة في الأسفل وتنادي الكلبين. يمكنني تخيلها هناك الآن من وقت إلى آخر. يبدو الأمر كأنني أكاد أسمع حفيف ثوبها وهو يكنس الدرج في أثناء نزولها لتناول العشاء.

توقفت عن الحديث وواصلت النظر إليّ وهي تراقب عينيّ، ثم قالت ببطء:

- هل تعتقدين أن الموتى يعودون ويراقبون الأحياء؟

ازدردت ريقِي، وكورت قبضتي حتى غاصت أظفاري في كفي. قلت:

- لا أدري، لا أدري.

وبدت نبرة صوتي مرتفعة وغير طبيعية، ولا تشبه صوتي على الإطلاق.
همست قائلة:

- أحيانًا ما أتساءل. أحيانًا ما أتساءل عما إذا كانت تعود هنا إلى ماندري،
وتراقبك أنتِ والسيد دي ويتتر معًا.

وقفنا هناك بجانب الباب، نحدق إلى بعضنا، ولم أستطع إبعاد عيني عن عينيها.
كم بدت عيناها داكنتين وكئيبتين في وجهها الشاحب ذاك الشبيه بالجمجمة، وكم
بدتا حادتين ومليئتين بالكراهية. ثم فتحت الباب المؤدي إلى الممر، وقالت:
- لقد عاد روبرت الآن. عاد قبل ربع ساعة، ولديه أوامر بأخذ الشاي الخاص
بك تحت شجرة الكستناء.

تنحت جانبًا كي تسمح لي بالمرور، فتعثرْتُ خارجة إلى الممر من دون أن
أنظر إلى موضع خطواتي. لم أتحدث إليها، ونزلت الدرج على عجل، وانعطفت
حول الزاوية ودفعت الباب المؤدي إلى غرفتي في الجناح الشرقي. أغلقت باب
غرفتي وأدرت المفتاح، ووضعت المفتاح في جيبي، ثم استلقيت على فراشي
وأغمضت عيني. شعرت بالاعتلال على نحو قاتل.

اتصل ماكسيم في صباح اليوم التالي ليقول إنه سيعود في الساعة السابعة تقريبًا. تلقى فريث الرسالة، ولم يطلب ماكسيم التحدث إليّ بنفسه. سمعت رنين الهاتف وأنا أتناول الإفطار، وظننت أن فريث قد يأتي إلى غرفة الطعام ويقول: «السيد دي وينتر على الهاتف يا سيدتي». أنزلت منديلي ونهضت واقفة على قدمي، ثم عاد فريث إلى غرفة الطعام وأعطاني الرسالة.

رآني أدفع مقعدي إلى الخلف وأتوجه إلى الباب، فقال:

- لقد أنهى السيد دي وينتر المكالمة يا سيدتي. لم تكن هناك رسالة، إلا أنه سيعود في الساعة السابعة تقريبًا.

جلست على مقعدي مرة أخرى، والتقطت منديلي. لا بد أن فريث ظنني متلهفة وحمقاء لأنني أسرع عبر غرفة الطعام.

قلت:

- حسنًا يا فريث، شكرًا لك.

واصلت أكل البيض ولحم الخنزير المقدد، وجاسبر عند قدمي، والكلبة العجوز في سلتها في الزاوية. تساءلت عما سأفعله خلال يومي. لم أتم جيدًا، ربما لأنني كنت وحدي في الغرفة. عانيت القلق، واستيقظت كثيرًا، وعندما ألقيت نظرة على ساعتني رأيت أن العقارب تحركت بالكاد. وعندما أخلدت إلى النوم، راودتني أحلام متنوعة تدور حول التجوال. كنا نسير في الغابة، أنا وماكسيم، ودائمًا ما كان يسبقني بقليل، ولم أستطع مواكبته، كما لم أتمكن من

رؤية وجهه، بل مجرد هيئته وهو يخطو أمامي بعيدًا طوال الوقت. لا بد أنني بكيت في أثناء نومي، لأن الوسادة كانت رطبة حينما استيقظت في الصباح، وبدت عيناى مرهقتين أيضًا عندما نظرت في المرأة. بدوت عادية، وغير جذابة. فركت بعضًا من الحمرة على وجنتي في محاولة بائسة كي أضفي على نفسي بعض التورد، إلا أن ذلك زاد الأمر سوءًا، ومنحني مظهر مهرج زائف. ربما لم أكن على دراية بأفضل طريقة لوضعها. لاحظت روبرت يحدق إليَّ عندما عبرت الردهة وذهبت لتناول الإفطار.

رن الهاتف مرة أخرى في الساعة العاشرة صباحًا تقريبًا، عندما كنت أفتت بعض قطع الخبز للطيور على الشرفة. كانت المكالمة لي هذه المرة، وجاء فريث وقال إن السيدة لاسي تريد التحدث إليَّ.

قلت:

- صباح الخير يا بياتريس.

بدا صوتها عبر الهاتف معبرًا عنها على نحو نموذجي: مفعمًا بالحيوية، وذكريرًا نوعًا ما، وجادًا. قالت:

- حسنًا يا عزيزتي، كيف حالك؟

ثم تابعت من دون أن تنتظر جوابي:

- فكرت في المجيء بالسيارة عصر اليوم، وزيارة جدتي. سأتناول الغداء مع أشخاص على بُعد عشرين ميلًا منك تقريبًا. هل آتي لاصطحابك كي نذهب معًا؟ آن الأوان لمقابلة السيدة العجوز، كما تعلمين.

قلت:

- سيسعدني ذلك كثيرًا يا بياتريس.

- رائع، حسنًا إذن، سأتي لاصطحابك في الساعة الثالثة والنصف تقريبًا. قابل جايلز ماكسيم خلال مأدبة العشاء، وقال إن الطعام كان رديئًا، لكن النبيذ ممتاز. حسنًا يا عزيزتي، أراك لاحقًا.

سمعتُ تكة السماعه، ثم غابت، فعدت إلى الحديقة. سررت لأنها اتصلت

واقترحت خطة الذهاب وزيارة الجدة، إذ مثل ذلك شيئاً يمكن التطلع إليه، وكسر رتابة اليوم. بدت الساعات طويلة جداً حتى الساعة السابعة. لم تكن حالتي المزاجية اليوم كما لو أنني في عطلة، ولم تكن لديّ رغبة في التوجه مع جاسبر إلى الوادي السعيد والذهاب إلى الخليج ورمي الحجارة في الماء. تلاشى الشعور بالحرية، والرغبة الطفولية في الركض عبر المروج بأحذية قماشية. ذهبت وجلست في حديقة الورد ومعني كتاب وصحيفة «التايمز»، وأغراض حياكتي، وبقيت في البيت كربة منزل، أتناوب تحت أشعة الشمس الدافئة بينما النحل يطن وسط الورد.

حاولت التركيز على الأعمدة البسيطة في الصحيفة، وبعد ذلك حاولت الاندماج في حبكة الرواية المثيرة التي بين يدي. لم أرغب في التفكير في عصر أمس، والسيدة دانفرز. حاولت نسيان أنها في المنزل في هذه اللحظة، ربما تنظر إليّ من إحدى النوافذ. ومن حين إلى حين، عندما كنت أرفع عيني عن كتابي أو أنظر عبر الحديقة، راودني شعور بأنني لست وحدي.

كان هناك كثير من النوافذ في ماندريلي، وكثير من الغرف التي لا أستخدمها أنا وماكسيم على الإطلاق، التي صارت خالية الآن: غرف صامته أثاثها مغطى بالملاءات للحماية من الغبار، كانت مشغولة في الأيام الخوالي عندما كان والده وجده على قيد الحياة، وحينما كانوا يستضيفون كثيراً من الناس ولديهم كثير من الخدم. سيكون من السهل بالنسبة إلى السيدة دانفرز أن تفتح تلك الأبواب بهدوء وتغلقها مرة أخرى، ثم تتسلل بصمت عبر الغرفة التي تلفها الملاءات، وتنظر إليّ من خلف الستائر المسدلة.

لن أعرف بالأمر، وحتى لو أدركت مقعدي ونظرت إلى النوافذ، فلن أراها. تذكرت لعبة اعتدت لعبها في أثناء طفولتي، أطلق عليها أصدقائي من الجيران اسم «خطوات الجدة»، وأسميتها أنا «الساحرة العجوز». كان عليك أن تقف عند طرف الحديقة وتدير ظهرك للآخرين، ثم يشرعون في التسلل نحوك الواحد تلو الواحد، ويتقدمون على نحو ماهر وخاطف. وكنت تستدير كل بضع دقائق

لتنظر نحوهم، وإذا رأيت أحدهم يتحرك، يتعين على المذنب العودة إلى خط البداية والبدء من جديد. لكن دومًا ما كان هناك شخص أكثر جرأة بعض الشيء من البقية، يقترب بشدة، ويستحيل كشف حركته، وبينما أنت تنتظر هناك وتوليه ظهره، وتعد حتى عشرة حسب القواعد، كنت تعلم بيقين مرعب وقاتل أنه قبل انقضاء كثير من الوقت، وقبل الانتهاء حتى من العد إلى عشرة، سينقض عليك هذا اللاعب الجريء من الخلف بصرخة انتصار، من دون توقع ومن دون أن تراه. شعرت بالتوتر والترقب كما كنت أشعر آنذاك. كنت ألعب «الساحرة العجوز» مع السيدة دانفرز.

كان الغداء بمنزلة فاصل مُرحب به وسط النهار الطويل، ومثلت كفاءة وهدوء فريث، وبلاهة ملامح روبرت نوعًا ما عونًا لي، أكثر من كتابي وصحيفتي. في الثالثة والنصف، في الموعد المحدد تمامًا بالدقيقة، سمعت صوت سيارة بياتريس تدور عند منعطف الممر، وتتوقف عند الدرج أمام المنزل. هرعت خارجة للقائها وأنا جاهزة بعد أن بدلت ملابس، وقفازي في يدي. أغلقت باب السيارة بعنف، وصعدت الدرج لمقابلتي، وقالت:

- حسنًا يا عزيزتي، هأنذا، يا له من يوم رائع، أليس كذلك؟

أعطتني قُبلة قوية سريعة، ولمستني في مكان ما بالقرب من أذني.

تفحصتني من رأسي حتى قدمي، وقالت على الفور:

- إنك لا تبدين على ما يرام، فوجهك شاحب وناحل بشدة. ما الخطب؟

قلت بتواضع، وأنا أعلم عيب وجهي جيدًا:

- لا شيء، أنا لست شخصًا ينعم بوجه متورد بدرجة كبيرة.

أجابت:

- هراء، لقد بدوت مختلفة تمامًا عندما رأيتك من قبل.

قلت وأنا أركب السيارة:

- أعتقد أن السمرة التي اكتسبتها في إيطاليا قد زالت.

قالت بفضافة:

- هه! أنتِ فظيعة مثل ماكسيم، ولا تتحملين أي انتقاد بشأن صحتك. اصفقي الباب بقوة، وإلا لن يُغلق.

بدأنا نتحرك عبر الممر، وانحرفنا عند المنعطف، ونحن نسير بسرعة زائدة على الحد نوعاً ما. أدارت نحوي عينيها البنيتين الشبيهتين بعيني الصقر، وقالت: - أنتِ لست جبلى بأي حال من الأحوال، أليس كذلك؟ قلت بحرج:

- نعم، لا أعتقد ذلك.

- ولا تعانين الغثيان في الصباح أو أي شيء من هذا القبيل؟ - لا.

- أوه، حسناً، بالطبع لا يحدث ذلك دائماً. لم تهتز لي شعرة قطُّ عند ولادة روجر، وشعرت بأنني في أتم صحة طوال الأشهر التسعة، ولعبت الجولف في اليوم السابق لوصوله. لا شيء يدعو إلى الحرج في حقائق الطبيعة، كما تعلمين، وإذا كانت لديك أي شكوك فمن الأفضل أن تخبريني. قلت:

- لا، حقاً يا بياتريس، ليس هناك ما أخبرك به.

- عليّ الاعتراف بأنني أمل أن تنجبي ابناً ووريثاً قبل مرور وقت طويل، وسيكون ذلك مفيداً جداً لماكسيم. أتمنى ألا تكوني تفعلين شيئاً لمنع ذلك. قلت:

- بالطبع لا.

يا لها من محادثة غريبة.

قالت:

- أوه، لا تشعرني بالصدمة، عليك ألا تلقي بالاً أبداً لما أقوله. وفي النهاية، فإن العرائس اليوم يفعلن كل شيء. الأمر مزعج للغاية إذا أردت ممارسة الصيد، وانتهى بك المطاف ولديك رضيع في أول موسم لك. وهو كافٍ تماماً لتدمير الزيجة إذا كان كلاكما مصمماً على رأيه. لكن هذا لا يهم في

حالتك، إذ لا داعي إلى أن يتعارض وجود رضيع مع الرسم. كيف حال الرسم، بالمناسبة؟

قلت:

- أخشى أنني لا أرسم كثيرًا، على ما يبدو.
- أوه، حقًا؟ إن الجو لطيف أيضًا، وملائم للجلوس في الخارج. كل ما تحتاجين إليه هو كرسي قابل للطي وعلبة أقلام رصاص، أليس كذلك؟
أخبريني، هل أثارت تلك الكتب التي أرسلتها إليك اهتمامك؟

قلت:

- نعم بالتأكيد، كانت هدية رائعة يا بياتريس.

بدا عليها السرور، وقالت:

- أنا سعيدة لأنها أعجبتك.

انطلقت السيارة بسرعة، وأبقت قدمها على دواسرة الوقود باستمرار، ودارت عند كل منعطف بزواية حادة. أطل اثنان من سائقي السيارات الذين مررنا بهم من نافذتيهما غاضبين عندما مرّت بسرعة بجانبهما، ولوّح أحد المشاة في الممر بعصاه نحوها. شعرت بالحرَج نوعًا ما نيابة عنها، لكن لم يبدُ أنها تلحظ الأمر. جلست في مقعدي منخفضة إلى الأسفل.

قالت:

- سيذهب روجر إلى أكسفورد في الفصل الدراسي المقبل، والرب وحده يعلم ما الذي سيفعله. أعتقد أن ذلك مضيعة رهيبة للوقت، كما يعتقد جايلز هذا أيضًا، لكننا لم نستطع التفكير في شيء آخر نفعله معه. وهو مثلي أنا وجايلز بالطبع، لا يفكر إلا في الخيل. ما الذي تعتقد هذه السيارة التي أمانا أنها تفعله، بحق السماء؟ لماذا لا تمد يدك إلى الخارج، أيها الرجل الطيب؟ حقًا، يجب إطلاق النار على بعض هؤلاء الأشخاص الموجودين على الطريق اليوم.

انحرفنا إلى الطريق الرئيسي، وتفادينا السيارة التي أمانا بصعوبة. سألتني:

- هل استضفتما أي أشخاص لقضاء الليلة؟

قلت:

- لا، لقد التزمنا الهدوء الشديد.

قالت:

- هذا أفضل كثيرًا أيضًا، فلطالما ظننت أن تلك الحفلات الكبيرة مثيرة للضجر. لن تجدي الأمر مثيرًا للقلق على الإطلاق إذا أتيت للبقاء معنا، فهناك كثير من الأشخاص اللطفاء في كل مكان، وجميعنا نعرف بعضنا جيدًا. نتناول العشاء في منازل بعضنا بعضًا، ونشارك لعب البريدج، ولا نلقي بالآل للغرباء. أنت تلعبين البريدج، أليس كذلك؟
- لست بارعة جدًا يا بياتريس.

- أوه، لن نمانع ذلك، ما دمت تستطيعين اللعب. لا صبر لديّ على الناس الذين يرفضون التعلم، فما الذي يمكن أن يفعله المرء معهم، بحق السماء، ما بين وقت الشاي والعشاء في فصل الشتاء، وبعد العشاء؟ لا يمكن أن يجلس المرء ويتبادل الحديث فحسب.

تساءلت لماذا، ومع ذلك، كان من الأسهل عدم قول أي شيء.
واصلت قائلة:

- الأمر ممتع جدًا الآن، بعد وصول روجر إلى سن معقولة، لأنه يجلب أصدقاءه لقضاء الليلة، ونقضي وقتًا ممتعًا جدًا. كان يجب أن تكوني معنا في عيد الميلاد الماضي، إذ أدينا التمثيليات التحزيرية، وكانت تلك أعظم متعة يا عزيزتي. كان جايلز في أفضل حالاته، فهو يعشق التنكر، كما تعلمين، وبعد كأس أو اثنتين من الشمبانيا يصير أكثر شيء مضحك شاهدته على الإطلاق.
كثيرًا ما نقول إنه فاتته الفرصة، وكان يجب أن يعتلي خشبة المسرح.

فكرت في جايلز بوجهه الضخم السمين، ونظارته المصنوعة من قرون الحيوانات، وشعرت بأن منظره وهو يثير الضحك بعد تناول الشمبانيا سيكون محرجًا بالنسبة إليّ. واصلت الحديث وقالت:

- ارتدى هو ورجل آخر، صديقنا المقرب ديكي مارش، ملابس النساء، وغنيا أغنية معًا. لم يعلم أحد ما علاقة ذلك تحديدًا بالكلمة التي في التمثيلية التحزيرية، لكن لم تكن لذلك أي أهمية، إذ ضج الجميع بالضحك. ابتسمت بأدب، وقلت:

- أتخيل كم يبدو هذا مضحكًا.

تخيلتهم جميعًا يهتزون من فرط الضحك في غرفة استقبال بياتريس، كل هؤلاء الأصدقاء الذين يعرف بعضهم بعضًا جيدًا جدًا. لا بد أن روجر يشبه جايلز. عادت بياتريس تضحك مرة أخرى بسبب الذكرى، وقالت:

- جايلز المسكين، لن أنسى وجهه أبدًا، عندما رش ديك الصودا في ظهره، وانفجرنا جميعًا في الضحك.

راودني شعور بالقلق من أنه قد يُطلب منا قضاء عيد الميلاد المقبل مع بياتريس. ربما يمكنني تصنع الإصابة بالإنفلونزا.

قالت:

- بالطبع لم يكن تمثيلنا متقنًا جدًا على الإطلاق، بل كان مجرد تسلية كبيرة بيننا، لكن يوجد مجال في ماندركلي لإقامة عرض رائع حقًا. أذكر عرضًا أقاموه هناك منذ سنوات عديدة، وأتى أشخاص من لندن لتقديره. بالطبع يحتاج مثل هذا النوع من الأشياء إلى تنظيم هائل.

قلت:

- أجل.

ظلت صامته بعض الوقت، وقادت السيارة من دون أن تتحدث.

قالت بعد لحظة:

- كيف حال ماكسيم؟

قلت:

- بخير، شكرًا.

- هل هو مبتهج إلى حدٍّ ما وسعيد؟

- أوه، أجل. نعم، نوعًا ما.

جذب انتباهها شارع ضيق في القرية، وتساءلتُ عما إذا كان يجب أن أخبرها عن السيدة دانفرز، وعن ذلك الرجل فافيل. لكن لم أَردها أن ترتكب خطأً، وربما تخبر ماكسيم.

حسنت رأيي، وقلت:

- بياتريس، هل سمعت عن شخص يُدعى فافيل؟ جاك فافيل؟
كررت قائلة:

- جاك فافيل، نعم، أعرف الاسم بالفعل. انتظري دقيقة، جاك فافيل، بالطبع. إنه وغد فظيع، قابلته مرة منذ زمن طويل.
قلت:

- لقد جاء إلى ماندرلي أمس لزيارة السيدة دانفرز.
- حقًا؟ أوه، حسنًا، ربما يفعل...

قلت:

- لماذا؟

قالت:

- أعتقد تقريبًا أنه كان ابن عم ربيكا.
اندهشت بشدة. هل كان ذلك الرجل من أقاربها؟ لم تكن تلك هي فكرتي عن نوعية أبناء عمومة ربيكا. جاك فافيل ابن عمها. قلت:
- أوه، لم أدرك ذلك.

قالت بياتريس:

- غالبًا ما كان يذهب إلى ماندرلي كثيرًا، لا أدري. لا أستطيع أن أؤكد لك،
فنادرًا ما كنت أذهب إلى هناك.

بدا أسلوبها مقتضبًا، وأعطاني الانطباع بأنها لا تريد مواصلة الحديث عن

الموضوع.

قلت:

- لم أمل إليه بدرجة كبيرة.

قالت بياتريس:

- لا، أنا لا ألو مك.

انتظرتُ، لكنها لم تقل شيئاً آخر، واعتقدت أنه من الحكمة عدم إخبارها كيف طلب مني فافيل إبقاء أمر زيارته سرّاً، إذ قد يؤدي ذلك إلى بعض التعقيدات. علاوة على ذلك، فقد اقتربنا للتوّ من وجهتنا: زوجان من البوابات البيضاء، وممر مفروش بالحصى الناعم.

قالت بياتريس:

- لا تنسي أن المرأة العجوز عمياء تقريباً، كما أن ذهنها ليس صافياً تماماً هذه الأيام. اتصلت هاتفياً بالمرضة وأبلغتها أننا قادمتان، لذلك سيكون كل شيء على ما يرام.

كان المنزل ضخماً من الطوب الأحمر، وله جمالونات، ويعود إلى أواخر العصر الفيكتوري، على ما أظن. لم يكن منزلاً جذاباً، وعرفت من أول وهلة أنه من ذلك النوع من المنازل الذي يحافظ عليه عدد كبير من الخدم، وكل ذلك من أجل سيدة عجوز واحدة، تكاد تكون عمياء.

فتحت خادمة أنيقة الباب.

قالت بياتريس:

- مساء الخير يا نورا، كيف حالك؟

- بخير، شكراً لك يا سيدتي. أتمنى أن تكوني بخير.

- أوه، أجل، جميعنا بخير. كيف حال السيدة العجوز يا نورا؟

- حالها تتفاوت يا سيدتي، فهي تنعم بيوم طيب، يليه يوم سيئ، لكن صحتها في حد ذاتها ليست سيئة، كما تعلمين. أنا متأكدة أنها سوف تسعد لرؤيتك. نظرت إليّ بفضول.

قالت بياتريس:

- هذه السيدة ماكسيم.

قالت نورا:

- أجل يا سيدتي، كيف حالك؟

مررنا عبر رواق ضيق، وغرفة استقبال مزدحمة بالأثاث، حتى وصلنا إلى شرفة تواجه حديقة مربعة مجزوزة العشب. كان هناك عديد من زهور الجارونيا الزاهية في مزهريات حجرية على درجات الشرفة. وفي الركن كان هناك كرسي له عجلات، جلست عليه جدة بياتريس مستندة إلى الوسائد، ومحاطة بالشيلان. عندما اقتربنا منها، رأيت أن بها شيئاً قوياً، وغريباً نوعاً ما، من ماكسيم. سيبدو ماكسيم هكذا، إذا كان عجوزاً للغاية، أو إذا كان أعمى. نهضت الممرضة الجالسة بجانبها عن كرسيها، ووضعت علامة في الكتاب الذي كانت تقرأه بصوت مرتفع، وابتسمت لبياتريس.

قالت:

- كيف حالك يا سيدة لاسي؟

صافحتها بياتريس، وقدمتني، ثم قالت:

- تبدو السيدة العجوز بخير. لا أعرف كيف تفعل ذلك، في سن السادسة والثمانين.

رفعت صوتها قائلة:

- ها نحن أولاء يا جدتي، وصلنا بسلام وأمان.

نظرت الجدة في اتجاهنا، وقالت:

- عزيزتي بي، كم هو لطف منك أن تأتي لزيارتي. فنحن نشير الضجر بشدة هنا، ولا يوجد ما يمكنك فعله.

انحنى عليها بياتريس وقبّلتها، وقالت:

- لقد جلبت زوجة ماكسيم لزيارتك. أرادت أن تأتي لرؤيتك من قبل، لكنها هي وماكسيم كانا مشغولين جداً.

وكزتني بياتريس في ظهري، وغمغمت:

- قبّلها.

فانحنيت أنا أيضًا وقبلتها على وجنتها.
لمست الجدة وجنتي بأصابعها، وقالت:
- أنت لطيفة، إنه لكرم بالغ منك أن تأتي. سررت جدًا لرؤيتك يا عزيزتي.
كان يجب أن تحضري ماكسيم معك.
قلت:

- ماكسيم في لندن، وسيعود الليلة.
قالت:

- ربما تمكنت من إحضاره في المرة المقبلة. اجلسي على هذا المقعد
يا عزيزتي، حيث أستطيع رؤيتك. بي، تعالي إلى الجانب الآخر. كيف
حال العزيز روجر؟ إنه فتى شقي، لا يأتي لزيارتي.
صاحت بياتريس:

- سيأتي خلال شهر أغسطس. سيترك إيتون، كما تعلمين، وسيذهب إلى
أكسفورد.

- أوه، يا إلهي، سيصير شابًا، ولن أعرفه.
قالت بياتريس:

- صار أطول قامة من جايلز الآن.
ومضت تخبرها عن جايلز وروجر والخيول والكلاب. جلبت الممرضة
الصوف الذي تحبكه، وأصدرت إبرها طقطقة حادة. التفتت نحوي وهي مشرقة
ومبتهجة جدًا.

- هل أعجبك ماندرلي يا سيدة دي وينتر؟
قلت:

- بدرجة كبيرة، شكرًا لك.
قالت وإبرها توخز بعضها بعضًا:
- إنه مكان جميل، أليس كذلك؟ بالطبع لا نذهب إلى هناك الآن، فهي ليست
قادرة على ذلك. معذرة، كنت أحب أيامنا في ماندرلي.

قلت:

- يجب أن تأتي بنفسك في وقت ما.
- شكرًا لك، سأحب ذلك. هل السيد دي وينتر بخير؟
- أجل، إنه بخير.
- لقد قضيت شهر العسل في إيطاليا، أليس كذلك؟ سررنا جدًا بالبطاقة البريدية المصورة التي أرسلها السيد دي وينتر.
- تساءلت عما إذا كانت تستخدم صيغة الجمع بمعنى «نحن» الملكية، أم إذا كانت تعني أنها هي وجدة ماكسيم واحد.
- هل أرسل بطاقة؟ لا أتذكر.
- أوه، نعم، لقد كان الأمر مثيرًا للغاية. نحن نحب أي شيء من هذا القبيل، ونحتفظ بسجل للقصاصات، كما تعلمين، نلصق داخله أي شيء متعلق بالأسرة. أعني، أي شيء لطيف.

قلت:

- يا له من أمر لطيف.
- وصلت إليّ أطراف من حديث بياتريس على الجانب الآخر. كانت تقول:
- اضطررنا إلى قتل ماركسمان العجوز. أتذكرين ماركسمان؟ كان أفضل كلب صيد امتلكته على الإطلاق.
- قالت جدتها:

- أوه، يا إلهي، ليس ماركسمان العجوز؟
- أجل، العجوز المسكين. أصيب بالعمى في كلتا عينيه، كما تعلمين.
- كررت السيدة العجوز:
- ماركسمان المسكين.
- ظننت أنه ربما لم يكن من اللياقة في شيء التحدث عن العمى، وألقيت نظرة خاطفة على الممرضة، التي كانت لا تزال منشغلة تقطعق بإبرها.
- قالت:

- هل تمارسين الصيد يا سيدة دي وينتر؟

قلت:

- لا، أخشى أنني لا أفعل.

- ربما تبدئين في ممارسته، فجميعنا مغرمون بالصيد جدًّا في هذه المنطقة.

- أجل.

قالت بياتريس للممرضة:

- السيدة دي وينتر مهتمة جدًّا بالفن، وأخبرتها بأن هناك أماكن كثيرة في

ماندرلي تصلح لرسم صور رائعة للغاية.

توقفت الممرضة لحظة عن حبك الصوف بقوة، ووافقتها قائلة:

- أوه، هذا حقيقي. يا لها من هواية جميلة. كانت لديّ صديقة تفعل الأعاجيب

بقلمها الرصاص. ذهبنا إلى بروفانس معًا ذات مرة في عيد الفصح، ورسمت

صورًا جميلة جدًّا.

قلت:

- هذا لطيف جدًّا.

صاحت بياتريس قائلة لجدها:

- نحن نتحدث عن الرسم. لم تكوني على دراية بأن لدينا فنانة في العائلة،

أليس كذلك؟

قالت السيدة العجوز:

- مَنْ الفنانة؟ لا أعرف أي فنانة.

قالت بياتريس:

- حفيدتك الجديدة. أسألها ماذا قدمت لها كهدية زفاف.

ابتسمت، في انتظار أن توجه إليّ السؤال. أدارت السيدة العجوز رأسها في

اتجاهي، وقالت:

- عمّ نتحدث بي؟ لم أكن أعلم أنك فنانة، ولم يكن لدينا أي فنانين في

العائلة قطّ.

قلت:

- بياتريس تمزح، فأنا لست فنانة حقيقية بالتأكيد، بل أحب الرسم كهواية، ولم أتلَقَ أي دروس قَطُّ. قدمت لي بياتريس بعض الكتب الجميلة كهدية. بدت عليها الحيرة، وقالت:

- أوه، قدمت لك بياتريس بعض الكتب، إذن؟ هذا يشبه مَنْ يسكب الماء على الرمال نوعًا ما، أليس كذلك؟ فهناك كثير من الكتب في المكتبة بماندرلي. ضحكّت بحرارة، وشاركتها جميعًا الضحك. تمنيت أن يُترك الموضوع عند هذا الحد، لكن بياتريس صممت على مواصلة الحديث عنه، وقالت:

- أنتِ لا تفهمين يا جدتي. لم تكن كتبًا عادية، بل مجلدات عن الفن، أربعة منها.

انحنت الممرضة إلى الأمام لتضيف مشاركتها:

- تحاول السيدة لاسي أن توضح أن السيدة دي وينتر مغرمة جدًا بالرسم كهواية، لذا قدمت لها أربعة مجلدات رائعة عن الرسم كهدية زفاف. قالت الجدة:

- يا له من تصرف غريب. لا أعتقد أن الكتب هدية زفاف جيدة. لم يقدم لي أحد أي كتب عندما تزوجت، ولم أكن لأقرأها قَطُّ لو فعل أحدهم ذلك. ضحكّت مرة أخرى، وبدأ الاستياء على بياتريس، فابتسمت لها لأظهر تعاطفي، لكن لا أعتقد أنها رأنتني. عادت الممرضة إلى حَبْك الصوف.

قالت السيدة العجوز باستياء:

- أريد الشاي، ألم تبلغ الساعة الرابعة والنصف بعد؟ لماذا لا تحضر نورا الشاي؟

نهضت الممرضة واقفة على قدميها، وابتسمت ببهجة في وجه مريضتها، وقالت:

- ماذا؟ هل تشعرين بالجوع مرة أخرى، بعد ذلك الغداء الكبير الذي تناولناه؟ شعرتُ بالإرهاق إلى حدٍّ ما، وتساءلت، وأنا أشعر بالصدمة نوعًا ما من تفكيري

القاسي، لماذا يكون كبار السن مجتهدين على هذا النحو أحيانًا. كان الأمر أسوأ من التعامل مع الأطفال الصغار أو الجراء، لأن المرء يضطر إلى التزام الأدب. جلستُ ويدي معقودتان فوق حجري، مستعدة لإبداء الموافقة على ما يقوله أي شخص، وشرعت الممرضة تضرب الوسائد وترتب الشيلان.

تحملتُها جدة ماكسيم بصبر، وأغمضت عينيها كما لو أنها تشعر بالتعب هي الأخرى، فبدت شبيهة بماكسيم أكثر من ذي قبل. عرفت كيف كانت تبدو حينما كانت شابة طويلة وجميلة، تتجول في الإسطبلات في ماندري ومعهما سكر في جيوبها، وهي ترفع تنورتها الطويلة من الطين. تخيلت خصر ثوبها الضيق، والياقة المرتفعة، وسمعتها تطلب تجهيز العربة في الساعة الثانية. انتهى كل ذلك بالنسبة إليها الآن وانقضى. توفي زوجها منذ أربعين عامًا، وابنها منذ خمسة عشر عامًا، وبات عليها أن تعيش مع الممرضة في هذا المنزل المشرق ذي الجمالونات الحمراء، حتى يحين وقت موتها. فكرت في مدى ضالة معرفتنا بمشاعر كبار السن. نحن نفهم الأطفال، ومخاوفهم وآلامهم وخيالاتهم. كنت طفلة بالأمس، ولم أنس. لكن جدة ماكسيم، وهي جالسة هناك ملتفة بشالها، بعينيها العمياوين المسكيتين، ماذا كان شعورها، وفيما كانت تفكر؟ هل تعلم أن بياتريس تتشاءب وتلقي نظرة خاطفة على ساعتها؟ هل خمنت أننا جئنا لزيارتها لأننا شعرنا بأن هذا هو الصواب، وبأنه واجب، كي تتمكن بياتريس من القول عقب عودتها إلى المنزل بعد ذلك: «حسنًا، هذا يبرئ ضميري لمدة ثلاثة أشهر»؟

هل كانت تفكر في ماندري على الإطلاق؟ هل تذكر جلوسها إلى طاولة غرفة الطعام، حيث أجلس أنا؟ هل تناولت الشاي هي أيضًا تحت شجرة الكستناء؟ أم هل ذهب كل ذلك طي النسيان، ونُحي جانبًا، ولم يبقَ شيء خلف وجهها الهادئ الشاحب ذاك سوى الأوجاع الصغيرة والآلام البسيطة الغريبة، وشعور غامض بالامتنان عندما تشرق الشمس، ورجفة عندما تهب ريح باردة؟ تمنيت لو أن في وسعي وضع يدي على وجهها، وإزالة السنوات عنه. تمنيت

لو أنني أستطيع رؤيتها شابة، كما كانت من قبل، بوجنتين متوردتين وشعر كستنائي، يقظة ونشطة مثل بياتريس بجانبها، وتحدث كما اعتادت عن الصيد وكلاب الصيد والخيول، لا وهي جالسة هناك بعينين مغمضتين بينما الممرضة تضرب الوسائد خلف رأسها.

قالت الممرضة:

- لدينا مفاجأة صغيرة اليوم، كما تعلمين، شطائر الجرجير مع الشاي. نحن نحب الجرجير، أليس كذلك؟

رفعت جدة ماكسيم رأسها عن الوسائد، ونظرت نحو الباب قائلة:

- هل هو يوم الجرجير؟ لم تخبريني بذلك. لماذا لا تحضر نورا الشاي؟

قالت بياتريس للممرضة بصوت خفيض كي لا تسمعها الجدة:

- لن أقبل بوظيفتك يا أختاه، ولو مقابل ألف جنيه في اليوم.

ابتسمت الممرضة قائلة:

- أوه، لقد اعتدت ذلك يا سيدة لاسي، والمكان مريح جدًا هنا، كما تعلمين.

بالطبع لدينا نصيبنا من الأيام السيئة، لكنها قد تكون أسوأ بكثير، والتعامل

معها سهل للغاية، ليس مثل بعض المرضى الآخرين، كما أن العاملين هنا

لطفاً أيضاً، وهذا هو ما يهم حقاً. ها هي ذي نورا قادمة.

أحضرت الخادمة طاولة صغيرة قابلة للطي، عليها مفرش في بياض الثلج.

تذمرت السيدة العجوز:

- كم تأخرت يا نورا.

قالت نورا بصوت خاص، مشرق ومبهج مثل صوت الممرضة:

- لقد حلت الساعة الرابعة والنصف للتو فحسب يا سيدتي.

تساءلت عما إذا كانت جدة ماكسيم تدرك أن الناس يتحدثون إليها بهذه

الطريقة، وتساءلت متى فعلوا ذلك أول مرة، وما إذا لاحظت ذلك حينها. ربما

قالت لنفسها: «إنهم يظنون أنني تقدمت في السن. كم هو سخيف جداً». ثم

اعتادت ذلك شيئاً فشيئاً، حتى بات الأمر الآن كما لو أنهم كانوا يفعلون ذلك

على الدوام، وصار هذا جزءاً من ظروف حياتها. لكن تلك الشابة ذات الشعر
الكستنائي والخصر النحيل التي كانت تعطي السكر للخيل، أين هي؟
سحبنا مقاعدنا نحو الطاولة القابلة للطّي، وبدأنا نأكل شطائر الجرجير، بينما
أعدّت الممرضة شطائر خاصة للعجوز.

قالت:

- هاك، الآن، أليست هذه مفاجأة ممتعة؟

رأيت ابتسامة بطيئة تمر على الوجه الساكن الهادئ، وقالت:

- أحب يوم الجرجير.

كان الشاي حاراً، ساخناً بدرجة أكبر من أن يتمكن المرء من شربه، وشربت
الممرضة شايتها برشقات صغيرة.

أومأت برأسها نحو بياتريس، وقالت:

- الماء مغلي اليوم. لقد عانيت ذلك كثيراً. إنهم يدعون الشاي يغلي، وقد
حدثتهم بخصوص ذلك مراراً وتكراراً، لكنهم يرفضون الاستماع إليّ.

قالت بياتريس:

- أوه، جميعهم متشابهون، لقد توقفت عن المحاولة، فلا جدوى من ذلك.
قلبت السيدة العجوز شايتها بملعقة، وعيناها شاردتان وسارحتان للغاية.
تمنيت لو أنني أعرف ما الذي تفكر فيه.

قالت الممرضة:

- هل كان الطقس جيداً في إيطاليا؟

قلت:

- نعم، كان دافئاً جداً.

التفتت بياتريس إلى جدتها، وقالت:

- تقول إنهما استمتعا بطقس جميل في إيطاليا في أثناء شهر عسلهما. لقد
احترق ماكسيم بشدة من الشمس.

قالت السيدة العجوز:

مكتبة
t.me/soramnqraa

- لماذا لم يأت ماكسيم هنا اليوم؟
 قالت بياتريس بنفاد صبر:
- لقد أخبرناكِ يا عزيزتي، اضطر ماكسيم إلى الذهاب إلى لندن، لحضور عشاء ما، كما تعلمين، كما ذهب جايلز أيضًا.
- أوه، فهمت. لماذا قلت إن ماكسيم في إيطاليا؟
 نظرت بياتريس إلى الممرضة، وهزت كتفيها قائلة:
- كان في إيطاليا في أبريل يا جدتي. لقد عادا إلى ماندرلي الآن.
 كررت الممرضة:
- السيد والسيدة دي ويتتر في ماندرلي الآن.
 اقتربت من جدة ماكسيم، وقلت:
- كان المكان جميلًا هناك هذا الشهر، وافتتح الورد الآن. أتمنى لو أنني أحضرت لك بعضًا منه.
- قالت بشرود:
- نعم، أنا أحب الورد.
 ثم حدقت إليّ من كُثب بعينيها الزرقاوين المعتمتين، وقالت:
- هل تقيمين في ماندرلي أنتِ أيضًا؟
 ازدردت ريقِي، وساد الصمت للحظة، ثم تدخلت بياتريس بصوتها المرتفع نافذ الصبر، وقالت:
- جدتي العزيزة، أنتِ تعرفين جيدًا أنها تعيش هناك الآن، فهي وماكسيم متزوجان.
- لاحظتُ أن الممرضة وضعت فنجان الشاي الخاص بها، وألقت نظرة سريعة على السيدة العجوز. استرخت مستندة إلى الوسائد وهي تجذب شالها، وبدأ فمها يرتجف.
- إنكن تتحدثن كثيرًا، جميعكن، ولا أفهم.
 ثم نظرت إليّ بوجه عابس، وبدأت تهز رأسها.

- مَنْ أَنْتِ يا عزيزتي؟ لم أرك من قبل. لا أعرف وجهك، ولا أتذكر رؤيتك في ماندريلي. بي، مَنْ هذه الطفلة؟ ولماذا لم يحضر ماكسيم ريبيكا؟ أنا أحب ريبيكا جدًّا، أين العزيزة ريبيكا؟

ساد صمت طويل، ولحظة من العذاب، وشعرت بوجعٍ تتخضبان بالحمرة. نهضت الممرضة على قدميها بسرعة كبيرة، وذهبت إلى الكرسي ذي العجلات. كررت السيدة العجوز:

- أريد ريبيكا، ماذا فعلتن بريبيكا؟ نهضت بياتريس من على الطاولة على نحو أخرج، وهزت الفناجين والأطباق، وتخضب وجهها هي أيضًا بشدة وارتعش فمها.

قالت الممرضة بارتباك نوعًا ما، وقد تورّد وجهها:
- أعتقد أنه من الأفضل أن ترحلا يا سيدة لاسي، فهي تبدو متعبة بعض الشيء، وعندما يشرد ذهنها هكذا يستمر الأمر بضع ساعات في بعض الأحيان. إنها تنفعل هكذا من حين إلى حين، ومن المؤسف جدًّا أن يحدث هذا اليوم. التفتت إليّ معذرة، وقالت:

- أنا متأكدة أنك ستفهمين الأمر يا سيدة دي وينتر. قلت بسرعة:

- بالطبع، من الأفضل كثيرًا أن نرحل. بحثت أنا وبياتريس عن حقيبتينا وقفازاتنا، والتفتت الممرضة إلى مريضتها مرة أخرى.

- الآن، ما كل هذا؟ هل تريدن شطيرة الجرجير اللذيذة التي قطعها لك؟ أجابها الصوت الضعيف المتبرم:

- أين ريبيكا؟ لماذا لم يأت ماكسيم ويحضر ريبيكا؟

مررنا عبر غرفة الاستقبال إلى الردهة، وخرجنا من الباب الأمامي. أدارت بياتريس السيارة من دون أن تتفوّه بكلمة، وتقدمنا عبر الممر المفروش بالحصى الناعم، وخرجنا من البوابات البيضاء.

حدقت أمامي مباشرة، إلى الطريق. لم أكثرث لنفسي، ولم أكن لأمانع لو أنني كنت وحدي، لكنني أكثرث لأمر بياتريس.

بدا الأمر برمته بائسًا ومحرَجًا بالنسبة إلى بياتريس.

تحدثت إليَّ عندما انحرفنا خارجتين من القرية، وشرعت تقول:

- يا عزيزتي، أنا آسفة جدًّا، ولا أدري ماذا أقول.

قلت على عجل:

- لا تكوني سخيِّفة يا بياتريس، لا يهم الأمر على الإطلاق، وكل شيء على

ما يرام تمامًا.

قالت بياتريس:

- لم تكن لديَّ أي فكرة أنها ستفعل ذلك، وإلا لم أكن لأحلم قطُّ باصطحابك

لزيارتها. أنا آسفة جدًّا.

- ليس هناك شيء يدعو إلى الأسف، من فضلك لا تقولي المزيد.

- لا أستطيع فهم الأمر، حيث إنها تعرف كل شيء عنك. كتبت إليها وأخبرتها،

وكذلك فعل ماكسيم، وكانت مهتمة جدًّا بحفل الزفاف في الخارج.

قلت:

- لقد نسيت، كم هي كبيرة في السن. لماذا ستتذكر ذلك؟ فهي لا تربط بيني

وبين ماكسيم، بل تربطه بريبيكا فقط.

واصلنا القيادة في طريقنا في صمت، وبدا من المريح العودة إلى السيارة مرة

أخرى، إذ لم أمانع ارتجاج حركتها والتمايل عند المنعطفات.

قالت بياتريس ببطء:

- لقد نسيت أنها كانت مولعة جدًّا بريبيكا، وكانت حماقة مني ألا أتوقع شيئًا

كهذا. لا أعتقد أنها فهمت أمر الحادث على نحو صحيح قطُّ. يا إلهي، يا له

من عصر يوم مروع، ما الذي ستظنينه بي، بحق السماء؟

- من فضلك يا بياتريس، لا تفعلي. قلت لك إنني لا أمانع.

- دائمًا ما كانت ريبيكا توليها الكثير من الاهتمام، واعتادت استضافة المرأة

العجوز في ماندري. كان ذهن الجدة المسكينة العزيزة أكثر يقظة بكثير حينها، وكانت تضج بالضحك على كل ما تقوله ريبكا. كانت مسلية جداً على الدوام بالطبع، وقد أحبَّت المرأة العجوز ذلك. تمتعت بملكة مذهلة، أعني ريبكا، جعلت الناس ينجذبون إليها: الرجال، والنساء، والأطفال، والكلاب. وأعتقد أن المرأة العجوز لم تنسها قط. يا عزيزتي، لن تغفري لي عصر هذا اليوم. كررت بشكل آلي:

- لا مانع لديّ، لا مانع لديّ.

لو أن بياتريس تركت الموضوع وشأنه فحسب. لم يكن الأمر مهمّاً بالنسبة إليّ، ففي النهاية، فيم يهم ذلك على الإطلاق؟ وما أهمية أي شيء؟ قالت بياتريس:

- سوف يستاء جايلز بشدة، وسيلومني على اصطحابك إلى هناك. «يا لها من حماقة، تلك التي ارتكبتها يا بي». يمكنني سماعه الآن، وهو يقول ذلك. سأشتبك في شجار حاد. قلت:

- لا تذكر شيئاً عن الأمر، إذ إنني أفضل كثيراً نسيانه، لأن كل ما سيحدث هو أن يتكرر حكي القصة والمبالغة فيها. - سيعرف جايلز من وجهي أن هناك خطباً ما، فلم أتمكن من إخفاء شيء عنه قط.

الترمتُ الصمت. عرفت كيف ستُطرح الحكاية في دائرة أصدقائهما المباشرين، وكان في وسعي تخيُّل الحشد الصغير في أثناء الغداء في يوم الأحد: الأعين المتسعة دهشة، والآذان المتلهفة، والشهقات والصيحات. «رباه، يا له من أمر فظيع! ماذا فعلت، بحق السماء؟»، وبعد ذلك «كيف تقبلت هي الأمر؟ يا له من حرج رهيب للجميع!».

الشيء الوحيد الذي كان يهمني هو ألا يسمع ماكسيم بالأمر أبداً. قد أخبر فرانك كرولي يوماً ما، لكن ليس الآن، وليس قبل وقت طويل.

لم يمضِ كثير من الوقت حتى وصلنا إلى الطريق السريع أعلى التل. من بعيد، تمكنت من رؤية الأسطح الرمادية الأولى في كيريث، بينما في الوادي من جهة اليمين، استقرت غابات ماندرلي العميقة والبحر وراءها.
قالت بياتريس:

- هل أنت في عجلة شديدة للعودة إلى المنزل؟
قلت:

- لا، لا أعتقد ذلك. لماذا؟

- هل ستعتقدين أنني فائقة الندالة لو أنني أنزلتك عند بوابات الكوخ؟ إذا قدت بسرعة شديدة الآن، سأصل في الوقت المناسب تمامًا لمقابلة جايلز عند القطار القادم من لندن، وسيوفر عليه ذلك ركوب سيارة أجرة من المحطة.
قلت:

- بالطبع، يمكنني السير عبر الممر.
قالت بامتنان:

- شكرًا جزيلاً.

شعرتُ بأن عصر اليوم كان أكثر من قدرتها على الاحتمال، وأنها ترغب في الانفراد بنفسها مرة أخرى، ولا تريد مواجهة الأمر عند تناول الشاي في وقت متأخر مرة أخرى في ماندرلي.

ترجلتُ من السيارة عند بوابات الكوخ، وتبادلنا قبلات الوداع.
قالت:

- فليزداد وزنك قبل أن أراك المرة المقبلة، فلا تليق بك النحافة إلى هذا الحد. بلغني ماكسيم تحياتي، وسامحيني على عصر اليوم.
اختفت وسط سحابة من الغبار، وانعطفت أنا في الممر.

تساءلت عما إذا كان قد تغير كثيرًا منذ أن كانت جدة ماكسيم تمر به في عربتها. اعتادت الركوب هنا وهي شابة، وابتسمت للمرأة المقيمة في الكوخ، كما أفعل أنا الآن. وفي أيامها، كانت زوجة الحارس تنحني، وتكنس الممر بتنورتها

المتفخة الواسعة. لكن هذه المرأة أومأت إليّ برأسها باقتضاب، ثم نادى ابنها الصغير الذي انشغل باللعب مع بعض القطط الصغيرة في الخلف. اضطرت جدة ماكسيم إلى أن تحني رأسها كي تتفادى فروع الأشجار الممتدة، وسار الحصان عبر الممر الملتف الذي أسير فيه الآن. كان الممر أعرض حينها، وأنعم أيضًا، وتجري صيانته على نحو أفضل، إذ لم تكن الغابة تتعدى عليه.

لم أفكر بها كما هي الآن، مستلقية على تلك الوسائد، وملتفة بذلك الشال، بل رأيتها في شبابها، حينما كان ماندرلي سكنها. رأيتها تتجول في الحدائق مع ولد صغير، والد ماكسيم، وهو يصدر جلبة خلفها على ظهر حصانه الخشبي. كان سيرتدي سترة واسعة منشاة لها حزام، وياقة بيضاء مستديرة. وستكون النزهة عند الخليج بمنزلة رحلة، ومتعة لا تُمارس كثيرًا. وستكون هناك صورة فوتوغرافية في مكان ما، في ألبوم قديم، والأسرة بأكملها يجلسون بجمود وظهورهم مستقيمة للغاية حول مفرش طاولة وُضع على الشاطئ، والخدم في الخلفية بجانب سلة غداء ضخمة. كما رأيت جدة ماكسيم عندما تقدمت في السن أيضًا، قبل بضع سنوات، وهي تسير على الشرفة في ماندرلي، متكئة على عصا، وهناك مَنْ تمشي بجانبها، وهي تضحك وتمسك بذراعها. امرأة طويلة ورشيقة بارعة الجمال، قالت بياتريس إنها تتمتع بملكة تجعل الناس ينجذبون إليها. أعتقد أنه كان من السهل الإعجاب بها، ومن السهل حبها.

عندما وصلت أخيرًا إلى نهاية الممر الطويل، رأيت سيارة ماكسيم تقف أمام المنزل. ارتفعت معنوياتي، وهرعت مسرعة إلى الردهة. كانت قبعته وقفازاه ملقاة على الطاولة. توجهت نحو المكتبة، وعندما اقتربت سمعت صوتين، أحدهما يعلو فوق الآخر: صوت ماكسيم. كان الباب مغلقًا، وترددت لحظة قبل الدخول.

- يمكنك الكتابة إليه، وإبلاغه نيابة عني أن يبتعد عن ماندرلي في المستقبل، هل سمعتني؟ لا عليك مَنْ أبلغني، فهذا ليس له أي أهمية. علمت أن سيارته شوهدت هنا عصر يوم أمس. إذا أردتِ مقابله، يمكنك الالتقاء به خارج

ماندرلي، فلن أسمح له بتجاوز البوابات، أفهمت؟ تذكرني، أنا أحذرك
لآخر مرة.

تسللت بعيدًا عن الباب في اتجاه الدرج، وسمعت باب المكتبة يفتح،
فهرعت كي أصعد الدرج، واختبأت في شرفة العازفين. خرجت السيدة دانفرز
من المكتبة، وأغلقت الباب خلفها، فجثوت ملتصقة بجدار شرفة العازفين حتى
لا أظهر للعيان. رأيت وجهها في لمحة خاطفة، فبدأ شاحبًا من فرط الغضب،
وقسماتها ملتوية ورهيبة.

صعدت الدرج بسرعة وبصمت، واختفت عبر الباب المؤدي إلى الجناح
الغربي.

انتظرت لحظة، ثم نزلت إلى الطابق السفلي ببطء وتوجهت إلى المكتبة،
وفتحت الباب ودخلت. وقف ماكسيم بجانب النافذة، وفي يده بعض الرسائل،
وهو يوليني ظهره. فكرت للحظة أن أتسلل خارجة مرة أخرى، وأذهب إلى غرفتي
في الطابق العلوي وأجلس هناك. لكن لا بد أنه سمعني، لأنه التفت بنفاد صبر.
قال:

- من الآن؟

ابتسمت ومددت يدي قائلة:

- مرحبًا.

- أوه، أنت...

عرفت من أول وهلة أن شيئًا ما أغضبه بشدة، إذ بدا فمه صارمًا، وأنفه شاحبًا
ومتوترًا.

- كيف أمضيت وقتك؟

قبل قمة رأسي، وأحاط كتفي بذراعه، فشعرت كأن وقتًا طويلًا قد مضى منذ
أن تركني بالأمس.

- ذهبت إلى زيارة جدتك. أوصلتني بياتريس إلى هناك عصر اليوم.

- كيف حال المرأة العجوز؟

- بخير.

- وماذا حدث لبي؟

- اضطرت إلى العودة لمقابلة جايلز.

جلسنا معًا على المقعد المجاور للنافذة، وأخذت يده بين يدي، وقلت:

- كرهت بُعدك عني، واشتقت إليك بشدة.

- حقًا؟

لم نقل شيئًا لبعض الوقت، وظللت ممسكة يده فحسب.

قلت:

- هل كان الجو حارًا في لندن؟

- أجل، كان فظيئًا جدًا. دومًا ما أكره ذلك المكان.

تساءلت عما إذا كان سيخبرني بما حدث للتو في المكتبة مع السيدة دانفرز،

كما تساءلت مَنْ أخبره عن فافيل.

- هل تشعر بالقلق من شيء ما؟

- لقد كان يومي طويلًا، وتلك الرحلة مرتين خلال أربع وعشرين ساعة تفوق

قدرة أي شخص على الاحتمال.

نهض وابتعد، وأشعل سيجارة، وعلمت حينها أنه لن يخبرني عن السيدة

دانفرز.

قلت ببطء:

- أنا أيضًا متعبة. كان يومًا غريبًا نوعًا ما.

كان يوم أحد، على ما أذكر، عندما تعرضنا لغزو من الزوّار عصرًا، وثار موضوع الحفل التكريري الراقص للمرة الأولى. أتى فرانك كرولي لتناول الغداء، وتطلع ثلاثنا إلى قضاء عصر يوم هادئ تحت شجرة الكستناء، عندما سمعنا الصوت المفجع لسيارة تدور حول منعطف الممر، وفات أوان تنبيه فريث، إذ وصلت السيارة نفسها أمامنا ونحن واقفون على الشرفة حاملين الوسائد والصحف تحت أذرعنا.

اضطررنا إلى التقدم والترحيب بالزوّار غير المتوقعين، وكما يحدث غالبًا في مثل هذه الحالات، لم يكن هؤلاء الزوّار الوحيدين، إذ وصلت سيارة أخرى بعد نصف ساعة تقريبًا، يليها ثلاثة أشخاص آخرين أتوا سيرًا من كيريث، ووجدنا أنفسنا قد فقدنا هدوء يومنا، ونحن نستضيف مجموعة تلو مجموعة من المعارف المملين، ونقوم بالجولة الإلزامية حول الأراضي المحيطة بالمنزل، وجولة في حديقة الورد، ثم السير عبر المروج والمعاناة الرسمية للوادي السعيد.

مكثوا لتناول الشاي، بالطبع، وبدلاً من تناول شطائر الخيار في كسل تحت شجرة الكستناء، حظينا بكل مشتملات الشاي الرسمي في غرفة الاستقبال، وهو الأمر الذي كنت أكرهه دائماً. كان فريث في أفضل حالاته بالطبع، وهو يوجه روبرت برفع حاجبيه، بينما شعرت بالحرارة والارتباك وفي يدي إبريق شاي فضي ضخّم وغلاية لم أحسن التعامل معها قط. وجدت صعوبة بالغة في تحديد اللحظة المناسبة التي يصبح فيها من الضروري تخفيف الشاي

بالماء المغلي، وكان الأصعب من ذلك هو التركيز على المحادثات الخفيفة الدائرة بجانبني.

بدا فرانك كرولي لا يُقدَّر بثمان في مثل هذه اللحظات، إذ شرع يأخذ مني الفناجين ويناولها للناس، وعندما كانت إجاباتي تبدو غامضة أكثر من المعتاد بسبب تركيزي على إبريق الشاي الفضي، كان يضيف مشاركته البسيطة إلى الحديث بهدوء على نحو غير ملحوظ، ويعفيني من المسؤولية. وكان ماكسيم دائماً عند الطرف الآخر من الغرفة، يعرض كتاباً على شخص ممل، أو يشير إلى لوحة، ويلعب دور المضيف المثالي بطريقته الخاصة التي لا تُضاهى، وبدا الشاي مسألة جانبية لا تهمه. برد فنجان الشاي الخاص به بعد أن تركه على طاولة جانبية خلف بعض الزهور، وبينما أتصبب عرقاً خلف إبريقي وفرانك يتولى على نحو نبيل أمر الفطائر والكعك، وقعت علينا مهمة تلبية الاحتياجات العامة للحشد. كانت الليدي كروان، وهي امرأة مُتعبَة مفرطة الحماس تعيش في كيريث، هي التي أثارَت الموضوع. توقف الحديث لحظة، كما يحدث في أي حفل شاي، ورأيت فرانك على وشك التفوُّه بالملحوظة الحمقاء التي لا مفر منها، بشأن مرور ملاك فوق رؤوسنا^(*)، عندما نظرت الليدي كروان إلى ماكسيم الذي تصادف وجوده بجانبها، وهي توازن قطعة من الكعك على حافة طبقها.

قالت:

- أوه، يا سيد دي ويتتر، هناك شيء ما كنت أرغب في سؤالك عنه منذ زمن طويل. أخبرني الآن، هل توجد أي فرصة لإعادة إحياء حفل ماندرلي التنكري الراقص؟

أمالت رأسها جانباً وهي تتحدث، وأظهرت أسنانها البارزة للغاية فيما حسبته ابتسامة. خفضت رأسي على الفور، وتشاغلَت بإفراغ فنجاني من الشاي، واختبأت وراء الغطاء المخصص لحفظ حرارة إبريق الشاي.

(*) تُستخدم العبارة عندما تحل لحظة صمت محرج أو مفاجئ وسط الحديث. (المترجمة).

انقضت لحظة أو لحظتان قبل أن يجيب ماكسيم، وعندما فعل، كان صوته هادئاً جداً وعملياً، وقال:

- لم أفكر في ذلك، ولا أعتقد أن أي شخص آخر قد فعل.
واصلت الليدي کروان قائلة:

- أوه، لكنني أؤكد لك أننا جميعاً فكرنا في الأمر كثيراً. كانت هذه متعة الصيف بالنسبة إلينا جميعاً في هذه المنطقة، وليست لديك فكرة عن مدى السرور الذي كان يمنحنا إياه ذلك الحفل. ألا يمكنني إقناعك بالتفكير فيه مرة أخرى؟

قال ماكسيم بنبرة جافة:

- حسناً، لا أدري، كان الأمر برمته شاقاً في تنظيمه. من الأفضل أن تسألني فرانك كرولي، فهو الذي سيضطر إلى تولي الموضوع.

أصرت قائلة، وقد انضم إليها شخص أو شخصان آخران:

- أوه، يا سيد كرولي، فلتأخذ صفّي، ستكون خطوة ذات شعبية كبيرة، كما تعلم، فجميعنا نفتقد جو البهجة في ماندري.

سمعت صوت فرانك الهادئ بجانبني:

- لا مانع لديّ من تنظيم الحفل، إذا لم يكن لدى ماكسيم مانع من إقامته. الأمر متروك له وللسيدة دي ويتتر، ولا علاقة لي به.

تعرضتُ للهجوم على الفور بالطبع، إذ حركت الليدي کروان كرسيها بحيث لم يعد الغطاء المخصص لتدفئة إبريق الشاي يخفيني عن نظرها، وقالت:

- الآن، يا سيدة دي ويتتر، عليك إقناع زوجك، فأنت الشخص الذي يمكن أن ينصت له. يجب عليه إقامة الحفل على شرفك كونك عروساً.

قال رجل آخر:

- أجل، بالطبع، فالتنا متعة الزفاف، كما تعلمين، ومن المؤسف حرماننا من كل الإثارة. فليرفع المؤيدون لحفل ماندري التكري الراقص أيديهم. هاك، أرايت يا دي ويتتر؟ هناك إجماع.

تعالّت أصوات ضحكات كثيرة، وتصفيق.
أشعل ماكسيم سيجارة، والتقت نظرتَه بنظرتي فوق إبريق الشاي.
قال:

- ما رأيك في ذلك؟

قلت بتردد:

- لا أدري، لا مانع لديّ.

قالت الليدي كروان:

- بالطبع تتوق إلى إقامة حفل راقص على شرفها، فأني فتاة تلك التي لا ترغب في ذلك؟ ستبدين جميلة يا سيدة دي وينتر، وأنت ترتدين زي راعية غنم صغيرة من دريسدن، وشعرك مرفوع تحت قبعة ضخمة ذات ثلاث زوايا. فكرتُ في يديّ وقدمي الخرقاء، وكتفيّ المحنيتين. سأصبح راعية غنم من دريسدن رائعة جدًّا! يا لها من حمقاء، تلك المرأة. لم أتفاجأ عندما لم يوافقها أحد الرأي، وشعرت بالامتنان لفرانك مرة أخرى لأنه أدار دفة الحديث بعيدًا عني.
- في الواقع يا ماكسيم، تحدث أحدهم عن الأمر منذ عدة أيام، وقال: «أعتقد أننا سنقيم احتفالًا من نوع ما للعروس، أليس كذلك يا سيد كرولي؟ أتمنى لو أقام السيد دي وينتر حفلًا راقصًا مرة أخرى، إذ كان ذلك متعة استثنائية لنا جميعًا». كان ذلك تاكر، من المزرعة التابعة لنا.

ثم أضاف قائلاً لليدي كروان:

- إنهم يعشقون أي نوع من العروض، بالطبع. قلت له لا أدري، فلم يخبرني السيد دي وينتر بأي شيء.

قالت الليدي كروان بنبرة انتصار، وهي توجه حديثها إلى غرفة الاستقبال بصفة عامة:

- هاك، ماذا قلت؟ إن العاملين لديكم يطالبون بحفل راقص، وإذا لم تكن تهتم بنا، فأنت بالتأكيد تهتم بهم.

ظل ماكسيم يراقبني بتشكك فوق إبريق الشاي، وخطر ببالي أنه ربما اعتقد

أنني لا أستطيع مواجهة الموقف، وأنه نظرًا إلى كوني خجولًا، كما يعلم جيدًا، سأجد نفسي غير قادرة على التعامل مع الأمر. لم أرده أن يفكر على هذا النحو، ولم أرده أن يشعر بأنني سأأخذله.

قلت:

- أعتقد أن ذلك سيكون ممتعًا إلى حدٍّ ما.

أشاح ماكسيم بعيدًا وهو يهز كتفيه، وقال:

- هذا يحسم الأمر بالطبع. حسنًا يا فرانك، سيتعين عليك المضي قدمًا في الترتيبات. من الأفضل أن تجعل السيدة دانفرز تساعدك، سوف تتذكر النظام.

قالت الليدي كروان:

- هل ما زالت السيدة دانفرز المذهلة تعمل لديك إذن؟

قال ماكسيم بخشونة:

- أجل، هلاً تناولت مزيدًا من الكعك؟ أم هل انتهيت؟ دعونا جميعًا نذهب إلى الحديقة إذن.

خرجنا إلى الشرفة، والجميع يناقشون الاحتمالات الممكنة بخصوص الحفل، والتواريخ المناسبة. بعد ذلك، شعرت بالارتياح البالغ حينما قرر القادمون بالسيارات أن الوقت قد حان لرحيلهم، ثم ذهب القادمون سيرًا على الأقدام أيضًا عندما تلقوا عرضًا بتوصيلهم بالسيارة. عدت إلى غرفة الاستقبال وتناولت فنجانًا آخر من الشاي استمتعت به بشدة هذه المرة، بعد أن رُفع عن كاهلي عبء الضيافة، وجاء فرانك أيضًا وفتتنا بقايا الفطائر وأكلناها ونحن نشعر كأننا متآمران. انشغل ماكسيم بإلقاء العصي الخشبية إلى جاسبر على المرح، وتساءلت عما إذا كان الأمر مشابهًا في كل منزل، هذا الشعور بالبهجة عقب رحيل الزوّار. لم نقل شيئًا بخصوص الحفل الراقص لفترة قصيرة، بعد ذلك، عندما انتهيت من فنجان الشاي الخاص بي، ومسحت أصابعي اللزجة على منديل، قلت لفرانك:

- ما رأيك بصراحة في موضوع الحفل التنكري الراقص هذا؟

تردد فرانك وهو يلقي نظرة من النافذة على ماكسيم في المرح، وقال:

- لا أدري، لم يبدُ أن ماكسيم لديه اعتراض، أليس كذلك؟ أعتقد أنه تقبَّل الاقتراح على نحو جيد للغاية.

قلت:

- كان من الصعب عليه أن يفعل أي شيء آخر. يا لها من شخص متعب، تلك الليدي كروان. هل تعتقد حقًا أن جميع الأشخاص هنا لا يتحدثون ويحلمون بشيء سوى حفل تنكري راقص في ماندريلي؟

قال فرانك:

- أعتقد أن جميعهم سيستمتعون بعرض من نوع ما، فنحن تقليديون هنا بدرجة كبيرة، كما تعلمين، فيما يتعلق بمثل هذه الأشياء. وبصراحة لا أعتقد أن الليدي كروان كانت تبالغ عندما قالت إنه يجب أن يتم شيء ما على شرفك. ففي النهاية يا سيدة دي وينتر، أنتِ عروس.

كم بدت تلك العبارة طنانة وتافهة، وتمنيت لو أن فرانك لم يكن يلتزم التهذيب بشكل رهيب هكذا على الدوام.

قلت:

- أنا لست عروसा، ولم أحظَ حتى بحفل زفاف كما يجب: لا ثوب أبيض، ولا زهور برتقال، ولا وصيفات يتبعنني. لا أريد أن يُقام أي حفل راقص سخيْف على شرفي.

قال فرانك:

- المشهد جميل جدًا في ماندريلي وهو معد للاحتفال. سوف تستمتعين بذلك، سترين. لن تضطري إلى فعل أي شيء مقلق، فكل ما عليك هو استقبال الزوّار فحسب، ولا شيء في ذلك. وربما تمنحيني رقصة؟ العزيز فرانك، كم أحببت طابع الجدية والشهامة الذي يتمتع به.

قلت:

- ستحظى بأي عدد تشاء من الرقصات، ولن أرقص مع أحد غيرك أنت وماكسيم.

قال فرانك بجدية:

- أوه، لكن هذا لن يبدو لائقًا أبدًا، وسيستاء الناس بشدة. يجب أن ترقصي مع مَنْ يطلب منك ذلك.
أشحت بعيدًا كي أخفي ابتسامتي. كنت أجد متعة في كونه لا يعرف متى يقصد المرء ممازحته.

قلت بمكر:

- هل تعتقد أن اقتراح الليدي كروان بخصوص راعية غنم من دريسدن كان اقتراحًا جيدًا؟

تأملني بجدية من دون أثر لابتسامة، وقال:

- أجل، أعتقد ذلك، أعتقد أنك ستبددين بمظهر جيد للغاية.

انفجرت في الضحك، وقلت:

- أوه، يا عزيزي فرانك، كم أحبك.

تورد وجهه نوعًا ما، وقد صُدم إلى حدٍّ ما على ما أظن، بسبب كلماتي المندفعة، كما جُرح بعض الشيء أيضًا لأنني أضحك عليه.

قال بنبرة جافة:

- لا أعتقد أنني قلت شيئًا مضحكًا.

اقترب ماكسيم من النافذة، وجاسبر يتراقص عند قدميه، وقال:

- ما سبب كل هذه الإثارة؟

قلت:

- فرانك يتصرف بشهامة فائقة، فهو يعتقد أن فكرة الليدي كروان بخصوص

ارتدائي زي راعية غنم من دريسدن ليست شيئًا مثيرًا للضحك.

قال ماكسيم:

- الليدي كروان مصدر إزعاج لعين، فلن تتمتع بالحماس إلى هذه الدرجة،

لو اضطرت هي إلى كتابة كل الدعوات وتنظيم الموضوع. لكن لطالما

كان الوضع هكذا، فالسكان المحليون ينظرون إلى ماندرلي كأنه سراق

عند طرف رصيف ميناء، ويتوقعون منا إقامة عرض لصالحهم. أعتقد أننا سنضطر إلى دعوة المقاطعة بأكملها.

قال فرانك:

- السجلات لدي في المكتب، ولن يستلزم الأمر حقاً قدرًا كبيراً من العمل، إذن أطول مهمة هي لعق الطوابع.

ابتسم لي ماكسيم قائلاً:

- سنعطيك تلك المهمة لتؤديها.

قال فرانك:

- أوه، ستولى ذلك في المكتب، ولا داعي إلى أن تشغل السيدة دي ويتتر بالها بأي شيء على الإطلاق.

تساءلت ما الذي سيقولانه لو أعلنت فجأة عن نيّتي في إدارة الأمر برمته. سيضحكان، على ما أعتقد، ثم يبدآن الحديث عن شيء آخر. سررت بالطبع لإعفائي من المسؤولية، لكن ذلك زاد من شعوري بالهوان نوعاً ما، لإحساسي بأنني غير قادرة حتى على لعق الطوابع. فكرت في المكتب بغرفة الجلوس الصباحية، وفتحات صندوق الرسائل المُعنونة جميعها بالحبر بخط اليد المائل ذاك.

قلت لماكسيم:

- ماذا سترتدي؟

قال ماكسيم:

- أنا لا أرتدي ملابس تنكزية أبداً، فهذه هي الميزة الوحيدة التي يتمتع بها المضيف، أليس كذلك يا فرانك؟

قلت:

- لا يمكنني الذهاب حقاً وأنا أرتدي زي راعية غنم من دريسدن. ماذا سأفعل، بحق السماء؟ أنا لا أجيد التنكر بدرجة كبيرة.

قال ماكسيم بخفة:

- ضعي شريطاً حول شعرك، والعبي دور أليس في بلاد العجائب، فأنت تبدين شبيهة بها الآن، وإصبعك في فمك.
قلت:

- لا تكن فظاً هكذا، أعرف أن شعري أملس، لكنه ليس أملس إلى هذه الدرجة. ما رأيك لو أنني قدمت لك أنت وفرانك أكبر مفاجأة في حياتكما، إلى درجة أنكما لن تتعرفا عليّ.
قال ماكسيم:

- ما دمت لن تدهني وجهك باللون الأسود وتتظاهري بكونك قرداً، فلا مانع لديّ فيما تفعلينه.
قلت:

- حسناً، اتفقنا، سأبقي زيي سرّاً حتى آخر لحظة، ولن تعرف عنه شيئاً. هيّا يا جاسبر، نحن لا نكثر لما يقولانه، أليس كذلك؟
سمعت ماكسيم يضحك وأنا في طريقي للخروج إلى الحديقة، وقال شيئاً لفرانك لم أسمعه.

تمنيت لو أنه لم يعاملني كطفلة على الدوام، مدللة وغير مسؤولة إلى حدّ ما، شخص يلاطفه من وقت إلى آخر عندما تسمح حالته المزاجية بذلك، لكنه ينساه في معظم الأحيان، وفي أحيان كثيرة يرتب على كتفه ويطلب منه اللعب بعيداً. تمنيت حدوث شيء ما يجعلني أبدو أكثر نضجاً وأكثر حكمة. هل سيظل الأمر هكذا على الدوام: يسبقني هو بكثير، بحالاته المزاجية التي لا يشاركني فيها، ومشكلاته السرية التي لا أعلم عنها شيئاً؟ ألن نصير معاً أبداً، هو رجل وأنا امرأة، نقف كتفاً بكتف، ويداً بيد، من دون هوة تفصل بيننا؟ لم أرد أن أكون طفلة: أردت أن أكون زوجته، وأمه. أردت أن أكون كبيرة في السن.

وقفت على الشرفة أقضم أظفاري، وأنظر نحو البحر، وبينما كنت أقف هناك، تساءلت للمرة العشرين في ذلك اليوم عما إذا كان ماكسيم هو الذي أمر أن تبقى تلك الغرف في الجناح الغربي مؤتثة من دون أن يمسه أحد. وتساءلت عما إذا

كان يذهب مثل السيدة دانفرز، ويلمس الفرش على منضدة الزينة، ويفتح أبواب الخزانة ويضع يديه بين الملابس.

صحت قائلة:

- تعال يا جاسبر، اركض، اركض معي، هيّا، ألا تستطيع ذلك؟
اندفعت عبر العشب بعنف وغضب، والدموع المريرة في عيني، وجاسبر يتقافز عند عقبي وينبح على نحو هستيري.

سرعان ما انتشر الخبر بخصوص الحفل التنكري الراقص، والتمعت عينا خادمتي الصغيرة، كلاريس، بالإنارة، ولم تتحدث عن شيء آخر، وفهمت منها أن الخدم بشكل عام مسرورون. قالت كلاريس بحماس:

- يقول السيد فريث إن الأمر سيكون مثل الأيام الخوالي، سمعته يقول هذا لأليس في الممر صباح اليوم. ماذا سترتدين يا سيدتي؟

قلت: مكتبة سُر من قرأ

- لا أدري يا كلاريس، لا أستطيع التفكير.

قالت كلاريس:

- طلبت مني أمي التأكد من إبلاغها، فهي تتذكر آخر حفل راقص أقاموه في ماندري، ولم تنسه قط. هل تعتقدين أنك ستستأجرين زياً من لندن؟
قلت:

- لم أحسم أمري يا كلاريس. لكن ما رأيك، عندما أقرر، سأخبرك أنت، ولن أخبر أي شخص آخر، وسيكون سرّاً بيننا.
همست كلاريس:

- أوه، يا سيدتي، كم هو مثير. لا أعرف كيف سأطبق انتظار ذلك اليوم. انتابني الفضول لمعرفة رد فعل السيدة دانفرز على الأخبار. منذ عصر ذلك اليوم، بت أخشى حتى صوتها عبر الهاتف المنزلي، وتجنبت تلك المحنة من خلال استغلال روبرت وسيطاً بيننا. لم أستطع نسيان التعبير المرتسم على وجهها عندما غادرت المكتبة بعد تلك المقابلة مع ماكسيم، وشكرت الرب أنها لم ترني

وأنا جاثية في شرفة العازفين. كما تساءلت أيضًا عما إذا كانت تعتقد أنني من أخبر ماكسيم بشأن زيارة فافيل للمنزل. إذا كان الأمر كذلك، فسوف تكرهني أكثر من أي وقت مضى. ارتعدت عندما تذكرت لمسة يدها على ذراعي، ونبرة صوتها الرهيبة الخافتة الحميمية بالقرب من أذني. لم أرغب في تذكر أي شيء عن عصر ذلك اليوم، لهذا لم أتحدث معها، ولا حتى عبر هاتف المنزل.

استمرت الاستعدادات من أجل الحفل الراقص، وبدأ أن كل شيء يُنجز في مكتب إدارة العزبة، حيث ذهب ماكسيم وفرانك إلى هناك كل صباح. وكما قال فرانك، لم أضطر إلى أن أشغل بالي بشيء على الإطلاق، ولا أعتقد أنني لعقت ولو طابعًا واحدًا. بدأت أصاب بالهلع بخصوص الزي الذي سأرتديه، وبدأت حماقة شديدة، ألا أتمكن من التفكير في أي شيء، وظللت أتذكر كل الأشخاص الذين سيأتون، من كيريث وما حولها: زوجة الأسقف التي قضت وقتًا ممتعًا للغاية في المرة الأخيرة، وبياتريس وجايلز، والليدي كروان المتعبية تلك، والعديد من الأشخاص الآخرين الذين لا أعرفهم، الذين لم يروني من قبل، وسيكون لدى كل واحد منهم انتقاد يوجهه إليّ، وبعض الفضول لمعرفة ماهية الجهد الذي سأبذله. وأخيرًا، بينما أنا في حالة من اليأس، تذكرت الكتب التي قدمتها لي بياتريس كهدية زفاف، وجلست في المكتبة ذات صباح وأخذت أقلب الصفحات كأمل أخير، منتقلة من رسم توضيحي إلى آخر على نحو محموم. لم يبدو أي شيء مناسبًا، فقد كانت جميعًا معقدة ومتكلفة، تلك الأزياء الرائعة من المخمل والحرير في الرسوم التي قدمها الكتاب من روبنز ورامبرانت وآخرين. جلبت ورقة وقلمًا، ونسخت زياً أو اثنين منها، لكنهما لم يعجباني، وألقيت الرسوم في سلة المهملات باشمئزاز، ولم أعاود التفكير فيها مرة أخرى.

في المساء، بينما كنت أبدل ملابس لي لتناول العشاء، علا صوت طرقة على باب غرفة نومي، فنادت قائلة «ادخل»، معتقدة أنها كلاريس. انفتح الباب ولم تكن كلاريس، بل السيدة دانفرز. أمسكت ورقة في يدها، وقالت: - أتمنى أن تسامحيني لإزعاجك، لكنني لم أكن متأكدة ما إذا قصدت التخلص

من هذه الرسوم. دائماً ما تُجلب إليّ جميع سلال المهملات لتفقددها في نهاية اليوم، في حال وُضع أي شيء ذي قيمة في غير مكانه. أخبرني روبرت بأن هذه أُلقيت في سلة مهملات المكتبة.

غمرتني برودة شديدة عند رؤيتها، ولم أستطع الحديث في بادئ الأمر. مدت إليّ الورقة كي أراها، وكان الرسم التقريبي الذي نفذته في الصباح. قلت بعد لحظة:

- لا يا سيدة دانفرز، لا يهم إذا أُلقيت ذلك بعيداً، فهو مجرد رسم تقريبي، ولا أريده.

قالت:

- حسناً، ظننت أنه من الأفضل الاستفسار منك شخصياً، لمنع أي سوء تفاهم. قلت:

- نعم، نعم، بالطبع.

ظننت أنها ستستدير وترحل، لكنها ظلت واقفة هناك بجانب الباب. قالت:

- إذن فأنت لم تقرري ما الذي سترتدينه بعد؟

بدت في صوتها نبرة سخرية، وأثر غريب للشعور بالرضا. افترضت أنها سمعت بأمر محاولاتي من خلال كلاريس بطريقة ما. قلت:

- لا، لا، لم أقرر بعد.

ظلت تراقبني، ويدها على مقبض الباب. قالت:

- أتساءل لماذا لم تنسخي إحدى اللوحات الموجودة في شرفة العازفين؟ تظاهرت ببرد أظفاري، التي كانت قصيرة للغاية وشديدة الهشاشة، إلا أن ذلك منحني شيئاً لأفعله، ولم أضطر إلى النظر إليها. قلت:

- أجل، قد أفكر في ذلك.

وتساءلت في قرارة نفسي لماذا لم تخطر لي مثل هذه الفكرة من قبل، إذ مثلت حلًا واضحًا وجيدًا للغاية لمصاعبي. لكنني لم أردّها أن تعرف ذلك، وواصلت برد أظفاري.

قالت السيدة دانفرز:

- يمكن أن تشكل جميع اللوحات في الشرفة أزياء جيدة، خصوصًا تلك اللوحة التي بها فتاة شابة ترتدي اللون الأبيض، وقبعتها في يدها. أتساءل لماذا لا يجعله السيد دي ويتتر حفلًا تنكريًا راقصًا مقصودًا على حقبة تاريخية محددة، بحيث يرتدي الجميع أزياء متشابهة نوعًا ما، ليكون هناك انسجام. لا أعتقد أبدًا أنه من الصواب رؤية مهرج يراقص سيدة تضع البودرة والرقع التجميلية.

قلت:

- بعض الناس يستمتعون بذلك التنوع، ويعتقدون أنه يجعل الأمر أكثر إمتاعًا.

قالت السيدة دانفرز:

- عن نفسي، لا يعجبني ذلك.

بدا صوتها طبيعيًا وودودًا على نحو مثير للدهشة، وتساءلت لماذا تجشمت عناء الصعود إليّ بنفسها ومعها الرسم الذي تخلصت منه. هل أرادت مصادقتي أخيرًا؟ أم هل أدركت أنني لم أكن من أخبر ماكسيم بشأن فافيل، وكانت هذه طريقتهما في تقديم الشكر لي مقابل التزامي الصمت؟

قالت:

- ألم يقترح السيد دي ويتتر زيارتك؟

قلت:

- نعم.

ثم أضفت بعد لحظة من التردد:

- لا، أريد أن أفاجئه هو والسيد كرولي. لا أريدهما أن يعرفا أي شيء عن ذلك.

قالت:

- أعلم أنه ليس لي أن أقدم اقتراحًا، لكن عندما تقررين، يجب أن أنصحك بصنع فستانك في لندن، فلا يوجد أحد هنا يمكنه تنفيذ ذلك النوع من الأشياء على نحو جيد. فوتشي، في شارع بوند، وهو مكان جيد أعرفه.

قلت:

- عليّ أن أتذكر هذا.

قالت:

- أجل.

وبينما هي تفتح الباب، أضافت:

- لو كنت مكانك يا سيدتي، لدرست تلك اللوحات الموجودة في الشرفة، خصوصًا تلك التي ذكرتها. ولا داعي إلى أن تعتقدي أنني سأكشف أمرك، فلن أنفوه بكلمة لأي شخص.

قلت:

- شكرًا لك يا سيدة دانفرز.

أغلقت الباب وراءها برفق، وواصلت ارتداء ملابسني وقد حيرني سلوكها الذي بدا مختلفًا تمامًا عن آخر لقاء لنا، وتساءلت عما إذا كنت مدينة بهذا لذلك البغيض فافيل.

ابن عم ريبكا. لماذا يكره ماكسيم ابن عم ريبكا؟ ولماذا منعه من القدوم إلى ماندريلي؟ وصفته بياتريس بأنه وغد، ولم تقل الكثير عنه. وكلما أمعنت التفكير فيه، اتفقت معها. بتلكما العينين الزرقاوين الحادتين، وذلك الفم الرخو، وتلك الضحكة الوقحة اللامبالية، قد يعتبره البعض جذابًا، مثل الفتيات اللاتي يتضاحن وراء الطاولة في محال الحلويات، والفتيات اللاتي يقدمن للمرء البرنامج في دور السينما. كنت أعرف كيف سينظر إليهن ويتسم، وهو يصفر بلحن خافت: نظرة وصفير من ذلك النوع الذي يدفع المرء إلى الشعور بعدم الارتياح. تساءلت عن مدى معرفته بماندريلي. بدا كأنه في منزله تمامًا، ومن المؤكد أن جاسبر تعرّف

عليه، لكن هاتين الحقيقتين لا تتناسبان مع كلمات ماكسيم للسيدة دانفرز، كما لم
أتمكن من ربطه بفكرتي عن ريبिका. ريبिका بكل جمالها وسحرها وتنشئتها، لماذا
كان لديها ابن عم مثل جاك فافيل؟ بدا الأمر خطأً وغير متناسب على الإطلاق.
قررت أنه لا بد أن يكون السر الشائن الذي تخفيه الأسرة، وقد أشفقت عليه ريبिका
بكرمها، ودعته إلى ماندري من وقت إلى آخر، ربما في أثناء غياب ماكسيم عن
المنزل، نظرًا إلى علمها بكرهيته له. ومن المحتمل أن بعض الجدال دار حول
ذلك الشأن، ودافعت عنه ريبिका، وربما ثار حرج طفيف بعد ذلك كلما ذُكر اسمه.
بينما جلست لتناول العشاء في غرفة الطعام بمكاني المعتاد، وماكسيم إلى رأس
الطاولة، تخيلت ريبिका جالسة حيث جلست أنا الآن، تلتقط شوكتها كي تتناول
السّمك، ثم يعلو رنين الهاتف ويأتي فريث إلى الغرفة قائلاً: «السيد فافيل على
الهاتف يا سيدتي، يرغب في التحدث إليك»، فتنهض ريبिका عن مقعدها وهي
تلقي نظرة خاطفة على ماكسيم، الذي لا يقول شيئًا، ويواصل تناول سمكته. وعند
عودتها عقب انتهائها من مكالمتها، تجلس في مكانها مرة أخرى، وتبدأ ريبिका في
الحديث عن شيء مختلف بطريقة مبهجة لامبالية، لتداري أمر الغيمة البسيطة
التي غشيتها. في البداية، يبدو ماكسيم متجهّمًا، ويجيبها بكلمات مقتضبة،
لكن شيئًا فشيئًا ستنجح في استعادة روح دعابته مرة أخرى، وتقص عليه شيئًا عن
يومها، عن شخص رأته في كيريث، وعندما ينتهيان من تناول طبق عشاءهما التالي،
سيعاود الضحك مرة أخرى، وينظر إليها مبتسمًا، ويمد إليها يده عبر الطاولة.
قال ماكسيم:

- ما الذي تفكرين فيه، بحق الجحيم؟

جفَلْتُ، وتخضب وجهي، ففي تلك اللحظة القصيرة، ربما ستون ثانية من
الزمن، تماهيت بشدة مع ريبिका إلى درجة أنه لم يعد هناك وجود لذاتي المثيرة
للضجر، كأنني لم آتِ إلى ماندري قطُّ، وعدت بذهني وشخصي أيضًا إلى أيام
وَلَّتْ.

قال ماكسيم:

- هل تعلمين أنك كنت تتصرفين على نحو فائق الغرابة، بدلاً من تناول سمكتك؟ في البداية أصخت السمع، كما لو أنك تسمعين الهاتف، ثم تحركت شفتاك، وألقيت تجاهي نظرة سريعة، وأومأت برأسك، وابتسمت، وهزرت كتفيك، كل ذلك في غضون ثانية تقريبًا. هل تتدربين على مظهرك من أجل ذلك الحفل التنكري الراقص؟

نظر إليّ ضاحكًا، وتساءلت عما سيقوله إذا عرف ما يدور حقًا في أفكاري وقلبي وعقلي، وأنه لمدة ثانية واحدة عاد ليصبح ماكسيم الذي ينتمي إلى عام آخر، وأصبحت أنا ريبكا. قال:

- تبدين مثل مجرمة صغيرة، ما الخطب؟
قلت بسرعة:

- لا شيء، لم أكن أفعل أي شيء.

- أخبريني، بماذا كنت تفكرين؟

- ولماذا يتعين عليّ ذلك؟ فأنت لا تخبرني بما تفكر فيه أبدًا.

- لا أعتقد أنك سألتني من قبل، أليس كذلك؟

- نعم، فعلت ذلك مرة واحدة.

- لا أتذكر.

- كنا في المكتبة.

- هذا محتمل جدًا. وماذا قلت؟

- أخبرتني بأنك تتساءل عمّن تم اختياره من فريق سري ليلعب ضد فريق ميدلسكس.

ضحك ماكسيم مرة أخرى.

- ياله من أمر مخيب للآمال بالنسبة إليك. ما الذي كنت تأملين أن أفكر فيه؟

- شيء مختلف للغاية.

- أي نوع من الأشياء؟

- أوه، لا أعرف.

- لا، لا أعتقد أنك تعرفين. إذا أخبرتك بأنني أفكر في سري وميدلسكس، فقد كنت أفكر في سري وميدلسكس. الرجال أبسط كثيرًا مما تتخيلينه يا طفلي العزيزة، لكن ما يدور في عقول النساء الملتوية المعقدة من شأنه أن يحير أي شخص. هل تدريين أنك لم تشبهي نفسك على الإطلاق الآن؟ كان لديك تعبير مختلف تمامًا على وجهك.

- حقًا؟ أي نوع من التعبير؟

- لا أدري إذا كان في وسعي الشرح. بدوت أكبر سنًا فجأة، ومخادعة. كان الأمر مزعجًا إلى حد ما.

- لم أقصد ذلك.

- لا، لا أعتقد أنك فعلت.

شربت بعض الماء وراقبته من فوق حافة كأسِي، وقلت:

- ألا تريدني أن أبدو أكبر سنًا؟

- نعم.

- ولم لا تريد ذلك؟

- لأن ذلك لن يليق بك.

- سأفعل ذات يوم، ولا مفر من ذلك. سيشتب شعري، وستصبح لديّ تجاعيد وما شابه.

- لا مانع لديّ في ذلك.

- ما الذي تمنعه إذن؟

- لا أريدك أن تبدي كما فعلت الآن. التوت شفتاك، والتمعت عيناك بالمعرفة. ليس النوع الملائم من المعرفة.

انتابني الفضول الشديد، وشعرت بالإثارة نوعًا ما.

- ماذا تقصد يا ماكسيم؟ ما النوع غير الملائم من المعرفة؟

لم يرد للحظة، إذ عاد فريث إلى الغرفة ليغيّر الأطباق. انتظر ماكسيم حتى غاب فريث خلف الستار وخرج من باب الخدم، قبل أن يواصل الحديث مرة أخرى.

قال ببطء:

- عندما التقيتك أول مرة، كان لديك تعبير معين على وجهك، وما زلت تتمتعين به. لن أعرفه، فلا أدري كيف أفعل ذلك، لكنه كان أحد أسباب زواجي بك. ومنذ لحظة، عندما قدمت ذلك العرض الصغير الغريب، اختفى ذلك التعبير، وحل محله شيء آخر.

قلت بلهفة:

- أي نوع من الأشياء؟ اشرح لي يا ماكسيم.
تأملني لحظة وقد رفع حاجبيه، وهو يصفر بهدوء، ثم قال:
- اسمعي يا حلوتي، عندما كنت طفلة صغيرة، هل مُنعت يومًا من قراءة كتب معينة، وهل أغلق والدك على تلك الكتب بالقفل والمفتاح؟
- نعم.

- حسنًا إذن، الزوج لا يختلف كثيرًا عن الأب في نهاية المطاف. هناك نوع معين من المعرفة أفضل ألا تمتلكيه، ومن الأفضل احتجازه بعيدًا عنك، وهذا هو كل ما في الأمر. والآن، فلتنتهي من تناول الخوخ، ولا تطرحي عليّ مزيدًا من الأسئلة، وإلا سأضعك في الزاوية.

- أتمنى ألا تعاملني كما لو كنت في السادسة من عمري.

- كيف تريد أن أعاملك؟

- كما يعامل الرجال الآخرون زوجاتهم.

- أتقصدين أن أضربك؟

- لا تكن سخيفًا. لماذا يجب أن تحول كل شيء إلى مزحة؟

- أنا لا أمزح، بل أنا جاد للغاية.

- لا، أنت لست كذلك، ويمكنني معرفة ذلك من خلال عينيك. أنت تعبث

معي طوال الوقت، كأنني مجرد فتاة صغيرة سخيفة.

- أليس في بلاد العجائب، كانت تلك فكرة جيدة من جانبي. هل اشتريت

وشاحًا وشريطًا لشعرك بعد؟

- أحمَدُرك، ستحظى بأكبر مفاجأة في حياتك عندما تراني في ثوبي التنكري.
- أنا متأكد أنني سأفعل. أكملني تناول خوختك، ولا تتحدثي وفمك مليء
بالطعام. لدي كثير من الرسائل لأكتبها بعد العشاء.

لم ينتظر حتى أنتهي، ونهض وتجول في الغرفة، وطلب من فريث إحضار
القهوة إلى المكتبة. جلست ساكنة ومتجهمة، وتباطأت قدر استطاعتي، على أمل
التأخير كي أثير انزعاجه، لكن فريث لم يعرني أنا وخوختي أي اهتمام، وأحضر
القهوة في الحال، فذهب ماكسيم إلى المكتبة وحده.

عندما انتهيت، صعدت إلى الطابق العلوي إلى شرفة العازفين كي ألقى
نظرة على اللوحات. كنت أعرفها جميعاً بالطبع على نحو جيد الآن، لكنني لم
أتفحصها قط بهدف استنساخ إحداها من أجل زي تنكري. كانت السيدة دانفرز
محمقة بالطبع، يا لها من حماقة مني ألا أفكر في ذلك من قبل. لطالما أحببت
الفتاة ذات الرداء الأبيض، التي تحمل في يدها قبعة. كانت من أعمال رايبورن،
وكانت اللوحة لكارولين دي ويتتر، شقيقة الجد الأكبر لماكسيم. تزوجت
واحدًا من كبار السياسيين اليمينيين، وكانت إحدى جميلات لندن الشهيرات
على مدى سنوات عديدة، لكن هذه اللوحة رُسمت قبل ذلك، وهي لا تزال غير
متزوجة. سيكون من السهل نسخ الفستان الأبيض، بذلكما الكُمين المتفخين،
والكشكشة، وتلك الصدرية الصغيرة، لكن قد تكون القبعة صعبة نوعاً ما، كما
سأضطر إلى ارتداء شعر مستعار، إذ لن يتجعد شعري الأملس على هذا النحو
أبدًا. ربما يستطيع ذلك المكان المُسمَّى «فوتشي» الذي أخبرتني عنه السيدة
دانفرز تنفيذ كل شيء. سأرسل إليهم رسمًا تخطيطيًا للوحة، وأطلب منهم نسخه
بأمانة، وسأرسل إليهم قياساتي.

يا له من أمر مريح، أن أحسم قراري أخيرًا! تخفف ذهني من عبء كبير، حتى
كدت أبدأ التطلع إلى الحفل الراقص. ربما يمكنني الاستمتاع به في النهاية، بالقدر
نفسه تقريبًا مثل الصغيرة كلاريس.

كتبت إلى المتجر في الصباح، وأرفعت رسمًا تخطيطيًا للوحة، وتلقيت جوابًا

مبشراً للغاية، مليئاً بالتشرف لتلقي طلبي الموقر، وذكروا أن العمل سيبدأ على الفور، كما سيدبرّون أمر الشعر المستعار أيضاً.

لم تستطع كلاريس تمالك نفسها من الإثارة، كما بدأت أيضاً أشعر بالحماس للحفل مع اقتراب اليوم العظيم. جايلز وبياتريس سيبيتان الليلة، لكن لا أحد سواهما، حمداً للرب، على الرغم من أنه كان من المتوقع حضور كثير من الناس لتناول العشاء أولاً. تخيلت أننا سنضطر إلى استضافة عدد كبير من الناس لقضاء الليلة بهذه المناسبة، لكن ماكسيم قرر ألا يفعل، وقال:

- إن إقامة الحفل الراقص وحده يمثل جهداً كافياً.

وتساءلت عما إذا فعل ذلك من أجلي فحسب، أم إذا كانت الحشود الضخمة من الناس تثير ضجره بالفعل كما قال. سمعت كثيراً عن حفلات ماندرلي في الأيام الخوالي، حينما كان الناس ينامون في الحمّامات وعلى الأرائك، بسبب الزحام. وها نحن أولاء وحدنا في المنزل الواسع، من دون أحد سوى بياتريس وجايلز لنعدّهما ضيفين.

بدأ جو جديد من الترقب يلف المنزل، وجاء رجال لتجهيز الأرضية للرقص في الردهة الكبيرة، كما نُقل بعض الأثاث في غرفة المعيشة بحيث يمكن وضع طاولات البوفيه الطويلة بمحاذاة الحائط. علّقت الأنوار على الشرفة، وفي حديقة الورد أيضاً، وأينما سار المرء كانت هناك علامة ما على الاستعداد للحفل. انتشر العمال من العزبة في كل مكان، وأتى فرانك لتناول الغداء كل يوم تقريباً. لم يتحدث الخدم عن أي شيء آخر، وسار فريث في أرجاء المكان كما لو أن الأمسية بأكملها ستعتمد عليه وحده. فقد روبرت تركيزه تقريباً، وظل ينسى الأشياء، مثل المناديل على الغداء، ومناولة الخضراوات، وعلا وجهه تعبير متوتر مثل شخص عليه اللحاق بموعد قطار. بدا الكلبان بائسين، وجر جر جاسبر أقدامه في الردهة وذيله بين ساقيه، وعض كل عامل وقع عليه بصره. كان يقف على الشرفة وهو ينبح بحماسة، ثم يندفع بجنون إلى ركن من المرح ويأكل العشب على نحو محموم. لم تفرض السيدة دانفرز نفسها، لكنني أدركت وجودها باستمرار: كان صوتها

هو الذي سمعته في غرفة الاستقبال عندما أتوا لوضع الطااولات، وكانت هي التي أعطت التوجيهات لتجهيز الأرضية في الردهة. وكلما وصلتُ إلى المكان، دومًا ما كنت أجدها قد اختفت للتو: كنت ألمح تنورتها وهي تحتك بالباب، أو أسمع وقع خطواتها على الدرج. وكنت أنا كنموذج دمية، لا فائدة مني لإنسان أو حيوان، أقف من دون أن أفعل أي شيء سوى اعتراض الطريق. سمعت رجلًا خلفي مباشرة يقول:

- معذرة يا سيدتي.

ومرّ بابتسامة اعتذار، حاملاً كرسيين على ظهره، ووجهه يتصبب عرقًا.
- أنا آسفة جدًا.

وانتحيت جانبًا بسرعة. بعد ذلك، لمدارة كسلي، قلت:

- هل يمكنني مساعدتك؟ ماذا لو وضعت تلك الكراسي في المكتبة؟
بدا الرجل متحيرًا، وقال:

- كانت أوامر السيدة دانفرز يا سيدتي، هي أن نأخذ الكراسي إلى الخلف، لنبعدها عن الطريق.

- نعم، بالطبع، يا لسخافتي. خذها إلى الخلف كما قالت.

ثم ابتعدتُ بسرعة وأنا أغغمغ شيئًا ما بخصوص العثور على ورقة وقلم، في محاولة يائسة لإيهام الرجل ليعتقد أنني مشغولة، بينما عبر الردهة وهو يبدو مندهشًا نوعًا ما، وشعرت بأنني لم أخدعه ولو لحظة.

حل اليوم العظيم والطقس ضبابي وغائم، لكن مؤشر الباروميتر كان مرتفعًا، ولم يكن لدينا ما نخشاه. كان الضباب علامة جيدة، وانقشع في الساعة الحادية عشرة تقريبًا كما توقع ماكسيم، ونعمنا بيوم صيفي رائع وساكن، من دون غيمة في السماء الزرقاء. جلب البستانيون الزهور إلى المنزل طوال النهار: آخر زهور الليلك البيضاء، وزهور الترمس وزهور العائق الضخمة، بارتفاع خمس أقدام، والورد بالمئات، وكل نوع من أنواع الزنبق.

ظهرت السيدة دانفرز أخيرًا، وأخبرت البستانيين بهدوء وروية أين يضعون

الزهور، ونسقتها بنفسها، وملأت المزهريات بأصابعها السريعة البارعة. راقبتُ
بانبهار الطريقة التي رتبت بها مزهرية تلو مزهرية، وحملتُها بنفسها من غرفة الزهور
إلى غرفة الاستقبال وأركان المنزل المختلفة، وجمعتها بالأعداد والوفرة الملائمة
تمامًا، وأضفت اللون على الأماكن المطلوبة، بينما تركت الجدران عارية حيثما
كانت البساطة مجدبة أكثر.

تناولت أنا وماكسيم الغداء مع فرانك في شقة عزوبيته التي تقع بجوار المكتب،
كي نبتعد عن الطريق. غمرتنا جميعًا، نحن الثلاثة، روح الدعابة القوية المبتهجة
التي تتاب الناس بعد جنازة، وأطلقنا نكاتًا تافهة عن لا شيء على الإطلاق،
وأذهاننا منشغلة على الدوام بالتفكير في الساعات القليلة المقبلة. شعرت
بالإحساس نفسه الذي أحسسته صباح يوم زواجي: نفس الشعور الخانق بأنني
تماديت الآن بدرجة لا يمكنني التراجع بعدها.

كان لا بد من تحمُّل الأمسية، وحمدًا للرب، أرسل متجر فوتشي ثوبي في
الوقت المناسب. بدا مثاليًا وسط طيات الورق المحيط به، وكان الشعر المستعار
رائعًا. تجربته بعد الإفطار، واندَهشت من التحول، إذ بدت جذابة للغاية ومختلفة
تمامًا، ولا أشبه نفسي على الإطلاق، بل شخص مثير للاهتمام بدرجة أكبر، وأكثر
إشراقًا وحيوية. ظل ماكسيم وفرانك يسألانني عن زبي.
قلت لهما:

- لن تعرفاني، وستتلقيان أكبر مفاجأة في حياتكما.

قال ماكسيم بنبرة كآبة:

- لن ترتدي زي مهرج، صحيح؟ ولا أي محاولة بغیضة لإثارة الضحك؟
ملأنني الشعور بالأهمية، وقلت:

- لا، لا شيء من هذا القبيل.

- أتمنى لو أنك التزمت بفكرة أليس في بلاد العجائب.

قال فرانك بخجل:

- أو جان دارك، بشعرك هذا.

قلت بصراحة:

- لم أفكر في ذلك قط.

فتورّد وجه فرانك نوعًا ما، وقال بأكثر نبرة طنانة لديه:

- أنا متأكد أننا سنعجب بأيّ ما كان الذي ستردينه.

قال ماكسيم:

- لا تشجعها يا فرانك، فقد اغترت بدرجة كبيرة بالفعل بزيها التنكري الرائع

ذاك، ولا مجال لكبح جماحها. ستضعك بي عند حدك، وهذا هو الشيء

الوحيد الذي يبعث على الارتياح. سرعان ما ستخبرك إذا لم يعجبها

فستانك. دومًا ما يبدو مظهر العجوز العزيزة بي غير ملائم فحسب في هذه

المناسبات، ليباركها الرب. أذكر أنها تنكرت في صورة مدام بومبادور ذات

مرة، وتعثرت في طريقها للدخول لتناول العشاء، فانخلع شعرها المستعار،

وقالت بصوتها الخشن ذاك: «لا أطيق هذا الشيء اللعين»، ثم ألقته على

الكرسي، وأمضت بقية الأمسية بشعرها القصير. لك أن تتخيلي كيف بدا

شكله، على ذلك الساتان الأزرق الفاتح ذي التنورة المنتفخة، أو أيّ ما صُنِعَ

منه ثوبها. ولم يتمكن جايلز المسكين من تجاوز الأمر ذلك العام، إذ جاء

مرتديًا زي طاهٍ، وجلس عند البار طوال الليلة وهو يبدو بائسًا تمامًا. أعتقد

أنه شعر بأن بي قد خذلته.

قال فرانك:

- لا، لم يكن الأمر كذلك، بل فقد أسنانه الأمامية وهو يجرب فرسًا جديدة،

ألا تتذكر؟ وأحس بالخجل الشديد بسبب ذلك إلى درجة أنه لم يفتح فمه.

- أوه، أكان ذلك هو السبب؟ يا للمسكين جايلز، إنه يستمتع بارتداء الملابس

التنكرية عموماً.

قلت:

- ذكرت بياتريس أنه يحب أداء التمثيليات التحزيرية، وأخبرتني بأنهم دائماً

ما يؤدونها في عيد الميلاد.

قال ماكسيم:

- أعرف هذا، ولذلك لم أقضِ عيد الميلاد معها قطُّ.

- هل تريدن مزيدًا من الهليون يا سيدة دي ويتتر، وحبّة بطاطس أخرى؟

- لا حقًا يا فرانك، أنا لست جائعة، شكرًا لك.

هز ماكسيم رأسه قائلاً:

- هذا بسبب التوتر. لا عليك، في مثل هذا الوقت غدًا، سيكون كل شيء

قد انتهى.

قال فرانك بجديّة:

- آمل ذلك بصدق، كنت سأصدر الأوامر بأن تقف جميع السيارات على

أهبة الاستعداد في الساعة الخامسة صباحًا.

بدأت أضحك بوهن، وسالت الدموع من عيني، وقلت:

- يا إلهي، دعونا نرسل إلى الجميع برقيات كي لا يأتوا.

قال ماكسيم:

- هيّا، تشجعا وواجهها الأمر، فلن نحتاج إلى إقامة حفل آخر لسنوات. فرانك،

لديّ شعور مزعج بأن علينا التوجه إلى المنزل، ما رأيك؟

وافق فرانك، وتبعتهما على مضض، وأنا غير راغبة في مغادرة غرفة الطعام

الصغيرة الضيقة غير المريحة نوعًا ما، التي تليق جدًا بشقة عزوبية فرانك، التي

بدت لي اليوم تجسيدًا للسلام والهدوء. عندما وصلنا إلى المنزل، وجدنا أن

الفرقة الموسيقية قد وصلت، ووقف أفرادها في الردهة وقد تورّدت وجوههم

إلى حدٍّ ما وهم يحسون بالخجل، بينما فريث يقدم لهم المشروبات وهو يشعر

بالأهمية أكثر من أي وقت مضى. كان من المقرر أن تقضي الفرقة الليلة في

ضيافتنا، وبعد أن رحبنا بهم وتبادلنا بعض النكات الواضحة التي تليق بهذه

المناسبة، اقتيد أفراد الفرقة إلى مقر إقامتهم، يلي ذلك جولة في الأراضي

المحيطة بالمنزل.

مرّت فترة ما بعد الظهر ببطء شديد، مثل الساعة الأخيرة قبل الرحلة حينما

يحزم المرء أمتعته ويغمره الشعور بالإثارة وهو يرغب في المغادرة. وتجولت من غرفة إلى غرفة شاعرة بالضيق تقريبًا مثل جاسبر، الذي تبع خطواتي لائماً. لم يكن في وسعي فعل أي شيء لتقديم العون، وكانت الحكمة من جانبي تقتضي الابتعاد عن المنزل تمامًا، وأخذ الكلب والذهاب في نزهة طويلة. لكن عندما قررت ذلك، كان الوقت قد فات، وطالب ماكسيم وفرانك بالشاي، وعقب انتهاء الشاي، وصلت بياتريس وجايلز، وحل المساء علينا جميعًا قبل الأوان.

قبلت بياتريس ماكسيم، وتلفتت حولها قائلة:

- يبدو هذا شبيهًا بالأيام الخوالي، أهنتك على تذكر جميع التفاصيل.

ثم التفتت إليّ وأضافت قائلة:

- الزهور رائعة، هل رتبته أنت؟

قلت وأنا أشعر بالحرَج نوعًا ما:

- لا، السيدة دانفرز هي المسؤولة عن كل شيء.

- أوه، حسنًا، في النهاية...

لم تكمل بياتريس عبارتها، وقبلت من فرانك أن يشعل لها سيجارتها، وما إن اشتعلت حتى بدا أنها نسيت ما كانت ستقوله.

سأل جايلز:

- هل طلبتم من ميتشلز تولي أمر الطعام كالمعتاد؟

قال ماكسيم:

- أجل، لا أعتقد أن أي شيء تغير، أليس كذلك يا فرانك؟ لدينا جميع

السجلات في المكتب، ولم يُنسَ أي شيء، ولا أعتقد أننا نسينا أحدًا.

قالت بياتريس:

- يا له من شيء يبعث على الارتياح، ألا نجد أحدًا سوانا فقط، حيث أذكر

أننا وصلنا في مثل هذا الوقت تقريبًا ذات مرة، وكان هناك خمسة وعشرون

شخصًا تقريبًا في المكان بالفعل، وجميعهم سيبيتون الليلة.

- ما الذي سيرتديه الجميع؟ أعتقد أن ماكسيم يرفض المشاركة في اللعب،
كما هي الحال دائماً؟
قال ماكسيم:

- كما هي الحال دائماً.
- أعتقد أن هذا خطأ كبير، حيث سيصبح الأمر برمته أكثر إثارة لو أنك
فعلت.

- هل سبق أن وجدت حفلاً راقصاً في ماندرلي يفتقر إلى الإثارة؟
- لا أيها الفتى العزيز، فالتنظيم جيد للغاية، لكنني أعتقد بالفعل أن المضيف
عليه تولي زمام المبادرة بنفسه.
قال ماكسيم:

- أعتقد أنه من الكافي جداً أن تبذل المضيفة ذلك الجهد، فلماذا أصيب
نفسي بالحرارة والضيق، وأجعل من نفسي أضحوكة أيضاً؟
- أوه، لكن هذه سخافة، فلا داعي إلى أن تبدوا أحمق، بهيئتكم هذه يا عزيزي
ماكسيم، يمكنك ارتداء أي زي، ولا حاجة بك إلى أن تقلق بشأن قوامك،
مثل جايلز المسكين.
سألتهما:

- ماذا سيرتدي جايلز الليلة؟ أم هل هو سر خطير؟
ابتسم جايلز قائلاً:
- لا، بالعكس، في الحقيقة فقد بذلت جهداً جيداً للغاية، وجعلت الخياط
المحلي لدينا يقوم على إعدادة: سأتي مرتدياً زي شيخ عربي.
قال ماكسيم:

- يا إلهي!
قالت بياتريس بحرارة:

- إنه ليس سيئاً على الإطلاق. وسوف يصبغ وجهه بالطبع، ويخلع النظارة،
كما أن غطاء الرأس أصلي، اقترضناه من صديق كان يعيش في الشرق،

ونسخ الخياط الباقي من إحدى الصحف. يبدو جايلز بمظهر جيد للغاية وهو يرتديه.

سأل فرانك:

- أي شخصية ستكونينها أنتِ يا سيدة لاسي؟

قالت بياتريس:

- أوه، أخشى أنني لم أتعامل مع الموقف كما يجب، إذ أحضرت زياً شرقياً من نوع ما ليطماشى مع جايلز، لكنني لن أظهار بأنه أصلي: مجرد عقد من الخرز، كما تعلم، وخمار فوق وجهي.

قلت بتهذيب:

- يبدو لطيفاً جداً.

- أوه، إنه ليس سيئاً، وهو مريح في اللبس، وهذه ميزة، كما سأخلع الخمار إذا شعرت بالحر الشديد. ما الذي ستردينه أنت؟

قال ماكسيم:

- لا تسألينها، فهي ترفض إخبار أيّ منا. لم يكن هناك سر كهذا من قبل، وأعتقد حتى إنها كتبت خطاباً لتطلبه من لندن.

بدا على بياتريس الإعجاب، وقالت:

- يا عزيزتي، لا تقولي إنك أنفقت الكثير، وستجعليننا جميعاً نشعر بالحرَج؟ حيث إن زبي الخاص مصنوع في المنزل فحسب، كما تعلمين.

ضحكت قائلة:

- لا تقلقي، فالأمر بسيط جداً في الواقع، لكن ماكسيم أخذ يشاكسني، فوعده أن أمنحه أكبر مفاجأة تلقاها في حياته.

قال جايلز:

- أنتِ محقة تماماً أيضاً، حيث إن ماكسيم متعالٍ للغاية، والحقيقة أنه يشعر بالغيرة، ويتمنى لو أنه ارتدى زياً تنكرياً مثل بقيتنا، لكنه لا يحب الاعتراف بذلك.

قال ماكسيم:

- لا سمح الله!

سأل جايلز:

- ما الذي سترتيديه يا كرولي؟

بدا الأسف على فرانك نوعًا ما، وقال:

- كنت منشغلًا للغاية، وأخشى أنني تركت كل شيء حتى آخر لحظة. عثرت

على سروال قديم الليلة الماضية، وقميص كرة قدم مخطط، وفكرت في

وضع رقعة على إحدى عيني وحضور الحفل كقرصان.

قالت بياتريس:

- لماذا لم تكتب إلينا رسالة، بحق السماء، وتستعير زياً؟ هناك زي لرجل

هولندي ارتداه روجر الشتاء الماضي في سويسرا، كان سيلائمك على

نحو ممتاز.

قال ماكسيم:

- أرفض السماح لوكيل أعماله بالتجول مرتدياً زي رجل هولندي، فلن ينجح

في جمع الإيجارات من أي شخص مرة أخرى. دعيه يلتزم بزي القرصان،

فقد يخيف ذلك بعضهم.

غمغمت بياتريس في أذني:

- إن ذلك الزي لا يشبه القرصان على الإطلاق.

تظاهرت بأنني لم أسمعها. المسكين فرانك، دومًا ما كانت تقسو عليه للغاية.

سأل جايلز:

- كم سأستغرق من الوقت كي أصبغ وجهي؟

قالت بياتريس:

- ساعتين على الأقل. لو كنت مكانك، لفكرت في البدء في الأمر. كم سيبلغ

عددنا على العشاء؟

قال ماكسيم:

- ستة عشر، بما في ذلك نحن، ولا يوجد غرباء، إذ إنك تعرفينهم جميعًا.
قالت بياتريس:

- بدأت أشعر بالحماس لارتداء الملابس التنكرية بالفعل، كم هو ممتع، هذا الأمر برمته. أنا سعيدة جدًا لأنك قررت فعل هذا مرة أخرى يا ماكسيم.
أوما ماكسيم برأسه نحوي قائلاً:
- عليك توجيه الشكر إليها على ذلك.
قلت:

- أوه، هذا غير صحيح، فكل هذا بسبب الليدي كروان.
ابتسم لي ماكسيم وقال:
- هراء، أنت تعلمين أنك متحمسة مثل طفل يحضر أول حفل له.
- أنا لست كذلك.

قالت بياتريس:
- أتوق إلى رؤية فستانك.
أصررت قائلة:
- إنه ليس شيئاً يفوق العادة، حقاً ليس كذلك.
قال فرانك:

- تقول السيدة دي وينتر إننا لن نعرفها.
نظر إليّ الجميع وابتسموا، فسررت وتورد وجهي وشعرت بالسعادة نوعاً ما.
تصرف الناس بلطف، وكانوا جميعاً ودودين للغاية. بدا الأمر ممتعاً فجأة، فكرة
الحفل الراقص، وأنني سأكون المضيضة.

سيقام الحفل لي، على شرفي، لأنني كنت العروس. جلست على الطاولة في
المكتبة أهز ساقي، بينما وقف بقيتهم حولي، وشعرت بأنني أتوق إلى الصعود
إلى الطابق العلوي، كي أرثدي فستاني وأجرب الشعر المستعار أمام المرأة،
وأتلقت يمنة ويسرة قبالة المرأة الطويلة على الجدار. بدا الأمر جديداً، هذا
الشعور المفاجئ غير المتوقع بالأهمية، وجايلز وبياتريس وفرانك وماكسيم

جميعهم ينظرون إليّ ويتحدثون عن ثوبي، والكل يتساءلون عما سأرتديه. فكرت في الفستان الأبيض الناعم وسط طيات الورق المحيط به، وكيف سيخفي قوامي النحيل الذابل، وكثفني المحنيتين نوعًا ما، وفكرت في شعري الخفيف الذي ستغويه الخصلات المجعدة الناعمة اللامعة.

قلت بلامبالاة وأنا أتناوب بعض الشيء، وأتظاهر بعدم الاهتمام:
- كم الساعة؟ أتساءل عما إذا كان علينا التفكير في الصعود إلى الطابق العلوي؟

بينما كنا نعبّر الردهة الكبيرة في طريقنا إلى غرفنا، أدركت لأول مرة كم يليق المنزل بهذه المناسبة، وكم تبدو الغرف جميلة. وحتى غرفة الاستقبال، التي بدت في رأيي رسمية وباردة حينما كنا وحدنا، باتت شعلة من الألوان الآن، والزهور في كل ركن، والورد الأحمر في أوعية فضية على مفرش مائدة العشاء الأبيض، والنوافذ الطويلة مفتوحة على الشرفة حيث ستلتمع الأنوار بمجرد حلول الظلام. كدست الفرقة الموسيقية آلاتها لتكون جاهزة في شرفة العازفين أعلى الردهة، ولف الردهة نفسها جو غريب من الترقب، وسادها دفء لم أعرفه من قبل، بسبب الليلة نفسها التي كانت صافية وساكنة للغاية، والزهور الموجودة أسفل اللوحات، وضحكائنا ونحن نصعد الدرج الحجري العريض.

زالت الصرامة القديمة، وبات ماندريلي ينبض بالحياة بطريقة لم أكن لأتصور أنها ممكنة. لم يعد هو ماندريلي الهادئ الساكن الذي عرفته، وصار له وجه معين الآن لم يكن موجودًا من قبل: جو من المغامرة والبهجة اللطيفة للغاية. بدا الأمر كأن المنزل يتذكر أيامًا أخرى، منذ زمن بعيد، عندما كانت الردهة بالفعل قاعة للمآدب، والأسلحة والبُسط المزخرفة معلقة على الجدران، والرجال يجلسون إلى طاولة ضيقة طويلة في المنتصف، ويضحكون بصوت أعلى منا الآن، وينادون طلبًا للنبيذ والأغاني، ويلقون قطعًا ضخمة من اللحم على البلاط الحجري للكلاب النائمة. بعد ذلك، في سنوات تالية، سيظل

مبهجًا، لكن مع بعض التحضر والرقي، وستسير كارولين دي وينتر التي سأمثل شخصيتها الليلة، وتهبط الدرج الحجري العريض بثوبها الأبيض كي ترقص المنويت. تمنيت لو أن في وسعنا إزاحة السنوات جانبًا كي نراها، كما تمنيت لو أنه لم يكن علينا أن نحط من قدر المنزل بألحاننا الراقصة الحديثة التي تبدو في غير محلها على الإطلاق وتفتقر إلى الرومانسية، فهي لا تلائم ماندرلي. وجدت نفسي أتفق في الرأي فجأة مع السيدة دانفرز: كان علينا أن نجعله حفلًا راقصًا مقصورًا على حقبة تاريخية معينة، بدلًا من ذلك المزيج البشري الذي من المحتمل أن يؤول إليه الأمر، وجايلز المسكين، يرتدي بحسن نية وحماس زي شيخ عربي. وجدت كلاريس في انتظاري بغرفة نومي، ووجهها المستدير متورد بشدة من فرط الإثارة. تبادلنا الضحكات كتلميذتين في المدرسة، وأمرتها بإغلاق بابي. علا صوت حفيف الورق على نحو غامض، وتبادلنا الحديث بصوت هامس كالمتآمرين، ومشينا على أطراف أصابعنا. شعرت كأني طفلة مرة أخرى عشية عيد الميلاد: هذا السير في غرفتي جيئة وذهابًا بقدمين حافيتين، ونوبات الضحك الصغيرة الماكرة، والهتافات المكتومة، كل ذلك ذكرني بتعليق جوربي عشية عيد الميلاد منذ فترة طويلة مضت. كان ماكسيم في غرفة تبديل الملابس الخاصة به في أمان، والباب مغلق بحيث لا يستطيع الدخول، وكانت كلاريس حليفتي وصديقتي المفضلة. بدا قياس الفستان مناسبًا تمامًا، ووقفت بلا حراك وأنا قادرة بالكاد على كبح جماح نفاد صبري، بينما كلاريس تغلق لي الفستان بأصابع متعثرة.

ظلت تميل على عقبيها إلى الخلف كي تتأملني، وتقول:

- إنه جميل يا سيدتي. إنه ثوب يليق بملكة إنجلترا.

قلت بقلق:

- ماذا عن أسفل الكتف اليسرى هناك؟ هل ستظهر حمالتي تلك؟

- لا يا سيدتي، لا شيء ظاهر.

- كيف هو؟ كيف أبدو؟

لم أنتظر ردها، ودرت والتفت أمام المرأة، وتجهمت وابتسمت، وشعرت بأنني شخص مختلف بالفعل، ولم يعد يعوقني مظهري، واختفت شخصيتي المثيرة للضجر أخيرًا. قلت بحماس:

- ناوليني الشعر المستعار، واحترسي كي لا تسحقيه، فيجب ألا تصير الخصلات المجعدة مستوية، بل من المفترض أن تبرز بعيدًا عن الوجه. وقفت كلاريس خلف كتفي، ورأيت وجهها المستدير وراء وجهي في انعكاس المرأة، وعيناها تلمعان وفمها مفتوح بعض الشيء. مشطت شعري بنعومة خلف أذني، وأمسكت الخصلات المجعدة الناعمة اللامعة بأصابع مرتعشة، وأنا أضحك ضحكة مكتومة وأنظر إلى كلاريس.

قلت:

- أوه، يا كلاريس، ماذا سيقول السيد دي ويتتر؟ أخفيت شعري الباهت بالشعر المستعار المجعد، وحاولت إخفاء ابتسامتي وشعوري بالانتصار. ثم أتى شخص وطرق الباب.

صحت بهلع:

- مَنْ هناك؟ لا يمكنك الدخول.

قالت بياتريس:

- أنا يا عزيزتي، لا تنزعجي. إلى أي مرحلة وصلت؟ أريد أن ألقى عليك نظرة.

قلت:

- لا، لا، لا يمكنك الدخول، لست مستعدة.

وقفت كلاريس المرتبكة بجانبي، ويدها ممتلئة بدبابيس الشعر، بينما تناولتها منها واحدًا تلو واحد، وأنا أحاول التحكم في خصلات الشعر المجعد التي انتفشت في الصندوق.

ناديت قائلة:

- سأنزل عندما أصبح جاهزة. هيّا، انزلوا جميعًا، ولا تنتظروني، وقولي لماكسيم إنه لا يمكنه الدخول.

قالت:

- ماكسيم بالطابق السفلي. نزل إلينا، وقال إنه طرق باب حمامك، وإنك لم تجيبي على الإطلاق. لا تتأخري كثيراً يا عزيزتي، فجميعنا نشعر بالفضول الشديد. هل أنت متأكدة أنك لا تريدين أي مساعدة؟

فقدت أعصابي وصحت بنفاد صبر:

- لا، اذهبي، وانزلي إلى الطابق السفلي.

لماذا كان عليها أن تأتي لتزعجني في هذه اللحظة؟ أزعجني ذلك، ولم أعرف ما الذي أفعله، فدفعت دبوس شعر بقوة في خصلة مجعدة حتى تفلطح. لم أسمع المزيد من بياتريس، ولا بد أنها غابت عبر الممر. تساءلت عما إذا كانت سعيدة بردائها الشرقي، وما إذا نجح جايلز في صباغة وجهه. كم كان الأمر برمته سخيفاً. أتساءل لم فعلنا ذلك، ولماذا تصرفنا مثل الأطفال إلى هذا الحد؟

لم أتعرف على الوجه الذي حدق إليّ في المرأة: بدت العينان أوسع بكل تأكيد، والفم أصغر، والبشرة بيضاء وصافية، وأحاطت الخصلات المجعدة بالرأس كسحابة صغيرة. راقبت تلك الشخصية التي لم تكن أنا قط، ثم ابتسمت ابتسامة جديدة متأنية.

قلت:

- أوه، يا كلاريس! أوه، يا كلاريس!

ثم جمعت تنورة فستاني بين يدي وانحنيت لها وثنياته تكنس الأرض، فضحكت بحماس وهي تشعر بالخرج نوعاً ما، وتخضب وجهها وغمرتها السعادة البالغة. سرت جيئة وذهاباً أمام مرآتي، وأنا أراقب انعكاسي.

قلت:

- افتحي الباب، سوف أنزل. اسبقيني وتأكدي ما إذا كانوا هناك.

أطاعني وهي لا تزال تضحك، فرفعت تنورتي عن الأرض وتبعتها عبر الممر. التفتت نحوي وأشارت إليّ هامسة:

- لقد نزلوا، السيد دي وينتر، والرائد لاسي، والسيدة لاسي، كما أتى السيد

كارولي للتو، وجميعهم يقفون في الردهة. نظرتُ عبر الممر عند رأس الدرج الكبير، وأطللت على الردهة بالأسفل.

أجل، كانوا هناك: جايلز بردائه العربي الأبيض، يضحك بصخب ويظهر السكين التي بجانبه، وبياتريس ملتفة برداء أخضر غريب وقد تدلى حول عنقها عقد من الخرز، وفرانك المسكين الذي أحس بالحرج وبدأت عليه الحماقة بعض الشيء بقميصه المخطط وحذاء البحر الذي يرتديه، وماكسيم، الشخص الطبيعي الوحيد في الحفل، بملابس السهرة.

قال:

- لا أدري ما الذي تفعله، لقد ظلت في غرفة نومها لساعات. كم الساعة يا فرانك؟ سيصل ضيوف العشاء قبل أن ندرك الأمر. بدّل أفراد الفرقة الموسيقية ملابسهم، وكانوا موجودين في الشرفة بالفعل. أخذ أحدهم يضبط كمانه، وعزف النغمات بهدوء، ثم جذب وترًا، بينما التمع الضوء على لوحة كارولين دي وينتر.

أجل، نُسخ الفستان بالضبط من الصورة التي رسمتها للوحة، بالكُمين المتفتحين، والوشاح، والشريط، والقبعة المرنة العريضة التي أمسكتها في يدي، كما كان شعري المجعد هو نفس شعرها، وأحاط بوجهي مثل شعرها في اللوحة. لا أعتقد أنني شعرت بمثل ذلك الحماس الفائق من قبل، وبمثل تلك السعادة البالغة والفخر الشديد. لوحت بيدي للرجل ذي الكمان، ثم وضعت إصبعي على شفتي كي يلتزم الصمت. ابتسم لي وانحنى، ثم عبر الشرفة وأتى إلى الممر حيث وقفت.

همست قائلة:

- دع قارع الطبول يعلن عن مجيئي، اجعله يقرع الطبل، بالطريقة التي يفعلونها كما تعلم، ثم ينادي قائلاً «الآنسة كارولين دي وينتر». أريد أن أفاجئهم في الأسفل.

أوماً برأسه أنه فهم، ورُفرف قلبي على نحو سخي، واحترقت وجنتاي. يا لها

من متعة: يا لها من متعة صبيانية سخيطة مجنونة! ابتسمت لكلاريس التي كانت لا تزال جائمة في الممر، ورفعت تنورتني بين يدي. ثم تردد صدى الطبل في القاعة الكبرى، وفاجأني للحظة، أنا التي كنت أنتظره، وأعلم أنه سيأتي. رأيتهم يرفعون أنظارهم بدهشة وحيرة من الردهة بالأدنى.

صاح قارع الطبول:

- الآنسة كارولين دي وينتر.

تقدمت إلى رأس الدرج، ووقفت هناك مبتسمة وقبعتني في يدي، مثل الفتاة في اللوحة. انتظرت التصفيق والضحكات التي ستتبعني وأنا أنزل الدرج ببطء، لكن لم يصفق أحد، ولم يتحرك أحد.

حدق إليّ الجميع ككائنات بكماء، وندت عن بياتريس صيحة صغيرة، فوضعت يدها على فمها. واصلت الابتسام، ووضعت يدي على الدرايزين. قلت:

- كيف حالك يا سيد دي وينتر؟

لم يتحرك ماكسيم، وحدق إليّ وكأسه في يده، وهربت الدماء من وجهه وصار شاحبًا تمامًا. رأيت فرانك يتوجه إليه كما لو أنه سيتحدث، لكن ماكسيم أبعدته. ترددت وإحدى قدمي على الدرج بالفعل. لم يفهموا، وكان هناك شيء على غير ما يرام. لماذا بدا ماكسيم على هذا النحو؟ ولماذا وقفوا جميعًا كما لو أصابهم البكم، أو مثل أشخاص في غيبوبة؟

ثم تقدم ماكسيم نحو الدرج، من دون أن تغادر عيناه وجهي على الإطلاق. سألني:

- ما الذي تظنين أنك تفعلينه، بحق الجحيم؟

اتقدت عيناه بالغضب، وكان وجهه لا يزال أبيض شاحبًا.

لم أستطع التحرك، وظللت واقفة هناك، ويدي على الدرايزين.

شعرت بالرعب من عينيه ومن صوته، وقلت:

- إنها اللوحة. إنها اللوحة التي في الشرفة.

ساد صمت طويل، وظل يحدق بعضنا إلى بعض. لم يتحرك أحد في الردهة، فازدردت ريقى، وتحركت يدي إلى حلقي، وقلت:

- ما الخطب؟ ماذا فعلت؟

ليتهم فقط لم يحدقوا إليَّ هكذا، بوجوه خاوية متبلدة، وليت أحدهم تفوه بشيء ما. عندما تحدث ماكسيم مرة أخرى، لم أتعرف على صوته: كان ساكنًا وهادئًا، وباردًا كالجليد، وليس الصوت الذي عرفته.

- اذهبي وبدلي ملابسك، ولا يهم ما الذي ستردينه. ابحثي عن فستان سهرة عادي، أي شيء سيفي بالغرض. اذهبي الآن، قبل أن يأتي أي شخص.

لم أستطع التحدث، وواصلت التحديق إليه. بدت عيناه الشيء الوحيد الحي في قناع وجهه الأبيض.

قال بنبرة خشنة وغريبة:

- لماذا تقفين هناك؟ ألم تسمعي ما قلته؟

استدرت وركضت على نحو أعمى عبر الممر إلى الممرات الكائنة خلفه، ولمحت التعبير المندesh على وجه قارع الطبول الذي أعلن عن قدومي. مررت به متعثرة من دون أن أنظر إلى موضع خطواتي، وأعمت الدموع عيني. لم أعرف ما الذي يحدث. اختفت كلاريس، وبدا الممر مهجورًا. تلفت حولي بذهول وغباء مثل كائن تطارده الأشباح، ثم رأيت أن الباب المؤدي إلى الجناح الغربي كان مفتوحًا على مصراعيه، وأن ثمة شخصًا يقف هناك.

كانت السيدة دانفرز. لن أنسى أبدًا ذلك التعبير البغيض المنتصر الذي ارتسم على وجهها: وجه شيطان مبتهج. وقفت هناك، تبتسم لي.

ثم ركضت منها، عبر الممر الضيق الطويل إلى غرفتي الخاصة، وأنا أتخط وأتعثر في ثنيات فستاني.

كانت كلاريس تنتظرنني في غرفة نومي، وبدت شاحبة وخائفة. ما إن رأته حتى انفجرت في الدموع، ولم أقل أي شيء. بدأت أجذب كُبش فستاني، فتمزق القماش. لم أتمكن من التعامل معها بشكل ملائم، فأتت كلاريس لتساعدني وهي لا تزال تبكي بصوت مرتفع.

قلت:

- لا بأس يا كلاريس، هذا ليس خطأك.
فهزت رأسها والدموع ما زالت تنهمر على وجنتيها.
قالت:

- فستانك الجميل يا سيدتي، فستانك الأبيض الجميل.
- لا يهم. ألا يمكنك العثور على الكُبشة؟ ها هي ذي في الخلف، وهناك واحدة أخرى في مكان ما، تحتها بقليل.
تخبطت في تعاملها مع الكبش، ويدها ترتجفان، مما زاد الأمر سوءاً أكثر مما فعلتُ، وظلت تلتقط أنفاسها طوال الوقت.
قالت:

- ما الذي ستردينه بدلاً منه يا سيدتي؟
- لا أدري، لا أدري.
تمكنت من فك الكبش، وجاهدتُ لخلع الفستان، وقلت:

- أعتقد أنني أفضل أن أكون وحدي يا كلاريس، هلاً تلطفت وتركتني؟ لا تقلقي، سأندبر أمري جيداً. انسي ما حدث، أريدك أن تستمتعي بالحفل. نظرت إليَّ بعينين متورمتين دامعتين، وقالت:

- هل يمكنني أن أكوي لك فستاناً يا سيدتي؟ لن يستغرق الأمر مني لحظة. لا، لا تهتمي بالأمر، أفضل لو أنك ذهبت. وكلاريس...

- أجل يا سيدتي؟

- لا... لا تقولي أي شيء عما حدث للتو.

- لا يا سيدتي.

وانفجرت في نوبة أخرى من البكاء.

قلت:

- لا تدعي الآخرين يروك هكذا، اذهبي إلى غرفة نومك وافعلي شيئاً بخصوص

وجهك. لا يوجد شيء يستدعي البكاء، لا شيء على الإطلاق.

طرق شخص الباب، فألقت عليَّ كلاريس نظرة سريعة خائفة.

قلت:

- مَنْ؟

انفتح الباب، ودخلت بياتريس الغرفة. أنت إليَّ في الحال، وبدت هيئتها

غريبة ومضحكة نوعاً ما بزيها الشرقي، والأساور التي تصلصل في معصمها.

مدت يديها نحوي، وقالت:

- يا عزيزتي، يا عزيزتي.

تسلَّلت كلاريس خارجة من الغرفة، وشعرتُ بالإرهاق فجأة، وأني غير قادرة

على مواجهة الأمر. ذهبتُ وجلست على الفراش، ورفعت يدي إلى رأسي،

وخلعت الشعر المستعار المجعد، بينما وقفت بياتريس تراقبني.

قالت:

- هل أنت بخير؟ تبدين شاحبة جداً.

- إنها الإضاءة، فهي لا تضيء التورد على المرء على الإطلاق.

- اجلسي بضع دقائق، وستصبحين على ما يرام. انتظري، سأجلب كوبًا من الماء.
دخلت الحمام وأساورها تخلص مع كل حركة من حركاتها، ثم عادت وفي
يدها كوب من الماء.

شربت القليل منه لإرضائها، من دون أن أريده على الإطلاق. بدا دافئًا من
الصنبور، إذ لم تدع الماء يجري لبعض الوقت.
قالت:

- عرفت في الحال إنه مجرد خطأ فادح، بالطبع. لا يمكن أن تكوني قد
عرفت، فلماذا ستعرفين ذلك؟
- عرفتُ ماذا؟

- الفستان، أيتها العزيزة المسكينة، لوحة الفتاة التي نسختها من شرفة العازفين،
كان ذلك هو ما فعلته ريبيكا في آخر حفل تنكري راقص في ماندري. هناك
تطابق تام: اللوحة نفسها، والفستان نفسه. لقد وقفت هناك على الدرج،
وللحظة مروعة فكرت أن...

لم تكمل عبارتها، وربتت على كتفي. تابعت الحديث قائلة:
- أيتها الطفلة المسكينة، كم هو مؤسف جدًا، لكن كيف كان لك أن تعرفي
ذلك؟

حدقت إليها وأنا أشعر بالذهول إلى درجة عجزت معها عن الفهم، وقلت
ببلاهة:

- كان يجب أن أعرف، كان يجب أن أعرف.
- هراء، كيف كنت ستعرفين؟ لم يكن شيئًا يمكن أن يخطر على بال أيٍّ منا،
لكنه مثل صدمة بالغة، كما ترين. لم يتوقعه أحد منا، وماكسيم...
- نعم، ماكسيم؟

- إنه يعتقد، كما ترين، أن الأمر كان متعمدًا من جانبك. كان لديكما رهان
من نوع ما أنك ستفاجئينه، أليس كذلك؟ مزحة حمقاء من نوع ما. وهو
لا يتفهم الأمر بالطبع، إذ كانت صدمة مروعة له. أخبرته على الفور بأنه لا

يمكن أن تكوني قد أقدمتِ على مثل ذلك الشيء، وأن المسألة مجرد حظ مروع للغاية، دفعك إلى اختيار تلك اللوحة بالذات. كررت مرة أخرى:

- كان يجب أن أعرف، كل هذا خطئي، كان يجب أن أرى. كان يجب أن أعرف.

- لا، لا، لا تقلقي، ستمكين من شرح الأمر برمته له بهدوء، وسيصبح كل شيء على ما يرام تمامًا. بدأت أول مجموعة من الأشخاص في الوصول وأنا في طريقي إلى الصعود إليك في الطابق العلوي، وهم يتناولون المشروبات، وكل شيء على ما يرام. قلت لفرانك وجايلز أن يختلفا حكاية عن كون قياس فستانك غير مناسب، وأنتك أصبت بخيبة أمل كبيرة.

لم أقل شيئاً، وبقيت جالسة على الفراش ويدي معقودتان في حجري. توجهت بياتريس إلى خزانة ملابسها، وفتحت أبوابها على مصاريحها قائلة: - ماذا يمكنك ارتداؤه بدلاً من ذلك؟ هاك، ما هذا الأزرق؟ إنه يبدو فاتناً. ارتدي هذا، ولن يمانع أحد. أسرع، سوف أساعدك. - لا، لا، لن أنزل.

حدقت إليّ بياتريس بانزعاج شديد، وثوبي الأزرق فوق ذراعها. قالت بذهول:

- لكن يا عزيزتي، لا يمكن أن تمتنعي عن الظهور. - لا، يا بياتريس، لن أنزل. لا أستطيع مواجهتهم، ليس بعد ما حدث. - لكن لن يعرف أحد بأمر الفستان، ولن ينبس فرانك وجايلز بكلمة أبداً. لقد رتبنا الحكاية بأكملها: أرسل المتجر الفستان الخطأ، ولم يكن قياسه ملائماً، لذا سترتدين فستان سهرة عادياً بدلاً من ذلك. سيعتقد الجميع أن الأمر طبيعي تماماً، ولن يُحدث ذلك أي فرق في الأمسية. - أنت لا تفهمين، لا يهمني الفستان. ليست هذه هي المسألة على الإطلاق، بل ما حدث، وما فعلته. لا أستطيع النزول الآن يا بياتريس، لا أستطيع.

- لكن يا عزيزتي، جايلز وفرانك يتفهمان الأمر تمامًا، وهما متعاطفان للغاية، وماكسيم أيضًا. كانت مجرد الصدمة الأولى... سأحاول الانفراد به بدقة، وسأوضح الأمر برمته.

- لا! لا!

وضعت ثوبي الأزرق بجانبني على الفراش، وقالت وهي قلقة للغاية ومستاءة بشدة:
- سيصل الجميع، وسيبدو الأمر فائق الغرابة إذا لم تنزلي. لا يمكنني أن أقول إنك أصبت بالصداع فجأة.

قلت بضجر:

- ولمَ لا؟ ما الذي يهم؟ اختلقي أي شيء، لن يمانع أحد، فلا أحد منهم يعرفني.

ربتت على يدي، وقالت:

- هياً يا عزيزتي، حاولي وابذلي جهداً. ارتدي هذا الثوب الأزرق الفاتن. فكري في ماكسيم، يجب أن تنزلي من أجله.

- أفكر في ماكسيم طوال الوقت.

- حسناً، إذن، بالتأكيد...؟

قضمت أظفاري وأنا أثارجح إلى الأمام وإلى الخلف على الفراش، وقلت:
- لا، لا أستطيع، لا أستطيع.

طرق شخص آخر الباب، فتوجهت بياتريس إلى الباب قائلة:

- أوه، يا إلهي، من هذا، بحق السماء؟ ما الخطب؟

فتحت الباب، وكان جايلز يقف بالخارج. قال:

- لقد حضر الجميع، وأرسلني ماكسيم لمعرفة ما يحدث.

قالت بياتريس:

- تقول إنها لن تنزل. ماذا سنقول، بحق السماء؟

لمحت جايلز وهو يحدق إليّ عبر الباب المفتوح.

همس قائلاً:

- يا إلهي، يا له من لبس مزعج.
- ثم أشاح بوجهه في حرج عندما لاحظ أنني رأيته.
- سأل بياتريس:
- ماذا أقول لماكسيم؟ إنها الثامنة وخمس دقائق الآن.
- قل إنها تشعر بالدوار نوعاً ما، لكنها ستحاول النزول لاحقاً. قل لهم ألا ينتظروها قبل الذهاب إلى تناول العشاء. سأنزل في الحال، وسأجعل كل شيء على ما يرام.
- نعم، أنت على حق.
- اختلس نظرة سريعة تجاهي مرة أخرى، بتعاطف، لكن بفضول نوعاً ما، متسائلاً لماذا جلست هناك على الفراش، وبدا صوته خافتاً كما قد يصبح بعد حادث، والناس ينتظرون الطبيب.
- قال:
- هل هناك شيء آخر يمكنني فعله؟
- قالت بياتريس:
- لا، انزل الآن، وسأتبعك بعد دقيقة.
- أطاعها، ومضى يجر جر خطاه بردائه العربي. فكرت أن هذا هو ذلك النوع من اللحظات التي سأضحك عليها بعد سنوات، وسأقول: «هل تذكر كيف ارتدى جايلز زياً عربياً، وكيف غطت بياتريس وجهها بخمار، والأساور تصلصل على معصميهما؟». وسيخفف الزمن من الأمر، ويجعلها لحظة للضحك. لكنها لم تكن مضحكة الآن، ولم أضحك الآن. لم يكن هذا هو المستقبل، بل الحاضر، وكان حياً وحقيقاً للغاية. جلست على الفراش أنتف اللحاف المحشو بالريش، وسحبت ريشة صغيرة من شق في إحدى الزوايا.
- بذلت بياتريس محاولة أخيرة، وقالت:
- هل تريدني بعض البراندي؟ أعرف أنها مجرد شجاعة زائفة مستمدة من الشراب، لكنها تصنع المعجزات في بعض الأحيان.

- لا، لا، لا أريد أي شيء.
- يجب أن أنزل، قال جايلز إنهم ينتظرون العشاء. هل أنت متأكدة أنه لا بأس من أن أتركك؟
- نعم، وشكرًا لك يا بياتريس.
- أوه، يا عزيزتي، لا تشكريني. أتمنى لو أن في استطاعتي فعل شيء ما.
- توقفت بسرعة عند مرآتي، وربت على وجهها بالبودرة، قائلة:
- يا إلهي، كم يبدو منظري رهيبًا، وهذا الخمار اللعين مُعوج، أعرف هذا، ومع ذلك ليس هناك ما يمكن فعله بهذا الشأن.
- خرجت من الغرفة وثوبها يصدر حفيفًا، وأغلقت بابي خلفها. شعرت بأنني فقدت تعاطفها برفضها النزول، إذ إنني تصرفت بجبن، ولم تفهم هي الأمر. كانت تنتمي إلى سلالة أخرى من الرجال والنساء، عرق آخر غيري أنا، وكانت نساء عرقها يتمتعن بالشجاعة، ولم يكن مثلي. لو أن بياتريس هي التي اقترفت هذا الأمر بدلًا مني، لكانت ارتدت فستانها الآخر ونزلت مرة ثانية للترحيب بضيوفها. كانت ستقف بجانب جايلز، وتصافح الناس بابتسامة على وجهها. لم أستطع فعل ذلك، فلم تكن لدي عزة النفس ولا الشجاعة اللازمة، وكنت سيئة التشبُّه.
- ظلمت أرى عيني ماكسيم المتقدتين في وجهه الشاحب، وخلفه جايلز وبياتريس وفرانك واقفين كالتماثيل يحدقون إليَّ.
- نهضت عن فراشي وتوجهت إلى النافذة، وأطلت منها. أخذ البستانيون يتفقدون الأنوار في حديقة الورد، ويختبرونها للتأكد من أن جميعها تعمل، وبدت السماء شاحبة، وبها بضع سحب مسائية بلون السلمون تتجه غربًا. ستُضاء جميع المصابيح بحلول الغسق، وكانت هناك طاولات وكراسي في حديقة الورد للأزواج الذين يريدون الجلوس بالخارج. تمكنت من شم الورد من نافذتي. أخذ الرجال يتبادلون الحديث ويضحكون، وسمعت صوتًا ينادي:
- هناك واحدة احترقت هنا، هل يمكن أن تحضر لي لمبة أخرى صغيرة؟
- واحدة من تلك الزرقاء يا بيل.

ثَبَّتَ اللبّة في مكانها، وصفر لحنًا رائجًا في الوقت الحالي بثقة ويُسر، وفكرت كيف أنه من المحتمل أن تعزف الفرقة الموسيقية اللحن نفسه في شرفة العازفين فوق الردهة. قال الرجل وهو يشعل الضوء ويطفئه:

- لقد تكفل هذا بالأمر، وكلها على ما يرام هنا. لم تحترق أي مصابيح أخرى. من الأفضل أن نلقي نظرة على تلك الموجودة على الشرفة.

داروا حول ركن المنزل وهو لا يزال يصفر الأغنية، وتمنيت لو أن في وسعي أن أكون ذلك الرجل. في وقت لاحق من المساء، سيقف مع أصدقائه في الممر، ويراقب السيارات وهي تتجه نحو المنزل، ويداه في جيبيه، وقبعته على مؤخرة رأسه. سيقف وسط حشد مع أشخاص آخرين من العزبة، ثم يشرب نبيذ التفاح على المائدة الطويلة الموضوعة من أجلهم في أحد أركان الشرفة، وسيقول:

- يبدو هذا أشبه بالأيام الخوالي، أليس كذلك؟

لكن صديقه سيهز رأسه وهو ينفث دخان غليونه، ويقول:

- هذه المرأة الجديدة ليست مثل السيدة دي وينتر التي نعرفها، بل هي مختلفة تمامًا.

وستبدي امرأة بجانبهما في الحشد موافقتها، بالإضافة إلى أشخاص آخرين أيضًا، سيهزون جميعًا رؤوسهم ويقولون:

- هذا صحيح.

- أين هي الليلة؟ لم تخرج إلى الشرفة ولو مرة واحدة.

- لا أعرف، لست متأكدًا، لم أرها حتى.

- اعتادت السيدة دي وينتر أن تكون هنا وهناك، وفي كل مكان.

- نعم، هذا صحيح.

وستلتفت المرأة إلى جيرانها وهي تومئ برأسها في غموض.

- يقولون إنها لن تظهر الليلة أبدًا.

- تابعي الحديث.

- هذا صحيح، أخبرني أحد الخدم من المنزل بأن السيدة دي ويتتر لم تنزل من غرفتها طوال المساء.
- ما خطب المرأة، هل هي مريضة؟
- لا، بل متعكرة المزاج على ما أظن. يقولون إن ثوبها لم يعجبها.
- تعالت الضحكات والهمهمات من الحشد الصغير.
- هل سبق أن سمعت بمثل ذلك الشيء من قبل؟ يا له من أمر مؤسف، بالنسبة إلى السيد دي ويتتر.
- لن أتقبل ذلك، ليس من فتاة وقحة مثلها.
- ربما هذا ليس صحيحًا على الإطلاق.
- بل هو صحيح بالفعل، لكنهم لا يذكرون الحقيقة في المنزل.
- سينتقل الحديث من واحد إلى واحد، ومن هذا إلى الذي يليه، مع ابتسامة، وغمزة، وهز الأكتاف. ثم من مجموعة إلى مجموعة أخرى، وينتشر بعد ذلك إلى الضيوف الذين يسرون على الشرفة ويتجولون عبر الممرج. وسيقول الزوجان للذنان سيجلسان على تلك المقاعد بالأسفل في حديقة الورد في غضون ثلاث ساعات:
- هل تعتقد أن ما سمعته صحيح؟
- ماذا سمعت؟
- أن ليست بها أي علة على الإطلاق، بل خاضا شجارًا كبيرًا، وهي ترفض الظهور!
- يا للعجب!
- مع رفع الحاجبين، وصفير طويل.
- أعرف هذا، حسنًا، يبدو الأمر غريبًا بالفعل، ألا تعتقد ذلك؟ ما أعنيه هو أن الناس لا يعانون صدادًا عنيفًا فجأة من دون سبب. أقول إن الأمر برمته مريب جدًا.
- ظننت أنها تبدو متجهمة بعض الشيء.

- وأنا أيضًا.

- وقد سمعت من قبل بالطبع أن الزيجة ليست ناجحة.

- أوه، حقًا؟

- همم، قال عديد من الأشخاص ذلك، ويقولون إنه بدأ يدرك أنه اقترف خطأ فادحًا، فهي تفتقر إلى الجمال، كما تعلمين.

- لا، سمعت أنها ليست جذابة على الإطلاق. مَنْ كانت؟

- أوه، لا أحد على الإطلاق، مجرد فتاة التقطها في جنوب فرنسا، مربية أطفال أو شيء من هذا القبيل.

- يا إلهي!

- أعرف، وعندما تفكرين في ريبیکا...

واصلتُ التحديق إلى الكراسي الخالية. تحولت السماء التي بلون السلمون إلى اللون الرمادي، والتمتع نجم المساء فوق رأسي. في الغابة خلف حديقة الورد، أصدرت الطيور آخر أصوات رفرقتها البسيطة قبل حلول الظلام، وطار نورس وحيد عبر السماء. ابتعدت عن النافذة، وعدت إلى الفراش مرة أخرى. التقتت الفستان الأبيض الذي تركته على الأرض، وأعدته في الصندوق مع الورق، كما وضعت الشعر المستعار في صندوقه أيضًا. ثم بحثت في إحدى خزائني عن المكواة الصغيرة المحمولة التي كانت لديّ في مونت كارلو من أجل فساتين السيدة فان هوبر. وجدتھا ملقاة في مؤخرة أحد الرفوف، مع بعض الكنزات الصوفية التي لم أرتدھا منذ فترة طويلة. كانت من ذلك النوع من المكاوي العامة التي تعمل على أي جهد، فبثتها في القابس بالجدار. بدأت أكوي الفستان الأزرق الذي أخذته بياتريس من خزانة الملابس، ببطء وانتظام، كما اعتدت كي فساتين السيدة فان هوبر في مونت كارلو.

عندما انتهيت، وضعت الفستان على الفراش، ثم أزلت عن وجهي مساحيق التجميل التي وضعتها من أجل الزي التنكري. مشطت شعري وغسلت يدي، وارتديت الفستان الأزرق والحذاء الذي يناسبه. بدا الأمر كأنني عدت إلى

شخصيتي القديمة مرة أخرى، وسأُنزل إلى ردهة الفندق مع السيدة فان هوبر. فتحت باب غرفتي وسرت عبر الممر، وكان كل شيء ساكنًا وصامتًا، كأنه لا يوجد حفل على الإطلاق. سرت على أطراف أصابعي حتى نهاية الممر، وانعطفت عند الزاوية، فوجدت باب الجناح الغربي مغلقًا، ولم يكن هناك أي صوت قَطُّ. وعندما وصلت إلى المدخل المقوس المجاور لشرفة العازفين والدرج، سمعت همهمات وطنين الحديث الصادر من غرفة الطعام. كانوا لا يزالون يتناولون العشاء، والردهة الكبيرة مهجورة، كما لم يكن هناك أحد في الشرفة كذلك. لا بد أن أفراد الفرقة كانوا يتناولون عشاءهم أيضًا. لم أعرف ماهية الترتيبات التي أُعدت من أجلهم، حيث تولى فرانك ذلك، فرانك أو السيدة دانفرز.

من حيث وقفت، كانت في إمكاني رؤية صورة كارولين دي ويتتر في مواجهتي بالشرفة، ورأيت الخصلات المجعدة المحيطة بوجهها، وشاهدت الابتسامة على شفثيها. تذكرت زوجة الأسقف التي قالت لي يوم ذهبت إلى زيارتها:
- لن أنساها أبدًا، وهي ترتدي البياض بالكامل، مع تلك الهالة من الشعر الداكن.

كان يجب أن أتذكر ذلك، كان يجب أن أعرف. كم بدت الآلات الموسيقية غريبة في الشرفة، مع الحوامل الصغيرة الخاصة بالنوت الموسيقية، والطلبة الضخمة، وقد ترك أحد الرجال منديله على كرسي. انحنيت فوق الدرابزين، وأطللت على الردهة بالأسفل. سرعان ما ستمتلئ بالناس، وكما قالت زوجة الأسقف، سيقف ماكسيم أسفل الدرج يصافحهم عندما يدخلون القاعة، وسيتردد صدى أصواتهم حتى السقف، وستعزف الفرقة من الشرفة حيث كنت أميل الآن، والرجل ذو الكمان يبتسم ويتميل مع الموسيقى.

لن يستمر هذا الهدوء كما هي الحال الآن. صدر صرير من أحد الألواح الخشبية في الشرفة، فاستدرت ونظرت إلى الشرفة ورائي، ولم يكن أحد هناك. كانت الشرفة خالية، تمامًا كما كانت من قبل. ومع ذلك، هب في وجهي تيار من الهواء. لا بد أن أحدهم ترك نافذة مفتوحة في أحد الممرات. استمر طنين

الأصوات في غرفة الطعام، وتساءلت لماذا أصدر اللوح الخشبي صريراً في حين أنني لم أتحرك قط. ربما كان دفء المساء، أو انتفاخاً في مكان ما في الخشب القديم. لكن تيار الهواء ظل يندفع في وجهي، ورفرفت نوتة موسيقية فوق أحد الحوامل، وسقطت على الأرض. نظرت إلى المدخل المقوس فوق الدرج، حيث كان التيار آتياً من هناك. مررت أسفل المدخل المقوس مرة أخرى، وعندما خرجت إلى الممر الطويل رأيت أن باب الجناح الغربي قد انفتح وتأرجح في اتجاه الحائط. كان الممر الغربي مظلماً، ولم تُضاء به أي أنوار. شعرت بالريح تهب على وجهي من نافذة مفتوحة، فتحسست بحثاً عن مفتاح الإضاءة الكهربائي على الجدار، ولم أجد واحداً. رأيت النافذة بزواوية من الممر، والستارة تطير بهدوء إلى الأمام وإلى الخلف، وألقى ضوء المساء الرمادي بظلال غريبة على الأرض. جاءني صوت البحر من النافذة المفتوحة، وصوت الهسيس الناعم لموج الجزر وهو يغادر الحصى.

لم أذهب كي أغلق النافذة، ووقفت هناك لحظة وأنا أرتجف بثوبي الخفيف، وأنصت للبحر وهو يتنهد ويغادر الشاطئ، ثم التفت بسرعة وأغلقت خلفي باب الجناح الغربي، ومرت مرة أخرى عبر المدخل المقوس بجانب الدرج. تضخم طنين الأصوات الآن وصار أعلى من قبل، وانفتح باب غرفة الطعام. كانوا يخرجون عقب العشاء، ورأيت روبرت يقف بجانب الباب المفتوح، وعلا صرير المقاعد وطين الحديث والضحكات. نزلت الدرج ببطء لمقابلتهم.

عندما أعود بذاكرتي إلى حفلي الأول في ماندرلي، الأول والأخير، أستطيع أن أتذكر أشياء صغيرة منعزلة تبرز وحدها وسط اللوحة الواسعة الخالية لتلك الأمسية. بدت الخلفية ضبابية، بحر من الوجوه المعتمة التي لا أعرف أيّاً منها، كما كان هناك الطنين البطيء الصادر عن الفرقة وهي تعزف لحن فالس لا ينتهي أبداً، وظل مستمرًا. وظل نفس الأزواج يمرون بالتناوب، بالابتسامات الثابتة ذاتها،

وبالنسبة إليّ، وأنا أقف مع ماكسيم أسفل الدرج للترحيب بالوافدين المتأخرين، بدا هؤلاء الأزواج الراقصون كأنهم دُمى متحركة تلتف وتدور على طرف خيط، تمسكه يد غير مرئية.

كانت هناك امرأة لم أعرف اسمها قط، ولن أراها مرة ثانية، لكنها كانت ترتدي ثوبًا بلون السلمون له تنورة متفخة، في إشارة غامضة إلى أحد القرون الماضية، لكنني لم أستطع معرفة ما إذا كان القرن السابع عشر أم الثامن عشر أم التاسع عشر، وكلما مرت بي، تزامن ذلك مع نغمة طويلة في الفالس، كانت تنحني وتمايل معها وهي تبسم في اتجاهي. حدث ذلك مرارًا وتكرارًا حتى أصبح تلقائيًا، ومسألة روتينية، أشبه بتلك الزهات على متن السفينة عندما نلتقي الأشخاص أنفسهم الذين عقدوا العزم على التريض مثلنا، ونعلم بيقين تام أننا سوف نمر بهم عند غرفة القيادة.

يمكنني رؤيتها الآن، بأسنانها البارزة، وبقعتي الحمرة المبهجة التي وضعتها عاليًا على وجنتيها، وابتسامتها البلهاء السعيدة، وهي تستمتع بأمسيتها. رأيتها لاحقًا بجانب مائدة العشاء، وعيناها الثاقبتان تبحثان عن الطعام، وكدست طبقها عاليًا بالسلمون والكرkend والمايونيز، وتوجهت إلى أحد الأركان. كما كانت الليدي كروان هناك أيضًا، تبدو شنيعة باللون البنفسجي، متنكرة في شخصية رومانسية من الماضي لا أعرفها، ربما كانت ماري أنطوانيت أو نيل جوين على حد علمي، أو مزيجًا مشيرًا غريبًا من الاثنين، وظلت تصيح بنبرة حماسية مرتفعة، أعلى قليلًا من المعتاد بسبب الشمبانيا التي تناولتها:

- أنتم جميعًا مدينون بالشكر على هذا لي أنا، وليس للزوجين دي وينتر على الإطلاق.

أذكر أن روبرت أسقط صينية من المثلجات، والتعبير المرتسم على وجه فريث عندما رأى أن روبرت هو العجاني، وليس أحد الخدم الذين تم تعيينهم لهذه المناسبة. أردت أن أذهب إلى روبرت وأقف بجانبه وأقول له: «أعرف ما تشعر به، وأتفهم ذلك. لقد فعلت ما هو أسوأ منك الليلة». أشعر الآن

بتلك الابتسامة الجامدة الثابتة على وجهي، التي لم تكن تتناسب مع البؤس المنعكس في عيني. وأستطيع أن أرى بياتريس، العزيزة الودود بياتريس التي تفتقر إلى اللباقة، وهي تراقبني من بين ذراعي شريكها، وتومئ إليّ كي تشجعني، والأساور تصلصل في معصميهما، وخمارها ينزلق باستمرار من جبهتها المحمومة. يمكنني أن أتخيل نفسي مرة أخرى وأنا أدور حول الغرفة في رقصة يائسة مع جايلز، الذي لم يتقبل أي رفض بقلبه الطيب وتعاطفه الشبيه بتعاطف الكلاب، وصمم على أن يقودني عبر الحشد الراقص كما يقود أحد خيوله في سباق. أسمعته وهو يقول:

- هذا الفستان الذي ترتدينه جميل جدًا، ويجعل كل هؤلاء الناس يبدون في منتهى السخافة.

طلبت من الرب أن يباركه على لفتته البسيطة البائسة التي أبدى بها تفهمه وإخلاصه، وقد اعتقد العزيز جايلز أنني أصبت بخيبة الأمل بخصوص ثوبي، وأنني قلقة بشأن مظهري، وأكثر ثلاً للأمر.

أحضرت لي فرانك طبقاً من الدجاج ولحم الخنزير لم أستطع تناوله، ووقف بجانب مرفقي مع كأس من الشمبانيا رفضت أن أشربها. قال بهدوء:

- أتمنى لو أنك قبلت، أعتقد أنك في حاجة إليها. فتناولت منها ثلاث رشقات كي أرضيه. منحت الرقعة السوداء فوق عينه مظهرًا غريبًا شاحبًا، وجعلته يبدو مختلفًا وأكبر سنًا، وبدأ أن هناك تجاعيد على وجهه لم أرها من قبل.

تنقل بين الضيوف مثل مضيف آخر، وهو يتأكد من راحتهم، ومن إمدادهم بالشراب والطعام والسجائر، كما رقص أيضًا على نحو دؤوب وجاد، وهو يقود شريكاته عبر الغرفة بوجه جامد. لم يرتدي القرصان بحماس، وكان هناك شيء مأساوي نوعًا ما في السوالف الجانبية التي نفسها تحت المنديل القرمزي الذي يعلو رأسه. فكرت فيه وهو يقف أمام المرأة في غرفة نوم البسيطة كغرفة عازب،

ويلفها حول أصابعه. فرانك المسكين، فرانك العزيز، لم أسأل قط، ولم أعرف على الإطلاق، كم كره آخر حفل تنكري راقص أقيم في ماندري.

واصلت الفرقة العزف، والأزواج المتبخثرون يتلوون كدُمي متحركة متمائلة ذهابًا وإيابًا، ذهابًا وإيابًا، عبر الردهة الكبرى، قبل أن يعودوا مرة أخرى، ولم أكن أنا من يراقبهم قط، ولا شخص لديه مشاعر، مصنوع من لحم ودم، بل تمثال لإنسانة بدلًا مني، ديكور مسرحي ترتدي ابتسامة ملتصقة بوجهها. كما كان الشخص الذي وقف بجانبها مصنوعًا من الخشب أيضًا، ووجهه قناع، وابتسامته ليست ملكًا له. لم تكن العينان هما عيني الرجل الذي أحببته، الرجل الذي عرفته، ونظرتا من خلالي وورائي وهما باردتان وخاليتان من أي تعبير، نحو مكان ما من الألم والعذاب لم أتمكن من الدخول إليه، إلى جحيم داخلي خاص لا يمكنني مشاركته.

لم يتحدث إليَّ على الإطلاق، ولم يلمسني قط، ووقف أحدنا بجانب الآخر، المضيف والمضيف، من دون أن نكون معًا. راقبت مجاملاته لضيوفه وهو يلقي كلمة إلى أحدهم، ومزحة إلى ثانٍ، وابتسامة إلى ثالث، ويوجه نداءً وراء كتفه إلى رابع، ولم يكن بمقدور أحد سواي أن يعرف أن كل ما قاله، وكل حركة، كان آلية، صادرة عن آلة. كنا مثل اثنين من الممثلين في مسرحية، لكن كنا منقسمين، ولا نمثل مع بعضنا بعضًا. وكان علينا أن نتحمل ذلك وحدنا، ونؤدي ذلك العرض، ذلك الأداء الزائف البائس، من أجل كل هؤلاء الأشخاص الذين لا أعرفهم ولا أرغب في رؤيتهم مرة أخرى.

قال شخص له وجه مبقع وجديلة بحار:

- سمعت أن فستان زوجتك لم يصل قط في الوقت المناسب.

ثم ضحك وركز ماكسيم في ضلوعه وتابع قائلاً:

- إنه أمر مؤسف جدًا، أليس كذلك؟ كنت سأقاضي المتجر بتهمة الاحتيال.

حدث الشيء نفسه لابنة عم زوجتي ذات مرة.

قال ماكسيم:

- أجل، كان ذلك مؤسفًا بالفعل.

التفت إليَّ البحار قائلاً:

- ما رأيك لو قلت إنك زهرة أذن الفأر؟ فهي زرقاء، أليس كذلك؟ إنها زهور

صغيرة مبهجة، زهور أذن الفأر، هذا صحيح، أليس كذلك يا دي وينتر؟ قل

لزوجتك إنها يجب أن تطلق على نفسها زهرة أذن الفأر.

ثم ابتعد وهو يضحك بالضحك، وشريكته بين ذراعيه.

- فكرة جيدة جدًا، أليس كذلك؟ زهرة أذن الفأر.

ثم أتى فرانك يحوم خلفي مباشرة مرة أخرى، وفي يده كأس أخرى، من

عصير الليمون هذه المرة.

- لا يا فرانك، لا أشعر بالعطش.

- لماذا لا ترقصين؟ أو تعالي واجلسي لحظة، هناك ركن في الشرفة.

- لا، أنا أفضل حالي وأنا واقفة، لا أريد الجلوس.

- هل يمكنني أن أحضر لك شيئًا، شطيرة، أو ثمرة من الخوخ؟

- لا، لا أريد أي شيء.

أتت السيدة التي بلون السلمون مرة أخرى، ونسيت أن تبسم لي هذه المرة.

بدت متوردة بعد عشاءها، وظلت تنظر إلى وجه شريكها الذي كان فائق الطول

وبالغ النحافة، ولديه ذقن يشبه الكمان.

فالس القدر، والدانوب الأزرق، والأرملة الطروب، واحد - اثنان - ثلاثة،

واحد - اثنان - ثلاثة، وأخذوا يدورون ويدورون، واحد - اثنان - ثلاثة، واحد -

اثنان - ثلاثة، وهم يدورون ويدورون: السيدة التي بلون السلمون، وسيدة خضراء،

وبياتريس مرة أخرى وقد انزاح خمارها عن جبينها، وجايلز ووجهه يغمره العرق،

وذلك البحار مرة أخرى مع شريكة مختلفة، ثم توقفنا بجانبها، ولم أعرفها. كانت

تلبس زي امرأة من أسرة تيودور، أي امرأة، وارتدت طوقًا مكشكشًا حول عنقها،

وفستانًا أسود من المخمل.

قالت كأننا صديقتان قديمتان:

- متى ستأتين لزيارتنا؟

فأجبته:

- قريبًا، بالطبع، كنا نتحدث بشأن ذلك منذ عدة أيام.
وتساءلت لماذا وجدت فجأة أن الكذب سهل جدًا، من دون أي جهد على الإطلاق.

قالت:

- يا له من حفل مبهج، أهنئكما على ذلك.

فقلت:

- شكرًا جزيلًا لك. إنه ممتع، أليس كذلك؟

- سمعت أنهم أرسلوا إليك الفستان الخطأ؟

- نعم، هذا سخيف، أليس كذلك؟

- هذه المتاجر كلها متشابهة، لا يُعتمد عليها. لكنك تبدين منعشة على نحو مبهج بهذا اللون الأزرق الباهت، وهو أريح بكثير من هذا المخمل الذي يبعث على الشعور بالحرارة. لا تنسي، يجب أن تأتيا لتناول العشاء في القصر قريبًا.

- سنحب ذلك كثيرًا.

ماذا تقصد، أين، أي قصر؟ هل كنا نستضيف أفرادًا من الأسرة المالكة؟
رقصت على أنغام الدانوب الأزرق بين ذراعي البحار، وثوبها المخملي يكنس الأرض مثل مكنسة السجاد. ولم أتذكر إلا بعد ذلك بوقت طويل، في منتصف ليلة ما عجزت فيها عن النوم، أن تلك التي كانت ترثدي زي امرأة من أسرة تيودور كانت زوجة الأسقف التي تحب المشي في جبال البينيز.

كم كانت الساعة؟ لم أعرف. امتدت الأمسية، ساعة تلو ساعة، مع الوجوه نفسها والنغمات نفسها. ومن حين إلى حين، تسلل الأشخاص الذين انشغلوا بلعب البريدج خارجين من المكتبة مثل النساك لمشاهدة الراقصين، ثم عادوا مرة أخرى. همست بياتريس في أذني، وهي تجر جر ثوبها خلفها:

- لماذا لا تجلسين؟ تبدين كالأموات.

- أنا بخير.

اقترب مني جايلز المسكين، ومساحيق التجميل تسيل على وجهه، وهو مخنوق بردائه العربي، وقال:

- تعالي وشاهدي الألعاب النارية على الشرفة.

أذكر أنني وقفت على الشرفة وحدقت إلى السماء بينما الصواريخ السخيفة تنفجر وتتساقط. وكانت الصغيرة كلاريس في الزاوية مع صبي ما من خارج العزبة، تبتسم بسعادة، وصرخت ببهجة عندما سقط صاروخ عند قدميها، وقد نسيت دموعها.

رفع جايلز وجهه الكبير إلى الأعلى، وفمه مفتوح، وقال:

- مرحى، سيكون هذا ضخماً، ها هو ذا قادم. عظيم، عرض رائع.

ارتفع صوت الهسيس البطيء للصاروخ وهو يندفع في الهواء، ثم صوت الانفجار، وشرال النجوم الزردية الصغيرة. تعالت من الحشد صيحات الإعجاب وصرخات البهجة والتصفيق.

كانت السيدة التي بلون السلمون في المقدمة، ووجهها متلهف ومترقب، وعلقت على نجم سقط:

- أوه، يا له من جمال... انظر إلى ذلك الآن، عليّ القول، كم هو جميل...

أوه، هذا لم ينفجر، احترس، إنه قادم في اتجاهنا... ماذا يفعل هؤلاء

الرجال هناك؟

وحتى النساك غادروا مخبأهم، وجاءوا لينضموا إلى الراقصين على الشرفة. بدت المروج داكنة من فرط ازدحامها بالناس، والتمعت النجوم المتفجرة على وجوههم المرفوعة نحو الأعلى.

اندفعت الصواريخ في الجو مرارًا وتكرارًا كالسهام، وصارت السماء قرمزية وذهبية. برز ماندرلي مثل منزل مسحور، وقد اشتعلت كل نافذة، وتلونت الجدران الرمادية بالنجوم المتساقطة: منزل مسحور، نُجحت من الغابة المظلمة.

وعندما انفجر الصاروخ الأخير وتلاشى الهمتاف، بدت الليلة التي كانت على ما يرام من قبل باهتة وثقيلة بالمقارنة، وصارت السماء غطاءً داكنًا. انفصلت المجموعات الصغيرة المتوزعة على المروج والممر، وتشتتت، واحتشد الضيوف عند النوافذ الطويلة على الشرفة، عائدین إلى غرفة الاستقبال مرة أخرى. انتهت الإثارة، وبدأت تداعيات ما بعد الحفل. وقفنا بوجوه خالية من التعبير، وناولني شخص ما كأسًا من الشمبانيا، وسمعت صوت السيارات ومحركاتها تدور في الممر.

فكرت: «لقد بدأوا في الرحيل، حمدًا للرب، بدأوا في الرحيل». ذهبت السيدة التي بلون السلمون لتناول مزيد من العشاء. سيستغرق إخلاء الردهة بعض الوقت. رأيت فرانك يرسل إشارة إلى الفرقة الموسيقية، ووقفت في المدخل بين غرفة الاستقبال والردهة، بجانب رجل لا أعرفه.

قال:

- كم كان حفلًا رائعًا.

قلت:

- نعم.

- لقد استمتعتُ بكل دقيقة منه.

- يسعدني ذلك جدًا.

- غضبت مولي بشدة لأنه فاتها.

- حقًا؟

بدأت الفرقة الموسيقية تعزف نشيد الوداع، فأمسك الرجل بيدي وبدأ يورجحها إلى الأعلى وإلى الأسفل، وقال:

- هيا، فليأت بعضكم.

أرجح شخص آخر يدي الثانية، وانضم إلينا مزيد من الأشخاص، ووقفنا في دائرة واسعة نغني بأعلى صوت لدينا. كان الرجل الذي استمتع بأمسيته وقال إن مولي غضبت بشدة لأن الحفل فاتها يرتدي زي رجل صيني، وعلقت

أظفاره الصناعية في كفه بينما كنا نؤرجح أيدينا إلى الأعلى وإلى الأسفل، فضج بالضحك، وضحكنا جميعًا، وغنينا «هل ننسى المعارف القدامى؟».

تغير مزاج البهجة والضحك سريعًا عند النغمات الختامية، وقرع عازف الطبول بعصاه المقدمة التي لا مفر منها للنشيد الوطني، «حفظ الله الملك». غادرت الابتسامات وجوهنا كما لو مُحيت بإسفنجة، ووقف الرجل ذو الزي الصيني في وضع الانتباه، ويداه متبستان بجانبه، وأذكر أنني تساءلت بشكل غامض عما إذا كان في الجيش. كم بدا غريبًا بوجهه الطويل الخالي من التعبير، وشاربه الصيني المتدلي. التقت عيناى بعيني السيدة التي بلون السلمون، وقد فاجأها النشيد الوطني، وهي لا تزال تحمل طبقًا ممتلئًا بالدجاج بالهلام، فأمسكته أمامها بجمود مثل طبق التبرعات في الكنيسة. اختفى من وجهها كل أثر للحماس، ومع تلاشي آخر نغمة من «حفظ الله الملك»، استرخت مرة أخرى وهاجمت الدجاج على نحو محموم نوعًا ما، وهي تثرثر مع شريكها خلفها. أتى شخص ما واعتصر يدي.

- لا تنسي، ستتناولان معنا العشاء في الرابع عشر من الشهر المقبل.

حدقت إليه باندهاش، وقلت:

- أوه، حقًا؟

- أجل، كما جعلنا شقيقة زوجك تعدنا بذلك أيضًا.

- أوه، أوه، يا له من أمر ممتع.

- في الثامنة والنصف، بلباس السهرة، لذا نتطلع إلى رؤيتكما.

- نعم، نعم، سنتطلع إلى ذلك بشدة.

بدأ الناس يصطفون في طوابير للوداع. كان ماكسيم في الجانب الآخر من

الغرفة، فرسمت ابتسامتي مرة أخرى، التي خفتت بعد نشيد الوداع.

- أفضل أمسية قضيتها منذ فترة طويلة.

- يسرني ذلك جدًا.

- شكرًا جزيلاً على الحفل الرائع.

- يسرني ذلك جدًا.

- ها نحن أولاء، كما ترين، بقينا حتى النهاية.

- نعم، يسرني ذلك جدًا.

ألم تكن هناك جملة أخرى في اللغة الإنجليزية؟ انحنيت وابتسمت وأنا كالتمثال، وعيناى تبحثان عن ماكسيم من فوق رؤوسهم. علق وسط مجموعة من الناس بجانب المكتبة، كما كانت بياتريس أيضًا محاصرة، أما جايلز فقاد مجموعة من الذين انعزلوا عن الآخرين إلى البوفيه في غرفة الاستقبال. خرج فرانك إلى الممر ليتأكد من وصول الناس إلى سياراتهم، وأحاطت بي مجموعة من الغرباء.

- وداعًا، وشكرًا جزيلًا.

- يسرني ذلك جدًا.

بدأت الردهة الكبيرة تخلو، وبدأ يلفها بالفعل ذلك الجو المقفر الكئيب لأمنية انقضت، وشروق فجر يوم مرهق.

التمع ضوء رمادي على الشرفة، وتمكنت من رؤية بقايا الألعاب النارية التي انفجرت وقد ظهرت على المرج.

- الوداع، كان حفلًا رائعًا.

- يسرني ذلك جدًا.

خرج ماكسيم لينضم إلى فرانك في الممر، وأتت بياتريس إليّ وهي تخلع أساورها التي أخذت تصلصل.

- لا أطيق هذا الشيء لحظة واحدة إضافية. يا إلهي، أكاد أموت من الإرهاق،

لا أعتقد أنني فوتُ أي رقصة. على أي حال، نجح الحفل نجاحًا مذهلاً.

قلت:

- حقًا؟

- يا عزيزتي، أليس من الأفضل أن تتوجهي إلى الفراش؟ تبدين منهكة،

وظللت واقفة طول المساء تقريبًا. أين الرجال؟

- في الممر بالخارج.

- سأتناول بعض القهوة والبيض ولحم الخنزير المقدد. ماذا عنك؟

- لا يا بياتريس، لا أعتقد أنني سأفعل.
 - لقد بدوت فاتنة جدًا بثوبك الأزرق، وقال الجميع ذلك. ولم يكن لدى أحد أي فكرة عن... عن الأشياء الأخرى، لذا لا داعي إلى القلق.
 - لا.
 - لو كنت مكانك، سأنام حتى وقت متأخر صباح غد. لا تحاولي النهوض، وتناولني إفطارك في الفراش.
 - أجل، ربما.
 - سأخبر ماكسيم بأنك صعدت إلى الطابق العلوي، هل تريدني أن أفعل؟
 - من فضلك يا بياتريس.
 - حسنًا يا عزيزتي، نامي جيدًا.
- قَبَّلَتْنِي بِسُرْعَةٍ، وَرَبَّتْ عَلَى كَتْفِي فِي الْوَقْتُ نَفْسَهُ، ثُمَّ ذَهَبَتْ لِتَبْحَثَ عَنْ جَايِلِزْ فِي غُرْفَةِ الطَّعَامِ. صَعِدْتُ السَّلْمَ ببطء، دَرَجَةً دَرَجَةً. أَطْفَأْتُ الْفِرْقَةَ الْأَنْوَارَ فِي الشَّرْفَةِ، وَنَزَلَ أَفْرَادُهَا لِتَتَنَاوَلُوا الْبَيْضَ وَلَحْمَ الْخَزِيرِ الْمَقْدَدِ أَيْضًا. تَنَاقَرَتْ صَفَحَاتُ مِنَ النُّوتِ الْمَوْسِيقِيَّةِ عَلَى الْأَرْضِ، وَانْقَلَبَ أَحَدُ الْكَرَاسِيِّ، وَامْتَلَأَتْ مَنَفْضَةُ سَجَائِرَ بِأَعْقَابِ سَجَائِرِهِمْ: أَثَارَ مَا بَعْدَ الْحَفْلِ. سَرْتُ عِبرَ الْمَمَرِ مَتَوَجِّهَةً إِلَى غُرْفَتِي، وَأَخَذْتُ الضَّوْءَ يَزْدَادُ كُلَّ لَحْظَةٍ، وَبَدَأَتْ الطُّيُورُ الْغَنَاءَ. لَمْ أَضْطُرْ إِلَى إِشْعَالِ النُّورِ كِي أَبْدِلَ مَلَابِسِي. هَبَّتْ رِيحٌ بَارِدَةٌ خَفِيفَةٌ مِنَ النَّافِذَةِ الْمَفْتُوحَةِ، وَكَانَ الْجَوُّ بَارِدًا نَوْعًا مَا. لَا بَدَأَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ اسْتَعْدَمُوا حَدِيقَةَ الْوَرْدِ خِلَالَ الْمَسَاءِ، حَيْثُ تَحَرَّكَتْ جَمِيعُ الْمَقَاعِدِ وَنُقِلَتْ مِنْ أَمَاكِنِهَا، وَكَانَتْ هُنَاكَ صِينِيَّةُ أَكْوَابٍ فَارِغَةٍ عَلَى إِحْدَى الطَّاوَلَاتِ، كَمَا تَرَكَ شَخْصٌ مَا حَقِيقَةً عَلَى أَحَدِ الْمَقَاعِدِ. أَسْدَلْتُ السَّتَارَةَ لِتَعْتِمِ الْغُرْفَةَ، لَكِنْ ضَوْءُ الصَّبَاحِ الرَّمَادِيِّ وَجَدَ طَرِيقَهُ عِبرَ الْفُجُواتِ فِي الْجَوَانِبِ.
- أَوَيْتُ إِلَى الْفَرَاشِ وَسَاقَايَ مَرَهَقَتَانِ جَدًّا، وَلَدَيَّْ أَلَمٌ خَفِيفٌ أَسْفَلَ ظَهْرِي. اسْتَلْقَيْتُ وَأَغْمَضْتُ عَيْنِي، وَأَنَا أَشْعُرُ بِالْأَمْتِنَانِ لِلرَّاحَةِ الْبَيْضَاءِ الْبَارِدَةِ الْمُسْتَمْدَةِ مِنَ الْمَلَأَاتِ النَّظِيفَةِ، وَتَمَنَيْتُ أَنْ يَرْتَاحَ عَقْلِي مِثْلَ جَسَدِي، وَأَنْ يَسْتَرَخِيَ وَيَنَامَ،

بدلاً من أن يدندن كما فعل، ويرقص على الموسيقى، ويدور وسط بحر من الوجوه. ضغطت يدي على عيني، لكن الوجوه لم تختفِ.

تساءلت كم سيغيب ماكسيم، وبدا الفراش المجاور لي موحشاً وبارداً. قريباً، لن تعود هناك أي ظلال في الغرفة أبداً، وستصير الجدران والسقف والأرض بيضاء بحلول الصباح، وستغرد الطيور أغانيها بصوت أعلى وأكثر بهجة وأقل هدوءاً، وستصنع الشمس نقوشاً صفراء على الستارة. مرّت الدقائق دقيقة تلو دقيقة في الساعة الصغيرة المجاورة لفراشي، وتحرك العقرب عبر وجه الساعة، بينما استلقيت على جانبي أراقبه. وصل إلى نهاية الساعة، وتجاوزها ثانية، وبدأ رحلته من جديد، لكن ماكسيم لم يأتِ.

أعتقد أنني أخلدت إلى النوم بعد السابعة بقليل. أذكر أننا صرنا في وضوح النهار، ولم يعد من الممكن الادعاء بأن الستائر المسدلة تخفي الشمس، حيث تدفق الضوء من النافذة المفتوحة، وخلق نقوشًا على الجدار. سمعت الرجال في حديقة الورد في الأسفل وهم يزيلون الطاويلات والكراسي، وينزلون سلسلة أضواء الزينة. كان فراش ماكسيم لا يزال مهجورًا وخاليًا. استلقيت على فراشي وذراعي فوق عيني، في وضع غريب ومجنون، وهو أقل وضع يحتمل أن يأتي مع النوم، لكنني انجرفت إلى حدود اللاوعي حتى انزلت فوقها أخيرًا.

عندما استيقظت، كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة، ولا بد أن كلاريس أتت وأحضرت لي الشاي من دون أن أسمعها، حيث كانت هناك صينية بجانبني، وإبريق شاي بارد تمامًا، كما كانت ملابسني مرتبة، ووضع ثوبي الأزرق في خزانة الملابس.

شربت الشاي البارد، وأنا لا أزال مشوشة وأشعر بالخدر على إثر غفوتي القصيرة المجهدة، وحدقت إلى الجدار الفارغ أمامي. أعادني فراش ماكسيم الخالي إلى الواقع وأحس قلبي بصدمة غريبة، وعاد إليّ ألم الليلة السابقة بأكمله مرة أخرى. لم يأتِ إلى فراشه قط، وكانت منامته مطوية فوق الملاء المرتبة من دون أن تُمس. تساءلت عما جال بخاطر كلاريس عندما دخلت الغرفة ومعها الشاي. هل لاحظت؟ هل خرجت وأخبرت باقي الخدم، وهل سيناقشون ذلك جميعًا في أثناء إفطارهم؟ تساءلت لماذا يهمني ذلك، ولماذا أزعجتني إلى هذا

الحد فكرة حديث الخدم عن الأمر في المطبخ. لا بد أن لديَّ عقلية تافهة وضيعة، ونفورًا تقليديًا من القيل والقال.

لهذا السبب نزلت الليلة الماضية بثوبي الأزرق، ولم أبقَ مختبئة في غرفتي. لم تكن ثمة شجاعة أو نبل في الأمر، بل كان اعترافًا بائسًا بالتقاليد. لم أنزل من أجل ماكسيم، ولا من أجل بياتريس، ولا من أجل ماندرلي، بل نزلت لأنني لم أرغب في أن يعتقد الناس في الحفل أنني تشاجرت مع ماكسيم، لم أكن أريدهم أن يعودوا إلى منازلهم ويقولوا: «أنت تعلم بالطبع أنهما لا يتفقان، وقد سمعت أنه ليس سعيدًا على الإطلاق». نزلت من أجل مصلحتي، ومن أجل كبريائي الشخصية البائسة. وبينما أنا أرتشف الشاي البارد، فكرت بشعور مريـر من اليأس والإرهاق أنني سأقنع بالعيش في ركن من أركان ماندرلي، وماكسيم في ركن آخر، ما دام العالم الخارجي لن يعرف أبدًا. إذا لم يعد يكن لي أي مشاعر رقيقة، ولم يقبلني مرة أخرى، ولم يبادلني الحديث إلا في المسائل الضرورية، فإنني ظننت أنني سأستطيع تحمُّل كل ذلك لو أيقنت أن لا أحد يعرف بالأمر سوانا. إذا تمكنا من رشوة الخدم كي لا ييـوحوا لأحد، ولعبنا دورنا أمام الأقارب وأمام بياتريس، بعد ذلك عندما نصير وحدنا، سنجلس منفصلين في غرفنا المنفصلة، ونعيش حياتنا المستقلة.

بدالي وأنا جالسة هناك في الفراش، أهدق إلى الجدار، وفي ضوء الشمس القادم من النافذة، وإلى فراش ماكسيم الخالي، أنه لا يوجد شيء مخزٍ ولا مهين تمامًا مثل زواج فاشل: فشل بعد ثلاثة أشهر، مثلما فعلت زيجتي. إذ لم تعد لديَّ أي أوهام الآن، ولم أعد أبذل أي جهد للتظاهر، حيث أظهرت لي الليلة الماضية الأمر جيدًا: كانت زيجتي فاشلة. كان كل ما سيقوله الناس عن الأمر لو عرفوا صحيحًا، إذ إننا لسنا متفقين، ولسنا رقيقين، ولا نلائم بعضنا. كنت صغيرة جدًا بالنسبة إلى ماكسيم، وأفترق إلى الخبرة بدرجة كبيرة، والأهم من ذلك أنني لا أنتمي إلى عالمه. ولم تكن هناك أهمية لحقيقة أنني أحبه على نحو مَرَضِي ومؤلـم وبائس، مثل طفل أو كلب. لم يكن ذلك هو نوع الحب الذي يحتاج إليه، بل أراد

شيئاً آخر لم أستطع منحه إياه، شيئاً كان لديه من قبل. فكرت في الغرور والإثارة الصبيانية التي تكاد تكون هستيرية، اللذين دخلت بهما هذا الزواج، متخيلة أنني سأجلب السعادة لماكسيم، الذي عرف سعادة أكبر بكثير من قبل. وحتى السيدة فان هوبر، بأرائها الرخيصة ونظرتها السوقية، عرفت أنني أرتكب خطأً، وقالت: - أخشى أنك ستندمين على ذلك، وأعتقد أنك تقترفين خطأً فادحاً.

رفضت الاستماع إليها، وظننتها صارمة وقاسية، لكنها كانت على حق. كانت محقة في كل شيء. تلك الطعنة الأخيرة القاسية التي وجهتها إليّ قبل أن تودعني، كانت أكثر تصريح عقلائي وصادق أدلت به في حياتها:

- أنت لا تخذعين نفسك بالاعتقاد أنه واقع في حبك، أليس كذلك؟ إنه وحيد، ولا يستطيع أن يتحمل ذلك المنزل الكبير الخالي.

لم يكن ماكسيم واقعاً في حبي، ولم يحبني قط. لم يعن له شهر عسلنا في إيطاليا أي شيء على الإطلاق، ولا حياتنا هنا معاً. وما ظننته حباً لي، لذاتي كشخص، لم يكن حباً، كل ما في الأمر هو أنه رجل، وكنت أنا زوجته الشابة، وهو يعاني الوحدة. لم يكن ينتمي إليّ على الإطلاق، بل ينتمي إلى ربيكا. كان لا يزال منشغلاً بالتفكير في ربيكا، ولن يحبني أبداً بسبب ربيكا. كانت لا تزال في المنزل، كما قالت السيدة دانفرز: كانت في تلك الغرفة في الجناح الغربي، وفي المكتبة، وفي غرفة الجلوس الصباحية، وفي شرفة العازفين فوق الردهة، وحتى في غرفة الزهور الصغيرة حيث لا يزال معطفها الوافي من المطر معلقاً، وفي الحديقة وفي الغابة والكوخ الحجري على الشاطئ. كان وقع خطاها لا يزال يتردد في الممرات، وكان عطرها باقياً على الدرج، والخدم لا يزالون يطيعون أوامرها، والطعام الذي نتناوله هو الطعام الذي تحبه. امتلأت الغرف بزهورها المفضّلة، وكانت ملابسها في الخزائن بغرفتها، وفرشها على الطاولة، وحذاؤها أسفل الكرسي، وقميص نومها على فراشها. كانت ربيكا لا تزال سيدة ماندرلي. كانت ربيكا لا تزال السيدة دي ويتتر، ولم يكن لي حق في الوجود هنا على الإطلاق. أتيت أتخط كحمقاء مسكينة في أرض مصنونة. صاحبت جدة ماكسيم:

- أين ربيكا؟ أريد ربيكا. ماذا فعلتن ربيكا؟

لم تكن تعرفني، ولم تهتم بي، ولماذا يتعين عليها أن تفعل؟ فقد كنت غريبة بالنسبة إليها، ولا أنتمي إلى ماكسيم أو إلى ماندرلي. وفي أول لقاء لنا، تأملتني بياتريس من رأسي حتى قدمي وقالت على نحو مباشر وصريح:

- أنت مختلفة جدًا عن ربيكا.

كما بدا فرانك متحفظًا ومحرجًا عندما تحدثت عنها، وكره تلك الأسئلة التي أمطرته بها، كما كرهتها أنا نفسي حينها، ثم أجاب عن ذلك السؤال الأخير عندما اقتربنا من المنزل، وصوته هادئ وجاد:

- نعم، لقد كانت أجمل مخلوق رأيته في حياتي.

ربيكا، دائمًا ربيكا. أينما مشيت في ماندرلي، وأينما جلست، حتى في أفكارى وفي أحلامي، التقيتُ ربيكا. عرفت هيئتها الآن، بساقها الطويلتين الرشيقتين، وقدميها الصغيرتين النحيلتين، وكتفيها الأعرض من كتفي، ويديها القديرتين البارعتين. يدان في استطاعتهما قيادة قارب والإمساك بحصان، يدان عملتا على تنسيق الزهور، وصنعتا نماذج السفن، وكتبتا «ماكس، من ربيكا» على الصفحة الأولى من كتاب. كما عرفت وجهها أيضًا، صغير وبيضاوي، ببشرة بيضاء صافية، وهالة من الشعر الداكن. عرفت العطر الذي كانت تضعه، وخمنت ضحكتها وابتسامتها. وإذا سمعته، حتى بين آلاف الأصوات الأخرى، سأعرف على صوتها. ربيكا، دائمًا ربيكا. لن أتخلص من ربيكا أبدًا.

ربما كنت أطاردها كما تطاردني هي. أطلت عليّ من شرفة العازفين، كما قالت السيدة دانفرز، وجلست بجانبى وأنا أكتب رسائل على مكتبها. ذلك المعطف الذي ارتديته، والمنديل الذي استخدمته، كانا ملكًا لها. ربما عرفت، ورأتني آخذهما. كان جاسبر كلبها، وهو يركض في أعقابى الآن. كان الورد ملكًا لها، وقصصته. هل تستاء مني وتخشاني مثلما أستاء منها؟ هل أرادت أن يعود ماكسيم وحده في المنزل مرة أخرى؟ كانت في إمكانى محاربة الأحياء، لكنني لا أستطيع محاربة الموتى. لو كانت هناك امرأة ما في لندن يحبها ماكسيم، امرأة ما

يكتب إليها ويزورها ويتناول العشاء معها وينام معها، يمكنني قتالها. سنقف على أرضية مشتركة، ولن أشعر بالخوف. الغضب والغيرة أشياء يمكن قهرها. وفي يوم من الأيام، ستتقدم المرأة في العمر أو تتعب أو تتغير، ولن يعود ماكسيم يحبها. لكن ريبكا لن تتقدم في العمر أبدًا، وستظل ريبكا كما هي على الدوام، ولا أستطيع قتالها، حيث إنها قوية جدًا بالنسبة إليّ.

نهضت عن الفراش وجذبت الستائر، فتدفقت الشمس إلى الغرفة. أزال الرجال الفوضى من حديقة الورد، وتساءلت عما إذا كان الناس يتحدثون عن الحفل كما يفعلون في اليوم التالي للحفل.

- هل تعتقد أنه يرقى إلى مستواهما المعتاد؟

- أوه، أعتقد ذلك.

- ظننت أن الفرقة الموسيقية كانت بطيئة الإيقاع نوعًا ما.

- كان العشاء رائعًا جدًا.

- لم تكن الألعاب النارية سيئة.

- بدت بي لاسي كبيرة في السن.

- ومن عساه لا يفعل في مثل ذلك الزي؟

- ظننت أنه يبدو مريضًا إلى حدّ ما.

- دائمًا ما يبدو كذلك.

- ما رأيك في العروس؟

- لم تعجبني كثيرًا، فهي مملة نوعًا ما.

- أتساءل عما إذا كان زواجهما ناجحًا.

- أجل، أتساءل عن ذلك...

حينها لاحظت لأول مرة وجود رسالة أسفل بابي، فذهبت والتقطتها، وتعرفت على خط يد بياتريس المضلع. خربشت الرسالة على عجل بالقلم الرصاص بعد الإفطار.

طرقْتُ بابك، لكنني لم أتلَقَ إجابة، لذا خمنت أنك أخذت بنصبيحتي وأخلدت إلى النوم كي ترتاحي بعد الليلة الماضية. جايلز متلهف للعودة مبكرًا، لأنه تلقى اتصالًا من المنزل لإبلاغه أنهم في حاجة إليه ليحل محل شخص ما في مباراة كريكيت، وتبدأ المباراة في الساعة الثانية. الرب وحده يعلم كيف سيتمكن من رؤية الكرة بعد كل الشمبانيا التي تناولها الليلة الماضية! أشعر ببعض الوهن في ساقي، لكنني نمت بعمق. قال فريث إن ماكسيم نزل وتناول الإفطار في وقت مبكر، ولا أثر له الآن! لذا أرجو أن تبلغيه تحياتنا، وشكرًا جزيلًا لكما على أمسيتنا التي استمتعنا بها كثيرًا. لا تشغلي نفسك بالتفكير في فستانك بعد الآن. [رسمت خطأً سميكا تحت هذه العبارة الأخيرة] مع محبتي، بي. [ملحوظة] يجب أن تأتيا لزيارتنا قريبًا.

كتبت الساعة التاسعة والنصف صباحًا عند القسم العلوي من الورقة، وشارفت الساعة الآن الحادية عشرة والنصف تقريبًا. رحلا منذ ساعتين تقريبًا، وسيكونان في المنزل الآن، وقد أفرغت بياتريس حقيبتها وخرجت إلى حديقتهما وأتبع روتينها المعتاد، وجايلز يستعد لمباراته، ويجدد الشريط الذي يغطي مقبض مضربه. وفي فترة ما بعد الظهر، ستبدل بياتريس ملابسها وترتدي فستانًا خفيفًا وقبعة عريضة، وتشاهد جايلز وهو يلعب الكريكيت. سيتناولان الشاي بعد ذلك في خيمة، وجايلز يشعر بالحرارة الشديدة ووجهه محمر، بينما بياتريس تضحك وتحدث إلى صديقاتها. «نعم، ذهبنا إلى الحفل الراقص في ماندري، وكان ممتعًا جدًا. أتعجب من أن جايلز تمكن من الجري ولو مسافة ياردة واحدة». وستوجه ابتسامة إلى جايلز، وتربت على ظهره. كانا في منتصف العمر، ويفتقران إلى الرومانسية، ودام زواجهما اثنين وعشرين عامًا، ولديهما ابن بالغ سيذهب إلى أكسفورد. كانا سعيدين جدًا، وزيجتهما ناجحة، ولم تفشل بعد ثلاثة أشهر كما فشلت زيجتي.

لم يعد في إمكاني الاستمرار في الجلوس بغرفة نومي، حيث سترغب الخادومات في المجيء لتنظيف الغرفة. ربما لم تلحظ كلاريس فراش ماكسيم

في نهاية المطاف. جعلت ملء الفراش لأجعلها تبدو كأنه هناك. لم أرغب في أن تعرف الخادومات إذا لم تكن كلاريس قد أخبرتهن. استحمت وارتديت ملابسني ونزلت إلى الطابق السفلي. رفع الرجال الأرضية التي كانت مفروشة في الردهة بالفعل، وأزيلت الزهور، واختفت حوامل النوت الموسيقية من شرفة العازفين. لا بد أن أفراد الفرقة الموسيقية لحقوا بقطار مبكر. أخذ البستانيون ينظفون المروج والممر من الألعاب النارية المستهلكة، وسرعان ما لن يعود هناك أثر للحفل التنكري الراقص في ماندري. كم بدت الاستعدادات طويلة، وكم كان التنظيف سريعاً ومختصراً الآن.

تذكرت السيدة التي بلون السلمون وهي تقف بجانب باب غرفة الاستقبال ومعها طبقها من الدجاج، وبدا لي أن ذلك شيء تخيلته، أو شيء حدث منذ فترة طويلة جداً. كان روبرت يلمع الطاولة في غرفة الطعام، وعاد طبعياً مرة أخرى، متبلداً ومملاً، وليس ذلك المخلوق الطفولي المتحمس الذي كانه خلال الأسابيع القليلة الماضية.

قلت:

- صباح الخير يا روبرت.
- صباح الخير يا سيدتي.
- هل رأيت السيد دي ويتتر في أي مكان؟
- لقد خرج بعد الإفطار بوقت قصير يا سيدتي، قبل نزول الرائد والسيدة لاسي، ولم يحضر منذ ذلك الحين.
- هل تعرف أين ذهب؟
- لا يا سيدتي، لا أعرف.
- عدت إلى الردهة مرة أخرى، ومررت عبر غرفة الاستقبال متوجهة إلى غرفة الجلوس الصباحية. اندفع جاسبر نحوي ولحق يدي ببهجة محمومة، كما لو أنني كنت غائبة فترة طويلة. أمضى المساء على فراش كلاريس، ولم أره منذ وقت الشاي بالأمس. ربما كانت الساعات طويلة بالنسبة إليه كما كانت بالنسبة إليّ.

رفعت سماعة الهاتف، وسألت عن رقم مكتب إدارة العزبة. ربما كان ماكسيم مع فرانك. شعرت بأنني يجب أن أتحدث إليه، حتى ولو دقيقتين فقط. يجب أن أشرح له أنني لم أتعمد فعل ما فعلته الليلة الماضية. حتى لو لم أتحدث إليه مرة أخرى، يجب أن أخبره بذلك. أجاب الموظف على الهاتف، وأخبرني بأن ماكسيم غير موجود.

قال الموظف:

- السيد كرولي هنا يا سيدة دي وينتر، هل تريدان التحدث إليه؟
كنت سأرفض، لكنه لم يمنحني أي فرصة، وقبل أن أتمكن من وضع السماعة، سمعت صوت فرانك.

- هل هناك خطب ما؟

بدت طريقة غريبة لبدء محادثة. طرأت الفكرة في ذهني، حيث لم يقل «صباح الخير»، أو «هل نمت جيدًا؟». لماذا سأل عما إذا كان هناك خطب ما؟
قلت:

- فرانك، هذا أنا. أين ماكسيم؟

- لا أدري، لم أره. لم يأت هذا الصباح.

- ألم يذهب إلى المكتب؟

- نعم.

- أوه! أوه، حسنًا، لا يهم.

قال فرانك:

- هل رأيته على الإفطار؟

- لا، كنت نائمة.

- كيف كان نومه؟

ترددت، لكن فرانك كان الشخص الوحيد الذي لا أمانع في أن يعرف بالأمر.

- لم يأت إلى الفراش الليلة الماضية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ساد الصمت على الطرف الآخر من الخط، كما لو أن فرانك يمعن في التفكير بحثًا عن إجابة.

أخيرًا، قال ببطء شديد:

- أوه، فهمت.

ثم أضاف قائلًا بعد دقيقة:

- خشيت أن يحدث شيء من هذا القبيل.

قلت بيأس:

- فرانك، ماذا قال الليلة الماضية بعد رحيل الجميع؟ ماذا فعلتم جميعًا؟

قال فرانك:

- تناولت شطيرة مع جايلز والسيدة لاسي، ولم يأت ماكسيم، بل اختلق عذرًا

ما ودخل المكتبة. وقد عدت إلى المنزل على الفور تقريبًا. ربما تستطيع

السيدة لاسي إخبارك.

قلت:

- لقد رحلت، ذهبنا بعد الإفطار. أرسلت إليّ رسالة، وقالت إنها لم ترَ ماكسيم.

قال فرانك:

- أوه.

لم يعجبني ذلك. لم تعجبني الطريقة التي قالها بها، إذ بدت حادة وتندر بالسوء.

قلت:

- أين تعتقد أنه ذهب؟

قال فرانك:

- لا أدري، ربما ذهب للتمشية.

بدت نبرته من ذلك النوع الذي اعتاد الأطباء استخدامه مع الأقارب في دار

المسنين حينما يأتون للاستفسار عن شيء ما.

قلت:

- فرانك، يجب أن أراه. يجب أن أوضح له الأمر بخصوص الليلة الماضية.

لم يرد فرانك، وكان في وسعي تخيل وجهه القلق، والتجاعيد تخط جبهته.
قلت:

- يعتقد ماكسيم أنني فعلت ذلك عن عمد.
تهدج صوتي رغماً عني، وسالت على وجنتي الدموع التي أعمتني الليلة
الماضية ولم أذرفها، متأخرة بست عشرة ساعة.

- يعتقد ماكسيم أنني فعلت ذلك على سبيل المزاح، مزاح بغیض لعین!
قال فرانك:

- لا، لا.

- أوكد لك أنه يعتقد ذلك، فلم ترَ عينيه كما رأيتهما. ولم تقف بجانبه طوال
المساء تراقبه كما فعلتُ. لم يتحدث إليَّ يا فرانك، ولم يعاود النظر إليَّ على
الإطلاق. وقفنا هناك معاً طوال المساء، ولم يتحدث أحدهما إلى الآخر قطُ.
قال فرانك:

- لم تسنح الفرصة، في وجود كل أولئك الناس. وبالطبع رأيت، ألا تعتقدين
أنني أعرف ماكسيم جيداً بما يكفي لذلك؟ انظري هنا...
قاطعته قائلة:

- أنا لا ألومه، إذا كان يعتقد أنني فعلت مثل تلك المزحة الدنيئة البغيضة فمن
حقه أن يفكر فيَّ كما يشاء، وألا يتحدث إليَّ مرة أخرى، ولا يراني أبداً.
قال فرانك:

- يجب ألا تتحدثي هكذا، أنت لا تعرفين ما تقولينه. دعيني آتٍ لرؤيتك،
أعتقد أنني أستطيع أن أوضح لك الأمر.

ما فائدة مجيء فرانك لرؤيتي، وأن نجلس معاً في غرفة الجلوس الصباحية،
وأن يهدئني فرانك، وأن يتصرف فرانك بلباقة، وأن يكون فرانك لطيفاً؟ لم أرغب
في اللطف من أي أحد الآن، فات أوان ذلك.

قلت:

- لا، لا أريد معاودة الحديث عن الأمر مراراً وتكراراً، فقد حدث، ولا يمكن

تغييره الآن. ربما كان ذلك شيئًا جيدًا، إذ جعلني أدرك شيئًا كان يجب أن أعرفه من قبل، وكان يجب أن أشك فيه عندما تزوجت ماكسيم.
قال فرانك:

- ماذا تقصدين؟

كان صوته حادًا وغريًا، وتساءلت عما إذا يهمه في كون ماكسيم لا يحبني.
لماذا لا يريدني أن أعرف؟
قلت:

- بخصوصه هو وريبكا.

وعندما نظقت اسمها، بدا غريبًا ولاذعًا مثل كلمة محرمة، ولم يعد مصدر ارتياح لي ولا متعة، بل حارٌّ ومُخزٍ كالاغتراف بخطيئة.
لم يرد فرانك للحظة، وسمعته يشهق على الطرف الآخر من الخط.
قال مرة أخرى، بخشونة وحدة أكثر من قبل:
- ماذا تقصدين؟ ماذا تقصدين؟

- إنه لا يحبني، بل يحب ريبكا، ولم ينسها قط، ولا يزال يفكر فيها ليلاً ونهارًا.
إنه لم يحبني على الإطلاق يا فرانك. إنها دائماً ريبكا، ريبكا، ريبكا.
سمعت فرانك يطلق صيحة دهشة، لكنني لم أهتم إلى أي درجة أصبته بالصدمة الآن، وقلت:

- ها قد عرفت الآن كيف أشعر، وها قد فهمت.
- انظري هنا، يجب أن آتي لرؤيتك، يجب أن أفعل، هل تسمعين؟ الأمر مهم جداً، ولا يمكنني التحدث إليك عبر الهاتف. يا سيدة دي وينتر؟ يا سيدة دي وينتر؟

وضعت السماعة بعنف، وقمت من على المكتب. لم أرغب في رؤية فرانك، حيث لم تكن في وسعه مساعدتي في هذا الأمر. لم يكن هناك مَنْ يستطيع مساعدتي سواي أنا. بدا وجهي أحمر وملطخًا من أثر البكاء، وتجولت في أرجاء الغرفة وأنا أعض زاوية منديلي وأمزق حافته.

نما داخلي شعور قوي بأنني لن أرى ماكسيم مرة أخرى. بدا ذلك يقينًا، تولد من غريزة غريبة من نوع ما: لقد رحل، ولن يعود. كنت أعلم في أعماق قلبي أن فرانك أيضًا يؤمن بهذا، ولن يعترف لي بذلك عبر الهاتف، حيث لم يرد أن يخيفني. إذا اتصلت به في المكتب مرة أخرى الآن، فسأجد أنه رحل. سيقول الموظف: «لقد خرج السيد كرولي للتو يا سيدة دي ويتتر». وكان في وسعي تخيل فرانك وهو من دون قبعة، يركب سيارته الموريس الصغيرة المتهالكة، وينطلق بحثًا عن ماكسيم.

ذهبت وحدثت من النافذة نحو الفسحة الصغيرة حيث كان تمثال الفون يعزف بمزماره. انتهت جميع شجيرات الرودودندرون من الإزهار الآن، ولن تزهو مرة ثانية قبل عام آخر، وبدأت الشجيرات المرتفعة مظلمة وباهتة الآن بعد غياب لونها. تدفق الضباب قادمًا من البحر، ولم أستطع رؤية الغابة خلف الضفة. كان الجو حارًا جدًا، وخانقًا للغاية، وتخيلت ضيوفنا الليلة الماضية وهم يقولون لبعضهم: «من الجيد أن هذا الضباب لم يأتِ بالأمس، إذ لم نكن ستمكن من مشاهدة الألعاب النارية على الإطلاق». خرجت من غرفة الجلوس الصباحية، وعبرت غرفة الاستقبال متوجهة إلى الشرفة. غابت الشمس الآن خلف جدار من الضباب، وبدأ الأمر كأن لعنة حلت على ماندريلي، وأخذت السماء وضوء النهار. مر بي أحد البستانيين ومعه عربة مليئة بقطع من الورق والقمامة وقشور الفاكهة التي تركها الناس على المروج الليلة الماضية.

قلت:

- صباح الخير.
- صباح الخير يا سيدتي.
- أخشى أن حفل الليلة الماضية خلق لك الكثير من العمل.
- لا بأس يا سيدتي. أعتقد أن الجميع استمتعوا بوقتهم بشدة، وهذا هو المهم، أليس كذلك؟
- بلى، أعتقد ذلك.

نظر عبر المروج نحو الفسحة وسط الغابة، حيث ينحدر الوادي ناحية البحر.
بدت الأشجار الداكنة متفرقة وغير واضحة المعالم.
قال:

- إنه يأتي كثيفاً للغاية.

- أجل.

- من الجيد أنه لم يكن على هذا النحو الليلة الماضية.

- نعم.

انتظر لحظة، ثم لمس قبعته ومضى يدفع عربته. عبرت المروج إلى حافة الغابة،
حيث تحول الضباب وسط الأشجار إلى رطوبة، وقطرت على رأسي العاري مثل
مطر خفيف. وقف جاسبر بجانب قدمي حزيناً وقد خفض ذيله، وتدلّى لسانه
الوردي من فمه، وجعله الجو الخانق الرطب ذلك اليوم خاملاً ومتثاقلاً. كان
في إمكاني سماع صوت البحر من حيث وقفت، كثيباً وبطيئاً، وهو يتكسر على
الخلجان أسفل الغابة. تدفق الضباب الأبيض وتجاوزني في اتجاه المنزل، وهو
يعبق برائحة الملح الرطب والأعشاب البحرية. وضعت يدي على فراء جاسبر،
فوجدته مبللاً تماماً. وعندما نظرت إلى المنزل، لم أتمكن من رؤية المداخل أو
محيط الجدران، وكانت في وسعي فقط رؤية هيئة المنزل غير الواضحة، والنوافذ
في الجناح الغربي وأحواض الزهور على الشرفة. انفتحت مصراع نافذة غرفة النوم
الكبيرة في الجناح الغربي، ووقف شخص هناك، يطل على المروج. بدت هيئة
الشخص داكنة وغير واضحة، وللحظة شعرت بالصدمة والخوف، وظننت أنه
ماكسيم. ثم تحرك الشخص، ورأيت الذراع تمتد لطوي المصراع، وعرفت أنها
السيدة دانفرز. كانت تراقبني وأنا أقف على حافة الغابة محاطة بذلك الجدار
الأبيض من الضباب. رأيتني أسير ببطء من الشرفة إلى المروج، وربما استمعت
إلى حديثي مع فرانك عبر الهاتف من خلال خط الهاتف المتصل بغرفتها الخاصة.
ستعرف أن ماكسيم لم يكن معي الليلة الماضية، وستكون قد سمعت صوتي،
وعرفت بشأن دموعي. عرفت الدور الذي لعبته خلال الساعات الطويلة التي

وقفقتها بجانب ماكسيم أسفل الدرج، مرتدية ثوبي الأزرق، وأنه لم ينظر إليّ ولم يتحدث إليّ. عرفتُ لأنها تعمّدت حدوث ذلك، وكان هذا انتصارها، وانتصار ربييكا.

فكرت فيها كما رأيته الليلة الماضية، وهي تراقبني من خلال الباب المفتوح للجنّاح الغربي، وتلك الابتسامة الشيطانية على وجهها الشاحب الشبيه بالجمجمة، وتذكرت أنها امرأة حية تتنفس مثلي، من لحم ودم. لم تكن ميتة مثل ربييكا، ويمكنني التحدث إليها، لكنني لا أستطيع التحدث إلى ربييكا.

دعاني دافع مفاجئ إلى العودة عبر المروج متوجهة نحو المنزل. عبرت الردهة، وصعدت الدرج الكبير، وانعطفت أسفل المدخل المقوس بجوار شرفة العازفين، ومررت عبر الباب المؤدي إلى الجنّاح الغربي، ثم سرت عبر الممر المظلم الساكن المؤدي إلى غرفة ربييكا، وأدّرت مقبض الباب ودخلت. كانت السيدة دانفرز لا تزال واقفة بجانب النافذة، وكان المصراع مطويًا إلى الخلف.

قلت:

- يا سيدة دانفرز، يا سيدة دانفرز.

التفتت لتنظر إليّ، ورأيت عينيها حمراوين ومتورمتين من أثر البكاء، كما كانت عينيّ، وكانت هناك ظلال داكنة على وجهها الشاحب.

قالت:

- ما الخطب؟

وبدا صوتها أجش ومخنوقًا من الدموع التي ذرفتها، مثلما كان صوتي. لم أتوقع أن أجدها هكذا، حيث صورتها مبتسمة كما ابتسمت الليلة الماضية، وقاسية وخبيثة. لكنها لم تكن أيًا من هذه الأشياء الآن، بل كانت امرأة عجوزًا مريضة ومتعبة.

ترددت ويدي لا تزال على مقبض الباب المفتوح، ولم أعرف ماذا أقول لها الآن أو ماذا أفعل.

ظلت تحديق إليّ بتلك العينين الحمرأوين المتورمتين، ولم أستطع أن أجيها.
قالت:

- تركت قائمة الطعام على المكتب كالمعتاد، هل تريدن تغيير شيء ما؟
منحتني كلماتها الشجاعة، فتركت الباب وتوجهت إلى منتصف الغرفة.
قلت:

- يا سيدة دانفرز، لم آتِ لأتحدث عن قائمة الطعام. أنتِ تعرفين هذا، أليس كذلك؟

لم تجبني، وفتحت يدها اليسرى ثم أغلقتها.
قلت:

- لقد فعلتِ ما تريدنه، أليس كذلك؟ لقد تعمدت حدوث هذا، أليس كذلك؟
هل أنت سعيدة الآن؟ هل أنت سعيدة؟

أشاحت برأسها بعيداً وأطلت من النافذة، كما كانت عندما دخلتُ الغرفة في البداية. قالت:

- لماذا أتيتِ إلى هنا؟ لا أحد يريدك في ماندرلي. كنا بخير حتى أتيت. لماذا لم تمكثي حيث كنت في فرنسا؟
قلت:

- يبدو أنك نسييتِ أنني أحب السيد دي ويتتر.
قالت:

- لو كنت تحبينه لما تزوجته أبداً.
لم أعرف ماذا أقول. بدا الموقف جنونياً، وغير واقعي، وظلت هي تتحدث بتلك الطريقة المكتومة المخنوقة وقد أدارت رأسها بعيداً عني.
قالت:

- ظننتُ أنني أكرهك، لكنني لا أكرهك الآن. لا بد أن كل المشاعر التي كانت لديّ نضبت.
سألها:

- ولماذا تكرهيني؟ ماذا فعلت لك حتى تكرهيني؟

قالت:

- لقد حاولت أن تأخذي مكان السيدة دي وينتر.

ظلت ترفض النظر إليّ، ووقفت هناك متجهمّة وقد أشاحت برأسها عني. قلت:

- لم يتغير شيء، وظل ماندرلي كما كان دائماً. لم أعطِ أي أوامر، وتركت

لك كل شيء. كنت سأصبح صديقة لك، لو أنك سمحت لي، لكنك وقفت

ضدي منذ البداية، رأيت ذلك في وجهك لحظة أن صافحتك.

لم تجب، وظلت يدها تنفتح وتنغلق على فستانها. تابعتُ قائلة:

- كثير من الناس يتزوجون مرتين، رجالاً ونساءً، وهناك الآلاف من الزيجات

الثانية تحدث كل يوم. أنت تتحدثين كأن زواجي بالسيد دي وينتر جريمة،

وانتهاك لحرمة الموتى. أليس من حقنا أن نكون سعيدين مثل أي شخص

آخر؟

التفتت لتنظر إليّ أخيراً، وقالت:

- السيد دي وينتر ليس سعيداً، ويمكن لأي أحقق رؤية ذلك، ما عليك إلا

النظر إلى عينيه. إنه لا يزال في الجحيم، وقد بدا هكذا منذ وفاتها.

قلت:

- هذا ليس صحيحاً. هذا ليس صحيحاً. كان سعيداً عندما كنا في فرنسا معاً.

بدا أصغر، أصغر بكثير، ويضحك ويشعر بالبهجة.

قالت:

- حسناً، إنه رجل، أليس كذلك؟ ولا يوجد رجل يحرم نفسه في أثناء شهر

العسل، أليس كذلك؟ السيد دي وينتر لم يبلغ السادسة والأربعين بعد.

ضحكت باستهزاء، وهزت كتفيها.

قلت:

- كيف تجربين على التحدث إليّ بهذه الطريقة؟ كيف تجربين؟

لم أعد أخشاه، وتوجهت نحوها وهزرتها من ذراعها، قائلة:

- لقد جعلتني أرثي ذلك الفستان الليلة الماضية، لم أكن لأفكر فيه لولاك. لقد فعلت ذلك لأنك أردت أن تؤذي السيد دي وينتر، وأردت أن تجعله يعاني. ألم يعاني ما فيه الكفاية، من دون أن تلعب حيلتك الدنيئة البشعة تلك؟ هل تعتقدين أن عذابه وألمه سيعيدان السيدة دي وينتر مرة أخرى؟ هزت نفسها كي تتخلص مني، وغمرت دماء الغضب وجهها الشاحب كالموتى، وقالت:

- ماذا يهمني في معاناته؟ فهو لم يهتم قط بمعاناتي أنا. هل تعتقدين أنني أحببت الأمر، وأنا أشاهدك تجلسين مكانها، وتسيرين على خطاها، وتلمسين الأشياء التي كانت ملكاً لها؟ كيف تعتقدين أنني شعرت طوال هذه الأشهر وأنا أعلم أنك تكتبين على مكتبها في غرفة الجلوس الصباحية، وتستخدمين القلم نفسه الذي استخدمته، وتحدثين عبر هاتف المنزل حيث اعتادت الحديث إليّ كل صباح طيلة حياتها منذ أن أتت إلى ماندرلي أول مرة؟ وكيف تعتقدين أنني شعرت عند سماع فريث وروبرت وباقي الخدم يتحدثون عنك بوصفك «السيدة دي وينتر»؟ «السيدة دي وينتر خرجت للتمشية»، «السيدة دي وينتر تريد السيارة عصر اليوم في الساعة الثالثة»، «لن تأتي السيدة دي وينتر لتناول الشاي حتى الساعة الخامسة». وطوال هذا الوقت، فإن السيدة دي وينتر، سيدتي بابتسامتها ووجهها الجميل وسلوكياتها الشجاعة، السيدة دي وينتر الحقيقية، ترقد ميتة وباردة ومنسية في سرداب الكنيسة. إذا كان يتألم، فهو يستحق أن يتألم، لأنه تزوج فتاة صغيرة مثلك بعدها بعشرة أشهر فحسب. حسناً، إنه يدفع ثمن ذلك الآن، أليس كذلك؟ لقد رأيت وجهه، ورأيت عينيه. صنع لنفسه جحيمه الخاص، ولا يوجد مسؤول عن ذلك سواه هو نفسه. إنه يعرف أنها تراه، ويعرف أنها تأتي ليلاً وتراقبه. وهي لا تأتي بلطف، لا، ليست هي، ليست سيدتي، حيث لم تكن قط لتقف صامته وساكنة وتتقبل الظلم. كانت تقول: «سأراهم في الجحيم يا داني. سأراهم في الجحيم أولاً». وكنت أقول لها: «هذا صحيح يا عزيزتي، لن ينال منك

أحد. لقد وُلدت في هذا العالم كي تأخذي منه ما في استطاعتك». وقد فعلت، ولم تكثرث لشيء، ولم تخف. كانت سيدتي السيدة دي وينتر تمتلك الشجاعة والحيوية مثل صبي، وكان يجب أن تكون صبيًا. كثيرًا ما أخبرتها بذلك. توليت العناية بها في أثناء طفولتها، كنت تعرفين هذا، أليس كذلك؟ قلت:

- نعم، لم أكن أعرف يا سيدة دانفرز، ما فائدة كل هذا؟ لا أريد سماع المزيد، ولا أريد أن أعرف. أليست لديّ مشاعر مثلك؟ ألا يمكنك أن تفهمي ما يعنيه لي سماع ذكرها، وأن أقف هنا وأنصت وأنت تخبريني عنها؟ لم تسمعني، وظلت تهذي مثل امرأة مجنونة متعصبة، وأصابعها الطويلة تبرم وتمزق نسيج ثوبها الأسود.

قالت:

- كانت جميلة آنذاك، جميلة كلوحة، والرجال يلتفتون ليحدقوا إليها في أثناء مرورها، على الرغم من أنها لم تكمل الثانية عشرة من العمر. كانت تعرف حينها، فاعتادت أن تغمز لي، حيث كانت لئيمة صغيرة، وتقول: «سأكون جميلة، أليس كذلك يا داني؟»، فكنت أقول لها: «سنرى يا حبيبتى، سنرى». وكانت تمتلك المعرفة حينها مثل شخص بالغ، فتدخل مع الرجال والنساء في محادثات مليئة بالبراعة والحيل كشخص يبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا. وقد لفت والدها حول إصبعها كالحاتم، وكانت ستفعل الشيء نفسه مع والدتها، لو كانت على قيد الحياة. وبالنسبة إلى الشجاعة، لم يكن من الممكن التفوق على سيدتي في الشجاعة. في عيد ميلادها الرابع عشر، قادت عربة تجرها أربعة خيول، وصعد ابن عمها، السيد جاك، على المقعد بجانبها، وحاول أن يأخذ الزمام من بين يديها. تقاطلا معًا هناك لمدة ثلاث دقائق، مثل زوجين من القطط البرية، والخيول تركض في طريقها. وقد فازت على الرغم من ذلك، فازت سيدتي. فرقعت سوطها فوق رأسه، فسقط منقلبًا رأسًا على عقب، وهو يطلق السباب ويضحك. كانا زوجين،

أؤكد لك، هي والسيد جاك. أرسلوه إلى البحرية، لكنه لم يتحمل الانضباط، وأنا لا ألومه، إذ كان أشد عزيمة من أن يطيع الأوامر، مثل سيدتي. راقبتها وأنا منبهرة ومرعوبة، وقد ارتسمت على شفيتها ابتسامة منتشية غريبة، جعلتها تبدو أكبر سنًا من أي وقت مضى، وجعلت وجهها الشبيه بالجمجمة يبدو حيًا وحقيقيًا. قالت:

- لم يتغلب عليها أحد قطُّ. فعلت ما تريد، وعاشت كما تريد. كما كانت تتمتع بقوة أسد صغير أيضًا. أتذكرها وهي في السادسة عشرة من عمرها، عندما ركبت أحد خيول والدها، وهو حيوان ضخيم متوحش، قال السائس إنه أشرس من أن تركبه. لقد تشبثت به بالفعل، وأستطيع رؤيتها الآن، وشعرها يتطاير خلفها، وهي تضربه بالسوط حتى نزفت منه الدماء، وتدفع مهمازيها في جانبيه، وعندما نزلت عن ظهره كان يرتجف بأكمله وقد غمره الزبد والدماء. قالت: «سيلقنه هذا درسًا، أليس كذلك يا داني؟»، ثم ذهبت لتغسل يديها بمنتهى البرود. وهكذا خاضت الحياة عندما كبرت. رأيتها، وكنت معها: لم تهتم بأي شيء ولا أي شخص. ثم تعرضت للهزيمة في النهاية، لكنه لم يكن رجلًا، ولا امرأة، بل نال البحر منها. كان البحر أقوى منها، ونال البحر منها في النهاية.

انقطعت عن الحديث وفمها يتحرك على نحو غريب، وصار مشدودًا عند زاويتي، ثم بدأت تبكي بصخب وبشدة وفمها مفتوح وعيناها جافتان. قلت:

- يا سيدة دانفرز، يا سيدة دانفرز. ووقفت أمامها عاجزة لا أدري ماذا أفعل. لم أعد أرتاب بها، ولم أعد أخشاه، لكن منظرها وهي تبكي هناك بعينين جافتين جعلني أرتعد وأشعر بالاعتلال. قلت: - يا سيدة دانفرز، أنت لست على ما يرام، يجب أن تكوني في الفراش. لماذا لا تذهبين إلى غرفتك وتسترخين؟ لماذا لا تذهبين إلى الفراش؟ التفتت إليَّ بشراسة، وقالت:

- دعيني وشأني، ألا يمكنك ذلك؟ ما شأنك أنتِ إذا أظهرت حزني؟ أنا لا أخجل من ذلك، ولا أحبس نفسي في غرفتي كي أبكي. ولا أذرع جيئة وذهابًا، جيئة وذهابًا، في غرفتي مثل السيد دي وينتر، والباب مغلق عليّ. قلت:

- ماذا تقصدين؟ السيد دي وينتر لا يفعل ذلك. قالت:

- بل فعل، بعد وفاتها. جيئة وذهابًا، جيئة وذهابًا، في المكتبة. لقد سمعته، وشاهدته أيضًا من خلال ثقب المفتاح، أكثر من مرة. جيئة وذهابًا، مثل حيوان داخل قفص. قلت:

- لا أريد أن أسمع، ولا أريد أن أعرف. قالت:

- وتقولين إنك أسعدته خلال شهر العسل، أسعدته، أنت، الفتاة الصغيرة الجاهلة، صغيرة بما يكفي لتكوني ابنته. ما الذي تعرفينه عن الحياة؟ ما الذي تعرفينه عن الرجال؟ أتيت هنا، وتعتقدين أن في وسعك أن تحلي محل السيدة دي وينتر، أنت، تحلين محل سيدتي! حتى الخدم ضحكوا منك عندما أتيت إلى ماندرلي، حتى خادمة المطبخ الصغيرة التي قابلتها في الممر الخلفي هناك في أول صباح لك. أتساءل ما الذي جال بذهن السيد دي وينتر، عندما عاد بك هنا إلى ماندرلي عقب انتهاء شهر عسله الثمين، وأتساءل ما الذي فكر فيه عندما رآك جالسة إلى مائدة غرفة الطعام أول مرة. قلت:

- من الأفضل أن تتوقفي عن هذا يا سيدة دانفرز، ومن الأفضل أن تذهبي إلى غرفتك.

قلدتني قائلة:

- أذهب إلى غرفتي، أذهب إلى غرفتي، تعتقد سيدة المنزل أنه من الأفضل

أن أذهب إلى غرفتي. وبعد ذلك، ماذا إذن؟ ستهرعين إلى السيد دي ويتتر وتقولين: «عاملتني السيدة دانفرز بقسوة، وكانت السيدة دانفرز وقحة»، ستهرعين إليه كما فعلت من قبل عندما جاء السيد جاك لزيارتي.

قلت:

- لم أخبره قط.

قالت:

- هذه كذبة، من سواك أخبره، إذا لم تفعلني أنت؟ لم يكن شخص آخر موجودًا هنا، حيث خرج فريث وروبرت، ولم يعرف أيُّ من الخدم الآخرين. قررت حينها أن ألقنك درسًا، وهو أيضًا. أقول دعيه يعانٍ، فماذا يهمني أنا في الأمر؟ وما شأني بمعاناته؟ لماذا لا أرى السيد جاك هنا في ماندريلي؟ إنه الصلة الوحيدة الباقية لي الآن بالسيدة دي ويتتر. قال: «لن أقبل بوجوده هنا. أنا أحذرك، هذه آخر مرة». إنه لم ينسَ الشعور بالغيرة، أليس كذلك؟ تذكرت الاختباء في شرفة العازفين عندما كان باب المكتبة مفتوحًا، وتذكرت صوت ماكسيم الذي علا في غضب، واستخدامه لتلك الكلمات التي رددتها السيدة دانفرز للتوّ. غيور، ماكسيم غيور...

قالت السيدة دانفرز:

- كان يشعر بالغيرة في أثناء حياتها، وهو يشعر بالغيرة الآن بعد موتها، ويمنع السيد جاك من دخول المنزل مثلما فعل حينها. هذا يظهر لك أنه لم ينسَها، أليس كذلك؟ بالطبع كان يشعر بالغيرة، وكذلك شعرت أنا، وكذلك شعر كل من عرفها. لم تهتم، بل ضحكت فحسب، وقالت لي: «سأعيش كما يحلو لي يا داني، ولن يمنعي العالم بأسره». لم يكن على الرجل إلا النظر إليها مرة واحدة حتى يصير مهووسًا بها. رأيتهم هناك، وهم يقيمون في المنزل، إنهم رجال قابلتهم في لندن، وأتت بهم إلى هنا لقضاء نهاية الأسبوع. كانت تأخذهم على القارب للسباحة، وتقيم نزاهات للعشاء في كوخها في الخليج. وكانوا يمارسون معها الحب بالطبع، فمن عساه لا يفعل؟ كانت

تضحك، وتعود لتخبرني بما قالوه وما فعلوه. لم تكثر، وكان الأمر أشبه بلعبة بالنسبة إليها. أشبه بلعبة. مَنْ عساه لا يشعر بالغيرة؟ كان جميعهم غيورين، وجميعهم مهووسين بها. السيد دي ويتتر، والسيد جاك، والسيد كرولي، وكل مَنْ عرفها، وكل مَنْ أتى إلى ماندرلي.

قلت:

- لا أريد أن أعرف، لا أريد أن أعرف.

اقتربت مني السيدة دانفرز، وقرّبت وجهها من وجهي، وقالت:

- لا فائدة، أليس كذلك؟ لن تتغلب عليها أبدًا، فهي لا تزال السيدة هنا، حتى إذا كانت ميتة، وهي السيدة دي ويتتر الحقيقية، وليس أنت. أنت الظل، والشبح، وأنت المنسية غير المرغوب فيها، المدفوعة جانبًا. حسنًا، لماذا لا تتركين لها ماندرلي؟ لماذا لا ترحلين؟

تراجعت عنها نحو النافذة، وتصاعد خوفي القديم ورعبي داخلي مرة أخرى. أخذت ذراعي وقبضت عليها كالمنجلة.

قالت:

- لماذا لا ترحلين؟ لا أحد هنا يريدك. وهو لا يريدك، ولم يفعل قط، حيث لا يستطيع نسيانها، ويريد أن يصير وحده في المنزل مرة أخرى، معها هي. يجب أن تكوني أنت الممددة هناك في سرداب الكنيسة، وليست هي. يجب أن تموتي أنت، وليست السيدة دي ويتتر.

دفعني نحو النافذة المفتوحة، وكانت في وسعي رؤية الشرفة في الأسفل، رمادية وغير واضحة وسط الجدار الضبابي الأبيض. قالت:

- انظري إلى الأسفل هناك، الأمر سهل، أليس كذلك؟ لماذا لا تقفزين؟ لن يؤلمك كسر رقبتك، إنها طريقة سريعة ولطيفة، وليست مثل الغرق. لماذا لا تجربينها؟ لماذا لا ترحلين؟

ملاً الضباب النافذة المفتوحة، رطبًا ودبقًا، ولسع عيني، وتشبث بفتحات أنفي. قبضت على جلسة النافذة بيدي.

قالت السيدة دانفرز:

- لا تخافي، لن أدفعك، ولن أقف بجانبك. يمكنك القفز من تلقاء نفسك. ما فائدة بقائك هنا في ماندريلي؟ أنت لست سعيدة، والسيد دي وينتر لا يحبك. ليس هناك الكثير لتعيشي من أجله، أليس كذلك؟ لماذا لا تقفزين الآن، وتنتهين من الأمر؟ ولن تعودى تعيسة حينها.

كانت في إمكاني رؤية أحواض الزهور على الشرفة، وكتل زهور القوطاسية الزرقاء الصلبة. بدت الأحجار المرصوفة ناعمة ورمادية، ولم تكن خشنة وغير متساوية. كان الضباب هو ما جعلها تبدو بعيدة للغاية، لكنها لم تكن بعيدة في الواقع، ولم تكن النافذة شديدة الارتفاع.

همست السيدة دانفرز:

- لماذا لا تقفزين؟ لماذا لا تحاولين؟

أصبح الضباب أكثر كثافة من ذي قبل، واختفت الشرفة عني. لم أعد أرى أحواض الزهور ولا الأحجار المرصوفة الملساء، ولم يكن حولي سوى الضباب الأبيض، الذي تفوح منه رائحة الأعشاب البحرية الرطبة الباردة. كان الواقع الوحيد هو جلسة النافذة تحت يدي، وقبضة السيدة دانفرز على ذراعي اليسرى. إذا قفزت، فلن أرى الأحجار وهي تقترب كي تلتقي بي، وسيخفيها عني الضباب، وسيكون الألم حادًا ومفاجئًا كما قالت. سيكسر السقوط عنقي، ولن يكون الأمر بطيئًا مثل الغرق. سرعان ما سينتهي الأمر. كما أن ماكسيم لا يحبني. أراد ماكسيم أن يعود وحده مرة أخرى، مع ربيكا.

همست السيدة دانفرز:

- هيّا، هيّا، لا تخافي.

أغمضت عيني، وشعرت بالدوار من التحديق إلى الشرفة، وآلمتني أصابعي من التمسك بجلسة النافذة. دخل الضباب إلى أنفي، واستقر على شفتي عفاً ولاذعاً. بدا خانقاً مثل البطانية، مثل التخدير. بدأت أنسى أمر تعاستي، وحيي لماكسيم، وبدأت أنسى ربيكا. قريباً، لن أضطر إلى التفكير في ربيكا...

عندما أرخيت يَدَي وتنهدت، تبدد فجأة الضباب الأبيض والصمت الذي كان جزءاً منه، وتصدع إلى قسمين بفعل انفجار هز النافذة حيث وقفنا. ارتجف الزجاج داخل إطاره، وفتحت عيني وحدقت إلى السيدة دانفرز. تبع الانفجار ثانٍ، وثالث، ورابع. اخترق صوت الانفجارات الهواء، وانتشرت الطيور غير مرئية من الغابة المحيطة بالمنزل، وأحدث ضجيجها صدى.
قلت ببلاهة:

- ما هذا؟ ماذا حدث؟

أرخت السيدة دانفرز قبضتها على ذراعي، وحدقت من النافذة وسط الضباب.
قالت:

- إنها الصواريخ، لا بد أن هناك سفينة جنحت على الشاطئ هناك في الخليج.
أصغنا السمع، ونحن نحقق إلى الضباب الأبيض معاً، ثم سمعنا صوت خُطى تجري على الشرفة في الأسفل.

كان ماكسيم. لم أتمكن من رؤيته، لكنني سمعت صوته. أخذ يصيح مناديًا فريث وهو يركض، وسمعت فريث يجيب من الردهة، ثم خرج إلى الشرفة، ولاحث هيتاهما وسط الضباب بالأسفل.

قال ماكسيم:

- لقد جنحت على الشاطئ بالفعل، كنت أراقبها من الرأس البحري، ورأيتها تأتي إلى الخليج مباشرة وتتجه نحو الحيد البحري. لن يتمكنوا من تحريكها أبدًا، ليس مع هذا المد والجزر. لا بد أنها أخطأت الخليج وظنته ميناء كيريث، حيث إن الضباب مثل الجدار هناك في الخليج. أبلغهم في المنزل أن يستعدوا بالطعام والشراب في حال ما إذا أراد أولئك الرجال شيئًا، واتصل بالسيد كرولي في المكتب وأبلغه ما حدث. سأعود إلى الخليج لأرى إذا كان في مقدوري فعل أي شيء. أحضر لي بعض السجائر، هلأ فعلت؟

تراجعت السيدة دانفرز بعيدًا عن النافذة، وصار وجهها خاليًا من التعبير مرة أخرى، وعاد القناع الأبيض البارد الذي أعرفه.

قالت:

- من الأفضل أن ننزل، سيبحث فريث عني لإجراء الترتيبات. وقد يعود السيد دي وينتر بالرجال إلى المنزل، كما قال. احترسي على يدك، سأغلق النافذة.

تراجعتُ داخل الغرفة، وأنا لا أزال في حالة من الذهول والتشوش، وعدم الثقة بنفسِي ولا بها. راقبتها وهي تغلق النافذة وتحكِّم المصاريح وتسدل الستائر في مكانها.

قالت:

- من الجيد أنه لا توجد أي أمواج جارية، إذ لم يكونوا ليحظوا بفرصة كبيرة حينها، لكن لا يوجد أي خطر في يوم مثل هذا. على الرغم من ذلك، فإن الملاك سيفقدون سفينتهم، إذا جنحت فوق الحيد البحري كما قال السيد دي وينتر.

نظرت حولها في أرجاء الغرفة كي تتأكد من عدم وجود أي فوضى أو شيء في غير مكانه، وسوت الغطاء فوق الفراش الزوجي، ثم توجهت إلى الباب وفتحته لي قائلة:

- سأبلغهم في المطبخ أن يقدموا غداءً باردًا في غرفة الطعام في نهاية المطاف، ولن يهم حينها متى تأتين لتناوله. قد لا يرغب السيد دي وينتر في العودة بسرعة في الساعة الواحدة إذا كان مشغولاً هناك في الخليج. حدقت إليها بوجه خالٍ من التعبير، ثم خرجت من الباب المفتوح وأنا متصلبة ومتخشبة كالتمثال.

- عندما ترين السيد دي وينتر يا سيدتي، هلاً أخبرته بأنه لا توجد أي مشكلة إذا أراد إحضار الرجال من السفينة؟ ستكون هناك وجبة ساخنة جاهزة لهم في أي وقت.

قلت:

- نعم، نعم يا سيدة دانفرز.

أدارت ظهرها لي، وسارت عبر الممر المؤدي إلى درج الخدم، بهيئتها النحيلة الغريبة في ثوبها الأسود، وتنورتها تكنس الأرض بالكاد مثل التنانير المنفوخة الواسعة قبل ثلاثين عامًا، ثم انعطفت عند زاوية الممر واختفت.

سرت ببطء عبر الممر، حتى الباب المجاور للمدخل المقوس، وعقلي لا يزال

متبلدًا كأنني استيقظت للتو من سبات طويل. عبرت من الباب ونزلت الدرج، من دون أي هدف محدد أمامي. كان فريث يعبر الردهة في اتجاه غرفة الطعام، وتوقف عندما رأي، وانتظر حتى نزلت إلى الردهة.

قال:

- كان السيد دي ويتتر هنا قبل لحظات قليلة يا سيدتي. أخذ بعض السجائر ثم عاد إلى الشاطئ مرة أخرى. يبدو أن هناك سفينة جنحت على الشاطئ. قلت:

- نعم.

قال فريث:

- هل سمعتِ الصواريخ يا سيدتي؟

قلت:

- نعم، سمعتِ الصواريخ.

قال فريث:

- كنت في حجرة المؤن مع روبرت، وظننا في البداية أن أحد البستانيين أطلق بعض الألعاب النارية المتبقية من الليلة الماضية، فقلت لروبرت: «لماذا يريدون فعل ذلك في مثل هذا الجو؟ لماذا لا يحتفظون بها للأطفال ليلة السبت؟». ثم جاء التالي، يليه الثالث، فقال روبرت: «هذه ليست ألعابًا نارية، هذه سفينة في مأزق». قلت: «أعتقد أنك محق»، وخرجت إلى الردهة، وكان السيد دي ويتتر هناك، يناديني من الشرفة.

قلت:

- نعم.

- حسنًا، هذا ليس مستغربًا في مثل هذا الضباب يا سيدتي. هذا ما قلته لروبرت الآن، من الصعب أن تجد طريقك على الطريق، ناهيك بالماء.

- أجل.

قال فريث:

- إذا أردتِ اللحاق بالسيد دي ويتتر، فقد ذهب عبر المرح مباشرة منذ دقيقتين فحسب.

- شكرًا لك يا فريث.

خرجت إلى الشرفة، وكانت في إمكاني رؤية الأشجار وهيئتها تظهر خلف المروج. بدأ الضباب ينقشع، ويرتفع في سحب صغيرة إلى السماء في الأعلى، ودار فوق رأسي في أكاليل من الدخان. نظرت إلى الأعلى، نحو النوافذ فوق رأسي، فوجدتها مغلقة بإحكام والمصاريح مثبتة. بدت كأنها لن تفتح على الإطلاق، ولن تُلقى على مصاريحها أبدًا.

وقفت بجانب تلك النافذة الكبيرة في المنتصف قبل خمس دقائق. كم بدت عالية فوق رأسي، وكم بدت مرتفعة ونائية. كانت الأحجار صلبة وقاسية تحت قدمي. نظرت إلى الأسفل عند قدمي، ثم رفعت نظري مرة أخرى إلى النافذة المغلقة، وعندما فعلت ذلك، أدركت فجأة أن رأسي يدور، وشعرت بالحر، وجرت بعض قطرات العرق على مؤخرة عنقي، وتقاطعت نقاط سوداء في الهواء أمامي. دخلت إلى الردهة مرة أخرى وجلست على كرسي. كانت يداي مبللتين للغاية، وجلست ساكنة تمامًا، ممسكة ركبتَي.

ناديت:

- فريث، فريث، هل أنت في غرفة الطعام؟

- نعم يا سيدتي؟

خرج على الفور، وعبر الردهة آتياً نحوي.

- لا تظن أنني فائقة الغرابة يا فريث، لكنني أعتقد أنني أود كأسًا صغيرة من البراندي.

- بالتأكيد يا سيدتي.

ظللت ممسكة ركبتَي، وجالسة في سكون تام، حتى عاد ومعه كأس على صينية فضية.

قال فريث:

- هل تشعرين ببعض التوعك يا سيدتي؟ هل تريدني أن أنادي كلاريس؟
- لا، سأكون بخير يا فريث. شعرت بالحر بعض الشيء، هذا هو كل ما في الأمر.

- إنه صباح دافئ جدًا يا سيدتي، دافئ جدًا بالفعل، يمكن للمرء أن يقول إنه خائق تقريبًا.

- أجل يا فريث، خائق جدًا.

شربت البراندي، وأعدت الكأس إلى الصينية الفضية.

قال فريث:

- ربما أثار صوت تلك الصواريخ انزعاجك، لقد انفجرت فجأة.

- نعم، لقد أزعجتني.

- ومع هذا الصباح الحار، والوقوف طوال الليلة الماضية، ربما لا تشعرين
بأنك على ما يرام يا سيدتي.

- لا، ربما لا.

- هلاً استلقيتِ نصف ساعة؟ الجو بارد تمامًا في المكتبة.

- لا، لا، أعتقد أنني سأخرج بعد لحظة أو اثنتين. لا تزعج نفسك يا فريث.

- لا، حسنًا إذن يا سيدتي.

ابتعد وتركني وحدي في الردهة. بدا المكان هادئًا وأنا جالسة هناك، هادئًا وباردًا. أزيلت كل آثار الحفل، وبدا الأمر كأنه لم يحدث قط. بدت الردهة كعهدها دائمًا، رمادية وساكنة وصارمة، باللوحات والأسلحة على الجدار. لم أكد أصدق أنني وقفت هناك الليلة الماضية أسفل الدرج مرتدية ثوبي الأزرق، وصافحت خمسمائة شخص. ولم أستطع تصديق أنه كانت هناك حوامل للنوت الموسيقية في شرفة العازفين، وفرقة تعزف هناك، ورجل معه كمان، ورجل معه طبلة. نهضت وخرجت إلى الشرفة مرة أخرى.

أخذ الضباب يرتفع، ويصعد إلى قمم الأشجار، وتمكنت من رؤية الغابة عند نهاية المروج، وفوق رأسي حاولت الشمس الباهتة اختراق السماء الثقيلة. بدا

الجو أكثر حرارة من أي وقت مضى، خائفًا كما قال فريث. طنت نحلة بجاني باحثة عن عطر ما، وأصدرت أزيزًا صاخبًا، ثم زحفت داخل زهرة وصمتت فجأة. على الضفاف العشبية فوق المروج، أدار البستاني آلة جز العشب، فذعر طائر حسون تفاحي وهرب من طنين الشفرات متوجهًا إلى حديقة الورد. انحنى البستاني على مقابض الآلة، وسار متمهلًا عبر الضفة وهو يبعثر العشب القصير ورؤوس زهور الربيع الشبيهة برؤوس الدبابيس. حمل لي الهواء رائحة العشب الدافئ اللطيفة، والتمعت فوقى الشمس بكامل قوتها من بين الضباب الأبيض. صفرت لجاسبر، لكنه لم يأت، ربما تبع ماكسيم عندما نزل، إلى الشاطئ. ألقيت نظرة خاطفة على ساعتى، فوجدتها تجاوزت الثانية عشرة والنصف، وقاربت الواحدة إلا الثلث. فى مثل هذا الوقت بالأمس وقفت أنا وماكسيم مع فرانك فى الحديقة الصغيرة أمام منزله، فى انتظار أن تقدم مدبرة منزله الغداء.

قبل أربع وعشرين ساعة، كانا يشاكسانى، ويضايقانى بشأن ثوبى. قلت: «ستحصلان على أكبر مفاجأة فى حياتكما».

شعرت بالاعتلال من فرط الخزي عندما تذكرت كلماتى، ثم أدركت لأول مرة أن ماكسيم لم يرحل كما خشيت. كان الصوت الذى سمعته على الشرفة هادئًا وعمليًا، وهو الصوت الذى عرفته، وليس صوت الليلة الماضية عندما وقفت على رأس الدرج. لم يرحل ماكسيم، بل كان هناك فى مكان ما فى الخليج، وكان على طبيعته، هادئًا وعقلانيًا. كان قد ذهب للتمشية فحسب، كما قال فرانك. ذهب إلى الرأس البحرى، ورأى السفينة تقترب من الشاطئ. كانت مخاوفى كلها بلا أساس، وماكسيم فى أمان. كان ماكسيم بخير. عايشت للتو شيئًا مهينًا ومروعًا ومجنونًا، شيئًا لم أفهمه تمامًا حتى الآن، وليست لى أى رغبة فى تذكره، وأردت أن أدفنه إلى الأبد فى أعماق ذهنى مع أهوال الطفولة القديمة المنسية، لكن حتى هذا لم يكن مهمًا ما دام ماكسيم على ما يرام.

ثم نزلت أيضًا عبر الطريق المنحدر الملتوى الذى يمر بالغابة المظلمة ويؤدى إلى الشاطئ بالأسفل.

انقشع الضباب تقريباً، وعندما وصلت إلى الخليج استطعت أن أرى السفينة في الحال، وهي ملقاة على بُعد ميلين من الشاطئ تقريباً، ومقدمتها تشير في اتجاه الجروف الصخرية. مشيت عبر حاجز الأمواج، ووقفت عند طرفه متكئة على الجدار المحدب. تجمع حشد من الناس على الجروف الصخرية بالفعل، لا بد أنهم أتوا سيراً من كيريث عبر طريق خفر السواحل. كانت الجروف الصخرية والرأس البحري أجزاء من ماندرلي، لكن العامة دائماً ما كانوا يستخدمون حق المرور عبر الجروف الصخرية. اندفع بعضهم ونزلوا أسفل واجهة الجرف لينظروا من كثب إلى السفينة العالقة. رقدت بزاوية غير ملائمة، ومؤخرتها مائلة، وكان هناك عدد من قوارب التجديف حولها، أخذت تجذبها بالفعل، بينما بقي قارب النجاة بعيداً. رأيت شخصاً يقف داخله ويصيح عبر مكبر الصوت، لكنني لم أتمكن من سماع ما يقوله. كان الضباب لا يزال منتشرًا في الخليج، ولم أستطع رؤية الأفق. أتى زورق آخر مزود بمحرك وظهر في الضوء، وعلى متنه بعض الرجال. كان الزورق ذو المحرك رمادياً داكناً، وتمكنت من رؤية شخص ما يرتدي زياً رسمياً. كان ذلك هو مدير المرفأ من كيريث، ومعه وكيل شركة لويديز للتأمين. تبع ذلك زورق آخر ذو محرك، على متنه مجموعة من المصطافين في كيريث. ظلوا يدورون ويدورون حول السفينة البخارية العالقة، ويتحدثون بحماس، وسمعت صدى أصواتهم يتردد عبر المياه الساكنة.

تركت حاجز الأمواج والخليج، وصعدت إلى الطريق فوق الجروف الصخرية متجهة نحو بقية الناس. لم أرَ ماكسيم في أي مكان، لكن فرانك كان هناك يتحدث إلى أحد رجال خفر السواحل. تراجع عندما رأيته، وقد شعرت بالحرج لحظة، إذ لم تمضي ساعة بالكاد منذ بكيت له عبر الهاتف، ولم أكن متأكدة مما يجب أن أفعله. رأيته على الفور ولوح بيده، فتوجهت إليه هو ورجل خفر السواحل، وعرفني رجل خفر السواحل.

ابتسم قائلاً:

- هل أتيتَ لتشهدي المتعة يا سيدة دي وينتر؟ أخشى أنها ستكون مهمة شاقة.
قد تحركها زوارق السحب، لكنني أشك في ذلك، فهي ثابتة بشدة وبعمق
في مكانها على تلك الحافة.

قلت:

- ماذا سيفعلون؟

أجاب:

- سيرسلون غطاسًا في الحال ليرى ما إذا تحطمت مؤخرتها، ها هو ذا ذلك
الرجل هناك، الذي يرتدي قلنسوة حمراء. هل تودين إلقاء نظرة من خلال
هذه النظارة المعظمة؟

تناولت نظارته المعظمة، وألقيت نظرة على السفينة. رأيت مجموعة من الرجال
يطلون من فوق مؤخرتها، وكان أحدهم يشير إلى شيء ما، بينما كان الرجل في
قارب النجاة لا يزال يصيح عبر مكبر الصوت.

انضم مدير المرفأ من كيريث إلى مجموعة الرجال في مؤخرة السفينة العالقة،
وجلس الغطاس الذي يرتدي قلنسوة في الزورق الرمادي ذي المحرك التابع
لمدير المرفأ.

كان زورق التزهات لا يزال يدور حول السفينة، ووقفت امرأة لتلتقط صورة.
استقرت مجموعة من طيور النورس على سطح الماء، وأخذت تصرخ بحماسة
أملًا في الحصول على بقايا الطعام.

أعدت النظارة المعظمة إلى رجل خفر السواحل.

قلت:

- لا يبدو أن شيئًا يحدث.

قال رجل خفر السواحل:

- سينزلونه في الحال، لكنهم سيتجادلون بعض الشيء أولاً، مثل جميع
الأجانب. ها هي ذي زوارق السحب آتية.

قال فرانك:

- لن ينجحوا في ذلك أبدًا. انظر إلى الزاوية التي ترقد بها السفينة، كما أن المياه أشد ضحالة هناك مما ظننت.

قال رجل خفر السواحل:

- هذا الحيد البحري يمتد إلى مسافة بعيدة. لا يمكنك ملاحظة ذلك بالطريقة العادية، في أثناء المرور فوق تلك المنطقة في المياه في قارب صغير، لكن سفينة بعمقها ستلمس القاع بكل تأكيد.

قال فرانك:

- كنت في الخليج الآخر بالقرب من الوادي عندما أطلقوا الصواريخ. استطعت بالكاد أن أرى أمامي إلى مسافة ثلاث ياردات حيث كنت، ثم انطلقت الصواريخ فجأة.

فكرت كيف أن الناس يتشابهون في لحظات الاهتمام المشترك. بدا فرانك شبيهًا بفريث مرة أخرى، وهو يحكي القصة من وجهة نظره، كأن الأمر مهم، وكأننا نكثرث. عرفت أنه نزل إلى الشاطئ للبحث عن ماكسيم، وعرفت أنه شعر بالخوف، مثلما شعرت أنا. والآن، نسينا كل ذلك ونحينا جانبا: حديثنا عبر الهاتف، وقلقنا المشترك، وإصراره على رؤيتي. كل هذا لأن سفينة جنحت على الشاطئ في الضباب.

أتى صبي صغير راكضًا نحونا، وسأل:

- هل سيغرق البحارة؟

قال رجل خفر السواحل:

- لا، لن يغرقوا، إنهم بخير يا بني، فالبحر ساكن مثل ظهر يدي، ولن يتأذى أحد هذه المرة.

قال فرانك:

- لو حدث ذلك الليلة الماضية لما سمعناهم أبدًا. لا بد أننا أطلقنا أكثر من خمسين صاروخًا في عرضنا، إلى جانب كل الأشياء الأخرى الأصغر.

قال رجل خفر السواحل:

- بل كنا سنسمعها بالفعل، وكنا سنرى الوميض ونعرف الاتجاه. ها هو ذا الغطاس يا سيدة دي ويتتر، أترينه وهو يرتدي خوذته؟
- قال الصبي الصغير:
- أريد رؤية الغطاس.
- انحنى فرانك وأشار قائلاً:
- ها هو ذا، ذلك الرجل الذي يرتدي الخوذة هناك، سوف ينزلونه في الماء.
- قال الصبي:
- ألن يغرق؟
- قال رجل خفر السواحل:
- الغطاسون لا يغرقون، حيث يُضخ لهم الهواء طوال الوقت. راقبه وهو يختفي، ها هو ذا.
- تكرر سطح الماء دقيقة، ثم صفا مرة أخرى. قال الصبي الصغير:
- لقد اختفى.
- قلت:
- أين ماكسيم؟
- قال فرانك:
- لقد اصطحب أحد أفراد الطاقم إلى كيريث، حيث فقدَ الرجل عقله وقفز للهرب على ما يبدو عند اصطدام السفينة، ووجدناه متشبثاً بإحدى الصخور هنا تحت الجرف. كان غارقاً بالمياه تمامًا بالطبع، ويرتعش كالهلام. وهو لا يستطيع الحديث ولو بكلمة باللغة الإنجليزية بالطبع، فنزل إليه ماكسيم ووجده يتزف مثل خنزير بسبب خدش أصيب به من الصخور، وتحدث إليه بالألمانية، ثم نادى أحد القوارب ذات المحرك من كيريث، التي كانت تحوم كسمكة قرش جائعة، وذهب معه ليضمد الطبيب جرحه. وإذا حالفه الحظ فسيلحق بالعجوز فيليس وهو يجلس للتو لتناول الغداء.
- قلت:

- متى ذهب؟

قال فرانك:

- لقد ذهب قبل أن تأتي مباشرة، منذ خمس دقائق تقريبًا. أتعجب من أنك لم تري القارب، حيث كان جالسًا في المؤخرة مع ذلك الرجل الألماني. قلت:

- لا بد أنه ذهب بينما كنت أتسلق الجرف.

قال فرانك:

- ماكسيم رائع في أي شيء من هذا القبيل، ودائمًا ما يمد يد العون إذا استطاع. ستجدين أنه سيدعو الطاقم بأكمله إلى ماندري، وسيقدم لهم الطعام، ويمنحهم أسرّة علاوة على ذلك.

قال رجل خفر السواحل:

- هذا صحيح، فأنا أعلم أنه على استعداد للتنازل عن كل ما يملك من أجل أي شخص من قومه، وأتمنى لو كان هناك المزيد مثله في هذه المقاطعة. قال فرانك:

- أجل، يمكننا الاستفادة منهم.

واصلنا التحديق إلى السفينة، وكانت زوارق السحب لا تزال واقفة على مبعده، لكن قارب النجاة استدار وعاد في اتجاه كيريث.

قال رجل خفر السواحل:

- لم يحن دورهم اليوم.

قال فرانك:

- لا، ولا أعتقد أنها مهمة ملائمة لزوارق السحب أيضًا، لكن مقاول تفكيك السفن هو الذي سيجني المال هذه المرة.

حلقت النوارس فوق رؤوسنا مطلقة صيحات كالقطط الجائعة، واستقر بعضها على حواف الجرف، في حين كان بعضها الآخر أكثر جرأة، وركب سطح الماء بجانب السفينة.

خلع رجل خفر السواحل قبعته، ومسح جبهته.
قال:

- يبدو الجو مكتومًا نوعًا ما، أليس كذلك؟
قلت:

- بلى.

انطلق قارب النزهات الذي يحمل الناس الذين في حوزتهم الكاميرا نحو
كيريث، وقال رجل خفر السواحل:
- لقد سئموا.

قال فرانك:

- لا ألوهم، ولا أعتقد أن أي شيء سيحدث لساعات. سيتعين على الغطاس
تقديم تقريره قبل أن يحاولوا تحريكها.
قال رجل خفر السواحل:

- هذا صحيح.

قال فرانك:

- لا أعتقد أن هناك معنى لبقائنا هنا، حيث لا يمكننا فعل أي شيء، وأريد
تناول غدائي.

لم أقل شيئًا، فتردد، وشعرت بعينيه مثبتتين عليّ.
قال:

- ماذا ستفعلين؟

قلت:

- أعتقد أنني سأبقى هنا قليلًا، ويمكنني تناول الغداء في أي وقت، فهو بارد،
ولا يهم. أريد رؤية ما سيفعله الغطاس.

لسبب ما، لم تكن في وسعي مواجهة فرانك في الوقت الحالي. أردت أن
أكون وحدي، أو مع شخص لا أعرفه، مثل رجل خفر السواحل.
قال فرانك:

- لن تري شيئًا، ولن يكون هناك أي شيء لتريه. لماذا لا تعودين وتتناولين الغداء معي؟

قلت:

- لا، لا حقًا...

قال فرانك:

- أوه، حسنًا، أنت تعرفين أين يمكنك العثور عليّ إذا احتجت إليّ. سأكون في المكتب طوال فترة ما بعد الظهر.

قلت:

- حسنًا.

أومأ برأسه إلى رجل خفر السواحل، ونزل من الجرف في اتجاه الخليج. تساءلت عما إذا كنت قد ضايقته، لكن ذلك لم يكن بيدي. سوف تُسوى كل هذه الأمور ذات يوم، يومًا ما. بدا أن الكثير وقع منذ حادثته عبر الهاتف، ولم أرغب في التفكير في أي شيء بعد الآن. أردت الجلوس هناك على الجرف فحسب، والتحديث إلى السفينة.

قال رجل خفر السواحل:

- إنه رجل طيب، السيد كرولي.

قلت:

- أجل.

- كما أنه على استعداد أيضًا للتضحية بأعلى ما يملك من أجل السيد دي وينتر. نعم، أعتقد أنه سيفعل.

كان الصبي الصغير لا يزال يتقافز على العشب أمامنا.

قال:

- متى سيصعد الغطاس إلى السطح مرة أخرى؟

قال رجل خفر السواحل:

- ليس بعد يا بني.

جاءت عبر العشب في اتجاهنا امرأة ترتدي فستانًا ورديًا مخططًا وشبكة شعر، ونادت قائلة:

- تشارلي؟ تشارلي؟ أين أنت؟

قال رجل خفر السواحل:

- ها هي ذي والدتك قادمة لتوبخك.

صاح الصبي:

- لقد رأيت الغطاس يا أمي.

أومأت إلينا المرأة برأسها وابتسمت. لم تكن تعرفني، إذ كانت من المصطافين القادمين من كيريث. قالت:

- يبدو أن الإثارة قد انتهت، أليس كذلك؟ يقولون على الجرف بالأسفل إن السفينة ستظل هناك أيامًا.

قال رجل خفر السواحل:

- إنهم ينتظرون تقرير الغطاس.

قالت المرأة:

- لا أعرف كيف يجعلونهم ينزلون تحت الماء هكذا، يجب أن يدفعوا إليهم جيدًا.

قال رجل خفر السواحل:

- إنهم يفعلون ذلك.

قال الصبي الصغير:

- أريد أن أصبح غطاسًا يا أمي.

قالت المرأة وهي تضحك لنا:

- يجب أن تسأل والدك يا عزيزي.

ثم قالت لي:

- المكان جميل هنا، أليس كذلك؟ أحضرنا غداءً للزهرة، ولم نعتقد قط أن الجو سيتحول إلى ضباب، وسنشاهد حطام سفينة إلى جانب ذلك. كنا

نفكر للتوّ في العودة إلى كيريث، عندما انفجرت الصواريخ تحت أنوفنا، على ما يبدو. كدت أقفز خارجة من جلدي من أثر المفاجأة. قلت لزوجي: «ما هذا؟»، فقال: «هذه إشارة استغاثة، لتتوقف ونشهد المتعة». لا توجد طريقة لإبعاده، فهو سيئ بالقدر نفسه مثل ابني الصغير. عن نفسي، لا أرى أي شيء في الأمر.

قال رجل خفر السواحل:

- لا، لا يوجد الكثير لرؤيته الآن.

قالت المرأة:

- تبدو هذه الغابات هناك جميلة، أعتقد أنها أملاك خاصة.

سعل رجل خفر السواحل بحرج، ونظر إليّ، فبدأت أمضغ قطعة من العشب، وأشحت بعيداً.

قال:

- أجل، كلها منطقة خاصة هناك.

قالت المرأة:

- يقول زوجي إن كل هذه الإقطاعات الكبيرة ستُقسم مع مرور الوقت، وستُبنى مكانها أكواخ. لا مانع لديّ في كوخ صغير لطيف هنا مواجه للبحر، لكنني لا أعتقد أنني سأحب هذه المنطقة في فصل الشتاء.

قال رجل خفر السواحل:

- لا، فالمكان هادئ جداً هنا خلال الشتاء.

واصلت أمضغ قطعة العشب، وظل الصبي الصغير يركض في دوائر. نظر

رجل خفر السواحل إلى ساعته، وقال:

- حسناً، عليّ أن أمضي، عمت مساء!

قدم لي التحية، ثم استدار عائداً عبر الطريق المؤدي إلى كيريث. قالت المرأة:

- هيّا يا تشارلي، تعالّ وابحث عن والدك.

أومأت إليّ على نحو ودي، ثم سارت الهوينى إلى حافة الجرف، والصبي

الصغير يركض في أعقابها، ولوح لها رجل نحيل يرتدي سروالاً كاكياً وسترة مخططة. جلسوا بالقرب من مجموعة من شجيرات الجولق، وبدأت المرأة تفك الرزم الورقية.

تمنيت لو أنني أستطيع فقدان هويتي والانضمام إليهم، وتناول البيض المسلوق وشطائر اللحم المملح، والضحك بصوت مرتفع نوعاً ما، والدخول في محادثاتهم، ثم العودة معهم إلى كيريث عصرًا والتجديف على الشاطئ، والجري في سباقات على امتداد الرمال، ثم الذهاب إلى سكنهم وتناول الجمبري مع الشاي. بدلاً من ذلك، يجب أن أعود وحدي عبر الغابة إلى ماندرلي، وأنتظر ماكسيم. لم أدر ما سيقوله أحدنا للآخر، وكيف سينظر إليّ، وكيف سيكون صوته. بقيت جالسة هناك على الجرف. لم أكن جائعة، ولم أفكر في الغداء.

جاء مزيد من الناس وتجولوا فوق الجروف ليلقوا نظرة على السفينة، وشكّل ذلك إثارة خلال فترة ما بعد الظهر. لم يكن هناك أحد أعرفه، وكانوا جميعاً من المصطافين في كيريث. بدا البحر زجاجياً وهادئاً، ولم تعد النوارس تحلق فوق الرؤوس، بل استقرت على الماء على مسافة قصيرة من السفينة. ظهر مزيد من قوارب النزهة خلال فترة ما بعد الظهر. لا بد أنه كان يوماً مشهوداً بالنسبة إلى ملاحي كيريث. صعد الغطاس إلى السطح، ثم غاص مرة أخرى. ابتعد أحد زوارق السحب، بينما ظل زورق آخر واقفاً. وعاد مدير المرفأ في زورقه الرمادي ذي المحرك، وأخذ معه بعض الرجال والغطاس الذي صعد إلى السطح للمرة الثانية. مال طاقم السفينة على جانبها، وألقوا بقايا الطعام إلى النوارس، بينما جدف الزوّار في قوارب النزهة ببطء حول السفينة. لم يحدث شيء قطّ، وكان الجزر في أدنى مستوياته الآن، والسفينة مائلة بزاوية ومروحتها مكشوفة تماماً. تشكّلت تلال صغيرة من السحب البيضاء في السماء الغربية، وأصبحت الشمس شاحبة، وكان الجو لا يزال حاراً جداً. نهضت المرأة ذات الفستان الوردي المخطط بصحبة الصبي الصغير، وتجولت عبر الطريق في اتجاه كيريث، وتبعهما الرجل ذو السروال القصير حاملاً سلة النزهات.

ألقيت نظرة خاطفة على ساعتني، ووجدتها تجاوزت الثالثة. نهضت ونزلت التل متوجهة إلى الخليج. كان هادئًا ومهجورًا كالعادة، وكان الحصى داكنًا ورماديًا. بدا الماء في المرفأ الصغير زجاجيًا كالمرآة، وأحدثت قدماي صوت انسحاق غريبًا وأنا أعبر فوق الحصى. غطت سلاسل السحب البيضاء السماء كلها فوق رأسي الآن، واختفت الشمس. وعندما وصلت إلى الجانب الآخر من الخليج، رأيت بن جاثمًا بجوار بركة صغيرة بين صخرتين، يحك بعض القواقع البحرية في يده. سقط ظلي على الماء في أثناء مروري، فرفع رأسه ورآني.

انفتح فمه في ابتسامة واسعة، وقال:

- مساء الخير.

نهض واقفًا على قدميه، وفتح منديلًا متسخًا ملأه بالقواقع.

- هل تأكلين القواقع؟

لم أرغب في إيذاء مشاعره، وقلت:

- شكرًا لك.

أفرغ في يدي اثنتي عشرة قوقعة تقريبًا، ووضعنها في جيبني تنورتني. قال:

- إنها طيبة مع الخبز والزبدة، يجب أن تسليقها أولًا.

- نعم، حسنًا.

وقف هناك مبتسمًا لي.

- هل رأيت السفينة؟

- نعم، لقد جنحت على الشاطئ، أليس كذلك؟

- ماذا؟

كررت قائلة:

- لقد جنحت، وأعتقد أن بها ثقبًا في مؤخرتها.

صار وجهه خاليًا من التعبير، وبدت عليه البلاهة، وقال:

- أجل، إنها هناك بالفعل، ولن تعود مرة أخرى.

- ربما تتجسج زوارق السحب في تعويمها حينما يأتي المد.
لم يرد، وحقق إلى اتجاه السفينة العالقة. كانت في إمكاني رؤية مقدمتها من
هنا، وظهر القسم المغمور تحت الماء والمطلي باللون الأحمر متبايناً مع اللون
الأسود للجزء العلوي، ومالت المدخنة الوحيدة بلامبالاة في اتجاه الجروف
الصخرية خلفها. كان الطاقم لا يزال يميل على جانبها لإطعام النوارس، ويحرق
إلى الماء، وتراجعت زوارق التجديف عائدة إلى كيريث.
قال بن:

- إنها هولندية، أليس كذلك؟
- لا أعرف، ألمانية أم هولندية.
- ستتحطم هناك في مكانها.
- أخشى ذلك.
ابتسم ابتسامة عريضة مرة أخرى، ومسح أنفه بظهر يده.
قال:

- ستتحطم شيئاً فشيئاً، ولن تغرق كصخرة مثل تلك الصغيرة.
ضحك لنفسه ونظف أنفه بإصبعه. لم أقل شيئاً، فواصل الحديث:
- لقد أكلتها الأسماك الآن، أليس كذلك؟
- مَنْ؟

أشار بإبهامه تجاه البحر، وقال:
- هي، تلك الأخرى.
- الأسماك لا تأكل السفن البخارية يا بن.
- ماذا؟

وحقق إليّ ببلاهة ووجهه خالٍ من التعبير مرة أخرى.
قلت:

- يجب أن أذهب إلى المنزل الآن، طاب مساؤك.
تركته وسرت نحو الطريق الذي يمر عبر الغابة. لم أنظر إلى الكوخ، لكنني

كنت واعية بوجوده على يميني، رمادياً وهادئاً. توجهت إلى الطريق مباشرة، وصعدت من بين الأشجار. توقفت للراحة في منتصف الطريق ونظرت عبر الأشجار، وكانت لا تزال في إمكاني رؤية السفينة العالقة وهي تميل نحو الشاطئ. اختفت جميع قوارب النزهة، وحتى الطاقم اختفى بالأسفل. غطت سلاسل السحب السماء بأكملها، وتحركت ريح خفيفة من العدم وهبت في وجهي. سقطت في يدي ورقة من شجرة بالأعلى، وارتجفت من دون سبب. ثم عادت الريح مرة أخرى، وكان الجو حاراً وقائظاً كما كان من قبل. بدت السفينة مهجورة هناك على جانبها، ولم يكن هناك أحد على سطحها، ومدخنتها السوداء الرفيعة تشير إلى الشاطئ. كان البحر هادئاً إلى درجة أنه عندما تكسر على الحصى في الخليج بدا مثل الهمس، صامتاً وساكناً. استدرت مرة أخرى إلى الطريق المنحدر عبر الغابة، وساقاي مترددتان، ورأسي يشعر بالدوار، وفي قلبي شعور غريب ينذر بالخطر.

بدا المنزل ساكناً جداً عندما وصلت إليه من الغابة وعبرت المروج. بدا محمياً ومصوناً، وأجمل من أي وقت رأيته فيه من قبل. بينما أنا واقفة هناك، أطل عليه من فوق الضفة، أدركت، ربما لأول مرة، بشعور غريب من الحيرة والفخر أنه منزلي، وأنني أنتمي إليه، وأن ماندري ملك لي. انعكست الأشجار والعشب وأحواض الزهور على الشرفة في النوافذ المقسمة، وتصاعد في الهواء عمود رقيق من الدخان من إحدى المداخل، وبدت رائحة العشب المجزوز حديثاً عذبة كالتبين. انطلق شحورور يغني فوق شجرة الكستناء، وطارت فراشة صفراء أمامي بحماقة في الطريق إلى الشرفة.

ولجت الردهة، وتوجهت إلى غرفة الطعام، حيث كان مكاني لا يزال جاهزاً، لكن تم إخلاء مكان ماكسيم. كان اللحم البارد والسلطة في انتظاري على طاولة جانبية، وترددت، ثم قرعت جرس غرفة الطعام، فأتى روبرت من وراء الستار.

قلت:

- هل أتى السيد دي وينتر؟

قال روبرت:

- نعم يا سيدتي، جاء بعد الثانية بقليل، وتناول غداءً سريعاً، ثم خرج مرة أخرى. لقد سألت عنك، وقال فريث إنه يعتقد أنك نزلت لرؤية السفينة.

- هل قال متى سيعود مرة أخرى؟

- لا يا سيدتي.

- ربما ذهب إلى الشاطئ من طريق آخر، وقد تكون فاتتني رؤيته.

قال روبرت:

- أجل يا سيدتي.

نظرت إلى اللحم البارد والسلطة، وشعرت بأن معدتي خالية، لكنني لم أكن جائعة. لم أرغب في تناول اللحم البارد الآن. قال روبرت:

- هل ستتناولين الغداء؟

- لا، لا، يمكنك أن تحضر لي الشاي في المكتبة يا روبرت. ولا أريد شيئاً

من قبيل الكعك أو الفطائر، بل مجرد الشاي والزبد والخبز.

- نعم يا سيدتي.

ذهبت وجلست على المقعد المجاور للنافذة في المكتبة. بدا الأمر غريباً من دون جاسبر، لا بد أنه ذهب مع ماكسيم. رقدت الكلبة العجوز نائمة في سلتها، والتقطت صحيفة «التايمز» وقلبت الصفحات من دون قراءتها. بدا شعور تمضية الوقت على هذا النحو غريباً، مثل الجلوس في غرفة الانتظار عند طبيب الأسنان. كنت أعلم أنني لن أستقر أبداً كي أنشغل بالحياكة أو بكتاب، بل كنت أنتظر حدوث شيء ما، شيء غير متوقع. اجتمع رعب الصباح والسفينة العالقة وعدم تناول أي غداء، لتولد إحساساً كامناً بالإنارة في ذهني لم أفهمه. بدا الأمر كأنني دخلت مرحلة جديدة من حياتي، ولن يعود أي شيء على حاله مرة أخرى. خلفت ورائي تلك الفتاة التي ارتدت زياً تنكرياً للحفل الراقص في الليلة السابقة، وحدث كل ذلك منذ وقت طويل جداً. كانت هذه الجالسة على المقعد بجوار

النافذة شخصية جديدة، ومختلفة... أحضر روبرت الشاي، وأكلت الخبز والزبدة بنهم. جلب بعض الفطائر أيضًا، وبعض الشطائر، وكعكة ملاك. لا بد أنه اعتقد أنه من المهيمن إحضار الخبز والزبدة فقط، كما أن ذلك لم يكن النظام المتبع في ماندري. سررت لوجود الفطائر وكعك الملاك، وتذكرت أنني لم أتناول سوى الشاي البارد فقط في الساعة الحادية عشرة والنصف، ولم أتناول وجبة الإفطار. بعد أن تناولت الكوب الثالث، جاء روبرت مرة أخرى. قال:

- السيد دي وينتر لم يعد بعد، أليس كذلك يا سيدتي؟

- نعم، لماذا؟ هل هناك من يريده؟

- نعم يا سيدتي، إنه النقيب سيرل، مدير مرفأ كيريث، على الهاتف. إنه يريد أن يعرف ما إذا كان يمكنه أن يأتي ويرى السيد دي وينتر شخصيًا.

- لا أعرف ماذا أقول، فقد لا يعود قبل وقت طويل.

- لا يا سيدتي.

- من الأفضل أن تخبره بأن يعاود الاتصال مرة أخرى في الساعة الخامسة.

خرج روبرت من الغرفة، وعاد مرة أخرى في غضون بضعة دقائق.

قال روبرت:

- يود النقيب سيرل أن يراك، إذا كان ذلك مناسبًا يا سيدتي. يقول إن الأمر عاجل إلى حد ما، وقد حاول الوصول إلى السيد كرولي، لكنه لم يلق ردًا.

قلت:

- نعم بالطبع يجب أن أراه إذا كان الأمر عاجلاً. أخبره بأن يأتي على الفور

إذا كان يحب. هل لديه سيارة؟

- نعم، أعتقد ذلك يا سيدتي.

خرج روبرت من الغرفة، وتساءلت عما يجب أن أقوله للنقيب سيرل. قد

يكون الموضوع الذي سيأتي من أجله شيئًا ما له علاقة بالسفينة العالقة. لم أفهم ما شأن ماكسيم بالموضوع. كان الأمر سيختلف لو أن السفينة جنحت في

الخليج، حيث كان ذلك تابعًا لماندري، وقد يتعين عليهم طلب إذن ماكسيم لتفجير الصخور أو أيّ كان ما يقومون به لتحريك السفينة. لكن الخليج المفتوح وسلسلة الصخور الواقعة تحت الماء لم يكونا ملكًا لماكسيم. سيضيع النقيب سيرل وقته في التحدث إليّ بشأن كل ذلك.

لا بد أنه ركب سيارته على الفور بعد أن تحدث إلى روبرت، لأنه اقتيد إلى الغرفة بعد أقل من ربع ساعة.

كان لا يزال يرتدي زيه الرسمي، كما رأيته من خلال النظارة المعظمة في وقت مبكر من عصر اليوم. نهضت عن المقعد المجاور للنافذة، وصافحته قائلة: - آسفة لأن زوجي لم يعد بعدُ يا نقيب سيرل، لا بد أنه نزل إلى الجروف الصخرية مرة أخرى، كما ذهب إلى كيريث قبل ذلك، ولم أره طوال اليوم. قال مدير المرفأ:

- نعم، سمعت أنه ذهب إلى كيريث، لكن فاتني لقاءه هناك، لا بد أنه عاد سيرًا عبر الجروف الصخرية حينما كنت في قاربي، كما لم أتمكن من الوصول إلى السيد كرولي أيضًا.

قلت:

- أخشى أن السفينة تسببت في إرباك الجميع. خرجت إلى الجروف وبقيت من دون غداء، وأعرف أن السيد كرولي كان هناك في وقت سابق. ماذا سيحدث للسفينة؟ هل تعتقد أن زوارق السحب ستخرجها؟

أشار النقيب سيرل بيديه ورسم دائرة كبيرة، وقال:

- هناك ثقب بهذا الحجم في مؤخرتها، ولن ترى هامبورج مرة أخرى. دعك من السفينة، فسوف يسوي مالکها ووكيل شركة لويديز للتأمين الأمر بينهما. لا يا سيدة دي وينتر، ليست السفينة هي التي قادتني إلى هنا. إنها السبب في مجيئي على نحو غير مباشر بالطبع، لكن الحقيقة هي أن لديّ بعض الأخبار للسيد دي وينتر، ولا أكاد أعرف كيف أنقلها إليه.

نظر إليّ مباشرة بعينه الزرقاوين اللامعتين.

- أي نوع من الأخبار يا نقيب سيرل؟
أخرج من جيبه منديلاً أبيض كبيراً، ومسح أنفه.
- حسناً يا سيدة دي ويتتر، لا أجد إبلاغك أنت أيضاً بالأمر شيئاً لطيفاً للغاية.
آخر شيء أريد أن أفعله هو أن أتسبب في أي ضيق أو ألم لك ولزوجك.
جميعنا في كيريث نحب السيد دي ويتتر جداً، كما تعلمين، ولطالما قدمت
الأسرة الكثير من الخير. من الصعب بالنسبة إليه وإليك أننا لا نستطيع أن
ندع الماضي يرقد في هدوء، لكنني لا أرى كيف يمكننا ذلك في ظل هذه
الظروف.

توقف عن الحديث، وأعاد منديله إلى جيبه، ثم خفض صوته على الرغم من
أننا كنا وحدنا في الغرفة.
قال:

- لقد أرسلنا الغطاس لتفقد قاع السفينة، وبينما كان هناك، اكتشف شيئاً ما.
يبدو أنه وجد الفتحة في قاع السفينة، ودار إلى الجانب الآخر ليرى باقي
الأضرار التي وقعت عندما عثر على هيكل قارب إبحار صغير ملقى على
جانبه، سليم تماماً ولم يتحطم قط. إنه رجل محلي، بالطبع، وتعرف على
القارب في الحال. كان القارب الصغير الذي تملكه السيدة دي ويتتر
الراحلة.

أول ما شعرت به هو الامتنان، لأن ماكسيم لم يكن موجوداً كي يسمع ذلك.
بدأت هذه الضربة الجديدة التي أتت سريعاً في أعقاب زبي التنكري الليلة الماضية
مشيرة للسخرية، ومروعة نوعاً ما. قلت بتمهل:

- أنا آسفة جداً، فهذا ليس شيئاً يتوقع المرء حدوثه. هل من الضروري إخبار
السيد دي ويتتر؟ ألا يمكن ترك القارب هناك كما هو؟ إنه لا يتسبب في أي
ضرر، أليس كذلك؟

- كان سيترك يا سيدة دي ويتتر، في الظروف العادية، وأنا آخر رجل في العالم
يرغب في تحريكه، وسأقدم أي شيء كما قلت من قبل، لتجنيب السيد دي

وينتر الشعور بالأذى. لكن هذا لم يكن كل شيء يا سيدة دي وينتر، فقد بحث الرجل التابع لي حول القارب الصغير، ووقع على اكتشاف آخر أشد أهمية. كان باب الكابينة مغلقاً بإحكام، ولم يكن محطماً، كما كانت النوافذ مغلقة أيضاً، فكسر إحدى النوافذ بحجر من قاع البحر ونظر داخل الكابينة. كانت مليئة بالمياه، ولا بد أن الماء قد تسرب من ثقب ما في القاع، فلم يبدُ أن هناك ضرراً في أي مكان آخر، وبعد ذلك أصيب بأكبر صدمة في حياته، يا سيدة دي وينتر.

توقف النقيب سيرل عن الحديث، والتفت وراءه كما لو أن أحد الخدم قد يسمعه، وقال بصوت خفيض:

- كانت هناك جثة ملقاة على أرضية الكابينة، وكانت متحللة بالطبع، ولم يبقَ عليها أي لحم، لكنها كانت جثة بالفعل، حيث رأى الرأس والأطراف، وصعد إلى السطح، ثم أبلغني بذلك مباشرة. والآن ها قد فهمت يا سيدة دي وينتر، لماذا عليّ أن أرى زوجك.

حدقت إليه بارتباك في بادئ الأمر، ثم شعرت بالصدمة، ثم بالاعتلال إلى حدٍّ ما.

همست قائلة:

- ألم يكن من المفترض أنها أبحرت وحدها؟ يبدو أنه كان هناك شخص بصحبته إذن، طوال ذلك الوقت، ولم يعرف أحد قطُّ؟

قال مدير المرفأ:

- يبدو ذلك.

قلت:

- مَنْ يحتمل أن يكون؟ بالتأكيد سيعرف الأقارب إذا كان هناك شخص مفقود؟ ثار الكثير عن ذلك الموضوع حينها، ونُشر كل شيء في الصحف. لماذا كان أحدهما في الكابينة، في حين عُثِر على السيدة دي وينتر نفسها على بُعد أميال عديدة، بعد ذلك بأشهر؟

هز النقيب سيرل رأسه، وقال:

- لا أعرف أكثر مما تعرفين أنت، كل ما نعرفه هو أن الجثة موجودة ويجب الإبلاغ عنها. سيداع الموضوع على ما أخشى يا سيدة دي وينتر، ولا أدري كيف ستتجنب ذلك. الأمر شاق جدًا بالنسبة إليك وإلى السيد دي وينتر، فها أنتما أولاء مستقران في هدوء، وتريدان أن تنعما بالسعادة، ثم وقع هذا الأمر.

عرفت الآن سبب إحساسي الذي ينذر بالخطر. لم تكن السفينة العالقة هي المشؤومة، ولا النوارس التي تصيح، ولا المدخنة السوداء الرفيعة التي تشير في اتجاه الشاطئ، بل كان سكون المياه السوداء، والأشياء المجهولة الراقدة تحتها. كان الغطاس الذي نزل إلى تلك الأعماق الهادئة الباردة، وعثر على قارب ريبيكا ورفيق ريبيكا الميت. وقد لمس القارب، ونظر داخل الكابينة، بينما أنا جالسة طوال الوقت على الجرف من دون أن أعرف.

قلت:

- ليتنا لم نكن مضطرين إلى إخباره، وليتنا نستطيع إخفاء الأمر برمته عنه.

قال مدير المرفأ:

- أنت تعلمين أنني كنت سأفعل في حال إذا كان ذلك ممكنًا، يا سيدة دي وينتر، لكن يجب تنحية مشاعري الشخصية في مسألة كهذه. عليّ أداء واجبي، ويجب أن أبلغ عن تلك الجثة.

قطع حديثه عندما انفتح الباب، ودخل ماكسيم الغرفة.

قال:

- مرحبًا، ما الذي يدور؟ لم أعلم أنك موجود هنا أيها النقيب سيرل. هل هناك خطب ما؟

لم أستطع أن أتحمل أكثر من ذلك، فخرجت من الغرفة كالجبانة، وأغلقت ورائي الباب. لم أكن قد ألقيت ولو نظرة سريعة على وجه ماكسيم حتى، وراودني انطباع غامض بأنه بدا متعبًا، وغير مهندم، ومن دون قبعة.

ذهبت ووقفت في الردهة، عند الباب الأمامي. كان جاسبر يشرب بصخب من وعائه، وهز ذيله عندما رأيته وواصل الشرب. ثم اندفع نحوي ووقف يضرب ثوبي بقوائمه، فقَبَلَتْ أعلى رأسه، وذهبت للجلوس على الشرفة. لقد حانت لحظة الأزمة، وعليّ أن أواجهها. يجب التغلب الآن على مخاوفي القديمة، وحرجي، وخجلي، وإحساسي اليأس بالدونية، وإبعاد كل ذلك جانبًا. إذا فشلت الآن، فسأفشل إلى الأبد، ولن تكون هناك فرصة أخرى أبدًا. صليت طلبًا للشجاعة على نحو أعمى يائس، وضغطت يدي بأظفاري. جلست هناك خمس دقائق أحرق إلى المروج الخضراء وأحواض الزهور على الشرفة، ثم سمعت سيارة تدور في الممر. لا بد أنه النقيب سيرل، أبلغ أخباره إلى ماكسيم، ثم رحل. نهضت عن الشرفة، وعبرت الردهة ببطء متوجهة نحو المكتبة. ظللت أقلب في جيبتي القواقع التي أعطاني إياها بن، وأمسكتها بقوة في يدي.

وقف ماكسيم بجانب النافذة، موليًا إليّ ظهره. انتظرت عند الباب، ومع ذلك لم يلتفت. أخرجت يدي من جيبتي وذهبت ووقفت بجانبه. مددت يدي وأخذت يده، ووضعتها على وجنتي، لكنه لم يقل شيئًا، وظل واقفًا هناك.

همست قائلة:

- أنا آسفة جدًا، آسفة جدًا جدًا.

لم يرد، وكانت يده باردة كالثلج، فقَبَلَتْ ظهرها، ثم الأصابع، واحدة تلو واحدة، وقلت:

- لا أريدك أن تتحمل هذا الأمر وحدك، بل أريد مشاركته معك. لقد نضجت يا ماكسيم، في أربع وعشرين ساعة، ولن أعود طفلة مرة أخرى.

أحاطني بذراعه، وجذبني إليه بقوة، زال شعوري بالتحفظ والخجل أيضًا، ووقفت هناك ووجهي على كتفه، وقلت:

- لقد سامحتني، أليس كذلك؟

تحدث إليّ أخيرًا، وقال:

- سامحك؟ علامَ يجب أن أسامحك؟
- الليلة الماضية، ظننت أنني فعلت ذلك عن عمد.
- آه، هذا، لقد نسيت. كنت غاضبًا منك، أليس كذلك؟
- بلى.

لم يقل شيئًا آخر، وظل يحتضني بالقرب من كتفه. قلت:

- ماكسيم، ألا يمكننا أن نبدأ من جديد؟ ألا يمكننا أن نبدأ من اليوم، ونواجه الأمور معًا؟ لا أريدك أن تحبني، ولن أطلب أشياء مستحيلة. سأكون صديقتك، ورفيقتك، كأني صبي نوعًا ما. لا أريد أكثر من ذلك أبدًا.
- أخذ وجهي بين يديه وتأملني، ورأيت لأول مرة كم كان وجهه نحيفًا، وكم كان متوترًا وتخطه التجاعيد، كما كانت هناك حالات كبيرة أسفل عينيه.

قال:

- كم تحبيني؟

لم أستطع الإجابة، ولم يكن في إمكاني سوى التحديق إليه، في عينيه الداكنتين المعذبتين، ووجهه الشاحب المتوتر.

قال:

- لقد فات الأوان يا حبيبتي، فات الأوان، وفقدنا فرصتنا الضئيلة في السعادة.

- لا يا ماكسيم، لا.

- أجل، لقد انتهى كل شيء الآن، وحدث ما حدث.

- ما الذي حدث؟

- الشيء الذي توقعته دائمًا، الشيء الذي حلمت به، يومًا بعد يوم، وليلة بعد ليلة. إن السعادة ليست مقدرة لنا، أنا وأنت.

جلس على المقعد المجاور للنافذة، وجثوث أمامه، ويدي على كتفيه.

قلت:

- ما الذي تحاول أن تخبرني به؟

وضع يديه على يدي ونظر في وجهي، وقال:

- لقد فازت ريبिका.

حدقت إليه وقلبي يخفق على نحو غريب، وصارت يداي باردتين فجأة تحت يديه.

قال:

- إن ظلها بيننا طوال الوقت، ظلها اللعين يحُول بيننا، فكيف يمكنني أن أحضنك هكذا يا حبيبتي، يا حبي الصغير، وقلبي يسكنه دائماً الخوف من حدوث هذا؟ تذكرت عينيها وهي تنظر إليّ قبل أن تموت، وتذكرت تلك الابتسامة المتأنية الغادرة. كانت تعلم أن هذا سيحدث، حتى في ذلك الوقت، وكانت تعلم أنها ستفوز في النهاية.

همست:

- ماكسيم، ماذا تقول، وماذا تحاول أن تخبرني؟

- قاربها، لقد وجدوه. عثر عليه الغطاس عصر اليوم.

- نعم، أعرف ذلك، جاء النقيب سيرل ليخبرني. أنت تفكر في الجثة، أليس

كذلك؟ الجثة التي وجدها الغطاس في الكابينة؟

- أجل.

- هذا يعني أنها لم تكن وحدها. هذا يعني أنه كان هناك شخص ما يبحر مع

ريبिका في ذلك الوقت، وعليك أن تعرف مَنْ كان. هذا هو الأمر، أليس

كذلك يا ماكسيم؟

- نعم، نعم، أنت لا تفهمين.

- أريد أن أشاركك هذا الأمر يا عزيزي، وأريد مساعدتك.

- لم يكن هناك أحد مع ريبिका، كانت وحدها.

جثوث هناك أراقب وجهه، وأراقب عينيهِ.

قال:

- إن جثة ريبिका هي الملقاة هناك على أرضية الكابينة.

- لا، لا.

- المرأة المدفونة في السرداب ليست ريبिका، بل هي جثة امرأة مجهولة، لم يطالب بها أحد، ولا تنتمي إلى أي مكان. لم يقع أي حادث قطُّ، ولم تغرق ريبिका على الإطلاق. لقد قتلتها، أطلقت النار على ريبिका في الكوخ عند الخليج، وحملت جثتها إلى الكابينة، وخرجت بالقارب في تلك الليلة وأغرقت هناك، حيث وجدوه اليوم. إنها ريبिका التي ترقد ميتة هناك على أرضية الكابينة. هل ستنظرين في عيني الآن، وتخبريني بأنك تحبينني؟

ساد الصمت الشديد في المكتبة، وكان الصوت الوحيد هو صوت جاسبر وهو يلحق قدمه. لا بد أنه أصيب بشوكة في قدمه، لأنه ظل يعض الجلد ويمصه. ثم سمعت صوت الساعة على معصم ماكسيم وهي تدق بالقرب من أذني: الأصوات العادية الصغيرة للحياة اليومية. ومن دون أي سبب، تردد في ذهني ذلك المثل الغبي الذي يعود إلى أيام الدراسة: «إن الوقت والمد لا ينتظران إنسانًا»، وتكررت الكلمات مرارًا وتكرارًا، «إن الوقت والمد لا ينتظران إنسانًا». كانت هذه هي الأصوات الوحيدة حينها: دقات ساعة ماكسيم، وجاسبر يلحق قدمه على الأرض بجانبه.

عندما يعاني الناس صدمة عظيمة، مثل الموت أو فقدان أحد الأطراف، أعتقد أنهم لا يشعرون بها فحسب في بادئ الأمر. إذا فقدت يدك من دون أن تعرف لبضع دقائق أن يدك اختفت، يستمر شعورك بالأصابع، وتمدها وتحركها في الهواء، واحدة تلو واحدة، بينما طوال الوقت لا يوجد شيء هناك، لا يد ولا أصابع. جثوث بجانب ماكسيم، وجسدي ملتصق بجسده، ويدي على كتفيه، ولم أحس بأي مشاعر على الإطلاق، لا ألم ولا خوف، ولم يكن هناك رعب في قلبي. فكرت كيف يجب أن أخرج الشوكة من قدم جاسبر، وتساءلت إذا كان روبرت سيأتي ويزيل أغراض الشاي. بدا غريبًا بالنسبة إليّ أن أفكر في هذه الأشياء، قدم جاسبر وساعة ماكسيم وروبرت وأغراض الشاي. صدمت من قلة انفعالي، ومن غياب الشعور بالكرب على هذا النحو البارد الغريب.

قلت لنفسي إن الشعور سيعود إليّ شيئًا فشيئًا، وإنني سوف أفهم شيئًا فشيئًا، وبالنسبة إلى كل ما قاله لي وكل ما حدث، فسوف يسقط كل شيء في مكانه مثل قطع الأحجية، ويتراكب معًا ليشكل نمطًا. لكن في الوقت الحالي، أنا لا شيء، وليس لديّ قلب ولا عقل ولا حواس، أنا مجرد شيء خشبي بين ذراعي ماكسيم. عندئذٍ، بدأ يقبّلني، ولم يسبق أن قبّلني هكذا من قبل، فوضعت يدي خلف رأسه وأغمضت عيني.

همس قائلاً:

- أحبك كثيرًا، كثيرًا.

فكرت أن هذا هو ما أردته أن يقوله، في كل يوم وكل ليلة، وها هو ذا يقولها أخيرًا. هذا هو ما تخيلته في مونت كارلو، وفي إيطاليا، وهنا في ماندري. ها هو ذا يقولها الآن. فتحت عيني، ونظرت إلى بقعة صغيرة من الستارة فوق رأسه. استمر في تقبيلي بنهم ويأس، وهو يغمغم باسمي، بينما واصلت النظر إلى بقعة الستارة، ورأيت المكان الذي بهتت فيه بفعل الشمس، بحيث صارت أفتح من الجزء الذي فوقها. فكرت: «كم أنا هادئة وباردة، هأنذا أتأمل جزءًا من الستارة، بينما ماكسيم يقبّلني ويخبرني لأول مرة بأنه يحبني».

ثم توقف فجأة، ودفعني بعيدًا عنه، ونهض عن المقعد المجاور للنافذة، وقال: - أرايت؟ كنت على حق، لقد فات الأوان، فأنت لا تحبينني الآن، ولماذا يجب عليك ذلك؟

ذهب ووقف بجانب رف المدفأة، وقال:

- سوف ننسى ذلك، ولن يتكرر ثانية.

غمرني الإدراك في الحال، ووثب قلبي في دعر سريع ومفاجئ، وقلت بسرعة: - لم يفُت الأوان.

ونفضت عن الأرض واتجهت إياه، وأحطته بذراعي قائلة:

- يجب ألا تقول ذلك، أنت لا تفهم، فأنا أحبك أكثر من أي شيء في العالم. لكن عندما قبّلني الآن، كنت في حالة من الذهول والصدمة، ولم أستطع

الشعور بأي شيء، ولم أستطع فهم أي شيء. كان الأمر كأن لم تعد لدي أي مشاعر داخلي على الإطلاق.
قال:

- أنت لا تحبينني، ولهذا السبب لم شعري بأي شيء. أنا أعرف، وأنفهم الأمر، لقد فات الأوان بالنسبة إليك، أليس كذلك؟
- نعم.

- كان يجب أن يحدث هذا قبل أربعة أشهر، وكان يجب أن أعرف، فالنساء لسن مثل الرجال.

- أريدك أن تقبلي مرة أخرى، أرجوك يا ماكسيم.
- لا، لا فائدة الآن.

- لا يمكن أن نخسر بعضنا الآن، يجب أن نكون معًا دائمًا، من دون أسرار ولا ظلال، أرجوك يا حبيبي، أرجوك.

- ليس هناك وقت. قد تكون لدينا بضع ساعات، أو بضعة أيام فقط. كيف يمكننا أن نكون معًا الآن بعد أن حدث هذا؟ لقد أخبرتك بأنهم عثروا على القارب. لقد عثروا على ريبيكا.

حدقت إليه ببلاهة، من دون أن أفهم، وقلت:

- ماذا سيفعلون؟

- سيتعرفون على جثتها، وهناك كل ما يلزم لإخبارهم في الكابينة، الملابس التي كانت لديها، والحذاء، والخواتم في أصابعها. سوف يتعرفون على جثتها، ثم سيتذكرون تلك الأخرى، المرأة المدفونة هناك في السرداب.

همست:

- ماذا ستفعل؟

- لا أعرف، لا أعرف.

بدأ الشعور يعود إليّ شيئًا فشيئًا، كما عرفت أنه سيفعل، ولم تعد يداي باردتين، بل صارتا دافئتين ورطبتين، وشعرت بفيض من الدماء يتدفق إلى وجهي

وحلقي، والتهبت وجنتاي. فكرت في النقيب سيرل، والغطاس، ووكيل شركة لويديز للتأمين، وكل أولئك الرجال على السفينة العالقة المتكئين على جانبها وهم يحدقون إلى الماء. كما فكرت في أصحاب المتاجر بكيريث، والسعاة الذين يصفرون في الشارع، والكاهن وهو يخرج من الكنيسة، والليدي كروان وهي تقص الورد في حديقته، والمرأة ذات الفستان الوردي وابنها الصغير على الجروف الصخرية. سيعرفون قريبًا، في غضون ساعات، بحلول موعد الإفطار غدًا. «لقد عثروا على قارب السيدة دي وينتر، ويقولون إن هناك جثة في الكابينة». جثة في الكابينة. كانت ريبكا ملقاة هناك على أرضية الكابينة، ولم تكن في السرداب قط، بل كانت امرأة أخرى ممددة في السرداب. قتل ماكسيم ريبكا. لم تغرق ريبكا قط، لكن ماكسيم قتلها، وأطلق عليها النار في الكوخ في الغابة. حمل جثتها إلى القارب، وأغرق القارب هناك في الخليج. ذلك الكوخ الرمادي الساكن، والمطر يقطر على السطح. أمطرني قطع الأحجية بسرعة وكثافة، وأومضت الصور المبعثرة في ذهني المتحير، واحدة تلو واحدة: ماكسيم جالس في السيارة بجانبني في جنوب فرنسا، «حدث شيء ما قبل عام غير حياتي برمتها، ويجب أن أبدأ العيش من جديد...». وصمت ماكسيم، وحالات ماكسيم المزاجية، والطريقة التي لم يكن يتحدث بها عن ريبكا على الإطلاق، والطريقة التي لم يذكر بها اسمها بتاتا. وكرهية ماكسيم للخليج والكوخ الحجري، «إذا كانت لديك ذكرياتي فلن ترغبني في الذهاب إلى هناك»، والطريقة التي صعد بها الطريق عبر الغابة من دون النظر خلفه. وماكسيم وهو يذرع جيئة وذهابًا في المكتبة بعد موت ريبكا، جيئة وذهابًا، جيئة وذهابًا. قال للسيدة فان هوبر وقد ظهر ما بين حاجبيه خط رفيع كخييط العنكبوت: «لقد جئت في عجلة نوعًا ما». «يقولون إنه لا يستطيع تجاوز أمر وفاة زوجته». والحفل التكريري الراقص ليلة أمس، وأنا أهبط إلى رأس الدرج مرتدية فستان ريبكا. قال ماكسيم: «لقد قتلت ريبكا. أطلقت النار على ريبكا في الكوخ بالغابة». ووجدها الغطاس ملقاة هناك، على أرضية الكابينة...

قلت:

- ماذا سنفعل؟ ماذا سنقول؟

لم يرد ماكسيم، ووقف هناك بجانب رف المدفأة، وعيناه واسعتان ومحدقتان، ناظرًا أمامه من دون أن يرى شيئًا.

قلت:

- هل يعلم أحد؟ أي شخص على الإطلاق؟

هز رأسه، وقال:

- لا.

- لا أحد سواي أنا وأنت؟

- لا أحد سواي أنا وأنت.

قلت فجأة:

- فرانك، هل أنت متأكد أن فرانك لا يعرف؟

قال ماكسيم:

- كيف يمكنه أن يعرف؟ لم يكن هناك أحد سواي، وكان الظلام...

توقف عن الحديث، وجلس على كرسي، ورفع يده إلى جبهته. ذهب
وجثوث بجانبه، وظل ساكنًا جدًا لحظة، حتى رفعت يديه عن وجهه ونظرت
في عينيه، وهمست:

- أحبك، أحبك، هل تصدقني الآن؟

قبّل وجهي ويدي، أمسك يدي بقوة مثل طفل يحاول اكتساب الثقة.

قال:

- ظننت أنني سأفقد عقلي، وأنا جالس هنا، يومًا بعد يوم، في انتظار حدوث
شيء ما. جلست إلى المكتب هناك، أرد على رسائل التعاطف الرهيبة تلك،
والإخطارات في الصحف، والمقابلات، وكل التداعيات الصغيرة للوفاة.
تناولت الطعام والشراب، وحاولت أن أكون طبيعيًا، وحاولت أن أكون
عاقلاً. وكان هناك فريث، والخدم، والسيدة دانفرز، السيدة دانفرز التي لم

تكن لديّ الشجاعة لصرفها من العمل، لأن معرفتها برييكا ربما دفعتها إلى الشك، وربما خمنت... وفرانك، دائماً بجاني، وكتوم، ومتعاطف، كان يقول: «لماذا لا تباعد؟ يمكنني تدبير الأمر هنا. عليك أن تأخذ إجازة». وجايلز، وبي، العزيزة المسكينة بي التي تفتقر إلى اللباقة: «إنك تبدو مريضاً على نحو مخيف، ألا يمكنك الذهاب لرؤية الطبيب؟». كان عليّ أن أواجههم جميعاً، هؤلاء الناس، وأنا أعلم أن كل كلمة تفوهت بها كانت كذبة.

ظلمت أمسك يديه بقوة، وملت نحوه مقتربة منه بشدة، وتابع قائلاً:

- كدت أخبرك ذات مرة، في ذلك اليوم عندما ركض جاسبر إلى الخليج، وذهبت أنت إلى الكوخ بحثاً عن خيط. كنا جالسين هنا، هكذا، ثم أتى فريث وروبرت ومعهما الشاي.

- نعم، أتذكر، لماذا لم تخبرني؟ لقد ضيعنا وقتاً كان يمكننا قضاؤه معاً، كل هذه الأسابيع والأيام.

- كنت منعزلة للغاية، دائماً ما تتجولين في الحديقة مع جاسبر، وتنطلقين وحدك، ولم تأت إليّ هكذا من قبل.

همست:

- لماذا لم تخبرني؟ لماذا لم تخبرني؟

- اعتقدت أنك تعيسة وتشعرين بالملل، فأنا أكبر منك سنّاً بكثير، وبدا أن لديك ما تقولينه لفرانك أكثر مما قلته لي على الإطلاق. كان سلوكك معي غريباً، وبدوت محرجة وخجولاً.

- كيف كنت سأتي إليك وأنا أعلم أنك تفكر في رييكا؟ كيف أطلب منك أن تحبني وأنا أعلم أنك لا تزال تحب رييكا؟

جذبني إليه وتأمل عيني، وقال:

- عمّ تتحدثين؟ ماذا تقصدين؟

جثوت بجانبه مباشرة، وقلت:

- كلما لمستني، ظننت أنك تقارني برييكا، وكلما تحدثت إليّ أو نظرت إليّ، أو مشيت معي في الحديقة، أو جلست لتناول العشاء، شعرت بأنك تقول لنفسك: «كنت أفعل هذا مع ريبيكا، وهذا، وهذا».

حقوق إليّ في حيرة كأنه لم يفهم، فقلت:

- كان هذا صحيحًا، أليس كذلك؟

- يا إلهي.

دفعني بعيدًا ونهض، وبدأ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا وقد شبك يديه ببعضهما.

قلت:

- ماذا هناك؟ ما الخطب؟

التفت ونظر إليّ وأنا جالسة هناك متكومة على الأرض، وقال:

- هل اعتقدت أنني أحببت ريبيكا؟ هل ظننت أنني قتلتها وأنا أحبها؟ لقد كرهتها، وأؤكد لك ذلك. كان زواجنا مسرحية هزلية، منذ البداية. كانت خبيثة، ولعينة، وفاسدة حتى النخاع. لم يحب أحدنا الآخر قط، ولم نعلم بلحظة واحدة من السعادة معًا على الإطلاق. كانت ريبيكا عاجزة عن الحب والحنان والاحتشام، ولم تكن طبيعية حتى.

جلست على الأرض أحرق إليه وأنا ممسكة ركبتي، وتابع قائلاً:

- كانت ذكية بالطبع، فائقة الذكاء، ولم يكن أي أحد يقابلها ليخمن أنها ليست أكثر شخص في العالم لطفًا وكرمًا وموهبة. كانت تعرف بالضبط ما تقوله للأشخاص المختلفين، وكيف تجعل مزاجها يوافق مزاجهم. لو قابلتك، كانت ستخرج معك إلى الحديقة عاقدة ذراعها بذراعك، وتنادي جاسبر وهي تتحدث إليك عن الزهور والموسيقى والرسم، وأيّ ما كان الذي تعرف أنه هوايتك الخاصة، وكنت ستخضعين مثل الباقين، وكنت ستجلسين عند قدميها وتعبدنيها.

جيئة وذهابًا، ذرع أرضية المكتبة جيئة وذهابًا.

قال:

- عندما تزوجتها، قيل لي إنني أوفر الرجال حظاً في العالم. كانت جميلة جداً، وبارعة جداً، ومسلية بشدة. وحتى جدتي، أكثر شخص يصعب إرضاءه في تلك الأيام، أحبَّتها منذ البداية، وقالت لي: «لديها الأشياء الثلاثة التي تهم في الزوجة: حسن التنشئة، والعقل، والجمال». وقد صدقتها، أو أجبرت نفسي على تصديقها. لكن طوال الوقت كانت لديّ في ذهني بذرة من الشك، إذ كان هناك شيء ما في عينيها...

اجتمعت قطع الأحجية، قطعة قطعة، وتشكَّلت أمامي هيئة ريبيكا الحقيقية، وخرجت من عالم الظلال الذي تسكنه كما تخرج شخصية حية من إطار صورة: ريبيكا وهي تجلد حصانها، ريبيكا وهي تنتزع ما تريده من الحياة بكلتا يديها، ريبيكا وهي منتصرة، وتميل من شرفة العازفين وعلى شفيتها ابتسامة.

رأيت نفسي مرة أخرى واقفة على الشاطئ بجانب بن المسكين المذهول، وهو يقول: «أنت لطيفة، لست مثل تلك الأخرى. لن تضعيني في مصحة عقلية، أليس كذلك؟». كانت هناك امرأة تسير في الغابة ليلاً، امرأة طويلة ونحيلة، وكانت تعطيك انطباعاً بأنها ثعبان... لكن ماكسيم كان لا يزال يتحدث. أخذ ماكسيم يذرع المكتبة جيئة وذهاباً، وقال:

- كشفت أمرها في الحال، بعد خمسة أيام من زواجنا. هل تذكرين تلك المرة التي اصطحبتك فيها بالسيارة إلى التلال فوق مونت كارلو؟ أردت أن أقف هناك مرة أخرى، لأتذكر. جلست هناك ضاحكة، وشعرها الأسود يطير في الريح، وأخبرتني عن نفسها. حكّت لي أشياء لن أكررها أبداً أمام كائن حي. عرفت حينها ما اقترفته، وطبيعة الكائن الذي تزوجته. الجمال والعقل وحسن التنشئة، رباه!

انقطع عن الحديث فجأة، وذهب ليقف بجانب النافذة، ناظرًا إلى المروج. شرع في الضحك، ووقف هناك وهو يضحك، فلم أستطع تحمُّل ذلك، حيث أصابني بالخوف والاعتلال. لم أتحمَّل الأمر.

صحت قائلة:

- ماكسيم! ماكسيم!

أشعل سيجارة ووقف يدخن من دون أن يتفوه بكلمة. ثم أشاح بعيداً مرة أخرى، وشرع يذرع المكتبة ثانية، وقال:

- كدت أقتلها حينها. كان الأمر في غاية السهولة: خطوة واحدة خطأ، وزلة واحدة. أنت تذكرين تلك الهاوية. لقد أخفكتك، أليس كذلك؟ ظننت أنني مجنون، وربما كنت كذلك. ربما أنا كذلك بالفعل. فهذا لا يساعد في الحفاظ على العقل، أليس كذلك، كون المرء يعيش مع شيطان. جلست أراقبه، جيئةً وذهاباً، جيئةً وذهاباً. قال:

- عقدت معي صفقة هناك، على حافة الهاوية، وقالت لي: «سوف أدير لك منزلك، وسأعنتي بماندرلي الثمين ذاك، وسأجعله أشهر منزل جميل في البلاد بأكملها إذا شئت، وسيزورنا الناس ويحسدوننا ويتحدثون عنا. سيقولون إننا الزوجان الأكثر حظاً وسعادة وجمالاً في جميع أنحاء إنجلترا. يا لها من خدعة يا ماكس! يا له من انتصار لعين!». وجلست هناك على جانب التل، تضحك وهي تمزق وردة بين يديها إلى أشلاء. ألقى ماكسيم سيجارته، وقد دخن ربعها، في المدفأة الخالية. قال:

- لم أقتلها، وراقبتها من دون أن أقول شيئاً، وتركتها تضحك. ركبنا السيارة ومضينا في طريقنا، وكانت تعلم أنني سأفعل ما اقترحته: سنأتي إلى هنا، إلى ماندرلي، ونفتح المكان ونستضيف الناس، وندعهم يتحدثون عن زيجتنا بوصفها أنجح زواج في القرن. علمت أنني سأضحى بالكرامة والشرف ومشاعري الشخصية، وكل الخصال اللعينة على وجه الأرض، بدلاً من أن أقف أمام عالمنا الصغير بعد أسبوع من الزواج، وأدعهم يعرفون عنها الأشياء التي أخبرتني بها حينها. وعلمت أنني لن أقف أبداً في محكمة طلباً للطلاق، وأفضحها وأدع الأصابع تشير إلينا، والصحف

تلقي علينا بالأحوال، وجميع الناس هنا يتهايمسون عندما يُذكر اسمي، وجميع المتنزهين من كيريث يتوافدون إلى بوابات المنزل ويطلُّون على الأراضي المحيطة به ويقولون: «هذا هو المكان الذي يعيش فيه، هناك. هذا ماندرلي، هذا هو المكان الذي يمتلكه ذلك الرجل الذي خاض قضية الطلاق تلك التي قرأنا عنها. هل تتذكر ما قاله القاضي عن زوجته...؟».

جاء ووقف أمامي، ومد يديه قائلاً:

- أنت تحتقريني، أليس كذلك؟ ألا يمكنك أن تفهمي عاري، وكراهييتي، واشمترازي؟

لم أقل شيئاً، وضممت يديه إلى قلبي. لم أكثرث لعاره، ولم يهمني أي شيء مما ذكره لي على الإطلاق. تشبث بشيء واحد فقط، وكررته لنفسه مراراً وتكراراً: لم يكن ماكسيم يحب ريببكا. لم يحبها قط، على الإطلاق، ولم يعرف لحظة واحدة من السعادة معاً قط. أخذ ماكسيم يتحدث، واستمعت إليه، لكن كلماته لم تعني لي شيئاً، ولم أكثرث بالفعل. قال:

- فكرت في ماندرلي أكثر مما يجب، ووضعت ماندرلي أولاً، قبل أي شيء آخر، وهذا النوع من الحب لا يزدهر، وهم لا يلقون مواعظ عنه في الكنائس، حيث لم يقل السيد المسيح شيئاً عن الحجارة والطوب والجدران، والحب الذي يمكن أن يحمله الإنسان لأرضه وترابه ومملكته الصغيرة، فهذا ليس جزءاً من العقيدة المسيحية.

قلت:

- يا حبيبي، ماكسيم، يا حبي.
ووضعت يديه على وجهي، ولمستهما بشفتي.
قال:

- هل تفهمين؟ أتفهمين؟ أتفهمين؟
- نعم يا عزيزي، يا حبي.

لكنني أشحت بعيداً عنه كي لا يرى وجهي. ماذا يهم سواء أفهمته أم لا؟ كان قلبي خفيفاً مثل ريشة تطفو في الهواء. لم يحب ربييكا قط.
قال ببطء:

- لا أريد أن أعود بذاكرتي إلى تلك السنوات، ولا أريد حتى أن أخبرك عنها. العار، والانحطاط، والكذبة التي عشناها، أنا وهي، والمسرحية الهزلية الرديئة الدنيئة التي لعبناها معاً أمام الأصدقاء، وأمام الأقارب، وحتى أمام الخدم، وأمام المخلوقات المخلصة شديدة الثقة مثل فريث العجوز. لقد وثقوا بها جميعاً هنا، وأعجبوا بها جميعاً، ولم يعرفوا قط كيف ضحكّت منهم من وراء ظهورهم، وسخرت منهم، وقلدتهم. أذكر أيام كان المكان مزدحمًا بسبب عرض أو آخر، حفل في الحديقة، أو مهرجان، وكانت تسير وعلى شفيتها ابتسامة كالملاك، عاقدة ذراعها بذراعي، ثم توزع الجوائز على مجموعة صغيرة من الأطفال. وبعد ذلك في اليوم التالي، كانت تستيقظ فجرًا متوجهة إلى لندن، وتسرع إلى شقتها تلك الواقعة بجانب النهر كما يسرع حيوان إلى جحره في أحد المصارف، وتعود هنا في نهاية الأسبوع بعد خمسة أيام لا توصف. أوه، لقد حافظت على جانبي من الصفة بالفعل. لم أفصحها قط، وقد جعل ذوقها اللعين ماندري كما هو عليه اليوم. الحداثق والشجيرات وحتى الأزاليا في الوادي السعيد، هل تعتقدن أنها كانت موجودة عندما كان والدي على قيد الحياة؟ يا إلهي، كان المكان أشبه بالبرية، فائنًا، نعم، ووحشيًا ومنعزلًا ويتمتع بجماله الخاص، أجل، لكنه يصرخ طلبًا للمهارة والرعاية والمال التي لم يمنحها له والدي قط، ولم أكن لأفكر في منحها له، لولا ربييكا. نصف الأشياء التي تريتها في الغرف هنا لم تكن موجودة في الأصل قط. غرفة الاستقبال كما هي اليوم، وغرفة الجلوس الصباحية، كل ذلك من عمل ربييكا. وتلك الكراسي التي يشير إليها فريث بفخر شديد للزوّار في يوم استقبال العامة، ولوحة النسيج تلك، هذا أيضًا من عمل ربييكا. أوه، عليّ الاعتراف بأن بعض الأشياء كانت

موجودة بالفعل، مخزنة في الغرف الخلفية - لم يكن والدي يعرف شيئاً عن الأثاث أو اللوحات - لكن الغالبية اشترتها ريبिका. إن جمال ماندرلي الذي ترينه اليوم، ماندرلي الذي يتحدث عنه الناس ويصورونه ويرسمونه، كل ذلك يرجع إليها، إلى ريبिका.

لم أقل شيئاً، وضممته إليّ. أردته أن يواصل الحديث على هذا النحو، حتى تتلاشى مرارته وتزول، حاملة معها كل الكراهية المكبوتة والاشمئزاز وقذارة السنوات الضائعة.

قال:

- وهكذا عشنا، شهراً بعد شهر، وعاماً بعد عام. قبلت كل شيء، بسبب ماندرلي. لم يمسنى ما كانت تفعله في لندن، لأنه لم يمس ماندرلي. وقد التزمت الحرص في تلك السنوات الأولى، ولم تكن هناك أي شائعات عنها قط، ولا أي همس على الإطلاق، ثم بدأت تصوير مهملة شيئاً فشيئاً. هل تعرفين كيف يبدأ الرجل في تناول الشراب؟ يتمهل في بادئ الأمر، ويتناول القليل فحسب في كل مرة، وربما يصاب بنوبة سيئة كل خمسة أشهر أو نحو ذلك. ثم تتناقص المدة بين تلك النوبات أكثر فأكثر، وسرعان ما تصبح كل شهر، ثم كل أسبوعين، ثم كل بضعة أيام، ولا يعود هناك هامش للأمان، ويضيع كل مكره السري. كان الأمر كذلك مع ريبिका. بدأت تدعو أصدقاءها إلى هنا، كانت تستضيف واحداً أو اثنين منهم، وتجعلهما يختلطان مع الآخرين خلال الحفلات في نهاية الأسبوع، حتى إنني لم أكن متأكداً بدرجة كبيرة في بادئ الأمر، ولم أكن واثقاً تماماً. كما كانت تقيم النزعات في كوخها عند الخليج، وعدت ذات مرة، بعد أن ذهبت إلى الصيد في إسكتلندا، ووجدتها هناك مع ستة أشخاص منهم، أشخاص لم أرهم من قبل. حذرتها، فهزت كتفيها، وقالت: «ما علاقة هذا بك، بحق الجحيم؟». أخبرتها بأنها تستطيع رؤية أصدقائها في لندن، لكن ماندرلي ملكي أنا، ويجب أن تلتزم بهذا الجزء من الصفقة. ابتسمت ولم تقل شيئاً،

ثم شرعت تحاول مع فرانك، المسكين الخجول المخلص فرانك. أتاني ذات يوم وقال إنه يريد ترك ماندرلي والالتحاق بوظيفة أخرى. تجادلنا ساعتين، هنا في المكتبة، ثم فهمت. انهار، وأخبرني بالأمر. قال إنها لا تدعه وشأنه أبدًا، ودائمًا ما تذهب إلى منزله، وتحاول أن تجعله يذهب إلى الكوخ. فرانك العزيز البائس، الذي لم يفهم قط، الذي لطالما اعتقد أننا زوجان طبيعيان سعيدان، كما كنا نتظاهر.

واجهت ريبिका بذلك، فانفجرت في الحال، وسبّنتي مستخدمة كل كلمة قدرة في قاموسها الخاص، وخضنا شجارًا مقززًا بغضب، ذهبَت على إثره إلى لندن وبقيت هناك شهرًا. وعندما عادت مرة أخرى، كانت هادئة في البداية، وظننتُ أنها تعلمت الدرس. أتت بي وجايلز لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، وأدركت حينها ما كنت أشك فيه أحيانًا من قبل، وهو أن بي لا تحب ريبिका. أعتقد أنها بطريقتها الغريبة الحادة والمباشرة رأت حقيقتها، وخمنت أن هناك خطبًا ما. كانت عطلة نهاية أسبوع صعبة وعصيبة. ذهب جايلز للإبحار مع ريبिका، واسترخيت أنا وبي على العشب. وعندما عادا، عرفت من سلوك جايلز الحماسي المرح، ومن نظرة في عيني ريبिका، أنها حاولت معه كما فعلت مع فرانك. ورأيت بي تراقب جايلز في أثناء العشاء، وهو يضحك بصوت أعلى من المعتاد، ويتحدث بدرجة زائدة على الحد بعض الشيء. وطوال الوقت جلست ريبिका هناك إلى رأس الطاولة، تبدو كأنها ملاك.

بدأت قطع الأحجية كلها تأخذ مكانها، تلك الأشكال الغريبة المتوترة التي حاولت تجميعها بأصابعي المتعثرة، ولم تركب معًا قط: سلوك فرانك الغريب عندما تحدثت عن ريبिका، وبياتريس وسلوكها السلبي المتحفظ نوعًا ما. كان الصمت الذي لطالما فهمته بوصفه تعاطفًا وندمًا، صمتًا وليدًا عن الخزي والحرَج. بدا لي أمرًا لا يُصدق الآن أنني لم أفهم من قبل. تساءلت كم شخصًا في العالم عانى وظل يعاني لأنه لم يتمكن من الخروج من شبكة خجله وتحفظه، وفي

خضمت جهله وحماقته أقام أمامه جدارًا ضخماً مشوهاً، يحجب الحقيقة. هذا هو ما فعلته أنا. بنيت في ذهني صوراً خطأً، وجلست أمامها، ولم أتحلَّ قطُّ بالشجاعة اللازمة للمطالبة بالحقيقة. لو أنني خطوت خطوة واحدة إلى الأمام للخروج من خجلتي، لكان ماكسيم قد أخبرني بهذه الأشياء منذ أربعة أشهر، أو خمسة أشهر. قال ماكسيم:

- كانت تلك آخر عطلة نهاية أسبوع على الإطلاق أمضاها جايلز وبّي في ماندري، ولم أوجه إليهما الدعوة وحدهما مرة أخرى، لكنهما جاءا بصورة رسمية إلى الحفلات في الحديقة والرقصات. لم توجه إليّ بي أي كلمة قطُّ، كما لم أوجه إليها أنا، لكن أعتقد أنها خمنت طبيعة حياتي، وأعتقد أنها عرفت، مثلما عرف فرانك. عادت ريبيكا إلى دهائها مرة أخرى، وبدأ سلوكها مثاليًا من الناحية الظاهرية. لكن إذا حدث أن كنت غائبًا بينما هي هنا في ماندري، فلم يكن في وسعي على الإطلاق أن أكون متأكدًا مما قد يحدث. كان هناك فرانك، وجايلز، وقد تتمكن من الوصول إلى أحد العاملين في العزبة، أو شخص من كيريث، أي شخص... وحينها لا بد أن يتفجر الأمر، وينتشر القيل والقال، والفضيحة التي خشيته.

بدأ لي أنني أفق مرة أخرى بجانب الكوخ في الغابة، وأسمع قطرات المطر على السطح. رأيت الغبار على نماذج السفن، والثقوب التي أحدثتها الفئران في الأريكة. ورأيت بن بعينه البلهاوين المسكينتين المحدقتين: «لن تضعيني في مصحة عقلية، أليس كذلك؟». وفكرت في الطريق المنحدر الذي يمر عبر الغابة، وكيف إذا وقفت امرأة هناك خلف الأشجار، فيصدر فستان السهرة الذي ترتديه حفيظًا في نسيم الليل الرقيق.

قال ماكسيم ببطء:

- كان لديها ابن عم، وهو رجل كان في الخارج، ثم عاد ليعيش في إنجلترا مرة أخرى، واعتاد المجيء إلى هنا حينما أكون غائبًا. كان فرانك يراه، رجل يدعى جاك فافيل.

- أعرفه، لقد جاء إلى هنا في اليوم الذي ذهبت فيه إلى لندن.
- أنتِ أيضًا رأيته؟ لماذا لم تخبريني؟ سمعت بالأمر من فرانك، الذي رأى سيارته تنعطف عند بوابات الكوخ.
- لم أرغب في ذلك، حيث ظننت أنه سيدرك برييكا.
- همس ماكسيم:
- يذكرني؟ يا إلهي، كأنني في حاجة إلى مَنْ يذكرني.
- حديق أمامه، وقطع حكايته التي كان يقصها، وتساءلت عما إذا كان يفكر، مثلما أفكر أنا، في تلك الكابينة التي غمرتها المياه تحت البحر في الخليج.
- قال ماكسيم:
- اعتادت اصطحاب ذلك الرجل فافيل إلى الكوخ، وكانت تخبر الخدم بأنها ذاهبة للإبحار ولن تعود قبل الصباح، ثم تقضي الليلة معه هناك. حذرتها مرة أخرى، وقلت إنني إذا وجدته هنا، في أي مكان في العزبة، فسوف أطلق عليه النار. كان لديه سجل أسود قذر... إن مجرد التفكير فيه وهو يمشي في الغابة بماندرلي، في أماكن مثل الوادي السعيد، أصابني بالجنون، وقلت لها إنني لن أتقبل ذلك. هزت كتفيها، ونسيت إطلاق السباب، ولاحظت أنها تبدو أكثر شحوبًا من المعتاد، ومتوترة، ومنهكة نوعًا ما. تساءلت حينها عما سيحدث لها بحق الجحيم حينما تبدأ أمارات التقدم في السن تظهر عليها، وتشعر بالشيخوخة. سارت الأمور من دون أن يحدث الكثير، حتى ذهبت إلى لندن ذات يوم، وعادت مرة أخرى في اليوم نفسه، وهو ما لم تفعله عادة. لم أتوقع مجيئها، وتناولت العشاء تلك الليلة مع فرانك في منزله، وكان لدينا كثير من العمل في ذلك الوقت.
- أخذ يتحدث الآن بجمل قصيرة متشنجة، وأمسكت يديه بشدة بين كفَيَّ.
- عدت بعد العشاء، في الساعة العاشرة والنصف تقريبًا، ورأيت وشاحها وقفازيها ملقاة على كرسي في الردهة، وتساءلت لماذا عادت بحق الجحيم. ذهبت إلى غرفة الجلوس الصباحية، لكنها لم تكن هناك. خمنت

أنها ذهبت إلى هناك، ثم توجهت إلى الخليج، وعرفت حينها أنني لم أعد قادرًا على تحمُّل حياة الأكاذيب والقدارة والخداع هذه بعد الآن. لا بد من تسوية الأمور بطريقة أو بأخرى. فكرت أن آخذ مسدسًا وأخيف الرجل، وأخيفهما معًا. نزلت على الفور إلى الكوخ، ولم يعرف الخدم قط أنني عدت إلى المنزل، فتسللت إلى الحديقة وعبر الغابة. رأيت الضوء في نافذة الكوخ، ودخلت مباشرة، ولدهشتي كانت ربييكا وحدها. كانت مستلقية على الأريكة وبجانبيها منفضة سجائر مليئة بأعقاب السجائر، وبدت مريضة وغريبة.

شرعتُ في الحديث عن فافيل على الفور، واستمعت إليَّ من دون أن تنطق بكلمة. قلت: «لقد عشنا حياة الانحطاط هذه، أنا وأنت، لما يكفي من الوقت، وهذه هي النهاية، أفهمين؟ لا يهمني ما تفعلينه في لندن، يمكنك العيش هناك مع فافيل، أو أي شخص تريدينه، لكن ليس هنا، ليس في ماندريلي».

لم تقل شيئًا للحظة، وحدثت إلى وجهي ثم ابتسمت، وقالت: «لنفترض أن العيش هنا يناسبني أكثر، فماذا بعد؟».

قلت: «أنتِ تعرفين الشروط، وقد حافظت على جانبي من صفقتنا القدرة اللعينة، أليس كذلك؟ لكنك قمت بالغش، وتعتقدين أنه يمكنك معاملة منزلي وسكني مثل بؤرة الفساد خاصتك في لندن. لقد تحملتُ ما فيه الكفاية، لكن قسمًا بالرب يا ربييكا، هذه هي فرصتك الأخيرة».

أذكر أنها سحقت سيجارتها في المنفضة بجوار الأريكة، ثم نهضت وتمطت وذراعاها فوق رأسها.

قالت: «أنت على حق يا ماكس، حان الوقت لأفتح صفحة جديدة». بدت شاحبة جدًا، وشديدة النحول، وشرعت تذرع الغرفة جيئة وذهابًا ويدها في جيبي سروالها. بدت كصبي في زي الإبحار الخاص بها، صبي له وجه يشبه الملائكة الذين رسمهم بوتيتشيلي.

قالت: «هل فكرت من قبل في مدى صعوبة رفع دعوى قضائية ضدي؟ أعني في المحكمة، إذا أردت أن تطلقني. هل تدرك أنك لم تمتلك قط دليلًا واحدًا ضدي، منذ البداية؟ كل أصدقائك، وحتى الخدم، يعتقدون أن زواجنا ناجح».

قلت: «ماذا عن فرانك؟ وماذا عن بياتريس؟».

ألقيت رأسها إلى الخلف، وضحكت قائلة: «أي نوع من الحكايات تلك التي يستطيع فرانك أن يرويها مقابل حكايتي؟ ألا تعرفني بشكل أفضل من ذلك؟ وفيما يتعلق ببياتريس، ألن يكون أسهل شيء في العالم بالنسبة إليها أن تعتلي منصة الشهود بوصفها امرأة غيورًا عادية، فقد زوجها عقله ذات مرة وجعل من نفسه أضحوكة؟ أوه، لا يا ماكس، ستواجه وقتًا عصيبًا محاولًا إثبات أي شيء ضدي».

وقفت تراقبني وهي تتأرجح على كعبيها، ويدها في جيبيها وعلى وجهها ابتسامة. «هل تدرك أنه يمكنني أن أجعل داني، بوصفها خادمتي الشخصية، تقسم على أي شيء أطلبه منها في محكمة قانونية؟ وأن بقية الخدم سيحذون حذوها في جهل أعمى، ويقسمون أيضًا؟ إنهم يعتقدون أننا نعيش معًا في ماندلري كزوج وزوجة، أليس كذلك؟ وكذلك يعتقد الجميع، أصدقاؤك، وكل عالمنا الصغير. حسنًا، كيف ستثبت أننا لسنا كذلك؟».

جلست على حافة الطاولة، تؤرجح ساقها وتراقبني.

قالت: «ألم نلعب دور الزوج والزوجة المحبين بشكل جيد جدًا؟». أذكر مراقبة قدمها تلك في صندلها المخطط وهي تتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف، وبدأت عيناها وعقلي تلتهب بسرعة على نحو غريب.

قالت بهدوء: «يمكنني أنا وداني أن نجعلك تبدو أحرق للغاية. نستطيع أن نجعلك تبدو في غاية الحماقة، إلى درجة أن أحداً لن يصدقك يا ماكس، لا أحد على الإطلاق». وظلت قدمها تلك تتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف، تلك القدم اللعينة في صندلها المخطط باللونين الأزرق والأبيض.

فجأة انزلقت عن الطاولة ووقفت أمامي، وهي لا تزال مبتسمة ويدها في جيبيها.

قالت: «إذا رزقت طفلاً يا ماكس، فلن تتمكن أنت ولا أي شخص في العالم على الإطلاق من إثبات أنه ليس طفلك. وسيكبر هنا في ماندرلي، حاملاً اسمك، ولن يكون هناك بيدك شيء لتفعله. وعندما تموت، سيصير ماندرلي ملكاً له، ولا يمكنك منع ذلك، إذ إنه من غير المسموح التصرف في التركة، وتنتقل تلقائياً إلى الورثة. أنت ترغب في وريث، أليس كذلك، لمنزلك الحبيب ماندرلي؟ وستستمتع بالأمر، أليس كذلك، وأنت ترى ابني مستلقياً في عربته تحت شجرة الكستناء، ويلعب ويثب على العشب، ويصطاد الفراشات في الوادي السعيد؟ سيمنحك ذلك أكبر قدر من الإثارة في حياتك، أليس كذلك يا ماكس، أن تشاهد ابني يكبر يوماً بعد يوم، وأن تعرف أن كل هذا سيؤول إليه عقب موتك؟».

انتظرت لحظة وهي تتأرجح على كعبيها، ثم أشعلت سيجارة وذهبت ووقفت بجانب النافذة. شرعت في الضحك، وظلت تضحك حتى ظننت أنها لن تتوقف أبداً. قالت: «يا إلهي، كم هو مضحك، كم هو مضحك بشدة على نحو رائع! حسناً، سمعني أقول إنني سأفتح صفحة جديدة، أليس كذلك؟ ها قد عرفت السبب الآن. سيكونون سعداء، أليس كذلك، كل هؤلاء السكان المحليين المتعجرفين، وكل المستأجرين الملاعين؟ سيقولون: «هذا ما كنا نأمله دائماً يا سيدة دي وينتر». سأكون الأم المثالية يا ماكس، مثلما كنت الزوجة المثالية، ولن يخمن أحد منهم أبداً، ولن يعرف أيُّ منهم على الإطلاق».

استدارت لتواجهني مبتسمة، وإحدى يديها في جيبيها، والأخرى ممسكة بسيجارتها. عندما قتلها كانت لا تزال تبسم. أطلقت النار على قلبها، ومرت الرصاصة من خلاله مباشرة. لم تسقط على الفور، بل وقفت هناك تنظر إليّ، وتلك الابتسامة المتأنية على وجهها، وعيناها مفتوحتان عن آخرهما.

انخفض صوت ماكسيم، إلى درجة أنه بدا كالهمس، وكانت يده التي أمسكتها بين يدي باردة. لم أنظر إليه، بل راقبت جسد جاسبر النائم على السجادة بجانبى، وضربات ذيله الصغيرة على الأرض بين الحين والحين.

صار صوت ماكسيم بطيئًا الآن، ومتعبًا، من دون تعبير، وقال:

- نسيت أنه يكون هناك كل ذلك القدر من الدماء عند إطلاق النار على شخص ما.

كان هناك ثقب في السجادة تحت ذيل جاسبر، فتحة محترقة من أثر سيجارة. تساءلت كم من الوقت ظلت هناك. يقول البعض إن الرماد مفيد للسجاد. قال ماكسيم:

- كان عليّ جلب الماء من الخليج، واضطرت إلى الذهاب والعودة من الخليج مرارًا وتكرارًا لجلب الماء. وحتى بجانب المدفأة كانت هناك بقعة، على الرغم من أنها لم تكن هناك، وانتشرت الدماء في كل مكان حيث استلقت على الأرض. كما بدأت الريح تهب، ولم يكن هناك مزلاج على النافذة، فطلت النافذة تتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف وتصطدم، وأنا راکع هناك على الأرض ومعى تلك الخرقه والدلو بجانبى.

المطر على السطح، فكرت أنه لا يتذكر المطر على السطح. تساقط خفيفًا في قطرات صغيرة، وسريعة جدًا.

قال:

- حملتها إلى القارب، ولا بد أن الساعة كانت قد تجاوزت الحادية عشرة والنصف حينها، وقاربت الثانية عشرة. كان الظلام حالكًا، ولم يكن القمر ظاهرًا، والريح عاصفة من جهة الغرب. حملتها إلى الكابينة وتركتها هناك، ثم كان عليّ الانطلاق وزورق التجديف مربوط بمؤخرة القارب، والخروج من الميناء الصغير في عكس اتجاه التيار. كانت الريح في صالحى، لكنها أتت في هبات متقطعة، حيث كنت في اتجاه هبوب الريح هناك، محميًا تحت غطاء الرأس البحري. أتذكر أنني رفعت الشراع الرئيسي إلى منتصف

الصاري، حيث علق هناك، إذ لم أفعل ذلك منذ فترة طويلة، كما ترين، ولم أبحر مع ريبيكا قط.

فكرت في المد، وكيف يجري سريعًا وقويًا إلى الخليج الصغير، وهبّت الرياح آتية من الرأس البحري كالإعصار. خرجت بالقارب إلى الخليج، وأوصلته هناك إلى ما بعد الفنار، وحاولت الالتفاف حوله لتفادي سلسلة الصخور. رفف شراع السارية الأمامية الصغير، ولم أتمكن من تثبيته. أتت هبة من الرياح وانتزعت الحبل من يدي، فالتفت حول الصاري، وارتعد الشراع واهتز، وفرق كالسوط فوق رأسي. لم أستطع أن أتذكر ما يتعين على المرء فعله. لم أستطع أن أتذكر. حاولت الوصول إلى ذلك الحبل، وطار فوق في الهواء. أتت هبة أخرى من الرياح من أمامنا مباشرة، وبدأنا في الانجراف جانبيًا، بالقرب من السلسلة الصخرية. ساد الظلام، وكان حالكا جدًا، حتى إنني لم أتمكن من رؤية أي شيء على سطح القارب الأسود الزلق. بطريقة ما، تخبطت ونزلت إلى الكابينة، وكان بحوزتي وتد. إذا لم أفعل الأمر الآن، فسيفوت الأوان. اقتربنا بشدة من السلسلة الصخرية، وفي غضون ست أو سبع دقائق ونحن ننحرف على هذا النحو، سنخرج من المياه العميقة. فتحت الصنابير البحرية، وبدأت المياه تتدفق إلى القارب. دفعت الوتد في الألواح السفلية، فانقسم أحد الألواح الخشبية بالعرض في الحال. جذبت الوتد، وبدأت أدفعه في لوح آخر. تصاعد الماء فوق قدمي، فتركت ريبيكا ملقاة على الأرض، وأغلقت كلتا الكوتين، وأغلقت الباب بالمزلاج. عندما صعدت إلى السطح، رأيت أننا على بُعد عشرين ياردة من السلسلة الصخرية. ألقيت بعض الأشياء المتناثرة على السطح إلى الماء، وكانت هناك عوامة إنقاذ، وزوجان من المجاديف، ولفة من الحبال. ركبت زورق التجديف وابتعدت به، ثم استندت إلى المجاديف وراقبت. كان القارب لا يزال ينحرف، كما أخذ يغرق أيضًا، يغرق بالقرب من الرأس البحري. كان شراع السارية الأمامية الصغير لا يزال يهتز ويفرقع

كالسوط، وظننت أنه لا بد أن يسمعه أحد ما، شخص يمشي عبر الجروف الصخرية في وقت متأخر من الليل، أو صياد ما من كيريث خلفي بعيداً في الخليج، ولا أستطيع رؤية قاربه. بدا القارب أصغر، كظل أسود على سطح الماء، وبدأ الصاري يرتجف ويتصدع، وفجأة مال القارب جانباً، وبينما هو ينقلب انكسر الصاري إلى قسمين، وانشق من المنتصف تمامًا. طفت عوامة الإنقاذ والمجاديف في الماء بعيداً عني، ولم يعد للقارب وجود. أتذكر أنني حدثت إلى المكان الذي كان فيه، ثم عدت إلى الخليج، وبدأ المطر ينهمر.

تريث ماكسيم وظل محدقاً أمامه، ثم نظر إليّ وأنا جالسة بجانبه على الأرض. قال:

- هذا كل شيء، لا يوجد المزيد لأحكيه. تركت زورق التجديف على العوامة، كما كانت ستفعل هي، ثم عدت وألقيت نظرة على الكوخ. كانت الأرض مبللة بالمياه المالحة، وكان من الممكن أن تكون قد فعلت ذلك بنفسها. صعدت الطريق عبر الغابة، ودخلت المنزل، ثم صعدت الدرج إلى غرفة تبديل الملابس. أتذكر أنني خلعت ملابسي، وبدأت الريح تهب والمطر يهطل بغزارة شديدة. كنت جالساً هناك على الفراش، عندما طرقت السيدة دانفرز الباب. ذهبت وفتحت لها مرتدياً روبي، وتحدثت إليها. كانت قلقة بشأن ربيكا. قلت لها أن تعود إلى الفراش، وأغلقت الباب مرة أخرى. عدت وجلست بجانب النافذة مرتدياً روبي، لأشاهد المطر، وأستمع إلى البحر وهو يتكسر هناك في الخليج.

جلسنا هناك معاً من دون أن نقول أي شيء، وظللت ممسكة يديه الباردتين. تساءلت لماذا لم يأت روبرت ليرفع أغراض الشاي. قال ماكسيم:

- غرقت في مكان أقرب مما يجب، لكنني نويت الخروج بها إلى الخليج مباشرة. لم يكونوا ليعثروا عليها قط. كانت أقرب مما يجب.

- السفينة هي السبب. لم يكن هذا ليحدث لولا السفينة، ولم يكن أحد سيعرف.
- كانت أقرب مما يجب.
- صمتنا مرة أخرى، وبدأت أشعر بالتعب الشديد.
- قال ماكسيم:
- علمت أن ذلك سيحدث يومًا ما، حتى عندما ذهبت إلى إيدجكوم وتعرفت على تلك الجثة بوصفها هي. كنت أعلم أن ذلك لا يعني شيئًا، لا شيء على الإطلاق، وأنها مجرد مسألة انتظار وتمضية للوقت، وستفوز ريبिका في النهاية. لم يشكّل العثور عليك أي فرق، أليس كذلك؟ إن حبك لا يغير شيئًا أبدًا. عرفت ريبिका أنها ستفوز في النهاية، ورأيتُ ابتسامتها عندما ماتت.
- لقد ماتت ريبिका، وهذا ما يجب أن نتذكره. ريبिका ماتت، ولا تستطيع الكلام أو تقديم الشهادة، ولا يمكنها أن تؤذيك بعد الآن.
- هناك جثتها، وقد رآها الغطاس راقدة هناك على أرضية الكابينة.
- يجب أن نوضح الأمر، يجب أن نفكر في طريقة لشرح ذلك. لا بد أن تكون جثة شخص لا تعرفه، شخص لم تره من قبل.
- ستكون أغراضها لا تزال موجودة هناك، كالحواشي في أصابعها. وحتى لو تعفنت ملابسها في الماء، سيكون هناك شيء ما يخبرهم. فهي ليست مثل الجثة المفقودة في عرض البحر، وقد ارتطمت بالصخور. إن الكابينة لم تُمس، ولا بد أنها ملقاة هناك على الأرضية كما تركتها. ظل القارب هناك طوال هذه الأشهر، ولم يحرك أحد شيئًا. القارب هناك، ملقى في قاع البحر حيث غرقت.
- همست قائلة:
- الجثة تتعفن في الماء، أليس كذلك؟ حتى لو كانت ملقاة هناك من دون أن يمسها أحد، فالماء يفسدها، أليس كذلك؟
- لا أعرف، لا أعرف.

- كيف ستكتشف ذلك؟ كيف ستعرف؟
- سينزل الغطاس مرة أخرى في الخامسة والنصف صباح الغد، قام سيرل بكل الترتيبات. سيحاولون رفع القارب، ولن يكون أحد موجودًا. سأذهب معهم، وسيرسل قاربه إلى الخليج كي يصطحبني. الخامسة والنصف صباح الغد.
- وماذا بعد؟ إذا رفعوه، ماذا بعد؟
- سيجعل سيرل صندله البحري الكبير يرسو هناك، في المياه العميقة. وإذا لم يتعفن خشب القارب، وإذا كان لا يزال متماسكًا، فستتمكن الرافعة من رفعه إلى الصندل، وحينها سيعودون إلى كيريث. يقول سيرل إنه سيرسو بالصندل عند رأس ذلك الخور المهجور الواقع في منتصف الطريق المؤدي إلى ميناء كيريث. فهو يبقي الناس بعيدًا بسهولة شديدة، حيث ينتشر الوحل هناك وقت الجزر، ولا يستطيع المتزهون التجديف هناك، وسنفرد بالمكان لأنفسنا. يقول إنه سيتعين علينا ترك الماء يخرج من القارب، مما سيرك الكابينة مكشوفة، وسيجلب طبيًا.
- ماذا سيفعل؟ ماذا سيفعل الطبيب؟
- لا أعرف.
- إذا اكتشفوا أنها ريببكا، يجب أن تقول إن الجثة الأخرى كانت خطأ. يجب أن تقول إن الجثة الموجودة في السرداب كانت خطأ، خطأ مروعًا. عليك القول إنك كنت مريضًا حينما ذهبت إلى إيدجكوم، ولم تعرف ما الذي تفعله. لم تكن متأكدًا حتى حينها، ولم تستطع معرفة ذلك. لقد كان خطأ، مجرد خطأ. ستقول هذا، أليس كذلك؟
- بلى، بلى.
- لا يمكنهم إثبات أي شيء ضدك. لم يرك أحد في تلك الليلة، وكنت قد أويت إلى الفراش. لا يمكنهم إثبات أي شيء، ولا أحد يعرف سواك أنت وأنا، لا أحد على الإطلاق، ولا حتى فرانك. نحن الشخصان الوحيدان في العالم اللذان يعرفان يا ماكسيم، أنت وأنا.

- نعم، نعم.

- سيظنون أن القارب انقلب وغرق عندما كانت في الكابينة. سيعتقدون أنها نزلت إلى الأسفل بحثاً عن جبل لشيء ما، وبينما كانت هناك جاءت الريح من الرأس البحري، ومال القارب، وصارت ريبيكا حبيسة. سوف يعتقدون ذلك، أليس كذلك؟

- لا أدري، لا أدري.

فجأة، بدأ الهاتف يرن في الغرفة الصغيرة خلف المكتبة.

دخل ماكسيم الغرفة الصغيرة وأغلق الباب، ودخل روبرت بعد بضع دقائق لرفع أغراض الشاي، فوقفت وأوليته ظهري كي لا يرى وجهي. تساءلت متى سيبدأون في معرفة ما حدث، في العزبة، وفي قاعة الخدم، وفي كيريث نفسها. تساءلت كم يلزم من الوقت لوصول الأخبار.

سمعت همهمة صوت ماكسيم في الغرفة الصغيرة بالخلف، وشعرت في أعماقي بالترقب على نحو مَرَضِي. بدأ أن صوت رنين الهاتف أثار كل عصب في جسدي. جلست هناك على الأرض بجانب ماكسيم كأنني في حلم من نوع ما، يده في يدي، ووجهه على كتفي. استمعت إلى حكايته، ورافقه جزء مني كالظل في أعقابه: أنا أيضًا قتلت ريبيكا، وأغرقت القارب هناك في الخليج. استمعت بجانبه إلى الريح والماء، وانتظرت طُرق السيدة دانفرز على الباب. كل هذا عانيته معه، كل هذا وأكثر. لكن الجزء الباقي مني جلس هناك على السجادة من دون تأثر ومن دون تحيز، يفكر ويهتم بشيء واحد فقط، ويكرر عبارة مرارًا وتكرارًا: «لم يكن يحب ريبيكا، لم يكن يحب ريبيكا». وعندما رن الهاتف الآن، اندمج هذان الجزءان وصارا واحدًا مرة أخرى. كنت الشخص نفسه الذي كنته دائمًا، ولم أتعير، لكن طرأ عليّ جديد لم يكن هناك من قبل، فقد أصبح قلبي، على الرغم من كل قلقه وشكوكه، خفيًا وحرًا. عرفت حينها أنني لم أعد أخشى ريبيكا، ولم أعد أكرهها الآن. الآن بعد أن عرفت أنها كانت خبيثة وشريرة وفاسدة، لم أعد أكرهها. لم يكن في وسعها أن تؤذيني. في إمكاني الذهاب إلى

غرفة الجلوس الصباحية والجلوس إلى مكتبها ولمس قلمها والنظر إلى كتابتها على صناديق الرسائل، ولن أمانع. وفي وسعي الذهاب إلى غرفتها في الجناح الغربي، والوقوف بجانب النافذة كما فعلت هذا الصباح، ولن أشعر بالخوف. تلاشت قوة ريبيكا في الهواء، كما تلاشى الضباب، ولن تطاردني مرة أخرى. لن تقف ورائي أبدًا على الدرج، وتجلس بجانبني في غرفة الطعام، وتنحني من شرفة العازفين وتراقبني وأنا أقف في الردهة. لم يحبها ماكسيم قط. لم أعد أكرهها. عاد جسدها، وعُثر على قاربها باسمه الغريب الذي يشبه النبوءة، «سأعود»، لكنني تحررت منها إلى الأبد.

صرت حرة الآن في أن أكون مع ماكسيم، وألمسه، وأحتضنه، وأحبه. لن أكون طفلة مرة أخرى، ولن يعود الأمر «أنا، أنا، أنا» بعد الآن، بل سيصبح «نحن»، وسنصير معًا. سنواجه هذه المشكلة معًا، هو وأنا. النقيب سيرل، والغطاس، وفرانك، والسيدة دانفرز، وبياتريس، ورجال ونساء كيريث الذين يقرأون صحفهم، لن يتمكنوا من كسرنا الآن. لم تأتِ سعادتنا بعد فوات الأوان. لم أعد صغيرة، ولم أعد خجولًا، ولم أعد خائفة، وسأقاتل من أجل ماكسيم. سوف أكذب وأزور وأقسم، وسأجدف وأصلي. لم تفز ريبيكا. لقد خسرت ريبيكا.

رفع روبرت أغراض الشاي، وعاد ماكسيم إلى الغرفة.
قال:

- كان العقيد جوليان، لقد تحدث إلى سيرل للتو. سيخرج معنا إلى القارب غدًا. لقد أخبره سيرل.

قلت:

- لماذا العقيد جوليان، لماذا؟

- إنه قاضي التحقيق في كيريث، ويجب أن يكون حاضرًا.

- ماذا قال؟

- سألتني ما إذا كانت لدي فكرة لمن تكون الجثة.

- ماذا قلت؟
- قلت إنني لا أعرف، وقلت إننا اعتقدنا أن ربيكا كانت وحدها. قلت إنني لا أعرف بشأن أي صديق.
- هل قال أي شيء بعد ذلك؟
- نعم.
- ماذا قال؟
- سألني إذا كنت أعتقد أنني ربما ارتكبت خطأ حينما ذهبت إلى إيدجكوم.
- أقال ذلك؟ هل قال ذلك بالفعل؟
- نعم.
- وأنت؟
- قلت إنه ربما يكون من المحتمل، لكنني لا أعرف.
- سيكون معك غداً عندما تذهب إلى رؤية القارب؟ هو، والتقيب سيرل، وطبيب.
- والمفتش ويلش أيضاً.
- المفتش ويلش؟
- أجل.
- لماذا؟ لماذا المفتش ويلش؟
- هذا هو المعتاد، عندما يُعثر على جثة.
- لم أقل شيئاً، وحدث أحدها إلى الآخر، وشعرت بذلك الألم الخفيف يعود مرة أخرى في أعماق معدتي.
- قلت:
- ربما لا يتمكنون من رفع القارب.
- لا.
- لن يتمكنوا من فعل شيء بخصوص الجثة حينها، أليس كذلك؟
- لا أدري.

ألقى نظرة من النافذة، وبدأت السماء بيضاء وغائمة، كما كانت عندما عدت من الجروف الصخرية، لكن لم تكن هناك أي ريح، بل كان الجو هادئًا وساكنًا. قال:

- ظننت أن الريح قد تهب من جهة الجنوب الغربي منذ ساعة تقريبًا، لكنها تلاشت مرة أخرى.
- أجل.

- سيكون البحر هادئًا وساكنًا غدًا للغطاس.
بدأ الهاتف يرن مرة أخرى من الغرفة الصغيرة، وكان هناك شيء مثير للاشمئزاز بشأن الاستدعاء العاجل الصاحب للجرس. تبادلنا أنا وماكسيم النظر إلى بعضنا، ثم ذهب إلى الغرفة للرد عليه، وأغلق الباب خلفه كما فعل من قبل. لم يكن الألم الغريب المزعج قد غادرني بعد، وعاد مرة أخرى بقوة أشد مع رنين الجرس. أعادني ذلك الشعور إلى سنوات طفولتي، حيث كان هذا هو الألم الذي عرفته حينما كنت صغيرة جدًّا، وكانت صفارات الإنذار تدوي في شوارع لندن، وكنت أجلس مرتعدة من دون أن أفهم شيئًا في خزانة صغيرة أسفل الدرج. كان الشعور نفسه، والألم نفسه.

عاد ماكسيم إلى المكتبة، وقال ببطء:
- لقد بدأ الأمر.

غمرني الشعور بالبرودة فجأة، وقلت:
- ماذا تقصد؟

- كان مراسلًا صحفيًّا، ذلك الرجل من صحيفة «كاونتي كرونيكل». قال:
«هل من الصحيح أنه عُثر على قارب السيدة دي وينتر؟»
- ماذا قلت؟

- قلت، نعم، عُثر على قارب، لكن هذا كل ما نعرفه، وقد لا يكون قاربها على الإطلاق.

- هل هذا كل ما قاله؟

- لا، سألني عما إذا كان في إمكاني تأكيد شائعة العثور على جثة في الكابينة. - لا!
- أجل، لا بد أن شخصًا ما تحدث عن الأمر. ليس سيرل، أعرف ذلك. الغطاس، أو أحد أصدقائه. لا يمكنك منع هؤلاء الناس. ستتشر القصة بأكملها في جميع أنحاء كيريث بحلول وقت الإفطار غدًا.
- ماذا قلت، بخصوص الجثة؟
- قلت لا أعرف، وليس لدي أي بيان لأدلي به، وسأكون ممتنًا لو لم يتصل بي مرة أخرى.
- سوف تثير غضبهم، وستجعلهم ينقلبون ضدك.
- لا حيلة لي في ذلك، فأنا لا أدلي بتصريحات إلى الصحف، ولن أدع هؤلاء الرجال يتصلون ويطرحون الأسئلة.
- قد نريدهم إلى جانبنا.
- إذا تعلق الأمر بالقتال، فسأقاتل وحدي. لا أريد صحيفة ورائي.
- سوف يتصل المراسل بشخص آخر، وسيصل إلى العقيد جوليان أو النقيب سيرل.
- لن يحصل منهما على الكثير.
- لو أننا فقط نستطيع فعل شيء ما، بدلًا من جلوسنا هنا مكتوفي الأيدي، وأماننا كل هذه الساعات، في انتظار صباح الغد.
- لا يوجد ما يمكننا فعله.

ظللنا جالسين في المكتبة، والتقط ماكسيم كتابًا لكنني أعلم أنه لم يقرأ. رأيته يرفع رأسه ويصيح السمع بين الحين والحين، كأنه يسمع الهاتف مرة أخرى. لكنه لم يرن ثانية، ولم يزعجنا أحد. بدّلنا ملابسنا لتناول العشاء كالمعتاد، وبدأ لي أمرًا لا يُصدق أنني في مثل هذا الوقت من الليلة الماضية كنت أرتدي ثوبي الأبيض، وأجلس أمام مرآة منضدة الزينة لترتيب الشعر المستعار المجعد. بدأ الأمر مثل كابوس قديم منسي، شيء يتذكره المرء بعدها بشهور بشكٍّ وعدم تصديق. تناولنا

العشاء، وقام فريث على خدمتنا، بعد أن عاد من إجازته عصرًا. بدا وجهه جادًا وخاليًا من التعبير، وتساءلت عما إذا ذهب إلى كيريث، وإذا كان قد سمع شيئًا. عدنا إلى المكتبة مرة أخرى بعد العشاء، ولم نتحدث كثيرًا. جلست على الأرض عند قدمي ماكسيم، ورأسي على ركبتيه. مرر أصابعه خلال شعري على نحو يختلف عن أسلوبه القديم الشارد، ولم يعد الأمر يشبه التربيت على جاسبر، وشعرت بأطراف أنامله على فروة رأسي. قَبَلَنِي أحيانًا، وقال لي بعض الأشياء في أحيان أخرى، ولم تعد بيننا أي ظلال، وعندما نبقي صامتين، كان ذلك لأننا نرغب في استدعاء الصمت. تساءلت كيف يمكنني الشعور بالسعادة إلى هذا الحد، في حين أن عالمنا الصغير المحيط بنا حالك السواد. كانت سعادة من نوع غريب، وليست ما حلمت به أو توقعته. لم يكن ذلك النوع من السعادة التي تخيلتها في ساعات الوحدة. لم يكن هناك شيء محموم أو متلهف في هذه السعادة، بل اتصفت بالهدوء والسكون. كانت نوافذ المكتبة مفتوحة على مصاريحها، وعندما لم تكن تتبادل الحديث أو نلمس بعضنا، وجهنا نظرنا إلى الخارج نحو السماء المظلمة الغائمة.

لا بد أن المطر هطل خلال الليل، لأنني عندما استيقظت في صباح اليوم التالي بعد السابعة بقليل، وقمت ونظرت من النافذة، رأيت الورد في الحديقة في الأسفل مثنياً ومتدلياً، وكانت الضفاف العشبية المؤدية إلى الغابة رطبة وفضية. عبق الجو برائحة الضباب والرطوبة، تلك الرائحة التي تأتي مع سقوط أول ورقة شجر، وتساءلت إذا كان الخريف سيحل علينا قبل شهرين من موعده. لم يوقظني ماكسيم عندما استيقظ في الخامسة. لا بد أنه تسلل من فراشه وذهب عبر الحمّام إلى غرفة تبديل الملابس من دون صوت. سيكون هناك الآن في الخليج، مع العقيد جوليان والنقيب سيرل والرجال من الصندل البحري. سيكون الصندل هناك، والرافعة والسلسلة، وقارب ريبكا قادم إلى السطح. فكرت في الأمر بهدوء وبرود، من دون شعور. تخيلتهم جميعاً هناك في الخليج، وهيكل القارب الصغير الداكن يرتفع ببطء إلى السطح، وهو غارق والماء يقطر منه،

والأعشاب البحرية الخضراء كالعشب والقواقع تثبت بجانيه. وعندما يرفعونه إلى الصندل، سيتدفق الماء من جانيه عائداً إلى البحر مرة أخرى. وسيبدو خشب القارب الصغير ليناً ورمادياً وطرياً في بعض الأماكن. ستفوح منه رائحة الطين والصدأ، وتلك الأعشاب الداكنة التي تنمو في أعماق البحر بجانب الصخور التي لا تنكشف أبداً. ربما لا تزال لوحة الاسم معلقة على مؤخرته، «سأعود»، والأحرف الخضراء باهتة، والمسامير أصابها الصدأ. وكانت ريبيكا نفسها هناك، مستلقية على أرضية الكابينة.

نهضت واستحممت وبدلت ملابسها، ونزلت لتناول الإفطار في الساعة التاسعة صباحاً كال المعتاد. كان هناك كثير من الرسائل على طريقي، رسائل من أناس يشكروننا على الحفل الراقص. ألقيت عليها نظرة سريعة، ولم أقرأها كلها. أراد فريث معرفة ما إذا كان عليه إبقاء الإفطار ساخناً لماكسيم، فأخبرته بأنني لا أعرف متى سيعود، وقلت إنه اضطر إلى الخروج في وقت مبكر جداً. لم يقل فريث شيئاً، وبدأ جاداً ورصيناً للغاية، فتساءلت مرة أخرى ما إذا كان يعرف. بعد الإفطار، أخذت رسائلتي معي إلى غرفة الجلوس الصباحية. بدت رائحة الغرفة كريهة، ولم تُفتح النوافذ. فتحتها على مصاريحها، فدخل الهواء النقي البارد. كانت الزهور على رف المدفأة ذابلة، وقد مات معظمها، والبتلات ملقاة على الأرض. قرعت الجرس، فدخلت مود، خادمة المنزل الصغيرة، إلى الغرفة. قلت:

- لم تُمس هذه الغرفة صباح اليوم، وحتى النوافذ كانت مغلقة، والزهور ميتة. هلاً أخذتها بعيداً، من فضلك؟

بدا عليها التوتر والأسف، وقالت:

- أنا آسفة جداً يا سيدتي.

وتوجهت إلى رف المدفأة وأخذت المزهرية.

قلت:

- لا تدعي ذلك يحدث مرة أخرى.

قالت:

- لا يا سيدتي.

خرجت من الغرفة، وأخذت الزهور معها. لم أعتقد أن ممارسة الحزم ستكون يسيرة إلى هذه الدرجة، وتساءلت لماذا بدا لي الأمر صعبًا من قبل. كانت قائمة طعام اليوم موجودة على المكتب: سلمون بارد مع المايونيز، وشرائح اللحم في الهلام، وجالانتين سوفليه الدجاج. تعرفت عليها جميعًا من بوفيه العشاء في ليلة الحفل الراقص، وبدا من الواضح أننا لا نزال نتناول بقايا الطعام. لا بد أن هذا هو الغداء البارد الذي وُضع في غرفة الطعام أمس ولم أتناوله. بدا أن العاملين يتكاسلون في أداء العمل. جريت بالقلم الرصاص على القائمة، واتصلت بروبرت، وقلت:

- قل للسيدة دانفرز أن تطلب شيئًا ساخنًا، وإذا كان لا يزال هناك كثير من الأشياء الباردة التي يجب تناولها، فإننا لا نريدها في غرفة الطعام.

قال:

- حسنًا يا سيدتي.

تبعته خارج الغرفة، وذهبت إلى غرفة الزهور الصغيرة لأجلب مقصي، ثم ذهبت إلى حديقة الورد وقصصت بعض البراعم الصغيرة. زالت البرودة من الجو، وسيصير اليوم حارًا وخانقًا مثلما كان بالأمس. تساءلت عما إذا كانوا لا يزالون في الخليج، أم أنهم عادوا إلى الخور في ميناء كيريث. سأسمع الأخبار عما قريب، وسرعان ما سيعود ماكسيم ويخبرني. مهما حدث، يجب أن أظل هادئة وساكنة. مهما حدث، يجب ألا أخاف. قصصت الورد، وعدت به إلى غرفة الجلوس الصباحية. نُفض الغبار عن السجادة، وأزيلت البتلات المتساقطة. بدأت أرتب الورد في المزهريات التي ملأها روبرت بالماء. وعندما أوشكت على الانتهاء، أتت طرقة على الباب.

قلت:

- ادخل.

كانت السيدة دانفرز، وقد أمسكت في يدها قائمة الطعام. بدت شاحبة ومتعبة، وأحاطت عينيها هالات كبيرة.

قلت:

- صباح الخير يا سيدة دانفرز.

شرعت تقول:

- لا أفهم، لماذا أرسلت إليَّ قائمة الطعام والرسالة عن طريق روبرت؟ لماذا فعلت ذلك؟

نظرت إليها وفي يدي وردة.

قلت:

- قُدمت شرائح اللحم تلك وذلك السلمون بالأمس، رأيتها على البوفيه. أفضل شيئًا ساخنًا اليوم، وإذا لم يتناولوا الطعام البارد في المطبخ فمن الأفضل أن تتخلصي منه. هناك الكثير من الإسراف في هذا المنزل على أي حال، بحيث لن يشكّل القليل من الإسراف الإضافي أي فرق. حدقت إليَّ، ولم تقل شيئًا، ووضعتُ الوردة في المزهريّة مع البقية.

قلت:

- لا تقولي لي إنك لا تستطيعين التفكير في أي شيء يمكنك تقديمه لنا يا سيدة دانفرز. لا بد أن لديك في غرفتك قوائم طعام لجميع المناسبات. قالت:

- لست معتادة تلقي الرسائل من خلال روبرت. إذا أرادت السيدة دي وينتر تغيير أي شيء، فكانت تتصل بي شخصيًا على هاتف المنزل.

قلت:

- أخشى أنني لا أكرث كثيرًا لما كانت تفعله السيدة دي وينتر. أنا السيدة دي وينتر الآن، كما تعلمين، وإذا اخترت إرسال رسالة من خلال روبرت، فسوف أفعل ذلك.

حينها دخل روبرت الغرفة، وقال:

- صحيفة «كاونتي كرونیکل» على الهاتف يا سيدتي.

قلت:

- فلتخبر صحيفة «كاونتي كرونیکل» بأنني لست موجودة في المنزل.

قال:

- نعم يا سيدتي.

وخرج من الغرفة.

قلت:

- حسنًا يا سيدة دانفرز، هل هناك أي شيء آخر؟

ظلت تحديق إليّ من دون أن تقول شيئًا، فقلت:

- إذا لم يكن لديك شيء آخر تقولينه، فمن الأفضل أن تذهبي لتبليغي الطاهي
بأمر الغداء الساخن. أنا مشغولة نوعًا ما.

قالت:

- لماذا أرادت صحيفة «كاونتي كرونیکل» التحدث إليك؟

قلت:

- ليست لديّ أدنى فكرة يا سيدة دانفرز.

قالت ببطء:

- هل هذا صحيح، تلك الحكاية التي جلبها فريث معه من كيريث الليلة

الماضية، أنه عُثر على قارب السيدة دي ويتتر؟

- هل توجد مثل هذه الحكاية؟ أخشى أنني لا أعرف أي شيء عنها.

- النقيب سيرل، مدير مرفأ كيريث، اتصل هنا بالأمس، أليس كذلك؟ أخبرني

روبرت، كما أن روبرت اقتاده إلى الداخل. يقول فريث إن ما يُحكى في

كيريث هو أن الغطاس الذي غاص عند السفينة هناك في الخليج وجد

قارب السيدة دي ويتتر.

- ربما كان الأمر كذلك. من الأفضل أن تنتظري حتى يأتي السيد دي ويتتر

بنفسه وتسأليه عن ذلك.

- لماذا استيقظ السيد دي وينتر في وقت مبكر إلى هذا الحد؟

- هذا شأن السيد دي وينتر.

واصلت التحديق إليّ، وقالت:

- ذكر فريث أن الحكاية تقول إنه كانت هناك جثة في كابينة القارب الصغير.

لماذا توجد جثة هناك؟ كانت السيدة دي وينتر تبصر وحدها دائماً.

- لا فائدة من سؤالي يا سيدة دانفرز، فأنا لا أعرف شيئاً أكثر مما تعرفينه أنت.

قالت بتمهل:

- ألا تعرفين حقاً؟

ظلت تنظر إليّ، فأشحت بعيداً، وأعدت المزهرية على المنضدة بجانب

النافذة.

قالت:

- سأعطي الأوامر بشأن الغداء.

انتظرت لحظة، ولم أقل شيئاً، ثم خرجت من الغرفة. فكرت أنها لم تعد قادرة

على إخافتي، وقد فقدت قوتها مع ربيكا. مهما قالت أو فعلت الآن فلن يهمني

الأمر أو يؤذي. كنت أعلم أنها عدوتي، ولم أمانع. لكن إذا عرفت حقيقة الجثة

في القارب وأصبحت عدوة ماكسيم أيضاً، فماذا بعد؟ جلست على المقعد،

ووضعت المقص على الطاولة. لم أعد أشعر بالرغبة في تنسيق مزيد من الورد.

ظللت أتساءل عما يفعله ماكسيم، وتساءلت لماذا عاود مراسل صحيفة «كاونتي

كرونكيل» الاتصال بنا مرة أخرى. عاودني ذلك الشعور المرّضي القديم في

أعماقي، فذهبت وانحنيت خارج النافذة. كان الجو حاراً جداً، ودوى الرعد في

السماء. بدأ البستانيون في جز العشب مرة أخرى، وكانت في إمكاني رؤية أحد

الرجال بآلته يسير جيئة وذهاباً على قمة الضفة العشبية. لم أستطع البقاء جالسة

في غرفة الجلوس الصباحية، فتركت مقصي ووردي وخرجت إلى الشرفة. بدأت

أذرع جيئة وذهاباً، وتبعني جاسبر متسائلاً لماذا لا أصطحبه للتمشية. ظللت أذرع

الشرفة، وفي الحادية عشرة والنصف تقريباً خرج إليّ فريث من الردهة.

قال:

- السيد دي وينتر على الهاتف يا سيدتي.

عبرت المكتبة إلى الغرفة الصغيرة وراءها، وارتجفت يدي بينما أنا أرفع السماعه.

قال:

- أهذه أنت؟ أنا ماكسيم، أتحدث من المكتب. أنا بصحبة فرانك.

قلت:

- نعم؟

ساد الصمت، ثم قال:

- سأعود مع فرانك والعقيد جوليان لتناول الغداء في الساعة الواحدة.
- أجل.

انتظرت، وترقبت أن يواصل الحديث. قال:

- تمكنا من رفع القارب، وقد عدت لتوي من الخور.
- أجل.

- كان سيرل هناك، والعقيد جوليان، وفرانك والآخرين.

تساءلت إذا كان فرانك يقف بجانبه عند الهاتف، وإذا كان هذا هو السبب في كونه باردًا جدًا ونائيًا للغاية.

قال:

- حسنًا إذن، توقعي حضورنا في الساعة الواحدة تقريبًا.

أعدت سماعه الهاتف مكانها. لم يخبرني بأي شيء، وما زلت لا أعرف ما حدث. عدت مرة أخرى إلى الشرفة، وأخبرت فريث أولاً بأننا سنكون أربعة على الغداء بدلًا من اثنين.

مضت ساعة بطيئة، وبدأت بلا نهاية. صعدت إلى الطابق العلوي وارتديت فستانًا أخف، ثم نزلت مرة أخرى وذهبت إلى الجلوس في غرفة الاستقبال وانتظرت. في الساعة الواحدة إلا خمس دقائق، سمعت صوت سيارة في الممر،

ثم أصواتًا في الردهة. سويت شعري أمام المرأة، وبدأ وجهي شديد الشحوب. قرصت وجنتي كي تتورد، ووقفت أنتظر دخولهم الغرفة. جاء ماكسيم، وفرانك، والعقيد جوليان. تذكرت رؤية العقيد جوليان في الحفل الراقص مرتديًا زي كرومويل. بدا منكمشًا الآن، ومختلفًا، كأنه رجل أشد ضالة.

تحدث بهدوء وجدية، كأنه طبيب، وقال:

- كيف حالك؟

قال ماكسيم:

- اطلبي من فريث إحضار الشيري، سأذهب للاغتسال.

قال فرانك:

- سأغتسل أنا أيضًا.

وقبل أن أقرع الجرس، ظهر فريث ومعه الشيري. لم يتناول العقيد جوليان أي شيء، بينما أخذت أنا كأسًا لأجد شيئًا أمسكه في يدي. جاء العقيد جوليان ووقف بجانبني عند النافذة.

قال بلطف:

- هذا الأمر مؤلم جدًا يا سيدة دي ويتتر، وأنا متعاطف بشدة معك أنتِ

وزوجك.

- شكرًا لك.

بدأت أحتمي الشيري، ثم وضعت الكأس على الطاولة مرة أخرى، وخشيت أن يلحظ أن يدي ترتعش.

قال:

- ما يجعل الأمر صعبًا جدًا هو حقيقة أن زوجك تعرّف على تلك الجثة

الأولى، منذ أكثر من عام.

- لا أفهم تمامًا.

- لم تسمعي إذن ماذا وجدنا هذا الصباح؟

- أعرف أن هناك جثة. عثر الغطاس على جثة.

- أجل.

ثم التفت وراءه نحو الردهة نصف التفاته، وخفض صوته قائلاً:

- أخشى أنها هي، بلا شك. لا يمكنني الخوض في التفاصيل معك، لكن الأدلة كانت كافية كي يتمكن زوجك والدكتور فيليبس من التعرف عليها. توقف عن الحديث فجأة، وابتعد عني، وعاد ماكسيم وفرانك إلى الغرفة. قال ماكسيم:

- الغداء جاهز، هلأ ذهبنَا؟ مكتبة سُر من قرأ

قدت الطريق إلى الردهة، وقلبي مثقل كالحجر، وغلبه الشعور بالخدر. جلس العقيد جوليان عن يميني وفرانك عن يساري. لم أنظر إلى ماكسيم، وبدأ فريث وروبرت في تقديم الطبق الأول. تحدثنا جميعاً عن الطقس، وقال العقيد جوليان: - رأيت في صحيفة «التايمز» أن الحرارة فاقت الثمانين درجة بكثير في لندن بالأمس.

قلت:

- حقاً؟

- نعم، لا بد أن الأمر مروع بالنسبة إلى أولئك المساكين الذين لا يستطيعون الابتعاد إلى مكان آخر. قلت:

- نعم، مروع.

قال فرانك:

- يمكن أن تكون باريس أشد حرارة من لندن. أذكر أنني قضيت عطلة نهاية الأسبوع في باريس في منتصف شهر أغسطس، وكان من المستحيل تماماً أن أخلد إلى النوم. لم تكن هناك نسمة هواء واحدة في المدينة بأكملها، وكانت درجة الحرارة فوق التسعين.

قال العقيد جوليان:

- بالطبع ينام الفرنسيون دائماً ونوافذهم مغلقة، أليس كذلك؟

قال فرانك:

- لا أعرف، كنت أقيم في فندق. كان معظم الناس من الأمريكيين.

قال العقيد جوليان:

- أنت تعرفين فرنسا بالطبع يا سيدة دي ويتتر؟

قلت:

- ليس بصورة جيدة للغاية.

- أوه، ظننت أنك عشت سنوات عديدة هناك.

قلت:

- لا.

قال ماكسيم:

- كانت تقيم في مونت كارلو عندما قابلتها. أنت لا تُسمِّي ذلك فرنسا، أليس كذلك؟

قال العقيد جوليان:

- نعم، لا أعتقد ذلك. لا بد أنها تضم عديدًا من الجنسيات. لكن الساحل جميل، أليس كذلك؟

قلت:

- جميل جدًا.

- ليس وعراً مثل هذا، أليس كذلك؟ ومع ذلك، أعرف أيهما أفضله. سأختار إنجلترا في أي وقت، عندما يتعلق الأمر بالاستقرار، فالمرء يشعر بالاطمئنان هنا.

قال ماكسيم:

- أعتقد أن الفرنسيين يحملون ذلك الشعور نفسه حيال فرنسا.

قال العقيد جوليان:

- أوه، بلا شك.

واصلنا تناول الطعام في صمت، ووقف فريث خلف مقعدي. كنا جميعًا

نفكر في شيء واحد، لكننا اضطررنا إلى الحفاظ على تمثيلتنا الصغيرة بسبب فريث. أعتقد أن فريث كان يفكر في ذلك أيضًا، وفكرت كم سيصبح الأمر أسهل كثيرًا لو نحينا التقاليد جانبًا، وتركناه ينضم إلينا في الحديث إذا كان لديه ما يقوله. جاء روبرت بالمشروبات، وتغيرت أطباقنا، وقُدِّم الطبق الثاني. لم تنس السيدة دانفرز رغبتى في تناول وجبة ساخنة، وتناولتُ شيئًا من وعاء مغطى بصلصة الفطر.

قال العقيد جوليان:

- أعتقد أن الجميع استمتعوا بحفلك الرائع الليلة الماضية.

قلت:

- يسعدني ذلك جدًا.

قال:

- إنها مفيدة جدًا على المستوى المحلي، الأشياء التي من ذلك القبيل.

قلت:

- نعم، أعتقد أنها كذلك.

قال فرانك:

- إنها غريزة عامة لدى الجنس البشري، تلك الرغبة في ارتداء تنكر من نوع

ما، أليس كذلك؟

قال ماكسيم:

- لا بد أنني أفتقر إلى الإنسانية بدرجة كبيرة إذن.

قال العقيد جوليان:

- إنه أمر طبيعي، على ما أعتقد، أن نتمنى جميعًا الظهور بمظهر مختلف.

فجميعنا أطفال، من بعض النواحي.

تساءلت إلى أي مدى استمتع بالتنكر في هيئة كرومويل. لم أره كثيرًا في الحفل

الراقص، حيث قضى معظم الأمسية في غرفة الجلوس الصباحية يلعب البريدج.

قال العقيد جوليان:

- أنت لا تلعبين الجولف، أليس كذلك يا سيدة دي ويتتر؟

قلت:

- نعم، أخشى أنني لا أفعل.

قال:

- عليك أن تبدئي اللعب، ابنتي الكبرى مهتمة به للغاية، ولا تستطيع العثور على شباب يلعبون معها. قدمت لها سيارة صغيرة في عيد ميلادها، وهي تقودها إلى الساحل الشمالي كل يوم تقريبًا، حيث يمنحها ذلك شيئًا لتفعله.

قلت:

- كم هو لطيف.

قال:

- كان يجب أن تكون هي الصبي، حيث إن ابني مختلف تمامًا، ولا أمل يُرجى منه فيما يتعلق بالرياضة. دائمًا ما ينشغل بكتابة الشعر. أعتقد أنه سيكبر ويتجاوز هذا الأمر.

قال فرانك:

- أوه، غالبًا، كنت أكتب الشعر أيضًا حينما كنت في مثل سنه، وكان هراءً فظيعةً أيضًا، ولا أكتب شيئًا على الإطلاق الآن.

قال ماكسيم:

- يا إلهي، أمل ألا تفعل.

قال العقيد جوليان:

- لا أدري من أين ورث ابني ذلك، بالتأكيد ليس من والدته أو مني. ساد صمت طويل مرة أخرى، ثم تناول العقيد جوليان مزيدًا من الطعام من

الوعاء، وقال:

- بدت السيدة لاسي بمظهر جيد جدًا الليلة الماضية.

قلت:

- أجل.

قال ماكسيم:

- انحل زيها، كالعادة.

قال العقيد جوليان:

- لا بد أن التحكم في تلك الملابس الشرقية فائق الصعوبة، ومع ذلك يقال،
كما تعلمون، إنها أكثر راحة وبرودة بكثير من أي شيء ترتديه النساء في
إنجلترا.

قلت:

- حقاً؟

- أجل، هكذا يقال، يبدو أن كل تلك الأقمشة الفضفاضة تبعد أشعة الشمس
الحارة.

قال فرانك:

- كم هو غريب، حيث يظن المرء أنه سيكون لها التأثير المعاكس تمامًا.
قال العقيد جوليان:

- لا، ليس على ما يبدو.

قال فرانك:

- هل تعرف الشرق يا سيدي؟

قال العقيد جوليان:

- أعرف الشرق الأقصى، حيث كنت في الصين لمدة خمس سنوات، ثم
سنغافورة.

قلت:

- ألا ينتجون الكاري هناك؟

قال:

- بلى، قدموا لنا «كاري» جيداً جداً في سنغافورة.

قال فرانك:

- أحب الكاري.

قال العقيد جوليان:

- آه، هذا الموجود في إنجلترا ليس «كاري» على الإطلاق، بل هو مخلوط.
رُفعت الأطباق، وقُدِّم السوفليه وطبق من سلطة الفواكه. قال العقيد جوليان:
- أعتقد أنكم وصلتم إلى نهاية موسم توت العليق، لقد كان صيفًا رائعًا بالنسبة
إليه، أليس كذلك؟ لقد خزننا الكثير والكثير من قدور المربى.

قال فرانك:

- لا أعتقد أبدًا أن مربى توت العليق ناجحة، فهي تحوي دائمًا كثيرًا من البذور.
قال العقيد جوليان:

- يجب أن تأتي وتجرب بعضًا من مربانا، لا أعتقد أن لدينا كثيرًا من البذور.
قال فرانك:

- سيكون لدينا مقدار كبير من التفاح هذا العام في ماندري. قلت لماكسيم قبل
بضعة أيام إنه سيكون موسمًا قياسيًّا، وستتمكن من إرسال الكثير إلى لندن.
قال العقيد جوليان:

- هل تجد أن ذلك يؤتي ثماره بالفعل؟ عندما تدفع إلى رجالك مقابل العمل
الإضافي، ثم التعبئة والنقل، هل تجني أي ربح يستحق؟
قال فرانك:

- أوه، يا إلهي، نعم.

قال العقيد جوليان:

- يا له من أمر مثير للاهتمام، يجب أن أخبر زوجتي.
لم يستغرق السوفليه وسلطة الفواكه وقتًا طويلًا للانتهاء منهما، وظهر روبرت
ومعه الجبن والبسكويت، وبعد بضع دقائق جاء فريث ومعه القهوة والسجائر.
ثم خرج كلاهما من الغرفة وأغلقا الباب. شربنا قهوتنا في صمت، وحدثت
بشبات إلى طبقي.

استعاد العقيد جوليان نبرته السرية الهادئة التي كان يتحدث بها في البداية،
وشرع يقول:

- كنت أقول لزوجتك قبل الغداء يا دي ويتتر، إن الجزء المربك في هذا الأمر المؤلم برمته هو حقيقة أنك تعرفت على تلك الجثة الأصلية.
قال ماكسيم:

- نعم، تمامًا.

قال فرانك بسرعة:

- أعتقد أن الخطأ كان طبيعيًا جدًا في ظل تلك الظروف. كتبت السلطات إلى ماكسيم، وطلبت منه الذهاب إلى إيدجكوم، وقد افترضوا سابقًا قبل وصوله إلى هناك أن الجثة لها. ولم يكن ماكسيم على ما يرام في ذلك الوقت. أردت الذهاب معه، لكنه صمم على الذهاب وحده. لم يكن في حالة لائقة تسمح بفعل أي شيء من هذا القبيل.
قال ماكسيم:

- هراء، كنت بصحة جيدة تمامًا.

قال العقيد جوليان:

- حسنًا، لا جدوى من الخوض في كل ذلك الآن، لقد تعرفت على تلك الجثة الأولى، والشيء الوحيد الذي يمكن فعله الآن هو الاعتراف بالخطأ، حيث يبدو أنه لا يوجد شك في الأمر هذه المرة.
قال ماكسيم:

- لا.

قال العقيد جوليان:

- أتمنى لو كان في وسعي أن أجنبكما الرسميات والضجة المصاحبة للتحقيق، لكن هذا مستحيل تمامًا.
قال ماكسيم:

- بالطبع.

قال العقيد جوليان:

- لا أعتقد أن الأمر سيستغرق وقتًا طويلاً. فالقضية ما هي إلا مجرد إعادة

تأكيدك للتعرف على الجثة، ثم استدعاء تاب، الذي تقول إنه تولى عملية تحويل القارب عندما جلبته زوجتك من فرنسا، كي يدلي بشهادته بأن القارب كان صالحًا للإبحار وفي حالة جيدة عندما كان في حوض صناعة السفن لديه آخر مرة. إنه مجرد روتين، كما تعلم، لكن لا بد من فعله. لا، ما يزعجني هو الدعاية الحقيرة المصاحبة للقضية، فهو أمر مؤسف ومزعج بالنسبة إليك وإلى زوجتك.

قال ماكسيم:

- لا بأس على الإطلاق، نحن نتفهم ذلك.

قال العقيد جوليان:

- من المؤسف جدًا جنوح تلك السفينة البائسة على الشاطئ هناك، لولا ذلك لرقد الأمر برمته في سلام.

قال ماكسيم:

- أجل.

- العزاء الوحيد هو أننا نعلم الآن أنه لا بد أن وفاة السيدة دي وينتر المسكينة كانت سريعة ومفاجئة، ولم تطل على نحو بطيء ومروع كما اعتقدنا جميعًا. لا يوجد شك في أن تكون حاولت السباحة.

قال ماكسيم:

- لا.

قال العقيد جوليان:

- لا بد أنها نزلت لسبب ما، ثم علق الباب، وعلق القارب وسط عاصفة من دون أن يكون هناك أحد عند الدقة. إنه أمر مروع.

قال ماكسيم:

- نعم.

التفت العقيد جوليان إلى فرانك، وقال:

- يبدو أن هذا هو الحل، ألا تعتقد ذلك يا كرولي؟

مكتبة

t.me/soramnqraa

قال فرانك:

- أوه، بلى، بلا شك.

رفعت عيني، فرأيت فرانك ينظر إلى ماكسيم، ثم أشاح بنظره مرة أخرى على الفور، لكن ليس قبل أن أرى وأفهم التعبير البادي في عينيه. كان فرانك يعلم، ولم يكن ماكسيم على دراية بأنه يعلم. واصلت تقليب قهوتي، وكانت كفي ساخنة ورطبة.

قال العقيد جوليان:

- أعتقد أننا جميعًا نخطئ في الحكم عاجلاً أو آجلاً، وحينها نواجه المخاطر. لا بد أن السيدة دي ويتتر كانت تعلم كيف تأتي الرياح في ذلك الخليج في هيئة أعاصير قمعية، وأن ترك دفعة قارب صغير على ذلك النحو أمر غير آمن. لا بد أنها أبحرت وحدها في تلك البقعة عشرات المرات، ثم حانت اللحظة وجازفت، فقتلتها المجازفة. هذا بمنزلة درس لنا جميعاً.

قال فرانك:

- إن الحوادث تقع بسهولة شديدة، حتى لأكثر الأشخاص خبرة. فكر في عدد الأشخاص الذين يُقتلون في كل موسم خلال الصيد.

- أوه، أعرف ذلك، لكن سقوط الحصان هو ما يخذلك حينها في الغالب. لو لم تترك السيدة دي ويتتر دفعة قاربها، لما وقع الحادث على الإطلاق. إنه شيء غريب جداً ذلك الذي فعلته. لا بد أنني شاهدتها مرات عديدة في السباقات المختلطة في أيام السبت من كيريث، ولم أرها ترتكب خطأً أساسياً قط، حيث إن ذلك من نوعية الأشياء التي يفعلها مبتدئ. ولا سيما في ذلك المكان بالتحديد، بجانب السلسلة الصخرية.

قال فرانك:

- كان الجو عاصفًا جداً في تلك الليلة، ربما حدث شيء ما لتجهيزات القارب، أو ربما علق شيء ما، ونزلت بحثاً عن سكين.

- بالطبع، بالطبع. حسناً، لن نعرف أبداً، ولا أعتقد أن شيئاً سيتغير إذا عرفنا.

كما قلت من قبل، أتمنى أن أوقف هذا التحقيق، لكن لا يمكنني ذلك. أحاول ترتيب الأمر ليوم الثلاثاء صباحًا، وسيكون قصيرًا قدر الإمكان. مجرد مسألة شكلية، لكنني أخشى أننا لن نتمكن من إبعاد المراسلين الصحفيين عن الأمر.

ساد الصمت مرة أخرى، وقدّرت أن الوقت حان كي أدفع مقعدي إلى الورا.

قلت:

- هلاً ذهبنا إلى الحديقة؟

وقفنا جميعًا، ثم تقدمتهم في الطريق إلى الشرفة. ربت العقيد جوليان على جاسبر.

قال:

- لقد كبر وصار كلبًا جميلًا.

قلت:

- نعم.

قال:

- إنها تمثل حيوانات أليفة لطيفة.

قلت:

- أجل.

وقفنا دقيقة تقريبًا، ثم ألقى نظرة سريعة على ساعته.

قال:

- شكرًا لك على الغداء الرائع، أمامي أمسية مزدحمة جدًا بالعمل، وأتمنى أن تسمح لي بالرحيل بسرعة.

قلت:

- بالطبع.

- يؤسفني جدًا حدوث كل ذلك، وأنا متعاطف معكما تمامًا. أعتقد أن الأمر

يكاد يكون أصعب عليكِ مما على زوجك. مع ذلك، بمجرد انتهاء التحقيق،
يجب عليكِما نسيان كل شيء عنه.

قلت:

- نعم، نعم، يجب أن نحاول.

- سيارتي هنا في الممر، أتساءل عما إذا كان كرولي يرغب في أن يوصله أحد
بالسيارة. كرولي؟ يمكنني أن أوصلك إلى مكتبك، إذا كان ذلك سيفيد.

قال فرانك:

- شكرًا لك يا سيدي.

ثم جاء وأمسك يدي، وقال:

- سأراك مرة أخرى.

قلت:

- نعم.

لم أنظر إليه، حيث خشيت أن يفهم عيني. لم أكن أريده أن يعرف أنني أعرف.
سار ماكسيم معهما إلى السيارة، وعندما رحلا عاد إليَّ على الشرفة وأمسك ذراعي.
وقفنا ننظر إلى المروج الخضراء في اتجاه البحر، والفنار على الرأس البحري.

قال:

- سيكون كل شيء على ما يرام، أنا هادئ جدًا، وواثق تمامًا. لقد رأيت كيف
كان جوليان على الغداء، وفرانك. لن تكون هناك أي صعوبة في التحقيق،
وسيكون كل شيء على ما يرام.

لم أقل شيئًا، وأمسكت ذراعه بقوة.

قال:

- لم يكن هناك أي شك في أن الجثة قد تكون لشخص مجهول، وكان ما
رأيناه كافيًا لأن يتعرف الدكتور فيليبس حتى على الجثة وحده، من دوني
أنا. كان الأمر واضحًا وبسيطًا، ولم يكن هناك أي أثر لما فعلته، حيث إن
الرخصة لم تلمس العظم.

أسرعت فراشة طائرة أمامنا على الشرفة، على نحو سخيـف وغير منطقيـ.
واصل قائلاً:

- لقد سمعت ما قالوه، إنهم يعتقدون أنها كانت حبيسة هناك في الكابينة.
ستعتقد هيئة المحلفين ذلك أيضًا في التحقيق. سيخبرهم فيليبس بذلك.
توقف عن الحديث، وظللت على صمتي.
قال:

- لا أكثرث إلا من أجلك أنت فقط، ولست نادماً على أي شيء آخر. لو
تكرر كل ذلك مرة أخرى، فلن أفعل أي شيء مختلف. أنا سعيد لأنني
قتلت ربيكا، ولن أندم على ذلك أبداً، أبداً. أما بالنسبة إليك أنت، فلن
أستطيع نسيان ما فعله هذا الأمر بك. كنت أنظر إليك، ولم أفكر في أي
شيء آخر طوال الغداء. لقد اختفت إلى الأبد، تلك النظرة المضحكة
الطفولية الضائعة التي أحببتها، ولن تعود مرة أخرى. لقد قتلتها هي
أيضاً، عندما أخبرتك بشأن ربيكا... اختفت في غضون أربع وعشرين
ساعة. لقد كبرت كثيراً...

في ذلك المساء، عندما أحضر فريث الصحيفة المحلية، كانت هناك عناوين ضخمة في أعلى الصفحة مباشرة. جلب الصحيفة، ووضعها على الطاولة. لم يكن ماكسيم هناك، إذ صعد مبكرًا إلى الطابق العلوي كي يبدل ملابسه من أجل العشاء. وقف فريث لحظة، في انتظار أن أقول شيئًا، وبدأ لي أن من الحماسة والإهانة تجاهل مسألة لا بد أنها تعني الكثير لكل فرد في المنزل.

قلت:

- هذا الأمر مروع جدًا يا فريث.

قال:

- أجل يا سيدتي، جميعنا في الخارج نشعر بالحزن الشديد.

قلت:

- إنه لأمر محزن جدًا بالنسبة إلى السيد دي وينتر، أن يضطر إلى المرور بكل هذا مرة أخرى.

- نعم يا سيدتي، محزن جدًا. هذه تجربة مروعة يا سيدتي، أن يضطر إلى التعرف على الجثة الثانية بعد أن شاهد الأولى. أعتقد أنه ليس هناك شك إذن، أن الرفات الموجود في القارب هو بالفعل ذلك الخاص بالسيدة دي وينتر الراحلة؟

- أخشى هذا يا فريث، لا شك على الإطلاق.

- يبدو الأمر غريبًا جدًا بالنسبة إلينا يا سيدتي، أنها تركت نفسها تنحبس في الكابينة على ذلك النحو. كانت خبيرة جدًا فيما يتعلق بالقوارب.
- أجل يا فريث، هذا هو شعورنا جميعًا، لكن الحوادث تقع. ولا أعتقد أن أيًا منا سيعرف أبدًا كيف حدث ذلك.
- لا أعتقد ذلك يا سيدتي، لكنها صدمة كبيرة، وجميعنا في الخارج نشعر بالحزن الشديد لذلك. وقد حدث هذا فجأة عقب الحفل مباشرة، لا يبدو الأمر صحيحًا بطريقة ما، أليس كذلك؟
- نعم يا فريث.
- يبدو أنه سيكون هناك تحقيق يا سيدتي؟
- نعم، مجرد مسألة شكلية، كما تعلم.
- بالطبع سيدتي. أتساءل عما إذا كان سيُطلب منا الإدلاء بشهادتنا؟
- لا أعتقد ذلك.
- سأكون سعيدًا جدًا لفعل أي شيء قد يساعد الأسرة، والسيد دي ويتتر يعرف ذلك.
- نعم يا فريث، أنا متأكدة أنه يعرف.
- أخبرتهم في الخارج ألا يناقشوا الأمر، لكن من الصعب جدًا مراقبتهم، ولا سيما الفتيات. يمكنني التعامل مع روبرت بالطبع. أخشى أن الأخبار كانت بمنزلة صدمة كبيرة للسيدة دانفرز.
- نعم يا فريث، توقعت ذلك نوعًا ما.
- صعدت إلى غرفتها بعد الغداء مباشرة ولم تنزل مرة أخرى. أخذت أليس لها فنجانًا من الشاي والصحيفة منذ بضع دقائق، وقالت إن السيدة دانفرز بدت مريضة جدًا بالفعل.
- قلت:
- سيكون من الأفضل حقًا أن تظل في مكانها، فلا فائدة من نهوضها لتتابع

الأمر إذا كانت مريضة. ربما تستطيع أليس إبلاغها بذلك. يمكنني تولى أمر طلب الطعام، بيني وبين الطاهي.

- نعم يا سيدتي. لا أعتقد أنها مريضة جسدياً يا سيدتي، إنها مجرد صدمة العثور على السيدة دي ويتتر. كانت مخلصة للغاية للسيدة دي ويتتر.

قلت:

- نعم، نعم، أعرف ذلك.

خرج فريث من الغرفة بعد ذلك، وألقيت نظرة سريعة على الصحيفة قبل نزول ماكسيم. كان هناك عمود كبير، بطول الصفحة الأولى، وصورة مشوشة بشعة لماكسيم، لا بد أنها التُقِطت قبل خمسة عشر عاماً على الأقل. كان من المروع رؤيتها هناك، وهي تحدد إليّ من الصفحة الأولى، إلى جانب ذلك السطر الصغير عني في الأسفل، الذي ذكر من التي اتخذها ماكسيم زوجة ثانية له، وكيف أقمنا للتو حفلاً تنكرياً راقصاً في ماندري. بدا الأمر فظاً وقاسياً جداً، بتلك الأحرف الداكنة المطبوعة في الصحيفة: ريبكا، التي وصفوها بأنها جميلة، وموهوبة، ومحبوبة من قبل كل من عرفها، التي غرقت منذ عام، ثم زواج ماكسيم مرة أخرى في الربيع التالي، وإحضار عروسه مباشرة إلى ماندري (هكذا قيل)، وإقامة ذلك الحفل التنكري الراقص الكبير على شرفها. وبعد ذلك في صباح اليوم التالي، العثور على جثة زوجته الأولى عالقة في كابينة قاربها الشراعي في قاع الخليج. كان هذا صحيحاً بالطبع، على الرغم من تناثر بعض الأخطاء الصغيرة التي أضيفت إلى القصة، مما جعلها وجبة دسمة لمئات القراء الذين أرادوا الحصول على قيمة مقابل ما دفعوه من مال. بدا ماكسيم دنيئاً في القصة، وشهوانياً نوعاً ما، بعد أن عاد «بعروسه الشابة» كما وُصِفَتْ، إلى ماندري وأقام الحفل الراقص، كأننا نرغب في استعراض أنفسنا أمام العالم.

أخفيت الصحيفة أسفل وسادة المقعد، حتى لا يراها ماكسيم، لكنني لن أستطيع إخفاء الطباعات الصباحية عنه. كما كانت الحكاية في صحفنا القادمة

من لندن أيضًا، حيث كانت هناك صورة لماندرلي، والقصة تحتها. كان ماندرلي خبيرًا، وكذلك ماكسيم. تحدثوا عنه باسم «ماكس دي ويتتر». بدا الأمر مشينًا وبشعًا، وبالغت كل صحيفة في التركيز على حقيقة أن جثة ريبيكا عُثِرَ عليها في اليوم التالي للحفل التنكري الراقص، كأن هناك شيئًا متعمدًا في ذلك الشأن. واستخدمت كلٌّ من الصحف المحلية والصحف اللندنية التعبير نفسه: «مفارقة ساخرة». نعم، أعتقد أنها مفارقة ساخرة. صَنَعَ ذلك قصة جيدة. راقبت ماكسيم على مائدة الإفطار وهو يزداد شحوبًا أكثر فأكثر بينما يقرأ الصحف، واحدة تلو واحدة، ثم الصحيفة المحلية أيضًا. لم يقل شيئًا، بل نظر إليَّ فحسب، فمددت إليه يدي. همس قائلاً:

- عليهم اللعنة، عليهم اللعنة، عليهم اللعنة.

فكرت في كل الأشياء التي يمكنهم قولها، لو أنهم عرفوا الحقيقة. ليس عمودًا واحدًا، بل خمسة أو ستة، ولافتات في لندن، وباعة الصحف يصيحون في الشوارع، خارج محطات المترو، وتلك الكلمة المخيفة المكونة من ثلاثة أحرف، وسط اللافتة، كبيرة وسوداء.

جاء فرانك بعد الإفطار، وبدا شاحبًا ومتعبًا، كأنه لم يَنَمْ. قال لماكسيم:

- أبلغت الاسترال أن يحولوا جميع مكالمات ماندرلي إلى المكتب، ولا يهم مَنْ يكون المتصل. إذا اتصل الصحفيون، في إمكاني التعامل معهم، ومع أي شخص آخر أيضًا. لا أريد أن يقلق أيٌّ منكما أبدًا. لقد تلقينا مكالمات عديدة بالفعل من السكان المحليين، وأعطيتهم جميعًا الرد نفسه: السيد والسيدة دي ويتتر ممتنان لجميع الاستفسارات المتعاطفة، ويأملان أن يفهم أصدقاؤهما أنهما لن يتلقيا مكالمات خلال الأيام القليلة المقبلة. اتصلت السيدة لاسي في الساعة الثامنة والنصف تقريبًا، وأرادت أن تأتي على الفور. شرع ماكسيم يقول:

- يا إلهي...

- لا بأس، لقد منعتها، وأخبرتها بصراحة تامة بأنني لا أعتقد أن قدومها سيفيد

في أي شيء، وأنت لا تريد رؤية أي شخص سوى السيدة دي ويتتر. أرادت أن تعرف متى سيجرون التحقيق، لكنني أخبرتها بأنهم لم يستقروا على ذلك بعد. لا أدري إذا كان في وسعنا منعها من حضور ذلك، إذا وجدته في الصحف.

قال ماكسيم:

- هؤلاء الصحفيون الملاعين.

قال فرانك:

- أعلم ذلك، وجميعنا نرغب في لوي أعناقهم، لكن عليك أن ترى وجهة نظرهم. فهذه هي لقمة عيشهم، وعليهم أداء وظيفتهم لصحفهم. وإذا لم يحصلوا على قصة، فمن المحتمل أن يطردوهم رئيس التحرير من العمل. وإذا لم ينتج رئيس التحرير نسخة يمكن أن تحقق مبيعات، فسيطرده المالك من العمل. وإذا لم تحقق الصحيفة المبيعات، فسيخسر المالك كل أمواله. لن تضطر إلى رؤيتهم أو التحدث إليهم يا ماكسيم، سأتولى كل ذلك نيابة عنك. كل ما عليك التركيز عليه هو شهادتك التي ستدلي بها في التحقيق.

قال ماكسيم:

- أعرف ماذا سأقول.

- بالطبع تعرف، لكن لا تنس أن هوريدج العجوز هو الطبيب الشرعي، وهو رجل صعب المراس، يخوض في تفاصيل لا صلة لها بالموضوع، لمجرد أن يبين لهيئة المحلفين مدى تعمقه في عمله. يجب ألا تدعه يزعجك. لماذا سأنزعج، بحق الجحيم؟ ليس لدي شيء لأنزعج بشأنه.

- بالطبع لا، لكنني حضرت تحقيقات الطب الشرعي هذه من قبل، ومن السهل جداً الشعور بالتوتر وسرعة الانفعال، وأنت لا ترغب في استعداد الرجل.

قلت:

- فرانك على حق، وأنا أعرف ما يعنيه تمامًا. كلما سار الأمر بسرعة وسلاسة

أكبر، صار أسهل للجميع. ثم بمجرد انتهاء هذا الموضوع البائس، سننسى كل شيء عنه، وكذلك سيفعل الجميع، أليس كذلك يا فرانك؟
قال فرانك:
- بلى، بالتأكيد.

كنت لا أزال أتحاشى التقاء عيني بعينه، لكنني بت مقتنعة أكثر من أي وقت مضى أنه يعرف الحقيقة، ولطالما عرفها، منذ البداية. تذكرت المرة الأولى التي قابلته فيها، في ذلك اليوم الأول لي في ماندرلي، عندما كان هو وبياتريس وجايلز جميعًا على الغداء، وأظهرت بياتريس افتقارها إلى اللياقة بشأن صحة ماكسيم. تذكرت فرانك، والطريقة التي غيّر بها الموضوع على نحو هادئ، وكيف أتى لنجدة ماكسيم بأسلوبه الهادئ غير المزعج إذا ثارت أي مسألة صعبة. إحجابه الغريب ذاك عن الحديث عن ربيكا، وأسلوبه الجامد الغريب الطنان في إجراء الحديث كلما شارفنا على أي شيء يشبه الحميمية، فهمت كل ذلك. كان فرانك يعرف، لكن ماكسيم لم يكن على دراية بأنه يعرف. كما لم يرد فرانك أن يدري ماكسيم أنه يعرف. وقفنا جميعًا هناك، نتبادل النظر إلى بعضنا، ونحافظ على هذه الحواجز الصغيرة بيننا.

لم يزعجنا الهاتف مرة أخرى، وحُوّلت جميع المكالمات إلى المكتب. صارت مجرد مسألة انتظار الآن، الانتظار حتى يوم الثلاثاء.
لم أر السيدة دانفرز قط، لكن قائمة الطعام أرسلت كالمعتاد، ولم أغيّرها. سألتُ كلاريس الصغيرة عنها، فقالت إنها تباشر عملها كالمعتاد، لكنها لا تتحدث إلى أي شخص، وتتناول كل وجباتها وحدها في غرفة جلوسها.

اتسعت عينا كلاريس بفضول واضح، لكنها لم تطرح عليّ أي أسئلة، ولم أكن سأناقش الأمر معها. لم يتحدثوا عن أي شيء آخر بلا شك، في المطبخ، وفي العزبة، وفي الكوخ، وفي المزارع، كما افترضت أن كيريث بأكملها تتحدث عن الأمر. بقينا في ماندرلي، في الحدائق القريبة من المنزل، ولم نسِر حتى بين الغابات. لم ينكسر الجو بعد، وكان لا يزال حارًا وخنقًا، والسماء مليئة بدوي

الرعد، وكان المطر مختفياً وراء السماء البيضاء الغائمة، لكنه لم يهطل. كان في إمكاني الشعور به، وشم رائحته، وهو حيس هناك خلف الغيوم. تقرر إجراء التحقيق بعد ظهر يوم الثلاثاء، في الساعة الثانية.

تناولنا الغداء في الساعة الواحدة إلا الربع، وجاء فرانك. حمداً للرب أن بياتريس اتصلت قائلة إنها لا تستطيع المجيء، لأن ابنها روجر وصل إلى المنزل مصاباً بالحصبة، وكانوا جميعاً في الحجر الصحي. لم يسعني إلا أن أطلب من الرب مباركة الحصبة. لا أعتقد أن ماكسيم كان سيستطيع تحمل ذلك، وبياتريس جالسة هنا ومقيمة في المنزل، مخلصه، وقلقة، وحنون، لكنها تطرح الأسئلة طوال الوقت. دائماً ما تطرح الأسئلة.

كانت وجبة الغداء سريعة ومتوترة، ولم يتحدث أيٌّ منا كثيراً. عاودني ذلك الألم المزعج مرة أخرى، ولم أرغب في تناول أي شيء، ولم أستطع الابتلاع. شعرت بالارتياح عندما انتهت تمثيلية الغداء، وسمعت ماكسيم يخرج إلى الممر ويدير السيارة. أعاد إليّ صوت المحرك توازني، إذ كان يعني أن علينا الرحيل، وفعل شيء ما، بدلاً من الجلوس في ماندرلي فحسب، وتبعنا فرانك بسيارته. وضعت يدي على ركبة ماكسيم طوال الطريق وهو يقود السيارة، وبدا هادئاً جداً، وليس متوتراً بأي شكل. بدا الأمر أشبه بالذهاب إلى دار لرعاية المسنين مع شخص ما، شخص سيخضع لعملية جراحية، من دون معرفة ما سيحدث، وما إذا كانت العملية ستنجح. كانت يداي باردتين للغاية، وقلبي يخفق على نحو غريب متشنج، وطوال ذلك الوقت استمر ذلك الألم البسيط المزعج تحت قلبي. تقرر عقد التحقيق في لانيون، مدينة السوق على بُعد ستة أميال على الجانب الآخر من كيريث. كان علينا إيقاف السيارات في ساحة كبيرة مرصوفة بالحصي بجانب السوق. وكانت سيارة الدكتور فيليبس هناك بالفعل، وكذلك سيارة العقيد جوليان، إلى جانب سيارات أخرى أيضاً. رأيت إحدى المارات تحلق بفضول إلى ماكسيم، ثم تلكر ذراع رفيقتها.

قلت:

- أعتقد أنني سأبقى هنا. لا أظن أنني سأدخل معك في نهاية المطاف.
قال ماكسيم:

- لم أكن أريدك أن تأتي، وعارضت ذلك منذ البداية. كان من الأفضل لك
البقاء في ماندرلي.

قلت:

- لا، لا، سأكون بخير هنا، جالسة في السيارة.

جاء فرانك ونظر من النافذة، وقال:

- ألن تأتي السيدة دي ويتتر؟

قال ماكسيم:

- نعم، إنها تريد البقاء في السيارة.

قال فرانك:

- أعتقد أنها على حق، فلا يوجد أي سبب في العالم لوجودها على الإطلاق.
ولن نغيب كثيرًا.

قلت:

- لا بأس.

قال فرانك:

- سأحتفظ لك بمقعد، في حال غيرت رأيك.

ذهبا معًا، وتركاني جالسة هناك. كانت المتاجر تغلق أبوابها مبكرًا في ذلك
اليوم، وبدأت المحال رتيبة ومملة. لم يكن هناك كثير من الناس، حيث لم تكن
لانيون مركزًا لقضاء العطلات على أي حال، إذ كانت بعيدة جدًا عن البحر. جلست
أتأمل المتاجر الصامتة، ومرت الدقائق. تساءلت عما يفعلون، الطبيب الشرعي،
وفرانك، وماكسيم، والعقيد جوليان. ترجلت من السيارة، وبدأت أسير في ساحة
السوق صعودًا وهبوطًا. ذهبت ونظرت إلى نافذة أحد المتاجر، ثم عاودت السير
صعودًا وهبوطًا مرة أخرى. رأيت شرطياً يراقبني بفضول، فانعطفت إلى شارع
جانبي كي أتفاداه.

بطريقة ما، رغمًا عني، وجدت نفسي متوجهة إلى المبنى الذي يجري فيه التحقيق. لم يُعلن عن الموعد الفعلي لإجراء التحقيق على نطاق واسع، ولذلك لم يكن هناك حشد كبير من الناس في الانتظار كما خشيت وتوقعت. بدا المكان مهجورًا، فصعدت الدرج ووقفت في مدخل الباب مباشرة.

ظهر شرطي من العدم، وقال:

- هل تريد شيئا؟

- لا، لا.

- لا يمكنك الانتظار هنا.

- معذرة.

ثم عدت نحو الدرج في الشارع.

قال:

- عفواً يا سيدتي، ألسنت السيدة دي وينتر؟

- بلى.

- هذا يختلف، بالطبع. يمكنك الانتظار هنا إذا شئت. هل ترغبين في الجلوس

داخل هذه الغرفة؟

- شكرًا لك.

قادني إلى غرفة صغيرة خالية بها مكتب، بدت مثل غرفة انتظار في محطة. جلست هناك، ويدي معقودتان في حجري، ومرت خمس دقائق ولم يحدث شيء. كان الأمر أسوأ من الوجود في الخارج، والجلوس في السيارة. نهضت ودخلت الممر، وكان الشرطي لا يزال واقفاً هناك.

قلت:

- كم سيستغرقون من الوقت؟

- سأذهب كي أستفسر إذا شئت.

اختفى في الممر، ثم عاد ثانية بعد لحظة، وقال:

- لا أعتقد أنهم سيتغيبون أكثر من ذلك بكثير، فقد انتهى السيد دي وينتر للتو

من الإدلاء بشهادته، وقد أدلى النقيب سيرل والغطاس والدكتور فيليبس بشهاداتهم بالفعل. لم يبقَ سوى شخص واحد فقط سيتحدث، وهو السيد تاب، صانع القوارب من كيريث.

- إذن انتهى الأمر تقريبًا.

- أتوقع ذلك يا سيدتي.

ثم أضاف قائلاً، وقد طرأت عليه الفكرة فجأة:

- هل ترغيبين في سماع الشهادة المتبقية؟ يوجد مقعد هناك، بجانب الباب مباشرة. إذا دخلت الآن فلن يلاحظك أحد.

- نعم، نعم، أعتقد أنني سأفعل.

شارف الأمر على الانتهاء بعد أن انتهى ماكسيم من الإدلاء بشهادته، ولم يكن لديّ مانع من سماع الباقي. كان ماكسيم هو الذي لا أرغب في سماعه. كنت متوترة من سماع شهادته. ولهذا السبب لم أذهب معه هو وفرانك منذ البداية. لكن لم يعد ذلك يهم الآن، حيث انتهى دوره.

تبعث الشرطي، وفتح باباً عند نهاية الممر، فتسللت داخله وجلست بجوار الباب مباشرة، وحنيت رأسي حتى لا أضطر إلى النظر إلى أي شخص. بدت الغرفة أصغر مما تخيلت، وكانت حارة وخائقة. كنت قد تخيلت غرفة كبيرة خالية، بها مقاعد طويلة، مثل الكنيسة. جلس فرانك وماكسيم عند الطرف الآخر من الغرفة. كان الطبيب الشرعي رجلاً نحيفاً وكبيراً في السن يرتدي نظارة أنفية، وكان هناك أشخاص لا أعرفهم. ألقيت نحوهم نظرة من طرف عيني، ووثب قلبي فجأة عندما تعرفت على السيدة دانفرز. جلست في الخلف مباشرة، وبجانبتها فافيل، جاك فافيل، ابن عم ريبيكا. مال إلى الأمام، وذقنه في يديه، وعيناه مثبتتان على الطبيب الشرعي، السيد هوريدج. لم أتوقع وجوده هناك، وتساءلت عما إذا رآه ماكسيم. كان جيمس تاب، صانع القوارب، واقفاً الآن، والطبيب الشرعي يطرح عليه سؤالاً.

أجاب تاب:

- نعم يا سيدي، لقد حولتُ قارب السيدة دي ويتتر الصغير. كان في الأصل قارب صيد فرنسيًا، واشترته السيدة دي ويتتر بثمن بخس في بريتاني، وشحنته إلى هنا، وأوكلت إليَّ مهمة تحويله وتعديله ليصبح مثل يخت صغير.

قال الطبيب الشرعي:

- هل كان القارب في حالة تسمح له بالإبحار؟

قال تاب:

- كان كذلك عندما جهزته في أبريل من العام الماضي. خزنته السيدة دي ويتتر كالمعتاد في حوض بناء السفن لديّ في شهر أكتوبر، ثم تلقيت منها رسالة في مارس بتجهيزه كالمعتاد، ففعلت. كان ذلك هو الموسم الرابع للسيدة دي ويتتر مع القارب، منذ أن توليت مهمة تحويله لها.

سأل الطبيب الشرعي:

- هل عُرف عن القارب أنه تعرض للانقلاب من قبل؟

- لا يا سيدي، كنت سأسمع بذلك من السيدة دي ويتتر، لو كان هناك شك في ذلك. كانت مسرورة بالقارب من جميع النواحي، حسب ما قالت له لي.

قال الطبيب الشرعي:

- أعتقد أن القارب كان في حاجة إلى عناية كبيرة للتعامل معه؟

- حسنًا يا سيدي، يجب أن يكون الجميع حاضري البديهة عندما يذهبون إلى الإبحار في القوارب، لن أنكر ذلك، لكن قارب السيدة دي ويتتر لم يكن واحدًا من تلك القوارب الصغيرة الغريبة التي لا يمكنك تركها ولو لحظة واحدة، مثل بعض القوارب التي تراها في كيريث. كان قاربًا متينًا وصالحًا للإبحار، ويمكنه تحمّل ريح شديدة. وقد أبحرت به السيدة دي ويتتر من قبل في طقس أسوأ مما واجهته في تلك الليلة، إذ كانت الريح تهب في نوبات متقطعة فحسب حينها، وهذا هو ما قلته طوال الوقت. لم أستطع فهم كيف يضيع قارب السيدة دي ويتتر في ليلة كهذه.

سأل الطبيب الشرعي:

- لكن بالتأكيد، إذا ذهب السيدة دي ويتتر إلى الأسفل لجلب معطف، كما هو مفترض، وأتت هبة مفاجئة من الريح من ذلك الرأس البحري، فسيكون ذلك كافياً لانقلاب القارب؟

هز تاب رأسه، وقال بعناد:

- لا، لا أعتقد ذلك.

قال الطبيب الشرعي:

- حسنًا، أخشى أنه لا بد أن يكون هذا ما حدث. لا أعتقد أن السيد دي ويتتر أو أيًا منا يلمّح إلى أن عملك هو المسؤول عن الحادث على الإطلاق. لقد جهزت القارب في بداية الموسم، وأبلغت أنه سليم وصالح للإبحار، وهذا كل ما أريد معرفته. من سوء الحظ، خففت السيدة دي ويتتر الراحلة من يقظتها للحظة، وفقدت حياتها، حيث غرق القارب وهي على متنه. وقعت مثل هذه الحوادث من قبل، وأكرر مرة أخرى أننا لا نلومك.

قال صانع القوارب:

- عفوا يا سيدي، لكن هناك ما هو أكثر من ذلك بقليل. وإذا سمحت لي، أود أن أدلي بشهادة أخرى.

قال الطبيب الشرعي:

- حسنًا، استمر.

- الأمر هكذا يا سيدي. بعد حادث العام الماضي، تحدث كثير من الناس في كيريث عن عملي بالسوء، وقال بعضهم إنني تركت السيدة دي ويتتر تبدأ الموسم في قارب متعفن يسرب الماء، وقد فقدت طليين أو ثلاثة بسبب ذلك. كان الأمر غير منصف على الإطلاق، لكن القارب غرق، ولم يكن هناك ما يمكنني قوله لتبرئة نفسي. ثم جنحت تلك السفينة البخارية على الشاطئ، كما نعلم جميعًا، وعُثر على قارب السيدة دي ويتتر الصغير، ورُفِع إلى السطح. منحني النقيب سيرل نفسه الإذن أمس بالذهاب والنظر

إليه، وقد فعلت ذلك. أردت إرضاء نفسي بأن العمل الذي نفّذته فيه كان سليماً، على الرغم من أنه ظل مغموراً بالمياه لمدة اثني عشر شهراً أو أكثر. قال الطبيب الشرعي:

- حسناً، كان ذلك طبيعياً تماماً، وآمل أن تكون راضياً.

- أجل يا سيدي، كنت راضياً تماماً، ولم يكن ثمة خطب في ذلك القارب يتعلق بما نفّذته فيه من عمل. وقد تفحصت كل ركن فيه على الصندل البحري حيث وضعه النقيب سيرل. كان قد غرق على قاع رملي، وسألت الغطاس عن الأمر فأخبرني بذلك. لم يلمس السلسلة الصخرية قط، وكانت الصخور على بُعد خمس أقدام. كان ملقى على الرمال، ولم يكن عليه أثر لأي صخور.

توقف عن الحديث، فنظر إليه الطبيب الشرعي بترقب.

- حسناً، هل هذا كل ما تريد قوله؟

قال تاب بنبرة تأكيد:

- لا يا سيدي، هذا ليس كل شيء. ما أريد أن أعرفه هو من الذي أحدث الثقوب في ألواح الخشبية؟ لم تتسبب الصخور في ذلك، حيث كانت أقرب صخرة على بُعد خمس أقدام. علاوة على ذلك، فهي لا تشبه الآثار التي تُحدثها صخرة. بل كانت ثقباً أحدثها وتد.

لم أنظر إليه، بل صوبت نظري إلى الأرض، حيث كان هناك قماش مشمع على ألواح الأرضية، مشمع أخضر اللون، فطالعتة.

تساءلت لماذا لم يقل الطبيب الشرعي شيئاً، ولماذا استمر الصمت فترة طويلة؟ وعندما تحدث أخيراً، بدا صوته بعيداً للغاية.

قال:

- ماذا تقصد؟ أي نوع من الثقوب؟

قال صانع القوارب:

- كان هناك ثلاثة منها في المجمل، واحد في الأمام جهة اليمين، بجانب خزانة

سلاسل المرساة، على اللوح الخشبي الأيمن، أسفل خط الماء، والاثنان الآخران قريبان من بعضهما في وسط السفينة، تحت ألواح الأرضية في الأسفل. كما تحركت الصابورة أيضًا التي تحافظ على اتزان القارب، وكانت ملقاة مفككة. وهذا ليس كل شيء، إذ كانت الصنابير البحرية مفتوحة.

سأل الطبيب الشرعي:

- الصنابير البحرية؟ ما هي؟

- إنها التركيبات التي تسد الأنابيب الموصلة بالمغسلة أو المرحاض يا سيدي.

كان لدى السيدة دي وينتر حمام صغير مجهز في الخلف جهة اليمين، وكان هناك حوض في الأمام، للاغتسال. كان هناك صنوبر بحري في الحوض، وآخر في الحمام. وهي دائمًا ما تُغلق بإحكام حينما يبحر القارب، وإلا ستندفق المياه إلى القارب. وعندما تفحصت القارب بالأمس، كان كلا الصنوبرين البحريين مفتوحين عن آخرهما.

كان الجو حارًا، حارًا جدًا، لماذا لا يفتحون نافذة؟ سنختنق إذا جلسنا هنا والهواء على هذا النحو، وكان هناك كثير من الناس، كلهم يتنفسون الهواء نفسه، كثير من الناس.

- مع وجود تلك الثقوب في ألواح الخشبية يا سيدي، وعدم إغلاق الصنابير البحرية، لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى يغرق قارب صغير مثل ذلك. ليس أكثر من عشر دقائق، على ما أعتقد. ولم تكن تلك الثقوب موجودة عندما خرج القارب من حوض السفن لديّ. كنت فخورًا بعملتي، وكذلك كانت السيدة دي وينتر. وفي رأيي يا سيدي، فإن القارب لم ينقلب على الإطلاق، بل أغرق عمدًا.

يجب أن أحاول الخروج من الباب، وعليّ أن أحاول العودة إلى غرفة الانتظار مرة أخرى. لم يتبقَّ أي هواء داخل هذا المكان، وأخذ الشخص الجالس بجانبني يقترب، ويقترب... وقف شخص ما أمامي، وأخذ يتحدث هو الآخر، كانوا جميعًا يتحدثون. لم أدر ماذا يحدث، ولم أستطع رؤية أي شيء. كان الجو حارًا، حارًا

جدًا، وطلب الطبيب الشرعي من الجميع التزام الصمت، ثم قال شيئًا عن «السيد دي وينتر». لم أتمكن من رؤية شيء، حيث كانت قبعة تلك المرأة أمامي. وقف ماكسيم الآن، ولم أستطع النظر إليه. يجب ألا أنظر إليه. انتابني هذا الشعور من قبل. متى حدث ذلك؟ لا أدري. لا أتذكر. أوه، نعم، مع السيدة دانفرز. تلك المرة عندما وقفت السيدة دانفرز معي بجانب النافذة. كانت السيدة دانفرز موجودة في هذا المكان الآن، تستمع إلى الطبيب الشرعي، بينما وقف ماكسيم هناك. أتت الحرارة نحوي قادمة من الأرض، وتصاعدت في موجات بطيئة. وصلت إلى يدي الرطبتين الزلقتين، ولامست عنقي وذقني ووجهي.

- سيد دي وينتر، لقد سمعت شهادة جيمس تاب، من الذي كان مسؤولًا عن رعاية قارب السيدة دي وينتر؟ هل تعرف أي شيء عن هذه الثقوب التي أُحدثت في الألواح الخشبية؟
- لا شيء على الإطلاق.

- هل يمكنك التفكير في أي سبب لوجودها هناك؟
- لا بالطبع لا.

- هل هذه هي المرة الأولى التي تسمع فيها بأمرها؟
- نعم.

- إنها صدمة لك، بالطبع؟

- كانت صدمة كافية حينما علمت أنني أخطأت في التعرف على الجثة منذ أكثر من اثني عشر شهرًا، وها قد علمت الآن أن زوجتي الراحلة لم تغرق في كابينة قاربها فحسب، بل إن الثقوب أُحدثت في القارب عمدًا بنيةً تسريب الماء إليه حتى يغرق. هل فوجئت لأنني أشعر بالصدمة؟

لا يا ماكسيم، لا، سوف تثير عداؤه. لقد سمعت ما قاله فرانك، يجب ألا تستعديه. ليس هذا الصوت، ليس هذا الصوت الغاضب يا ماكسيم. لن يتفهم، أرجوك يا حبيبي، أرجوك. أوه، يا إلهي، لا تدع ماكسيم يفقد أعصابه. لا تدعه يفقد أعصابه.

- يا سيد دي وينتر، أريدك أن تصدق أننا جميعًا متعاطفون معك بشدة في هذا الأمر. ولا شك أنك تعرضت لصدمة، صدمة كبيرة، عندما علمت أن زوجتك الراحلة غرقت في كابينة قاربها، وليس في البحر كما افترضت. وأنا أحقق في الأمر من أجلك، وأريد أن أعرف، من أجلك أنت، كيف ولماذا ماتت بالتحديد. ولا أُجري هذا التحقيق من أجل تسليتي الشخصية.

- هذا واضح نوعًا ما، أليس كذلك؟

- آمل أن يكون كذلك. أخبرنا جيمس تاب للتو بأن القارب الذي كان يحتوي على رفات السيدة دي وينتر الراحلة به ثلاثة ثقوب أحدثت في قاعه، وأن الصنابير البحرية كانت مفتوحة. هل تشك في شهادته؟

- بالطبع لا، فهو صانع قوارب، ويعرف ما يتحدث عنه.

- مَنْ الذي تولى العناية بقارب السيدة دي وينتر؟

- اعتادت الاعتناء به بنفسها.

- هل استخدمت أي أجير؟

- لا، لا أحد على الإطلاق.

- هل كان القارب يرسو في المرفأ الخاص التابع لماندريلي؟

- نعم.

- هل يمكن رؤية أي غريب يحاول العبث بالقارب؟ وهل يوجد مدخل

للمرفأ عن طريق مسار المشاة العام؟

- لا، على الإطلاق.

- المرفأ هادئ، ومحاط بالأشجار، أليس كذلك؟

- بلى.

- قد لا يُلاحظ وجود دخيل؟

- ربما لا.

- ومع ذلك، أخبرنا جيمس تاب، وليس لدينا سبب لعدم تصديقه، بأن قاربًا

أحدثت به تلك الثقوب في قاعه، وفُتحت به الصنابير البحرية، لا يمكن أن يطفو أكثر من عشر أو خمس عشرة دقيقة.
- فعلاً.

- لذلك يمكننا أن ننحي جانباً فكرة أن القارب تعرض للعبث بسوء نية قبل أن تذهب السيدة دي ويتتر للإبحار مساءً، فلو كان الأمر كذلك لغرق القارب عند مرساه.
- من دون شك.

- لذلك علينا أن نفترض أن أيّاً مَن أخذ القارب في تلك الليلة خرق الألواح الخشبية وفتح الصنابير البحرية.
- أعتقد ذلك.

- لقد أخبرتنا بالفعل بأن باب الكابينة كان مغلقاً، والكوات مغلقة، وكان رفات زوجتك على الأرض. كان هذا في شهادتك، وفي شهادة الدكتور فيليس وشهادة النقيب سيرل؟
- نعم.

- ويُضاف إلى هذا الآن المعلومات القائلة إن هناك وتداً اخترق القاع، وإن الصنابير البحرية كانت مفتوحة. ألا يبدو لك ذلك، يا سيد دي ويتتر، أمراً فائق الغرابة؟
- بالتأكيد.

- هل لديك أي اقتراح تقدمه؟
- لا، لا شيء على الإطلاق.
- يا سيد دي ويتتر، مهما كان الأمر مؤلماً، فمن واجبي أن أطرح عليك سؤالاً شخصياً للغاية.
- نعم.

- هل كانت العلاقات بينك وبين السيدة دي ويتتر الراحلة سعيدة تماماً؟
- كان يجب أن تظهر بالطبع، تلك البقع السوداء أمام عيني، وهي تتراقص

وتومض وتخترق الهواء الضبابي، كما كان الجو حارًا، حارًا جدًّا، في وجود كل هؤلاء الأشخاص، وكل هذه الوجوه، من دون أي نافذة مفتوحة، وبعد أن كان الباب قريبًا مني، صار أبعد مما ظننت، وظلت الأرض تقترب مني طوال ذلك الوقت.

بعد ذلك، من وسط الضباب الغريب المحيط بي، جاء صوت ماكسيم واضحًا وقويًا.

- هل يمكن أن يصطحب شخص ما زوجتي إلى الخارج؟ سوف تفقد الوعي.

جلست في الغرفة الصغيرة مرة أخرى، تلك التي تشبه غرفة الانتظار في المحطة. كان الشرطي هناك، منحنيًا فوقي، ويناولني كوبًا من الماء، وكانت يد أحدهم على ذراعي، يد فرانك. جلست ساكنة تمامًا، وبدأت الأرض والجدران وهيئة فرانك والشرطي تتشكل أمامي.

قلت:

- أنا آسفة جدًا، يا له من شيء أحمق، ذلك الذي فعلته. كان الجو حارًا جدًا في تلك الغرفة، حارًا جدًا.

قال الشرطي:

- إن الجو يصبح خانقًا جدًا هناك، وتلقينا شكاوى كثيرة بذلك الشأن، لكن لا يُتخذ أي إجراء على الإطلاق. سبق أن فقدت بعض النساء الوعي هناك من قبل.

قال فرانك:

- هل تشعرين بتحسن يا سيدة دي ويتتر؟

- نعم، نعم أفضل بكثير. سأكون بخير مرة أخرى، لا تبقي منتظرًا معي.

- سأعيدك إلى ماندري.

- لا.

- نعم، لقد طلب مني ماكسيم ذلك.

- لا، عليك أن تبقى معه.

- قال لي ماكسيم أن أعيذك إلى ماندرلي.
- شبك ذراعه بذراعي، وساعدني على النهوض.
- هل يمكنك المشي إلى السيارة، أم هل يجب عليّ إحضارها إلى هنا؟
- يمكنني المشي، لكنني أفضل البقاء، أريد انتظار ماكسيم.
- قد يغيب ماكسيم مدة طويلة.
- لماذا قال ذلك؟ ما الذي يعنيه؟ لماذا لم ينظر إليّ؟ أمسك ذراعي، وسار معي عبر الممر المؤدي إلى الباب، ونزلنا الدرج إلى الشارع. قد يغيب ماكسيم مدة طويلة...
- لم نتكلم، حتى وصلنا إلى سيارة فرانك الصغيرة التي من طراز موريس.
- فتح الباب وساعدني على الدخول، ثم دخل بنفسه وشغل المحرك. ابتعدنا عن السوق المرصوفة بالحصى، وعبرنا البلدة الخالية، ثم خرجنا إلى الطريق المؤدي إلى كيريث.
- لماذا سيستغرقون مدة طويلة؟ ماذا سيفعلون؟
- قد يتعين عليهم مراجعة الشهادات مرة أخرى.
- نظر فرانك أمامه مباشرة، عبر الطريق الأبيض الصلب.
- قلت:
- لقد استمعوا إلى جميع الشهادات، ولا يوجد ما يمكن أن يضيفه أي شخص آخر.
- قال فرانك:
- لا يمكن أن نعرف أبداً، قد يطرح الطبيب الشرعي أسئلته بطريقة مختلفة.
- لقد غيرَ تاب المسألة برمتها، وسيتعين على الطبيب الشرعي تناول الأمر من زاوية أخرى الآن.
- أي زاوية؟ ماذا تعني؟
- هل سمعت الشهادة؟ هل سمعت ما قاله تاب عن القارب؟ أصبحوا غير مقتنعين بوقوع حادث.

- هذه سخافة يا فرانك، هذا أمر سخيف. لا ينبغي لهم الاستماع إلى تاب، فكيف يمكنه أن يعرف، بعد كل هذه الأشهر، كيف ظهرت الثقوب في القارب؟ ما الذي يحاولون إثباته؟
- لا أعرف.

- سيواصل ذلك الطبيب الشرعي إزعاج ماكسيم، وسيجعله يفقد أعصابه، ويتفوّه بأشياء لا يقصدها. سي طرح عليه سؤالاً تلو سؤال يا فرانك، ولن يتحمل ماكسيم ذلك، أعلم أنه لن يتحمل ذلك.
لم يرد فرانك، وكان يقود بسرعة كبيرة. ولأول مرة منذ أن عرفته، تاهت عنه العبارات التقليدية المعتادة التي تُقال، مما يعني أنه كان قلقًا، قلقًا جدًّا. كما أنه عادة ما كان سائقًا حذرًا متمهلاً، يتوقف تمامًا عند كل مفترق طرق، وينظر يمينًا ويسارًا، ويضغط آلة التنبيه عند كل منعطف في الطريق.
قلت:

- كان ذلك الرجل هناك، ذلك الرجل الذي جاء إلى ماندريلي مرة لرؤية السيدة دانفرز.
سأل فرانك:

- أتقصدين فافيل؟ أجل، لقد رأيته.
- كان جالسًا هناك مع السيدة دانفرز.
- أجل، أعرف.
- لماذا كان هناك؟ أي حق لديه في حضور التحقيق؟
- كان ابن عمها.
- ليس من الصواب أن يجلس هو والسيدة دانفرز هناك، ويستمعان إلى تلك الشهادات، فأنا لا أثق بهما يا فرانك.
- لا.

- قد يفعلان شيئًا، وربما يتسببان في المتاعب.
مرة أخرى، لم يرد فرانك، وأدركت أن ولاءه لماكسيم كان إلى درجة أنه لن

يسمح لنفسه بالانجرار إلى نقاش، حتى لو كان معي. فهو لم يكن على دراية بمدى ما أعرفه، كما لم يكن في وسعي الجزم بمدى ما يعرفه هو. كنا حليفين، نسلك الطريق نفسه، لكننا لم نتمكن من تبادل النظر إلى بعضنا، ولم يجروا أيّ منا على المخاطرة بالاعتراف. انعطفنا الآن عند بوابات الكوخ، وسرنا عبر الممر الطويل المتعرج المؤدي إلى المنزل. لاحظت لأول مرة كيف بدأت زهور القرطاسية تتفتح، ورؤوسها الزرقاء تندفع من بين الأوراق الخضراء خلفها. وعلى الرغم من جمالها، فكان بها شيء كثيب وجنائزي، وبدت مثل تلك الأكاليل الجامدة الصناعية التي تراها تحت الصناديق الزجاجية في ساحة كنيسة أجنبية. كانت هناك بطول الممر، على كلا جانبيها، زرقاء ورتيبة، مثل المتفرجين الذين اصطفوا في الطريق لمشاهدتنا ونحن نمر.

وصلنا إلى المنزل أخيرًا، وانعطفنا عند المساحة الواسعة أمام الدرج.
قال فرانك:

- هل ستكونين بخير الآن؟ يمكنك الاستلقاء، أليس كذلك؟
- بلى، بلى، ربما.

- سأعود إلى لانيون، قد يريدني ماكسيم.

لم يقل المزيد، وركب سيارته مرة أخرى بسرعة، وانطلق مبتعدًا. قد يريده ماكسيم. لماذا قال إن ماكسيم قد يريده؟ ربما كان الطبيب الشرعي سيستجوب فرانك أيضًا، ويسأله عن تلك الليلة، منذ أكثر من اثني عشر شهرًا، عندما تناول ماكسيم العشاء مع فرانك. سيرغب في معرفة الوقت المحدد الذي غادر فيه ماكسيم منزله، وسيريد معرفة ما إذا شاهد أي شخص ماكسيم عندما عاد إلى المنزل، وما إذا كان الخدم يعرفون بوجوده هناك، وما إذا كان أي شخص يمكنه إثبات أن ماكسيم توجه مباشرة إلى الفراش وبدّل ملابسه. قد تُستجوب السيدة دانفرز، وربما يطلبون من السيدة دانفرز الإدلاء بشهادتها. وسيبدأ ماكسيم في فقدان أعصابه، ويأخذ في الشحوب...

دخلت الردهة، وصعدت إلى غرفتي في الطابق العلوي، واستلقيت على

فراشي كما اقترح فرانك. وضعت يدي فوق عيني، وظللت أرى تلك الغرفة وجميع الوجوه، ووجه الطبيب الشرعي المزعج شديد التدقيق، الذي خطته التجاعيد، والنظارة الأنفية الذهبية فوق أنفه.

«لا أُجري هذا التحقيق من أجل تسليتي الشخصية». كانت عقليته المتمهلة الحذرة تستاء بسهولة. ماذا يقولون الآن؟ وما الذي كان يحدث؟ لنفترض أن فرانك عاد وحده إلى ماندرلي بعد قليل؟

لم أعرف ما يحدث، ولم أعرف ما يفعله الناس. تذكرت صور الرجال في الصحف، وهم يغادرون مثل تلك الأماكن، ويُقتادون بعيدًا. لنفترض أنهم اقتادوا ماكسيم بعيدًا؟ لن يسمحوا لي بالذهاب إليه، ولن يسمحوا لي برؤيته. سأضطر إلى البقاء هنا في ماندرلي، يومًا بعد يوم، وليلة بعد ليلة، أنتظر، كما كنت أنتظر الآن. سيتصرف الناس مثل العقيد جوليان بلطف، وسيقول الناس: «يجب ألا تكوني وحدك، يجب أن تأتي لزيارتنا». إلى جانب الهاتف، والصحف، والهاتف مرة أخرى. «لا، السيدة دي وينتر لا تستطيع مقابلة أي شخص، وليست لدى السيدة دي وينتر أي قصة لتقدمها إلى صحيفة «كاونتي كرونيكل»». ويمر يوم آخر، ثم آخر، حتى تتشوش الأسابيع ولا يعود لها وجود. وأخيرًا، سأأخذني فرانك لرؤية ماكسيم، وسيبدو نحيلًا وغريبًا، مثل الناس في المستشفى...

مرت نساء أخريات بهذا الأمر، نساء قرأت عنهن في الصحف. أرسلن رسائل إلى وزير الداخلية، ولم يُجد ذلك نفعًا. لطالما قال وزير الداخلية إن العدالة يجب أن تأخذ مجراها. كما أرسل الأصدقاء التماسات أيضًا، ووقع الجميع عليها، لكن وزير الداخلية لم يستطع فعل أي شيء. وسيقول الناس العاديون الذين قرأوا عن الموضوع في الصحف، لماذا يُعفى عن ذلك الرجل، لقد قتل زوجته، أليس كذلك؟ ماذا عن الزوجة المسكينة المقتولة؟ إن هذه الأمور العاطفية المتعلقة بإلغاء عقوبة الإعدام تشجع ببساطة على الجريمة، وكان على ذلك الرجل التفكير في الأمر قبل الإقدام على قتل زوجته. لقد فات الأوان الآن، ويجب إعدامه من أجل ذلك، مثل أي قاتل آخر. فليكن هذا تحذيرًا للآخرين.

أتذكر أنني رأيت صورة في ظهر إحدى الصحف ذات مرة، لحشد صغير تجمع خارج بوابة السجن، وبعد الساعة التاسعة مباشرة جاء شرطي وعلّق إشعارًا على البوابة ليقرأه الناس. ذكر الإشعار شيئًا عن تنفيذ الحكم. «تم تنفيذ حكم الإعدام صباح اليوم، في الساعة التاسعة، وقد حضر الحاكم وطبيب السجن وعمدة المقاطعة». كانت عملية الشنق سريعة، والشنق غير مؤلم، فهو يتسبب في كسر رقبتك في الحال. لا، إنه لا يفعل. قال أحدهم ذات مرة إنه لا ينجح دائمًا. شخص كان يعرف مدير أحد السجون. كانوا يضعون ذلك الكيس على رأسك، ثم تقف فوق المنصة الصغيرة، ثم تنفتح الأرضية من تحتك. يستغرق الانتقال من الزنزانة إلى لحظة شنقك ثلاث دقائق بالضبط. لا، بل قال أحدهم خمسين ثانية. لا، هذا سخف، لا يمكن أن تكون خمسين ثانية. هناك مجموعة صغيرة من السلالم على جانب السقيفة، تؤدي إلى الحفرة بالأسفل، وينزل الطبيب إلى هناك كي يلقي نظرة. إنهم يموتون على الفور. لا، لا يموتون على الفور. يظل الجسد يتحرك بعض الوقت، ولا تنكسر الرقبة دائمًا. نعم، لكن حتى مع ذلك، فهم لا يشعرون بأي شيء. قال أحدهم إنهم يشعرون. قال شخص لديه أخ عمل طبيبًا في السجن إن الأمر غير معروف بصفة عامة، لأنه سيكون بمنزلة فضيحة، لكنهم لا يموتون على الفور في كل الحالات. كانت أعينهم مفتوحة، وتظل مفتوحة فترة طويلة.

يا إلهي، لا تدعني أواصل التفكير في هذا الأمر. دعني أفكر في شيء آخر، في أشياء أخرى، في السيدة فان هوبر في أمريكا. لا بد أنها تقيم مع ابنتها الآن. كان لديهما ذلك المنزل في لونج آيلاند للصحف. أتوقع أنهما لعبتا الكثير من البريدج، وحضرتا السباقات. كانت السيدة فان هوبر مولعة بالسباقات. أتساءل عما إذا كانت لا تزال ترتدي تلك القبعة الصفراء الصغيرة. كانت صغيرة جدًا بالنسبة إليها، صغيرة جدًا على ذلك الوجه الكبير. السيدة فان هوبر جالسة في حديقة ذلك المنزل بلونج آيلاند، وفي حجرها الروايات والمجلات والصحف. السيدة فان هوبر ترفع منظارها المقرب، وتنادي ابنتها، «انظري إلى هذا يا هيلين.

يقولون إن ماكس دي وينتر قتل زوجته الأولى. لطالما اعتقدت أن هناك شيئاً غريباً بشأنه، ولقد حذرت تلك الفتاة المغفلة أنها ترتكب خطأ، لكنها لم تستمع إليّ. حسناً، لقد أوقعت نفسها في المتاعب الآن بالفعل. أعتقد أنهم سيقدمون لها عرضاً كبيراً للعمل في السينما».

لمس شيء ما يدي، كان جاسبر. جاسبر، يدفع أنفه البارد الرطب في يدي، بعد أن تبعني من الردهة. لماذا تدفع الكلاب المرء إلى الرغبة في البكاء؟ كان هناك في تعاطفها شيء هادئ ويأس للغاية. علم جاسبر أن هناك خطباً ما، كما تعلم الكلاب دائماً. حقائب تُحزم، وسيارات تأتي إلى الباب، وكلاب تقف بذيول متدلّية وأعين حزينة، ثم تعود إلى سلالها في الردهة عندما يتلاشى صوت السيارة...

لا بد أنني أخلدت إلى النوم، لأنني استيقظت فزعة فجأة، وسمعت أول هزيم للرعْد في الهواء. اعتدلت جالسة، وأظهرت الساعة أنها الخامسة. نهضت وذهبت إلى النافذة. لم تكن هناك نسمة من الريح، وتدلّت الأوراق في خمول على الأشجار، منتظرة. بدت السماء رمادية داكنة، وشق البرق الحاد السماء. أتى هزيم رعد آخر من بعيد، ولم يسقط أي مطر. خرجت إلى الممر وأصخت السمع، لكنني لم أستطع سماع أي شيء. توجهت إلى رأس الدرج، ولم يكن هناك أثر لأي شخص. كانت الردهة مظلمة بسبب تهديد الرعد في السماء. نزلت إلى الطابق السفلي، ووقفت على الشرفة. انفجر الرعد مرة أخرى، وسقطت على يدي قطرة واحدة من المطر. قطرة واحدة، لا أكثر. كان الظلام حالكاً جداً، وكانت في إمكاني رؤية البحر وراء منخفض الوادي مثل بحيرة سوداء. سقطت قطرة أخرى على يدي، ثم أتى هزيم الرعد ثانية. بدأت إحدى الخادومات في إغلاق نوافذ الغرف في الطابق العلوي، وظهر روبرت وأغلق نوافذ غرفة الاستقبال خلفي. سألته:

- لم يعد الرجال بعد، أليس كذلك يا روبرت؟

- نعم يا سيدتي، ليس بعد. ظننت أنك بصحبتهما يا سيدتي.

- لا، لقد عدت منذ مدة.

- هل ستتناولين الشاي يا سيدتي؟

- لا، سأنتظر.

- يبدو أن حرارة الجو ستتكسر أخيرًا يا سيدتي.

- أجل.

لم يسقط أي مطر، لا شيء منذ هاتين القطرتين على يدي. عدت وجلست في المكتبة، ودخل روبرت إلى الغرفة في الخامسة والنصف.

قال:

- لقد وصلت السيارة أمام الباب الآن يا سيدتي.

قلت:

- أي سيارة؟

- سيارة السيد دي ويتتر يا سيدتي.

- هل يقودها السيد دي ويتتر بنفسه؟

- أجل يا سيدتي.

حاولت النهوض، لكن بدا الأمر كأن ساقَي من القش، ولم تحملاني. وقفت متكئة على الأريكة، وحلقي جاف للغاية. بعد دقيقة، دخل ماكسيم إلى الغرفة، ووقف في مدخل الباب مباشرة.

بدا متعبًا جدًّا، وعجوزًا، وكانت هناك تجاعيد عند زاوية فمه لم ألاحظها من

قبل.

قال:

- انتهى كل شيء.

انتظرت، وأنا لا أزال غير قادرة على الحديث أو التحرك نحوه.

قال:

- انتحار، من دون أدلة كافية لإظهار الحالة الذهنية للمتوفاة. كان تفكيرهم

مشوشًا بالطبع، ولم يعرفوا ماذا يفعلون.

جلست على الأريكة، وقلت:

- انتحار، لكن ما الدافع؟ أين الدافع؟

- الرب وحده يعلم، لا يبدو أنهم يعتقدون أنه من الضروري وجود دافع.

أخذ العجوز هوريدج ينظر إليّ، وهو يريد معرفة ما إذا كانت ربيكا لديها

أي مشكلات مالية. مشكلات مالية، يا إلهي!

ذهب ووقف بجانب النافذة، ناظرًا إلى المروج الخضراء، وقال:

- سوف تمطر، حمدًا للرب، سيسقط المطر أخيرًا.

- ماذا حدث؟ ماذا قال الطبيب الشرعي؟ لماذا بقيت هناك كل هذا الوقت؟

- ظل يناقش المعلومات نفسها، مرارًا وتكرارًا، تفاصيل صغيرة عن القارب

لا يكثرث لها أحد. هل كان من الصعب فتح الصنابير البحرية؟ أين يقع

الثقب الأول بالتحديد بالنسبة إلى مكان الثقب الثاني؟ وما الصابورة؟ وما

تأثير انزياح الصابورة في اتران القارب؟ هل يمكن لامرأة أن تفعل هذا

من دون مساعدة؟ هل باب الكابينة يُغلق بإحكام؟ وما ضغط الماء اللازم

لفتح الباب؟ ظننت أنني سأجن، لكن مع ذلك حافظت على أعصابي.

رؤيتك هناك عند الباب، جعلتني أتذكر ما يتعين عليّ فعله، ولو أنك لم

تفقد الوعي على ذلك النحو، لما فعلت هذا أبدًا. هزني ذلك فأفقت،

وأدركت ما سأقوله بالضبط. واجهت هوريدج طوال الوقت، ولم أرفع

عينَي على الإطلاق عن وجهه النحيف، الدقيق، الصغير، وتلك النظارة

الأنفية ذات الإطار الذهبي. سوف أتذكر وجهه هذا إلى يوم وفاتي. أنا

متعب يا حبيبتى، متعب جدًا، إلى درجة أنني لا أستطيع أن أرى أو أسمع

أو أشعر بأي شيء.

جلس على المقعد المجاور للنافذة، وانحنى إلى الأمام ورأسه بين يديه. ذهبت

وجلست بجانبه، وفي غضون دقائق قليلة جاء فريث، وتبعه روبرت وهو يحمل

الطاولة من أجل الشاي. بدأت الطقوس المهيبة كما هي العادة دائمًا، يومًا بعد

يوم. فُتح جانبا الطاولة، وضُبطت الأرجل، ووُضع المفروش ذو البياض الثلجي، ثم

وُضع إبريق الشاي الفضي والغلاية مع اللهب الصغير تحتها، والفظائر، والشطائر، وثلاثة أنواع من الكعك. جلس جاسبر بالقرب من الطاولة، وذيله يضرب الأرض من حين إلى حين، وعيناه مثبتتان عليّ بترقب. فكرت كم هو غريب أن روتين الحياة يستمر، ومهما حدث، نفعل الأشياء نفسها، ونؤدي تلك التمثيلية الصغيرة ونحن نتناول الطعام، وننام، ونغتسل. لا يمكن لأزمة أن تخرق قشرة العادة. صبيت شاي ماكسيم، وأخذته إليه عند المقعد بجوار النافذة، وناولته فطيرة، ثم دهنت واحدة بالزبدة لنفسي.

سألته:

- أين فرانك؟

- كان عليه الذهاب لرؤية القس. كنت سأذهب أيضًا، لكنني أردت العودة إليك مباشرة. ظللت أفكر فيك، وأنت تنتظرين هنا وحدك تمامًا، ولا تعرفين ما الذي سيحدث.

- لماذا القس؟

- يجب أن يحدث شيء هذا المساء، شيء ما في الكنيسة.

حدقت إليه بوجه خالٍ من التعبير، ثم فهمت. كانوا سيدفنون ريبيكا. كانوا سيعيدون ريبيكا من المشرحة.

قال:

- تحددت الساعة السادسة والنصف للقيام بالأمر، ولا أحد يعرف سوى فرانك، والعقيد جوليان، والقس، وأنا. لن يكون أحد موجودًا في الجوار، ورُتّب الأمر بالأمر، حيث إن الحكم لا يشكّل أي فرق.

- في أي وقت يجب عليك الذهاب؟

- سألتقيهم هناك في الكنيسة في الساعة السادسة وخمس وعشرين دقيقة.

لم أقل شيئًا، وواصلت شرب الشاي. وضع ماكسيم شطيرته من دون أن يتذوقها، وقال:

- لا يزال الجو حارًا جدًّا، أليس كذلك؟

- إنها العاصفة، لم تضرب بعد، بل يسقط المطر في قطرات صغيرة متفرقة.
إنها هناك في الجو، لكنها لم تضرب بعد.
- كان الرعد يدوي عندما غادرت لانيون، وكانت السماء كالحبر فوق رأسي.
لماذا لا تمطر، بحق السماء؟

صمتت الطيور بين الأشجار، وكان الظلام لا يزال حالكًا.
قلت:

- أتمنى لو أنك لم تكن مضطراً إلى الخروج مرة أخرى.
لم يرد، وبدا متعباً، متعباً بدرجة مميتة.
قال بعد فترة:

- سنناقش الأمور هذا المساء بعد عودتي، فلدينا الكثير لنفعله معاً، أليس
كذلك؟ علينا أن نبدأ من جديد مرة أخرى. لقد كنت أسوأ زوج لك.
- لا! لا!

- سنبدأ من جديد، ما إن نضع هذا الأمر وراءنا. يمكننا فعل ذلك، أنا وأنت.
فالأمر مختلف عن كون المرء وحده، ولا يمكن أن يؤذينا الماضي إذا كنا
معاً. وستنجيبين أطفالاً أيضاً.
بعد فترة، نظر إلى ساعته وقال:

- إنها السادسة وعشر دقائق، يجب أن أذهب. لن يستغرق الأمر كثيراً من
الوقت، ليس أكثر من نصف ساعة. علينا النزول إلى السرداب.
أمسكت يده قائلة:

- سأتي معك. لا مانع لديّ، دعني آت معك.
- لا، لا أريدك أن تأتي.

ثم خرج من الغرفة، وسمعت صوت السيارة وهي تتحرك عبر الممر. سرعان
ما تلاشى الصوت، وعرفت أنه رحل.

أتى روبرت ليرفع أغراض الشاي، وبدا يوماً مثل أي يوم آخر، ولم يتغير
النظام. تساءلت عما إذا كان الأمر سيصبح كذلك لو لم يعد ماكسيم من لانيون.

وتساءلت عما إذا كان روبرت سيقف هناك، وذلك التعبير الرسمي على وجهه الشبيه بالخروف الصغير، وهو ينظف الفتات من فوق مفرش الطاولة ذي البياض الثلجي، ويلتقط الطاولة ويحملها من الغرفة.

بدت المكتبة هادئة جدًا عندما رحل. بدأت أفكر فيهم هناك في الكنيسة، وهم يعبرون ذلك الباب وينزلون الدرج المؤدي إلى السرداب. لم أذهب إلى هناك من قبل، ورأيت الباب فحسب. تساءلت عن شكل السرداب، وإذا كانت ثمة توابيت منتصبة هناك: والد ماكسيم ووالدته. تساءلت عما سيحدث لتابوت تلك المرأة الأخرى التي وُضعت هناك بالخطأ. وتساءلت عمّن تكون، تلك الروح المسكينة التي لم يطالب بها أحد، التي أُلقت بها الريح والمد. والآن، سينتصب تابوت آخر هناك، وسترقد ريبيكا أيضًا في السرداب. هل كان القس يتلو قداس الدفن هناك، وماكسيم وفرانك والعقيد جوليان يقفون إلى جانبه؟ الرماد إلى الرماد، والتراب إلى التراب. بدا لي أن ريبيكا لم تُعد حقيقة، بل تحللت عندما وجدوها على أرضية الكابينة. لم تكن ريبيكا هي التي ترقد في السرداب، بل كانت ترابًا، مجرد تراب.

بعد الساعة السابعة بقليل، بدأ المطر يتساقط، برقة أولاً، مجرد طقطقة بسيطة بين الأشجار، وخفيفة للغاية إلى درجة أنني لم أتمكن من رؤيته. ثم تزايدت سرعته وتعالى صوته، حتى صار سيلاً عاتياً ينهمر على نحو مائل من السماء الرمادية، كاندفاع الماء من السد. تركت النوافذ مفتوحة على مصاريعها، ووقفت أمامها واستنشقت الهواء البارد النقي. تناثر المطر على وجهي وعلى يدي، ولم أستطع رؤية ما وراء المروج، فقد كان المطر المتساقط كثيفاً وسريعاً. سمعته يقطقط في الميازيب فوق النافذة، ويتناثر على أحجار الشرفة. لم يعد هناك رعد، وعبق المطر برائحة الطحالب والأرض ولحاء الأشجار الأسود.

لم أسمع فريث عندما أتى عند الباب. وقفت بجانب النافذة أشاهد المطر، ولم أره حتى صار بجانيبي.

قال:

- معذرة يا سيدتي، هل تعرفين ما إذا كان السيد دي ويتتر سيتغيب كثيرًا؟
- لا، ليس كثيرًا.

قال فريث بعد لحظة من التردد:

- هناك رجل أتى لرؤيته يا سيدتي، ولست متأكدًا تمامًا مما يجب أن أقوله.
إنه شديد الإصرار على رؤية السيد دي ويتتر.

- من يكون؟ هل هو شخص تعرفه؟

بدا فريث منزعجًا، وقال:

- نعم يا سيدتي، إنه رجل كان يأتي هنا كثيرًا في وقت من الأوقات، عندما
كانت السيدة دي ويتتر على قيد الحياة. رجل يدعى السيد فافيل.

جثوث على المقعد المجاور للنافذة، وأغلقتها، حيث كان المطر يتساقط
على الوسائد، ثم استدرت ونظرت إلى فريث.

قلت:

- أعتقد أنه ربما كان من الأفضل أن أرى السيد فافيل.

- حسنًا يا سيدتي.

ذهبت ووقفت على البساط بجانب المدفأة الفارغة. كان من المحتمل أن
أتمكن من التخلص من فافيل قبل عودة ماكسيم. لم أكن أعرف ما سأقوله له،
لكنني لم أشعر بالخوف.

في غضون لحظات قليلة، عاد فريث وقاد فافيل إلى المكتبة. بدا كما كان من
قبل بدرجة كبيرة، لكنه صار أكثر خشونة إذا كان ذلك ممكنًا، وأكثر إهمالًا بعض
الشيء. كان من ذلك النوع من الرجال الذين يبقون بلا قبعة على الدوام، وصار
شعره أفتح بفعل الشمس في الأيام الأخيرة، وبدت بشرته شديدة السمرة. كانت
عيناه محترقتين بالدماء، وتساءلت عما إذا كان قد تناول الشراب.

قلت:

- أخشى أن ماكسيم ليس هنا، ولا أعرف متى سيعود. ألن يكون من الأفضل
أن تحدد موعدًا لرؤيته بالمكتب في الصباح؟

قال فافيل:

- الانتظار لا يقلقني، ولا أعتقد أنني سأضطر إلى الانتظار طويلاً، كما تعلمين.
ألقيت نظرة على غرفة الطعام عندما جئت، ورأيت أن مكان ماكس مهياً
لتناول العشاء بالفعل.

- لقد تغيرت خططنا، ومن المحتمل جداً أن ماكسيم لن يكون في المنزل
طوال هذا المساء.

قال فافيل بنصف ابتسامة لم تعجبني:

- لقد هرب، أليس كذلك؟ أتساءل عما إذا كنت تعنين ذلك حقاً. بالطبع في
ظل هذه الظروف، فإن هذا هو أذكى شيء يمكنه أن يفعله. الشائعات أمر
مزعج بالنسبة إلى بعض الناس، ومن الأفضل تجنبها، أليس كذلك؟
- لا أعرف ماذا تقصد.

- ألا تعرفين حقاً؟ أوه، دعك من هذا، أنت لا تتوقعين مني تصديق هذا، أليس
كذلك؟ أخبريني، هل تشعرين بتحسن؟ من المؤسف أنك فقدت الوعي على
ذلك النحو في أثناء التحقيق عصر اليوم. كنت سأتي لمساعدتك، لكنني
رأيت أن لديك فارساً بالفعل. أراهن أن فرانك كرولي استمتع بنفسه. هل
تركته يوصلك إلى المنزل؟ لم تسمح لي بتوصيلك بالسيارة مسافة خمس
ياردات عندما عرضت عليك ذلك.

- ما الذي تريد رؤية ماكسيم بشأنه؟

انحنى فافيل نحو الطاولة، وتناول سيجارة قائلًا:

- لا مانع لديك في أن أدخن، على ما أعتقد؟ لن يجعلك ذلك تشعرين
بالاعتلال، أليس كذلك؟ فلا يستطيع المرء التأكد أبدًا عندما يتعلق الأمر
بالعرائس.

راقبني من فوق ولاعته، وقال:

- لقد كبرت بعض الشيء منذ رأيتك آخر مرة، أليس كذلك؟ أتساءل عما
كنت تفعلينه. تقودين فرانك كرولي عبر الحديقة؟

نفث سحابة من الدخان في الهواء، وقال:

- هل لديك مانع في أن تطلبي من فريث العجوز أن يحضر لي ويسكي وصودا؟
لم أقل شيئاً، وذهبت وقرعت الجرس. جلس على حافة الأريكة يؤرجح ساقيه، وعلى شفثيه نصف الابتسامة تلك. أجاب روبرت الجرس، فقلت:
- ويسكي وصودا للسيد فافيل.

قال فافيل:

- حسناً يا روبرت، لم أرك منذ فترة طويلة جداً. هل ما زلت تحطم قلوب الفتيات في كيريث؟

تخضب وجه روبرت، وألقى عليّ نظرة سريعة وهو محرج بشدة.

- حسناً يا فتى، لن أفضحك. اذهب وأحضر لي جرعة مزدوجة من الويسكي، وأسرع.

اختفى روبرت، فضحك فافيل، وأسقط الرماد على الأرض في كل مكان.
قال:

- خرجت مع روبرت ذات مرة في يوم عطلته، راهتني ربيكا مقابل خمسة جنيهات أنني لن أطلب منه ذلك. وقد ربحُ الجنيهات الخمسة بالفعل، وقضيت واحدة من أطرف أمسيات حياتي. كم ضحككت، يا إلهي! أؤكد لك أن لا شيء يفوق روبرت وهو يعربد، وعليّ الاعتراف بأنه يحسن اختيار الفتيات، فقد اختار أجمل من في المجموعة التي رأيناها ليلتها.

عاد روبرت مرة أخرى حاملاً الويسكي والصودا على صينية، وهو لا يزال متخضباً جداً ومنزعجاً بشدة. راقبه فافيل بابتسامة وهو يصب له الشراب، ثم بدأ يضحك متكئاً على ذراع الأريكة. صفر نغمات من أغنية وهو يراقب روبرت طوال الوقت.

قال:

- هذا هو، أليس كذلك؟ هل كان هذا هو اللحن؟ هل ما زلت تحب الشعر الأصهب يا روبرت؟

وجه إليه روبرت ابتسامة باهتة ضعيفة، وبدأ عليه البؤس، فضحك فافيل بصوت أعلى، واستدار روبرت وخرج من الغرفة.
قال فافيل:

- يا للفتى المسكين، لا أعتقد أنه انطلق منذ ذلك الحين، حيث إن ذلك الحمار العجوز فريث يبقيه مقيدًا.
بدأ يشرب الويسكي والصدودا، وتلفت حوله في الغرفة، ونظر إليّ بين الحين والحين وهو يبتسم.
قال:

- لا أعتقد أنني سأهتم كثيرًا إذا لم يعد ماكس لتناول العشاء. ما قولك أنت؟
لم أرد، ووقفت بجانب المدفأة ويدي معقودتان خلف ظهري، فقال:
- لن تضيعي ذلك المكان المعد على طاولة الطعام، أليس كذلك؟
نظر إليّ وهو لا يزال مبتسمًا، وقد أمال رأسه جانبًا.
قلت:

- يا سيد فافيل، لا أريد أن أكون وقحة، لكن في الحقيقة أنا متعبة جدًا. لقد مررت بيوم طويل ومرهق إلى حدٍّ ما. وإذا لم يكن في وسعك إخباري عما تريد رؤية ماكسيم بشأنه، فلا جدوى من جلوسك هنا. من الأفضل أن تفعل ما أقترحه، وتذهب إلى مكتب إدارة العزبة في الصباح.
انزلق من على ذراع الأريكة وأتى نحوي، وكأسه في يده، وقال:

- لا، لا، لا، لا تكوني قاسية. لقد مررت بيوم مرهق أيضًا. لا تهربي وتركيني، فلا ضرر مني، حقًا. أعتقد أن ماكس قصّ عليك حكايات عني؟
لم أرد، فواصل قائلاً:

- أنتِ تعتقدين أنني ذئب كبير شرير، أليس كذلك؟ لكنني لست كذلك، كما تعلمين، بل أنا رجل عادي تمامًا، لا ضرر مني. وأعتقد أنك تتصرفين على نحو رائع بخصوص هذا الأمر برمته، رائع تمامًا. أخلع لك قبعتي احترامًا، حقًا أفعل.

أتى خطابه الأخير هذا مشوشًا للغاية بصوت أجش، وتمنيت لو لم أخبر فريث بأني سأراه.

لوح بذراعه على نحو غامض، وقال:

- أتيت هنا إلى ماندرلي، وواجهت هذا المكان بأكمله، وقابلت مئات الأشخاص الذين لم تريهم من قبل، وتحملت العجوز ماكس وتقلباته المزاجية، ولم تكثرني لأي شخص، بل مضيت في طريقك فحسب. أعد ذلك جهدًا رائعًا، ولا يهمني من يسمعي أقول ذلك، جهدًا رائعًا جدًا.

ترنح بعض الشيء وهو واقف، فثبت نفسه ووضع الكأس الفارغة على الطاولة، وواصل قائلاً:

- لقد كان هذا الأمر بمنزلة صدمة لي، كما تعلمين، صدمة لعينة مروعة. كانت ربيكا ابنة عمي، وكنت مولعًا بها بشدة.
- نعم، أنا آسفة جدًا من أجلك.

تابع الحديث:

- لقد نشأنا معًا، ولطالما كنا صديقين رائعين. أحببنا الأشياء نفسها، والأشخاص أنفسهم، وضحكنا على النكات نفسها. أعتقد أنني كنت مولعًا بربيكا أكثر من أي شخص آخر في العالم، كما كانت هي مولعة بي. كان هذا الأمر برمته بمنزلة صدمة لعينة.

- نعم، نعم، بالطبع.

- وماذا سيفعل ماكس حيال ذلك، هذا ما أريد أن أعرفه؟ هل يعتقد أنه يستطيع الجلوس بهدوء الآن بعد أن انتهى ذلك التحقيق الوهمي؟ أخبريني بذلك؟
لم يعد مبتسمًا، وانحنى نحوي قائلاً:

- سأؤكد من تحقيق العدالة لربيكا.

ازداد صوته ارتفاعًا، وقال:

- انتحار... رباه، ذلك الطبيب الشرعي العجوز الأحمق جعل هيئة المحلفين تعلن أنه انتحار. أنا وأنت نعلم أنه لم يكن انتحارًا، أليس كذلك؟

انحنى مقترباً مني بدرجة أكبر، وقال ببطء:

- أليس كذلك؟

انفتح الباب ودخل ماكسيم إلى الغرفة، وفرانك خلفه مباشرة. وقف ماكسيم ساكناً تماماً، والباب مفتوح، وهو يحدق إلى فافيل، وقال:

- ما الذي تفعله هنا، بحق الجحيم؟

استدار فافيل ويداه في جيبيه، وانتظر لحظة ثم بدأ يتسّم.

- في الحقيقة يا ماكس، أيها العجوز، جئت لأهنتك على ذلك التحقيق عصر اليوم.

قال ماكس:

- هل تمانع في مغادرة المنزل؟ أم هل تريدنا أن نلقيك في الخارج، أنا وكرولي؟

قال فافيل:

- انتظر لحظة، انتظر لحظة.

أشعل سيجارة ثانية، وجلس مرة أخرى على ذراع الأريكة.
قال:

- أنت لا تريد أن يسمع فريث ما سأقوله، أليس كذلك؟ حسناً، سوف يفعل، إذا لم تغلق هذا الباب.

لم يتحرك ماكسيم، ورأيت فرانك يغلق الباب بهدوء شديد.
قال فافيل:

- الآن، اسمع يا ماكس، لقد خرجت من هذه القضية على نحو جيد جداً، أليس كذلك؟ أفضل مما توقعت على الإطلاق. أوه، نعم، كنت في المحكمة عصر اليوم، وأعتقد أنك رأيتني. كنت هناك من البداية إلى النهاية. ورأيت زوجتك تفقد وعيها في لحظة حرجة للغاية، وأنا لا ألومها. كان الوضع حرجاً حينها، أليس كذلك يا ماكس، فيما يتعلق بأي منحي سيتخذه التحقيق؟ ومن حسن حظك أن الأمور سارت على ذلك النحو الذي آلت إليه. أنت

لم تقدم رشوة لأولئك الحمقى الذين كانوا يمثلون هيئة المحلفين، أليس كذلك؟ فقد بدا لي الأمر كذلك بالفعل.
تحرك ماكسيم نحو فافيل، لكن فافيل رفع يده.
قال:

- انتظر قليلاً، هل في وسعك ذلك؟ لم أنتهِ بعد. أنت تدرك يا ماكس، أيها العجوز، أنني أستطيع جعل الأمور مزعجة جداً بالنسبة إليك إذا اخترت، أليس كذلك؟ وليست مزعجة فحسب، لكن هل أقول خطيرة؟
جلست على الكرسي بجانب المدفأة، وأمسكت ذراعَي الكرسي بشدة. أتى فرانك ووقف خلف الكرسي، وظل ماكسيم من دون أن يتحرك، ولم يرفع عينيه عن فافيل قَطُّ.
قال:

- أوه، حقاً؟ كيف يمكنك جعل الأمور خطيرة؟
قال فافيل:

- انظر هنا يا ماكس، أعتقد أنه لا توجد أسرار بينك وبين زوجتك، وكما يبدو فإن كرولي هنا يكمل الثلاثي السعيد. كنتم جميعاً تعلمون بشأنِي أنا ورييكا، كنا عشيقين، أليس كذلك؟ لم أنكر ذلك قَطُّ، ولن أفعل أبداً. حسناً، إذن، حتى الوقت الحاضر، كنت أعتقد، مثل أي أحرق آخر، أن ربييكا غرقت وهي تبخر في الخليج، وأن جثتها التُقطت في إيدجكوم بعد أسابيع. كانت صدمة لي حينها، صدمة لعينة. لكنني قلت لنفسِي إن تلك هي نوعية الميتة التي كانت ربييكا ستختارها، وإنها ستموت كما عاشت، وهي تقاتل.
توقف عن الحديث وجلس على حافة الأريكة ينقل نظره بيننا جميعاً بالتبادل، ثم واصل:

- ثم التقت صحيفة المساء قبل بضعة أيام، وقرأت أن غطاساً محلياً عثر على قارب ربييكا، وأن هناك جثة في الكابينة. لم أستطع فهم الأمر. مَنْ الذي ستصطحبه ربييكا بحق الجحيم ليرافقها في أثناء الإبحار؟ لم يكن

لذلك أي معنى. أتيت هنا، وأقمت في حانة خارج كيريث، وتواصلت مع السيدة دانفرز، فأخبرتني حينها بأن الجثة في الكابينة كانت لريبيكا. ومع ذلك، اعتقدت مثل الجميع أن الجثة الأولى كانت خطأ، وأن ربيكا انجbst داخل الكابينة بطريقة ما عندما ذهبت لإحضار معطف. حسنًا، لقد حضرت التحقيق اليوم، كما تعلم. وسار كل شيء على ما يرام، أليس كذلك، حتى قدم تاب شهادته؟ لكن بعد ذلك؟ حسنًا يا ماكس، أيها العجوز، ماذا لديك لتقوله عن تلك الثقوب في ألواح الأرضية، وتلك الصنابير البحرية المفتوحة عن آخرها؟

قال ماكسيم ببطء:

- هل تعتقد أنني سأخوض في الأمر مرة أخرى معك، بعد تلك الساعات من الحديث عصر اليوم؟ لقد سمعت الشهادات، وسمعت الحكم. وقد أَرْضَى الطبيب الشرعي، ويجب أن يرضيك أنت.

قال فافيل:

- انتحار إذن؟ انتحرت ربيكا. كانت ستُقدم على مثل ذلك الشيء، أليس كذلك؟ اسمع، أنت لم تعرف قط أن لديّ هذه الرسالة، أليس كذلك؟ احتفظت بها، لأنها كانت آخر شيء كتبه لي على الإطلاق. سأقرأها لك، وأعتقد أنها سوف تثير اهتمامك.

أخرج قطعة من الورق من جيبه، وتعرفت على خط اليد الرفيع المدبب المائل ذاك. قرأ قائلاً:

حاولت الاتصال بك من الشقة، لكنني لم أحصل على جواب، لذا سأذهب إلى ماندرز على الفور. سأكون في الكوخ هذا المساء، وإذا وصلت إليك هذه الرسالة في الوقت المناسب، فهلاً أخذت السيارة وتبعني؟ سأقضي الليلة في الكوخ وسأترك لك الباب مفتوحاً. لديّ ما أقوله لك، وأريد رؤيتك في أقرب وقت ممكن. ربيكا.

أعاد الورقة إلى جيبه، وقال:

- هذا ليس نوع الرسالة التي يكتبها شخص وهو ينوي الانتحار، أليس كذلك؟
وجدتها في انتظاري في شقتي عندما عدت في الرابعة صباحًا تقريبًا. لم
تكن لديّ أي فكرة عن أن ربيكا ستكون في لندن في ذلك اليوم، وإلا كنت
سأتواصل معها. تصادف من سوء الحظ أنني كنت في حفل تلك الليلة،
وعندما قرأت الرسالة في الرابعة صباحًا، قررت أن الوقت تأخر على أن
أهرع في رحلة مدتها ست ساعات إلى ماندرلي، لذا أخذت إلى الفراش،
عازمًا على الاتصال بها في وقت لاحق من اليوم. وقد فعلت، في الساعة
الثانية عشرة تقريبًا، وسمعت أن ربيكا غرقت!

جلس هناك يحدق إلى ماكسيم، ولم يتحدث أيّ منا.
قال فافيل:

- لنفترض أن الطبيب الشرعي قرأ هذه الرسالة عصر اليوم، كان ذلك
سيزيد الأمور صعوبة بعض الشيء بالنسبة إليك، أليس كذلك يا ماكس،
أيها العجوز؟
قال ماكسيم:

- حسنًا، لماذا لم تنهض وتعطيه إياها؟

- اهْدَأْ، أيها العجوز، اهْدَأْ، لا داعي إلى أن تفقد أعصابك. لا أريد أن أحطمك
يا ماكس. الرب يعلم أنك لم تكن صديقًا لي قَطُّ، لكنني لا أحمل لك أي
ضغينة لذلك. فجميع الرجال الذين لديهم زوجات جميلات يغارون،
أليس كذلك؟ وبعضهم لا يستطيع منع نفسه من لعب دور عطيل. لقد
خُلقوا على هذا النحو، ولا ألومهم، بل أشفق عليهم. أنا اشتراكي نوعًا ما
بطريقتي الخاصة، كما تعلم، ولا أفهم لماذا لا يستطيع الرجال مشاركة
نساءهم، بدلًا من قتلهن؟ أي فرق يحدثه ذلك؟ يمكنك الحصول على
متعتك بالقدر نفسه. المرأة الجميلة ليست مثل إطار سيارة، فهي لا تبلى. بل
كلما استخدمتها أكثر، تعمل بشكل أفضل. والآن يا ماكس، ها قد وضعت

كل أوراقى على الطاولة. لماذا لا نتوصل إلى اتفاق من نوع ما؟ أنا لست رجلاً ثرياً، حيث إنني مغرم للغاية بالمقامرة. لكن ما يحبطني هو أنني لا أمتلك أبداً أي رأس مال يمكنني الاعتماد عليه وقت الحاجة. والآن، إذا تلقيت مبلغ ألفين أو ثلاثة آلاف جنيه سنوياً مدى الحياة، فسأتمكن من مواصلة حياتي على نحو مريح، ولن أزعجك مرة أخرى. أقسم بالرب إنني لن أفعل.

قال ماكسيم:

- لقد طلبت منك من قبل مغادرة المنزل، ولن أطلب منك مرة أخرى. هناك باب خلفي، يمكنك فتحه بنفسك.
قال فرانك:

- انتظر نصف دقيقة يا ماكسيم، فالأمر ليس بمثل هذه البساطة.

ثم التفت إلى فافيل، وقال:

- أرى ما تعنيه، وللأسف الشديد، فإن في استطاعتك، كما تقول، أن تحرف الأشياء وتضع الأمور على ماكسيم. لا أعتقد أنه يرى ذلك بوضوح كما أفعل. ما المبلغ المحدد الذي تقترح أن يمنحه لك ماكسيم؟
رأيت ماكسيم يشحب بشدة، وبدأ يظهر على جبينه عرق صغير نابض، وقال:
- لا تتدخل في هذا يا فرانك، فالأمر برمته شأني أنا، ولن أخضع للابتزاز.
ضحك فافيل، ونظر إليّ قائلاً:

- لا أعتقد أن زوجتك ترغب في أن يُشار إليها بوصفها السيدة دي وينتر، أرملة القاتل، الرجل الذي سُنق.

قال ماكسيم:

- أنت تعتقد أنك تستطيع إخافتي، أليس كذلك يا فافيل؟ حسناً، أنت مخطئ، فأنا لا أخشى أي شيء يمكنك فعله. يوجد هاتف في الغرفة المجاورة، هل أتصل بالعقيد جوليان وأطلب منه القدوم؟ إنه القاضي، وسوف يهتم بقصتك.

حذق إليه فافيل وضحك.

قال:

- خدعة جيدة، لكنها لن تنجح. لن تجرؤ على الاتصال بجوليان العجوز.

لدي أدلة كافية لشنقك، أيها العجوز ماكس.

عبر ماكسيم الغرفة ببطء، ومر إلى الغرفة الصغيرة خلفها، ثم سمعت صوت الهاتف.

قلت لفرانك:

- امنعه! امنعه، بحق السماء.

نظر فرانك إلى وجهي، وتوجه بسرعة نحو الباب.

سمعت صوت ماكسيم، باردًا جدًا وهادئًا للغاية، وهو يقول:

- أريد كيريث ١٧.

راقب فافيل الباب ووجهه يعلوه الانفعال على نحو غريب.

سمعت ماكسيم يقول لفرانك:

- دعني وشأني.

ثم بعد ذلك بدقيقتين:

- هل هذا العقيد جوليان الذي يتحدث؟ أنا دي ويتتر. نعم، نعم، أعرف.

أتساءل عما إذا كان في وسعك الحضور إلى هنا في الحال؟ نعم، إلى

ماندرلي. إنه أمر مُلح إلى حد ما. لا أستطيع توضيح السبب عبر الهاتف،

لكنك ستسمع كل شيء بمجرد حضورك. أنا آسف جدًا لأنني مضطر إلى

جر جرتك هكذا. أجل، شكرًا جزيلاً، إلى اللقاء.

عاد مرة أخرى إلى الغرفة، وقال:

- جوليان قادم على الفور.

ثم عبر الغرفة وفتح النوافذ. كان المطر لا يزال يهطل بغزارة، ووقف هناك

مولياً ظهره لنا، يستنشق الهواء البارد.

قال فرانك بهدوء:

- ماكسيم، ماكسيم.

لم يرد، فضحك فافيل وتناول سيجارة أخرى، وقال:

- إذا أردت أن تشنق نفسك، أيها العجوز، فلا أهمية للأمر بالنسبة إليّ.

ثم التقط صحيفة من على الطاولة، وألقى نفسه على الأريكة، ووضع ساقاً فوق الأخرى، وبدأ يقلب الصفحات. تردد فرانك وهو ينقل نظره بيني وبين ماكسيم، ثم أتى بجانبي.

همست قائلة:

- ألا يمكنك أن تفعل شيئاً؟ اخرج وقابل العقيد جوليان، وامنعه من الحضور، وأخبره بأن الأمر برمته كان خطأ.

تحدث ماكسيم من مكانه عند النافذة من دون أن يلتفت، وقال:

- لن يغادر فرانك هذه الحجرة، وسأتعامل مع هذا الأمر وحدي. سيكون العقيد جوليان هنا في غضون عشر دقائق بالضبط.

لم يتفوه أيّ منا بشيء، وواصل فافيل قراءة صحيفته. لم يكن هناك صوت سوى المطر الذي يسقط بثبات، وهطل من دون انقطاع، ثابتاً ومستقيماً ورتيباً. شعرت بالعجز، بلا قوة، ولم يكن هناك شيء يمكنني فعله، ولا شيء يستطيع فرانك فعله. في كتاب أو مسرحية، كنت سأجد مسدساً، وكنا سنطلق النار على فافيل، ونخفي جثته في خزانة. لكن لم يكن هناك مسدس، ولم تكن هناك خزانة. كنا أناساً عاديين، ولا تحدث مثل هذه الأشياء. يمكنني أن أذهب إلى ماكسيم الآن، وأترجاه وأنا جاثية على ركبتي أن يعطي فافيل المال. كان عليّ أن أجلس هناك ويدي في حجري، أراقب المطر، وأراقب ماكسيم وهو يوليني ظهره بينما يقف بجانب النافذة.

كان المطر أشد من أن تتمكن من سماع صوت السيارة، وغطى صوت المطر على جميع الأصوات الأخرى. لم نعلم أن العقيد جوليان وصل حتى انفتح الباب، وقاده فريث إلى الغرفة.

استدار ماكسيم من النافذة قائلاً:

- مساء الخير، ها نحن أولاء نلتقي ثانية. لم تستغرق وقتًا طويلًا للوصول.
قال العقيد جوليآن:
- أجل، قلت إن الأمر عاجل، لذا جئت على الفور. من حسن الحظ، ترك سائقي السيارة في متناول اليد. يا لها من أمسية.
- نظر إلى فافيل بشك، ثم أتى وصافحني، وأومأ إلى ماكسيم قائلاً:
- من الجيد أن المطر هطل، فقد ظل عالقًا في الجو مدة طويلة جدًا. أمل أن تشعرني بتحسن.
- تمتت شيئًا ما، لا أدري ماذا، ووقف ينقل نظره بيننا ويفرك كفيه.
- قال ماكسيم:
- أعتقد أنك تدرك أنني لم أخرجك في أمسية كهذه من أجل زيارة اجتماعية لنصف ساعة قبل العشاء. هذا جاك فافيل، ابن عم زوجتي الأولى الراحلة. لا أعرف ما إذا التقيتما من قبل.
- أومأ العقيد جوليآن برأسه.
- يبدو وجهك مألوفًا. ربما التقيتك هنا في الأيام الخوالي.
- قال ماكسيم:
- بالضبط. تفضل يا فافيل.
- نهض فافيل عن الأريكة، ورمى الصحيفة على المنضدة. بدا أن تلك الدقائق العشر أفاقته، وسار بثبات، ولم يعد مبتسمًا. تكوّن لديّ انطباع بأنه لم يكن سعيدًا تمامًا بالمسار الذي اتخذته الأحداث، ولم يكن مستعدًا للقاء العقيد جوليآن. بدأ يتحدث بصوت عالٍ مستبد إلى حدّ ما، وقال:
- انظر هنا أيها العقيد جوليآن، لا جدوى من اللف والدوران. سبب وجودي هنا هو أنني غير راضٍ عن الحكم الصادر في التحقيق عصر اليوم.
- قال العقيد جوليآن:
- أوه؟ أليس من حق دي وينتر أن يقول ذلك، لا أنت؟
- قال فافيل:

- نعم، لا أعتقد ذلك. لدي حق في الحديث، ليس بوصفي ابن عم ريبكا فحسب، بل كزوجها المستقبلي، لو أنها عاشت.
بدا العقيد جوليان متفاجئًا، وقال:

- أوه، حسنًا، فهمت، هذا مختلف نوعًا ما. هل هذا صحيح يا دي وينتر؟
هز ماكسيم كتفيه، وقال:

- إنها المرة الأولى التي أسمع فيها بالأمر.
نقل العقيد جوليان نظره بينهما بريية، وقال:

- انظر هنا يا فافيل، ما مشكلتك بالضبط؟
حدق إليه فافيل لحظة، وكان في إمكاني أن أرى أنه يخطط لشيء ما في ذهنه، لكنه لم يكن يقظًا بما يكفي بعد لتنفيذ الأمر. وضع يده ببطء في جيب صدره وأخرج رسالة ريبكا.

- كتبت هذه الرسالة قبل ساعات قليلة من انطلاق ريبكا في رحلتها البحرية الانتحارية المزعومة تلك. ها هي ذي، أريدك أن تقرأها، وتقول ما إذا كنت تعتقد أن المرأة التي كتبت تلك الرسالة عقدت العزم على الانتحار.
أخذ العقيد جوليان نظارة من علبة في جيبه، وقرأ الرسالة، ثم أعادها إلى فافيل.
قال:

- لا، في ظاهرها، لا. لكنني لا أعرف ما الذي تشير إليه الرسالة. ربما تعرف أنت، أو ربما يعرف دي وينتر؟

لم يقل ماكسيم شيئًا، وبرم فافيل الورقة بين يديه، وهو يتأمل العقيد جوليان طوال الوقت. قال:

- حددت ابنة عمي موعدًا في تلك الرسالة، أليس كذلك؟ وتعمدت أن تطلب مني القدوم إلى ماندرلي بالسيارة ليلتها لأن لديها ما تخبرني به. لا أعتقد أننا سنعرف أبدًا ماذا كان الأمر بالتحديد، لكن هذا خارج عن الموضوع.
لقد حددت الموعد، وتعمدت قضاء الليلة في الكوخ كي تراني وحدي.
لم أتفاجأ قط من مجرد كونها ذهبت إلى الإبحار، فقد كانت هذه هي طبيعة

تصرفاتها، لمدة ساعة أو نحو ذلك بعد يوم طويل في لندن. لكن أن تُحدث ثقبًا في الكابينة، وتغرق نفسها عمدًا، كنزوة هستيرية مندفعة لفتاة عصابية، أوه، لا، يا عقيد جوليان، يا إلهي، لا! احتقن وجهه بالدماء، وصاح بتلك الكلمات الأخيرة. لم يُجده سلوكه نفعًا، ورأيت من خلال فم العقيد جوليان الذي بات أشبه بخط رفيع أنه لا يميل إلى فافيل. قال:

- يا سيدي العزيز، لن يجديك نفعًا أبدًا أن تفقد أعصابك معي. أنا لست الطبيب الشرعي الذي أجرى التحقيق بعد ظهر اليوم، ولم أكن عضوًا في هيئة المحلفين التي أصدرت الحكم، بل أنا مجرد قاضي المقاطعة. وبالطبع أريد مساعدتك قدر استطاعتي، ودي ويتتر أيضًا. تقول إنك ترفض تصديق أن ابنة عمك قد انتحرت. ومن ناحية أخرى، فقد سمعت، مثلما سمعنا جميعًا، شهادة صانع القوارب. كانت الصنابير البحرية مفتوحة، والثقوب موجودة. حسنًا إذن، ما رأيك لو دخلنا في الموضوع، ما الذي تظن أنه حدث بالفعل؟

أدار فافيل رأسه ببطء، ونظر نحو ماكسيم، وهو لا يزال يبرم الرسالة بين أصابعه.

- لم تفتح ريبيكا تلك الصنابير البحرية قط، ولم تُحدث الثقوب في الألواح الخشبية. لم تُقدم ريبيكا على الانتحار قط. لقد طلبت رأيي، وأقسم بالرب إنني سأعطيك إياه. لقد قُتل ريبيكا، وإذا أردت معرفة القاتل، فهذا هو ذا يقف بجانب النافذة هناك، وعلى وجهه تلك الابتسامة المتعالية اللعينة. ولم يستطع الانتظار حتى، كي ينقضي العام، قبل أن يتزوج أول فتاة تقع عليها عيناه، أليس كذلك؟ ها هو ذا القاتل أمامك، السيد ماكسيميليان دي ويتتر. ألقِ عليه نظرة فاحصة، سيبدو بمظهر جيد وهو مشنوق، أليس كذلك؟ وبدأ فافيل يضحك، ضحكة سكير، بنبرة عالية ومفتعلة وحمقاء، وهو يبرم رسالة ريبيكا بين يديه طوال تلك الأثناء.

حمدًا للرب على ضحكة فافيل، وحمدًا للرب على إصبعه تلك التي أشار بها، ووجهه المتورد، وعينه المحتقتن بالدماء. حمدًا للرب على تلك الطريقة التي وقف بها هناك وهو يترنح على قدميه، لأن كل ذلك استعدى العقيد جوليان، ووضع في صفنا. رأيت الاشمئزاز على وجهه، وحركة شفثيه السريعة. لم يصدق العقيد جوليان. كان العقيد جوليان في صفنا.

قال بسرعة:

- الرجل مخمور، ولا يعرف ما يقوله.

صاح فافيل:

- أنا مخمور؟ أوه، لا يا صديقي العزيز. قد تكون قاضيًا، وعقيدًا فوق ذلك، لكن ذلك لا يهمني. فالقانون في صفي، على سبيل التغيير، وسوف أستغله. هناك قضاة آخرون في هذه المقاطعة اللعينة، سواك أنت، رجال يملكون أدمغة في رؤوسهم، ويفهمون معنى العدالة، لا جنود طردوا من الخدمة منذ سنوات لعدم الكفاءة، ويتجولون وعلى صدورهم مجموعة من الميداليات التافهة. لقد قتل ماكس دي وينتر ريببكا، وسأثبت ذلك.

قال العقيد جوليان بهدوء:

- انتظر لحظة يا سيد فافيل، لقد كنت حاضرًا في التحقيق عصر اليوم، أليس كذلك؟ أتذكرك الآن، رأيتك جالسًا هناك. إذا شعرت بالتأثر إلى هذا الحد بسبب افتقار الحكم إلى العدالة، فلماذا لم تقل ذلك حينها،

لهيئة المحلفين، وللطبيب الشرعي نفسه؟ لماذا لم تقدم هذه الرسالة في المحكمة؟

حذق إليه فافيل، وضحك قائلاً:

- لماذا؟ لأنني اخترت ألا أفعل، هذا هو السبب، وفضلت المجيء والتعامل مع دي ويتتر شخصياً.

تقدم ماكسيم من عند النافذة، وقال:

- لهذا اتصلت بك. لقد سمعنا اتهامات فافيل بالفعل، وسألته السؤال نفسه. لماذا لم يبلغ الطبيب الشرعي بشبهاته؟ قال إنه ليس رجلاً ثرياً، وإنني إذا سددت له ألفين أو ثلاثة آلاف جنيه سنوياً مدى الحياة، فلن يزعجني أبداً. كان فرانك هنا، وزوجتي، وكلاهما سمعه، اسألهما.

قال فرانك:

- هذا صحيح تماماً يا سيدي. إنه ابتزاز، بكل وضوح وبساطة.

قال العقيد جوليان:

- أجل، بالطبع، المشكلة أن الابتزاز ليس واضحاً تماماً، ولا بسيطاً على الإطلاق. ويمكن أن يسبب ذلك الكثير من الإزعاج لعدد كبير من الناس، حتى لو وجد المبتز نفسه في السجن في نهاية المطاف. وأحياناً يجد الأبرياء أنفسهم في السجن أيضاً، ونريد تجنب ذلك في هذه الحالة. لا أدري ما إذا كنت يقطاً بما يكفي يا فافيل، للإجابة عن أسئلتني، لكن إذا ابتعدت عن الشخصيات غير ذات الصلة، فربما ننتهي من هذا الأمر بشكل أسرع. لقد وجهت للتو اتهاماً خطيراً ضد دي ويتتر. هل لديك أي دليل يدعم هذا الاتهام؟

قال فافيل:

- دليل؟ لماذا تريد دليلاً، بحق الجحيم؟ أليست تلك الثقوب في القارب دليلاً كافياً؟

قال العقيد جوليان:

- بالتأكيد ليست دليلاً، إلا إذا كان في إمكانك إحضار شاهد رآه وهو يفعل ذلك. أين شاهدك؟
- قال فافيل:
- اللعنة على الشهود، بالطبع فعل دي ويتتر ذلك، فمن سواه سيقتل ريببكا؟
- قال العقيد جوليان:
- عدد سكان كيريث كبير، لماذا لا تنتقل من باب إلى باب للاستفسار؟ ربما فعلت ذلك بنفسي، لكن يبدو أنك لا تملك أي دليل ضد دي ويتتر، أكثر مما تملك ضدي أنا.
- قال فافيل:
- أوه، فهمت، سوف تأخذ صفه في هذا الموضوع. ستؤيد دي ويتتر، ولن تخذله لأنك تناولت العشاء معه، كما تناول العشاء معك، وله اسم كبير هنا، فهو مالك ماندرلي. أيها المتعجرف الصغير المسكين اللعين.
- احترس يا فافيل، احترس.
- تعتقد أنك تستطيع التغلب عليّ، أليس كذلك؟ وتعتقد أنني لا أملك قضية كي أقدمها للمحكمة. سوف أحضر لك الدليل بالفعل. أؤكد لك أن دي ويتتر قتل ريببكا بسببي. كان يعرف أنني عشيقها، وأحس بالغيرة، غيرة جنونية. علم أنها تنتظرني في الكوخ على الشاطئ، فذهب في تلك الليلة وقتلها، ثم وضع جثتها في القارب وأغرقها.
- يا لها من حكاية بارعة على نحو خاص يا فافيل، لكن أكرر مرة ثانية أنك لا تملك أي دليل. قدم شاهدك الذي رأى ذلك يحدث، وقد أبدأ في أخذك على محمل الجد. أعرف ذلك الكوخ على الشاطئ، إنه مكان ما للنزهات، أليس كذلك؟ اعتادت السيدة دي ويتتر الاحتفاظ بمعدات القارب هناك. إذا تمكنت من تحويله إلى كوخ من طابق واحد بجانبه خمسون نسخة متماثلة، فقد يساعد ذلك حكايتك، إذ ستكون هناك فرصة حينها أن يكون أحد السكان قد رأى الأمر برمته.

قال فافيل ببطء:

- انتظر، انتظر... هناك احتمال أن يكون دي وينتر قد شوهد في تلك الليلة، احتمال كبير أيضًا. ماذا ستقول لو قدمت شاهدًا بالفعل؟

هز العقيد جوليان كتفيه، ورأيت فرانك يلقي نظرة استفسار نحو ماكسيم. لم يقل ماكسيم شيئًا، وأخذ يراقب فافيل. فجأة، عرفت ما يعنيه فافيل، وعرفت عمّن يتحدث، وفي ومضة من الخوف والرعب عرفت أنه على حق، حيث كان هناك شاهد في تلك الليلة. عادت إليّ جمل بسيطة: كلمات لم أفهمها، وعبارات ظننتها شذرات عقل أبله مسكين. «إنها بالأسفل هناك، أليس كذلك؟ لن تعود مرة أخرى». «لم أخبر أحدًا». «سيجدونها هناك، أليس كذلك؟ لقد أكلتها الأسماك، أليس كذلك؟». «لن تعود مرة أخرى». كان بن يعرف. رأى بن الأمر. بن، بعقله الغريب المجنون، كان شاهدًا طوال الوقت. اختبأ في الغابة تلك الليلة، ورأى ماكسيم يأخذ القارب من المرسى، ويعود في زورق التجديف وحده. عرفت أن الدماء تهرب من وجهي، واتكأت إلى الوراء على وسادة الكرسي.

قال فافيل:

- هناك أبله محلي يقضي وقته على الشاطئ، ودائمًا ما كان يتسكع هناك، عندما كنت آتي للقاء ريبيكا. كثيرًا ما شاهدته، كان ينام في الغابة، أو على الشاطئ عندما يكون الليل حارًا. الرجل مجنون، ولم يكن ليتقدم بالشهادة قطّ من تلقاء نفسه، لكن في وسعي أن أجعله يتحدث إذا رأى أي شيء في تلك الليلة، وهناك فرصة كبيرة أنه رأى شيئًا بالفعل.

سأل العقيد جوليان:

- من هذا؟ عمّن يتحدث؟

ألقي فرانك نظرة أخرى نحو ماكسيم، وقال:

- لا بد أنه يقصد بن، إنه ابن أحد المستأجرين لدينا. لكن الرجل ليس مسؤولًا عما يقوله أو يفعله. كان أبله منذ ولادته.

قال فافيل:

- وماذا يهم في ذلك، بحق الجحيم؟ فليديه عينان، أليس كذلك؟ وهو يعرف ما يراه. عليه فقط أن يجيب بنعم أو لا. بدأت تشعر بالقلق الآن، أليس كذلك؟ ألم تعد واثقًا بنفسك بشدة؟
سأل العقيد جوليان:

- هل يمكننا أن نحضر هذا الرجل ونستجوبه؟
قال ماكسيم:

- بالطبع، قل لروبرت أن يذهب إلى منزل والدته ويعود به يا فرانك. تردد فرانك، ورأيته ينظر إليّ من طرف عينه.
قال ماكسيم:

- هيّا بحق السماء، نريد الانتهاء من هذا الأمر، أليس كذلك؟ خرج فرانك من الغرفة، وبدأت أشعر بذلك الألم القديم المزعج تحت قلبي. في غضون دقائق قليلة، عاد فرانك مرة أخرى إلى الغرفة.
قال:

- أخذ روبرت سيارتي، وإذا كان بن في المنزل، فلن يتغيب أكثر من عشر دقائق.
قال فافيل:

- سيبقيه المطر في المنزل بالتأكيد، سيكون هناك. وأعتقد أنك ستجدني قادرًا على دفعه إلى الحديث.

ضحك، ونظر إلى ماكسيم. كان وجهه لا يزال محمرًا جدًا، وجعلته الإثارة يتصبّب عرقًا، فندت جبينه قطرات من العرق. لاحظت كيف انتفخت رقبته على مؤخرة ياقته، وكم كانت أذناه منخفضتين على رأسه. لن تدوم ملامحه الوسيمة المتوردة تلك طويلًا، حيث إنه كان متورمًا ويفتقر إلى اللياقة البدنية بالفعل. تناول سيجارة أخرى، وقال:

- أنتم أشبه بنقابة عمالية صغيرة هنا في ماندري، أليس كذلك؟ لن يفضح أي شخص الآخر، وحتى القاضي المحلي ينتمي إلى العصابة نفسها. لكن

يجب أن نستثني العروس بالطبع، فالزوجة لا تدلي بالشهادة ضد زوجها. أما كرولي بالطبع، فقد تم شراؤه، وهو يعلم أنه سيفقد وظيفته إذا أقر بالحقيقة. وإذا صح تخميني، فهو يحمل لي الضغينة في أعماقه أيضًا. لم تنجح في تحقيق نجاح يذكر مع ربيكا، أليس كذلك يا كرولي؟ لم يكن ذلك الممر بالحديقة طويلًا بما يكفي، أليس كذلك؟ لكن الأمر أسهل قليلًا هذه المرة، أليس كذلك؟ ستكون العروس ممتنة لذراعك الأخوية في كل مرة تفقد فيها الوعي، وعندما تسمع القاضي يحكم على زوجها بالإعدام، ستكون ذراعك مفيدة جدًا.

حدث الأمر بسرعة كبيرة، أسرع من أن أرى كيف فعل ماكسيم ذلك، لكنني رأيت فافيل يترنح ويسقط على ذراع الأريكة، ثم على الأرض، وماكسيم يقف بجانبه مباشرة. شعرت بالاعتلال نوعًا ما، كما كان هناك شيء مهين في حقيقة أن ماكسيم ضرب فافيل، وتمنيت لو لم أعرف، وتمنيت لو لم أكن هناك لأرى. لم يقل العقيد جوليان شيئًا، وبدأ متجهًا للغاية. أدار لهما ظهره، وجاء ووقف بجانبني.

قال بهدوء:

- أعتقد أنه من الأفضل لك الصعود إلى الطابق العلوي.

هززت رأسي، وهمست قائلة:

- لا، لا.

قال:

- ذلك الرجل في حالة يمكن أن يتفوه معها بأي شيء. لم يكن ما رأيته للتو جذابًا للغاية، أليس كذلك؟ كان زوجك على حق بالطبع، لكن من المؤسف أنك رأيت ذلك.

لم أرد، وراقبت فافيل الذي أخذ ينهض على قدميه ببطء، ثم جلس بتثاقل على الأريكة ووضع منديل على وجهه.

قال:

- أحضروا لي شرابًا، أحضروا لي شرابًا.

نظر ماكسيم إلى فرانك، فخرج فرانك من الغرفة، ولم يتكلم أيُّ منا. وفي لحظة، عاد فرانك حاملًا الويسكي والصودا على صينية. مزج بعضًا منها في كأس، وناولها إلى فافيل، وشربها فافيل بجشع، مثل الحيوان. كان هناك شيء حسي وكره في الطريقة التي وضع بها فمه على الكأس. انطوت شفتاه على الكأس على نحو غريب، وكانت هناك بقعة حمراء داكنة على فكه حيث ضربه ماكسيم. أدار ماكسيم ظهره له مرة أخرى، وعاد إلى النافذة. ألقيت نظرة على العقيد جوليان، ورأيت أنه يتأمل ماكسيم. كانت نظرتة غريبة ومتفحصة، وبدأ قلبي يخفق بسرعة كبيرة. لماذا نظر العقيد جوليان إلى ماكسيم على هذا النحو؟

هل يعني ذلك أنه بدأ يتساءل ويشك؟

لم يره ماكسيم، حيث كان يراقب المطر، الذي هطل بثبات على نحو عمودي مثلما كان من قبل، وملأ الصوت الغرفة. انتهى فافيل من الويسكي والصودا، وأعاد الكأس إلى الطاولة بجانب الأريكة. أخذ يتنفس بصعوبة، ولم ينظر إلى أيُّ منا، بل حلق أمامه مباشرة إلى الأرض.

بدأ الهاتف يرن في الغرفة الصغيرة، وبدأت نغمته حادة وصاخبة، فذهب فرانك ليرد.

عاد على الفور، ونظر إلى العقيد جوليان، وقال:

- إنها ابتك. يريدون معرفة ما إذا كان عليهم تأجيل العشاء.

لوح العقيد جوليان بيده بنفاد صبر، قائلاً:

- قل لهم أن يبدأوا، وأخبرهم بأنني لا أعرف متى سأعود.

نظر إلى ساعته، وتمتم قائلاً:

- تخيل أن يتصلوا الآن، يا له من توقيت ذلك الذي اختاروه.

عاد فرانك إلى الغرفة الصغيرة كي يوصل الرسالة، وفكرت في الابنة على الطرف الآخر من الهاتف. ستكون تلك التي تلعب الجولف، وتخيلتها تنادي شقيقتها: «يقول أبي إن علينا أن نبدأ. ما الذي يفعله، بحق السماء؟ ستصير شريحة

اللحم قاسية كالجلد». اضطربت أسرتهم الصغيرة بسببنا، واختل نظامهم المسائي. كل هذه الخيوط الحمقاء غير المترابطة باتت متشابكة بعضها مع بعض، لأن ماكسيم قتل ريبيكا. نظرت إلى فرانك، وبدا وجهه شاحبًا وجامدًا. قال فرانك للعقيد جوليان:

- سمعت روبرت يعود بالسيارة، فالنافذة هناك تطل على الممر. ثم خرج من المكتبة إلى الردهة. رفع فافيل رأسه عندما تحدث، ثم وقف على قدميه مرة أخرى ووقف ينظر نحو الباب، وعلى وجهه ابتسامة غريبة وقبيحة. انفتح الباب، ودخل فرانك، ثم استدار وتحدث إلى شخص في الردهة بالخارج. قال بهدوء:

- حسنًا يا بن، يريد السيد دي ويتتر أن يعطيك بعض السجائر. لا يوجد شيء لتخشاه.

دخل بن الغرفة بارتباك، وقبعته الواقية من المطر بين يديه. بدا غريبًا وعاريًا من دون قبعته، وأدركت لأول مرة أن رأسه حليق بالكامل، ولم يكن لديه شعر، وبدا مختلفًا ومروعًا.

بدا أن الضوء أذهله، ونظر في أرجاء الغرفة ببلاهة وهو يرمش بعينه الصغيرتين. لمحني، فأرسلت إليه ابتسامة واهنة، مرتعشة نوعًا ما. لم أدري ما إذا تعرف علي أم لا، حيث رمش بعينه فحسب. ثم تقدم منه فافيل ببطء، ووقف أمامه. قال:

- مرحبًا، كيف حالك منذ آخر مرة التقينا؟
حدق إليه بن، ولم يظهر على وجهه أي إدراك، ولم يرد.
قال فافيل:

- حسنًا؟ أنت تعرف من أنا، أليس كذلك؟
واصل بن برم قبعته المضادة للمطر، وقال:
- ماذا؟

قال فافيل:

- خذ سيجارة.

وناوله الصندوق. نظر بن إلى ماكسيم وفرانك.

قال ماكسيم:

- لا بأس، خذ قدر ما تشاء.

أخذ بن أربعاً ووضع اثنتين خلف أذنيه، ثم وقف يرم قبعته مرة أخرى.
كرر فافيل قائلاً:

- أنت تعرف مَنْ أنا، أليس كذلك؟

ظل بن من دون أن يرد، فتقدم منه العقيد جوليان، وقال:

- ستعود إلى منزلك في غضون لحظات قليلة يا بن، ولن يؤذيك أحد.
نريدك أن تجيب عن سؤال أو سؤالين فحسب. أنت تعرف السيد فافيل،
أليس كذلك؟

هز بن رأسه هذه المرة، وقال:

- لم أره من قبل.

قال فافيل بفظاظة:

- لا تكن أحمق لعيناً، أنت تعلم أنك رأيتني. لقد رأيتني أذهب إلى الكوخ
على الشاطئ، كوخ السيدة دي ويتتر. لقد رأيتني هناك، أليس كذلك؟

قال بن:

- لم أر أحداً قط.

قال فافيل:

- أيها الأبله الكاذب اللعين، هل ستقف هنا وتقول إنك لم ترني قط العام
الماضي، أمشي عبر تلك الغابة مع السيدة دي ويتتر، وأدخل الكوخ؟ ألم
نضبطك مرة وأنت تتلصص علينا من النافذة؟

قال بن:

- ماذا؟

قال العقيد جوليآن ساخرًا:

- يا له من شاهد مقنع.

استدار إليه فافيل قائلاً:

- هذه مؤامرة مدبرة، لقد وصل أحدهم إلى هذا الأبله، وقدم له رشوة أيضًا.

أوكد لك أنه رأي عشرات المرات. هاك، هل سيجعلك هذا تتذكر؟

فتش في جيبه، وأخرج محفظة، ولوح أمام بن بورقة من فئة الجنيه، وقال:

- الآن هل تتذكرني؟

هز بن رأسه، وقال:

- لم أرَ أحدًا قطُّ.

ثم أمسك ذراع فرانك، وقال:

- هل جاء إلى هنا ليأخذني إلى المصححة العقلية؟

قال فرانك:

- لا، لا، بالطبع لا يا بن.

قال بن:

- لا أريد الذهاب إلى المصححة، إنهم يعاملون الناس بقسوة هناك. أريد البقاء

في المنزل. لم أفعل شيئًا.

قال العقيد جوليآن:

- لا بأس يا بن، لن يضعك أحد في المصححة. هل أنت متأكد تمامًا أنك لم

ترَ هذا الرجل من قبل؟

قال بن:

- لا، لم أرَ أحدًا قطُّ.

قال العقيد جوليآن:

- أنت تذكر السيدة دي ويتتر، أليس كذلك؟

نظر بن نحوي بارتباب.

قال العقيد جوليآن بلطف:

مكتبة
t.me/soramnqraa

- لا، ليست هذه السيدة، بل السيدة الأخرى التي كانت تذهب إلى الكوخ.
قال بن:
- ماذا؟

- هل تذكر السيدة التي كانت تمتلك القارب؟
رمش بن بعينه، وقال:
- لقد رحلت.

قال العقيد جوليان:

- نعم، نحن نعلم ذلك. كانت تبهر بالقارب، أليس كذلك؟ هل كنت على الشاطئ عندما أبحرت بالقارب آخر مرة؟ ذات مساء، منذ أكثر من اثني عشر شهرًا، عندما لم تعد مرة أخرى؟
برم بن قبعته المضادة للمطر، ونظر إلى فرانك ثم إلى ماكسيم.
قال:

- ماذا؟

مال فافيل إلى الأمام، وقال:

- كنت هناك، أليس كذلك؟ لقد شاهدت السيدة دي وينتر تأتي إلى الكوخ، ثم رأيت السيد دي وينتر أيضًا، دخل إلى الكوخ بعدها. ماذا حدث بعد ذلك؟ هيًا، ماذا حدث؟

انكمش بن وتراجع ملتصقًا بالحائط، وقال:

- لم أر شيئًا. أريد البقاء في المنزل. لن أذهب إلى المصححة. لم أرك على الإطلاق. ليس على الإطلاق. لم أرك أنت وهي في الغابة قط.
أخذ ينتحب كطفل.

قال فافيل ببطء:

- أيها المجنون الصغير الحقيق، أيها اللعين المجنون الصغير الحقيق.
مسح بن عينيه بكم معطفه.

قال العقيد جوليان:

- لا يبدو أن شاهدك قدم لك العون، وكان هذا العرض بأكمله مضيعة للوقت نوعاً ما، أليس كذلك؟ هل تريد أن تسأله عن أي شيء آخر؟
صرخ فافيل:

- إنها مؤامرة، مؤامرة ضدي. وجميعكم مشتركون فيها، كل واحد منكم. أؤكد لك أن شخصاً ما دفع المال إلى هذا الأبله، دفع إليه ليقص سلسلة أكاذيبه القذرة.

قال العقيد جوليان:

- أعتقد أنه يمكن السماح لبن بالعودة إلى المنزل.

قال ماكسيم:

- حسناً يا بن، سوف يعيدك روبرت إلى المنزل. ولن يضعك أحد في المصحة، لا تخف.

ثم أضاف قائلاً لفرانك:

- قل لروبرت أن يجد له شيئاً في المطبخ، بعض اللحوم الباردة، أيّاً ما يشاء.
قال فافيل:

- مكافأة مقابل الخدمات المقدمة، أليس كذلك؟ لقد عمل بجد من أجلك يا ماكس، أليس كذلك؟

أخرج فرانك بن من الغرفة، ونظر العقيد جوليان إلى ماكسيم، وقال:

- بدا الرجل خائفاً بشدة، وأخذ يرتجف مثل ورقة الشجر، كنت أراقبه. لم تُسأ معاملته من قبل، أليس كذلك؟

قال ماكسيم:

- نعم، إنه غير مؤذٍ على الإطلاق، ولطالما تركت له حرية التجول في المكان.
قال العقيد جوليان:

- لقد أخافه أحد في وقت ما، حيث أظهر بياض عينيه، تماماً كما يفعل الكلب عندما تكون ستجلده.

قال فافيل:

- حسنًا، لماذا لم تفعل؟ كان سيتذكرني جيدًا إذا جلدته. أوه، لا، سوف يحصل على عشاء جيد نظير عمله الليلة. لن يُجلد بن.
قال العقيد جوليان بهدوء:

- لم يساعد في قضيتك، أليس كذلك؟ ما زلنا حيث كنا. لا يمكنك تقديم دليل واحد ضد دي وينتر، وأنت تعرف ذلك. لن يصمد الدافع الذي قدمته أمام الاختبار، ولن يكون لديك ما تركز عليه في المحكمة، يا فافيل. تقول إنك كنت زوج السيدة دي وينتر المستقبلي، وإنك عقدت لقاءات سرية معها في ذلك الكوخ على الشاطئ. لكن حتى ذلك الأبله المسكين الذي كان لدينا في هذه الغرفة للتو يقسم إنه لم يرك قط. أنت لا تستطيع حتى أن تثبت قصتك، أليس كذلك؟

قال فافيل:

- ألا أستطيع ذلك؟

رأيته يتسم، ثم عبر الغرفة إلى المدفأة، ودق الجرس.
قال العقيد جوليان:

- ماذا تفعل؟

قال فافيل:

- انتظر لحظة، وسترى.

خمنت بالفعل ما سيحدث. أجب فريث الجرس.
قال فافيل:

- اطلب من السيدة دانفرز أن تأتي إلى هنا.

نظر فريث إلى ماكسيم، فأومأ ماكسيم باقتضاب.

خرج فريث من الغرفة، وقال العقيد جوليان:

- أليست السيدة دانفرز مدبرة المنزل؟

قال فافيل:

- كانت أيضًا صديقة شخصية لريبيكا. كانت معها لسنوات قبل أن تتزوج،

وقامت على تنشئتها تقريبًا. ستجد داني شاهدًا من نوع مختلف تمامًا عن بن.

عاد فرانك إلى الغرفة، فقال فافيل:

- هل أرسلت بن إلى الفراش؟ هل قدمت له العشاء، وأخبرته بأنه فتى طيب؟ هذه المرة، لن يكون الأمر بتلك السهولة بالنسبة إلى النقابة العمالية. قال العقيد جوليان:

- السيدة دانفرز قادمة، ويبدو أن فافيل يعتقد أنه سيحصل منها على شيء. ألقى فرانك نظرة خاطفة على ماكسيم، ورأى العقيد جوليان النظرة. رأيته يزم شففيه، ولم يعجبني ذلك. لا، لم يعجبني ذلك، وبدأت أقضم أظفاري. انتظرنا جميعًا، ونحن نراقب الباب، ودخلت السيدة دانفرز إلى الغرفة. كانت تبدو طويلة ونحيلة بجاني، وربما كان ذلك لأنني اعتدت أن أراها وحدها بشكل عام، لكنها بدت ضئيلة الحجم الآن، وأكثر ذبولًا، ولاحظت أنها كانت مضطرة إلى أن ترفع نظرها إلى فافيل وفرانك وماكسيم. وقفت عند الباب ويدها معقودتان أمامها، ونقلت نظرها بيننا.

قال العقيد جوليان:

- مساء الخير يا سيدة دانفرز.

قالت:

- مساء الخير يا سيدي.

كان صوتها هو ذلك الصوت القديم، الميت، الآلي الذي سمعته كثيرًا.

قال العقيد جوليان:

- في البداية يا سيدة دانفرز، أريد أن أطرح عليك سؤالًا، والسؤال هو: هل كنت على علم بالعلاقة بين السيدة دي وينتر والسيد فافيل هنا؟ قالت السيدة دانفرز:

- كانا ابني عمومة من الدرجة الأولى.

قال العقيد جوليان:

- لم أكن أشير إلى علاقة الدم يا سيدة دانفرز، بل أقصد شيئاً أكثر حميمية من ذلك.

قالت السيدة دانفرز:

- أخشى أنني لا أفهم يا سيدي.

قال فافيل:

- أوه، كُفي عن ذلك يا داني، أنت تعرفين جيداً ما يقصده. لقد أخبرت العقيد جوليان بالفعل، لكن يبدو أنه لا يصدقني. لقد عشت أنا وريببكا معاً فترات متقطعة طوال سنوات، أليس كذلك؟ وكانت واقعة في حبي، أليس كذلك؟

لدهشتي، تأملت السيدة دانفرز لحظة من دون أن تتحدث، وكان هناك شيء من الازدراء في النظرة التي وجهتها إليه.

قالت:

- لم تكن كذلك.

شرح فافيل يقول:

- اسمعي هنا، أيتها العجوز الحمقاء...

لكن السيدة دانفرز قاطعته قائلة:

- لم تكن واقعة في حبك أنت، ولا السيد دي وينتر. لم تكن واقعة في حب أحد، بل كانت تحتقر جميع الرجال. كانت أسمى من كل ذلك.

تدفقت الدماء إلى وجه فافيل بغضب.

- اسمعي هنا، ألم تأت في الطريق عبر الغابة لمقابلتي، ليلة بعد ليلة؟ وألم تسهري في انتظارها؟ وألم تقضي عطلات نهاية الأسبوع معي في لندن؟

قالت السيدة دانفرز بانفعال مفاجئ:

- حسناً؟ وماذا لو فعلت؟ كان لها الحق في تسلية نفسها، أليس كذلك؟ كانت ممارسة الحب لعبة بالنسبة إليها، مجرد لعبة. أخبرتني بذلك. فعلت ذلك لأنه دفعها إلى الضحك. دفعها إلى الضحك، وأكد لك. وقد ضحكت منك

كما فعلت مع الباقين. شهدتها تعود وتجلس في فراشها بالطابق العلوي، وترتج بالضحك منكم جميعاً.

كان هناك شيء مروع في سيل الكلمات المفاجئ ذاك، شيء فظيع وغير متوقع. أثارت اشمئزازي، على الرغم من أنني كنت أعلم، وشحب ماكسيم بشدة. حذق إليها فافيل بلامح خالية من التعبير، كأنه لم يفهم، وجذب العقيد جوليان شاربه الصغير، ولم يقل أحد أي شيء لبضع دقائق، ولم يكن هناك صوت سوى ذلك الصوت المحتوم للمطر المتساقط. بعد ذلك، شرعت السيدة دانفرز في البكاء، وبكت كما فعلت ذلك الصباح في غرفة النوم. لم أستطع النظر إليها، وكان عليّ أن أشيح بعيداً عنها. لم يتفوه أحد بأي شيء، وعلا صوتان فقط في الغرفة: المطر المتساقط وبكاء السيدة دانفرز. جعلني ذلك أرغب في الصراخ، أردت أن أهرع من الغرفة، وأصرخ وأصرخ.

لم يتحرك أحد تجاهها ليقول شيئاً أو يساعدها، وواصلت البكاء. وأخيراً، بعد ما بدا كأنه دهر، بدأت تسيطر على نفسها، وشيئاً فشيئاً توقف البكاء. وقفت ساكنة تماماً، ووجهها يرتعش، ويدها تقبضان على نسيج ثوبها الأسود. وأخيراً، صمتت مرة أخرى، ثم تحدث العقيد جوليان بهدوء وتأن.

قال:

- يا سيدة دانفرز، هل يمكنك التفكير في أي سبب، مهما كان بعيداً، يبرر لماذا أقدمت السيدة دي ويتتر على الانتحار؟

ابتلعت السيدة دانفرز ريقها، وظلت تقبض على ثوبها، وهزت رأسها قائلة:
- لا، لا.

قال فافيل بسرعة:

- هاك، أرايت؟ هذا مستحيل، وهي تعرف ذلك جيداً مثلما أعرف أنا، وقد أخبرتك بالفعل.

قال العقيد جوليان:

- هلاً التزمت الصمت؟ امنح السيدة دانفرز وقتاً للتفكير. كلنا نتفق على أن

الأمر يبدو ظاهرياً غير منطقي، وغير وارد، وأنا لا أجادل في حقيقة أو صحة رسالتك تلك. لقد كتبت إليك تلك الرسالة في وقت ما خلال الساعات التي قضتها في لندن، وكان هناك شيء تريد إخبارك به. لكن من المحتمل أنه إذا عرفنا ماهية هذا الشيء، فقد نعثر على إجابة هذه المشكلة المروعة برمتها. دع السيدة دانفرز تقرأ الرسالة، فربما تستطيع إلقاء الضوء عليها. هز فافيل كتفيه، وتحسس في جيبه بحثاً عن الرسالة، وألقاها على الأرض عند قدمي السيدة دانفرز. انحنت والتقطتها، وشاهدنا شفيتها تتحرك وهي تقرأ الكلمات. قرأتها مرتين، ثم هزت رأسها، وقالت:

- لا جدوى من هذا، لا أعرف ما الذي قصدته. إذا كان هناك شيء مهم عليها أن تخبر به السيد جاك، كانت ستخبرني به أولاً.
- ألم تريبها قَطُّ في تلك الليلة؟

- نعم، كنت في الخارج، وقضيت فترة ما بعد الظهر والمساء في كيريث. لن أسامح نفسي أبداً على ذلك، أبداً، حتى يوم وفاتي.
- ألا تعرفين إذن أي شيء كان يشغل بالها؟ ألا يمكنك اقتراح حل يا سيدة دانفرز؟ هذه الكلمات، «لديّ ما أقوله لك»، هل تخبرك بشيء على الإطلاق؟
قالت:

- لا، لا يا سيدي، لا شيء على الإطلاق.
- هل يعرف أحد كيف أمضت ذلك اليوم في لندن؟
لم يرد أحد، وهز ماكسيم رأسه. أطلق فافيل سباباً مكتوماً، وقال:
- انظر هنا، لقد تركت تلك الرسالة في شقتي في الساعة الثالثة بعد الظهر، رآها حارس الباب. لا بد أنها قادت سيارتها إلى هنا بعد ذلك مباشرة، وانطلقت بسرعة الريح أيضاً.
قالت السيدة دانفرز:

- كان لدى السيدة دي وينتر موعد لتصفيف الشعر من الثانية عشرة حتى الواحدة والنصف. أتذكر ذلك لأنني اضطررت إلى الاتصال بلندن عبر

الهاتف من هنا في وقت سابق من الأسبوع وحجز موعد لها. أتذكر أنني فعلت ذلك. من الثانية عشرة حتى الواحدة والنصف. ودائمًا ما كانت تتناول الغداء في ناديها بعد موعد تصفيف الشعر، حتى تتمكن من ترك الدبايس في شعرها. يكاد يكون من المؤكد أنها تناولت الغداء هناك في ذلك اليوم. قال العقيد جوليان:

- لنقل إنها استغرقت نصف ساعة لتناول الغداء، ماذا فعلت من الثانية حتى الثالثة؟ يجب علينا التحقق من ذلك.

صاح فافيل:

- أوه، يا إلهي، مَنْ يكثرث لما فعلته، بحق الجحيم؟ فهي لم تُقدم على الانتحار، وهذا هو الشيء الوحيد المهم، أليس كذلك؟
قالت السيدة دانفرز ببطء:

- لديّ في مكان مغلق بغرفتي دفتر مواعيدها، احتفظت بكل تلك الأشياء، لأن السيد دي وينتر لم يطلبها مني قط. من المحتمل أن تكون قد سجلت مواعيدها لذلك اليوم. كانت منظمة على ذلك النحو، واعتادت تسجيل كل شيء، ثم كانت تشطب كل بند بخطّين متقاطعين. إذا كنت تعتقد أن هذا قد يفيد، فيمكنني الذهاب لجلب دفتر المواعيد.

قال العقيد جوليان:

- حسنًا يا دي وينتر؟ ما رأيك؟ هل تمانع في أن نرى دفتر المواعيد هذا؟
قال ماكسيم:

- بالطبع لا، لماذا أمانع، بحق السماء؟

مرة أخرى، رأيت العقيد جوليان يلقي عليه تلك النظرة السريعة الغريبة، وهذه المرة لاحظ فرانك الأمر. رأيت فرانك ينظر إلى ماكسيم أيضًا، ثم يعاود النظر إليّ مرة أخرى. هذه المرة، نهض هو وتوجه إلى النافذة. بدا لي أن المطر لم يعد يهطل بشدة، وانقضت حدة العاصفة. أخذ المطر الآن يتساقط على نحو أهدأ وأنعم، وانتشر ضوء المساء الرمادي في السماء. كانت المروج مظلمة

وغطتها الأمطار الغزيرة، وبدت الأشجار ذات مظهر أحذب غامض. سمعت الخادمة بالطابق العلوي تغلق الستائر لتلك الليلة، وتغلق النوافذ التي لم تكن مغلقة بالفعل. استمر النظام اليومي المحتوم كما كان يسير دائمًا. أغلقت الستائر، وأخذت الأحذية إلى الطابق السفلي لتنظيفها، ووضعت المناشف على الكرسي في الحمام، وأعد الماء من أجل حمامي، كما جهّزت الأسرة، ووضعت النعال تحت كرسي. وها نحن أولاء في المكتبة، ولا أحد منا يتحدث، ونعلم في قلوبنا أن ماكسيم يقف هنا للمحاكمة، مقابل حياته.

استدرت عندما سمعت الباب يُغلق برفق. كانت السيدة دانفرز، وقد عادت مرة أخرى وفي يدها دفتر المواعيد. قالت بهدوء:

- كنت على حق. لقد دوّنت المواعيد كما قلت إنها ستفعل. ها هي ذي في تاريخ وفاتها.

فتحت دفتر المواعيد، وهو كتاب جلدي صغير أحمر اللون، وناولته للعقيد جوليان. أخرج نظارته من العلبة مرة أخرى، وساد صمت طويل وهو يلقي نظرة على الصفحة. بدا لي حينها أن هناك شيئًا ما في تلك اللحظة بالذات، بينما هو ينظر إلى صفحة المواعيد، ونحن نقف منتظرين، أخافني أكثر من أي شيء حدث ذلك المساء.

ضغطت بأظفاري في كفي، ولم أستطع النظر إلى ماكسيم. من المؤكد أن العقيد جوليان سمع قلبي وهو يخفق داخل صدري. قال وإصبعه في منتصف الصفحة:

- آه!

سيحدث شيء ما. فكرت أن هناك شيئًا فظيئًا سيحدث. قال:

- نعم، نعم، ها هو ذا، الشعر في الثانية عشرة، كما قالت السيدة دانفرز، وبجانبه علامة. لقد حافظت على مواعدها إذن. ثم الغداء في النادي، وبجانبه علامة. لكن ماذا لدينا هنا؟ بيكر، في الساعة الثانية. من يكون بيكر؟

نظر إلى ماكسيم، فهز ماكسيم رأسه، ثم نظر إلى السيدة دانفرز.
كررت السيدة دانفرز قائلة:

- بيكر؟ لم تكن تعرف أحدًا يُسمَّى بيكر. لم أسمع الاسم من قبل.
ناولها العقيد جوليان دفتر المواعيد قائلاً:

- حسنًا، ها هو ذا، يمكنك رؤيته بنفسك، بيكر. وقد وضعت بجانبه علامة
كبيرة كأنها أرادت كسر القلم الرصاص. من الواضح أنها قابلت بيكر هذا،
أيًا من كان.

حدقت السيدة دانفرز إلى الاسم المكتوب في دفتر المواعيد، والعلامة
السوداء بجانبه، وقالت:

- بيكر، بيكر.

قال العقيد جوليان:

- أعتقد أننا إذا عرفنا من يكون بيكر، سنصل إلى حل هذا الأمر برمته. لم
تكن واقعة بين برائن مرابين، أليس كذلك؟

نظرت إليه السيدة دانفرز بازدياء، وقالت:

- السيدة دي ويتتر؟

ألقي العقيد جوليان نظرة إلى فافيل، وقال:

- حسنًا، ربما المبتزون؟

هزت السيدة دانفرز رأسها، وكررت قائلة:

- بيكر، بيكر.

- هل كان لديها أي أعداء، أو هل هددها أحد من قبل، أو هل كان هناك من
تخافه؟

قالت السيدة دانفرز:

- السيدة دي ويتتر تخاف؟ لم تكن تخاف أي شيء ولا أي شخص. كان هناك
شيء واحد فقط يقلقها، وهو فكرة التقدم في السن، والمرض، والموت في
فراشها. قالت لي عشرات المرات: «عندما أرحل يا داني، أريد أن أرحل

سريعًا، كانطفاء الشمعة». كان ذلك هو عزائي الوحيد بعد موتها. يقولون إن الغرق غير مؤلم، أليس كذلك؟ نظرت بتمعن إلى العقيد جوليآن، لكنه لم يرد. تردد وهو يجذب شاربه، ورأيته يلقي نظرة أخرى على ماكسيم. تقدم فافيل قائلاً:

- ما فائدة كل هذا، بحق الجحيم؟ نحن نبتعد عن الموضوع الأساسي طوال هذا الوقت اللعين. مَنْ يكثرث بشأن هذا الرجل المدعو بيكر؟ ما علاقته بالأمر؟ كان على الأرجح تاجرًا لعينًا ما يبيع الجوارب أو كريم الوجه. لو كان شخصًا مهمًا لكانت داني هنا ستعرفه. لم تخفِ ريبكا أي أسرار عن داني. لكنني كنت أراقب السيدة دانفرز، التي أمسكت الدفتر بين يديها وأخذت قلب الصفحات، ثم أطلقت صيحة فجأة. قالت:

- يوجد شيء هنا، في الخلف مباشرة بين أرقام الهواتف. بيكر، وهناك رقم بجانبه: ٠٤٨٨، لكن لا يوجد رقم للسترال. قال فافيل:

- رائع يا داني، ها قد صرت محققة بارعة في شيخوختك، أليس كذلك؟ لكنك تأخرت اثني عشر شهرًا فحسب. لو أنك فعلت هذا قبل عام، لربما كان له بعض الفائدة. قال العقيد جوليآن:

- هذا هو رقمه بالفعل، ٠٤٨٨، واسم بيكر بجانبه. لماذا لم تدون رقم السترال؟ قال فافيل بسخرية:

- فلتجرب كل سترال في لندن. سيستغرق ذلك الليلة بأكملها، لكننا لا نمانع. ولا يهتم ماكس إذا بلغت فاتورة هاتفه مائة جنيه، أليس كذلك يا ماكس؟ فأنت تريد كسب الوقت، كما كنت سأريد لو أنني مكانك.

قال العقيد جوليان:

- توجد علامة بجانب الرقم، لكنها قد تعني أي شيء. ألقي نظرة عليها يا سيدة دانفرز، هل يمكن أن يكون حرف م؟

أخذت السيدة دانفرز دفتر المواعيد بين يديها مرة أخرى، وقالت بتشكك:
- من المحتمل أن يكون كذلك. إنه لا يشبه طريقته المعتادة لكتابة حرف الميم، لكن ربما خربشته على عجل. أجل، قد يكون م.
قال فافيل:

- مايفير ٠٤٨٨. يا لها من عبقرية! يا له من عقل!

أشعل ماكسيم سيجارته الأولى، وقال:

- حسنًا؟ من الأفضل فعل شيء ما حيال ذلك. فرانك؟ اذهب واطلب من السترال الاتصال بمايفير ٠٤٨٨.

اشتد الألم المزعج تحت قلبي، ووقفت ساكنة تمامًا ويداي بجاني، ولم ينظر إليّ ماكسيم.
قال:

- هيّا يا فرانك، ماذا تنتظر؟

ذهب فرانك إلى الغرفة الصغيرة في الخلف، وانتظرنا بينما هو يتصل بالسترال، ثم عاد مرة أخرى بعد لحظة، وقال بهدوء:
- سوف يتصلون بي.

شبك العقيد جوليان يديه خلف ظهره، وذرع الغرفة جيئة وذهابًا. لم يقل أحد شيئًا، وبعد أربع دقائق تقريبًا رن الهاتف بصخب وإصرار، تلك النغمة الرتيبة المزعجة لمكالمة بعيدة المدى. ذهب فرانك كي يرد، وقال:

- هل هذا مايفير ٠٤٨٨؟ هل يمكنك إخباري إذا كان هناك أي شخص يحمل اسم بيكر يعيش هناك؟ أوه، فهمت، أنا آسف جدًا. نعم، لا بد أنني حصلت على الرقم الخطأ. شكرًا جزيلاً لك.

صدر صوت تكة صغيرة وهو يعيد السماع، ثم عاد إلى الغرفة.

- هناك امرأة ما تُدعى الليدي إيستلي تعيش في مايفير ٤٨٨٠. إنه عنوان في شارع جروسفينور، ولم يسمعوا من قبل عن بيكر. أطلق فافيل ضحكة صاخبة، وقال:

- ها قد هرب بيكر. تابعي، أيتها المحققة الأولى، ما السترال التالي على القائمة؟

قالت السيدة دانفرز:

- جرب ميوزيوم.

ألقي فرانك نظرة على ماكسيم، فقال ماكسيم:

- هيا.

تكررت التمثيلية مرة أخرى، وعاد العقيد جوليان يذرع الغرفة جيئة وذهابًا. مرّت خمس دقائق أخرى، ورن جرس الهاتف مرة ثانية. ذهب فرانك ليرد، وترك الباب مفتوحًا على مصراعيه، ورأيته ينحني فوق المنضدة التي عليها الهاتف، ويميل نحو السماعه.

- مرحبًا، هل هذا هو ميوزيوم ٤٨٨٠؟ هل يمكن أن تخبرني ما إذا كان هناك أي شخص يحمل اسم بيكر يعيش هناك؟ أوه، مَنْ الذي يتحدث؟ حارس الباب الليلي. نعم، نعم، فهمت، ليست عيادة. لا، لا، بالطبع. هل تستطيع أن تعطيني العنوان؟ نعم، الأمر مهم نوعًا ما.

توقف عن الحديث، ثم نادانا من فوق كتفه قائلاً:

- أعتقد أننا وجدناه.

أوه، يا إلهي، لا تجعل هذا صحيحًا. لا تجعلهم يعثروا على بيكر. أرجوك، يا إلهي، فليكن بيكر ميتًا. كنت أعرف مَنْ هو بيكر، وقد عرفت منذ البداية. راقبت فرانك من خلال الباب، وشاهدته ينحني إلى الأمام فجأة، ويمد يده ليتناول قلم رصاص وقطعة من الورق.

- مرحبًا، نعم، ما زلت هنا. هل يمكنك تهجئته؟ شكرًا لك، شكرًا جزيلاً. طاب مساؤك.

عاد إلى الغرفة وقطعة الورق في يده. لم يكن فرانك، الذي يحب ماكسيم، يعلم أن قطعة الورق التي يحملها هي الدليل الوحيد المهم في ليلتنا الكابوسية هذه بأكملها، وأنه يمكن أن يدمر ماكسيم لو قدمها، تمامًا كأنه يحمل خنجرًا في يده وطعنه في ظهره.

قال:

- كان حارس الباب الليلي من عنوان في بلومزبري. ولا يوجد سكان هناك على الإطلاق، لكن يُستخدم المكان خلال النهار كعيادة طبيب. وعلى ما يبدو، تخلى بيكر عن ممارسة المهنة، ورحل منذ ستة أشهر. لكننا عثرنا عليه بالفعل، حيث أعطاني الحارس الليلي عنوانه، ودوّنته على هذه الورقة.

حينها، نظر ماكسيم إليّ. نظر إليّ للمرة الأولى في ذلك المساء، وقرأت في عينيه رسالة وداع. كان الأمر كأنه يتكئ على جانب سفينة، وأنا واقفة تحته على الرصيف. سيكون هناك أشخاص آخرون يلمسون كتفه ويلمسون كتفي، لكننا لن نراهم، كما أننا لن نتبادل الحديث، ولن ينادي بعضنا بعضًا، لأن الريح وبُعد المسافة سيحملان صوتينا بعيدًا. لكنني سأرى عينيه، وسيرى هو عيني قبل أن تبعد السفينة عن جانب الرصيف. فافيل، والسيدة دانفرز، والعقيد جوليان، وفرانك والورقة في يديه، نسيناهم جميعًا في هذه اللحظة. كانت لحظة ملكنا نحن، لم يتهكها أحد، في جزء من الزمن معلق بين ثانيتين. ثم أشاح بعيدًا ومد يده إلى فرانك، وقال:

- أحسنت، ما العنوان؟

ناولته فرانك الورقة قائلاً:

- مكان ما بالقرب من بارنيت، شمال لندن. لكن لا يوجد هاتف، لا يمكننا الاتصال به.

قال العقيد جوليان:

- عمل مُرضٍ يا كرولي. ومنك أيضًا يا سيدة دانفرز. هل يمكنك إلقاء أي ضوء على الأمر الآن؟

هزت السيدة دانفرز رأسها.

- لم تحتج السيدة دي ويتتر إلى طبيب قَطُّ. مثل جميع الأشخاص الأقوياء،

كانت تحتقرهم. جاء الدكتور فيليبس من كيريث إلى هنا مرة واحدة فحسب، في تلك المرة التي لوت فيها معصمها. لم أسمعها تتحدث عن هذا الطبيب بيكر قَطُّ، ولم تذكر لي اسمه من قبل.

قال فافيل:

- أؤكد لك أن الرجل يمزج كريمات الوجه. فيما يهم من كان، بحق الجحيم؟ لو كانت للأمر أي أهمية، لعرفت داني. أؤكد لك أنه أحق ما، اكتشف طريقة جديدة لتشقيير الشعر أو تبييض البشرة، وربما حصلت ربيكا على عنوانه من مصفف شعرها في ذلك الصباح، ثم ذهبت بعد الغداء بدافع الفضول. قال فرانك:

- لا، أعتقد أنك مخطئ هنا. لم يكن بيكر دجالاً. أخبرني الحارس الليلي في ميوزيوم ٤٨٨٠ بأنه اختصاصي نساء معروف جداً. جذب العقيد جولييان شارب، وقال:

- هممم، لا بد أنها كانت بها علة ما في نهاية المطاف. يبدو من الغريب جداً أنها لم تقل شيئاً لأحد، ولا حتى لك يا سيدة دانفرز. قال فافيل:

- كانت نحيلة جداً، وقد أخبرتها بذلك، لكنها ضحكت فحسب، وقالت إن ذلك يلائمها. كانت تتبع حمية غذائية، على ما أظن، مثل كل هؤلاء النساء. ربما ذهبت إلى ذلك الرجل المدعو بيكر للحصول على نظام غذائي. سأل العقيد جولييان:

- هل تعتقدين أن هذا محتمل يا سيدة دانفرز؟ هزت السيدة دانفرز رأسها ببطء، وبدت في حالة ذهول، مندهشة من هذه الأخبار المفاجئة عن بيكر، وقالت:

- لا أستطيع أن أفهم، ولا أعرف ماذا يعني ذلك. بيكر. الدكتور بيكر. لماذا لم تخبرني؟ لماذا أخفت عني الأمر؟ كانت تخبرني بكل شيء. قال العقيد جولييان:

- ربما لم ترغب في إثارة قلقك. لا شك أنها حددت موعدًا معه، ورأته، وبعد ذلك عندما عادت في تلك الليلة، كانت ستخبرك بكل شيء عن الأمر.
قالت السيدة دانفرز فجأة:

- والرسالة إلى السيد جاك. تلك الرسالة إلى السيد جاك. «لديّ ما أقوله لك.
ويجب أن أراك». هل كانت ستخبره أيضًا؟
قال فافيل ببطء:

- هذا صحيح، لقد نسينا الرسالة.
أخرجها من جيبه مرة أخرى، وقرأها لنا بصوت مرتفع.
- «لديّ ما أقوله لك، وأريد رؤيتك في أقرب وقت ممكن. ربييك».
التفت العقيد جوليان إلى ماكسيم قائلاً:

- بالطبع، ليس هناك شك في ذلك، ولا مانع لديّ في المراهنة على الأمر
بألف جنيه. كانت ستخبر فافيل بنتيجة تلك المقابلة مع هذا الطبيب بيكر.
قال فافيل:

- أعتقد أنك محق، في النهاية. تبدو الرسالة وذلك الموعد مرتبطين معًا.
لكن عمّ يدور ذلك الأمر برمته، بحق الجحيم؟ هذا هو ما أريد معرفته.
ماذا كانت علتها؟

صرخت الحقيقة في وجوههم، ولم يروها. وقفوا جميعًا هناك، يحدق بعضهم
إلى بعض، ولم يفهموا. لم أجرؤ على النظر إليهم، ولم أجرؤ على التحرك كي لا
ينفضح ما أعرفه. لم يقل ماكسيم شيئًا، وعاد إلى النافذة ووقف ينظر إلى الحديقة
التي كانت هادئة ومظلمة وساكنة. توقف المطر أخيرًا، لكن القطرات أخذت
تساقط من أوراق الشجر ومن الميزاب أعلى النافذة.
قال فرانك:

- من المفترض أن يكون التحقق من ذلك سهلًا جدًا، هذا هو العنوان الحالي
للطبيب. يمكنني أن أكتب إليه رسالة وأسأله عما إذا كان يتذكر موعدًا العام
الماضي مع السيدة دي وينتر.

قال العقيد جوليان:

- لا أدري ما إذا كان سيعيرها أي انتباه، فهناك الكثير من الآداب في مهنة الطب، وكل حالة تتمتع بالخصوصية، كما تعلم. الطريقة الوحيدة لمعرفة أي شيء منه هي أن يقابله دي ويتتر على انفراد، ويشرح له الظروف. ما قولك يا دي ويتتر؟

التفت ماكسيم بعيداً عن النافذة، وقال بهدوء:

- أنا مستعد لفعل كل ما تريد أن تقترحه.

قال فافيل:

- أي شيء لكسب الوقت، أليس كذلك؟ يمكن إنجاز الكثير في أربع وعشرين ساعة، أليس كذلك؟ يمكن اللحاق بالقطارات، ويمكن أن تبحر السفن، وتطير الطائرات.

رأيت السيدة دانفرز تنقل نظرها بحدة من فافيل إلى ماكسيم، وأدركت حينها لأول مرة أن السيدة دانفرز لم تكن على دراية باتهام فافيل، وبدأت تفهم أخيراً. عرفت من التعبير البادي على وجهها، حيث ارتسم عليه الشك، ثم اختلط التعجب مع الكراهية، ثم الإدانة. مرة أخرى، تشبثت يداها الطويلتان النحيفتان بفستانها بحركة متشنجة، ومررت لسانها على شفتيها، وظلت تحديق إلى ماكسيم. لم ترفع عينيها عن ماكسيم قط. فكرت أن الأوان فات، ولا يمكنها أن تفعل أي شيء بنا الآن، فقد وقع الضرر. لا يهم ما تقوله لنا الآن، أو ما تفعله. وقع الضرر، ولم يعد في وسعها أن تؤذينا بعد الآن. لم يلاحظها ماكسيم، أو لم يبدُ عليه أثر لذلك إذا كان قد لاحظها، وأخذ يتحدث مع العقيد جوليان.

قال:

- ماذا تقترح؟ هل أذهب إلى هناك في الصباح، وأتوجه بسيارتي إلى هذا العنوان في بارنيت؟ يمكنني إرسال برقية إلى بيكر كي ينتظر حضوري.

قال فافيل بضحكة قصيرة:

- لن يذهب وحده. لديّ الحق في الإصرار على هذا، أليس كذلك؟ أرسله مع المفتش ويلش، ولن أعترض.

ليت السيدة دانفرز ترفع عينيها عن ماكسيم فحسب. لاحظها فرانك الآن، وأخذ يراقبها بحيرة وقلق. رأيته ينظر مرة أخرى إلى قصاصة الورق في يده، التي كتب عليها عنوان الدكتور بيكر، ثم نظر هو أيضًا إلى ماكسيم، وأعتقد حينها أن فكرة عامة عن الحقيقة بدأت تلح على ضميره، لأنه شحب بشدة، ووضع الورقة على الطاولة.

قال العقيد جوليان:

- لا أعتقد أن هناك حاجة إلى إشراك المفتش ويلش في الأمر، ليس بعد. بدا صوته مختلفًا، وأشد قسوة، ولم تعجبني الطريقة التي استخدم بها كلمة «ليس بعد». لماذا استخدمها؟ لم يعجبني ذلك. واصل قائلاً:

- إذا ذهبتُ مع دي ويتتر، وبقيت معه طوال الوقت، وأعدته، فهل يرضيك ذلك؟

نظر فافيل إلى ماكسيم، ثم إلى العقيد جوليان، وكان التعبير البادي على وجهه قبيحًا وماكرًا، كما ظهر شيء من الانتصار أيضًا في عينيه الزرقاوين الفاتحتين، وقال بتمهل:

- نعم، نعم، أعتقد ذلك. لكن من باب الحرص، هل تمانع لو أتيت أنا أيضًا معكما؟

قال العقيد جوليان:

- لا، للأسف أعتقد أن لديك الحق في طلب ذلك. لكن إذا أتيت، لديّ الحق في الإصرار على أن تكون يقظًا.

شرع فافيل في الابتسام، وقال:

- لا داعي إلى أن تقلق بشأن ذلك، سأكون يقظًا تمامًا. يقظًا مثلما سيكون القاضي، عندما يصدر الحكم على ماكس في غضون ثلاثة أشهر. أعتقد أن هذا الدكتور بيكر سوف يثبت اتهامي في نهاية المطاف.

نقل نظره بين كل واحد منا، وبدأ يضحك. أعتقد أنه هو أيضًا فهم أخيرًا أهمية تلك الزيارة للطبيب.

قال:

- حسنًا، في أي وقت سنمضي في طريقنا في الصباح؟

نظر العقيد جوليان إلى ماكسيم.

- متى يمكنك أن تكون مستعدًا؟

قال ماكسيم:

- في أي وقت تحدده.

- الساعة التاسعة؟

قال ماكسيم:

- الساعة التاسعة.

قال فافيل:

- كيف نعرف أنه لن يهرب ليلاً؟ كل ما عليه هو قطع الطريق إلى المرأب وجلب سيارته.

التفت ماكسيم إلى العقيد جوليان، وقال:

- هل تكفيك كلمتي؟

ولأول مرة، تردد العقيد جوليان. رأيته يلقي نظرة على فرانك، فتدفقت الدماء

إلى وجه ماكسيم، ورأيت ذلك النبض الصغير على جبهته، وقال ببطء:

- يا سيدة دانفرز، عندما أذهب أنا والسيدة دي ويتتر إلى الفراش الليلة، هلاً

صعدت بنفسك وأغلقت الباب من الخارج؟ وأيقظتنا بنفسك في الساعة

صباحًا.

قالت السيدة دانفرز:

- نعم يا سيدي.

وظلت عيناها عليه، ويدها لا تزالان تتشبثان بثوبها.

قال العقيد جوليان بفضافة:

- حسنًا، إذن، لا أعتقد أن هناك أي شيء آخر نحتاج إلى مناقشته الليلة.
سأكون هنا في التاسعة صباحًا بالضبط. هل سيكون لديك مكان لي في
سيارتك يا دي ويتتر؟

قال ماكسيم:

- نعم.

- وسيتبعنا فافيل بسيارته؟

قال فافيل:

- خلفكما مباشرة يا صديقي العزيز، خلفكما مباشرة.

تقدّم مني العقيد جوليان، وأمسك يدي قائلاً:

- طاب مساؤك. أنت تعرفين شعوري حيالك في خضم كل هذا، ولا داعي
إلى أن أخبرك بذلك. اجعلي زوجك ينم مبكرًا، إذا استطعت. سيكون
يومًا طويلًا.

أمسك يدي لحظة، ثم أشاح بعيدًا. كان من الغريب كيف تفادى النظر إلى
عيني، ونظر إلى ذقني. أمسك فرانك الباب من أجله وهو يخرج.
انحنى فافيل إلى الأمام، وملأ علبته بالسجائر من الصندوق الموجود على
الطاولة.

قال:

- أعتقد أنه لن يُطلب مني البقاء لتناول العشاء؟

لم يرد أحد، فأشعل إحدى السجائر ونفث سحابة من الدخان في الهواء، وقال:
- هذا يعني أمسية هادئة في الحانة على الطريق السريع إذن، والنادلة مصابة
بالحول. يا لها من ليلة، تلك التي سأقضيها! لا عليك، فأنا أتطلع إلى الغد.
تصبحين على خير يا داني، أيتها العجوز، ولا تنسي إغلاق الباب بالمفتاح
على السيد دي ويتتر، هلا فعلت؟

اقترب مني ومد يده.

مثل طفلة حمقاء، وضعت يدي خلف ظهري، فضحك وانحنى.

قال:

- هذا مؤسف جداً، أليس كذلك؟ أن يأتي رجل بغضب مثلي ويفسد كل متعتك. لا تقلقي، سيكون الأمر بمنزلة إثارة كبيرة بالنسبة إليك عندما تبدأ الصحافة الصفراء في نشر قصة حياتك، وتشاهدين العناوين الرئيسية: «من مونت كارلو إلى ماندرلي: تجارب عروس القاتل الشابة»، مكتوبة على رأس الصفحة. حظاً أفضل في المرة المقبلة.

سار حتى باب الغرفة، ولوح بيده لماكسيم الذي وقف بجوار النافذة، وقال: - إلى اللقاء أيها العجوز. أحلاماً سعيدة. فلتحقق أقصى استفادة من ليلتك خلف ذلك الباب المغلق.

التفت نحوي وضحك، ثم خرج من الغرفة، وتبعته السيدة دانفرز. صرت أنا وماكسيم وحدنا، وظل واقفاً بجانب النافذة، ولم يأت إليّ. جاء جاسبر مهرولاً من الردهة، حيث ظل حبيساً في الخارج طوال المساء. أتاني في حالة من الانزعاج، وعض طرف تنورتي.

قلت لماكسيم:

- سوف آتي معك في الصباح، سأذهب معك إلى لندن بالسيارة.

لم يرد للحظة، وواصل النظر من النافذة، ثم قال بصوت خالٍ من التعبير:

- نعم، نعم، يجب أن نظل معاً.

عاد فرانك إلى الغرفة، ووقف في المدخل ويده على الباب، وقال:

- لقد ذهبنا، فافيل والعقيد جوليان، شاهدتهما يرحلان.

قال ماكسيم:

- حسناً يا فرانك.

قال فرانك:

- هل هناك أي شيء يمكنني فعله؟ أي شيء على الإطلاق؟ أرسل برقية إلى

أي شخص، أو أرتب أي شيء؟ سأبقى مستيقظاً طوال الليل إذا كان هناك

أي شيء يمكنني فعله. كما سأرسل تلك البرقية إلى بيكر بالطبع.

قال ماكسيم:

- لا تقلق، ليس هناك ما تفعله، ليس بعد. ربما يكون هناك الكثير، بعد غد.
يمكننا الخوض في كل ذلك عندما يحين الوقت. أما الليلة، فنريد أن نكون
معًا. أنت تفهم، أليس كذلك؟

قال فرانك:

- نعم، نعم بالطبع.

انتظر لحظة ويده على الباب، ثم قال:

- طاب مساؤك.

قال ماكسيم:

- طاب مساؤك.

عندما ذهب وأغلق الباب خلفه، جاء ماكسيم نحوي حيث كنت أقف بجانب
المدفأة. مددت إليه ذراعِي، فأتاني مثل طفل، وأحطته بذراعِي واحتضنته. لم نقل
شيئًا مدة طويلة، واحتضنته وواسيته كما لو أنه جاسبر، كما لو أن جاسبر جرح
نفسه بطريقة ما وجاء إليّ لأخلصه من آلامه.

قال:

- يمكننا الجلوس معًا، في أثناء الرحلة بالسيارة.

قلت:

- نعم.

- لن يمانع جوليان.

- لا.

- ستكون لدينا ليلة الغد أيضًا، فلن يفعلوا أي شيء في الحال، ربما ليس قبل
أربع وعشرين ساعة.

- لا.

- إنهم ليسوا صارمين للغاية الآن، ويسمحون للمرء برؤية الناس. كما أن كل
هذا يستغرق وقتًا طويلًا جدًا. وإذا تمكنت من ذلك، فسأحاول الحصول

على هاستينجز، فهو الأفضل. هاستينجز أو بيركيت. كان هاستينجز يعرف والدي.

- نعم.

- سأضطر إلى إخباره بالحقيقة، حيث إن ذلك يجعل الأمر أسهل بالنسبة إليهم، كي يعرفوا موقفهم بالضبط.

- أجل.

انفتح الباب ودخل فريث الغرفة، فدفعت ماكسيم بعيداً، ووقفت منتصبه كما يقتضي العرف، وسويت شعري في مكانه.

- هل ستبدلان ملابسكما يا سيدتي؟ أم هل أقدم العشاء في الحال؟ قلت:

- لا يا فريث، لن نبدل ملابسنا، ليس الليلة. قال:

- حسناً يا سيدتي.

ترك الباب مفتوحاً، وجاء روبرت وبدأ يغلق الستائر. كما رتب الوسائد، وعدل الأريكة، ورتب الكتب والصحف على الطاولة، وأخذ الويسكي والصدودا ومنافض السجائر القدرة. رأيته يفعل هذه الأشياء كطقوس في كل مساء قضيته في ماندرلي، لكنها بدت كأنها اتخذت أهمية خاصة في هذه الليلة، كأن ذكرها ستستمر إلى الأبد، وسأقول بعد ذلك بمدة طويلة، في زمن آخر: «أتذكر هذه اللحظة».

بعد ذلك، أتى فريث وأخبرنا بأن العشاء جاهز.

أتذكر كل تفاصيل ذلك المساء. أتذكر الحساء الرائق البارد في الكؤوس، وشرائح سمك موسى، وكتف الضأن الساخنة.

أتذكر حلوى السكر المحروق، وما تلاها من مشهيات مالحة حادة النكهة.

كانت لدينا شموع جديدة في الشمعدانات الفضية، بدت بيضاء ونحيفة وطويلة جداً. أغلقت الستائر هنا أيضاً في مواجهة الأمسية الرمادية الباهتة، وبدا

- من الغريب الجلوس في غرفة الطعام من دون النظر إلى المروج. كان الأمر مثل بداية الخريف.
- وبينما نحن نتناول قهوتنا في المكتبة، رن الهاتف، فأجبته أنا هذه المرة. سمعت بياتريس تتحدث على الطرف الآخر، قالت:
- أهذه أنت؟ حاولت الاتصال طوال المساء، ووجدت الخط مشغولاً مرتين. أنا آسفة جداً، آسفة جداً.
 - وصلت إلينا الصحف المسائية منذ ساعتين تقريباً، وكان الحكم بمنزلة صدمة مروعة لي ولجايلز. ماذا يقول ماكسيم عن الأمر؟
 - أعتقد أنها كانت صدمة للجميع.
 - لكن يا عزيزتي، هذا الشيء غير معقول. لماذا ستُقدم ريبيكا على الانتحار، بحق السماء؟ إنها الشخص الأبعد احتمالاً عن ذلك في العالم. لا بد أن هناك خطأ فادحاً وقع في مكان ما.
 - لا أعرف.
 - ماذا قال ماكسيم؟ أين هو؟
 - كان هناك أناس هنا، العقيد جوليان وآخرون، وماكسيم متعب جداً. سنذهب إلى لندن غداً.
 - لماذا بحق السماء؟
 - شيء متعلق بالحكم، لا أستطيع أن أوضح جيداً.
 - يجب أن تطالبوا بإبطاله، فهو سخي، سخي للغاية. كما أن هذا سيء جداً بالنسبة إلى ماكسيم، كل هذه الضجة المروعة. سينعكس الأمر عليه.
 - أجل.
 - بالتأكيد يستطيع العقيد جوليان أن يفعل شيئاً؟ إنه قاضي تحقيق. ما فائدة قضاة التحقيق إذن؟ لا بد أن هوريدج العجوز في لانيون فقد عقله. ماذا كان من المفترض أن يكون دافعها؟ هذا أغبى شيء سمعته في حياتي. لا بد أن يحاول أحدهم الوصول إلى تاب. كيف يمكنه معرفة ما إذا كانت تلك

- الثقوب في القارب قد أُحدثت عمدًا أم لا؟ قال جايلز إنها لا بد أن تكون بفعل الصخور بالطبع.
- يبدو أنهم لم يعتقدوا ذلك.
- قالت:
- ليتني كنت موجودة هناك، كنت سأصر على التحدث. لا يبدو أن أحدًا بذل أي جهد. هل ماكسيم مستاء بشدة؟
- قلت:
- إنه متعب، متعب أكثر من أي شيء آخر.
- أتمنى لو كان في وسعي القدوم إلى لندن والانضمام إليكما، لكنني لا أعرف كيف يمكنني ذلك، حيث يعاني روجر ارتفاع الحرارة التي بلغت ١٠٣، الفتى المسكين، والمرضة التي جلبناها في غاية الحماسة، وهو لا يطيقها. لا يمكنني أن أتركه.
- بالطبع لا، يجب ألا تحاولي ذلك.
- أين ستكونان في لندن؟
- لا أدري، الأمر برمته غامض نوعًا ما.
- أخبرني ماكسيم بأن عليه أن يحاول فعل شيء ما لتغيير هذا الحكم، فهو أمر سيئ جدًا بالنسبة إلى العائلة. أخبرت الجميع هنا بأن ذلك الأمر خبيث جدًا، فلم تكن ربييكا لتُقدم على الانتحار قط، فهي لم تكن من ذلك النوع. أشعر بالرغبة في الكتابة إلى الطبيب الشرعي بنفسي.
- لقد فات الأوان، ومن الأفضل ترك الأمر، فلن يجدي نفعًا.
- إن مدى غباء هذا الأمر يثير أعصابي، وأنا وجايلز نعتقد أنه لو لم تكن الصخور هي التي تسببت في تلك الثقوب، فقد كانت بفعل فاعل على الأرجح، من قبل بعض المشردين أو غيرهم، ربما أحد الشيوعيين. يوجد الكثير منهم، وهذا يشبه نوعية الأفعال التي قد يرتكبها شيوعي.
- ناداني ماكسيم من المكتبة:

- ألا يمكنك التخلص منها؟ ما الذي تحدث عنه بحق السماء؟

قلت بيأس:

- بياتريس، سأحاول الاتصال بك من لندن.

قالت:

- هل سيفيد الأمر في أي شيء لو أنني تواصلت مع ديك جودولفين؟ إنه النائب البرلماني عن دائرتكما، وأعرفه جيدًا، أفضل بكثير مما يعرفه ماكسيم. كان في أكسفورد مع جايلز. اسألي ماكسيم إذا كان يريدني أن أتصل بديك، وأرى ما إذا كان في مقدوره فعل أي شيء لإبطال الحكم. واسألي ماكسيم عن رأيه في فكرة الشيوعية هذه.

قلت:

- لا فائدة، لن يجدي الأمر أي نفع. من فضلك يا بياتريس، لا تحاولي فعل أي شيء، سيجعل ذلك الأمر أسوأ، أسوأ بكثير. ربما كان لدى ريبيكا دافع ما لا نعرف عنه شيئًا. ولا أعتقد أن الشيوعيين يدورون ويحدثون ثقبًا في القوارب، فما جدوى ذلك؟ أرجوك يا بياتريس، دعي الأمر وشأنه. أوه، حمدًا للرب أنها لم تكن معنا اليوم. أخذ شيء ما يطن في الهاتف، وسمعت بياتريس تصيح: «مرحبًا، مرحبًا يا سترال، لا تقطع الخط». ثم سمعت صوت تكة، وساد الصمت.

عدت إلى المكتبة وأنا متعبة ومنهكة، وفي غضون بضع دقائق، بدأ الهاتف يرن مرة أخرى. لم أفعل أي شيء، وتركته يرن، وذهبت وجلست عند قدمي ماكسيم. استمر الرنين، لكنني لم أتحرك. سرعان ما توقف، كأنه انقطع فجأة في سخط، ودقت الساعة على رف المدفأة معلنة الساعة العاشرة. أحاطني ماكسيم بذراعيه، ورفعني إليه. بدأننا نقبل بعضنا على نحو محموم يائس، كعاشقين مذبذبين لم يقبلًا بعضهما من قبل.

عندما استيقظت في صباح اليوم التالي بعد الساعة السادسة بقليل، وقمت وتوجهت إلى النافذة، كان هناك ندى ضبابي على العشب مثل الصقيع، والضباب الأبيض يلف الأشجار. كانت هناك برودة في الجو، وريح خفيفة منعشة، ورائحة الخريف الباردة الهادئة.

عندما جثوت بجانب النافذة ونظرت إلى الأسفل نحو حديقة الورد، حيث تدلت الزهور نفسها فوق سيقانها، وصارت البتلات بُنية ومتهدلة بعد مطر الليلة الماضية، بدت أحداث اليوم السابق بعيدة وغير حقيقية. بدأ يوم جديد هنا في ماندري، ولم تكثر الكائنات في الحديقة لمتاعبنا. ركض طائر شحرور عبر حديقة الورد إلى المروج في اندفاعات قصيرة وسريعة، وتوقف بين الحين والحين ليطن الأرض بمنقاره الأصفر، كما تجول طائر سمرة أيضًا، يتابع شؤونه، وتبع طائران صغيران سمينان من طيور «أبو فصادة» بعضهما، كما كانت هناك مجموعة من عصافير الدوري المغردة. وازن طائر نورس نفسه في الهواء، صامتًا ووحيدًا، ثم نشر جناحيه واسعًا وانقض وراء المروج، في اتجاه الغابة والوادي السعيد. استمرت هذه الأمور، ولم يكن لقلقنا ومخاوفنا القدرة على تغييرها. سرعان ما سيستيقظ البستانيون، ويكنسون الأوراق المتساقطة على المروج والممرات، ويسوون الحصى في الممر بالمجرفة. ستقرع الدلاء في الفناء خلف المنزل، وستُغسل السيارة بالخرطوم، وستبدأ خادمة المطبخ الصغيرة في الثرثرة مع الرجال في الفناء عبر الباب المفتوح. ستكون هناك رائحة لحم الخنزير المقدد

المقرمشة والحارة، وستفتح الخادومات المنزل، ويلقين النوافذ على مصاريحها، ويسحبن الستائر جانبًا.

ستزحف الكلاب من سلالها وتثاءب وتمطى، وتخرج لتتجول في الشرفة وترمش في مواجهة أولى محاولات للشمس الباهتة وهي تجاهد للسطوع من بين الضباب. سيعد روبرت المائدة من أجل الإفطار، ويأتي بتلك الفطائر الساخنة، والبيض المسلوق، والأطباق الزجاجية التي تحوي العسل والمربي، ومربي البرتقال، وطبق الخوخ، وعنقود العنب الأرجواني الذي لا يزال عليه الغبار السطحي، دافئًا من الصوبة.

ستولى الخادومات كنس غرفة الجلوس الصباحية، وغرفة الاستقبال، والهواء النقي المنعش يتدفق من النوافذ الطويلة المفتوحة. سيتصاعد الدخان متلويًا من المداخل، وشيئًا فشيئًا سيتلاشى الضباب الخريفي، وتظهر الأشجار والصفاف العشبية والغابات، ويظهر التماع البحر أسفل الوادي، والشمس تعلوه، والفنار ينتصب مستقيمًا وعاليًا على الرأس البحري.

سلام ماندرلي، والهدوء، والجمال، أيًا من كان يحيا بين جدرانها، وأيًا كانت المشكلات والصراعات، ومهما بلغ الضيق والألم، ومهما ذُرفت الدموع ومهما كانت الأحزان، فلا يمكن أن ينكسر سلام ماندرلي أو يتدمر جماله. ستينع الزهور التي ماتت في عام آخر، وستبني الطيور نفسها أعشاشها، وستزهر الأشجار نفسها. وستعلق رائحة الطحالب القديمة الهادئة في الجو، وسيأتي النحل وصراصير الليل، وستبني طيور مالك الحزين أعشاشها في أعماق الغابة المظلمة. وسترقص الفراشات رقصتها المبهجة عبر المروج، وتغزل العناكب شباكها الضبابية، وستأتي الأرناب الصغيرة المذهولة التي لا حق لها في التعدي على أملاك الآخرين، وتدفع وجوها بين الشجيرات الكثيفة. ستكون زهور الليلك، وزهور شبر فايد لا تزال موجودة، وبراعم الماجنوليا البيضاء تفتح على مهل متراسة تحت نافذة غرفة الطعام. لن يؤذي أحد ماندرلي أبدًا، حيث سيرقد دائمًا في الوادي، مثل شيء مسحور تحرسه الغابة، آمن ومنيع،

بينما البحر يتكسر ثم ينسحب، ويعود مرة أخرى إلى الخليجان الصغيرة ذات الحصى بالأسفل.

ظل ماكسيم نائمًا، ولم أوقظه. سيكون اليوم أمامنا طويلًا ومرهقًا: الطرق سريعة، وأعمدة التلغراف، ورتابة المرور العابر، والزحف البطيء إلى لندن. لم نكن نعرف ما سنجده في نهاية رحلتنا، وكان المستقبل مجهولًا. في مكان ما بالقرب من شمال لندن، يعيش رجل يُدعى «بيكر» لم يسمع بنا من قبل، لكنه يحمل مستقبلنا في راحتي كفيه. سرعان ما سيستيقظ هو أيضًا، ويتمطى ويتأهب، ويأشر عمل يومه. نهضت ودخلت الحمام، وبدأت أجهز حمّامي. حملت لي هذه الأعمال الأهمية نفسها التي حملها روبرت وترتيبه للمكتبة الليلة السابقة. قمت بهذه الأشياء من قبل على نحو آلي، لكنني صرت واعية بها الآن، وأنا ألقى إسفنجتي في الماء، وأنشر منشفتي على الكرسي بعد أن جلبتها من فوق المدفأة، وأستلقي إلى الورا وأترك الماء يجري فوق جسدي. بدت كل لحظة شيئًا ثمينًا، تحمل داخلها جوهر النهاية. عندما عدت إلى غرفة النوم وبدأت أرتدي ملابس، سمعت وقع خطى هادئة أتت وتوقفت خارج الباب، ودار المفتاح بهدوء في القفل. ساد الصمت لحظة، ثم ابتعدت الخطى. كانت السيدة دانفرز.

لم تنس. سمعتُ الصوت نفسه في الليلة السابقة بعد صعودنا من المكتبة. لم تطرق الباب، ولم تعلن عن وجودها، بل كان هناك صوت وقع أقدام فحسب، ودوران المفتاح في القفل. أعادني ذلك إلى الواقع، وإلى مواجهة المستقبل القريب.

انتهيت من ارتداء ملابس، وذهبت وأعددت حمّام ماكسيم. بعد قليل، أتت كلاريس حاملة لنا الشاي. أيقظت ماكسيم، فحذق إليّ في بادئ الأمر كطفل متحير، ثم مد إليّ ذراعيه. شربنا الشاي، ثم نهض ودخل الحمام، وبدأت أضع الأشياء في حقيبتي على نحو منظم، إذ قد يتعين علينا البقاء في لندن. حزمت الفرش التي أعطاني إياها ماكسيم، وقميص نوم، وروبًا، ونعلين،

وفستائنا آخر أيضًا، وزوجين من الأحذية. بدت حقيبة ملابسي غير مألوفة وأنا أسحبها من مؤخرة الخزانة، وبدا أنه انقضى وقت طويل جدًا منذ أن استخدمتها، ومع هذا كان ذلك قبل أربعة أشهر فقط. كانت لا تزال عليها علامة الجمارك التي خطوها بالطباشير في كاليه. في أحد الجيوب، كانت هناك تذكرة حفلة موسيقية من كازينو في مونت كارلو، فغضبتها وألقيتها في سلة المهملات. بدت كأنها تنتمي إلى عصر آخر، وعالم آخر. بدأت غرفة نومي تأخذ مظهر جميع الغرف عند رحيل صاحبها. بدت منضدة الزينة عارية من دون فرش، وكانت هناك مناديل ورقية ملقاة على الأرض، وملصق قديم لف الأسيرة التي نمنا فيها جو مريع من الخواء، وألقيت المناشف مغضنة على أرضية الحمام، بينما أبواب الخزائن مفتوحة كأفواه فاعرة. ارتديت قبعتي حتى لا أضطر إلى الصعود مرة أخرى، وأخذت حقيبة يدي وقفازي وحقيبة ملابسي. ألقيت نظرة خاطفة حول الغرفة لأرى ما إذا كان هناك أي شيء قد نسيته. أخذ الضباب ينقشع، والشمس تشق طريقها عبره وتلقي نقوشًا على السجادة. وعندما وصلت إلى منتصف الممر، راودني شعور غريب لا يمكن تفسيره بأن عليّ العودة والنظر إلى غرفتي مرة أخرى. ذهبت من دون سبب، ووقفت لحظة أنظر إلى خزانة الملابس المفتوحة والسرير الخالي وصينية الشاي على المنضدة. حدقت إليها، وطبعت صورتها في ذهني إلى الأبد، متسائلة لماذا كانت لديها القدرة على لمس مشاعري، وإصابتي بالحزن، كأنها أطفال لا يريدونني أن أرحل.

بعد ذلك، استدرت ونزلت إلى الطابق السفلي لتناول الإفطار. كان الجو باردًا في غرفة الطعام، ولم تلتمع الشمس على النوافذ بعد، وشعرت بالامتنان لتناول القهوة المُرّة الساخنة، ولحم الخنزير المقدد الذي يمنح الطاقة. تناولت أنا وماكسيم الطعام في صمت، وأخذ ينظر إلى الساعة من حين إلى حين. سمعت روبرت يضع الحقائب في الردهة مع الدثار، وبعد قليل أتى صوت السيارة وهم يجلبونها إلى الباب الأمامي.

خرجت ووقفت على الشرفة. نقى المطر الهواء، وبدت رائحة العشب منعشة وعذبة. عندما تصبح الشمس أعلى، سيصير يومًا جميلًا. فكرت كيف كان يمكننا أن نتجول في الوادي قبل الغداء، ثم نجلس بعد ذلك تحت شجرة الكستناء مع الكتب والصحف. أغمضت عيني دقيقة، وشعرت بدفء الشمس على وجهي وعلى يدي.

سمعت ماكسيم يناديني من المنزل، فعدت وساعدني فريث على ارتداء معطفي. سمعت صوت سيارة أخرى: كان فرانك. قال:

- العقيد جوليان ينتظر عند بوابات الكوخ، ولم يعتقد أن الأمر يستحق القدوم بالسيارة حتى المنزل.

قال ماكسيم:

- لا.

قال فرانك:

- سأنتظر في المكتب طوال النهار، وأنتظر اتصالك. بعد أن تقابل بيكر، ربما تجد أنك في حاجة إليّ في لندن.

قال ماكسيم:

- نعم، نعم، ربما.

قال فرانك:

- إنها التاسعة فقط الآن، وأنت في موعدك المحدد. كما سيكون الجو لطيفًا أيضًا، ويفترض أن تقطع رحلتك في وقت جيد.

- أجل.

قال لي:

- أتمنى ألا تعبني كثيرًا يا سيدة دي وينتر، سيكون يومًا طويلًا بالنسبة إليك.

قلت:

- سأكون بخير.

نظرت إلى جاسبر الذي وقف بجانب قدمي، وأذناه متدلّيتان، وفي عينيه نظرة حزينة مؤلمة.

قلت:

- خذ جاسبر معك إلى المكتب، فهو يبدو بائسًا جدًّا.

قال:

- نعم، نعم، سأفعل.

قال ماكسيم:

- من الأفضل أن نمضي في طريقنا، سينفذ صبر العجوز جوليان. حسنًا يا فرانك.

ركبت السيارة بجانب ماكسيم، وأغلق فرانك الباب.

قال:

- سوف تتصل هاتفياً، أليس كذلك؟

قال ماكسيم:

- بلى، بالطبع.

نظرت خلفي نحو المنزل، حيث كان فريث يقف على قمة الدرج، وروبرت خلفه مباشرة، وامتلائ عيناى بالدموع من دون سبب. أشحت بعيدًا وتحسست حقييتى فى أرضية السيارة كى لا يرى أحد دموعى. ثم أدار ماكسيم محرك السيارة، وانعطفنا ودخلنا الممر، واختفى المنزل.

توقفنا عند بوابات الكوخ، واصطحبنا العقيد جوليان الذى ركب فى الخلف، وبدأ متشككًا حينما رآنى.

قال:

- سيكون يومًا طويلًا، لا أعتقد أنه كان يجب عليك المجيء. كنت سأعنتى بزواجك، كما تعلمين.

قلت:

- أردت المجيء.

لم يقل شيئاً آخر بخصوص الأمر، واستقر في الركن قائلاً:
- الجو جميل، على الأقل.

قال ماكسيم:

- أجل.

- قال ذلك الرجل فافيل إنه سيقابلنا عند مفترق الطرق. إذا لم يكن موجوداً، فلا تحاول انتظاره، فسنكون أفضل حالاً بكثير من دونه. أتمنى أن يكون ذلك الرجل اللعين قد تأخر في النوم.

لكن عندما وصلنا إلى مفترق الطرق، رأيت هيكل سيارته الطويل الأخضر، فخاب أملِي، حيث ظننت أنه قد لا يأتي في الوقت المحدد. جلس فافيل خلف عجلة القيادة من دون قبة، وفي فمه سيجارة. ابتسم ابتسامة عريضة عندما رآنا، ولوح لنا. استقررت في مقعدي استعداداً للرحلة التي أمامنا، ووضعت يدي على ركبة ماكسيم. مرت الساعات، وقطعنا الأميال، وراقبت الطريق أمامنا بنوع من الخدر. غرق العقيد جوليان في النوم بالخلف من وقت إلى آخر، وكنت ألتفت أحياناً وأرى رأسه متدلياً على الوسائد وفمه مفتوح. ظلت السيارة الخضراء على مقربة منا، وأحياناً كانت تتقدم إلى الأمام، وفي أحيان أخرى تتراجع إلى الوراء، لكننا لم نفقدها قط. في الساعة الواحدة، توقفنا لتناول الغداء في أحد تلك الفنادق القديمة التي لا مفر من وجودها في الشارع الرئيسي في بلدة بالمقاطعة. تناول العقيد جوليان وجبة الغداء المحددة بقائمة الطعام بأكملها، بدءاً بالحساء والسّمك، ثم انتقل إلى لحم البقر المشوي وبودينج يوركشاير، بينما تناولت أنا وماكسيم لحم الخنزير البارد والقهوة.

توقعت نوعاً ما أن يدخل فافيل إلى غرفة الطعام وينضم إلينا، لكن عندما خرجنا إلى السيارة مرة أخرى رأيت سيارته متوقفة خارج مقهى على الجانب الآخر من الطريق. لا بد أنه رآنا من النافذة، حيث صار في أعقابنا مرة أخرى بعد ثلاث دقائق من انطلاقنا.

وصلنا إلى ضواحي لندن في الساعة الثالثة تقريباً، وعندها بدأت أشعر بالتعب،

وبدأ الضجيج والحواجز المرورية يسببان طينًا برأسي، كما كان الجو دافئًا في لندن أيضًا. اكتست الشوارع بتلك الهيئة البالية المتربة لشهر أغسطس، وتدلّت الأوراق في خمول على الأشجار الباهتة. لا بد أن عاصفتنا كانت محلية، ولم يهطل المطر هنا.

تجول الناس بملابس قطنية، وكان الرجال من دون قبعات. عبق الجو برائحة النفائات الورقية، وقشر البرتقال، والأقدام، والعشب الجاف المحترق. تحركت الحافلات متناقلة ببطء، وزحفت سيارات الأجرة. شعرت كأن سترتي وتنورتي ملتصقتان بي، ووخزت جواربي بشرتي.

اعتدل العقيد جوليان جالسًا، ونظر من نافذته قائلاً:

- لم يهطل المطر هنا.

قال ماكسيم:

- لا.

- يبدو كأن المكان يحتاج إلى المطر أيضًا.

- أجل.

- لم ننجح في التخلص من فافيل، لا يزال في أعقابنا.

- نعم.

بدت مراكز التسوق في الضواحي مكتظة. كانت هناك نساء متعبات معهن رُضع يبكون في عربات الأطفال، يحدقن إلى النوافذ، وصاح الباعة المتجولون، وتعلق الأولاد الصغار على ظهور الشاحنات. كان هناك كثير من الناس، وكثير من الضوضاء، وبدا الهواء نفسه مهتاجًا ومنهكًا ومستنزفًا.

بدت الرحلة عبر لندن بلا نهاية، وعندما خرجنا منها مرة أخرى وتجاوزناها إلى هامبستيد، كان في رأسي صوت كدقات الطبول، وكانت عيناي ملتفتتين.

تساءلت عن مدى التعب الذي يشعر به ماكسيم، حيث بدا شاحبًا وتحت عينيه هالات، لكنه لم يقل شيئًا. ظل العقيد جوليان يتشاءب في الخلف. كان يفتح فمه عن آخره ويتشاءب بصوت مرتفع، ثم ينتهد بشدة بعد ذلك، وظل يفعل ذلك كل

بضع دقائق. غمرني شعور أحرق غريب بالغضب، ولم أدرك كيف أُنقذ نفسي من الالتفات نحوه، صارخة فيه كي يتوقف.

ما إن تجاوزنا هامبستيد، أخرج من جيب سترته خريطة كبيرة، وبدأ يوجه ماكسيم إلى بارنيت. كان الطريق واضحًا، وكانت هناك لافتات لإخبارنا، لكنه ظل يشير إلى كل منعطف في الطريق، وإذا ظهر أي تردد من جانب ماكسيم، فكان العقيد جوليان يفتح النافذة ويطلب المعلومات من أحد المارة.

عندما وصلنا إلى بارنيت نفسها، جعل ماكسيم يتوقف كل بضع دقائق. - هل يمكنك إخبارنا بمكان منزل يُدعى «روزلاندر»؟ إنه ملك للدكتور بيكر، الذي تقاعد وجاء ليعيش هنا مؤخرًا.

وكان المارة يقفون متجهمين للحظة، والحيرة بادية عليهم، والجهل مسطور بوضوح على وجوههم. مكتبة سر من قرأ

- الدكتور بيكر؟ لا أعرف شخصًا اسمه الدكتور بيكر. كان هناك منزل اسمه «روز كوتيدج» بجانب الكنيسة، لكن السيدة ويلسون تعيش هناك. قال العقيد جوليان:

- لا، ما نريده هو «روزلاندر»، منزل الدكتور بيكر.

ثم واصلنا الطريق، ووقفنا مرة أخرى أمام مربية وعربة أطفال.

- هل يمكنك أن تخبرنا أين يقع «روزلاندر»؟

- معذرة، أخشى أنني أتيت للعيش هنا حديثًا.

- ألا تعرفين الدكتور بيكر؟

- الدكتور ديفيدسون، أعرف الدكتور ديفيدسون.

- لا، نحن نريد الدكتور بيكر.

ألقيت نظرة خاطفة على ماكسيم. بدا متعبًا جدًا، وفمه بادي الصرامة. زحف فافيل خلفنا، وسيارته الخضراء مغطاة بالغبار.

في النهاية، دُلنا رجل البريد على المنزل. كان منزلًا مربعًا، مغطى بالبلاب، من دون اسم على البوابة، وقد مررنا به مرتين بالفعل. مددت يدي إلى حقيقتي

على نحو آلي، وربت على وجهي بطرف مذررة البودرة. وقف ماكسيم عند جانب الطريق، ولم يدخل بالسيارة إلى الممر القصير. جلسنا في صمت بضعة دقائق. قال العقيد جوليآن:

- حسنًا، ها نحن أولاء، والساعة الخامسة واثنى عشرة دقيقة بالضبط. سنلحق بهم بينما لا يزالون يتناولون الشاي، من الأفضل الانتظار قليلًا. أشعل ماكسيم سيجارة ثم مد يده نحوي، ولم يتكلم، وسمعت العقيد جوليآن يطوي خريطته. قال:

- كان يمكننا القدوم مباشرة من دون دخول لندن، أعتقد أن ذلك كان سيوفر علينا أربعين دقيقة. لم نستغرق كثيرًا من الوقت خلال أول مائتي ميل، لكننا تأخرنا في الطريق بداية من تشيسويك. مرّ بنا ساع وهو يصفر فوق دراجته، وتوقفت حافلة عند الناصية، ونزلت منها امرأتان. في مكان ما دقت ساعة الكنيسة معلنة الخامسة والربع. كانت في إمكاني رؤية فافيل متكئًا في سيارته خلفنا، ويدخن سيجارة. بدا لي أنني أفترق إلى أي شعور على الإطلاق، وجلست فحسب، وراقبت الأشياء الصغيرة التي لا أهمية لها. سارت المرأتان اللتان ترجّلتا من الحافلة عبر الطريق، واختفى الساعي عند الناصية، وتقافز عصفور في منتصف الطريق وهو ينقر الأوساخ. قال العقيد جوليآن:

- لا يمكن أن يكون هذا الرجل المدعو بيكر بستانياً ماهراً، انظر إلى تلك الشجيرات المتدلية فوق جداره، كان يجب تقليمها تمامًا. طوى الخريطة وأعادها إلى جيبه، وقال:

- يا له من مكان غريب كي يختار التقاعد فيه، قريب من الطريق الرئيسي، وتطل عليه منازل أخرى. عن نفسي، لم يكن ليعجبني. أعتقد أن المكان كان جميلًا في السابق، قبل أن يبدأوا في البناء. ولا شك أن هناك ملعب جولف جيدًا في مكان قريب.

صمت فترة، ثم فتح الباب ووقف في الطريق، وقال:

- حسنًا يا دي ويتتر، ما رأيك في الأمر؟

قال ماكسيم:

- أنا مستعد.

ترجلنا من السيارة، وأتى فافيل لمقابلتنا.

قال:

- ماذا كنتم تنتظرون؟ هل أصابكم الخوف؟

لم يُجِبْه أحد، ومشينا عبر الممر إلى الباب الأمامي، وبدونا مجموعة غريبة متنافرة. رأيت ملعب تنس خلف المنزل، وسمعت خبطات الكرات. صاح صوت صبي:

- أربعون مقابل خمسة عشر، وليس ثلاثين للكل. ألا تذكر أنك ضربت الكرة

فأخرجتها خارج الملعب، أيها الحمار الأحمق؟

قال العقيد جوليان:

- لا بد أنهم انتهوا من تناول الشاي.

تردد لحظة وهو يلقي نظرة خاطفة على ماكسيم، ثم قرع الجرس.

أصدر رنينًا في مكان ما خلف المنزل، وساد صمت طويل، ثم فتحت لنا خادمة صغيرة جدًا الباب، وبدت مندهشة عندما رأت عددنا كثيرًا إلى هذا الحد.

قال العقيد جوليان:

- الدكتور بيكر؟

- أجل يا سيدي، هلاً دخلت؟

فتحت الباب الكائن على يسار الردهة بعد أن دخلنا. لا بد أن هذه هي غرفة الاستقبال، التي لا تُستخدم كثيرًا خلال الصيف. كانت هناك لوحة على الجدار لامرأة عادية الملامح ذات شعر داكن، وتساءلت عما إذا كانت السيدة بيكر. كانت الأغطية القطنية على الكراسي والوسائد جديدة ولا معة، وعلى رف المدفأة صور فوتوغرافية لتلميذين لهما وجهان مستديران ومبتسمان.

قبع جهاز راديو ضخّم للغاية في ركن الغرفة بجوار النافذة، وتدلّت منه الأسلاك وأجزاء من الهوائي. تفحص فافيل اللوحة التي على الحائط، وذهب العقيد جوليان ووقف بجانب المدفأة الفارغة، بينما نظرت أنا وماكسيم من النافذة. رأيت كرسياً قابلاً للطّي أسفل شجرة، ومؤخرة رأس امرأة. لا بد أن ملعب التنس عند زاوية المنزل. كان في إمكاني سماع الولدين وهما يصيحان في بعضهما، وأخذ كلب عجوز جدّاً من فصيلة التريير الإسكتلندي يحكّ نفسه في منتصف الطريق. انتظرنا هناك خمس دقائق، وبدأ الأمر كأنني أعيش حياة شخص آخر، وأتيت إلى هذا المنزل لأدعوهم إلى الاشتراك في جمعية خيرية. لم يكن هذا مثل أي شيء عرفته من قبل، حيث لم يكن لديّ أي شعور، ولا أي ألم.

ثم انفتح الباب، ودخل رجل إلى الغرفة. كان متوسط القامة وطويل الوجه وله ذقن حاد، وشعره أشقر بلون الرمل، بدأ يتحوّل إلى الشيب. كان يرتدي سروالاً من قماش الفلانيل، وسترة زرقاء داكنة.

بدأ متفاجئاً بعض الشيء، مثلما كانت الخادمة، لرؤية عددنا الكبير، وقال:
- سامحوني لأنّي أبقيتكم منتظرين، اضطررت إلى أن أذهب للاغتسال، حيث كنت أَلعب التنس عندما دق الجرس. هلّا جلستم؟
التفت إليّ، فجلست على أقرب كرسي وانتظرت.

قال العقيد جوليان:

- لا بد أنك تعتقد أن هذا غزو غير تقليدي للغاية، وأنا أعترض بشدة لإزعاجك على هذا النحو. اسمي جوليان، وهذا السيد دي وينتر، والسيدة دي وينتر، والسيد فافيل. ربما تكون قد رأيت اسم السيد دي وينتر في الصحف مؤخراً.
قال الدكتور بيكر:

- أوه، نعم، نعم، أعتقد أنني فعلت، تحقيق ما أو ما شابه، أليس كذلك؟ كانت زوجتي تقرأ كل شيء عن الموضوع.
تقدم فافيل قائلاً:

- أصدرت هيئة المحلفين حكمًا بالانتحار، وأنا أقول إن هذا غير وارد على الإطلاق. كانت السيدة دي وينتر ابنة عمي، وكنت أعرفها من كتب. لم تكن لتُقدِّم على مثل ذلك الشيء قَطُّ، والأكثر من ذلك أنها لم يكن لديها دافع. ما نريد معرفته هو لماذا أتت لرؤيتك في اليوم نفسه الذي ماتت فيه، بحق الجحيم؟

قال ماكسيم بهدوء:

- من الأفضل أن تترك هذا الأمر لي ولجوليان. الدكتور بيكر ليست لديه أدنى فكرة عما تقصده.

التفت إلى الطبيب الذي وقف بينهما وقد تغضن ما بين حاجبيه، وتجمدت ابتسامته الأولى المهدبة على شفتيه. قال ماكسيم:

- ابن عم زوجتي الراحلة غير راضٍ عن الحكم، وقد جئنا لرؤيتك اليوم لأننا وجدنا اسمك ورقم هاتف عيادتك القديمة في دفتر مواعيد زوجتي. يبدو أنها حددت موعدًا معك، والتزمت به، في الساعة الثانية في آخر يوم قضته في لندن. هل يمكن أن تؤكد لنا هذا؟

أخذ الدكتور بيكر ينصت باهتمام كبير، لكن عندما انتهى ماكسيم من الحديث، هز رأسه، وقال:

- أنا آسف جدًّا، لكنني أعتقد أنك ارتكبت خطأ، حيث كنت سأذكر اسم دي وينتر، لم أكتشف على سيدة باسم دي وينتر قَطُّ في حياتي.

أخرج العقيد جوليان محفظته، وناولها الصفحة التي نزعها من دفتر المواعيد، وقال:

- ها هو ذا مدون: بيكر، الساعة الثانية، وعلامة كبيرة بجانبه للدلالة على الالتزام بالموعد. وها هو ذا الهاتف: ميوزيوم ٥٤٨٨.

حذق الدكتور بيكر إلى قصاصة الورق.

- هذا غريب جدًّا، غريب جدًّا بالفعل. نعم، الرقم صحيح تمامًا كما تقول. قال العقيد جوليان:

- هل يمكن أن تكون قد أتت لرؤيتك، وقدمت اسمًا مستعارًا؟
- أجل، هذا محتمل، ربما فعلت ذلك. إنه أمر غير معتاد بالطبع، ولم أشجع على مثل ذلك النوع من التصرفات قَطُّ. فهذا لا يفيدنا في المهنة بوصفنا أطباء، إذا ظن الناس أنهم يستطيعون معاملتنا بهذه الطريقة.

قال العقيد جوليان:

- هل لديك أي سجل للزيارة في ملفاتك؟ أعلم أنه ليس من اللياقة أن أسأل، لكن الظروف غير اعتيادية إلى أقصى درجة، ونشعر بأن موعدها معك لا بد أن تكون له علاقة ببعض الشيء بالقضية وانتحارها لاحقًا.

قال فافيل:

- قتلها.

رفع الدكتور بيكر حاجبيه، ونظر بتساؤل إلى ماكسيم، وقال بهدوء:
- لم تكن لدي فكرة عن وجود أي شك في ذلك، وأنفهم بالطبع، وسأفعل أي شيء في وسعي لمساعدتكم. إذا سمحتم لي بوضع دقائق، سأذهب وأبحث عن ملفاتي. يجب أن يكون هناك سجل لكل موعد تم حجزه على مدى العام، ووصف للحالة. فلتتناولوا السجائر، من فضلكم. لا يزال الوقت مبكرًا جدًا كي أقدم لكم الشيري، على ما أعتقد؟

هز العقيد جوليان وماكسيم رأسيهما، وظننت أن فافيل سيقول شيئًا، لكن الدكتور بيكر غادر الغرفة قبل أن تتاح له الفرصة.

قال العقيد جوليان:

- يبدو رجلاً لطيفًا.

قال فافيل:

- لماذا لم يقدم لنا الويسكي والصودا؟ إنه يحتفظ بهما في مكان مغلق، على ما أظن. لا يروق لي كثيرًا، ولا أعتقد أنه سيساعدنا الآن.

لم يقل ماكسيم شيئًا. كان في إيمكاني سماع صوت كرات التنس من الملعب، وأخذ كلب الترير الإسكتلندي ينبج، فصاح به صوت امرأة كي

يصمت. الإجازة الصيفية، ويكر يلعب مع ولديه، وقد قاطعنا روتينهم. كانت هناك ساعة ذهبية في صندوق زجاجي على رف المدفأة، لها صوت مرتفع، وتدق بسرعة كبيرة، واتكأت عليها بطاقة مصورة لبحيرة جنيف. كان لآل بيكر أصدقاء في سويسرا.

عاد الدكتور بيكر إلى الغرفة وفي يديه دفتر كبير وحافظة ملفات. حملهما إلى الطاولة، وقال:

- أحضرت مجموعة العام الماضي، ولم أراجعها بعد منذ أن انتقلنا، فقد تقاعدت من العمل منذ ستة أشهر فحسب، كما تعلمون.

فتح الدفتر، وبدأ يقلب الصفحات، وراقبته باهتمام شديد. سيجدها بالطبع، بات الأمر مجرد مسألة لحظات الآن، ثوانٍ. غمغم قائلاً:

- السابع، الثامن، العاشر، لا شيء هنا. هل قلت الثاني عشر؟ في الساعة الثانية؟ آه!

لم يتحرك أيُّ منا، وراقبنا جميعاً وجهه.
قال:

- قابلت سيدة تُدعى دانفرز في الساعة الثانية، باليوم الثاني عشر من الشهر. شرع فافيل يقول:

- داني؟ ماذا بحق السماء...

لكن ماكسيم قاطعه.
قال:

- لقد قدّمت اسمًا خطأً، بالطبع، كان ذلك واضحًا من البداية. هل تتذكر الزيارة الآن يا دكتور بيكر؟

لكن الدكتور بيكر أخذ يبحث في ملفاته بالفعل. رأيت أصابعه تفتش في الجيب المدون عليه حرف الدال، وعثر عليه في الحال تقريبًا. ألقى نظرة سريعة على خط يده، وقال بتمهل:

- نعم، نعم، السيدة دانفرز. أتذكر الآن.

قال العقيد جوليان بهدوء:

- طويلة، ونحيلة، ذات شعر داكن، وجميلة جدًا؟

قال الدكتور بيكر:

- نعم، نعم.

قرأ الملفات، ثم أعادها إلى الحافظة، ونظر إلى ماكسيم قائلاً:

- أتدري أن هذا الأمر غير مهني، بالطبع؟ نتعامل مع المرضى كما لو كانوا

في مقصورة الاعتراف، لكن زوجتك ماتت، وأنا متفهم تمامًا أن الظروف

استثنائية. تريد معرفة ما إذا كان في إمكاني اقتراح أي دافع يبرر سبب إقدام

زوجتك على الانتحار؟ أعتقد أنني أستطيع. كانت المرأة التي أطلقت على

نفسها السيدة دانفرز مريضة جدًا.

توقف عن الحديث، ونقل نظره بيننا تبعًا.

التفت إلى الملفات مرة أخرى، وقال:

- أتذكرها جيدًا، جاءني للمرة الأولى قبل أسبوع من التاريخ الذي ذكرته.

اشتكت أعراضًا معينة، وأخذتُ لها بعض الأشعة السينية. وكانت الزيارة

الثانية لمعرفة نتيجة تلك الأشعة السينية. صور الأشعة ليست هنا، لكن لديّ

التفاصيل مكتوبة. أتذكرها وهي تقف في عيادتي، وتمد يدها كي تتناول

صور الأشعة. قالت: «أريد معرفة الحقيقة، ولا أريد الكلمات الناعمة

واللطف اللذين تقتضيهما معاملة الطبيب للمريض. إذا كنت سأموت،

فيمكنك أن تخبرني مباشرة».

توقف عن الحديث، ونظر إلى الملفات مرة أخرى.

انتظرت، وانتظرت. لماذا لا ينتهي من الأمر، ويدعنا نذهب؟ لماذا يجب أن

يجلس هناك، منتظرًا، وعيناه مثبتتان على وجوهنا؟

قال:

- حسنًا، لقد طلبت الحقيقة، فأعطيتها إياها. هذا أفضل مع بعض المرضى،

ولا يفيدهم التهرب من الموضوع. ولم تكن السيدة دانفرز هذه، أو بالأحرى

السيدة دي ويتتر، من النوع الذي يتقبل الكذب. لا بد أنك كنت على دراية بذلك. وقفت ساكنة تمامًا، ولم تجفل، وقالت إنها اشتبهت في الأمر بعض الوقت. ثم دفعت أتعابي وخرجت، ولم أرها مرة أخرى. أغلق حافظته فأصدرت تكة، وأغلق الدفتر، وقال:

- كان الألم لا يزال طفيفًا، لكن الورم كان متعمقًا، وفي غضون ثلاثة أو أربعة أشهر كانت ستخضع لتعاطي المورفين. لم تكن العملية الجراحية لتجدي على الإطلاق، وقد أخبرتها بذلك، حيث كان الورم قد تمكن منها بدرجة كبيرة، ولا يمكن لأحد فعل أي شيء في مثل هذه الحالة، سوى إعطاء المورفين والانتظار.

لم ينطق أحد بكلمة، ودقت الساعة الصغيرة على رف المدفأة، ولعب الولدان التنس في الحديقة، بينما حلقت طائرة بالأعلى. قال:

- ظاهريًا بالطبع بدا أنها امرأة تتمتع بصحة جيدة، كانت نحيفة جدًا، على ما أتذكر، وشاحبة نوعًا ما، لكن هذه هي الموضة في الوقت الحاضر، على الرغم من أنه شيء مؤسف. لا يمكن فعل أي شيء مع المريض، لا، بل سيزداد الألم أسبوعًا بعد أسبوع، وكما أخبرتك، في غضون أربعة أو خمسة أشهر كانت ستضطر إلى البقاء تحت تأثير المورفين. كما أظهرت الأشعة السينية تشوهاً معيناً في الرحم، حسبما أتذكر، مما يعني أنها لم تكن تستطيع إنجاب طفل قط، لكن هذا كان أمرًا منفصلاً تمامًا، ولا علاقة له بالمرض. أتذكر سماع العقيد جوليان يتحدث، ويقول شيئاً عن مدى لطف الدكتور بيكر لتجشمه كل هذا العناء، وقال:

- لقد أخبرتنا بكل ما نريد معرفته، وإذا كان في إمكاننا الحصول على نسخة من تقارير ملفك، فقد يكون ذلك مفيداً جداً.

قال الدكتور بيكر:

- بالطبع، بالطبع.

وقف الجميع، ونهضت عن مقعدي أنا أيضًا، وصافحت الدكتور بيكر. صافحناه جميعًا، وتبعناه إلى الردهة. أطلت امرأة من غرفة على الجانب الآخر من الردهة، وتراجعت بسرعة عندما رأتنا. كان أحدهم يجهز الحَمَّام للاستحمام بالطابق العلوي، وتدفق الماء بصوت مرتفع. أتى كلب الترير الإسكتلندي من الحديقة، وبدأ يتشمم أعقابى.

قال الدكتور بيكر:

- هل أرسل التقرير إليك أو إلى السيد دي ويتتر؟

قال العقيد جوليان:

- قد لا نحتاج إليه أبدًا، أعتقد أنه لن يكون ضروريًا. سنكتب إليك رسالة، إما دي ويتتر وإما أنا. ها هي ذي بطاقتي.

قال الدكتور بيكر:

- أنا سعيد جدًا لأنني أفدتكم. لم يخطر ببالي قط لحظة أن السيدة دي ويتتر والسيدة دانفرز يمكن أن تكونا الشخص نفسه.

قال العقيد جوليان:

- لا، بالطبع.

- ستعودون إلى لندن، على ما أعتقد؟

- نعم، نعم، أعتقد ذلك.

- إذن أفضل طريق هو الانعطاف يسارًا عند صندوق البريد ذاك، ثم يمينًا عند الكنيسة. بعد ذلك، الطريق مستقيم.

- شكرًا لك، شكرًا جزيلاً.

خرجنا إلى الممر، وتوجهنا نحو السيارات. سحب الدكتور بيكر كلب الترير الإسكتلندي إلى داخل المنزل، وسمعت الباب يُغلق. ثم بدأ رجل ذو ساق واحدة معه أرغن يدوي يعزف أغنية «وردات بيكاردي» عند نهاية الطريق.

ذهبنا ووقفنا بجانب السيارة، ولم يقل أحد شيئاً لبضع دقائق. ورَّع العقيد جوليان السجائر من علبة سجائره، وبدأ فافيل شاحباً ومصدوماً نوعاً ما، ولاحظت أن يديه كانتا ترتعشان وهو يمسك بعود الثقاب. توقف الرجل ذو الأرغن اليدوي عن العزف لحظة، وجاء يعرج نحونا، وقبعته في يده. أعطاه ماكسيم شلنين، ثم عاد إلى الأرغن اليدوي وبدأ يعزف لحنًا آخر. دقت ساعة الكنيسة السادسة، وبدأ فافيل يتكلم، وبدأت نبرته متحفظة ولا مبالية، لكن وجهه كان لا يزال شاحباً. لم ينظر إلى أيِّ منا، وظل ينظر إلى سيجارته ويقلبها بين أصابعه، وقال:

- هذا السرطان، هل يعرف أحد ما إذا كان معدياً؟

لم يُجبه أحد، وهز العقيد جوليان كتفيه.

قال فافيل برعشة:

- لم تكن لديَّ أدنى فكرة قَطُّ. لقد أبقت الأمر سرّاً عن الجميع، حتى داني.

يا له من شيء لعين مروع، أليس كذلك؟ لم يكن المرء ليربط شيئاً كهذا

بريبيكا على الإطلاق. هل تشعرون بالرغبة في تناول شراب؟ أنا منزعج

بشدة من هذا الأمر، ولا أمانع في الاعتراف بذلك. سرطان! يا إلهي!

اتكأ على جانب السيارة، وظلل عينيه بيديه، وقال:

- قولوا لذلك اللعين ذي الأرغن اليدوي أن يرحل بعيداً، فلا أطيق تلك

الضوضاء اللعينة.

قال ماكسيم:

- ألن يكون من الأبسط أن نرحل نحن؟ هل يمكنك قيادة سيارتك، أم هل تريد أن يتولى جوليان قيادتها نيابة عنك؟
غمغم فافيل:

- أعطني دقيقة، سأكون على ما يرام. أنت لا تفهم، كان هذا الأمر بمنزلة صدمة لعينة لي.

قال العقيد جوليان:

- بحق السماء، تمالك نفسك يا رجل. إذا كنت تريد شرابًا، فارجع إلى المنزل واطلب من بيكر. أعتقد أنه يعرف كيف يعالج الصدمة، لكن لا تتصرف على نحو محرج في الطريق.

انتصب فافيل واقفًا، ونظر إلى العقيد جوليان وماكسيم، وقال:

- أوه، أنت على ما يرام، أنت بخير، ولم يعد لديك ما يدعو إلى القلق بعد الآن، إن ماكس في موقف جيد الآن، أليس كذلك؟ ها قد حصلت على الدافع، وسيقدمه بيكر بوضوح، من دون مقابل، متى أرسلت إليه. وستستطيع أن تتناول العشاء في ماندركلي مرة أسبوعيًا بناءً على ذلك، وتفخر بنفسك. ولا شك أن ماكس سيطلب منك أن تكون الأب الروحي لطفله الأول.

قال العقيد جوليان لماكسيم:

- هلاً ركبنا السيارة ومضيئنا؟ يمكننا أن نضع خطتنا في أثناء الطريق.

فتح ماكسيم باب السيارة، وركب العقيد جوليان، وجلست في مقعدي في الأمام. ظل فافيل متكئًا على سيارته ولم يتحرك، فقال العقيد جوليان بخشونة:
- أنصحك بالعودة إلى شقتك فورًا، والذهاب إلى الفراش. وقد السيارة بتمهل، وإلا ستجد نفسك في السجن بتهمة القتل غير العمد. وحيث إنني لن أراك مرة أخرى، عليّ أن أحذرك الآن أنني بوصفي قاضيًا، أمتلك بعض الصلاحيات التي ستثبت فعاليتها إذا حضرت مرة أخرى إلى كيريث أو في المقاطعة. إن الابتزاز ليس مهنة يُعتد بها يا سيد فافيل،

ونعرف كيف نتعامل معها في منطقتنا هذه، على الرغم من أن ذلك قد يبدو غريبًا بالنسبة إليك.

كان فافيل يراقب ماكسيم، وقد فقدَ شحوبه وعادت ابتسامته القديمة الكريهة ترسم على شفتيه، وقال بتمهل:

- نعم، لقد كانت ضربة حظ بالنسبة إليك يا ماكس، أليس كذلك؟ وتعتقد أنك ربحت، أليس كذلك؟ لا يزال من الممكن أن يطالك القانون، كما يمكنني أن أطالك أنا، بطريقة مختلفة...

أدار ماكسيم محرك السيارة، وقال:

- هل لديك أي شيء آخر تريد قوله؟ لأنه إذا كان لديك، فمن الأفضل أن تقوله الآن.

قال فافيل:

- لا، لا، لن أعطلك، يمكنك الذهاب.

عاد إلى الرصيف، والابتسامة لا تزال على شفتيه. تقدمت السيارة إلى الأمام، وعندما انعطفنا عند ناصية الطريق نظرت إلى الوراء، ورأيتَه يقف هناك يراقبنا، ولوح بيده وهو يضحك.

مضينا في طريقنا في صمت بعض الوقت، ثم تحدث العقيد جوليان قائلاً:

- لن يستطيع أن يفعل شيئاً، وكانت تلك الابتسامة والتلويح مجرد جزء من خداعه، فجميعهم متشابهون، هؤلاء الرجال. وليست لديه أي قضية ليتقدم بها الآن، حيث ستسحقها شهادة بيكر.

لم يرد ماكسيم، وألقيت نظرة جانبية على وجهه، لكنه لم يخبرني بأي شيء.

قال العقيد جوليان:

- لطالما شعرت بأن الحل سيكمن لدى بيكر. السرية بخصوص ذلك الموعد، وكيف أنها لم تخبر حتى السيدة دانفرز قط، كانت لديها شكوكها، كما ترى، وعرفت أن ثمة خطباً ما. إنه شيء مروع بالطبع، مروع للغاية، ويكفي لجعل امرأة شابة جميلة تفقد عقلها تماماً.

سرنا عبر الطريق الرئيسي الممتد على استقامته، ومرّت أعمدة التلغراف،

والحافلات، والسيارات الرياضية المفتوحة، والفيئات الصغيرة شبه المنفصلة التي لها حداثق جديدة، وصنعت في ذهني أشكالاً سأذكرها إلى الأبد.

قال العقيد جوليآن:

- أعتقد أنك لم تكن لديك أي فكرة عن هذا يا دي وينتر؟

قال ماكسيم:

- لا، لا.

قال العقيد جوليآن:

- بالطبع فإن بعض الناس يعانون خوفًا مرضيًا من الأمر، النساء على وجه الخصوص. لا بد أن الحال كانت هكذا مع زوجتك. امتلكت الشجاعة لمواجهة كل شيء آخر سوى ذلك. لم تستطع مواجهة الألم. حسنًا، لقد نجت من ذلك على أي حال.

قال ماكسيم:

- نعم.

قال العقيد جوليآن:

- لا أعتقد أنه سيقع أي ضرر إذا أشعثُ بهدوء في كيريث وفي المقاطعة أن طبييًا من لندن قد زوّدنا بدافع، تحسبًا لوجود أي شائعات. لا يمكنك أن تكون متأكدًا أبدًا، كما تعلم، وطباع الناس غريبة في بعض الأحيان. قد يصبح الأمر أسهل بكثير بالنسبة إليك، إذا عرفوا بأمر السيدة دي وينتر.

قال ماكسيم:

- نعم، نعم، أفهم ذلك.

قال العقيد جوليآن ببطء:

- من الغريب والمزعج جدًّا، كيف تنتشر الشائعات في المناطق الريفية. لا أعرف لماذا يحدث ذلك، لكنه يحدث للأسف. لا يعني ذلك أنني أتوقع مشكلة بهذا الشأن، لكن من الجيد أيضًا أن أكون مستعدًّا، فالناس على استعداد لقول أشياء غريبة إذا سنحت لهم الفرصة.

قال ماكسيم:

- أجل.

- يمكنك أنت وكرولي بالطبع القضاء على أي هراء في ماندري أو في العزبة، وأنا أستطيع التعامل مع الأمر على نحو فعال في كيريث. كما سأقول شيئاً لابتني أيضاً، فهي تقابل الكثير من الشباب الذين عادة ما يكونون أسوأ المذنبين بنشر الشائعات. ولا أعتقد أن الصحف ستزعجك بعد ذلك، وهذا شيء جيد. ستجد أنهم سيتخلون عن القضية برمتها خلال يوم أو يومين.

قال ماكسيم:

- نعم.

واصلنا الطريق عبر الضواحي الشمالية، ووصلنا مرة أخرى إلى فينشلي وهامبستيد. قال العقيد جوليان:

- الساعة السادسة والنصف. ماذا تقترح أن تفعل؟ لديّ شقيقة تعيش في سانت جونز وود، وأشعر بالرغبة في مفاجأتها بالزيارة، وطلب العشاء، وبعد ذلك سأستقل القطار الأخير من بادينجتون. أعرف أنها لن تسافر قبل أسبوع آخر، وأنا متأكد أنها ستكون مسرورة لرؤيتكما أيضاً.

تردد ماكسيم ونظر إليّ، وقال:

- هذا لطف بالغ منك، لكن أظن أنه من الأفضل أن نستقل بأنفسنا. عليّ الاتصال بفرانك، وتولي شأن بعض الأمور الأخرى. أعتقد أننا سنتناول وجبة هادئة في مكان ما، ثم نمضي في طريقنا مرة أخرى بعدها، ونقضي الليلة في حانة على الطريق، أعتقد أن هذا ما سنفعله.

قال العقيد جوليان:

- بالطبع، أتفهم هذا تمامًا. هل يمكنك توصيلي إلى منزل شقيقتي؟ إنه عند أحد تلك المنعطفات على طريق أفينيو.

عندما وصلنا إلى المنزل، وقف ماكسيم قبل البوابة بمسافة قصيرة، وقال:

- من المستحيل أن أشكرك على كل ما فعلته اليوم. أنت تعرف شعوري حيالك، من دون أن أخبرك.

قال العقيد جوليآن:

- يا صديقي العزيز، سررت لذلك، ولو كنا فقط نعرف ما يعرفه بيكر، لما حدث شيء من هذا على الإطلاق بالطبع. ومع ذلك، لا تهتم بهذا الآن. عليك أن تضع الأمر برمته وراءك بوصفه حادثًا مزعجًا ومؤسفًا جدًا. وأنا متأكد أنك لن تواجه أي مشكلات أخرى من فافيل. وإذا حدث ذلك، فسأعتمد عليك كي تبلغني في الحال، وسأعرف كيف أتعامل معه.

نزل من السيارة، وأخذ سترته وخريطته، وقال من دون أن ينظر إلينا مباشرة: - لو كنت مكانك، سأشعر بالميل إلى الرحيل فترة من الوقت، وأخذ إجازة قصيرة، والسفر إلى الخارج ربما.

لم نقل شيئًا، وأخذ العقيد جوليآن يعبث بخريطته، وقال:

- سويسرا لطيفة جدًا في هذا الوقت من العام. أذكر أننا ذهبنا مرة في أثناء إجازة الفتيات، واستمتعنا بأنفسنا للغاية، وكانت النزاهات ممتعة.

تردد، ثم تنحى وقال:

- هناك احتمال ضعيف أن تنشأ بعض المشكلات الصغيرة، ليس من قبيل فافيل، لكن من شخص أو شخصين في المقاطعة. ولا يعرف المرء بالطبع ما قاله تاب وما أخذ يردده، وما إلى ذلك. هذا أمر سخيف بالتأكيد، لكنك تعرف ذلك القول المأثور: «البعيد عن العين، بعيد عن الفكر». وإذا لم يكن الناس موجودين للحديث عنهم، فستموت الأحاديث. هكذا يسير العالم. وقف للحظة يعد متعلقاته.

- أعتقد أن لدي كل شيء: الخريطة، والنظارة، والعصا، والمعطف، كل شيء كامل. حسنًا، إلى اللقاء. لا ترهقا أنفسكما، كان يومًا طويلًا.

دخل عند البوابة، وصعد الدرج، ورأيت امرأة تأتي إلى النافذة وتبتسم وتلوح بيدها. تحركنا عبر الطريق، ودرنا عند المنعطف. تراجعت في مقعدي، وأغمضت

عيني. الآن بعد أن عدنا وحدنا مرة أخرى وانتهى التوتر، كان ذلك الإحساس بمنزلة راحة لا تُصدق تقريبًا، بدا أشبه بانفجار خراج. لم يتكلم ماكسيم، وشعرت بيده تغطي يدي. مررنا عبر الزحام المروري، ولم أرَ شيئًا منه. سمعت طنين الحافلات وصياح سيارات الأجرة، وهدير لندن الحتمي الذي لا يكل، لكنني لم أكن جزءًا منه، بل نعمت بالراحة في مكان آخر هادئ وساكن. لا يمكن أن يمسننا شيء بعد الآن، لقد مررنا بأزمئنا.

عندما أوقف ماكسيم السيارة، فتحت عيني واعتدلت جالسة. كنا مقابل أحد تلك المطاعم الصغيرة العديدة في شارع ضيق في سوهو، ونظرت حولي بحيرة وبلاهة.

قال ماكسيم باقتضاب:

- أنت متعبة، جائعة ومتعبة، وغير قادرة على فعل شيء. ستشعرين بتحسّن عندما تتناولين بعض الطعام، وأنا كذلك. سندخل هنا، ونطلب العشاء على الفور، ويمكنني الاتصال بفرانك أيضًا.

ترجلنا من السيارة، ولم يكن هناك أحد في المطعم سوى رئيس النّذل، ونادل، وفئة خلف مكتب. كان المكان معتمًا وباردًا، وتوجهنا إلى طاولة في الركن مباشرة. بدأ ماكسيم يطلب الطعام، وقال:

- كان فافيل محقًا بشأن رغبته في تناول شراب، فأنا أيضًا أريد واحدًا، وأنت كذلك، ستتناولين بعض البراندي.

كان رئيس النّذل سمينًا ومبتسمًا، وقدم لنا مخبوزات طويلة ورفيعة في أطرف ورقية، كانت صلبة وهشة للغاية، وبدأت أكل واحدًا بنهم. وكان شراب البراندي والصودا لطيفًا ويبعث على الدفء والراحة على نحو غريب.

قال ماكسيم:

- عندما تتناول العشاء، سنسير على مهل، بتأنٍ شديد، وسيكون الجو لطيفًا أيضًا في المساء. سنجد مكانًا ما على الطريق حيث يمكننا قضاء الليلة، ثم يمكننا الوصول إلى ماندرلي في الصباح.

قلت:

- أجل.

- لم ترغبني في تناول العشاء مع شقيقة جوليان، والعودة في القطار المتأخر، أليس كذلك؟

- نعم.

أنهى ماكسيم شرابه، وبدت عيناه كبيرتين تحيطهما الهالات، التي كانت داكنة جدًا مقارنة بوجهه الشاحب.

قال:

- برأيك، ما مقدار الحقيقة التي خمنها جوليان؟

راقبته من فوق حافة كأسه، ولم أقل شيئًا.

تابع ماكسيم قائلاً بتأن:

- كان يعرف، بالطبع كان يعرف.

قلت:

- إذا كان يعرف، فلن يقول شيئًا أبدًا، أبدًا، أبدًا.

قال ماكسيم:

- لا، لا.

طلب شرابًا آخر من رئيس النُذل، وجلسنا في صمت وسلام في ركننا المعتم.

قال ماكسيم:

- أعتقد أن ربيكا كذبت عليّ عن عمد، الخدعة الأخيرة العظمى. أرادتني

أن أقتلها، وتوقعت كل شيء، لهذا ضحكت. لهذا وقفت هناك تضحك

عندما ماتت.

لم أقل شيئًا، وواصلت تناول البراندي والصودا. انتهى كل شيء. تمت تسوية

كل شيء، ولم تعد للأمر أهمية. لم تعد هناك حاجة إلى أن يبدو ماكسيم شاحبًا

ومهمومًا.

قال ماكسيم:

- كانت حيلتها الأخيرة، وأفضلها جميعًا، وحتى الآن لست متأكدًا أنها لم تفز.
قلت:

- ماذا تعني؟ كيف يمكن أن تكون قد فازت؟
قال:

- لا أدري، لا أدري.

وتجرع شرابه الثاني، ثم قام من على الطاولة، وقال:
- سأذهب لأتصل بفرانك.

جلست هناك في زاويتي، وبعد قليل أحضر لي النادل طبق السمك. كان الكرنكند ساخنًا جدًا ولذيذًا، كما تناولت البراندي والصودا مرة أخرى أيضًا. كان الجلوس هناك ممتعًا ومريحًا، ولم يكن هناك شيء له أهمية كبيرة. ابتسمت للنادل، وطلبت مزيدًا من الخبز باللغة الفرنسية، من دون سبب. بدا المطعم هادئًا ومبهجًا ولطيفًا، وأنا وماكسيم معًا. انتهى كل شيء، وتمت تسوية كل شيء. ماتت ريبिका. لا تستطيع ريبिका أن تؤذينا. لقد قامت بحيلتها الأخيرة، كما قال ماكسيم، ولم يعد في وسعها أن تفعل بنا المزيد الآن. في غضون عشر دقائق، عاد ماكسيم مرة أخرى.

بدا صوتي بعيدًا وأنا أقول:

- حسنًا، كيف كان فرانك؟

قال ماكسيم:

- فرانك بخير، كان في المكتب، ينتظرني هناك للاتصال به منذ الساعة الرابعة. أخبرته بما حدث، وبدا سعيدًا وأحس بالارتياح.

قلت:

- نعم.

قال ماكسيم ببطء، وقد تغضن ما بين حاجبيه:

- لكن هناك أمرًا غريبًا نوعًا ما، فهو يعتقد أن السيدة دانفرز رحلت. لقد ذهبت، واختفت. لم تقل شيئًا لأحد، لكن يبدو أنها انشغلت بحزم أغراضها

طوال اليوم، وجردت غرفتها من الأشياء، وجاء رجل من المحطة وأخذ صناديقها في الساعة الرابعة تقريبًا. اتصل فريث هاتفياً بفرانك بخصوص الأمر، وطلب فرانك من فريث أن يطلب من السيدة دانفرز الذهاب إليه في المكتب. انتظر ولم تأتِ قَطُّ. وقبل اتصالي بعشر دقائق تقريباً، اتصل فريث بفرانك مرة أخرى وقال إن هناك مكالمة بعيدة المدى للسيدة دانفرز، حوّلها إلى غرفتها، وقد ردت عليها. لا بد أن هذا كان في الساعة السادسة وعشر دقائق تقريباً. في الساعة السابعة والرابع، طرق الباب ووجد غرفتها خالية، وغرفة نومها أيضاً. بحثوا عنها ولم يتمكنوا من العثور عليها، ويعتقدون أنها رحلت. لا بد أنها خرجت من المنزل مباشرة عبر الغابة، حيث لم تجتز بوابات الكوخ قَطُّ.

قلت:

- أليس هذا شيئاً جيداً؟ فهو يوفر علينا الكثير من المتاعب. كنا سنضطر إلى التخلص منها على أي حال، وأعتقد أنها خمنت ذلك أيضاً. كان هناك تعبير على وجهها الليلة الماضية، ظللت أفكر في الأمر، ونحن في الطريق بالسيارة.

قال ماكسيم:

- لا يعجبني ذلك، لا يعجبني ذلك.

جادلت قائلة:

- لا يمكنها فعل أي شيء، وإذا رحلت، فهذا أفضل بكثير. كان فافيل هو من اتصل بالطبع، لا بد أنه أخبرها عن بيكر. كما سيخبرها بما قاله العقيد جوليان. قال العقيد جوليان إنه إذا كانت هناك أي محاولة للابتزاز فعلى إخباره، ولن يجروا على فعل ذلك. لا يمكنهما ذلك، فهو خطير جداً.

قال ماكسيم:

- أنا لا أفكر في الابتزاز.

قلت:

- ما الذي يمكنهما فعله خلاف ذلك؟ علينا أن نفعل ما قاله العقيد جوليان.
علينا أن ننسى ذلك، ويجب ألا نفكر في الأمر بعد الآن. لقد انتهى كل شيء
يا حبيبي، وانقضى الأمر. علينا أن نركع على ركبنا ونحمد الرب أنه انتهى.
لم يرد ماكسيم، وحدث أمامه إلى الفراغ.
قلت:

- سيرد الكركند، كُله يا حبيبي، سيفيدك، فأنت في حاجة إلى أن تتناول
شيئًا، أنت متعب.

استخدمت الكلمات التي استخدمها هو معي. شعرت بالتحسن، وأنتي صرت
أقوى، وبت أنا مَنْ يعتني به الآن. كان متعبًا وشاحبًا. تغلبت على ضعفي وإرهاقي،
وكان هو مَنْ يعاني الآن رد الفعل حيال ما حدث. كان هذا لأنه جائع فحسب،
ولأنه متعب. لم يكن هناك ما يدعو إلى القلق على الإطلاق. فقد رحلت السيدة
دانفرز، ويجب أن نشكر الرب على ذلك أيضًا. صار كل شيء سهلًا بالنسبة إلينا،
سهلًا جدًا. قلت:

- فلنأكل السمك.

ستصير الأمور مختلفة تمامًا في المستقبل. لن أعود متوترة وخجولًا مع
الخدم بعد الآن. مع رحيل السيدة دانفرز، سأتعلم شيئًا فشيئًا إدارة المنزل،
وسأذهب إلى مقابلة الطاهي في المطبخ، وسيحبونني ويحترموني. وسرعان
ما سيبدو الأمر كأن السيدة دانفرز لم تكن مسؤولة عن مقاليد الأمور قط. كما
سأتعلم المزيد عن العزبة أيضًا، وسأطلب من فرانك أن يشرح لي الأمور. كنت
متأكدة أن فرانك يميل إليّ، وأنا أيضًا أميل إليه. سأخوض في الأمور، وأتعلم
كيف تُدار، وماذا يفعلون في المزرعة، وكيفية التخطيط للعمل في الأراضي
المحيطة بالمنزل. وربما أبدأ في الاهتمام بالبستنة بنفسي، ومع الوقت، أغير شيئًا
أو شيئين. تلك الحديقة الصغيرة المربعة خارج غرفة الجلوس الصباحية التي بها
تمثال الفون، لم تكن تعجبني. ستتخلص من الفون. هناك كثير من الأشياء التي
يمكنني فعلها، شيئًا فشيئًا. وسيأتي الناس ويبيتون، ولن أمانع. سأهتم بالعناية

بأمر غرفهم، وترتيب الزهور ووضع الكتب، وترتيب أمر الطعام. وسيكون لدينا أطفال. بالتأكيد سيكون لدينا أطفال.

قال ماكسيم فجأة:

- هل انتهيت؟ لا أعتقد أنني أريد المزيد.

ثم أضاف قائلاً للرئيس النذل:

- القهوة فقط. سوداء وقوية جدًا، من فضلك، والفاتورة.

تساءلت لماذا يجب أن نرحل بهذه السرعة. كان المطعم مريحًا، ولم يكن هناك ما يستدعي رحيلنا. أحببت الجلوس هناك، ورأسي مستند إلى ظهر الأريكة، والتخطيط للمستقبل في خمول على نحو لطيف مبهم. كان في إمكاني أن أظل جالسة هناك فترة طويلة.

تبع ماكسيم خارج المطعم، وتعثرت بعض الشيء، وتثاءبت. قال عندما صرنا على الرصيف:

- اسمعي، هل تعتقدين أنه يمكنك النوم في السيارة إذا لففتك بالدفء، ووضعتك في الخلف؟ توجد وسادة هناك، ومعطفي أيضًا.

قلت باندهاش:

- ظننت أننا سوف نبيت في مكان ما هذه الليلة، أحد تلك الفنادق التي نمر بها على الطريق؟

قال:

- أعرف، لكن لدي شعورًا أنه يجب عليّ العودة الليلة. ألا يمكنك النوم في مؤخرة السيارة؟

قلت بشك:

- بلى، بلى، أعتقد ذلك.

- إذا انطلقنا الآن، والساعة الثامنة إلا الربع، يجب أن نكون هناك بحلول الثانية والنصف. لن يكون هناك الكثير من حركة المرور على الطريق.

- سوف تكون متعبًا جدًا، متعبًا جدًا.

هز رأسه قائلاً:

- لا، سأكون بخير. أريد العودة إلى المنزل. ثمة خطب ما، أعرف ذلك، وأريد العودة إلى المنزل.

كان وجهه قلقاً وغريباً. فتح الباب، وبدأ يرتب الدثار والوسادة في مؤخرة السيارة.

قلت:

- ما الذي يمكن أن يكون على غير ما يرام؟ يبدو من الغريب أن تقلق الآن، بعد أن انتهى كل شيء. لا أستطيع أن أفهمك.

لم يرد، فركبت في مؤخرة السيارة، وساقاي مطويتان أسفل. غطاني بالدفار، ووجدت الأمر مريحاً جداً، أفضل مما تخيلت بكثير. وضعت الوسادة تحت رأسي.

قال:

- هل أنت بخير؟ هل أنت متأكدة أنك لا تمانعين؟

ابتسمت قائلة:

- لا، أنا بخير، سوف أنام. لا أريد المبيت في أي مكان على الطريق. من الأفضل كثيراً فعل هذا والعودة إلى المنزل. سنكون في ماندري قبل شروق الشمس بوقت طويل.

ركب في مقدمة السيارة وأدار المحرك، وأغلقت عيني. انطلقت السيارة، وشعرت بهزة خفيفة من النواض تحت جسدي، وضغطت وجهي على الوسادة. كانت حركة السيارة إيقاعية وثابتة، وتناغم معها نبض ذهني. جاءني مئات الصور عندما أغلقت عيني: أشياء رأيتهما، وأشياء عرفتھا، وأشياء نسيتهما، اختلطت كلها معاً في أشكال بلا معنى. ريشة قبعة السيدة فان هوبر، والكراسي الصلبة ذات الظهر المستقيم في غرفة الطعام الخاصة بفرانك، والنافذة العريضة في الجناح الغربي في ماندري، والفيستان الذي بلون السلمون للسيدة المبتسمة في الحفل التنكري الراقص، وفتاة ريفية في طريق بالقرب من مونت كارلو.

أحيانًا رأيت جاسبر يطارد الفراشات عبر المروج، وفي أحيان أخرى رأيت كلب الدكتور بيكر الذي من فصيلة الترير الإسكتلندي يحك أذنه بجانب كرسي قابل للطّي. كان هناك ساعي البريد الذي دلنا على المنزل اليوم، كما كانت هناك والدة كلاريس وهي تمسح لي مقعدًا في غرفة الاستقبال الخلفية. ابتسم لي بن ممسكًا القواقع البحرية في يديه، وسألني زوجة الأسقف عما إذا كنت سأبقى لتناول الشاي. شعرت بملاءات السرير المريحة الباردة في فراشي، وبالخصى الخشن في الخليج. واستطعت أن أشم رائحة السراخس في الغابة، والطحالب الرطبة، وبتلات الأزاليا الميتة. غرقت في نوم غريب متقطع، واستيقظت بين الحين والحين على حقيقة المكان الضيق الذي أرقد فيه، ومنظر ظهر ماكسيم أمامي. تحول الغسق إلى ظلام، وظهرت أضواء السيارات المارة على الطريق. وكانت هناك قرى بها ستائر مسدلة، خلفها أضواء صغيرة. كنت أتحرك، وأنقلب على ظهري، وأعود للنوم مرة أخرى.

رأيت الدرج في ماندري، والسيدة دانفرز تقف في الأعلى بفستانها الأسود، تنتظر أن أذهب إليها. وعندما صعدتُ السلالم، تراجعَت تحت مدخل الرواق المقوس واختفت. بحثت عنها ولم أجدها. ثم أطل عليَّ وجهها من باب غائر، فصرخْتُ واختفت مرة أخرى.

صحت:

- كم الساعة؟ كم الساعة؟

استدار إليَّ ماكسيم ووجهه شاحب كالشبح وسط ظلام السيارة، وقال:

- إنها الحادية عشرة والنصف. لقد تجاوزنا نصف الطريق بالفعل. حاولي العودة إلى النوم مرة أخرى.

قلت:

- أشعر بالعطش.

توقف عند البلدة التالية، وقال الرجل في المرأب إن زوجته لم تذهب إلى الفراش وستعد لنا بعض الشاي، فترجلنا من السيارة ووقفنا داخل المرأب.

ضربت الأرض بقدمي لأعيد تدفق الدماء إلى يدي وقدمي، ودخن ماكسيم سيجارة. كان الجو باردًا، وهبَّ ريح مريرة عبر باب المرأب المفتوح، وارتج السقف المصنوع من الحديد المموج.

قال عامل المرأب وهو يدير مضخة البنزين:

- أجل، الهواء بارد الليلة، ويبدو أن الجو تغير بعد ظهر اليوم. كانت تلك آخر موجة حارة لهذا الصيف، وسنمكر في إشعال النار في المدفأة قريبًا. قلت:

- كان الجو حارًا في لندن.

قال:

- حقًا؟ حسنًا، دائمًا ما يكون الجو متطرفًا لديهم هناك، أليس كذلك؟ بينما تصل إلينا هنا بدايات الطقس السيئ. ستهب الريح بقوة على الساحل قبل الصباح.

أحضرت لنا زوجته الشاي، وبدأت نكهته كالخشب المر، لكنه كان ساخنًا، فشربته بلهفة وأنا شاكرة، في حين أخذ ماكسيم ينظر إلى ساعته بالفعل. قال:

- يجب أن نذهب، الساعة الثانية عشرة إلا عشر دقائق.

تركت المأوى الذي وفره المرأب على مضض، فهبت الريح الباردة في وجهي. تسابقت النجوم عبر السماء، وكانت هناك خيوط من السحب أيضًا. قال عامل المرأب:

- أجل، انتهى الصيف لهذا العام.

ركبنا السيارة مرة أخرى، واستقررت ثانية تحت الدثار. مضت السيارة في طريقها، وأغمضت عيني. كان هناك الرجل ذو الساق الخشبية، يلف الأرغن اليدوي، وطن في رأسي لحن «وردات بيكاردى» مع اهتزاز السيارة. حمل فريث وروبرت الشاي إلى المكتبة، وأومأت إليّ المرأة المقيمة في الكوخ على عجل، ونادت طفلها ليدخل المنزل. رأيت نماذج السفن بالكوخ في الخليج، والغبار

الناعم، ورأيت شباك العناكب الممتدة من الصواري الصغيرة. سمعت المطر على السطح، وصوت البحر. أردت الوصول إلى الوادي السعيد، لكنه لم يكن هناك. أحاطت بي الغابات، ولم يكن هناك وجود للوادي السعيد، بل الأشجار الداكنة والسراخس الصغيرة فحسب. صاح البوم، والتمع القمر على النوافذ في ماندري. انتشر نبات القراص في الحديقة، بارتفاع عشر أقدام وعشرين قدمًا. صحت:

مكتبة
t.me/soramnqraa

- ماكسيم! ماكسيم!
- نعم، كل شيء على ما يرام، أنا هنا.
- رأيت حلمًا، حلمًا.
- ماذا كان؟
- لا أعرف، لا أعرف.

غصت مرة أخرى في الأعماق المتحركة المضطربة. كنت أكتب الرسائل في غرفة الجلوس الصباحية، وأرسل الدعوات. كتبتها كلها بنفسى بقلم أسود سميك، لكن عندما نظرت لأرى ما كتبت، لم يكن خط يدي الصغير المضلع قطعًا، بل كان طويلًا ومائلًا، بخطوط غريبة مدببة. دفعت البطاقات بعيدًا عن النشاف وأخفيتها. ونهضت وذهبت إلى المرأة، فحدق إليّ وجه لم يكن وجهي. بدا شاحبًا، فاتق الجمال، تحيط به هالة من الشعر الداكن. ضاقت العينان وابتسمتا، وتباعدت الشفتان عن بعضهما. حدق إليّ الوجه المنعكس في المرأة، وضحك. ورأيت حينها أنها جالسة على المقعد أمام منضدة الزينة في غرفة نومها، وماكسيم يمشط شعرها. أمسك شعرها بين يديه، وبينما هو يمشطه لفه ببطء على هيئة حبل سميك. تلوى كتعبان، فأمسكه بكلتا يديه وابتسم لريبكا، ووضعته حول عنقه. صرخت:

- لا، لا، يجب أن نذهب إلى سويسرا. قال العقيد جوليان إنه يجب علينا الذهاب إلى سويسرا.
- شعرت بيد ماكسيم على وجهي، وقال:

- ما الخطب، ماذا جرى؟
اعتدلت جالسة ودفعت شعري بعيداً عن وجهي.
قلت:

- لا أستطيع النوم، لا فائدة.
- لقد كنت نائمة، نمت ساعتين. إنها الثانية والرابع. نحن على بُعد أربعة أميال
من الجانب الآخر من لانيون.
كان الجو أكثر برودة من ذي قبل، وارتجفت في عتمة السيارة.
قلت:

- سأتي بجانبك. سنصل بحلول الساعة الثالثة.
صعدت وجلست بجانبه، أحرق أمامي من خلال النافذة الأمامية، ووضعت
يدي على ركبته، وأخذت أسناني تصطك.
قال:

- أنت تشعرين بالبرد.
- أجل.
ارتفعت التلال أمامنا، وانخفضت، ثم ارتفعت مرة أخرى. كان الظلام حالكاً،
واختفت النجوم.
سألته:

- كم قلت الساعة؟
- الثانية والثلاث.
- هذا غريب، يبدو الأمر تقريباً كأن الفجر ينبلع هناك، وراء تلك التلال. لكن
لا يمكن أن يكون الأمر كذلك، فالوقت لا يزال مبكراً.
- إنه الاتجاه الخطأ، أنت تنظرين نحو الغرب.
- أعرف، هذا غريب، أليس كذلك؟

لم يرد، وظللت أراقب السماء، التي بدا أنها تزداد إشراقاً حتى وأنا أحرق
إليها. مثل أول خط أحمر لشروق الشمس، شيئاً فشيئاً، انتشر عبر السماء.

قلت:

- نشاهد الشفق القطبي في الشتاء، أليس كذلك؟ ليس في الصيف.

- هذا ليس الشفق القطبي، هذا ماندري.

نظرت إليه، ورأيت وجهه، ورأيت عينيه.

قلت:

- ماكسيم، ماكسيم، ما الخطب؟

قاد أسرع، أسرع بكثير، وصعدنا التل أمامنا، ورأينا لانيون ترقد في الوادي عند أقدامنا. على يسارنا كان هناك خط النهر الفضي، وهو يتسع عند المصب في كيريث على بُعد ستة أميال، وامتد أمامنا الطريق إلى ماندري. كان القمر غائبًا، والسماء فوق رأسينا سوداء كالحبر. لكن السماء في الأفق لم تكن مظلمة على الإطلاق، بل تخللها اللون القرمزي، مثل بقعة من الدم، وهبَّ الرماد نحونا مع الهواء المالح القادم من البحر.

خاتمة

كانت «ريبيكا»، التي نُشرت لأول مرة عام ١٩٣٨، هي خامس رواية لدافني دو موريه. وقد صارت الرواية الأشهر من بين كتبها العديدة، وبعد أكثر من ستين عامًا، لا تزال تُطارد، وتسحر، وتحير جيلاً جديداً من القراء. ومع ذلك، فإن شعبيتها المتواصلة لم يقابلها القدر نفسه من الإشادة النقدية، فمنذ وقت نشرها أول مرة عانت رواية «ريبيكا» الاستخفاف بها على نحو مؤسف ومُتعمد. تمت الاستهانة بها بوصفها قصة رومانسية قوطية، و«أدباً نسائياً»، وهذه المصطلحات المجحفة بالطبع تدل على أسباب سوء الفهم الذي تعرضت له الرواية بدرجة لا تُصدق. لقد طال انتظار إعادة النظر في هذه الرواية الغريبة والغامضة والمتبصرة، وربما يجب أن تبدأ إعادة تقييمها بالظروف التي كُتبت في ظلها.

بدأت دو موريه في التخطيط للرواية في مرحلة صعبة من حياتها، حيث مرت سنوات قليلة فقط على وفاة والدها المحبوب على الرغم من كونه متسلطاً، الممثل والمدير المسرحي جيرالد دو موريه. كانت حبلَى بطفلها الثاني وهي في مرحلة التخطيط للكتاب، وعندما بدأت الكتابة بالفعل في سن الثلاثين، كانت في مصر، حيث انتُدب زوجها، فريدريك براوننج، مع كتيبته، وهو ضابط في حرس جرينادير. لذلك بدأت ما يعتبرها الكثيرون رواية كورنوال المثالية، وكُتبت جزء كبير منها، ليس في كورنوال، ولا حتى في إنجلترا، ولكن في الحرارة الشديدة للصحراء المصرية، في مدينة كرهتها دو موريه، وهي الإسكندرية.

عانت دو موريه بشدة الحنين إلى الوطن، وكتبت أن اشتياقها إلى منزلها على

شاطئ البحر في كورنوال كان «مثل الألم المستمر تحت القلب». كما أحست بالتعاسة أيضًا، حيث كانت هذه هي المرة الأولى التي ترافق فيها زوجها خلال انتدابه في عمله، وكرهت الدور الذي فرضه عليها زواجها في مصر.

كانت خجولاً ومنعزلة اجتماعيًا، وكرهت المحادثات الخفيفة وحفلات الاستقبال اللانهائية التي كان من المتوقع أن تحضرها وتقيمها، بوصفها زوجة ضابط قيادي. وقد ظهر في رواية «ريبيكا» هذا الحنين إلى الوطن واستياؤها من واجبات الزوجة، إلى جانب شعورها بالذنب لعدم كفاءتها عند أدائها، وتتركز هذه المشاعر حول الغريمتين في الرواية، الزوجة الثانية الحية والمطبعة، السيدة دي وينتر، والزوجة الأولى الميتة والمتمردة التي لا يمكن تدميرها، ريبيكا. تعكس كلتا المرأتين جوانب شخصية دو موريه المعقدة: لقد قسمت نفسها بينهما، وأدى أسلوبها هذا في التقسيم والازدواج والمطابقة الذي تستخدمه خلال النص إلى زعزعة استقراره، لكنه يضيف عليه عمقًا. مع «ريبيكا»، ندخل إلى عالم من الأحلام وأحلام اليقظة، لكنها تهدد دائمًا بالتحول إلى كابوس.

في البداية، عانت دو موريه مع مادتها، وبدأت الرواية على نحو خطأ، وصفته بأنه «إجهاض أدبي»، وهي استعارة كاشفة، بالنظر إلى مركزية الحمل والولادة في حبكة وموضوعات «ريبيكا»، وبالنظر إلى حقيقة أن دو موريه أنجبت طفلها الثاني خلال وقت عملها على الرواية، وكانت ابنة ثانية، في حين كانت تأمل في إنجاب ابن. مزقت دو موريه المسودة الأولى للكتاب (خمس عشرة ألف كلمة)، وهي المرة الأولى التي تفعل فيها هذا، وربما كانت هذه إشارة إلى الصعوبات التي استشعرتها في هذه المادة. بدأت مرة أخرى وهي لا تزال في مصر، وأكملتها أخيرًا عند عودتها إلى إنجلترا.

أرسلتها إلى ناشرها، فيكتور جولانش، في أبريل ١٩٣٨، ولم يكن يعرف سوى القليل عن الرواية في تلك المرحلة، حيث وصفتها له دو موريه لفترة وجيزة بأنها «قصة مشؤومة عن امرأة تتزوج أرملًا... قصة نفسية ومرعبة نوعًا ما». لا بد أن جولانش كان متوترًا إلى حد ما وهو ينتظر تلك المخطوطة. باعت

رواية دو موريه السابقة، «نُزل جامايكا»، نسخًا أكثر من أيّ من كتبها السابقة، مما جعلها على شفا تحقيق أفضل المبيعات، لكنها كانت كاتبة لا يمكن التنبؤ بها، ويصعب تصنيفها. وكانت اثنتان من رواياتها السابقة، «لن أعود شابًا مرة أخرى»، و«تقدم يوليوس»، قد حققتا مبيعات بقدر أقل بكثير، وكانت الصراحة الجنسية لكلا الكتابين، ولا سيما الأخير، الذي تناول سفاح القربى بين أب وابنته، قد قوبلت بالاستهجان من النقاد.

كان رد فعل جولانش على «ريبيكا» هو الارتياح والبهجة، وتوقع لها «نجاحًا باهرًا»، هو وكبير محرريه، وجميع من أرسلت إليهم نسخ سابقة. قبل النشر، كان صوت دو موريه هو الصوت المخالف الوحيد في جوقة الاستحسان هذه، إذ كانت تخشى أن روايتها «كثيية للغاية» بحيث لن تحظى بشعبية، كما كانت تعتقد أن النهاية «بائسة جدًا» بحيث لن تجذب القراء. تجاهل جولانش مثل هذا التشاؤم، وتم تسويق «ريبيكا» لباعة الكتب بوصفها «قصة حب رائعة»، مع «جو من التشويق الذي تُسج ببراعة». باختصار، رُوِّج لها وبيعت على أنها قصة حب قوطية. عند نشره، أقر بعض النقاد بالقوة الهائلة للكتاب وبقوته السردية المحكمة، لكن ربما ضللتهم طريقة تقديم الكتاب أو كانوا متحيزين بسبب جنس المؤلفة، فلم يتعمقوا فيه بشكل أكبر. قللت معظم المراجعات من شأن الرواية بذلك الاستخفاف المهين الذي لا يُستخدم إلا مع الروايات التي كتبتها النساء: كانت مجرد «رواية بسيطة». لكن القراء تجاهلوا ذلك، وحققت «ريبيكا» نجاحًا تجاريًا فوريًا وساحقًا.

صدرت ثمان وعشرون طبعة من الرواية خلال أربع سنوات في بريطانيا وحدها، كما أصبحت من أكثر الكتب مبيعًا في أمريكا، وبيعت بأعداد كبيرة في جميع أنحاء أوروبا. وما زالت تحقق مبيعات جيدة حتى يومنا هذا، ففي خلال الأعوام الأربعة والستين التالية لنشرها لأول مرة، لم تنفذ طبعاتها قط. وتضخم عدد قرائها بسبب نجاح فيلم هيتشكوك التعبيري الذي لا يُنسى، الذي حاز جائزة الأوسكار، كما ازداد عدد القراء منذ ذلك الحين بسبب عدد لا يُحصى

من الأعمال المسرحية والإذاعية والتلفزيونية المستقاة من الرواية. مثل رواية مارجريت ميتشل «ذهب مع الريح» (١٩٣٦)، وهي رواية أخرى تتعلق بالنساء والممتلكات)، حققت «ريبيكا» تحولاً نادراً في الأدب الشعبي: فقد انتقلت من كونها رواية من الروايات الأكثر مبيعاً، إلى رواية لها مريدون، إلى رواية لها مكانة ثقافية كلاسيكية. لماذا هذا؟ ما الشيء الموجود في هذه الرواية الذي لطالما خاطب القراء، إن لم يكن النقاد؟

«ريبيكا» هي قصة امرأتين ورجل ومنزل. ومن بين الأربعة، كما علق هيتشكوك ذات مرة، فإن المنزل، ماندرلي، هو صاحب الحضور المهيمن. وعلى الرغم من عدم تحديد موقعه بدقة (لم تُستخدم كلمة «كورنوال» في الرواية على الإطلاق في الواقع)، فإن التفاصيل الدقيقة للمكان تعكس بوضوح منزلاً حقيقياً، وهو مينايلي. اكتشفت دو مورييه مينايلي، المُقام على رأس بحري منعزل بالقرب من فوي، إبان شبابها عندما ذهبت للعيش في كورنوال أول مرة، وقد كتبت حكاية ساحرة عن المرة الأولى التي رآته فيها. في نهاية المطاف، بعد انقضاء الحرب، وبعد نشر «ريبيكا»، تمكنت من استئجار المنزل. عاشت هناك أكثر من عشرين عاماً، واستخدمته كموقع للعديد من الروايات الأخرى، حيث أشعل خيالها وظل مسيطراً عليها معظم حياتها. كان المُسمّى الذي أطلقتته دو مورييه على مينايلي هو «بيت الأسرار»، وعندما وضعته في قلب «ريبيكا»، خلقت كتاباً غامضاً ومتقلباً وسرياً جداً. تعتمد الحكمة على الأسرار، وبيئة الرواية هي بيئة عصر وطبقة اجتماعية نادراً ما سمحت بالتعبير عن الحقيقة، بدعوى الأخلاق الحميدة، كما أن القمع المقرون بالخوف والسرية هو أوضح الخصائص المميزة للرواية. عندما كتبت دو مورييه «ريبيكا»، كانت قد أتقنت تقنيات الرواية الشعبية، وأتت روايتها متخفية جيداً في هيئة حكاية من الحكايات الأكثر مبيعاً: قصة مثيرة عن الحب والقتل، أي «رواية إثارة» بلغة العصر الحديث. لكن عند فحص المعنى الضمني لـ «ريبيكا»، سنجد بنية مقلقة وأكثر قتامة، تشبه جزئياً قصة خيالية

لجريم، وجزئيًا حكاية رومانسية عائلية فرويدية. كما نجد أيضًا مطابقة أدبية مثيرة للاهتمام، وهي بالطبع مثال مبكر للتناص، وهذا نادر في رواية «شعبية»، ولا سيما في مثل هذه الرواية المبكرة. تعكس «ريبيكا» رواية «جين إير»، لكن الانعكاس غير كامل على نحو متعمد، مما يجبرنا على إعادة فحص افتراضاتنا حول كلتا الروائيتين، وعلى وجه الخصوص تعاملهما مع الجنون والنساء.

لم يلاحظ النقاد أيًا من جوانب «ريبيكا» هذه في وقت نشرها، ولم يهتم سوى القليل منهم منذ ذلك الحين بفحص هذه الجوانب. بدلًا من ذلك، استُخدمت موهبة شارلوت برونتي كعصا لضرب دو موريه الأثمة المتغطرة على رأسها: كانت أقل شأنًا من برونتي، فكيف تجرؤ على الاستيلاء على رواية كلاسيكية؟ تجاوز النقاد الأمر بسرعة، من دون التوقف للتفكير، وصنفوا دو موريه تحت فئة كُتَّاب «الرومانسية»، وهي فئة كانت تمقتها وتستاء منها، لكنها لم تستطع الفرار منها قَطُّ. وهكذا تم «تعريف» دو موريه ككاتبة. إن مسألة التصنيف والتعريف، والمفارقات وعدم الدقة الكامنة في هذه العملية، هي بالطبع ذات أهمية مركزية في «ريبيكا». تستمد كلتا الشخصيتين - إحداهما ميتة والأخرى على قيد الحياة - لقبهما، كما هي الحال بالنسبة إلى وضعهما، من الزوج. الزوجة الأولى، ريبيكا، مفعمة بالحيوية والانتقام، ومع أنها ماتت، فإنها غير قابلة للتدمير، واسمها حي في عنوان الكتاب. أما الزوجة الثانية، وهي المخلوق الرتيب الغامض الذي يروي هذه القصة، فتظل بلا اسم. نعلم أن اسمها «جميل وغير معتاد»، وأن والدها هو مَنْ منحها إياه. لذا فإن الهوية الأخرى الوحيدة التي تمتلكها منحها لها رجل أيضًا، فهي زوجة، وهي السيدة دي وينتر.

وكان بقاء الراوية، التي يُنظر إليها بوصفها البطلة، بلا اسم، مصدر اهتمام مستمر لقراء دو موريه. كما أثار الأمر اهتمام كُتَّاب آخرين، حيث تراسلت أجانا كريستي مع دو موريه بشأن الموضوع، وطوال حياتها أثارت الرسائل الباحثة عن تفسير انزعاج دو موريه. كان جوابها التقليدي هو أنها وجدت تلك التقنية مثيرة للاهتمام من الناحية الفنية. وهذا ليس بالسؤال التافه، لأنه يأخذنا مباشرة

إلى جوهر «ريبيكا»، وقد يكون هذا هو السبب وراء تجنب دو مورييه، وهي امرأة كتوم وفنانة متحفظة، الإجابة عنه.

تبدأ الراوية المجهولة لريبيكا قصتها بحلم، بالجملة الأولى التي صارت شهيرة: «حلمت الليلة الماضية أنني ذهبت إلى ماندرلي مرة أخرى». وقد خُصص الفصل الأول القصير بأكمله تقريبًا لذلك الحلم، واصفًا تقدمها عبر الممر الطويل المتعرج تحت ضوء القمر، نحو ماندرلي نفسه. إن صور الأشجار المتشابكة والنباتات الزاحفة التي «تزاوجت»، هي صور جنسية، كما أن الأسلوب موحٍ نوعًا ما ومنمق كأسلوب تلميذة تحاول التحدث بشاعرية وتجاهد لإثارة الإعجاب. بالمضي قُدُمًا، وبشعور من الترقب والاشمئزاز، ترى راوية الحلم في البداية أن ماندرلي سليم، لكنها تدرك خطأها بعد ذلك حينما تقترب: فهي تنظر إلى أطلال، إلى هيكل منزل كان عظيمًا يومًا ما. ومع هذا الإدراك، وهو ذو أهمية كبيرة في الرواية، تستيقظ الحالمة، وتؤكد أن ماندرلي قد دُمّر بالفعل، وأن الحلم كان حقيقة. (كان «الحلم الحقيقي» مصطلحًا اخترعه جد دو مورييه، جورج دو مورييه، مؤلف رواية «تريليبي»، وقد أثار ذلك المفهوم اهتمامها طوال حياتها. وكانت دافني على علم بفرويد ويونج، في حين لم يكن جورج كذلك).

يمكن لراوية دو مورييه أن تبدأ الآن في سرد قصتها، وهي تفعل ذلك بطريقة دائرية، حيث تبدأ بالنهاية، وهي تعيش مع زوجها ماكسيم دي ويتتر في المنفى في أوروبا لأسباب غير واضحة بعد. تبدو أنشطتهما، وهما ينتقلان من فندق إلى فندق، مثل تلك الخاصة بمغتربين مسنين، فهما يتابعان مباريات الكريكت، ويتناولان الشاي عصرًا، وتختار الزوجة المقالات الصحفية الرتيبة لقراءتها على زوجها، لأن كليهما - لأسباب غير مبررة مرة أخرى - يجدان الرتبة مطمئنة وآمنة. تصف الراوية روتينًا رتيبًا خانقًا، لكنها تفعل ذلك بعبارات متفائلة ومبتدلة بشدة. قد يكون هذا زواجًا، ولكنه زواج خالٍ من العاطفة، ويبدو أنه من دون أي علاقة جنسية.

لذلك فإن الأمر بمنزلة صدمة كبيرة للقارئ عندما يكتشف، مع عودة القصة إلى اللقاء الأول للزوجين، أن هذه الراوية شابة. والفاصل الزمني بين الحاضر والماضي الذي ستصفه الآن غير محدد، لكن من الواضح أنه لم يمضِ إلا سنوات قليلة. وهذا يجعل دي ويتتر رجلاً في الخمسين من عمره تقريباً، وزوجته التي ليس لديها أطفال ولا أصدقاء في الخامسة والعشرين تقريباً. لا تُذكر حياتهما في أوروبا مرة أخرى، لكن هذه هي «النهاية البائسة» التي أشارت إليها دو مورييه. من السهل أن ننسى، بينما تتكشف الأحداث، أن التداعيات بالنسبة إلى الزوجين دي ويتتر ستكون المنفى والملل، وارتداء قناع من الشجاعة على حياة كالموت. بعد ذلك، ستصبح حبكة «ريبيكا» مألوفة، وبها أصدقاء من «سندريلا» و«بلويرد» وكذلك «جين إير». تعمل الراوية مرافقة مقابل أجر لدى أمريكية شنيعة ومستبدة، وتقيم معها في فندق فخم في مونت كارلو، حيث تلتقي ماكسيم دي ويتتر، وهو أرمل يبلغ ضعف عمرها، ويمتلك المنزل الأسطوري، ماندرلي. تتزوجه بعد بضعة أسابيع من التعارف، ثم تعود معه إلى ماندرلي، وهناك تصير مهووسة بريبيكا، زوجته الأولى. ومن خلال تركيب صورة لريبيكا في ذهنها، تخلق وهمًا، وأيقونة للأثوثة، وتصل إلى قناعة بأن ريبيكا كانت تمتلك كل شيء تفترق هي إليه، حيث كانت المضيفة المثالية، والشريكة الجنسية المثالية، وسيدة المنزل المثالية، والزوجة المثالية. تكتشف لاحقاً أن هذه الصورة خطأ، لكن قبل أن تتمكن من فهم حقيقة حياة ريبيكا، يجب أولاً إخبارها بالحقيقة بشأن وفاتها، حيث إن ريبيكا لم تغرق في حادث يخت كما يعتقد الجميع، بل قُتلت على يد دي ويتتر، الذي كره زوجته منذ شهر العسل (أيضاً في مونت كارلو).

بعد أن تكتشف السيدة دي ويتتر الحقيقة، تتقبل من دون شك حكاية زوجها عن سابقاتها بوصفها امرأة منحلة (وربما ذات توجه جنسي مزدوج) كانت حبلى بطفل رجل آخر عندما قتلها، وسخرت منه قائلة إنها ستقدم هذا الطفل بوصفه من صلبه. واعتراف دي ويتتر هذا، وهو اعتراف ميلودرامي فارغ للغاية، يصحبه اعتراف بالحب، وهو الأول الذي أدلى به على الرغم من مرور شهور على

الزواج. كما أن هناك تلميحًا أيضًا، وهو خفي جدًا لكنه موجود، أن زواجهما قد اكتمل ولأول مرة بعد هذا الاعتراف (لاحظ الإشارات إلى الأسرة المفردة في الرواية، وإحراج البطلة عندما تكون هناك تكهنات حول ما إذا كانت حبلى، وهو أمر يحدث بشكل متكرر. وقد يفسر الحياء هذا الإحراج، لكن في رواية لدو مورييه، قد لا يكون كذلك).

من دون تردد، تقدم السيدة دي وينتر دعمها الكامل لزوجها، ويصبح شغلها الشاغل منذ ذلك الحين هو إخفاء الحقيقة وحماية زوجها. وهكذا، فإنها تصبح من الناحية القانونية شريكة في الجريمة، والأهم من ذلك هو أنها تتخذ خيارًا أخلاقيًا. هذا هو جوهر رواية دو مورييه: لقد اعترف دي وينتر في النهاية بارتكاب جريمة قتل مزدوجة، فهو يعتقد أنه لم يقتل ريبكا فحسب، بل قتل أيضًا الطفل الذي كانت تحمله، وهي جريمة شنيعة بكل المقاييس. وهنا قامت دو مورييه بمجازفة كبيرة، ولا سيما في رواية تستهدف سوقًا شعبية. فإن الكشف عمّن يبدو أنه «بطل» بوصفه قاتلاً مزدوجًا، وعلى استعداد للشهادة الزور علاوة على ذلك كي ينقذ نفسه، كان من الممكن أن يصدّم وينفر آلاف القراء. وعندما حوّل هيتشكوك الرواية إلى فيلم بعد عامين، ابتعد تمامًا عن هذا السيناريو الذي علم أنه لن يكون مقبولاً. في روايته، لا توجد جريمة قتل، وجريمة ماكسيم في أسوأ الأحوال هي القتل غير العمد، حيث تسقط ريبكا في أثناء الشجار وتصاب بجرح مميت على نحو ملائم.

كيف تسد دو مورييه الثغرة فيما يتعلق بهذه المسألة؟ إنها تفعل ذلك ببراعة هائلة، حيث إننا كقراء صرنا منغمسين للغاية في مآزق السيدة دي وينتر، ومتعاطفين جدًا معها، إلى درجة أننا ننضم إليها. ولأنها تحب زوجها المذنب، ويبدو أنه يحبها، نبدأ نحن أيضًا في الأمل في أن يفلت من العدالة. وإذا كانت السيدة دي وينتر مذنبه، فكذلك يصبح القارئ الذي يؤيد أفعالها، وتظل تلك المسألة مثل قبلة موقوتة دفيئة تحت الفصول الباقية من الكتاب.

يدور القسم الأخير من الرواية، الذي يتميز ببراعة الحبكة، حول محاولات

دي وينتر لقمع الحقيقة، والهروب من الجلال، بمساعدة زوجته المخلصة. وهذا هو ما يفعله، لكن ليس من دون مقابل. عند عودتهما من لندن إلى ماندرلي، وفي حوزتهما معلومات تعطي ريبيكا دافعاً إلى الانتحار ومن ثم تنقذ دي وينتر، يشعر كلا الزوجين بعدم الارتياح. يشعر دي وينتر بكارثة وشيكة، وفي الجزء الخلفي من السيارة، حيث كانت زوجته نائمة، تحلم أنها هي وريبيكا صارتا شخصاً واحداً، وأن شعريهما الطويل والأسود، كما كان شعر ريبيكا، يلتفان حول رقبة دي وينتر مثل حبل المشنقة.

تحلم السيدة دي وينتر بشكل واضح مرتين في الرواية، مرة في البداية ومرة في النهاية، وفي كل مرة، ينقل إليها الحلم حقيقة لا يتمكن عقلها الواعي من تقبلها، أو يرفض تقبلها، بل تفضّل الرؤيا السطحية والمليئة بالكليشيات التي تستدعيها عندما تستغرق في أحلام اليقظة، وهي تغرق في أحلام اليقظة بلا انقطاع. لكنها ترفض على الفور الرؤيا التي شاهدها للتو، وقد اتّحدت هي وريبيكا، واندمجت الزوجتان الأولى والثانية في صورة رمزية واحدة خطيرة. يوقف زوجها السيارة على قمة تل بالقرب من منزلهما، حيث أضاء سماء الليل من الجانب الآخر وهج أحمر. (يرتبط اللون الأحمر بريبيكا طوال الرواية). تفترض زوجته أن هذا هو ضوء الفجر، لكن دي وينتر يفهم في الحال: إن ماندرلي، منزل أسلافه، يحترق. ظهرت صورة هذا الدمار سابقاً في الحلم الذي افتتحت به الرواية، والعامل الفعلي المتسبب في الدمار (ربما السيدة دانفرز) أقل أهمية بكثير من العامل الشعري، وهو ريبيكا. كملاك منتقم من نوع ما، حشدت ريبيكا عناصر الطبيعة، فصعدت من البحر لتنتقم عن طريق النار، وهكذا، وليس للمرة الأولى، تردد أصداء سلفتها الأدبية، تلك المجنونة المقيمة في غرفة العلية، الزوجة الأولى للسيد روتشستر. بهذه الطريقة، وبشكل مفاجئ، تنتهي الرواية، بعد أن اكتملت الدائرة وعادت إلى نقطة البداية. وهي ميلودرامية في بعض الأجزاء بالطبع (حتى «جين إير» لا يمكنها الإفلات تماماً من هذا النقد)، لكن من الجدير بالملاحظة، بالنظر إلى الحبكة، مدى اتساق ومهارة دو مورييه في تفادي الميلودراما. ويمكن تلخيص

ما أثار اهتمامها بوصفها روائية من خلال التمييز الذي رسمته شارلوت برونتي بين كتابة ما هو «واقعي»، وما هو «صادق». هناك واقعية في «ريبيكا»، فعلى سبيل المثال التزمت الرواية بدقة بالأعراف وأسلوب التفاخر وأنماط الكلام للفئة والعصر اللذين تصفهما دو مورييه. ومع ذلك، فإن العناصر التي تمنح «ريبيكا» قوتها لا تدين بشيء للواقعية، بل تكمن قوتها في صورها المجازية وتناسقها وشاعريتها، وهذه الشاعرية أنثوية بدرجة كبيرة. وقد تكون حبكة «ريبيكا» غير مرجحة كأنها حبكة إحدى القصص الخيالية، لكن هذا لا يغير من الصدى الأسطوري والحقيقة النفسية للرواية.

إحدى الطرق الممكنة لقراءة «ريبيكا» هي قراءتها بوصفها قصة حب مثقلة بالتقاليد، حيث تنتصر المرأة الطيبة على السيئة من خلال الفوز بحب الرجل، وهذه هي نسخة الحكاية التي تريدنا الرواية مجهولة الاسم أن نتقبلها، وهي بلا شك القراءة التي جعلت «ريبيكا» من أكثر الكتب مبيعًا. أما النهج الآخر فهو رؤية الروابط الخيالية للرواية، ليس فقط مع أعمال الروائيات السابقات، مثل شارلوت برونتي، ولكن أيضًا مع الأعمال اللاحقة، ولا سيما قصائد سيلفيا بلاث المتأخرة. تُروى «ريبيكا» على لسان امرأة مازوخية تسعى بيأس لنيل الشعور بالتحقق الذي يمنحها لها حب رجل، امرأة تبحث عن أب مستبد بديل، أو كما عبّرت بلاث عن ذلك، «رجل يرتدي الأسود، ذو مظهر استبدادي». وينطوي بحثها عن هذا الرجل على محو الذات والاستسلام، كما هي الحال مع أي امرأة «تعشق رجلًا فاشيًا». تعثر على النموذج المثالي الذي تريده في دي وينتر، الذي يشير اسمه الأخير (الذي يعني الشتاء باللغة الإنجليزية) إلى الجذب، والبرودة، وموسم غير مثمر، أما اسمه الأول، ماكسيم، كما تختصره دائمًا، فهو يعني قواعد السلوك، كما أنه أيضًا اسم سلاح، مدفع رشاش.

ليس من المستغرب أن هذه المرأة تنظر إلى ريبيكا على أنها منافسة، لكن ما ترفض إدراكه هو أن ريبيكا هي أيضًا توأمها، وشخصيتها البديلة في نهاية المطاف. لقد عانت الزوجتان في الواقع المصير نفسه، حيث اصطُحبت كلتاها عروسين

إلى ماندري، الذي هو منطقة ذكورية كما يدل الجزء الأول من اسمه، الذي يعني رجلاً باللغة الإنجليزية (مثلما هي الحال مع ميناييلي). هُمشت كلتاهما داخل حدود المنزل: ريبكا في الجناح الغربي المطل على رمزها، البحر، والزوجة الثانية في الجناح الشرقي، المطل على حدود حديقة الورد. لكن الاختلاف بينهما يكمن في ردود أفعالهما: تستسلم الزوجة الثانية بسرور، وتسمح بتحديد هويتها من قبل زوجها والمواقف الطبقية وأنظمة القيم التي يعتنقها، في حين أن ريبكا تجرأت على أن تكون زوجة غير عفيفة، وكسرت «قواعد السلوك» التي يعيش بها ماكسيم. وكانت خطيئتها الكبرى هي تهديد نظام وراثته الابن الأكبر، وهذه الخطيئة، التي تقوض الصرح الأبوي بأكمله المتمثل في ماندري، لا يمكن أن تُغتفر، وستموت ريبكا من أجلها.

إن رد فعل السيدة دي وينتر على تمرد ريبكا متناقض جداً، وهذا التناقض هو الذي يغذي الرواية. رد فعلها الواضح هو رد فعل امرأة تقليدية في عصرها: الكراهية. ومع ذلك، فهناك مؤشرات في جميع أنحاء النص على أن السيدة دي وينتر الثانية ترغب في محاكاة ريبكا، بل ترغب حتى في أن تصبح هي نفسها، ويستمر ذلك، حتى عندما تعلم أن ريبكا قد انتهكت كل القواعد التي يحددها الرجل فيما يتعلق بسلوك المرأة. وعلى الرغم من أن ريبكا ماتت، ولم تظهر قط، وقد تم إسكاتهما من الناحية النظرية إلى الأبد، فإن هوس السيدة دي وينتر بها يضمن أن ريبكا ستنتصر على إخفاء هويتها وطمسها. وحتى رصاصة في القلب ودفنها في أعماق البحر لا يمكنهما إطفاء قوتها الشبيهة بقوى مصاصي الدماء. مرة أخرى، يتذكر المرء تجسيد بلاث للقوة الأنثوية اللاأخلاقية والفوضوية: «أُتسامى بخصلات شعري الحمراء / وأكل الرجال مثل الهواء». ضمن أعراف القصة، تنجح خليفة ريبكا الباهتة في فعل ما لم تجرؤ على فعله في الحياة: الاحتفاء بسلفتها.

وهي تفعل ذلك بدهاء وبقوة (دو مورييه بالطبع هي التي تحرك الخيوط هنا). بعد فترة طويلة من إغلاق الكتاب، أي شخصية يتردد صداها في الذاكرة؟ ريبكا.

وإلى أي من هاتين المرأتين ينجذب القراء، وأي من هذين القطبين المتعاكسين يمتلك القدرة على السحر والجادبية؟ سأقول، مرة أخرى، ريببكا، ولا سيما للقراء المعاصرين. لكنني أعتقد أن هذا كان صحيحًا على الأرجح بالنسبة إلى القراء في عام ١٩٣٨ أيضًا: بفضل دهاء البنية السردية لدو موريه، تمكنوا من إدانة ريببكا (امرأة منحلة، ما الخيار الآخر المتاح لديهم؟)، لكنهم استجابوا سرًا للغضب والتمرد والانتقام الذي تجسده.

هناك تطور أخير لحبكة «ريببكا» وهو تطور خفي، حيث إن ماكسيم دي ويتتر لا يقتل زوجة واحدة بل اثنتين. فهو يقتل الأولى بمسدس، والثانية بأساليب أبطأ وأكثر غدرًا. مصير السيدة دي ويتتر الثانية، الذي تعد نفسها من أجله طوال الرواية، هو أن تذوب وتتلاشى في زوجها. عندما تتبعه في ذلك المنفى الجهنمي الذي لمحنه في الفصول الافتتاحية، تعود مرة أخرى إلى ما كانت عليه عندما قابلته أول مرة: رفيقة مدفوعة الأجر لمستبد صغير. في مقابل مسامرة أهوائه وإطاعة كل أوامره، فإن أجرها ليس المال، بل «الحب»، والثمن هو هويتها. وهذه هي السخرية المريرة الأخيرة لهذه الرواية، وآخر انعكاسات الأوضاع العديدة بها. إن القصة التي تحاول ظاهريًا دفن ريببكا، تعيد إحياءها في الواقع وتجعلها لا تُنسى، بينما تتلاشى عن أنظارنا السيدة دي ويتتر، الراوية الشاحبة والشبحية والخجول، وتصير هي المرأة المحتضرة في هذه الرواية. وبالتبعية - وهذه جرأة من جانب دو موريه - تموت معها معتقداتها المطيعة، وخضوعها المطلق للذكر.

تتكرر موضوعات «ريببكا» - الهوية، والازدواج، والعلاقة الحميمة بين الحب والقتل - مرارًا وتكرارًا في أعمال دو موريه. وأعتقد أنه مما لا شك فيه أن ظروف حياتها كانت مصدر العديد من هذه الموضوعات. وربما لم يكن من قبيل المصادفة أيضًا أنها اختارت في كثير من الأحيان استكشاف هذه الموضوعات ضمن حدود قصة عن الحب والزواج. لطالما كانت هناك ازدواجية في حياتها، وقد ضمنت ازدواجيتها الجنسية ذلك، وتعمق هذا الشعور بالهوية المزدوجة بعد زواجها، وغذى كل روايتها.

وُلدت دو مورييه في عائلة ثرية تتمتع بامتيازات، لكنها غير تقليدية وبوهمية. وقد اشتهر والدها، جيرالد، بعلاقاته الغرامية، وبعودته إلى زوجته بعدها. نشأت هي وشقيقاتها محاطات بالكتب والممثلين والفنانين الذين كانوا أصدقاء والدهن المقربين. وقبل بلوغ دو مورييه الحادية والعشرين من عمرها، أقامت العديد من العلاقات مع الرجال، وواحدة على الأقل مع امرأة. ومع ذلك، اختارت الزواج بجندي محترف في واحدة من أكثر كتائب الجيش نخبة في إنجلترا، وهو رجل كان تقليدياً حتى النخاع، متمسكاً بالملابس والسلوك اللاتقنين، وقد صُدم بشدة عندما اقترحت عليه النوم معاً قبل زواجهما. وبعد مسيرة عسكرية طويلة ومتميزة، أصبح «بوي» براوننج، كما كان يُلقب، أحد رجال الحاشية، وقضى معظم وقته في لندن، بينما بقيت زوجته في مينابيلي. لا يمكن أن يكون هناك شك في حبهما وولائهما إلى بعضهما، حيث ظلت دو مورييه تدافع بشدة عن زوجها بعد فترة طويلة من وفاته. لكن الاختلافات بينهما كانت ملحوظة، وربما كانت توقعاتهما للزواج مختلفة للغاية. في النهاية تسبب ذلك في المشكلات، ووقعت خيانات من كلا الجانبين، وفي وقت لاحق في الحياة، بدأ براوننج يفرط في تناول الشراب. في هذه الأثناء، كانت لدو مورييه هويتان: كانت زوجة لفريق في الجيش، ولاحقاً الليدي براوننج، كما كانت أيضاً كاتبة مشهورة عالمياً، وأخيراً مُنحت لقب «السيدة» من منظومة الإمبراطورية البريطانية. ويتضح في رواياتها أنها وجدت صعوبة في التوفيق بين مطالب الشخصيتين، ولا سيما في «ريبيكا»، ولكن هذا يتضح أيضاً في قصصها القصيرة التي غالباً ما تكون مريرة وصادمة.

طوال حياتها، ظلت ممزقة بين الحاجة إلى أن تكون زوجة وضرورة أن تكون كاتبة، ويبدو أنها أعدت هذه الأدوار غير قابلة للتوفيق. تقبلت إلى حد ما تفسير المجتمع (وتفسير زوجها) للصورة الأنثوية المثالية، ومع ذلك فقد تمردت عليها ورفضتها، وصارت تعتبر نفسها كائنًا «هجينًا» و«غير طبيعي». بالنسبة إليها، كان كل من سحاقيتها وفنها شكلاً من أشكال الانحراف، نشأ كلاهما حسب اعتقادها

من قوة داخلها أشارت إليها باسم «الصبي الكامن داخل الصندوق». وقد حاربت هذا الشيطان في بعض الأحيان، وتباهت به في أحيان أخرى.

بالنظر إلى هذه المعتقدات، يصبح من الأسهل فهم الثنائية والتشويش بين الجنسين والانقسام الواضح جدًا في «ريبيكا». كانت دو مورييه تتصارع مع شياطينها هنا، وعندما منحت جوانب من نفسها للسيدتين اللتين تشكلان ركائز روايتها، دخلت في منطقة من الصراع النفسي الشخصي العميق. منحت السيدة دي وينتر خجلها وخرجها الاجتماعي، في حين منحت ريبيكا استقلاليتها، وحبها للبحر، وخبرتها كبحارة، وجراتها الجنسية، وحتى ازدواجيتها الجنسية (التي ألمحت إليها بقوة في الرواية، وإن لم يتم توضيحها). والأمر متروك للقراء كي يقرروا أين يكمن تعاطفهم، وتعاطف دو مورييه.

أود القول إن تعاطف دو مورييه الغريزي يكمن في نهاية المطاف مع ريبيكا، مع الصوت الغاضب للمعارضة الأنثوية. لكن من الممكن الجدال لصالح الرأي المعاكس، وهذا هو أحد العوامل التي تجعل «ريبيكا» رواية مجزية عند إعادة قراءتها وإعادة فحصها. هناك شيء واحد مؤكد: «ريبيكا» عمل شديد التمرد، وعمل يقوض التصنيف نفسه الذي أدرجه النقاد تحته. بعيدًا عن كونها قصة حب «رائعة»، تثير «ريبيكا» أسئلة حول إذعان المرأة للقيم الذكورية التي هي وثيقة الصلة بيومنا هذا مثلما كانت قبل أربعة وستين عامًا. ربما نكون قد مضينا قدمًا بعيدًا عن خضوع السيدة دي وينتر، لكن تحررنا لم يكتمل إلا بالكاد. إن إلقاء نظرة على قوائم الكتب الحالية الأكثر مبيعًا سيؤكد فحسب أن التلميح البارع الكامن وراء «ريبيكا» لا يزال صحيحًا بعد أربعة وستين عامًا: في الحياة وفي المكتبات، تستمر النساء في شراء الرومانسية.

سالي بومان

لندن ٢٠٠٢

مكتبة

t.me/soramnqraa

المؤلفة

وُلِدَت دافني دو مورييه (١٩٠٧-١٩٨٩) في لندن، وهي ابنة الممثل والمدير المسرحي الشهير السير جيرالد دو مورييه، وحفيدة المؤلف والفنان جورج دو مورييه. تَلَقَّت تعليمها في المنزل مع أخواتها، ولاحقًا في باريس، وبدأت كتابة القصص القصيرة والمقالات عام ١٩٢٨، وفي عام ١٩٣١ نُشرت روايتها الأولى، «الروح المُحبة». لكن روايتها «ريبيكا» هي التي جعلتها واحدة من أشهر مؤلفات عصرها. إلى جانب الروايات، نشرت دو مورييه القصص القصيرة والمسرحيات والسير الذاتية. وتحوّلت العديد من أعمالها إلى أفلام، بما في ذلك «ريبيكا»، و«نُزُل جامايكا»، و«ابنة عمي ريتشيل»، و«لا تنظر الآن»، و«الطيور». عاشت معظم حياتها في كورنوال، حيث تدور أحداث العديد من كتبها، وفي عام ١٩٦٩ مُنحت لقب «السيدة» من منظومة الإمبراطورية البريطانية.

المتجمة

إيناس التركي مترجمة مصرية. تخرجت في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بكلية الآداب، جامعة عين شمس.

ترجمت لدار الكرمة كتاب «عندما تحب النساء أكثر مما ينبغي: أن تعيش في انتظار أن يتغير» لروبين نورود، والروايات: «خلف هذه الأبواب» لروث وير، و«جمعية جيرنزي للأدب وفطيرة قشر البطاطس» لماري آن شيفر وآني باروز، و«المكتبة المتنقلة» لكريستوفر مورلي، و«أبريل الساحر» لإليزابيث فون أرني، و«بدافع القتل» لأنتوني هورويتز، و«لا تكذب أبدًا» لفريدا مكفادن.

«ممتازة» — ستيفن كينج

«واحدة من أكثر الروايات تأثيرًا في القرن العشرين» — سارة واترز

في مونت كارلو، تلتقي بطلتنا الشابة التي تعمل مرافقة لسيدة ثرية بالأرمل المحطم ماكسيم دي وينتر، فيسحرها بشخصيته وثرائه، ويعرض عليها الزواج. ولكن عندما يصلان إلى قصره الريفي المنعزل في بريطانيا، تجد ماكس يتحول إلى رجل مختلف، وتجد شبح ذكرى زوجته المتوفاة ربيكا يسيطر على كل زاوية وكل غرفة، بل على حياتها بأكملها، وتشعر برعب يحتم عليها رويدًا رويدًا ويهدد زواجهما... فهل ستستسلم؟

إنها قصة مثيرة عن شابة تدافع عن حبها، وتصارع من أجل العثور على هويتها. لا تزال هذه الرواية الشهيرة واحدة من أكثر الكتب مبيعًا، ولا تزال تُطبع باستمرار منذ نشرها عام ١٩٣٨، وقد فازت بجائزة أنتوني لأفضل رواية في القرن العشرين، وما زالت تُقتبس دوريًا للتلفزيون والراديو والمسرح والسينما، ومنها فيلم ألفريد هيتشكوك الشهير الذي فاز بجائزة الأوسكار.



ISBN 978-977-9603-17-9



9 789779 603179 >

مكتبة
t.me/soramnqraa